

جامعة طنطا
كلية الآداب
قسم اللغة العربية

منهج الراغب الأصفهاني في التفسير

مع تحقيق مقدمته وتفسيره لسورتي الفاتحة والبقرة

رسالة مقدمة لنيل درجة

(الدكتوراه)

في الآداب

﴿ إعداد ﴾

الباحث/ محمد عبد العزيز بسيوني عواد

﴿ إشراف ﴾

الأستاذ الدكتور/ مصطفى الصاوي الجويني
أستاذ الدراسات الإسلامية بكلية الآداب
جامعة الإسكندرية

الأستاذ الدكتور/ محمد عبد المنعم خاطر
أستاذ الأدب العربي المساعد بكلية الآداب
جامعة طنطا

د. م ع الخاطر

﴿ القسم الثاني ﴾

تحقيق مقدمة الراغب، وتفسيره لسورتي الفاتحة والبقرة

١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م



(سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا

إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ)

صَدَقَ اللهُ الْعَظِيمُ

الآية (٣٢) سُورَةُ الْبَقَرَةِ

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي
أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ
صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ
الصَّالِحِينَ﴾ .

صدق الله العظيم

الآية (١٩) سورة / النمل .

تفسير الراغب ونسبته

﴿ تَفْسِيرُ الرَّاغِبِ وَنِسْبَتُهُ ﴾

جاءنا تفسير الراغب في عنواناتٍ شتى ، فهو : تفسير القرآن العظيم ، وجامع التفسير ، وجامع التفاسير ، وتفسير الراغب .

فهذه أربعة عنوانات نفصلها فيما يلي :

١. فقد سماه صاحب أسماء الكتب المتمم لكشف الظنون بتفسير القرآن العظيم[١].

٢. جامع التفاسير أو جامع التفسير :

وقد قال فيه السيوطي في (بغية الوعاة) : هو تفسير معتبر أورد في أوله مقدمات نافعة في التفسير وطرزه – أسلوبه – أنه أورد جملا من الآيات ، ثم فسرها تفسيرا مشبعا ، وهو أحد مآخذ أنوارالتنزيل للبيضاوي [٢] . كما ذكره السيوطي أيضا في (الإتقان في علوم القرآن) عدة مرات ، وعده من تفاسير غير المحدثين. [٣] .

وقال الزركلي : (جامع التفاسير، كبير ، طبعت مقدمته ، أخذ عنه البيضاوي في تفسيره). [٤] .

وكذلك سماه صاحب أعيان الشيعة ، فقال جامع التفاسير الذي يستمد منه البيضاوي في تفسيره كثيرا ، طبع الجزء الأول منه [٥]

---

١. أسماء الكتب المتمم لكشف الظنون عبد اللطيف بن محمد رياض زاده - تحقيق:محمد التونجي - القاهرة مكتبة الخانجي ط١ - ١٩٧٧م.

٢. بغية الوعاة السيوطي ج٢ ط١ تحقيق:محمد أبو الفضل إبراهيم القاهرة .

٣. الإتقان في علوم القران ج١ ص ٧٢ .

٤. الأعلام الزركلي ج٢ ص٢٠٩ ط٣ ١٩٥٤م.

٥. أعيان الشيعة العاملي ج٢٧ ص ٢٢٣ ط١ دمشق ١٩٤٨م.

٣. التفسير الكبير :

وقد قال فيه صاحب البلغة في تاريخ أئمة اللغة : له التفسير الكبير في عشرة أسفار ، غاية في التحقيق [١] .

وقال صاحب معجم المطبوعات العربية والمعربة :

(له كتاب في التفسير ، ومنه أخذ الإمام البيضاوي غالب تحقيقاته) [٢] .

وسماه صاحب كشف الظنون تفسير الراغب [٣] ، وقال : (هو تفسير أوله : الحمد لله على آلائه ......)،وهي البداية التي رأيناها في مخطوطات تفسير الراغب ، ويبدوا أن حاجي خليفة قد اطلع على تفسير الراغب كله ، ولو وجد فيه نقصاً لذكره .

وذكره كارل بركلمان، ونقلت عنه دائرة المعارف الإسلامية [٤] .

غير أنهم رجحوا أن تفسيره المفقود الآن (كذا) هو الرسالة المعنونة بالرسالة المنبهة على فوائد القرآن.

كما أن الراغب قد ذكر تفسيره بنصه (جامع التفسير) في كتابه : (درة التأويل وغرة التنزيل) ، أو (أسرار التأويل وغرة التنزيل) [٥] ، وقد أشار فيها إلى ما فسره في سورة (الكافرون) ، وهي في الجزء الثلاثين من القرآن الكريم،مما يدل ويؤكد على أن للراغب تفسيرا كاملا للقرآن الكريم .

---

١. البلغة في تاريخ أئمة اللغة الفيروز ابادي تحقيق : محمد المصري ص ٦٩ دمشق ١٣٩٢ هـ
٢. معجم المطبوعات العربية والمعربة يوسف إليان سركيس ج١ ص ٩٢١ مطبعة يوسف إليان سركيس ط١٣٤٦هـ ١٩٢٨م القاهرة .
٣. كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون حاجي خليفة ج١ ص٣٠٦ ط طهران : المطبعة الإسلامية ١٩٤٧م.
٤. تاريخ الأدب العربي كارل بركلمان ج٣ ص٥٠٥ ٥٠٦ دائرة المعارف الإسلامية مج ٩.
٥. أسرار التأويل وغرة التنزيل مخطوطة رقم ٧ تفسير معهد المخطوطات العربية القاهرة .

وذكر تفسير الراغب أيضاً بدر الدين الزركشي في كتابه:
(البرهان في علوم القرآن) [١] أكثر من عشر مرات .
أما صاحب روضات الجنات،فقد ذكر تفسير الراغب ، وعده في تفسير المركبات ، ولكنه قال:إنه لم يره[٢] .

هذا ولقد أفاد من تفسير الراغب كل من الإمام البيضاوي والإمام الرازي والإمام بدر الدين الزركشي والإمام السيوطي ، والإمام أبي حيان الأندلسي الغرناطي في تفسيره البحر المحيط وكذلك الإمام الآلوسي ، في تفسيره روح المعاني والسمين الحلبي،وغيرهم من أئمة التفسير المشهود لهم .

كل هذا يدل على شهرة وذيوع تفسير الراغب،واهتمام العلماء به،وأخذهم عنه، وصحة نسبة التفسير للراغب.وقد أثبتت هذه النسبة – جل الكتب التي ترجمت للراغب،كما أن المادة الواردة في ثنايا ما عثرنا عليه من تفسيره تؤكد ثبوت هذه النسبة له ، كما كان لوضوح اسم كتاب تفسير الراغب على أغلفة نسخ المخطوطات التي عثرنا عليها تأكيدٌ لجميع هذه الشواهد .

ومن أكبر الأدلة التي نستند إليها في ذلك هو ما جاء بخط الناسخ في صفحة العنوان من نسبة التفسير إلى الراغب بعبارة صحيحة لا يرقى إليها أدنى شك .
فقد جاء على غلاف النسخة المخطوطة بمكتبة فيض الله ما نصه :
(تفسير القرآن العظيم للعالم العلامة الراغب الأصفهاني) . وعلى نسخة (دار الكتب المصرية).

---

١. البرهان في علوم القرآن الزركشي ج١ - ص ٢٩٠ ، ٢٩١ - تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ط الحلبي .
٢. روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات - الخوانساري ج ٣ - ص١٩٧.

التي أشرنا إليها في التوصيف لنسخ مقدمة تفسير العلامة الشهير أبي القاسم الراغب الأصفهاني – رحمه الله –

يضاف إلى ما تقدم بعض القرائن التي وقفت عليها أثناء تحقيقي للمقدمة وتفسير سورتي الفاتحة والبقرة وشواهدها التي جاءت جميعها مؤكدة لتوثيق نسبة الكتاب إلى الراغب ، فقد كان للصلة الوثيقة بين كتاب (مفردات ألفاظ القرآن) للراغب وتفسيره أعظم الأثر في تأكيد نسبة التفسير للراغب ، حيث تشابهت قضايا التفسير ومسائله إلى حد كبير،وتطابقت مع ما ورد في ثنايا كتابه(مفردات ألفاظ القرآن) ، وكتبه الأخرى مثل كتابه:(الذريعة إلى مكارم الشريعة) ، وكتابه: (تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين) ، وكتابه: (المحاضرات)،وغير ذلك من مخطوطات الراغب .

ولهذا فإنني أتفق مع ما ذهب إليه الدكتور / عمر الساريسي من أن تفسير الراغب لا شك في وجوده كاملاً في إحدى المكتبات،وعسى الأيام أن تسعف للكشف عن هذا الكنز،ليزهوا هذا المفسر بجوهره الأصلي المدفون تحت ركام التراب والنسيان.

مصادر التحقيق

مصادر التحقيق

يعد تفسير الراغب – بحق – موسوعة فى تفسير القرآن الكريم ، فقد تناول فيه صاحبه كل آية من القرآن الكريم ، مبيناً ما يمكن أن يصل إليه الفهم فيها من معان وأحكام ، وما ورد للعلماء فيها وفى ألفاظها من الأقوال كل فى اختصاصه .

ومن هنا وجدنا الراغب الأصفهانى قد طوف بالتفاسير والكتب المختلفة التى استطاع الإفادة منها فى تفسيره ، ووفى كل آية حقها حسب منهجه وطريقته . ولذا وجب على الباحث أن يطوف بمصادر عدة لتساعده فى التحقيق .

ولعل ذلك مما دفع إلى النظر فى التفاسير ، وكتب علوم القرآن ، وكتب أحكام القرآن ، وكتب الإعراب ، حيث إن الإعراب فرع المعنى كما يقول النحاة . ولذا اقتضت الضرورة أن أرجع إلى كتب إعراب القرآن التى استعان بها الراغب ، ولكى تعينه على إعراب آيات القرآن ، وبالتالى على توضيح معانيها ، ثم عرجت على كتب القراءات القرآنية التى أفاد الراغب منها فى توضيح القراءات وتوجيهها .

ولما كان الحديث النبوى الشريف بيانا للقرآن الكريم ، يوضح مبهمه ، ويفصل مجمله ، ويخصص عامه ، ويقيد مطلقه ، فقد لجأت إلى كتب الحديث المختلفة كالصحاح والسنن والمسانيد التى نهل منها الراغب فى تفسيره ، وذلك لكى أوثق تلك الأحاديث التى استعان بها على تفسير الآيات وتوضيح ما ترمى إليه .

هذا ولما كان تفسير الراغب قد حفل بآرائه الفقهية المختلفة ، اقتضت الدراسة أن أرجع إلى كتب الفقه الشافعى والمالكى وكتب الأحكام لاسيما وأن الراغب لم يكن من اولئك الفقهاء المقلدين ، بل كان مجتهداً فى تحرى الحق واتباعه والرد على أصحاب المذاهب المختلفة فى العقيدة . مما اقتضى ضرورة الرجوع كذلك إلى كتب العقيدة والتوحيد .

وأما فى المجال اللغوى ، فقد رجعت إلى كتب اللغة التى افاد منها الراغب . كما رجعت الى كتب الأدب ودواوين الشعر التى نقل عنها الراغب وكذلك كتب التاريخ والسير وغيرها ، كما رجعت إلى عدة مصادر مختلفة فى دراسة وترجمة الأعلام الواردة اسماؤهم فى متن التفسير وذلك لمعرفة مراتبهم وتوثيقها .

وقد اقتضت الدراسة أن ارجع فى مجال التفسير وتوثيقه الى كتب التفسير المختلفة ، ومن أهمها :

١ -جامع البيان عن تأويل آى القرآن - لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى

٢ -الجامع بأحكام القرآن - لأبى عبدالله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى .

٣ - البحر المحيط - لمحمد بن يوسف الشهير بأبى حيان الأندلسى الغرناطى .

٤ -تفسير القرآن الكريم - للحافظ أبى الفداء إسماعيل بن كثير .

٥ -الدر المنثور فى التفسير بالمأثور - للحافظ جلال الدين السيوطى .

٦ -تفسير مفاتيح الغيب - للفخر الرازى .

٧ -تفسير الكشاف - للزمخشرى .

٨ -تفسير معالم التنزيل - للبغوى .

٩ -تفسير أنوار التنزيل وأسرار التأويل - للبيضاوى .

١٠ - تفسير روح المعانى - للآلوسى .

١١ - تفسير روح البيان - للبروسوى .

وفى كتب علوم القرآن رجعت إلى كثير من المؤلفات التى تعنى بهذا الجانب ، وفى مقدمتها

١ -مجاز القرآن -لأبى عبيدة .

٢ -معانى القرآن - للفراء .

٣ -معانى القرآن - للأخفش .

٤ -معانى القرآن - للكسائى .

وفى مجال القراءات القرآنية عولت على المصادر المتصلة بهذا المجال ، ومن أهمها :

١ -كتاب الحجة فى القراءات السبع - لأبى على الفارسى .

٢ -المحتسب فى تبين القراءات والإيضاح عنها - لأبى عثمان بن جنى .

٣ -معجم القراءات القرآنية - إعداد د. عبدالعال سالم مكرم وآخرين .

ولما كتب الحديث الشريف التى استعنت بها فى توثيق وتخريج الاحاديث النبوية الشريفة التى أوردها الراغب فى تفسيره ، فهى كثيرة ومتنوعة ويأتى فى مقدمتها :

١ -صحيح البخارى - لأبى عبدالله محمد بن إسماعيل البخارى .

٢ -صحيح مسلم بشرح النووى - للإمام مسلم بن الحجاج القشيرى النيسابورى .

٣ -الموطأ - للإمام مالك بن انس الأصبحى .

٤ -سنن النسائى - لأبى عبدالرحمن أحمد بن شعيب النسائى .

٥ -المسند - للإمام أحمد بن حنبل .

٦-فتح البارى بشرح صحيح البخارى - لابن حجر العسقلانى.

وأما بالنسبة لكتب اللغة والإعراب فقد استعنت بأمهات الكتب التى تدور فى هـذا الجـانب ، وفى طليعتها :

١ - الكتاب لسيبويه أبى بشر بن عمرو بن عثمان بن قنبر .
٢ - المقتضب - لأبى العباس بن محمد بن يزيد المبرد .
٣ - إعراب القرآن - لأبى جعفر النحاس .
٤ - المجمل فى اللغة - لابن فارس .
٥ -معانى القرآن - للفراء .
٦ -العين - للخليل .
٧ -معانى القرآن - للزجاج .

وفى مجال الشعر وجدت أن الراغب قد استعان بالشعر فـى تفسـير القضايـا النحويـة و الصرفية ، وتوضيح قضايا المعانى ، كما وجدته استعان بكـلام العـرب فـى أمثالـهم وحكمـهم ، وبتعبيرات النحاة ونماذجها .

والراغب قد انتزع شواهده الشعرية فى تفسيره من شعر الجاهليين ومنبع لهم إلـى نهايـة عصر الاحتجاج الشعرية ، ثم طمح إلى ما بعد هذا العصر فأخذ مـن شـعر شـعراءه ، ولا غـرو ! فالراغب فى هذا أدرك أن الشعر متعة الأديب ، وذوق البلاغى ، وحجة المفسر ، وسند الأصولـى ، ودليل الفقيه ، وشاهد النحوى ، ووثيقة المؤرخ ، ثم هو من قبل ومن بعد تجربة التحكيم ، ولذا فقـد استودعه العربى أسرار حياته ، واستراح إليه ، فأفضى إليه بمواجعه ، وقيد به المآثر ، وحفظ بـه الأنساب ، وذكر به الأيام ، واستنهض به المهم ، لذا وجدنا الراغب يستعين بهذه الشواهد الشـعرية ، فجاء تفسيره حافلاً بها مما اقتضى بالباحث أن يرجع إلى دواوين الشعراء فـى عصـور الشـعر الأولى ، ففى العصر الجاهلى ، وعصر صدر الإسلام رجعت إلى بعض الدواوين من أهمها :

١ -ديوان الأعشى .
٢ -ديوان امرىء القيس.
٣ -ديوان أبى الأسود الدؤلى .
٤ -ديوان أمية ابن أبى الصلت .
٥ -ديوان حسان بن ثابت .
٦ -ديوان الحطيئة .

٧-ديوان طرفة بن العبد .

٨-ديوان لبيد بن ربيعة .

٩-ديوان النابغة الذبيانى .

١٠- ديوان تأبط شراً

١١- ديوان كعب بن زهير .

وفى العصر الأموى ، رجعت إلى دواوين كبار الشعراء فى هذا العصر ، ومن أهمها :

١-ديوان الأخطل .

٢-ديوان جرير .

٣-ديوان الفرزدق.

٤-ديوان ذى الرمة .

٥-ديوان ديك الجن .

٦-ديوان رؤبة بن العجاج .

٧-ديوان عمر بن أبى ربيعة .

٨-ديوان عدى بن زيد .

٩-ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات .

إضافة إلى كل من :

١-ديوان أبى العتاهية .

٢-ديوان أبى نواس .

٣-ديوان ابن الرومى .

٤-ديوان حميد بن ثور .

هذا ولا يمكن إغفال أهمية المؤلفين الجيدين فى هذا المجال وهما :

١-معجم شواهد العربية - لعبد السلام هارون .

٢-مخطوط الدر الفريد وبيت القصيد - لمحمد بن أيدمر .

وغير ذلك من الدواوين التى استعنت بها فى تخريج الشواهد الشعرية التى أوردها الراغب فى تفسيره ، والتى يقصر المكان عن ذكرها .

واخيراً : فإننى لأعترف أن العمل جد كبير ، ولقد بذلت فيه ما وسعنى من جهد ، وتحملت من المشاق ما أحتسبه عند الله .

وإنى لأرجو أن أكون قد وفقت إلى ما هدفت إليه .

وسبحان من له الكمال وحده ، وبالله التوفيق

منهج التحقيق

(منهج التحقيق)

علم التفسير من أشرف العلوم ، وهو أولى ما يعكف عليه الباحث ، ولزمه الدارس والمصنفات فيه لا تندرج تحت حد وحصر ، فمنها المطبوع والمخطوط والمفقود .

وإمامنا الراغب الأصفهانى خليق بالإعجاب ، جدير بالتقدير والإعظام ، فقد أخلص نفسه وعقله وفكره ودينه للغته ، وقد أثابه الله على إخلاصه بما أفاض على كتبه من القبول ، وعطف نحوها القلوب والعقول ، فلست ترى أديبا أو متأدبا قرأ كتبه الا وقد شعر تجاهها بالمودة ، وأحس نحوها بالثناء والتقدير .

وتفسير الراغب يعد بحق -- دائرة معارف شاملة تمثل ارقى ما وصل اليه الفكر فى القرنيين الرابع والخامس الهجريين ومن ثم فهو خليق بالدرس ، جدير بالنشر .

ومن هنا كان اهتمامى بتحقيق مقدمة الراغب وتفسيره لسورتى الفاتحة والبقرة ، وجاء تحقيقى وفق منهج التزمت به تمثل فيما يلى :-

١ -حررت النص من المخطوطات بمقابلته على عدة نسخ خطية .
٢ -قمت بضبط بعض المفردات والألفاظ التى قد تشكل على القارىء .
٣ -خرجت الشواهد القرآنية الكريمة بذكر أرقامها من سورها وجعلت ذلك فى الهامش تخفيفا للمتن .
٤ -قمت بتخريج القراءات القرآنية وتوجيهها ، ونسبة كل قراءة الى قارئها مبينا القراءات الصحيحة من القراءات الشاذة معتمدا فى ذلك على مصادر القراءات واعاريب القرآن .
٥ -قمت بتخريج الأحاديث النبوية الشريفة والآثار الواردة من كتب الصحاح والسنن ، ثم أوضحت مدى درجة هذه الأحاديث من الصحة والحسن والضعف .
٦ -خرجت الشواهد الشعرية بإتمام ما ورد ناقصا منها ، مع نسبته إلى قائله ، وبيان موضعه من ديوان صاحبه وغيره من أمهات كتب النحو والشواهد النحوية والمعاجم اللغوية ، وقمت بضبطها وأثبت جميع مراجعها .
٧ -اعتنيت بما ورد فى النص من أمثال العرب ومأثور كلامهم معتمدا فى ذلك على كتب الأمثال وغيرها من كتب اللغة .
٨ -عرفت بالأعلام الذين ورد ذكرهم فى اصل النص مع الإشارة الى مظان ترجمتهم من كتب التراجم والسير ، وكذا من كتب الجرح والتعديل .
٩ -تتبعت أقوال الخلفاء ورجال الصحابة فى مظانها فى كتب الاداب والخطب والرسائل

١٠- قمت بشرح المفردات اللغوية والجمل التى قد تحتاج إلى شرح أو توضيح .

١١- وثقت النصوص الواردة فى نص التفسير ، وذلك بالرجوع إلى مظانها من كتب أصحابها .

١٢- بذلت جهدى فى تحقيق النص حتى يخرج على أقرب صورة تركها عليها المؤلف إن لم تكن مثلها .

١٣- استخدمت علامات الترقيم قدر جهدى ، وحصرت الآيات الواردة فى التفسير بين قوسين مع الالتزام برسم المصحف .

١٤- وضعت ما سقط أو زاد فى بعض النسخ من الكلمات او العبارات ما بين معقوفين واشرت إلى ذلك فى الهامش .

١٥- أنشأت عدة فهارس حتى أسهل على القارىء الإفادة بالرجوع والاطلاع عليها.

هذا وبالله التوفيق ... وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

توصيف النسخ

﴿ توصيف النسخ ﴾

لقد اعتمدت في تحقيق مقدمة الراغب في التفسير وتفسيره لسورتي الفاتحة والبقرة على خمس نسخ مخطوطة ، ونسخة مطبوعة للمقدمة ، ومخطوطتين فقط منهن لتفسير سورتي الفاتحة والبقرة .

المخطوطة الأولى :

وهي في مكتبة معهد إحياء المخطوطات بالقاهرة والتابع لجامعة الدول العربية، وقد صورت على الفيلم المصغر الميكروفيلم من مكتبة (ولي الدين جار الله) في جامع بايزيد في استانبول بتركيا عن رقم (٦٩فيض الله) ، ثم اتخذت في معهد رقم (٩٨ تفسير) للجزء الأول ، ورقم (٩٩تفسير) للجزء الثاني .

ويقع الجزء الأول والثاني من هذه المخطوطة في (٣٩٥) ورقة ، وفي كل ورقة لوحتان ، وتحتوي كل لوحة على واحد وعشرين سطرًا ، وفي هذه المخطوطة تفسيرٌ لسور:الْبَقَرَةِ ، وَآلِ عِمْرَانَ ، وَالنِّسَاءِ ، والْمَائِدَةِ.

وينتهي بتفسير الآية الأخيرة من سورة المائدة قول الله تعالى : (لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) .

ونحن في هذا الجزء نفقد الصفحة الأولى وصفحة العنوان وما عليها من نسبة المخطوط لصاحبه ، بل نفقد المقدمة التي وجدناها في مخطوطتي ؛ (أياصوفيا) ، و (طبقبوسراي)،وكذلك في مخطوطة دار الكتب المصرية، ونسخة مطبعة (نور محمد) .

وتمتاز هذه النسخة بخط نسخي واضح قديم قليل الأخطـاء ، قلما نجد فيه طمسًا أو بياضًا ، ولكنها مهملة النقط في غالب الحروف ، وبها آثار رطوبة طمست على بعض الكلمات،وبعض الحبر المسكوب علـى بعض الصفحات ، ونحن في هذا الجزء نفقد من شروعه في تفسير سورة الفاتحة ما فسره من البسملة إلى الرحمن الرحيم، ونقرأ أول ما نقرأ قوله : (فإذا قولك زيد حسن لفظ مشترك يصح أن يعنى به أن هذا اللفظ حسن) .

وقد كتبت هذه المخطوطة بخط نسخي مقروء ، لا يلبث أن يتغير لدى تفسير الآية (٨٨من سورة/ آل عمران) ، حيث تكتب الآيات المفسرة بخطوط يبدو عليها العناية وتكبير الحجم عن تفسيرها ، ثم لا تلبث أن تعود إلى مساواة الآيات بتفسيرها في حجم الخط عند تفسير الآية : (٦٣) من سورة / النساء، وقد أشار إلى هذا أيضا الدكتور / عمر عبد الرحمن الساريسي في كتابه : (الراغب وجهوده في اللغة والأدب) (١) .

ويوجد بهامش هذه النسخة تصحيحات ولحق ، وكلاهما يثبت أن النسخة قد قرئت بعناية .

غير أن تغيير الخط في هذه النسخة قد يشير إلى أن أكثر من ناسخ قد أدلىٰ بدلوه في نسخها .

وتوجد بمكتبة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة نسخةٌ مصورةٌ من هذه النسخة تحت رقم فيلم (٥٨٢٥)

---

١. الراغب الأصفهاني وجهوده في اللغة والأدب - د/ عمر عبد الرحمن الساريسي ص٦٩ - مطبعة الأقصى - الأردن .

وعدد أوراقها (٣٩٢) ورقة ، ويوجد منها أيضا نسخة في قسم المخطوطات بمركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية بالرياض ، غير أن هذه النسخة ينقصها المقدمة أيضا ، ولكنها أوضح في خطوطها وفي تصويرها من نسختي : الجامعة الإسلامية والمعهد العربي لإحياء المخطوطات.

وقد تَحَصَّلْتُ بفضل الله وعونه على نسخة من كل منهما .

هذا وقد جعلتُ هذه النسخة هي الأصل ، نظرًا لاكتمالها ووضوحها ، ورمزت إليها بالرمز (و–ج) .

وأما المخطوطة الثانية من مخطوطات تفسير الراغب ، فتقع في مائة وثمان وستين ورقة ، وهي باسم : (جامع التفاسير) ، وتحمل هذه المخطوطة الرقم (٢١٢) في مكتبة (أياصوفيا) بتركيا ، وكل ورقة من هذه المخطوطة تحتوي على لوحتين ، وفي كل لوحة خمسة وعشرون سطرا ، ونقرأ في مقدمة هذه النسخة النسبة الصريحة التي رأيناها في النسخ الأخرى لمقدمة تفسير الراغب بكل من مكتبة (فيض الله) ، ومكتبة (طبقبوسراي) ومكتبة (دار الكتب المصرية) ، ونسخة مطبعة (نورمحمد) حيث نجد النسبة الصريحة للراغب الأصفهاني في هذه النسخة .

وتنتهي هذه النسخة بالآية الكريمة (٢٢٣) من سورة البقرة وهي قوله تعالى: (نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ) ، وهي مكتوبة بخط نسخي جيد مقروء ، ويوجد بهامش بعض الصفحات في هذه النسخة بعض الاستدراكات ، وتبتديء مقدمة الراغب في هذه النسخة ب: (الحمد لله على آلائه ، وصلى الله على النبي محمد وأوليائه) ، وبها أختام على الصفحة الأولى ، وكذا بين ثنايا الصفحات مفادها : (الحمد لله الذي هدانا لهذا وما

كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله) ، وقف محمود خان) ، وكتبت على الصفحة الأولى عبارة مفادها : (قد وقف هذه النسخة حضرت سلطاننا الأعظم ، والخاقان الأكرم - غياث الإسلام والمسلمين السلطان بن السلطان العادل محمود خان ، لا زالت أوراق حسناته مرموقة إلى آخر الأيام ، وأنا الفقير إلى آلاء ربه ، المستعان نعمة الله (...) الحرمين الشريفين غفر الله له). .

وقد ورد في تعليق قسم المخطوطات مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية على هذه النسخة أنها ترجع في تاريخ نسخها إلى القرن السادس الهجري .

وقد لاحظ الدكتور / عمر عبد الرحمن الساريسي في النسخة التي رآها في تركيا أن الصفحة الأولى من هذه النسخة تحمل هذه الإشارة [٢]: (القطعة الأولى " كذا"من تفسير الأمام أبي القاسم الراغب الأصفهاني (رحمه الله تعالى)، ولاحظ أيضا على هذه الصفحة أن عدد أوراقها ٢٧٤ ورقة ، غير أنه لم يجد منها في هذه النسخة سوى ١٦٨ ورقة فقط [١] .

هذا وتوجد نسختان من هذه المخطوطة بكل من مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية بالرياض والجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة بالمملكة العربية السعودية برقم فيلم (٥٢٥٣) ، وعدد أوراقها (١٦٨) و رقة فقط ، ولدي نسخة من كل منهما ، وقد رمزت لهذه النسخة ب (أ - ص) .

وأما المخطوطة الثالثة : فهي مصورة من مقدمة الراغب مع تفسير الفاتحة ومطالع سورة البقرة إلى قوله تعالى: (أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ

---

١. الراغب الأصفهاني وجهوده في اللغة والأب - ص ٦٨ ، ٦٩.

﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ، وتوجد هذه المخطوطة في المكتبة المركزية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض تحت عنوان : (النُّكَاتُ الْقُرْآنِيَّةُ) ، وهي مصورة من مكتبة (طبقبوسراي) التركية ، ووردت بالمكتبة تحت رقم (9009E- 111616)،وهي تقع في سبع وستين ورقة ، وفي كل ورقة لوحتان ، وفي كل لوحة تسعة عشر سطراً ، واللوحة الأولى منها مُذَهَّبَةٌ ، وبعض الكلمات كتبت بالخط الأحمر ، والخط في هذه النسخة فارسي واضح نسخي جميل ، وليس فيها اسمٌ للناسخ ، ولا بيانٌ لتاريخ النسخ ، والظاهر من الخط في هذه النسخة أنها ليست قديمة ، ومسطرتها ٢٠,٥ × ١٣سم ، وهي تحتوي على مقدمة التفسير وتفسير سورة الفاتحة ومطالع سورة البقرة وتبدأ بقول الراغب : (الحمد لله على آلائه ، وصلى الله على النبي محمد وأوليائه) ، وتنتهي عند الورقة ٠ (٦٧) في تفسير الآية الخامسة من سورة البقرة كما أسلفنا ، وآخر كلمات الشرح والتفسير هي قوله تعالى : ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ - الآية : (٦٤) - سورة الْعَنْكَبُوتِ .

وتحمل نفس المخطوطة اسم تفسير القرآن ، ورقمها (١٧١) بمكتبة (أياصوفيا) بجامع السليمانية في استانبول، وتقع هذه المخطوطة في تسع وستين ورقة ، وقد رسم العنوان على الصفحة الأولى على النحو التالي :

(تفسير الراغب الأصفهاني على سورة الفاتحة وأوائل سورة البقرة) .

وقد رمزت لهذه النسخة بالرمز : (ط-س) .

وأما المخطوطة الرابعة من المقدمةفهي مخطوطة مكتبة : (فيض الله أفندي بتركيا) ، ومنها نسخة مصورة في كل من معهد إحياء المخطوطات العربي بالقاهرة ، ومكتبة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة .

وتحمل هذه المخطوطة الرقم (٩٨ج١تفسير) ، بإضافة عبارة (مكرر) في معهد إحياء المخطوطات التابع لجامعة الدول العربية بالقاهرة .

ونجد على هذه النسخة نسبةً صريحةً لتفسير الراغب وذلك على الصفحة الأولى،حيث نجد مكتوبًا عليها عبارة : (تفسير القرآن العظيم للعالم العلامة الراغب الأصفهاني) ، ثم نجد أيضًا عبارةً مكتوبةً بخط نسخي جميل بقلم نفيس : (مما كُتب برسم خزانة الكتب لحضرة عمدة العلماء،وقدوة الفضلاء، أسوة الكاملين،وذخر العارفين،مفتي العصر والأوان،معلم سلطان الزمان،شيخ مشايخ الإسلام سلّمه الله السلام إلى آخر الأيام السيد الشريف فيض الله حُفَّ بعون الإله ، عم آلاه ، ثبت الله سرادق دولته بأوتاد الدوام،ما تعاقبت الليالي والأيام .) ، وقد كتبت هذه النسخة من المخطوطة بخط فارسي جميل ، وعدد ورقاتها : (١٣) ورقة ، وفي كل ورقة لوحتان ، وفي كل لوحة واحد وثلاثون سطراً ، وتبديء المقدمة بقول الراغب : (الحمد لله على آلائه، وصلى الله على النبي محمد وأوليائه) ، وتنتهي بقول الراغب عند تفسير

---

١. مقدمة جامع التفاسير - الراغب الأصفهاني - تحقيق : د/ أحمد حسن فرحات - ص٩- ط: دار الدعوة - الكويت .

قوله تعالى (مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ) أما بالنظر الخاصي،فهو في الحقيقة اسمٌ لمن يملك ذلك في نفسه وما يختص به).

وقد رمزت لهذه النسخة بالرمز : (ف - ض) .

وأما المخطوطة الخامسة من التفسير، فهي مصوَّرةٌ في دار الكتب المصرية .

ونسختنا هذه تقع في : (٣٣) ورقة ، والورقة في صفحتين ، وفي كل صفحة (١٩) سطرا ، ومكتوب على الصفحة الأولى منها : (مقدمة تفسير العلامة الشهير أبي القاسم الراغب الأصفهاني - رحمه الله تعالى) ، وعليها ختم مفاده (وقف دار الكتب المصرية) .

والنسخة على حواشيها بعض الإشارات إلى أن بعض العبارات مكرر ، أو أن في الموضع نقصًا ، وهذه النسخة محفوظة بدار الكتب المصرية برقم : (٣٦١) تفسير تيمور ، وهي مكتوبة بقلم نسخي واضح ، وهي نسخة فريدة نرجح أنها كتبت في عهد متأخر ، وقد رمزت إليها بالرمز : (د - ك) .

وتبتديء هذه النسخة بقول الراغب : (الحمد لله على آلائه ، وصلى الله على النبي محمد وأوليائه) ، وتنتهي بقوله : وما ألقيهم بإنشاد ما قاله أبو تمام :

(فَإِنْ نَكُ أهملْنَا فَأَضْعِفْ بِسَعْيِنَا **** وإِنْ نَكُ أُجْبِرْنَا فَفِيمَ تَتَعْتِعُ) ،

ومكتوبٌ في نهايتها : (كان الفراغ من هذه المقدمة في ١٩ شعبان سنة ٩٢٥ هـ على يد حامد التقي) .

وأما النسخة الأخيرة للمقدمة ، فهي تلك النسخة المطبوعة الصادرة عن مطبعة (نور محمد) بإيران ، وتقع هذه النسخة في صدر كتاب :

(مفردات ألفاظ القرآن) للإمام الراغب ، وهو صادر عن نفس المطبعة بإيران ونسخة هذا الكتاب بدون تحقيق .

فان زيدا انما هو عبارة عن المسمى والرؤية تعلقت ومن قال انه غير المسمى فانه نظر الى ان قولهم سمعت
اسم زيد او زيد اسم حسن وانما اعني اي سمعت هذا اللفظ الذي هو زيد وان هذا اللفظ هو الذي عليه الحسن
فاذا قلت زيد حسن لفظ مشترك بين معان يعني ان هذا اللفظ حسن ويصح ان يعني ان المسمى
حسن ويقع مثله الاشتباه في قولك هذا انسان اي انه انسان والثاني ان تطلق ... في جوهره
فيقال هذا انسان اي جوهر انسانيه وكثير من المواضع ما يقع فيه للمغالطة واما نصر من قال
لو كان الاسم هو المسمى لكان من قال النار احترقت فيه فهو نصر بعيد لان عاقلا لا يقول زيد الذي هو زائد
متحقق واشتقاق اسم قيل من ... وسمه لان الاسم علامة المسمى وهذا ان كان من جهة المعنى
يصح فتصريف الكلمة يبطله ... التسمية والمسمى لان الف الوصل لا يدخل فيما ... فاؤه وهو عنه
وزنه والصحيح ان اصله من السمو لان الاسم شعار للمسمى ورفعة له واصله سمو كعضو وعضو او كسمو كحمل
وجمل لقولهم في الجمع اسما وقد كثر اقوال في جميع هذه البنات ... الجعل فعلا كثر ... الا ان باب
فعل لم يكثر فيها اخره واو اشتقت ... فاما في قول الشاعر بسم الله الذي في كل سورة سمه فقد قيل انه ضم اتباعا
لما بعده ولو كان الميم مكسورا لكسر السين ضمه فاما لفظ الله فيجب ان يعلم ان اسما الله تعالى كلها مشتقة
باتفاق اهل اللغة الا لفظ الله فانها مختلف فيها فبعضهم جعلها كالعلم مستدلا بانه يوصف ولا يوصف
به كاسما الاعلام ويقوي ذلك انه تعالى ... وانه قال تعالى هل تعلم له سميا ويعني به الله
واخرون قالوا انه مشتق واختلف بعد ذلك فيه فقيل انه اصل اله مصدر من اله ياله اي عبد يسمى
به كقولهم في صفاته تعالى السلام وهو في الاصل مصدر وسموا الشمس الالهة لعبادتهم لها وكذلك نهاهم الله
تعالى عن عبادتها فقوله لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن وسموا الاصنام الالهة لذلك
واصله الاله فحذفوا همزته وجعلوا الالف واللام عوضا منها ولكونها عوضا استجيز قطع الهمزة الموصلة
وادخال حرف النداء عليه في قولهم يا الله وقال سيبويه في موضع اصله لاه على فعل كجبل ... قولهم
... وقيل هو من اله اليه اي فزع والهه اي اجاره وامنه والاله اسم المفزوع
اليه كالامام لمن يؤتم به وقيل هو من اله ياله اذا تحير وكانه يعني ذلك امير المؤمنين عليه السلام بقوله كل دون

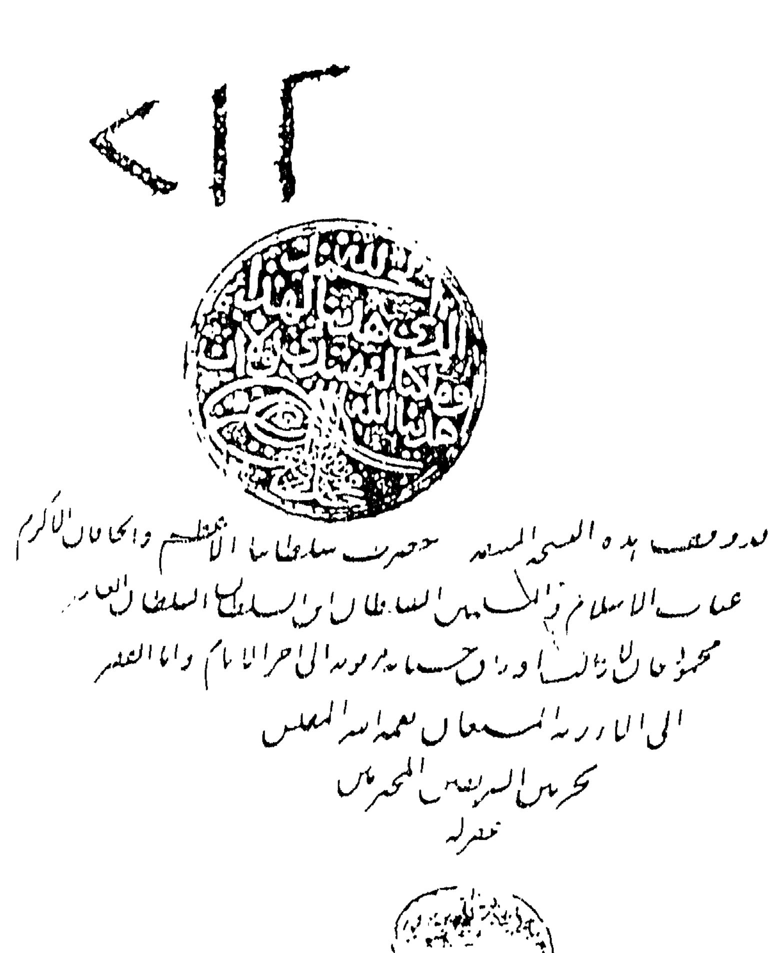
اللوحة الأولى من النسخة

قوله عز وجل قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم

[illegible]

اللوحة الأخيرة من النسخة

"و - ج"



صورة الغلاف للنسخة

" م - ص "

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله على الائه وصلى الله على النبي محمد وآله واوليائه ونسأله ان يجعلنا ممن ابتداه بفضله ونعمته واعقبه برأفته ورحمته وان يجعلنا ممن اسبل عليه نور عصمة الانبياء وحصن قلوبهم بطهارة النقاء انه لطيف لما يشاء. قال الشيخ ابو القسم الراغب رحمه الله تعالى القصد في هذا الاملاء ان نفس الله في العمر ووقانا من نوب الدهر وهو مرجو ان يسعفنا بالامرين ان نبين من تفسير القرآن وتأويله نكتا بارعة تنطوي على تفصيل ما اشار اليه اعيان الصحابة والتابعين ومن دونهم من السلف المتقدمين رحمهم الله بجملة ونبين من ذلك ما ينكشف عنه السر ويثلج به الصدر وفقنا الله لمرضاته برحمته وجعل سعينا مسعودا وفعلنا في الدارين محمودا فمنه يستجلب مبدا التوفيق ومنتهاه

فصول لا بد من بيانها في مبدأ الكتاب فصل في بيان ما وقع فيه الاشتباه من الكلام المفرد والمركب الكلام ضربان مفرد ومركب فالمفرد المسمى بالاسم والفعل والحرف وذلك بالوضع الاصطلاحي يسمى بذلك فاما بالوضع الاول فكله يسمى اسما ويحق ان صار ثلثة اقسام فان الكلام اما ان يكون مخبرا عنه وهو الملقب بالاسم واما خبرا وهو الملقب بالفعل واما رابطا بينهما وهو الملقب بالحرف والقسمة لا يقتضي غير ذلك وما كان من الخبر نحو فاعل ومُفْعِل والبصريون يسمونه اسما اعتبارا باحكام لفظية لانه يدخله ما يدخل الاسماء من التنوين والجر وحروفه والالف واللام ويخبر عنه والكوفيون

اللوحة الأولى للنسخة

م ٣ - ص ٧

اهل البيت الآية ... وجل نساؤكم حرث لكم فاتوا حرثكم انى شئتم

وقدموا لانفسكم واتقوا الله واعلموا انكم ملاقوه وبشر المؤمنين الفرق

بين الحرث والزرع ان الحرث القا البذر وتهيئة للارض والزرع مراعاته

وانباته ولهذا قال افرايتم ما تحرثون انتم تزرعونه فاثبت لهم

الحرث ونفى عنهم الزرع وقد جعل الله النساء محرما للرجل وجعل له قوة

النكاح حفظا للنسل ولولا طلب النسل لما رخص العقل في الجماع لما يجلب من نحول

البدن واضعاف البصر مع انه ليس بضروري للانسان كالجوع والعطش

لكن استحسن ما استحسن منه لطلب النسل المدعو اليه بقوله تناكحوا تكثروا

ولهذا قيل في الحكمة خير النساء الولود وشرها العقيم وحرم اتيان الرجال الودود

على كل حال والنساء في محاشهن اذ لم يكن محرما ما سماه عليه السلم اللواطة

الصغرى وقيل لامير المؤمنين كيف اتيان النساء في ادبارهن فقال

سفل الله بك بهم ... اتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من احد وقوله فاتوا حرثكم

انى شئتم اى كيف واين بعد ان لا يتجاوز الحرث واعاد لفظ الحرث ولم

يقل فاتوهن ليراعى المعنى المقصود بذلك لئلا يتوهم ما يتصوره قوم لم يتعمقوا

النظر وانما قال انى تنبيها على كذب اليهود حيث زعموا ان المراة اذا لم

تؤت مستقلبة ياتي الولد احول اى احول وقوله عقيب ذلك وقدموا لانفسكم

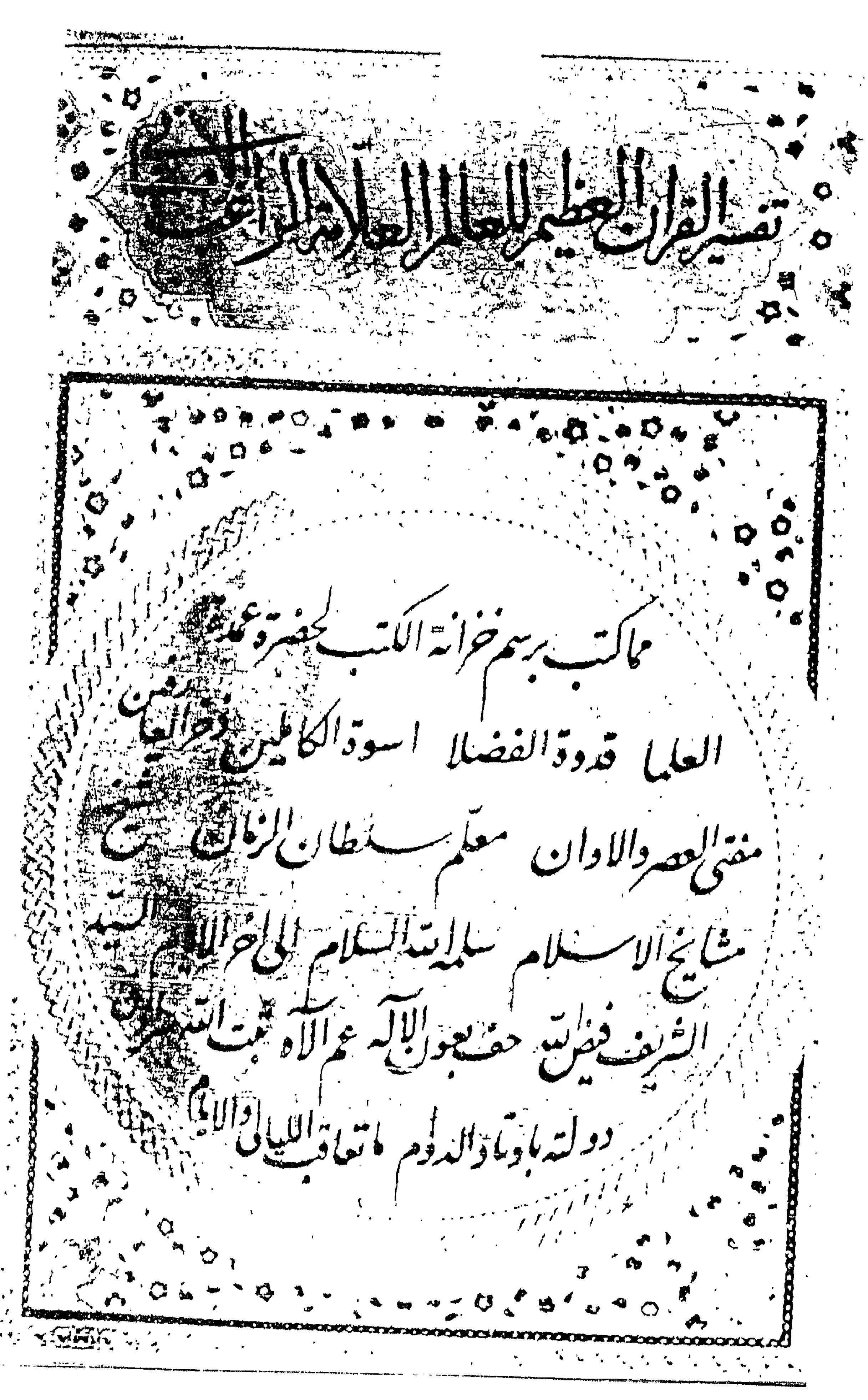
واتقوا الله اذ اطلق امرا من الشهوات الدنيوية لا يخلى ذكره من الحث على

مراعاة العقبى والتقوى لئلا يلحق غفلة عما خلق لاجله وقول مجاهد هو التسمية

عند الجماع وقول ابن عباس هو الطلب للولد على سبيل المثال

اللوحة الأخيرة للنسخة

٦٩ ـ ص ٢



صفحة العنوان من النسخة (ف ض).

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله على آلائه، وصلى الله على النبي محمد وأوليائه، ونسأله أن يجعلنا ممن نشدّه بفضله ونعمته، وأعقبه
برأفته ورحمته، وأن يجعلنا ممن سبل عليه نور عصمة الأبرار، وحصن قلوبهم بطهارة التقى، إنه لطيف
لما يشاء. قال الشيخ أبو القاسم الراغب رحمة الله عليه: القصد في هذا الإملاء أن النفس تتمنى في العمر
ووقتا من نوب الدهر وهو مرجوٌّ أن يسعفنا بالأمرين أن نبين من تفسير القرآن وتأويله نكتا بارعة تنطوي
على تفصيل ما أشار إليه أعيان الصحابة والتابعين ومن دونهم من السلف المتقدمين رحمهم الله بجملة، ونبين
من ذلك ما ينكشف عنه اللبس ويثلج به الصدر. وفقنا الله لمرضاته برحمته وجعل سعينا [illegible] وفعلنا
في الدارين محمودا، إنه مستجلب مبتدأ التوفيق ومنتهاه. فصول لا بد من بيانها في مبتدأ الكتاب

فصل في بيان ما وقع فيه الاشتباه من الكلام المفرد والمركب. الكلام [illegible] مفرد ومركب
فالمفرد المسمى بالاسم والفعل والحرف، وذلك بالوضع الاصطلاحي [illegible] فأما بالوضع الأول فكله يسمى
أسماء وحق صار ثلاثة أقسام، فإن الكلام إما أن يكون مخبرا عنه وهو الملقب بالاسم، وإما خبرا وهو الملقب
بالفعل، وإما رابطا بينهما وهو الملقب بالحرف، والقسمة لا تقتضي غير ذلك. وما كان من [illegible] فاعل
ومفعول فالبصريون يسمونه اسما اعتبارا بأحكام لفظه لأنه يدخله ما يدخل الأسماء من التنوين والجر ودخول
الألف واللام وتثنيته وجمعه، والكوفيون يسمونه الفعل الدائم، أما الفعل فاعتبارا بالمعنى وهو أن قائما
في معنى يقوم، وأما الدائم فلأنه يصلح للأزمنة الثلاثة، وإن كان الحال أولى به. والأصل في الألفاظ
أن تكون مختلفة بحسب اختلاف المعاني لكن ذلك لم يكن في الإمكان إذ كانت المعاني بلا نهاية
والألفاظ مع اختلاف تركيبها ذات نهاية، وغير المتناهي لا يحويه المتناهي، فلم يكن بدٌّ من وقوع اشتراك
في الألفاظ. ويجب أن نعلم أن للفظ مع المعنى خمسة أحوال: الأول أن يتفقا في اللفظ والمعنى فيسمى
اللفظ المتواطئ نحو الإنسان إذا استعمل في زيد وعمرو. الثاني أن يختلفا في اللفظ والمعنى ويسمى المتباين
[illegible] الثالث أن يتفقا في المعنى من دون اللفظ ويسمى المترادف مثل الحسام والصمصام
الرابع أن يتفقا في اللفظ ويختلفا في المعنى ويسمى المشترك والمتفق نحو العين المستعملة في الجارحة ومنبع الماء

اللوحة الأولى من النسخة (ف - ض).

الصفحة الأخيرة من (ف - ض)

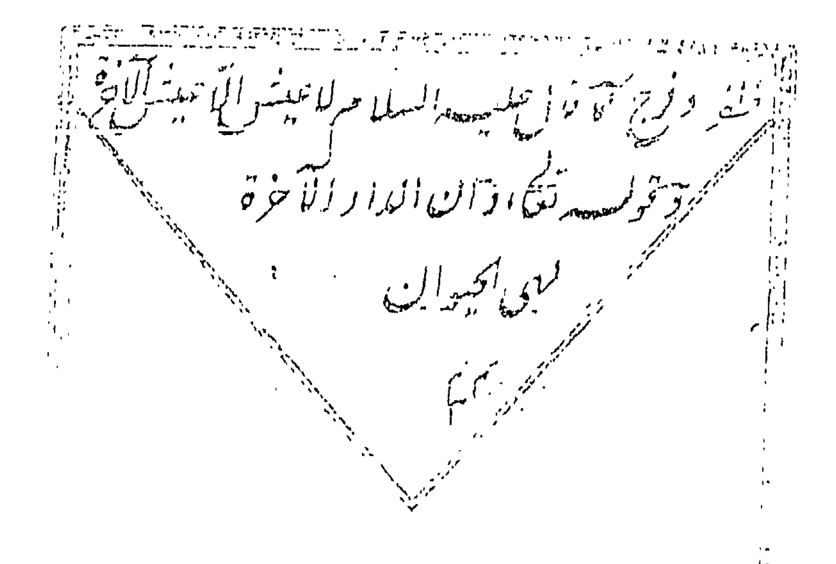
اللوحة الأخيرة من النسخة

"ف - ض"


بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله على آلائه وصلى الله على النبي محمد وآله

اللوحة الأولى من النسخة "ط – س ٢"


وفرج ثم قال عليه السلام لا عيش إلا عيش الآخرة
وقوله تعالى وإن الدار الآخرة
لهي الحيوان
تم

اللوحة الأخيرة من النسخة

"ط - س"

مقدمة التفسير للعلامة الشهير
ابي القاسم الراغب الاصفهاني

رحمه الله
تعالى
آمين

- صورة الغلاف للنسخة

• ح . ي - ك [illegible]

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله على آلائه وصلى الله على النبي وأوليائه ونسأله أن
يجعلنا ممن ابتدأه بفضله ونعمته وأعقبه برأفته ورحمته
وأن يجعلنا ممن أسبغ عليه نور عصمة الأنبياء وحصن
قلوبهم بطهارة التقاء إنه لطيف لما يشاء قال الشيخ
أبو القاسم الراغب رحمه الله تعالى القصد في هذا
الإملاء إن نفس الله في العمر ووقانا من نوب
الدهر وهو مرجو أن يسعفنا بالأمرين أن
نبين من تفسير القرآن ونكته بإشارة مختصرة
على تفصيل ما أشار إليه أعيان الصحابة والتابعين
ومن دونهم من السلف المتقدمين رحمهم الله جملة
ونبين من ذلك ما ينكشف عنه الستر ويثلج به الصدر
وفقنا الله لمرضاته برحمته وجعل سعينا مسعودا
وفعالنا في الدارين محمودا فمنه يستجلب مبدأ
التوفيق ومنتهاه

"فصول لابد من بيانها في مبدأ الكتاب"

فصل في بيان ما وقع فيه الاشتباه من الكلام
المفرد والمركب . الكلام ضربان مفرد ومركب

فالمفرد

اللوحة الأولى من النسخة

" د ك "

وبتعاطاها بقبلها باتساع قلب وتعظيمه قوام في مزاولتها

بانشراح صدر وقد تضمن ذلك قوله تعالى لكل جعلنا

منكم شرعة ومنهاجا وقول النبي صلى الله عليه وسلم اعملوا

فكل ميسر لما خلق له فلما رؤي اهل البلاغة والخطابة

الذين يهيمون في كل واد من المعاني بسلاطة السنتهم

وقد دعا الله جماعتهم الى معارضة القران وعجزهم عن

الاتيان بمثله وليس [illegible] غرائزهم للتصدي لمعارضته

لم يخف على ذي لب ان صارفا الهيا يصرفهم عن ذلك

واي اعجاز اعظم من ان يكون كافة البلغا مخيرة في الظاهر

[illegible] معارضته ومجبرة في الباطن عن ذلك وما ابقهم

[illegible] ما قال ابو تمام

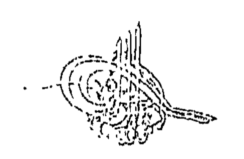
فان يك اهلنا فاضعف [illegible] وان يك اجرنا فغير [illegible]

والله ولي التوفيق

[illegible] في ٩ شعبان [illegible]

اللوحة الاخيرة من النسخة

ن د - ك



الحمد لله على آلائه . وصلى الله على النبي وأوليائه . ونسأله أن يجعلنا ممن ابتدأه بفضله ونعمته . وأعقبه برأفته ورحمته . وأن يجعلنا ممن أسبل عليه نور عصمة الأنبياء . وحصن قلوبهم بطهارة النقماء . انه لطيف لما يشاء . قال الشيخ أبو القاسم الراغب رحمه الله تعالى : القصد في هذا الاملاء إن نفس الله في العمر ووقانا من نوب الدهر وهو مرجو أن يسعفنا بالامرين أن نبين من تفسير القرآن وتأويله نكتا بارعة تنطوي على تفصيل ما أشار اليه أعيان الصحابة والتابعين ومن دونهم من السلف المتقدمين رحمهم الله جملة ونبين من ذلك ماينكشف عنه السر ويثلج به الصدر وفقنا الله لمرضاته برحمته وجعل سعينا مسعودا . وفعلنا في الدين محمودا . فانه يستجاب مبدأ التوفيق ومنتهاه .

[فصول لابد من بيانها في مبدأ الكتاب]

(فصل) في بيان ما وقع فيه الاشتباه من الكلام المفرد والمركب . الكلام ضربان مفرد ومركب فالمفرد المسمى بالاسم والفعل والحرف وذلك بالوضع الاصطلاحي سمي بذلك فأما بالوضع الاول فكله يسمى اسما ويحق أن صار ثلاثة أقسام فان الكلام إما أن يكون مخبرا عنه وهو الملقب بالاسم وإما خبرا وهو الملقب بالفعل وإما رابطا بينهما وهو الملقب بالحرف والقسمة لا تقتضي غير ذلك وما كان من الخبر نحو فاعل ومفعول والبصريون يسمونه اسما اعتبارا باحكام لفظية لانه يدخله ما يدخل الاسماء من التنوين والجر وحروفه والألف واللام ويخبر عنه والكوفيون يسمونه الفعل الدائم أما الفعل

اللوحة الأولى من النسخة

ن ص

وأى اعجاز أعظم من أن تكون كافة البلغاء مخيرة فى الظاهر أن يعارضوه ومجبرة فى الباطن عن ذلك وما أليقهم بانشاد ما قال أبو تمام :

فان نك أهملنا فاضعف بسعينا   وان نك أجبرنا ففيم نتعتع

والله ولى التوفيق .

اللوحة الأخيرة من النسخة

"ن – م ٣"

التحقيق

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله على آلائه، وصلى الله على النبى محمد(١) وأوليائه، ونسأله أن يجعلنا ممن ابتدأه بفضله ونعمته وأعقبه برأفته ورحمته وأن يجعلنا ممن أسبل عليه نور عصمة الأنبياء، وحصّن قلوبهم بطهارة النقاء، إنه لطيف لما يشاء. قال الشيخ أبو القاسم الراغب رحمه الله تعالى:

القصد فى هذا الإملاء إنْ نفَّسَ الله فى العُمْر، ووقانا من نُوَبِ الدَّهْرِ، وهو مرجوٌّ أن يُسْعِفنا بالأمرين أن نبين من تفسير القرآن وتأويله نكتاً بارعةً تنطوي على تفصيل ما أشار إليه أعيان الصحابة والتابعين وَمَنْ دُونَهُمْ من السلف المتقدمين رحمهم اللهـ(٢) إشارةً مجملةً، نبين(٣) من ذلك ما ينكشفُ عنه السر ويُثْلَجُ(٤) به الصدر. وفقنا الله لمرضاته برحمته وجعل سعينا مسعوداً وفعلنا فى الدارين(٥) محموداً، فمنه يُستجلب مبدأُ التوفيقِ ومنتهاهُ.

(فُصُولٌ لَابُدَّ مِنْ بَيَانِهَا فِي مُبْتَدَإِ (٦) الْكِتَابِ)

"فصلٌ فى بيان ما وقعَ فيهِ الاشتباهُ مِنَ الكلامِ المُفْرَدِ وَ المُرَكَّبِ"

الكلام ضربان: مفردٌ ومركبٌ، فالمفرد المسمى بالاسم والفعل والحرف وذلك بالوضع الاصطلاحي سُمي بذلك، فأما بالوضع(٧) الأول، فكله يسمى اسماً، ويحق(٨) إن صار ثلاثة أقسام، فإن الكلام إما أن يكون مُخْبَراً عنه وهو الملقب بالاسم، وإما خبراً وهو الملقب بالفعل، وإما رابطاً بينهما وهو الملقب بالحرف، والقسمة لا تقتضي(٩) غير ذلك، وما كان من الخبر نحو "فَاعِلٍ» و"مُفعَلٌ"، والبصريون يسمونه إسماً اعتباراً بأحكامٍ لفظيةٍ، لأنه يدخله ما يدخل الأسماء من التنوين والجر وحروفه (١٠) الألف واللام، ويُخبرُ عنه، والكوفيون يسمونه الفعل الدائم.

١- ساقطة من «ن – م» ومن « د – ك»

٢- زيادة لابد منها ليستقيم الكلام.

٣ – فى «ن–م» ونبين

٤ – فى "أ–ص" ويبلج وكذلك فى « د – ك » .

٥ – فى ن – م في الدين

٦ – فى "أ–ص" مبدأ . وفى «ن . م » مبدأ ، وكذلك فى «د–ك»

٧ – يريد بالوضع الأول ما جاء في قوله تعالى : (وعلم آدم الأسماء كلها)، وقال الراغب في مفرداته: الأسماء: أي الألفاظ والمعاني مفرداتها ومركباتها.

٨ – فى ن – م والحق.

٩ – فى "أ–ص" لا يقتضي، وهو خطأ من الناسخ.

١٠ – فى "أ – ص " وحروفه والألف واللام وكذلك في (ن – م).

أما الفعل: فاعتباراً بالمعنى، وهو إن قائماً فيه معنى يقوم، وأما الدائم فلأنه يصلح للأزمنة الثلاثة وإن كان الحال أولىٰ به فى أكثر المواضع [١] والأصل فى الألفاظ : أن تكون مختلفةً بحسب اختلاف المعانى، لكن ذلك لم يكن فى الإمكان، إذ كانت المعاني بلا نهاية، والألفاظ مع اختلاف تراكيبها [٢] ذات نهاية، وغير المتناهي لا يحويه المتناهي، فلم يكنْ بُدٌّ من وقوع اشتراك في الألفاظ. ويجب أن يُعلم أن للفظ مع المعنى خمس أحوال. الأول: أن يتفقا فى اللفظ والمعنى، فيسمى "اللفظ المتواطىء"، نحو "الإنسان" إذا استُعمل في "زيد" و"عمرو". الثانى[٣] : أن يختلفا فى اللفظ والمعنى، ويسمى المتباين نحو "رَجُلٌ" و"فَرَسٌ"، والثالث:[٤] أن يتفقا في المعنى من دون [٥] اللفظ، ويسمى:"المترادف"، نحو "الحُسَام" و"الصَّمْصَام". الرابع: أن يتفقا في اللفظ ويختلفا في المعنى، ويسمىٰ :"المشترك" والمتفق، نحو "الْعَيْنِ" المستعملة في "الجارحة" و"مَنْبَعِ الماءِ" و"الدَّيْدَبَان"، [٦] وغير ذلك.. والخامس: أن يتفقا في بعض الألفاظ[٧] وبعض المعنى، ويسمىٰ "المشتقُّ"، نحو: "ضارب" و"ضرب"، والذى يقع فيه الاشتباه من هذه الخمسة: "الألفاظ المشتركة"، و"الألفاظ المتواطئة": هل هي عامةٌ "أوخاصةٌ" ، و"المشتقة" مما اشتق! كقولهم: "النبى"، و"البرية"، منهم من قال: من "أنبأ، و"بَرَأ"، فترك[٨] الهمزة، ومنهم من قال : من "النُّبْوة"، [٩] وهي الرَّبْوة، ومن "الْبَرَىٰ" وهو :الترابُ...

(فصلٌ فى أوصافِ اللفظِ المشتركِ)

اللفظ إنما يحصل فيه التشاركُ بأن يستوي اللفظان في ترتيب الحروف وعددها وحركاتها، ويختلفا في المعنى نحو :"عينٌ"[١٠] و"كلبٌ" فأما[١١] إذا اختلف ترتيب الحروف نحو "حِلم" و"حَمْل" أو

١ – زيادة من "أ – ص ".
٢ – في "أ – ص " تركيبها، وكذلك فى ن – م .
٣ – في "أ – ص " والثانى، وكذلك فى ن – م ، د.ك .
٤ – في ن – م الثالث ، وكذلك فى «د–ك»
٥ – في "أ – ص " دون.
٦ – قال صاحب لسان العرب: "الديدبان" الطليعة، وفي المعجم الوسيط: الديدبان: الطليعة وهو لفْظ فارسيٌ معربٌ، وأصله ديدبان، فلما أعرب غُيرت الحركة وجعلت الذال دالاً، وذكره السيوطي في كتابه: "المزهر" ضمن الألفاظ التي تدل عليها كلمة (عين)، وهي في : "أ – ص " الديدبان.
٧ – في " أ – ص " فى بعض اللفظ وكذلك فى « ن – م »..
٨ في ن – م فتركت.
٩ – في «د – ك» من النبوة: أي الرفعة، وقال الراغب فى المفردات: قال بعض العلماء وسُمِّى نبياً لرفعة محلِّه عن سائر الناس.
١٠ – قال الراغب فى المفردات: العين الجارحة قال: والعين بالعين، لنطمسنا على أعينهم، وأعينهم تفيض من الدمع، قرة عين لي ولك، كى تقر عينها، وتُستعار العين لمعان هي موجودة في الجارحة بنظرات مختلفة، واشتُق منها "سقاء عين"، و"معين" إذا سال منها الماء.. وقيل للمتجسس : عين تشبيهاً بها في نظرها، ويقال لمنبع الماء: عينٌ، تشبيهاً بها لما فيها من الماء. وانظر "المزهر" للسيوطي: ١/٣٧٢–٣٧٥.. وقال الراغب في المفردات: الكلب : الحيوان النباح.. والكلب: المسمار في قائم السيف.. والكلب: نجم في السماء مشبهٌ بالكلب لكونه تابعاً لنجم يقال له: "الراعى" مقدمة جامع التفاسير ص ٣١.
١١– في ن – م فأنما

العدد نحو [١] العناء" والعنّاء، و"قَدَرٌ" و"قَدَّر"، أو الحركة نحو : "قَدِمَ"، و"قَدُم"، أو لم يختلفا في المعنى نحو :"الإنسان" إذا استُعْمِل فى "زيد" و"عمرو" فليس شئٌ من ذلك من الأسماء المشتركة، فإن الذي اختلف فى العدد ربما كان من المشترك نحو: "ضاربٌ" و"ضَرْبٌ"، وربما كان من المتباينة نحو "القنا"، و"القَنَابِل"[٢]، وربما كانت الكلمة صورتها صورة المشترك في اللفظ، وتكون [٣] من المشتقة لاختلاف تقديرهما [٤]، نحو "المختار: إذا كان فاعلاً، فإن تقديره: "مُفْتَعِلٌ"، وإذا كان مفعولاً فإن تقديره "مفتعل"، وكذا فلانٌ منحَلٌّ، وأمْرٌ مُنحَلٌّ فيه،، و"الفُلْك" إذا كان واحداً "كَقُفْل"، وإذا كان جمعاً فإنه كَوَثَنٍ، وناقةٍ "هجان"، وامرأة "ضِنَاك"،[٥] فإنها كحمار، ونوق "هجان" كقومٍ كرامٍ، وعلى ذلك: هم "يغزون" نحو :"يخرجون، وهُنَّ "يَغْزُوْنَ" نحو[٦] "يَخْرُجْنَ" وأنت "تَعْصِين" نحو "تشتمين"، وأنتن "تَعْصِيَن" نحو، "تَشْتُمْن"، ونحو "دَبْر" مصدر دَبَرَ" وجمع "الدَّابِر" نحو "رَكْب"، وكثيراً ما يلتقى فرعان بوضعنا[٧] للفظين متفقين في الصيغة، وهما مختلفان في المعنى، نحو "المصباح" لما يُشْرَبُ منه الصبوح، ولما يُشتق من "صَبَحَت" أى أسْرَجَتْ[٨]، واشتكىٰ لإظهار الشكوى، ولاتخاذ شِكْوة [٩] اللبن..

(فصل : الاشتِراكُ في اللفظِ يقَعُ لأحَدِ وجُوهٍ)

إما أن يكون في لغتين نحو "الصقر" للبن إذا بلغ غاية الحموضة في لغة أكثر العرب[١٠] و"الصقر" للدبس في لغة أكثر أهل المدينة، وإما أن يكون أحدهما منقولاً عن الآخر أو مستعاراً، والفرق بينهما: أن المنقول هو الذي ينقله أهل صناعةٍ ما عن المعنى المصطلح عليه أولاً إلى معنى آخر قد تفردوا بمعرفته، فيبقى من بعد مشتركاً بين المعنيين وعلى ذلك الألفاظ الشرعية نحو الصلاة

---

١ – فى (ف–ض)، "أ – ص": العنا– العَنا وهو تصحيف وفي "ط–س" الغنَاء، والغنّاء، وهذا هو الأصح، لأن المراد: اختلاف عدد الحروف، والعدد في الكلمتين لا يختلف الا بتشديد أحد الحروف،. وفي ن–م القنا والفنا وكذلك فى (د.ك) .

٢ – القنابل : جمع قنبل، والقنبل: الطائفة من الناس ومن الخيل، وقيل: هم ما بين الثلاثين إلى الأربعين أو نحو ذلك،. لسان العرب– المعجم الوسيط.

٣ – في (ف – ض)، "أ–ص": ويكون وكذلك فى «د–ك» ، وفى "ط–س"، (وتكون)، وهو الأصح.

٤ – في "ط–س": تقديرها . وكذلك فى ن– م

٥ – الضناك: الضخمة، وفي المعجم الوسيط: الضناك: الموثق الخَلِقْ الشديدُ ، وفي «د–ك» ضنال

٦ – ساقطة من ن – م

٧ – ساقطة من (ط – س). وكذلك من«ن–م»

٨ – في (ط–س) أسرحت، وهو تصحيف. وقال الراغب في المفردات: المصباح ما يُسقى منه، ومن الإبل ما يبرك فلا ينهض حتى يصبح. وما يجعل فيه المصباح قال تعالى: (مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة)، ويقال للسراج مصباح والمصابيح أعلام الكواكب.

٩ – قال الراغب فى المفردات: الشكو، والشكاية، والشكاة، والشكوى : إظهار البث .. وأصل الشُكْو · فتح الشكو وإظهار ما فيه وهي سقاء صغير يجعل فيه الماء.

١٠ – قال صاحب اللسان: "والصقر": اللبن الشديد الحموضة.. وقال الأصمعي: إذا بلغ اللبن من الحمض ماليس فوقه شئ فهو "الصقر"، وقال شمر: الصقر: الحامض الذي ضربته الشمس فحمض.

والزكاة، والألفاظ[١] التى يستعملها الفقهاء والمتكلمون والنحويون. وأما المستعار: فالاسم الموضوع لمعنى فتستعيره لمعنى آخر له اسم وضعي غيره، فتستعمله فيه لمواصلة توجد بين المعنيين كتسميتها[٢] الشجاع بالأسد، والبليد بالحمار. والفرق بين حكم المنقول والمستعار أن المنقول شرطه أن يتبع فيه أهل تلك الصناعة والمستعار لكل أحد[٣] أن يستعير فيستعمله إذا قصد معنى صحيحاً، فيكون متضمناً لمعنى التشبيه نحو أن تقول[٤] : ركبت "برقاً"، فتعنى[٥] به فرساً كالبرق سرعة، ورأيت بحراً، أى سخياً كالبحر. وأما المشتق: فشرطه أن يشارك المشتق منه في حروفه الأصلية ويوجد فيه ببعض[٦] معناه، ويخالفه إما فى الحركات نحو "ضَرَبَ" و"ضُرِبَ" أو في الزوائد من الحروف نحو "ضَرَبَ" وضارب" و"استضرب" أو فى التقدير نحو "المختار" إذا كان فاعلاً أو مفعولاً وسائر ما تقدم. فقد بان بهذه الجملة أنواع مفردات الألفاظ وما يقع فيه الاشتباه.، وأما المركب من اللفظ: فما ركب من هذه الثلاثة، والتركيب على ضربين: تركيب يحصل به جملة مفيدة، وذلك: إما «من»[٧] اسمين أو «من»[٨] اسم وفعل، أو تقدير[٩] ذلك. وتركيب لا يحصل به ذلك، ويكون إما من اسمين يجعلان اسماً[١٠] واحداً، نحو خمسة عشر، وبعلبك. أو اسم مضاف إلى اسم نحو عبد الملك، أو اسم وفعل نحو : تأبط شراً، أو اسم وحرف[١١] نحو "سيبويه"[١٢] ، أو فعل وحرف نحو "هلم"، أو حرفين نحو "إنما" أو من جملٍ من الكلام، وذلك لا يكون إلا بحذف بعضها نحو "بسملة"، و"حيعلة"، و"حوقلة" فى قولهم: بسم الله، وحي على الصلاة، ولا حول ولا قوة إلا بالله - وجميع ما يقع فيه الشبهة[١٣] من الكلام المركب لا يخلو: إما أن يكون لشئ يرجع إلى مفردات الكلام وذلك على

١- فى ن-م أو الألفاظ.

٢- فى ن-م كتسمية وكذلك فى (د-ك).

٣- فى ن-م لكل واحد.

٤ - فى : (ط-س): يقول.

٥ - فى : (ط-س): فيعنى.

٦ - فى (ط-س) بعض.

٧ - فى: «ط-س» :فى.

٨ - فى :«ط-س» : فى.

٩ - أو تقديره ذلك فى ن-م.

١٠- ساقطة من ن-م.

١١- فى ن-م وصوت ، وكذلك فى «د-ك» وفى (أ-ص): اسم وصوت ولعل هذا أصوب من (حرف)، لأن الكلمة فارسية

١٢- جاء فى لسان العرب: "والسيِّب: التفاح- فارسي- قال أبو العلاء: وبه سُمّي (سيبويه)، سيب: تفاح و"ويه" رائحته. فكأنه رائحة تفاح.. وفى المعجم الوسيط: السبب: مجرى الماء، والتفاح، ومنه (سيبويه): ومعناه رائحة التفاح.

١٣- فى : (أ - ص) الشبه. وكذلك فى (ن-م).

التفصيل المتقدم، وأما لشيئ لا يرجع إلى ذلك، وذلك لا يخلو إما أن يكون من جهة المعنى، أو من جهة اللفظ، فأما ما كان من جهة المعنى: فلا سبيل إلى إزالته بتغيير[١] العبارات وذاك أن المعاني ضربان، جليٌّ وغامض، فالجليُّ: ما يمكن إدراكه بأدنى تأملٍ، كقوله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾[٢] وقوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾[٣] إلى قوله: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[٤]، وأما الغامض: فعلى ثلاثة أضرب، الأول: أن يكون المعنى فى نفسه خفيًّا، نحو الكلام فى صفات الباري- سبحانه- ونفى التشبيه عنه، والثاني: أن يكون الكلام أصلاً يشتمل على فروع تتشعب[٥] منه كالآيات الدالة على الأحكام، والثالث: أن يكون مثلاً وإيماءً[٦]، كقولهم: "الصَّيفُ ضَيَّعتِ[٧] اللَّبَنَ"، وذلك لأن ظاهره ينبئ عن شيئ والمقصود غيره، وذلك فى القرآن كقصة موسى مع الخضر فى كسر[٨] السفينة، وقتل النفس[٩] الزكية بغير نفس، وإقامة جدارٍ من غير[١٠] نفع ظاهر، وكقصة الخصمين "إذ دخلوا على داود ففزع منهم[١١]"، وكقوله: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ﴾[١٢]، واللفظ أيضاً ضربان: لفظٌ جليٌّ، وهو أن يقع كيفيات الله للفظ وكمياته على حسب ما يجب[١٣] نحو: «قوله تعالى»[١٤]: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[١٥] ولفظ غامض، وذلك من ثلاثة أوجهٍ: إما من جهة الكيفية، وذلك بتقديم ما يقدر تأخيره،

١- فى : (أ-ص): بتعيين، وهو تصحيف، وكذلك فى (ن-م).
٢- سورة النساء: الآية (٣٦).
٣- سورة الأنعام : الآية (١٥١).
٤- سورة الأنعام: الآية (١٥٣).
٥- فى : (أ-ص) يتشعب.
٦- فى ن-م دائماً.
٧- فى: (أ-ص): "فى الصيف ضيعت اللبن"، وكذلك في (د-ك).
٨- يريد: خرق السفينة، وذلك إشارة إلى قوله تعالى: (فلما ركبا فى السفينة خرقها) الآية. (٧١) من سورة الكهف
٩- يريد بذلك الإشارة إلى قوله تعالى: (حتى إذا لقيا غلاماً فقتله قال أقتلت نفساً زكية بغير نفس) الآية : (٧٤) من سورة الكهف
١٠- يشير بهذا إلى قوله تعالى: (فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض فأقامه) الآية: (٧٧) سورة الكهف
١١- يشير إلى قوله تعالى : (وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب) الآية(٢١) سورة ص.
١٢- سورة النمل : الآية (٨٢).
١٣- زيادة من : (ف-ض).
١٤- ساقطة من (ن-م).
١٥ - سورة الفاتحة - الآية :(٢) .

أو تأخير ما يقدر تقديمه نحو قول الشاعر:

وَمَا مِثْلُهُ فِي النَّاسِ إِلاَّ مُمَلَّكاً ∴ أَبُـو أُمِّهِ حَـيٌّ أَبُـوهُ يُقَارِبُهُ[1]

وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿**وَلَوْلا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا**﴾[2].

وأما من جهة الكمية، وذلك إما من جهة البسط في الكلام، أو من جهة الحذف والإيجاز، فما كان من جهة البسط فكقوله تعالى: ﴿**وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ**﴾[3] الآية، وكقوله: ﴿**ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ**﴾[4]، وما كان من جهة الإيجاز والحذف، كقوله : ﴿**وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ**﴾[5]، وأما من جهة الإضافة، وذلك بحسب اعتبار حال المخاطب نحو قولك: افعل في الطلب والشفاعة والأمر..

(فَصْلٌ[6] فِي الآفَاتِ[7] المَانِعَةِ مِنْ فَهْمِ المُخَاطَبِ مُرَادَ المُخَاطِبِ)

الآفات المانعة من ذلك ثلاثة: الأولى: راجعة إلى الخطاب؛ إما من جهة اللفظ، أو من جهة المعنى، وقد تقدم ذلك، والثانية: راجعة إلى المخاطب، وذلك لضعف تصوره لما قصد[8] الإنباء عنه، أو قصور عبارته عن تصوير ما قُصِد الإنباء عنه، وخطاب الله- عز وجل- منزه عنها..

والثالثة: راجعة إلى المخاطَب، وذلك إما لبلادة فهمه عن تصور أمثال ذلك من المخاطبة، وإما لشغل خاطره بغيره، وذلك وإن كان موجوداً في بعض المخاطبين بالقرآن، فغير جائزٍ أن يشمل كافة المخاطَبين، إذ من المستبعد أن يكون الناس قاطبةً لا يفهمونه.

١- البيت للفرزدق كما في ديوانه : ص ١٠٨، وقاله الفرزدق يمدح فيه هشام بن إسماعيل وهو خال هشام بن عبدالملك، وهو فيه بيتا مفرداً وذكر جامع الديوان - رحمه الله - أنه لم يرد في أصول الديوان هذا الشاهد دائر في كتب النحو والبلاغة والأدب ، وهو من إنشادات أبي الحسن الأخفش على نسخته من كتاب سيبويه.

راجع : الكتاب - ح :١ - ص-٣٢، وانظر المعاني الكبير ص ٥٠٦، والكامل ح:١ - ص ٢٨ والأصول ح ٣- ص٤٦٧- والخصائص ج:١- ص١٤٦ ، صـ٣٢٩، ج : ٢ - ص٣٩٣ ، وأسرا ر البلاغة ص٢٠ ,٦٦ ، والفصول الخمسون - ص ٢٧٦ وضرائر الشعر ص٢١٣، وشروح التلخيص ح :١ - ص١٠٤ وشرح أبيات المغني - ج :٤ - ص١٤، وكتاب الشعر ج ١٠ - ص٢٦٧. مقدمة جامع التفاسير ص ٣٦ - الانتخاب في أبيات مشكلة الإعراب ص٢٠ - منثور الفوائد - لابن الأنباري - ص ٥٥ - الإفصاح للفارقي - ص٨٤ - الاستغناء في أحكام الإستثناء - ص٦٥٥.

٢- سورة الفتح : الآية (٢٥).

٣- سورة البقرة : الآية (١٧١)، ويقصد ببسط الكلام اجتماع الكاف مع (مثل) في قوله: (كمثل)، وقد أوضح ذلك في كتابه المفردات حيث قال: "وضرب لبسط الكلام، نحو: (ليس كمثله شئ) ، لأنه لو قيل: ليس مثله شئ كان أوضح للسامع.

٤- سورة الروم : الآية (٢٨)

٥- سورة البقرة : الآية (١٧٩).

٦- عنوان هذا الباب ساقط من (د.ك).

٧- في (ن-م) المانعة المخاطب من فهم مراد المخاطب.

٨ - في : (ط-س): ما.

(فَصْلٌ فِى عامَّةِ مَا يُوقِعُ الاخْتِلَافَ وَيُكْثِرُ الشُّبَهَ)

وذلك ثلاثة أشياء[١] حق العالم أن يعنى بتهذيبها وسد الثُّلم المنبثقة [٢] عنها.. أحدها: وقوع الشبه من الألفاظ المشتركة وقد تقدم. والثاني: اختلاف النظرين [٣] من جهة الناظرين، وذلك كنظر فرقتي- أهل الجبر والقدر، "حيث اعتبر أهل الجبر"[٤] السبب الأول فقالوا: الأفعال كلها من جهة الباري -سبحانه «وتعالى»[٥]- إذ لولاه لم يوجد شيئ منها، وقال أهل القدر: إن الممكنات من جهتنا، حيث اعتبروا السبب الأخير، وهو المباشر للفعل دون السبب الأول. والثالث: اختلاف نظر الناظرين من اللفظ إلى المعنى، أو من المعنى إلى اللفظ، وذلك كنظر الخطابي[٦] إلى اللفظ فى إثبات ذوات الأشياء، ونظر الحكماء من ذوات الأشياء إلى الألفاظ.

وذلك نحو الكلام فى صفات الباري- عز وجل- فإن الناظر من اللفظ وقع عليه الشبهة العظيمة فى نحو قوله تعالى:

﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾[٧]، وقوله: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾[٨]، وما يجرى مجراه..

وأهل الحقائق لما بينوا[٩] بالبراهن أن الله تعالى واحدٌ منزَّهٌ عن التكثر[١٠]، فكيف عن الجوارح؟ بنوا الألفاظ على ذلك، وحملوها على مجاز اللغة ومشاع[١١] الألفاظ، فصينوا عما وقع فيه الفرقة الأولى..

---

١ - ناقصة من : (ط-س).
٢ - فى (ن-م) المنثقبة، وكذلك في (د.ك) ، وهو تصحيف .
٣ - ساقطة من (ن-م) ، وكذلك من :(د-ك).
٤ - ناقصة من : (ط-س).
٥ - ساقطه من : (د-ك).
٦ - الخطا بى : هو حمد بن إبراهيم بن خطاب المتوفى سنه ٣٨٨هـ، وهو صاحب كتاب: (بيان إعجاز القرآن)، وقد نقل رأيه فى الإيمان بالصفات شيخ الإسلام ابن تيمية فى (رسالة الفتوى الحموية الكبرى) ص٤٦، وأشار ابن تيمية إلى مصدره في النقل وهو رسالة الخطابى المهورة فى الغنية عن الكلام وأهله)، وقد قال الخطابى فى هذه الرسالة: "فأما ما سألت عنه من الصفات وما جاء نها فى الكتاب والسنة، فإن مذهب السلف إثباتها وإجراؤها على ظواهرها، ونفي الكيفية والتشبيه عنها، وقد نفاها قوم، فأبطلوا ما أثبته الله، وحققها قوم من المثبتين، فخرجوا فى ذلك إلى ضرب من التشبيه والتكييف، وإنما القصد فى سلوك الطريق المستقيمة بين الأمرين. ودين الله تعالى بين الغالى فيه والمقصر عنه مقدمة جامع التفاسير - ص ٤٠
٧- سورة المائدة : الآية (٦٤). ويقصد بالشبهة العظيمة شبهة التشبيه، غير أن الخطابى الذى اعتبره الراغب ناظراً من اللفظ إلى المعنى قد صرح تصريحاً قاطعاً ينفي ذلك كله حينما قال: (ولا نقول إنها جوارح ولا تشبيهاً بالأيدي والاسماع والأبصار التى هى جوارح وأدوات للفعل..)، ومما يوضح رأي الخطابى ما ذكره ابن تيمية فى "الرسالة المدنية فى تحقيق المجاز والحقيقة فى صفات الله تعالى" من ص ٨ إلى ص ١٣ مقدمة جامع التفاسير - ص ٤١
٨ - سورة القمر : الآية (١٤).
٩- فى (أ-ص)، (ط-س) تبينوا.
١٠- فى (ن-م) التكثير ، وكذلك فى : (د-ك).
١١- فى (ن-م) ومساغ.

(فَصْلٌ فِى أَقْسَامِ مَا يَنطَوِى عَلَيْه القُرآنُ مِنْ أَنْوَاعِ الكَلَامِ)

وقد تقرر أن أنواع الكلام المركب الخبر، والاستخبار، والأمر، والنهي والطلب والشفاعة[١] والوارد فى كلام الله تعالى من ذلك: الخبر والأمر والنهي،[٢] وذاك أن علام الغيوب لا يحتاج إلى الاستخبار وكل ما ورد من ألفاظ الاستخبار فعلى الحكاية أو على الإنكار والتوبيخ، والمولى لا يطلب من عبده ولا يتشفع إليه. فإذن هذه الثلاثة ساقطة من القرآن، والخبر: ما ينطلق عليه الصدق والكذب، وخاصيته أن يتعلق بالأزمان الثلاث. والأمر والنهي لا ينطلق عليهما ذلك، ولا يتعلقان[٣] إلا بالمستقبل. وفائدة الخبر ضربان: أحدهما : إلقاء ما ليس عند المخاطب إليه ليتصوره نحو أمور الآخرة من الثواب والعقاب.

والثاني : إلقاء ما قد تصوره ليتأكد عنده. وعلى ذلك جميع ما ورد فى القرآن مما قد علم بالعقل مثل "الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد". وفائدة الأمر والنهي شيئان: أحدهما: حث المخاطب على اكتساب محمود واجتناب مذموم. والثاني: حثه على الوجه الذى به يكتسب المحمود ويجتنب المذموم المقررين [٤] عند المخاطب، والغرض الأقصى من الخطاب الخبري: إيصال المخاطب إلى الفرق بين الحق والباطل ليعتقد الحق دون الباطل. ومن الأمر والنهي أن يفرق بين الجميل والقبيح، ليتحرى الجميل، ويجتنب القبيح. فكل خبر: فإما[٥] أن يكون معرباً عما يلزم اعتقاده، فيسمى "الخبر الاعتقادي"، وذلك نحو ما ينطوي عليه قوله : ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾[٦] وإما أن يكون مبيناً[٧] عما يقتضى الاعتبار به، فيسمى "الخبر الاعتباري"، كأخبار الأنبياء وأممهم والقرون الماضية، والأخبار عن خلق السماوات والأرض.

وكل أمر ونهي: فإما أن يكون أمراً بما يقتضي العقل حسنه، ونهياً عما يقتضي العقل قبحه، فيسمى"الأوامر والنواهي العقلية"، أو أمراً [٨] بما تقصر عقولنا عن معرفة حسنه، ونهياً عما تقصر[٩]

١- قال ابن فارس فى "الصاحبي" ١٧٩-(باب معاني الكلام). وهى عن أهل العلم عشرة: "خبر، واستخبار، وأمر، ونهي، ودعاء، وطلب، وعرض وتخصيص، وتمن وتعجب"- مقدمة جامع التفاسير - ص ٤٢ .

٢- فى : (ط-س): وذلك .

٣- فى: (ط-س): يتعلق ، وهو خطأ من الناسخ.

٤- فى: (ط-س) : المقرران، وهو خطأ من الناسخ.

٥- فى (ن-م) إمَّا.

٦- سورة النساء: الآية (١٣٦) .

٧- فى : (ط-س): مبنياً. وفى (ن-م) مُنبئًا وهى الأصح.

٨- فى : (ط-س) : أمرٌ وهو تصحيف.

٩- فى : (ط-س): بما يقصر.

عقولناعن معرفة قبحه، فيسمى[1] :"الأوامر والنواهي الشرعية" والفرق بين العقلي منها والشرعي : أن العقلي لا يتغير على مرور الأيام ولا ينسخ في شئ من الأزمان.

والشرعي: ما يتسلط عليه النسخ والتبديل، بحسب ما يتعلق به من المنافع.

(فَصْلٌ فِي كَيْفِيَّةِ بَيَانِ الْقُرانِ)

اعــتــرض "بعض" [2]الناس فقال : كيف وُصفَ القرآن بالبيان، فقال تعالى: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾[3]، وقال: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا﴾[4] وقال: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾[5]، وقال: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ﴾[6]، وقد عُلم ما فيه من الإشكال والمتشابه وما يجرى مجرى الرموز، نحو قوله تعالى: ﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾[7] وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾[8] وقد[9] وصفه تعالى بالمتشابه وبأنه لايعلم تأويله إلا هو؟ فالجواب أن البيان المشترط فيه إنما هو بالإضافة إلى "أعيان"[10] أرباب أهل الكتاب لا إلى كل من يسمعه[11] ممن دبَّ ودرج، فقد علمنا أن ذلك ليس ببيانٍ لمن ليس من أهل العربية، ثم أحوال أهل العربية مختلفة فى معرفته. ولو كان البيان لا يكون بياناً حتى يعرفه العامة لأدى إلى أن يكون البيان[12] فى الكلام السوقي[13] العامي [14] أو إلى أن لايكون بياناً[15] بوجه، إذ كل كلام بالإضافة إلى قوم بيان، وبالإضافة إلى آخرين ليس ببيان، وقد عُلمَ أن قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ

١- فى : (ط-س)، وفى (فـ-ض)- فتسمى.
٢- سقطت من : (ط-س).
٣- سورة آل عمران : الآية : (١٣٨).
٤- سورة النساء: الآية (١٧٦).
٥- سورة الشعراء: الآية (١٩٥).
٦- سورة النور: الآية (٣٤).
٧- سورة البقرة : الآية (١٠٢).
٨- سورة الأنبياء : الآية (٩٦).
٩- فى : (ط-س)- (قد).
١٠- ساقطة من : (فـ-ض). وكذلك من (ن-م).
١١- فى : (أ-ص) يستمعه وكذلك فى (ن - م) ، (د.ك).
١٢- ساقطة من : (أ-ص).
١٣- فى : (أ-ص).. كلام السوقى وكذلك في (ن -م).
١٤- فى: (ط-س): والعامى.
١٥- فى: (أ-ص)، (ط-س) بيان.

خَلْقَهُمْ﴾[١] وقوله: **﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾**[٢] من أشرف كلام، ولاَحَظَّ فى معرفته لمن لم يتوفر نصيبه من البلاغة، وكذلك قول الشاعر:

فَاقْطَعْ لُبَانَةَ مَنْ تَعرَّضَ وَصلُهُ...[٣]

وقول الآخر:[٤]

وَمَا الْمَرْءُ مَادَامَتْ حُشَاشَةُ نَفْسه   بُمُدرِكِ أَطْرَافِ الخُطُوبِ ولاَ آلِ

من أفصح كلام ولا يعرفه جميع الأنام. ثم إن القرآن وإن كان فى الحقيقة هداية للبرية، فإنهم لن يتساووا فى معرفته، وإنما يحيطون[٥] به بحسب درجاتهم واختلاف أحوالهم. فالبلغاء تعرف من فصاحته، والفقهاء من أحكامه، والمتكلمون من براهينه العقلية، وأهل الآثار من قصصه ما يجهله غير المختص بفنه، وقد علم أن الإنسان بقدر ما يكتسب من قوته فى العلم تتزايد معرفته بغوامض معانيه، وعلى ذلك أخبار النبى ﷺ، ولهذا[٦] قال عليه السلام:

«نَضَّرَ الله أمْرءًا سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاهَا كَمَا سَمِعَهَا حَتَّى يُؤَدِيهَا إلى مَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا، فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ»..[٧].

(فَصْلٌ فِى الْفَرقِ بَيْنَ التَّفْسِيرِ وَالتَّأْوِيلِ)

الفسر والسفر يتقارب معناهما كتقارب لفظيهما، لكن جعل الفسر لإظهار المعنى المعقول ومنه قيل لما ينبىء عنه البول تفسره، وتسمى بها قارورة الماء[٨] . وجُعل السفر لإبراز الأعيان للأبصار، فقيل: سفرت المرأة عن وجهها[٩]، وأسفر الصبح، وسفرت البيت إذا كنسته.،، والتأويل من آل يؤول:

١- سورة الأنفال: الآية (٥٧).

٢- سورة الأنفال: الآية (٥٨).

٣- البيت للبيد من معلقته وشطره الثاني: "ولشر واصل خلة صرامها".. الديوان: ١٦٧- دار صادر- بيروت.

٤- البيت لامرىء القيس، وقد جاء قبله: ولكنما أسعى لمجد مؤثل   وقد يدرك المجد المؤثل أمثالى الديوان- ص ١٤٥- دار صادر - بيروت.

٥- فى : (أ-ص): يخطئون- وهو تصحيف. وكذلك فى (ن-م).

٦- فى: (أ-ص): ولذلك. وكذلك فى (ن-م) ، و(د-ك).

٧- الحديث فى مسند الإمام أحمد - ٤٣٧/١ ولفظه: (نضر الله امرءاً سمع مناحديثاً وحفظه حتى يبلغه ، فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ورب حامل فقه ليس بفقيه) ، وفى سنن ابن ماجة برقم "٣٠٥٦" ولفظه: (نضر الله امرءاً سمع مقالتى فبلغها، فرب حامل فقه غير فقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه). وهو أيضاً فى جامع الأصول: ١٨/٨ .

٨- قال الراغب فى مفرداته: "الفسر: إظهار المعنى المعقول. ومنه قيل لما ينبئ عنه البول: تفسرة، وسمى بها قارورة الماء. والتفسير فى المبالغة- كالفسر. والتفسير قد يقال فيما يختص بمفردات الألفاظ وغريبها وفيما يختص بالتأويل، ولهذا يقال: تفسيرالرؤيا وتأويلها . قال: (وأحسن تفسيراً) وقال السيوطي فى الإتقان: "وقال الأصبهاني فى تفسيره: "أعلم أن التفسير فى عرف العلماء كشف معاني القرآن وبيان المراد أعم من أن يكون بحسب اللفظ المشكل وغيره، وبحسب المعنى الظاهر وغيره" الاتقان فى علوم القرآن ج: ٤-ص١٦٨.

٩ - فى : (د-ك) زوجها ، وهو تصحيف .

إذا رجع، والتفسير أعم من التأويل، وأكثر ما يستعمل التفسير في الألفاظ، والتأويل: في المعاني كتأويل الرؤيا. والتأويل: يُستعمل أكثره في الكتب الإلهية، والتفسير يُستعمل فيها وفي غيرها، والتفسير: أكثره يُستعمل في مفردات الألفاظ[1]، والتأويل أكثره "يُستعمل"[2] في الجمل، فالتفسير: إما أن يُستعمل في غريب الألفاظ نحو "البحيرة"[3] والسائبة"[4] والوصيلة"[5]، أو في «وجيز يُبَيَّنُ ويُشرح»[6] كقوله: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾[7]، وإما في كلام مُضَمَّنٍ بقصة لا يمكن تصوره "إلا"[8] بمعرفتها نحو قوله: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾[9]، وقوله: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾[10] الآية... وأما التأويل: فإنه يُستعمل مرة عاماً ومرةً خاصاً، نحو "الكفر" المستعمل تارةً في الجحود المطلق، وتارةً في جحود الباري خاصةً. و"الإيمان" المستعمل في التصديق المطلق تارة، وفي تصديق دين الحق تارةً. وإما في لفظٍ مشتركٍ بين معانٍ مختلفةٍ نحو لفظة "وجد" المستعملة في الجدة والوجد والوجود. والتأويل نوعان: مستكره ومنقاد: فالمستكره: ما يستبشع إذا سُبِرَ بالحُجَّة، ويستقبح بالتدليسات[11] المزخرفة المزوجة"[12] وذلك على أربعة أضرب:

الأول: أن يكون لفظ عام فيخصص في بعض ما يدخل تحته، نحو قوله تعالى: ﴿وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[13] حمله بعض الناس على علي بن أبي طالب – رضي الله عنه– فقط. والثاني: أن يلفق[14] بين اثنين نحو قول من زعم أن الحيوانات كلها مكلفة محتجاً بقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾[15]، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾[16]، فدل بقوله «أمم أمثالكم» أنهم مكلفون كما نحن مكلفون،

١- في : (ن – م) في معاني مفردات .

٢- ساقط من : (ط – س) وفي (ن–م) كالبحيرة وكذلك في (د–ك).

٣- قال الراغب في المفردات: (وذلك ما كانوا يجعلونه بالناقة إذا ولدت عشرة أبطن، شقوا أذنها، فيسيبوها، فلا تُركب ولا يُحمل عليها

٤- قال الراغب في المفردات: "السائبة" التي تسيب في المرعى، فلا ترد عن حوض ولا علف، وذلك إذا ولدت خمسة أبطن .

٥- قال الراغب في المفردات : وقوله: (ولا وصيلة): "وهو أن أحدهم كان إذا ولدت له شاته ذكراً وأنثى قالوا : وصلت أخاها، فلا يذبحون أخاها من أجلها."

٦- في :(ن–م) أو في تبيين وشرح ، وفي (د.ك) أو في جزئين وشرح .

٧- في : (ف–ض)، (أ–ص) (أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) وهي في سورة البقرة الآيتان : (٤٣، ٨٣)، ووردت في سور أخرى كثيرة

٨- سقطت من : (ط–س).

٩- سورة التوبة : الآية (٣٧).، وقال الراغب في المفردات: "ومنها النسئ الذي كانت العرب تفعله ، وهو تأخير بعض الأشهر الحرم إلى شهر آخر".

١٠- سورة البقرة : الآية (١٨٩).

١١- في (ن–م) بالتدليات وهو تصحيف.

١٢- سقطت من : (ط–س).

١٣- سورة التحريم: الآية (٤).

١٤ – في : (أ–ص)– أن تلفق. وكذلك في (ن–م) ، و(د–ك).

١٥- سورة فاطر: الآية (٢٤).

١٦- سورة الأنعام: الآية (٣٨).

الثالث[١] ما استعين فيه بخبر مزور أو كالمزور كقوله تعالى: ﴿يومَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾[٢]، قال بعضهم: عنى به الجارحة مستدلاً بحديثٍ موضوع[٣]. والرابع : ما يستعان فيه باستعاراتٍ[٤] واشتقاقاتٍ بعيدة، كما قاله بعض الناس فى البقر: إنه "إنسان"[٥] يبقرُ عن أسرار العلوم، وفى الهدهد: إنه إنسان "موصوف"[٦] بجودة البحث والتنقير.

فالأول: أكثر ما يروج[٧] على المتفقهة[٨] الذين لم[٩] يقووا فى معرفة الخاص والعام، والثانى على المتكلم الذى لم يقو فى معرفة شرائط النظم، والثالث على صاحب الحديث الذى لم يتهذب فى شرائط قبول الأخبار. والرابع : على الأديب الذى لم[١٠] يتهذب بشرائط الاستعارات والاشتقاقات. والمنقاد من التأويل: ما لا يعرض فيه البشاعة المتقدمة. وقد يقع الخلاف فيه بين الراسخين فى العلم لإحدى جهات ثلاث: إما لاشتراك فى اللفظ: نحو قوله تعالى:

﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾[١١] هل هو من بصر العين، أو من بصر القلب؟ أو لأمرٍ راجعٍ إلى النظم نحو قوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا﴾[١٢] هل هذا الاستثناء مقصور على المعطوف، أو مردود إليه وإلى المعطوف عليه معاً؟ وإما لغموض المعنى ووجازة اللفظ، نحو قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[١٣] والوجوه التى يُعتبر بها[١٤] تحقيق أمثالها أن ينظر: فإن كان ما ورد فيه ذلك أمراً أو نهياً عقلياً فزع فى كشفه إلى الأدلة العقلية، فقد حث تعالى على ذلك فى قوله: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾[١٥] وإن كان أمراً شرعياً فزع فى

١- فى : (أ-ص): والثالث.
٢- سورة القلم: الآية (٤٢).
٣- لعله يريد بالحديث الموضوع ما جاء فى تفسير ابن كثير عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «يوم يُكشف عن ساق» يعنى : عن نور عظيم يخرون له سجداً، وقد علق عليه ابن كثير بقوله: ورواه أبو يعلى عن القاسم بن يحيى عن الوليد بن مسلم به، وفيه رجل مبهم والله أعلم. - مقدمة جامع التفاسير - ص ٤٩ .
٤- فى : (ط-س) به.
٥- سقطت من : (ط-س).
٦- سقطت من : (ط-س).
٧- فى : (ط-س) : روج .
٨ - فى : (ط-س): على المتفقة.
٩ - فى : (ط-س): يقولوا ، وهو تصحيف ظاهر.
١٠- فى (ن-م) الذى يتهذب.
١١- سورة الأنعام : الآية (١٠٣).
١٢- سورة النور : الآيتان : (٤، ٥).
١٣- سورة البقرة : الآية (٢٢٧).
١٤- فى : (أ - ص) فيها .
١٥- سورة ص : الآية (٢٩).

كشفه إلى آية محكمة أو سنة مبينة، وإن كان من الأخبار الاعتقادية فزع إلى الحجج العقلية. وإن كان من الأخبار[١] الاعتبارية فزع فيه إلى الأخبار الصحيحة المشروحة في القصص.

(فَصْلٌ فِي الْوُجُوهِ الَّتِي بِهَا يُعَبَّرُ عَنِ الْمَعْنَى وَبِهَا يُبَيَّنْ)[٢]

لما كان المعنى "الواحد[٣]" يقرب من الأفهام بعبارات مختلفة لأغراض متفاوتة، وجب أن يبين الوجوه التي منها "تختلف"[٤] العبارات عن المعنى الواحد. فالمعنى الواحد قد يُدل عليه بأشياء كثيرة: إما باسمه نحو "إنسان"، أو بنسبه[٥] نحو "آدمي" و"ولد حواء"، أو بإحدى خصائصه اللازمة له: نحو "المنتصب القامة" أو "الماشي برجليه" أو "العريض الأظفار"، وإما بفصله[٦] اللازم كقولك "الناطق"، "المائت"[٧]. وكما يبين الشئ بأوصاف كثيرة، كذلك قد يتبين بأسماء كثيرة متضمنة لأوصاف مختلفة، كقولك[٨] في الجرم[٩] العلوي: "السماء" لما اعتبر[١٠] ارتفاعها بالإضافة إلى الأرض، و"الجرباء": لما "اعتبروا نجومها"[١١]، وأنها كجربٍ في الجلد و"الخلقاء" و"الملساء" لما اعتبر[١٢] بحالها عند فقدان نجومها بالنهار[١٣]، و"الرقيع"[١٤] تشبيهاً بالثوب المرقوع لظهور نجومها ظهور الرقاع في المرقع "والخضراء" لما اعتبر[١٥] لونها، وعلى ذلك قولهم "في المرأة"[١٦]: "الزوج" لما اعتبرت بازدواجها بالرجل، و"الظعينة" لما اعتبر ظعنها معه، و"القعيدة" لما اعتبرت بقعودها في البيت أو بكونها مطية له

١- ساقطة من (ن-م) ، و(د-ك).
٢- في: (أ-ص): ويبين بها. وكذلك في (ن-م).
٣- سقط من (ط-س).
٤- في (ف-ض): يختلف.
٥- في : (أ-ص): نسبه.
٦- في : (ف-ض): (أ-ص) بأحد.، وفي : (أ-ص): بفضله، وهو تصحيف. وكذلك في (ن-م) و (د-ك).
٧- في (أ-ص): المائية. وكذلك في (ن-م) ، (د-ك).
٨- في: (أ-ص) ، وفي (ط-س) كقولك وفي (ن-م) كقولهم.
٩- في (أ-ص: الجرام.
١٠- في (ن-م) لما اعتبروا وهوالأصح.
١١- في (ط-س) لما اعتبر بنجومها.
١٢- في (ن-م) لما اعتبروا.
١٣- ساقطة من (ن-م) .
١٤- في (ن-م) والرقعاء.
١٥- في (ن-م) لما اعتبروا ظهور شبه الرقاع في المرقع وهي كذلك في (د - ك).
١٦- سقطت من : (أ-ص)، (ط-س).

كالقعود من الجمال، والقعدة من الأفراس، ألا ترى أنها سميت "مَطيَّة" فى قول الشاعر:

مَطيَّاتُ السُّرُورِ فُوَيْقَ عَشْرٍ إلى عِشْرِينَ ثُمَّ قِفِ المطَايَا[١]

و"حليلة"[٢] إذا اعتبر حلولها معه، أو حل الأزار له. وذلك يُفعل لأحد أمرين: إما لأن الشئ "فى نفسه"[٣] لا يمكن إبرازه إلا بالعبارات الدالة على أوصافه كمعرفة الله -عز وجل- لما صعبت[٤] لم يكن لنا سبيل "إليها"[٥] إلا بصفاته، وكأن الله تعالى جعل لناأن نصفه بهذه الأوصاف لتكون لنا ذريعة إلى معرفته، إذ لا سبيل لنا إليها إلا استدلالاً بأوصافه وأفعاله، ولذلك قال "موسى"[٦]- عليه السلام- لما سأله فرعون: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾؟[٧] "قال: ﴿قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾[٨]. ولما قال له: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ﴾؟[٩] "قال : ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[١٠]، فلم يجبه عن الماهية، لما كان الباري تعالى منزهاً عنها، وأحاله عن صفاته الكثيرة، وإما لأن الشئ له تركيبات "وأحوال"، فيجعل له بحسب كل واحد منها اسم كما تقدم فى أسماء السماء، وبحسب ذلك قال النبى[١١] عليه السلام: **"سُمِّيتُ محمداً، وأحمد، وخاتماً، وحاشراً، وعاقباً وماحياً"** [١٢] لأنه محمود، وحامد، وخاتم الأنبياء، وحاشر، لأنه بُعث مع الساعة "نذيراً لكم بين يدى عذابٍ شديد"، وعاقب: لأنه عقب الأنبياء، وماحي: لأنه محى به سيئاتٍ من اتبعه.

١- البيت ورد فى أمالي الزجاجي منسوباً لمحمد بن عبدالله بن طاهر بلفظ.

مطيات السرور بنات عشر إلى عشرين ثم قف المطايا

وقد جاء بعده: فإن جاوزتهن فسر قليلاً بنات الأربعين من الرزايا

إلى أن قال: مقاساة النساء مع الليالي إذا أولتهن من البلايا

مقدمة جامع التفاسير - ص٥٣ تحقيق : د/أحمد فرحات .

وأورده صاحب الدر الفريد ، ونسبه إلى دعبل الخزاعي - ج : ٥ - ص ١١٤ .

٢- فى (ن-م) وحلية وهو تصحيف.

٣- سقطت من : (ط-س).

٤- فى : (ط-س): لما صعب.

٥- سقطت من : (ط-س).

٦- سقطت من : (ط-س).

٧- سورة الشعراء: الآيتان : (٢٣، ٢٤).

٨- فى . (ط-س): كما، وهو خطأ من الناسخ.

٩- سورة طه : الآية (٤٩).

١٠- سورة طه: الآية : (٥٠).

١١- ساقطة من (ن-م).

١٢- الحديث فى "فتح الباري. : ٥٥٤/٦ برقم ٣٥٣٢ بلفظ: "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لى خمسة أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحى الذى يمحو الله بى الكفر، وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب». وقد تكرر أيضاً فى ٦٤٠/٧ برقم: ٤٨٩٦. كما ورد أيضاً فى تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي والزيادة ذكرها الراغبي وهى غير موجودة في كتب الحديث: ١٢٩/٨ برقم ٢٩٩٦. وورد أيضاً فى موطأ الإمام مالك وفى شرح الزرقاني على الموطأ: ٤٣٢/٤ ورقمه: ١٩٥٥ وكل هذه الروايات متفقة على الأسماء الخمسة التى ذكرها البخاري وليس فيها الزيادة التى ذكرها الراغب وهى "خاتم" مقدمة جامع التفاسير - ص٥٤..

(فَصْلٌ فِى الْحَقِيقَةِ وَ الْمَجَازِ)

الحقيقة مشتقة من الحق، والحق يستعمل على وجهين[١] : أحدهما: فى الموجود الذى وجوده بحسب مقتضى الحكمة بنحو قولنا: الموت حق، والبعث حق، والحساب حق، والثانى: للاعتقاد المطابق لوجود الشئ فى نفسه، أو فى القول المطابق لمعنى الشئ الذى هو عليه، نحو أن يقال: إن اعتقاد فلان فى البعث حق، وقوله فى الثواب والعقاب حق، ويضاد "الحق"، الباطل، وإذا فُهِمَ الحق فُهِمَ الباطل، لأن العلم بالمتضادين واحد. وأما الحقيقة: فإنها تستعمل فى المعنى تارةً، وفى اللفظ تارةً. فأما استعمالها[٢] فى المعنى: فعبارة[٣] عما ينبئ عن الحق ويدل عليه، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام لحارثة: لما قال: «**أصبحت مؤمناً حقاً**: "**قال: لكل حق حقيقة فما حقيقة**[٤] **إيمانك؟**» أى: ما الذى ينبئ عن ذلك؟"[٥].

ويستعمل فى العمل والاعتقاد والخبر، فيقال: هذا فعلٌ وخبرٌ وقول له حقيقة. ويستعمل فى ضدها المجاز، والتسمح، والتوسع، فيقال: هذا فعل واعتقاد وخبر فيها تجُّوز وتسمُّح وتوسُّع ولا فرق "بين"[٦] أن يكون مثل هذا الخبر بلفظ مجاز أو لفظ حقيقة فى أنه يقال هو حقيقة إذا كان مطابقاً لما عليه الشئ فى نفسه. وإذا استعملت فى اللفظ، فالمراد به: اللفظ المستعمل فيما وضع له فى أصل اللغة من غير نقلٍ ولا زيادةٍ ولا نُقْصانٍ، والمجاز على العكس من ذلك، وكلاهما ضربان: أحدهما فى

١- قال الراغب فى مفرداته: أصل الحق المطابقة والموافقة، كمطابقة رجل الباب فى حقه لدورانه على استقامة. والحق يقال على أوجه: الأول: يقال لموجد الشئ بسبب ما تقتضيه الحكمة، ولهذا قيل فى الله تعالى هو الحق، قال الله تعالى: "ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق"، وقيل بعيد ذلك: "فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون" والثانى: يقال للموجد بحسب مقتضى الحكمة، ولهذا يقال: فعل الله تعالى كله حق وقال تعالى: (هو الذى جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً) إلى قوله تعالى: (ما خلق الله ذلك إلا بالحق)، وقال فى القيامة: (ويستنبئونك أحق هو قل إى وربى إنه لحق) (ويكتمون الحق) وقوله عز وجل: (الحق من ربك)، (وإنه للحق من ربك). والثالث: فى الاعتقاد للشئ المطابق لما عليه ذلك الشئ فى نفسه، كقولنا: اعتقاد فلان فى البعث والثواب، والعقاب والجنة والنار حق. قال الله تعالى: (تهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق). والرابع: للفعل والقول الواقع بحسب ما يجب وفى الوقت الذى يجب، كقولنا: فعلك حق، وقولك حق: قال الله تعالى: (كذلك حقت كلمة ربك)، (حق القول منى لأملأن جهنم)- مقدمة جامع التفاسير - ص٥٥ - مفردات الراغب - ص٢٤٦.

٢ - فى: (أ-ص)، (ط-س)، (ف-ض) استعماله .

٣- ساقطة من (ن-م)،

٤- فى (ن-م) فما إيمانك؟.

٥- جاء فى مجمع الزوائد ٥٧/١: عن الحارث بن مالك الانصارى أنه مر بالنبى- صلى الله عليه وسلم- فقال له: كيف أصبحت؟ قال: أصبحت مؤمناً حقاً. قال: انظر ما تقول، فإن لكل قول حقيقة، فما حقيقة إيمانك؟ قال: عزفت نفسى عن الدنيا فأسهرت ليلي، وأظمأت نهاري وكأنى أنظر عرش ربى بارزاً، وكأنىء انظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها، وكأنى أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها. قال: ياحارثة: عرفت الأمر فالزم. رواه الطبراني فى الكبير، وفيه ابن لهيعة، وفيه من يحتاج إلى الكشف عنه. وعن أنس رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم لقى رجلاً يقال له حارثة فى بعض سكك المدينة، فقال: كيف أصبحت ياحارثة؟ قال أصبحت مؤمناً حقاً، قال: إن لكل إيمان حقيقة. فما حقيقة إيمانك؟ فقال: عزفت نفسي عن الدنيا، فأظمأت نهاري وأسهرت ليلي، وكأني بعرش ربى بارزاً، وكأني بأهل الجنة فى الجنة ينعمون فيها، وكأني بأهل النار يعذبون، فقال النبى - صلى الله عليه وسلم أصبت فالزم. مؤمن نور الله قلبه- رواه البزار- وفيه يوسف بن عطية لا يحتج به ، وانظر مقدمة جامع التفاسير - ص٥٦.

٦- ساقط من : (ط-س).

مفردات الألفاظ، والثاني في الجمل: فالمجاز في المفردات: إما أن يكون بنقل، نحو فلانٌ عظيم الحافر، ويراد به القـدم. أو زيادة[١] نحو أنظور في "انظر"، وأرأيت لو كان على أبيك دين فقضيتيه "أي قضيته"[٢] أو بنقصان نحو:

دَرَسَ المنا بُمتَالِع فَأبانِ[٣] - ، أي : المنازل.

وربما يكون اللفظ الواحد من وجه حقيقةً، ومن وجهٍ مجازاً، نحو قولهم: "فلانٌ عظيم الإقدام"، فمن حيث استعمل القدم حقيقة، ومن حيث أتى بلفظ الجمع مجاز[٤]، وأما المجاز في الجمل، فمن حيث هي[٥] جملة لا يكون إلا بحذفٍ أو زيادةٍ، أما الحذف: فما كان المحذوف منه شيئاً مستغنى عنه لدلالةٍ عليها، فذلك[٦] من الإيجاز نحو حذف المخبر "عنه"[٧] تارةً، والخبر تارةً، والمضافْ تارةً، والمضاف إليه تارة، والمفعول تارة، والفاعل تارةً، وأمثلتها مشهورةٌ يُستَغْنَى عن ذكرها. وأما الزيادة: فلا شبهة أن كل زيادة تقتضي[٨] زيادة معنى، أو بسط مختصر، أو شرح مبهم، فإنها مستحسنة متى حصل[٩] فيها شرائط البلاغة، نحو ذكر "جبريل" و"ميكائيل"[١٠] بعد ذكر "الملائكة"، وذكر "النخل" و"الرمان" بعد ذكر "الفاكهة"، وكذلك[١١] ما كان من نحو زيادة اللازم في "شَكَرْتُهُ وَشَكَرْتُ لَه"، وأما المستنكر المستكره عند أكثر المحصلين- فكل زيادة ادُّعى فيها أن وجودها وعدمها سواء كما زعم بعضهم أن ذلك "كالكاف" في قوله تعالى: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**﴾[١٢] و"الوجه" في قوله: ﴿**فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ**﴾[١٣] أي: الله[١٤] وقوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ ، أي بالله، وقوله : ﴿**مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ**﴾[١٥] أي: أن تسجد، وكل ذلك يجيئ الكلام عليه في مواضعه في أنها ليست بزائدة، وأن

١- في (ن-م) أوزيادة.
٢- زيادة من (ط-س)، وفي (ف-ض)، (أ-ص) فقضيته وهو تصحيف.
٣- هذا شطر بيت للبيد بن ربيعة .
وعجزه : فتقادمت بالحبس فالسوبان.
والبيت بعده :
فنعاف صارة فالقنان كأنها ... زبرٌ يرجعها وليد يمان
والحبس وأبان جبلان بالبادية، والسوبان وادٍ لبني تميم
وتقادمت : أي قدمت . ديوان لبيد صـ ٢٠٦ . دار صادر - بيروت
٤- في (أ-ص): مجازاً
٥- سقط من : (ط-س).
٦- في (ن-م) (فكذلك)
٧- سقط من : (ط-س).
٨- في: (ط-س): يقتضي.
٩- في :(ف-ض)، (أ -ص)، (ط-س): فإنه مستحسن متى حصل فيه .
١٠- في (ن-م) ثم ذكر الملائكة.
١١- في (ن-م) ولذلك.
١٢- سورة الشورى: الآية (١١)، وقد قال فيها الراغب في المفردات: "وأما الجمع بين الكاف و"المثل"، فقد قيل: ذلك لتأكيد النفي- تنبيهاً على أنه لا يصح استعمال "المثل" ولا "الكاف"، فنفى ب"ليس" الأمرين جميعاً. وقيل: المثل- ههنا: هو بمعنى الصفة، ومعناه ليس كصفته صفة، تنبيهاً على أنه وإن وُصف بكثير مما يوصف به البشر، فليس تلك الصفات له على حسب ما يستعمل في البشر - مفردات ألفاظ القرآن - ص ٧٥٩.
١٣- سورة البقرة : الآية (١١٥).
١٤- ساقطة من : (ط-س).
١٥- سورة الأعراف : الآية (١٢).

لها معاني صحيحة. وبعض الناس تَحَرَّوْا فى آياتٍ ذكرها الله تعالى على سبيل المثل تَطَلُّب الحقائق، ورأوا أن ذلك المعنى إذا لم يكن له وجود "على سبيل" الحقيقة كان كذباً، وذلك فى نحو قوله تعالى: **﴿خصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾**(١)، وقول إبراهيم عليه السلام: **﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾**(٢) حتى إن بعضاً(٣) حمل قول النبى عليه السلام: **«إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَمْ يَكْذِبْ إلاَّ ثَلاَثَ كذباتٍ كلها يُمَاحِكُ بِهَا عَن دِينِهِ»**. قال: **«إنى سقيمٌ، وهذه أختي وبل فعله كبيرهم"** » على الحقيقة، وخفي عليه أن المذكور على وجه المثل إذا تُحرِّى به معنى صحيحُ لم يكن كذباً(٤)، نحو قولنا لمن نحثه على عمل: "أَطِّري فإنِك فاعلَة"(٥) كما يقال لمن(٦)

١- سورة ص : الآية (٢٢).

٢- سورة الأنبياء : الآية (٦٣).

٣- فى: (أ-ص) بعضنا. وكذلك فى (ن-م).

٤- قال ابن كثير فى تفسيره لقوله تعالى: (فقال إني سقيم)(: إنما قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام لقومه ذلك ليقيم فى البلد إذا ذهبوا إلى عيدهم، لأنه قد كان أزف خروجهم إلى عيد لهم، فأحب أن يختلي بآلهتهم ليكسرها، فقال لهم كلاماً هو حق فى نفس الأمر، فهموا منه أنه سقيم على مقتضى ما يعتقدونه فأما حديث (لم يكذب ابراهيم إلا ثلاث كذبات اثنتين فى ذات الله تعالى، قوله: "إنى سقيم" ، وقوله: (بل فعله كبيرهم هذا)، وقوله فى سارة: (هى أختى) فهو حديث مخرَّج فى الصحاح والسنن من طرق، ولكن ليس هذا من باب الكذب الحقيقي الذى يذمُّ فاعله، حاشا وكلا وإنما أطلق الكذب على هذا تجوزاً، وإنما هو من المعاريض فى الكلام لمقصد شرعي ديني - مقدمة جامع التفاسير ص ٥٨.

٥- فى : (ط-س) فاعلةً، وقد جاء فى كتاب: (فرائد اللآل فى مجمع الأمثال) للشيخ إبراهيم بن السيد على الأحدب الطرابلسي - ج: ١-ص٣٦٤-٣٦٥ ما يلي: **يادي أطري أن تكوني فاطـــة   إنك أنت يافتاة ناعلــــه**

الإطرار: أن تركب طرر الطريق وهى نواحيه، وقيل معناه: أدلي. وقيل: اركب الأمر الشديد فإنك قوى عليه. وأصله أن رجلاً قال لراعية كانت له ترعى فى السهولة وتدع الحزونة: أطري، أى : خذي .. طرر الوادي. وهى نواحيه. فإن عليك نعلين ، كأنه عنى هما غلظ جلد قدميها، وقيل: "أطرى": خذى أطرار الإبل، أى: نواحيها، يريد: حوطيها من أقاصيها واحفظيها، ويضرب لمن يؤمر بارتكاب الأمر الشديد لاقتداره عليه، ويخاطب به المفرد والمثنى والجمع مذكراً كان أو مؤنثاً، مقدمة جامع التفاسير - ص ٥٩

٦- كلمة : (كما يقال)، وكلمة (وقع منه) بعدها لم تردا فى: (ف-ض) أو فى(أ-ص) أو فى(ط-س)بل وردت هكذا في (ن - م) وهو الأصح .

تعاتبه فى تضييع أمر وقع فيه «الصيف ضيعت اللبن» [١] وأنكر بعضهم قول المفسرين: إن هذا كذا مضمر، وقال : الإضمار إنما يُسْتَعْمَلُ فيمن له قلبٌ وخاطرٌ والله تعالى منزهٌ عن ذلك، وليس يراد بالإضمار هذا المعنى، وإنما يعني أن بنية الكلام تؤدي معنى ذلك عن غير نطقٍ به، نحو قولهم: "أحشفاً وسوء كيلة" [٢] فإن هذا الكلام يقتضي أتجمع عليَّ وبه مضمون الكلمة، وذلك معلوم للسامع..

١- يقال هذا المثل لمن ضيع مافي يده ثم طلبه بعد فواته، قالوا تزوجت امرأة من العرب رجلاً ذا مال، لكنه كان شيخاً تقدمت به السن، فاختلفا فطلقها، وكان ذلك وقت الشتاء الذى يكثر فيه المرعى ، ويدر اللبن، وتزوجت المرأة بعد طلاقها شاباً جميلاً ، لكنه كان غير ثري ، فلما جاء الصيف احتاجت إلي اللبن ، ولم يكن للبن وجود في ذلك الوقت إلا عند زوجها الأول، فبعثت إليه ترجوه حلوبة منه، فأبى وصاح قائلاً: « في الصيف ضيعت اللبن» أي أنك بسوء رأيك وفساد تدبيرك قد فوت على نفسك هذا اللبن الذي كنت ستجدينه في الصيف عند الحاجة إليه، فحقك المنع وأولاك الندامة ، وهكذا يقال هذا المثل لمن ضيع مافي يده ثم طلبه بعد فواته ، وقد جاء في كتاب الأمثال : ياهذه في الصيف ضيعت اللبن : أي رمت ماقد فات نيلاً من زمن . وقيل : طلق الأسود بن هرمز امرأته العنود الشنيئة رغبة عنها إلى امرأة من قومه ذات جمال ومال، ثم جري بينهما ماأدي إلى المفارقة فتبعت نفسه العنود فراسلها، فأجابته بقولها :

اتركتني حتى إذا ... علقت أبيض كالشطن
أنشأت تطلب وصلنا ... في الصيف ضيعت اللبن

وعلي هذه الرواية تكون التاء مفتوحة لأنه خطاب لمذكر .

الأمثال – للميداني – ج :٢–ص٥٤.

ورد في كتاب الأمثال للميداني :

أحشفاً وسوء كيلة نري ... تجمع يازيد علينا المنكرا

وقيل أن هذا المثل لعمرو بن معدي كرب ، ويضرب لمن يجمع بين خصلتين مكروهتين والكيلة فعلة من الكيل ، وهى تدل على الهيئة والحالة ، نحوالجلسة والركبة والحشف : أردأ التمر ، أي : أتجمع حشفاً وسوء كيل .

كتاب الأمثال ج : ١– ص ١٧١ ، وانظر مقدمة جامع التفاسير ص٥٩ : ص٦٠، وكتاب : المنتخب من أمثال العرب – عبد السلام العشري .

(فَصْلٌ فِى العُمُومِ وَالخُصُوصِ مِنْ جِهَةِ المَعْنَى)

وذلك ثلاثة أضرب : عام مطلق: وهو الجنسُ، نحو قولنا: "الحيوان أو الحبوب، وخاص مطلق مثل"[١]: زيد، وعمرو، وهذا الرجل. وعام من وجه خاص من وجه، نحو كالإنسان[٢]، فإنه بالإضافة إلى الحيوان خاص، وبالإضافة إلى زيد وعمرو عام، والعام: إذا حُمل على الخاص صدق القول، نحو قولنا[٣] "زيـد"[٤]: إنسان وحيوان، والإنسان حيوان. والخاص: إذا حُملَ على العام كذب، نحو الحيوان: إنسان. والإنسان: زيد، إلا إذا قُيد لفظاً وتقديراً[٥]، فيقال: هذا الإنسان زيد، أو الإنسان زيد، ويجعل الألف واللام للعهد لا للجنس، أو يراد أن معنى الإنسانية كمالٌ[٦] موجودٌ فى زيد[٧].

فإذا ثبت ذلك فالمفسر إذا فسر العام بالخاص، فقصده أن يبين تخصيصه[٨]، «بالذكر» ويذكر مثاله، لأنه لم[٩] يرد أنه هو هو لاغير، وكثيرٌ ممن لم يتدرب بالقوانين البُرْهَانية إذا رأى عاماً مستعملاً فى خاصين قدّر أن ذلك جارٍ مجرى الأسماء المشتركة، فيجعله من بابها، وعلى ذلك رأيت كثيراً[١٠] ممن صنفوا فى نظائر القرآن، فقالوا: الإثم:ارتكاب الذنب، والإثم: الكذب، احتجاجاً بقوله **﴿لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا تَأْثِيمًا﴾**[١١]، والإثم عام فى المقال والفعال،وإنماخُص فى هذا الموضع لأن السّماع ليس إلا فى المقال[١٢]على ذلك قال اللحياني[١٣]:"الخوف": القتال، بقوله تعالى: **﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم﴾**[١٤]، والقتل لقوله: **﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ﴾**[١٥]، والعلم، لقوله: **﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا﴾**[١٦] أى: عَلِمَ، وذلك من ظهور سوء التصور بحيث لا يحتاج إلى تبين[١٧]. وأما الخاص: فتفسيره بالعام فجائز إذا قصد تبيين جنسه، نحو:"الْحِرْبَاءُ دُوَيْبَة. وَالْحِرْبَاءُ حَيَوَانٌ"[١٨].

١- ساقط من : (ط - س).
٢- فى (ن-م) نحوالإنسان.
٣- ساقطة من (ن-م).
٤- زيادة من (ط - س).
٥- فى (ن-م) أو تقديراً .
٦- فى (ن-م) ، وفى (د-ك) كله وهو الأصح.
٧- فى : (ط - س) : وإذا.
٨- ساقطة من (ن-م) و (ف-ض) ، (أ-ص).
٩ - فى : (ط-س): لا أنه يريد.
١٠ - فى: (ط-س): وعلى ذلك كثير.
١١- سورة الواقعة: الآية (٢٥).
١٢- ساقطة من (أ-ص) ، (ف-ض) ، (د-ك).
١٣ - فى (ط-س): فى الخوف، واللحياني هو علي بن حازم ، راجع أخباره فى إنباه الرواة - للقفطي- ج :٢ ص ٢٥٥
١٤- سورة الأحزاب: الآية (١٩).
١٥- سورة النساء : الآية (٨٣).
١٦ - سورة البقرة: الآية (١٨٢).
١٧ - فى : (ط-س)- تبيين.
١٨- فى (ن-م) الحيوان ، وكذلك فى (د-ك).

(فَصْلٌ فى تَبْيِينِ الوُجُوهِ الَّتى يُجْعَلُ لِأَجْلِهَا الاسْمُ فَاعِلاً فى اللَّفْظِ)

كل فعل من أفعال غير الله تعالى نحو: التجارة[1]، والكتابة يحتاج فى حصوله إلى أشياء إلى فاعل يصدر عنه الفعل كالنجار، وإلى عنصر يعمل فيه كالخشب، وإلى عمل كالنجر، وإلى مكان وزمان يعمل فيهما، وإلى آلةٍ يعمل بها كالمنجر والمنحت، وإلى مثالٍ يعمل عليه ويحتذى نحوه، وإلى غرضٍ يعمل لأجله ما يعمل، ثم الفاعل قد يحتاج إلى من يسدده ويرشده. والغرض قد يكون على نحوين: قريبٍ وبعيدٍ. فالقريب: اتخاذ النجار الباب ليحصّل به نفعاً، والبعيد: ليحصّن «به»[2] البيت، وكل ذلك قد يُنسب إليه الفعل[3]، فيقال[4]: أعطاني زيد إذا باشر العطاء، وأعطاني الله لما كان هو الميسر له. وربما جمع بين السبب القريب والبعيد، فيقال: أعطاني الله وزيد. **قال الشاعر:**

حَبَانَا بِهِ جَدُّنَا وَالْإِلَهُ وَضَرْبٌ لَنَا جَذْمٌ صَائِبٌ[5]

فنسب إلى المسبب الأول، وهو الله تعالى وإلى السبب الأخير، وهو الضرب، وإلى المتوسط وهو الجد. وقال تعالى: **﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾**[6]، وقال تعالى: **﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾**[7]، فأسند الفعل فى الأول إلى الآمر به، وفى الثاني إلى المباشرله، وقال الشاعر فى صفة درع: **"وَألبَسنيِهِ الْهَالِكِيُّ"**[8]، وقال آخر: **"كَسَاهُمْ مُحْرِقٌ"**[9]، (فنسب فى الأول إلى عاملها، وفى الثاني إلى مستعملها)[10]، «وقال»[11] فى صفة نِبَال: **نِبَالٌ كَسَتْهَا رِيشَهَا مَضْرَحِيَّةٌ**[12]، فنسب كسوتها إلى

١- فى: (ط-س) ، (ن-م) التجارة ، ولكن سياق الكلام يدل على أن المراد بها «النجارة».
٢- زيادة من : (ط-س).
٣- ساقط من : ط-س).
٤- فى : (ط-س) فتقول.
٥- ساقطة من : (ط-س)، وقد أورد البيت فى (الذريعة إلى مكارم الشريعة)، وجاءه شطره الثاني: وضرب لنا أجذم صارم. ص٤٢- تحقيق : الدكتور/ أبو اليزيد العجمي.
٦- سورة الزمر: الآية:(٤٢).
٧- سورة السجدة: الآية (١١).
٨- فى (ن-م) «وآلبسنيه إليها لكى » وهو تصحيف وقد قال الراغب فى المفردات: "والهالكى كان حداداً من قبيلة هالك، فسمي كل حداد هالكياً . - مفردات ألفاظ القرآن - ص ٨٤٤ - تحقيق : صفوان داوودي.
٩- لم أجد هذا البيت ولا الذى قبله.
١٠ - سقطت من (ط-س).
١١- ساقطة من: (ن-م).
١٢ - جاء فى لسان العرب: المضرحيُّ من الصقور: ماطال جناحاه وهو كريم. - مقدمة جامع التفاسير - ص ٦٤ .

الطير التى اتخذ منها ريشها . وقيل: **"يداك أوكتاوفوك نفخ"**[١]، فنسبه إلى الآلة المتصلة، ويقال: **سيفٌ قاطع**، فنسب إلى الآلة المنفصلة، وقيل: **ضربٌ فيصل، وفاصل، وطعنٌ جائفٌ**، فنسب إلى الحدث، وقيل: **"سرٌ كاتم"، و"عيشة راضية"**، فنسب إلى المفعول، وقال: **"حَرَماً آمناً"**، فنسبه إلى المكان، وقيل **"يومٌ صائمٌ"، و"ليل" ساهرٌ"**، وقال: - **وَمَالَيْلُ الْمطِيِّ بِنَائِمٍ**[٢] فنسبه إلى الزمان، فلما كانت أفعالنا على ذلك صح فى الفعل الواحد أن ينسب[٣] لأحد الأسباب مرةً، وينفى عنه بنظرين مختلفين، على ذلك قول الشاعر:

أَعْطَيْتَ مَنْ لَمْ تُعْطِه وَلَوْ انْقَضَى ... حُسْنُ اللِّقَاء حَرَمْتَ مَنْ لَمْ تَحْرِمِ[٤]

فأثبت له الفعل "مرة"[٥] ونفاه عنه معاً بنظرين مختلفين، ويقال "هذاالخشب قطعته أنت[٦] لم يقطعه السكين"، بمعنى أنه جعل تأثيره[٧] لك لا للسكين، ويقال: قطعه السكين لم تقطعه، وبتصور هذا الفصل تزول الشبهة فيما يرى من الأفعال منسوباً إلى الله تعالى، منفياً عن العبد، ومنسوباً إلى العبد تارةً منفياً عن الله تعالى، نحو قوله تعالى: **﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾**[٨]، وقوله تعالى: **﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾**[٩] وقوله تعالى: **﴿ما أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾**[١٠]. وبيان ذلك أن الأفعال التى نباشرها[١١] تعتبر على وجهين: أحدهما[١٢] بالإضافة إلى مباشره، فيقال: فعل فلان كذا، ولم يفعل كذا، والثاني: الاعتبار بميسره والمقدر له

١- ذكره البكرى فى: (فصل المقال فى شرح كتاب الأمثال)- ص٤٥٨ تحت عنوان : (باب الشماتة بالجانى على نفسه الحين) قال أبو عبيد: ويقال فى مثله: (يداك أوكتا وفوك نفخ)، وذكر أصله عن المفضل. وقال صاحب كتاب العين، خلاف ما ذكر، قال: كان من شأن هذاالمثل أن شاباً انتهى إلى جوار يستقين بالقرب، وكان يلاعبهن ويأخذ بعض القرب، فينفخ فيه ثم يوكئه فاطلع عليه أخ لجارية منهن، فقتله غيرة، فجاء أخو المقتول فوجده قتيلاً، فاخبر بما كان يصنع من ملاعبة الجواري، فقال: (يداك أوكتاوفوك نفخ) وعزى نفسه ورجع ، وهكذا يحمل كل امرىء نتائج عمله ، وعاقبة ماصنعت يداه، انظر : مقدمة جامع التفاسير ص٦٤، والمنتخب من أمثال العرب ص٢٨٧..

٢ - البيت لجرير وهو فى كتاب سيبويه: ج:١-ص.٨٠، ونصه

لَقَدْ لُمتِنَا يَاأُمَّ غَيْلاَنَ فِى السُّرَى ... وَنِمْتِ وَمَا لَيْلُ المطَايَا بِنَائِمِ

وورد فى المقتضب ج: ١٠٥/٣، وفى النقائض- ص٧٥٣، وفى المحتسب لابن جني-ج:٢-ص١٨٤، وأمالى ابن الشجري ج:١-ص٣٦، ٣٠١، وفى الإنصاف لابن الأنبارى ص٢٤٣ وفى خزانة الأدب- ج:١-ص٢٢٣، وديوان جرير ص٥٥٣ - مقدمة جامع التفاسير - ص٦٤..

٣ - فى : (أ-ص)، (ط-س) أن يثبت، وكذلك فى (ن-م) و (د-ك).

٤ - لم أجد هذا البيت.

٥ - زيادة من (ط-س).

٦ - زيادة من : (ط-س) و (د-ك).

٧- فى : (أ-ص) (ف-ض) و (د-ك) أن جُلَّ ، وفى : (ن-م) «أنه جعل» وهى ساقطة من : (ط-س).

٨ ، ٩ - سورة الأنفال: الآية(١٧).

١٠- سورة النساء: الآيه (٧٩).

١١ - فى (ن-م) : الفعل الذى تباشره يعتبر.

١٢ - ساقط من (ط-س).

والموفق لسبيله، وأنه لولا سوابق نعمه لما وجد ذلك، بل ما وجد شئ "من"[١] أفعالنا وذواتنا، وأنه تعالى السبب الأول الذى يصح ارتفاع ماسواه، ولا يصح ارتفاعه– تعالى علواً كبيراً. فإذاً: النظر إلى أفعالنا وإلى من يسرها لنا نظران:

نظر من أفعالنا إلى فعل البارى، فيتوصل بها إلى معرفته.

ونظرٌ من إنعامه علينا بقوانا وتسهيل سبيلنا إلى إيجاد أفعالنا.

وهذا الثاني لا سبيل إلى تصوره لمن لم يتقو[٢] فى الأول ولم يجعله ذريعة إلى "الوصول"[٣] إلى هذا، وبهذا السبيل دعا الناس إلى الإيمان فقال: ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ﴾[٤] ﴿وأما مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾[٥]، ﴿وأن لَيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى﴾[٦]. فلما نبههم[٧] عرفهم أن ذلك كله بتوفيقه، فقال تعالى: ﴿قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ﴾[٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾[٩]، فلما علم تعالى أن قد صار لهم قوة يمكنهم أن ينظر وامن آلائه[١٠] إلى أفعالهم قال تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾[١١] وقال: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾[١٢]، فأضاف أفعالهم إلى نفسه عند تناهي معارفهم بخلاف ما فعل فى الأول. فإذا تقررت[١٣] هذه الجملة عُلم أنه لا فاعل فى الحقيقة منفرداً غير الله تعالى، إذ كل فاعلٍ يحتاجُ إلى معاون على ما تقدم البيان فيها، والله تعالى: كل أفعاله[١٤] إبداع لا فى مادة، ولا من شئ ولا على مثال ولا فى زمان ولا فى مكان، ولا بآلة ولا بمرشد ومعين. فهو الفاعل الحقيقي، وما سواه فاعل على ضربٍ من التوسع...

وبهذا النظر ورد الشرع وأجمع الصدر الأول من المؤمنين "على"[١٥] أن الأفعال كلها بمشيئة الله وإرادته، ومن جهته. وأطلقوا على "الله" لفظ "الشئ" كما يطلق على غيره بنظرين مختلفين: فإن بعض الناس قد ذكر أن "الشئ" فى الأصل مصدر "شاء"، فإذا استعمل فيه تعالى فبمعنى "الشائي"، وإذا استعمل فى غيره فبمعنى "المُشاء"[١٦]، وذلك فى اللغة مستمر، لأن المصدر يُطلق على الفاعل والمفعول جميعاً. قال: وتصور هذه الحقيقة من لفظة "الشئ" مما ينبهنا أن هذه اللفظة من جهة الله تعالى:

١– فى (ط–س) في
٢– في (ن –م)، (د–ك) لمن لم يوفق .
٣– فى (ط–س)و للوصول.
٤– سورة الحديد: الآية(٧).
٥– سورة الكهف : الآية(٨٨) وتمامها "فله جزاء الحسنى".
٦– سورة النجم: الآية(٣٩).
٧– فى (أ–ص) نبأهم، وكذلك في (ن – م).
٨– سورة الحجرات: الآية(١٧).
٩– سورة النور: الآية(٤٠).
١٠– في (ط – س) الآية ، وهو تصحيف .
١١، ١٢– سورة الأنفال: الآية(١٧).
١٣– فى (ط–س) تفردت . وهو تصحيف.
١٤– فى : (ط–س) فأفعاله.
١٥– ساقطة من :(ط–س) ، (د–ك).
١٦– فى : (فـ–ض)، وفى (أ–ص) المشئ، وفى (ط–س) المشى. وكذلك فى (د–ك).

(فَصْلٌ فِى بَيَانِ الألفاظِ الَّتى تَجِىءُ مُتَنَافِيَةً فِى الظَّاهِرِ)[١]

كثيراً ما تجئ الألفاظ[٢] فى الظاهر كالمتنافي عند من لم يتدرب بالبراهين العقلية والعلوم الحقيقية، وربما يغالط الملحد بألفاظ من القرآن[٣] فى نحو ذلك العجزة فيشككهم مثل أن يقول: قد ثبت من بداية[٤] العقول أن النفي والإثبات فى الخبر الواحد إذا اجتمعا لابد من صدق أحدهما وكذب الآخر، نحو أن يقال: زيدٌ خارجٌ، زيدٌ ليس بخارج. وقد رأينا فى القرآن أخباراً متنافيةً، فلابد من أن يكون أحدهما صدقاً، والآخر كذباً، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾[٥]، مع قوله: ﴿فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ﴾[٦] وقوله إخباراً عن الكفار أنهم يقولون: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾[٧] مع قوله تعالى ﴿وَلا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾[٨]، وقوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لا يَنطِقُونَ﴾[٩] مع قوله تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾[١٠]، وقوله تعالى ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾[١١] مع قوله تعالى: ﴿وَرَءَا الْمُجْرِمُونَ النَّارَ﴾[١٢]، وقوله تعالى:[١٣] ﴿دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾[١٤]، وقوله : ﴿سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾[١٥] وقوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[١٦] مع قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلا جَانٌّ﴾[١٧] وقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا﴾[١٨] مع قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُوْلَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾[١٩].

---

١ - ساقط من :(ط-س).
٢- فى: (ط-س)- ألفاظ.
٣- فى (ط-س) بألفاظ القرآن.
٤- فى: (ط-س) فى بداهة.
٥- سورة الصافات: الآية(٢٧) ، سورة الطور: الآيه(٢٥).
٦- سورة المؤمنون: الآية: (١٠١).
٧- سورة الأنعام: الآية(٢٣).
٨- سورة النساء: الآية(٤٢).
٩- سورة المرسلات: الآية(٣٥).
١٠- سورة الصافات: الآية (٢٧) ، سورة الطور: الآية(٢٥).
١١- سورة الإسراء: الآية(٩٧).
١٢- سورة الكهف: الآية (٥٣).
١٣ - ساقطة من (ط-س).
١٤- سورة الفرقان: الآية (١٣).
١٥- سورة الفرقان : الآية (١٢).
١٦- سورة الحجر : الآيتان (٩٢) ، (٩٣).
١٧- سورة الرحمن : الآية (٣٩) ،
١٨- سورة مريم : الآية (٧١).
١٩ - سورة الأنبياء : الآية (١٠١).

وقبل الجواب عن ذلك يجب أن نقدم[١] مقدمة تزول الشبهة بها عن ذلك وعن أمثاله[٢]، ويكتفى بتصورها عن آحاد هذه "الأسئلة"[٣] ونظائرها، وهو أن الخبرين اللذين أحدهما نفيٌ والآخر إثباتٌ إنما يتناقضان إذا استويا فى الخبر والمخبر عنه، وفى المتعلق بهما، وفى الزمان والمكان، وفى الحقيقة والمجاز. فأما[٤] إذا اختلفا فى واحد من ذلك فليسا بمتناقضين نحو أن يُقال زيد مالك، زيد ليس بمالك، وتريد بأحد الزيدين غير الآخر، أو تريد بأحد المالكين المبني "من"[٥] الملك، وبالآخر المبني من الملك الذى هو الشد[٦]، أو تريد بأحدهما: المالك فى الحال، وبالآخر[٧] أنه ممن يصح ملكه كالعبد، أو تعنى بأحدهما بأصبهان وبالآخر ببغداد، أو تعني بأحدهما فى زمان، و"بالآخر فى زمان"[٨] آخر غير الزمان الأول. فكل هذا لا تناقض فيه[٩]، فإن المراد بأحد الخبرين غير المراد بالآخر، وعلى ذلك كل ما يوصف بوصفين متضادين على نظرين مختلفين، نحو من يقول: فى"الرحى" و"البكرة الدائرة على مركزها": إنها سائرة أو منتقلة لاعتبار بعض أجزائها ببعض، ويقول آخر: إنها غير سائرة أو غير منتقلة اعتباراً بجملة أجزائها[١٠]، وأنها لا تتبدل[١١] عن المركز، فإن ذلك لاتضاد بينهما، وكذلك إذا قيل: فلانٌ لين العود- ويُرادُ به فى السخاء- وقول آخر[١٢]: ليس بليِّن العود- ويراد به فى الشجاعة، وعلى ذلك ما يختلف به الحال فى الإضافة إلى حالين أو إلى نفسين، نحو أن يقال: المال صالح- اعتباراً بحال ما أو بذات ما، ويقول الآخر: إن المال ليس بصالح- إعتباراً بحال أخرى أو بذات أخرى، وعلى ذلك الحكم فى كل ماله مبدأ وغايةٌ، مثل "الإيمان، والشرك، والتوكل"، وذلك أن "الإيمان" لما كان مبدؤه إظهار الشهادتين **كما قال عليه الصلاة والسلام فى الجارية التى أشارت إلى السماء: "إِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ"**[١٣]، وكان

١- فى (ط-س): يقدم.
٢- فى : (أ-ص) : أمثالها.
٣- فى : (ف-ض)، وفى (أ-ص)، وفى (ط-س): الأسؤلة، وهو خطأ من الناسخ.
٤- فى (أ-ص): أما.
٥- ناقصة من (ط-س).
٦- فى (ط-س) السد، وهو خطأ من الناسخ، وقد قال الراغب فى المفردات: "... وملكت العجين شددت عجنه، وحائط ليس له ملاك، أي تماسك".
٧- فى : (ط-س) والآخر.
٨- ساقطة من : (ط-س).
٩- فى: (ط-س) بينهما.
١٠- فى (ط-س) لجملة ، وفى (د-ك) بجملة.
١١- فى (ن-م) لاتبدل ، وكذلك فى : (د-ك).
١٢- فى (ن-م) قول مع قول آخر ، وكذلك فى :(د-ك).
١٣- الحديث أخرجه أبو داود فى (الإيمان والنذور) باب (الرقبة المؤمنة) ورقمه :٣٢٨٤، ونصه: (عن أبي هريرة رضي الله قال: إن رجلاً أتى النبى صلى الله عليه وسلم - بجارية سوداء، فقال: يارسول الله: إن عليَّ رقبة مؤمنة، فقال لها رسول الله، أين الله؟ فأشارت إلى السماء بإصبعها. فقال لها: فمن أنا؟ فأشارت إلى النبى - صلى الله عليه وسلم- وإلى السماء تعني: أنت رسول الله. قال: اعتقها فإنها مؤمنة. وورد فى جامع الأصول:ج:١-ص٢٣١.

غايته ما قال تعالى:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[١] الآية صح أن يقال: **(لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن)**[٢]، وأن يقال **«يزني الزاني وهو مؤمن»** وعلى ذلك كل ما هو مركب من شيئين، أو كان له مبدأ وغاية كما تقدم صدق فيه أربعة أخبار بأربع نظرات، نحو أن يقال: السكنجبين حلوٌ، السكنجبين حامض، "السكنجبين حلو حامض"[٣]، السكنجبين لا حلوٌ ولا حامضٌ، ومتى تصورت هذه المقدمة سهل الجواب عن هذه الآيات إذ كلٌّ ذلك راجعٌ إلى أحد الأسباب المذكورات[٤] من المخالفات.

(فصلٌ في بيان انطواء كلام الله تعالى على الحكم كلها علميها وعمليها)

كتاب الله تعالى منطو على كل ذلك بدلالة قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾[٥]، وقوله: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾[٦]، وقوله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾[٧] وقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾[٨]، لكن ليس يظهر ذلك إلا للراسخين في العلم، ولكونه منطوياً على الحكم كلها قيل في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[٩]، أنه عنى به تفسير القرآن ثم منازل العلماء تتفاوت في تفهمه ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾[١٠]، وأعظم ما يقصر تفهم الأكثرين عن إدراك حقائقه شيئان: أحدهما : راجعٌ إلى اللفظ، والآخر راجع إلى المعنى فالراجع إلى اللفظ شيئان: أحدهما: ما اختص به اللغة العربية من الإيجاز، والحذف، والاستعارات والإشارات اللطيفة، واللمحات الغامضة مما ليس في سوى هذه اللغة، والآخر: ما يوجد

---

١ - سورة الأنفال : الآية (٢).

٢ - الحديث أخرجه ابن ماجه في كتاب الفتن تحت رقم ٣٩٣٦- عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن. ولا ينتهب نهبة يرفع الناس إليه أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن» والحديث روايات عند البخاري: ٨٦/٥ في المظالم، وعند مسلم رقم ٥٧ في الإيمان، وعند أبي داود رقم ٤٦٨٩، وعند الترمذي رقم ٢٦٢٧ في الإيمان، وعند النسائي: ٦٤/٨ في السارق.

٣ - ساقط من : (ط-س).

٤ - في : (ط-س) المذكورة.

٥- سورة يسٓ : الآية (١٢) والظاهر أن الإمام المبين لا يراد به- هنا: القرآن، كما يفهم من كلام الراغب، وسياق الآية في سورة «يسٓ»: (إنا نحن نحي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم وكل شئ أحصيناه في إمام مبين)، فالإمام المبين: إما هو صحائف الأعمال، وإما اللوح المحفوظ، كما ذهب إليه الراغب نفسه في مفرداته، حيث قال: وقوله تعالى: (وكل شئ أحصيناه في إمام مبين): فقد قيل: إشارة إلى اللوح المحفوظ.

٦- سورة يوسف : الآية (١١١).

٧- سورة الانعام : الآية (٣٨).

٨- سورة النحل : الآية (٨٩).

٩- سورة البقرة : الآية (٢٦٩).

١٠- سورة النساء : الآية (٨٣).

فى القرآن خاصة من الإيجازات والحذف مما ليس فى غيره من الكلام، ولما فيه من اللفظ "اليسير"[١] المنطوي على المعنى الكثير، قال عليه الصلاة والسلام: **«أوتيتُ جوامعَ الكلام»**[٢]، فمن مثال الإيجاز: قوله تعالى فى وصف ارتفاع الأسباب المكروهة عن أوليائه **﴿لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾**[٣] فنفى بذلك كل تنغيص[٤] إذا كان جميعه فى حصول مكروه وفوت محبوب، وقد نفاهما بذلك، وقال فى فاكهة أهل الجنة **﴿لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ﴾**[٥]، فنفى بذلك جميع الآفات العارضة لمطاعم الدنيا، وقال فى صفة خمرهم: **﴿لا فِيهَا غَوْلٌ وَلا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾**[٦]، فنفى بذلك كل مكروه يعرض فيها، وأخبر بكل ما كان من أمر فرعون وآله بألفاظ يسيرة، وذلك فى قوله: **﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ﴾**[٧].

فذكر فيه ما قيل إنه ينطوي عليه "من"[٨] أوراق وجلود من السفر، ومن عجيب مافيه أن كل ما علم (بالسامع استغناء عنه)[٩] من الألفاظ ترك ذكره وتخطى إلى ما بعده نحو قوله تعالى: **﴿أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ﴾**[١٠]، فترك ما كان من موسى، ثم ترك ما كان منه ومن أصحابه فى دخولهم البحر، وتخطى[١١] إلى ذكر ما صنع بهم، وأما الراجع إلى المعنى: فذكره تعالى- أصولاً منطوية على فروع بعضها بينه النبى عليه السلام، وبعضها فوض استنباطه إلى الراسخين فى العلم تشريفاً لهم وتعظيماً لمحلهم، لكى يقرب[١٢] منزلة علماء هذه الأمة "من"[١٣] منزلة الأنبياء فى استنباطهم بعض الأحكام، ولاختصاص هذه الأمة بهذه المنزلة الشريفة قال عليه الصلاة والسلام: **«كادت أمتى تكون أنبياء»**[١٤]، وعلى ذلك قال تعالى: **﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾**[١٥]- الآية- وقال: **﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾**[١٦] فجعلهم فى ذلك بمنزلة الأنبياء...

---

١ - سقطت من : (ط-س).
٢ - هذه رواية مسلم: شرح النووي: ج:٥/٦ كما ذكر روايات أخرى بلفظ "أعطيت" و"بعثت": ج:٥/٥، وكذلك رواه البخاري ج:٦/ص٩٠ فى الجهاد، وفى التعبير ، والترمذي فى السير برقم ١٥٥٣، والنسائي فى الجهاد-ج: ٦-ص٣، ٤.
٣ - سورة يونس : الآية (٦٢).
٤- فى (ن-م) تنقيص ، وهى كذلك فى (د-ك).
٥ - سورة الواقعة : الآية (٣٣).
٦- سورة الصافات : الآية (٤٧).
٧- سورة الدخان : الآيات : (٢٥، ٢٦، ٢٧).
٨- ناقصة من :(ط-س) ، ومن (د - ك) ،
٩- في (ن - م) ، (د-ك) السامع واستغني عنه
١٠- سورة الشعراء الآية : (٦٣).
١١- في (ط -س) يخطى .
١٢- في (ن - م) تقرب .
١٣- ناقصة من (ط -س).
١٤- هذه الجملة جزءٌ من حديث طويل أخرجه الإمام أحمد فى مسنده -ج:١-ص٢٩٦، وقد جاء قبلها «... فإذا أراد الله- عز وجل- أن يصدع بين خلقه نادى مناد: أين أحمد وأمته؟ فنحن الآخرون الأولون، فنحن آخر الأمم وأول من يُحاسب فتفرج لنا الأمم عن طريقنا، فنمضي غراً محجلين من أثر الطهور. وتقول الأمم "كادت هذه الأمة أن تكون أنبياء كلها".
١٥- سورة البقرة : الآية (١٤٣).
١٦- سورة آل عمران : الآية (١١٠).

(فَصْلٌ فى أنطِواءِ القُرْآنِ علَى البَراهِينِ والأَدِلَّةِ)

ما من برهان ولا دلالة[١] وتقسيم وتحديد "ينبئ" عن "[٢] كليات المعلومات العقلية والسمعية إلاّ وكـــتـــاب الله تعالى قد نطق به، لكن أورده تعالى على عادة العرب، دون دقائق طرق الحكماء والمتكلمين-لأمرين: أحدهما: بسبب ما قاله[٣]: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ**﴾[٤] الآية،، والثاني: إن المائل إلى دقيق المحاجة هو العاجز عن إقامه الحجة بالجلى[٥] من الكلام، فإن من استطاع أن يفهم بالأوضح، الذى يفهمه الأكثرون لم ينحط[٦] إلى الأغمض الذى لا يعرفه "إلا"[٧] الأقلون مالم يكن ملغزاً، فأخرج تعالى مخاطباته فى محاجة خلقه فى أجل صورةٍ تشتمل على أدق دقيق لتفهم العامة من جليها[٨] ما يقنعهم ويلزمهم الحجة، وتفهم[٩] الخواص من أثنائها ما يوفي على ما أدركه فهم الحكماء، وعلى هذا النحو قال "عليه الصلاة والسلام"[١٠]: «**إن لكل آية ظهراً وبطناً**»[١١] ولكل حرفٍ حداً ومطلعاً» لا على ما ذهب إليه الباطنية، ومن هذا الوجه كلهُّ مَنْ كان حظه فى العلوم أوفر، كان نصيبه من علم القرآن أكثر، ولذلك، إذا ذكر "تعالى"[١٢] حجة على ربوبيته ووحدانيته أتبعها مرةً بإضافتها[١٣] إلى أولى العقل، ومرةً إلى أولي العلم، ومرةً إلى السامعين، ومرة إلى المفكرين، ومرةً إلى المتذكرين- تنبيهاً "على"[١٤] أن بكل قوةٍ منِ هذه القوى يمكن إدراك حقيقة منها، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**﴾[١٥]، وغيرها من الآيات...

١- فى: (ط-س): ودلالة.
٢- فى: (أ-ص): مبنى على. ، وكذلك فى (ن-م).
٣- فى: (ط-س) ما قال.
٤- سورة إبراهيم : الآية (٤).
٥- فى: (ط-س) بالجليل.
٦- فى : (ط-س) : تنحط.
٧- ساقط من : (ط-س).
٨ - فى : (ط-س) جليلها.
٩- فى : (ن-م) ويفهم، وكذلك فى : (د-ك).
١٠ - ساقط من : (ط-س).
١١- أخرجه الفريابي من رواية الحسن مرسلاً عن النبى - صلى الله عليه وسلم أنه قال: (لكل آية ظهر وبطن، ولكل حرف حد، ولكل حد مطلع). وأخرج الديلمي من رواية عبد الرحمن بن عوف مرفوعاً: "القرآن تحت العرش له ظهر وبطن يُحاج العباد).. الإتقان- للسيوطي - ج: ٤-ص١٩٦.
١٢ - ساقط من :(ط-س).
١٣- فى: (ط-س) بإضافته، وكذلك فى (د-ك).
١٤ - ساقط من : (ط-س).
١٥ - سورة الرعد : الآية (٤) ، وسورة النحل : الآيتان (١١ ، ٦٧).

(فَصْلٌ فِى الْأَحْكَامِ الَّتِي عَلَيْهَا مَدَارُ الْأَدْيَانِ وَمَايَجُوزُ فِيهِ النَّسْخُ وَمَا لاَ يَجُوزُ فِيهِ مِنَ الْأَحْكَامِ)[١]

الأحكام التى تشتمل عليها الشرائع ستةٌ: الاعتقادات، والعبادات، والمشتهيات والمعاملات، والـزاجـرات[٢]، والآداب الخلقية.. فالاعتقادات خمسة: إثبات وجود البارئ -جل ثناؤه- بصفاته، وإثبات الملائكة الذين هم السفراء بين الله وبين خلقه، والكتاب، والرسل، والمعاد، وقد انطوى على ذلك قوله تعالى : ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾[٣] الآية، وأما العبادات فثمانية: الصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد والاعتكاف والقرابين والكفارات.

والمشتهيات[٤] أربع: المأكولات والمشروبات والمنكوحات والملبوسات والمعاملات أربع: المعاوضات كالبيع والإجارة وما يجري مجراهما، ،المخاصمات- كالدعاوى والبينات والأمانات كالودائع والعوارى، - والتركات- كالوصايا والمواريث، والمزاجر خمس: مزجرةٌ عن فوات الأرواح حفظاً للنفوس- كالقصاص والدية، ومزجرةٌ لحفظ الأعراض - كحد القذف والفسق[٥].

ومزجرةٌ لحفظ الأنساب- كالجلد والرجم-، ومزجرة لحفظ الأموال - كالقطع والصلب- ومزجرةٌ لحماية البيضة- كالقتل للمرتد[٦]، وقتال البغاة، وأما الآداب الخلقية فثلاثة: ما يختص به الإنسان فى نفسه وإصلاح أخلاقه كالعلم، والحلم، والسخاء، والعفة، والشجاعة، والوفاء، والتواضع. وما يختص به فى معاشرة ذويه ومختصيه: كبرّ الوالدين، وصلة الأرحام، وحفظ الجار، ورعاية الحقوق، ومواساة أهل الفقر، ونصرة المظلوم، وإغاثة الملهوف. وما يختص به أولو الأمر من سياسة الرعية. والفرق بين الشرعيات والآداب الخلقية: أن الشرعيات: محدودة الكميات والكيفيات، ولتارك عامتها عقوبة محدودة. وأما الآداب الخلقية: فغير محدودة الكميات والكيفيات، وليس لتاركها عقوبة، بل هى موكولة إلى ذوى الأنفس الزكية، ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾[٧]، وعلى جمهور ذلك دل قوله تعالى:

---

١ - ساقط من : (ط-س).

٢ - فى : (ط-س) والمزاجر.

٣ - سورة النساء : الآية (١٣٦).

٤ - فى : (د-ك) و المشتهات.

٥ - فى : (ط-س) والتفسق.

٦ - فى: (ط-س) للردة.

٧ - استشهاد بالآية القرآنية :٤٣ من سورة العنكبوت (وتلك الأمثال نضربها للناس، وما يعقلها إلا العالمون).

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (٢٤) رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا (٢٥) وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا (٢٦) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا (٢٧) وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا (٢٨) وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا (٢٩) إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (٣٠) وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا (٣١) وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا (٣٢) وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا (٣٣) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا (٣٤) وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (٣٥) وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا (٣٦) وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا (٣٧) كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا (٣٨) ذَٰلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾[1]

وأشرف هذه الأنواع الستة[2]: الاعتقادات، لأنه فى حيز[3] العلم، والباقيات فى حيز العمل، والعلم: هو المبدأ. والعمل تمامه، ولا يكون تمام بلا مبدأ. وقد يكون مبدأ بلا تمام، ولأن العلم أصل، والعمل فرع، ولإثباتَ للفرع إلا بالأصل كما لا "كمال"[4] للأصل إلا بالفرع، ومتفقٌ عند كل أحد أن الاعتقاد مقدمٌ على العمل، حتى إنهم يتباينون بما ينفع من الاختلاف فى الاعتقادات دون الأعمال. "وتصير"[5] بفساد الاعتقاد المحاسنُ كلُّها مقابِحَ، ثم يتبعه أمر العبادة، فإن المخل بالصلاة والصيام والاغتسال من الجنابة عند المسلمين أعظم من مرتكب الظلم، وكذا ترك السبت عند اليهود وترك العبادة عند النصارى، وترك الزمزمة عند المجوس أعظم عن ظلم العباد، فإن العبادة هى المحافظة على حق الله، والورع عن ظلم الناس بالمحافظة على أحكامه، والعابد أعلى من الوَرِع.

١- سورة الإسراء: الآيات (من ٢٣ إلى ٣٩).

٢- فى : (ط-س) الخمسة وعلى هامشها الستة، وهو المطابق لما سبق أن ذكره، وفى (ن-م) الخمسة.

٣- فى (د - ك) في خير ، وهو تصحيف .

٤- فى: (ط-س): زكاً.

٥- فى : (ط-س): ويصير.

وبعد ذلك يجب أن نبين ما يجوز فى النسخ ومالا يجوز، وقد علم أن النسخ لا يصح إلا فى التعبد الذى هو الأمر والنهي دون الإخبار كما يصح ذلك فى الاعتقادات المذكورة إذ كان ذلك أشياء أمرنا أن نعرفها على ماهي بها[١]، فنعتقدها بحسب ماهي عليه، وذلك لا يتغير، وما كان من الآداب الخلقية، فإنما هي ما هي عقليات ظاهرة لا يأتي شرعٌ بخلاف مقتضاها. وأما العبادات، والمعاملات، والمزاجر فلا يصح[٢] فى أصولها النسخ، وإنما يصح فى فروعها، وذاك أنه محالٌ أن تنفك شريعةٌ من الشرائع عن عبادة الله تعالى واقعة فى حيز البدن، وهى مثل الصلاة، وعبادة فى حيز المال، وهي كالزكاة، وعبادة فى إمساك الشهوة كالصوم. وأن تنفك عن معاملات تحثهم على العدالة وتمنعهم عن التهارج، وعن مزاجر تزجرهم عن استباحة نفوس الغير وأعراضهم وأموالهم وأنسابهم، وأما هيآتها وأشكالها وأمكنتها وأزمنتها وأعدادها، فهى فروعها التى لم تزل تُعرّض النسخ[٣] على حسب ما عرفه الله تعالى من مصلحة كل قوم، ومما يدل [٤] على أنه لا نسخ فى عامة أصول هذه الأشياء ماورد من النصوص على ذلك فى القرآن نحو قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾[٥]، وقوله: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾[٦] الآية، وقال حكايةً عن عيسى: ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾[٧].

وقال فى الزكاة: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾[٨]، وقال فى القبلة[٩]: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾[١٠] ... وقال فى الصوم: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾[١١]، وقال

١- فى: (د-ك) به، وكذلك فى (ن-م).
٢- فى: (ط-س): ينفك. وفى (ن-م) فمما لا يصح، وكذلك فى (د-ك).
٣- فى (ن-م) بعرض النسخ وهو كذلك فى (د-ك) ولعل الصواب تعرض للنسخ.
٤- فى (ن-م) مما يدلك.
٥- سورة الشورى: الآية (١٣).
٦ - سورة البينة: الآية (٥).
٧- سورة مريم: الآية (٣١).
٨- سورة فصلت: الآيتان: (٦)، (٧).
٩- يذكر المؤلف ما قيل فى القبلة، ولعل فى الكلام سقطاً والمناسب أن يقال: وقال فى القبلة: (وما بعضهم بتابع قبلة بعض)- الآية (١٤٥) - سورة البقرة.
١٠ - سورة الحج: الآية (٣٤).
١١- سورة البقرة: الآية (١٨٣).

في الاعتكاف: ﴿طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ﴾[١]، وقال في القرابين: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا﴾[٢] ، وحكى عن اليهود﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾[٣] ، وفي الجهاد: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾[٤] ، وقال في القصاص: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾[٥]، وقال في المطاعم والمشارب: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ﴾[٦]، وقال : ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾[٧]، وقال في المزاجر: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾[٨] ، وقال في أخرى: ﴿لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ﴾[٩]، وقال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً﴾[١٠]، وذكر في الآداب وصايا لقمان لابنه وهو يعظه: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾[١١]. إلى غير ذلك من الآيات، وآكد من ذلك كله : ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ﴾[١٢] إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾[١٣]، وقال في الفروع[١٤]: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[١٥]، فإن قيل : إن المزاجر ليست في كل شريعة، ألا ترى أنه قيل: لم تكن [١٦] في النصرانية، لما روى عن عيسى عليه السلام: "إذا لطم أحدكم على أحد جانبيه فليعرض عليه الجانب الآخر" وقال: "أدع الناس إلى الدين بالمقال دون القتال"، قيل: ان المزاجر كما تكون [١٧] بالقتال قد تكون [١٨] بالمقال، فلابد أن يكون لهم مزاجر، ثم إن مزاجرهم قد وردت[١٩] بها التوراة، فاستغنى بها عيسى عليه السلام عن تبيينها وما ذكر من تمكين الجانب الآخر من اللطم، فحثٌّ منه على العفو واحتمال المكروه.

١- سورة البقرة : الآية (١٢٥).
٢- سورة المائدة : الآية (٢٧).
٣- سورة آل عمران : الآية (١٨٣).
٤- سوره آل عمران : الآية (١٤٦).
٥- سورة المائدة : الآية (٤٥).
٦- سورة آل عمران : الآية (٩٣).
٧-سورة النساء : الآية (١٦٠).
٨- سورة البقرة : الآية (٢٥١).
٩ - سورة الحج : الآية (٤٠).
١٠ - سورة الإسراء : الآية (٣٢).
١١ - سورة لقمان : من الآية (١٣) إلي الآية (١٨) .
١٢ - سورة الأعلى : الآيتان (١٤) ، (١٥).
١٣ - سورة الأعلى : الآيتان (١٨) ، (١٩).
١٤- في (ن-م) الردع وهي كذلك في (د-ك). وهو تحريف.
١٥ - سورة المائدة : الآية (٤٨).
١٦ - في (ط-س) : يكن، وكذلك في (د - ك).
١٧ - في (ط-س) يكون .
١٨- في: (ط-س) يكون.
١٩- في: (أ-ص) و (ط-س) ورد به.

(فَصْلٌ فِيمَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ فِى التَّفْسِيرِ مِنَ الْفَرْقِ بَيْنَ النَّسْخِ وَالتَّخْصِيصِ)

النسخ[١] والمسخ يتقاربان، كذا قال الخليل، إلا أن "المسخ" فى نقل الأعيان، والنسخ فى نقل الصور، نحو نسخ الكتاب،وهو نقل صورة الكتابة إلى غيره من غير إبطال لرسمه[٢] الأول، ونَسَخَ الظِّلُّ الشَّمْسَ إذا أزَالَهاَ. وحقيقة النسخ : إزالةُ مثل الحكم الثابت بالشرع بشرع آخر مع التراخي،.، والفرق بينه وبين التخصيص أن التخصيص قد يكون فى الخبر، والنسخ لا يكون فيه، والتخصيص إخراج مالم يرد بالخطاب من الأعيان والمعاني والأمكنة، والنسخ إخراج مالم يرد به من الحكم فى بعض الأزمنة، والتخصيص فى الأكثر مقرون" بالمخصوص لفظاً أو تقديراً، والنسخ لا يكون إلا متأخراً عن المنسوخ،ومتى اقترن به سمي تخصيصاً، «وكأن النسخ فى الحقيقة ضربٌ»[٣] من التخصيص، إلا أنهما فى المتعارف[٤] مختلفان،.

وقد تصور عدةٌ ممن صنفوا فى النسخ بعض ماهو بيان للمجمل أو تخصيص للعام[٥] بصورة لناسخ، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ﴾[٦].

وقال بعضهم: نُسِخَ ذلك بقوله: ﴿ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ﴾[٧]، وهذا بيان ماليس بظلم من أكل مالهم، ونحو قوله تعالى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾[٨] قال: فلم تحرم، ثم قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ ﴾[٩]-الآية- وهذا أيضاً بيان الأول،[١٠] وذاك أن ما كان حضرته أكثر من منفعته[١١]،

---

١ - قال الراغب فى مفرداته: النسخ: ازالة شئ بشئ يتعقبه كنسخ الشمس الظل والظل الشمس والشيب الشباب، فتارة يفهم منه الإزالة، وتارة يفهم منه الإثبات، وتارة يفهم منه الأمران ونسخ الكتاب إزالة الحكم بحكم يتعقبه.. قال تعالى: (ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها) قيل: معناه: ما نُزيل العمل بها أو نحذفها عن قلوب العباد، وقيل: معناه: ما توجده وتنزله من قولهم نسخت الكتاب وما ننسأه أى نؤخره فلم ننزله فينسخ الله ما يلقى الشيطان، ونسخ الكتاب نقل صورته المجردة إلى كتاب آخر، وذلك لا يقتضى إزالة الصورة الأولى، بل يقتضي إثبات مثلها فى مادة أخرى كإتخاذ نقش الخاتم فى شموع كثيرة... الخ - المفردات - ص٨٠١ .

٢ - فى: (أ-ص): لرسم، وفى (ط-س): الرسم.

٣- فى (د-ك) ، وفى (ن-م) - (وكان النسخ فى الحقيقة ضرباً من التخصيص).

٤ - فى: (ط-س) التعارف.

٥ - فى : (ف-ض)، (ط-س)، (أ-ص) - لعام-

٦- سورة النساء : الآية (١٠) .

٧- سورة النساء : الآية (٦).

٨- سورة البقرة : الآية (٢١٩).

٩- سورة المائدة : الآية (٩٠).

١٠- فى : (أ-ص) للأول وكذلك فى (ن-م) ، و(د-ك).

١١- فى : (د-ك) ، (ن-م) نفعه.

فالعقل بالجملة يقتضي تجنبه، ولكن لما كان "ذاك"[١] غير صريح أكده بالآية الأخرى، ومن التخصيص الذى يُعد نسخاً قوله تعالى: ﴿**وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا**﴾[٢] مع قوله تعالى: ﴿**وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ**﴾[٣]، وعلى هذا ما حكى أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿**لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ**﴾[٤] شق ذلك على بعض أولي الضرر، فنزل قوله تعالى: (غير أولي الضرر) مقروناً بقوله تعالى: (القاعدون من المؤمنين)، وهذا القدر يدل على كثير مما ذكروه من أمثال ذلك[٥].

(فَصْلٌ فِي أَنَّهُ هَلْ فِي الْقُرْآنِ مَالَا تَعْلَمُ الْأُمَّةُ تَأْوِيلَهُ)[٦]

اختلفوا فى ذلك، فذهب عامة المتكلمين إلى أن كل القرآن يجب أن يكون معلوماً[٧]، وإلاّ أدى إلى بطلان فائدة الانتفاع به وأن لا معنى لإنزاله وحملوا قوله تعالى: ﴿**وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ**﴾ على أنه عطف على قوله تعالى: ﴿**وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ**﴾[٨] وجعلوا قوله تعالى: ﴿**يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ**﴾ فى موضع الحال[٩] كما قال:

الرِّيحُ يَبْكِي شَجْوَهَا ... وَالْبَرْقُ يَلْمَعُ فِي غَمَامِهِ[١٠]

١- فى : (أ-ص)، وسقطت من : (ط-س).
٢- سورة البقرة : الآية (٢٢١).
٣- سورة المائدة : الآية (٥).
٤- سورة النساء : الآية (٩٥).
٥- ساقطة من : (ط-س).
٦- سقط هذاالفصل بأكمله من (ط-س) وجزء من الفصل الذى يليه.
٧- وهو قول مجاهد والضحاك، واحدى الروايتين عن ابن عباس، واختاره النووي، وقال فى شرح مسلم:"إنه الأصح، لأنه يبعد أن يخاطب به عباده بما لا سبيل لأحد من الخلق إلى معرفته". وقال ابن الحاجب: إنه الظاهرمقدمة جامع التفاسير ص ٨٦ - تحقيق: الدكتو / أحمد فرحات ..
٨ - سورة آل عمران: الآية (٧).
٩- وقد استبعد الشيخ محمد الأمين الشنقيطي الحالية هنا وقال : "المعروف فى اللغة العربية أن الحال قيد لعاملها ووصف لصاحبها، فيشكل هنا تقييد هذاالعامل الذى هو "يعلم" بهذه الحال التى هى "يقولون آمنا"، إذ لا وجه لتقييد علم الراسخين بتأويله بقولهم: "آمنا به"، لأن مفهومه أنهم فى حال عدم قولهم "أمنا به" لا يعلمون تأويله وهو باطل، وهذا الإشكال قوي، وفيه الدلالة على منع الحالية فى جملة "يقولون" - على القول بالعطف - مقدمة جامع التفاسير - ص ٨٦.
١٠- البيت ليزيد بن مفرغ الحميري من قصيدة قالها يهجو فيها عباد بن زياد ومطلعها:-

أصرمت حبلك من أمامه ... من بعد أيام برامـــه
فالريح تبكي شجوهـــا ... والبرق يلمع فى الغمامه
لهفي على الأمـــر الذى ... كانت عواقبه ندامـــه

انظر ديوانه- ص١٤٣- تحقيق : الدكتورداوود سلوم. والبيت فى أمالي المرتضى -ج:١-ص٣٩، ج:٢-ص٩٦ والأضداد لابن الأنباري-ص٣٧٢- وتأويل مشكل القرآن- ص٧٤ بتحقيق الأستاذ/ السيد أحمد صقر، خزانة الأدب - ج : ٤ - ص٣٢٩ - الشعر والشعراء - ص ٢٢٧ ، وطبقات فحول الشعراء - ج : ٢-ص٨٩، والصاحبي - ص٣٩٧ ، وهو شاعر إسلامي ، وهذه الأبيات من أجود شعره ، وقالها فى بيع غلامٌ له كان قد رباه يقال له (بُرد)، وكان يعدل عنده ولده .

أي البرق يبكي لامعاً، وقوَّى ذلك بقراءة ابن مسعود فيما قيل: (ويقولون آمنا به) بالواو، وعامة أعيان الصحابة[١] وكثير من المفسرين بعدهم، ذهبوا إلى أنه يصح أن يكون في القرآن بعض مالا يَعلم تأويله إلا الله. قال ابن عباس: «أنزل [٢] القرآن على أربعة أوجه: وجه حلال وحرام لا يسع أحداً جهالته. ووجه يعرفه العرب، ووجه تأويله يعلمه العالمون، ووجه لا يعلم تأويله إلا الله، ومن انتحل فيه علماً فقد كذب»[٣]. وحمل الآية على أحد وجوه ثلاثة:

- أحدهما: أنه جعل التأويل بمعنى ما تؤول إليه حقائق الأشياء من كيفياتها وأزماتها وكثيرمن أحوالها..

وقد علمنا أن كثيراً من العبادات والأخبار الاعتقادية كالقيامة والبعث ودابة الأرض لا سبيل لنا إلى الوقوف على حقائقها وأزمانها، وهذا هو المراد بقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ﴾[٤] الآية.. والثاني: أن من ألفاظه ما أمرنا بأن نتلوها تلاوةً، وبها نتعبد دون معرفة تأويلها، كما تعبدنا بحركات تحصل في كثير من العبادات في الصلاة والحج، وعلى ذلك حمل قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾[٥] أي أنهم أمروا بالتفوه بهذه اللفظة، والثالث: أن كثيراً من الآيات مما اختلف المفسرون فيه، ففسروه على أوجه كثيرة تحتملها الآية، ولا يقطع على واحد من الأقوال، فإن مراد الله تعالى منها غير معلوم لنا مفصلاً، بحيث يقطع به. والذين ذهبوا المذهب الثاني قالوا: قد علم أن الآية نزلت إنكاراً على قوم طمعوا في الهجوم على مالا سبيل لهم إليه، فأراد تعالى حسم أسباب الخوض،ومتى كان فيه تشارك لم ينقطع الشغب إذ كلٌّ يدعى معرفته، فإن قيل : إن هذا لأقوام معينين، فرجع القول إلى ما يقوله الإمامية أن آيات من القرآن لا يعرف تأويلها إلا الإمام، ويشهد لهذا قوله تعالى: ﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾[٦].

١- منهم: عمر وابن عباس- في أقوى الروايتين- وعائشة وعروة وابن الزبير، وعمر بن عبد العزيز وابن مسعود، وأبي بن كعب ، ونقله عنهم القرطبي وغيره. ونقله ابنُ جرير عن يونس عن أشهب وعن مالك بن أنس، وهو مذهب الكسائي والأخفش والفراء وأبي عبيد، وقرأ أبي وابنُ عباس وطاوس :(ويقول الراسخون في العلم) – معجم القراءات القرآنية – ج : ٢- ص٧.

٢- ساقطه من : «د-ك» ، و «ط-س».

٣ – وقال في الإتقان:

وقد أخرج ابن جرير وغيره من طرق عن ابن عباس، قال:

التفسير أربعة أوجه: وجه تعرفه العرب. من كلامها وتفسير لا يعذر أحد بجهالته، وتفسير تعلمه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله تعالى. ثم رواه مرفوعاً بسند ضعيف بلفظ: "أنزل القرآن على أربعة أحرف: حلال وحرام لا يعذر أحد بجهالته، وتفسير تفسره العلماء، ومتشابه لا يعلمه إلا الله تعالى. ومن ادعى علمه سوى الله تعالى فهو كاذب". الإتقان في علوم القرآن – ج :٤، ص١٨٨، ١٨٩.

٤ – سورة الأعراف : الآية (٥٣).

٥ – سورة البقرة : الآية (٥٨).

٦ – سورة النساء : الآية (١٦٢).

(فَصْلٌ فِى بَيَانِ حِكْمَةِ اللهِ تَعَالَى فِى جَعْلِهِ بَعْضَ الآياتِ مُتَشَابِهاً)

سُئل بعض العابدين، فقيل له: ما بال القرآن جُعل بعضه محكماً وبعضه متشابهاً؟ وهلاّ جُعل كله على نمط المحكم حتى كان يكفي الإنسان مؤونة النظر الذى قل ما سلم متعاطيه من زلة؟ وهذه مسئلةٌ نسأل عنهافى الأحكام أيضاً فنقول[1] : هلاّ بينها كلها حتى يستغني عن جهد الرأى الذى لا يؤمن خطؤه؟ بل سئل عنها أيضاً فى أصل التكليف، فيقال: هلاّ خوّلنا الله إنعامه بلا مشقة ولا مؤنة حتى كان عطاؤه أهنأ منالاً؟ فقال: (الجَواب) عن جميع ذلك واحد، وهو أن الله تعالى خَص الإنسان بالفكر[2] والتميز، وشرَّفَهُ بهما، حتى قال تعالى: ﴿ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾[3]، وجعله بذلك خليفة فى الأرض فقال للملائكة: ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾[5]، وقال تعالى: ﴿ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾[6] الآية، وقال تعالى: ﴿ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾[7]، وكفاه شرفاً بما أعطاه من هذه المنزلة أنه قد يصير لأجلها شريفاً موصوفاً بالعلم والحلم والحكمة، وكثير من الصفات التى هى من صفاته تعالى، وإن لم تكن[8] على حَدِّها وحقيقتها.

ولما خصه الله[9] تعالى بهذه الفضيلة- أعني بالفكر والروية- أعطاه كل ما أعطاه من المعارف[10] قاصرةً عن درجة الكمال، ليكمله الإنسان بفكرته، لئلا تتعطل[11] فائدتها، وإلاّ كانت موجداً [12] لما لا فائدة فيه، وذلك شنيع يُنزه عنه البارى سبحانه، وعلى ذلك أحوال كل ما أوجده لنا من المأكولات والمشروبات، لأنه أوجد لنا أصول الأغذية، ثم هدانا بما خوّلنا من التميز إلى تركيبها، وتناول ما يحتاج [13] إليه على الوجه الذى يحتاج[14] وفى الوقت الذى يحتاج[15]. فإذا ثبت ذلك فتأويل كتاب الله تعالى وأحكام شرائعه وسائر معانيه [16] قسمان :

١- فى (د-ك) فقال.
٢- فى (ن-م) بالكفر وهو تحريف واضح.
٣- سورة الإسراء : الآية (٧٠).
٤- سورة البقرة : الآية (٣٠).
٥- سورة النور : الآية (٥٥).
٦- سورة الأعراف : الآية (١٢٩).
٧- سورة هود : الآية (٦١).
٨- فى : (ط-س) يكن.
٩- ساقط من : (ط-س).
١٠- فى: (ط-س) المعاون، وهو تصحيف.
١١- فى: (ط-س)، (أ-ص) ، (ف-ض) يتعطل.
١٢- فى (ن-م) كانت موجوداً لافائدة فيه ، وهى كذلك فى (د-ك).
١٣- فى : (ن-م) و (د-ك) نحتاج.
١٤- فى : (ن-م) و (د-ك) نحتاج
١٥- فى : (ن-م) و (د-ك) نحتاج.
١٦ - في : (ط - س) ، (أ - ص) ، (ف - ض) معاونه وهو تصحيف .

جليٌّ ، وخفيٌّ: فالجلي: ما أدركناه إما بالحاسة، أو ببديهة العقل. **والخفي**[١]: ما يتوصل إليه بوساطة أحد هذين، فسبحان الذى شرف الإنسان بهذه المنزلة السنية لتكون ذريعة لهَ إلى إدراك الحياة الأبدية وتحصيل مالا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خَطَرَ على قلب بشر، كما قال تعالى: **﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾**[٢].

(فَصْلٌ فِى شَرَفِ عِلْمِ التَّفْسِيرِ)

أشرف صناعة يتعاطاها الإنسانُ تَفْسيرُ القُرْآنِ وَتَأْوِيلُهُ، وذلك[٣] أن الصناعات الحقيقية إنما تشرف بأحد ثلاثة أشياء: "إما بشرف موضوعاتها، وهى المعمول فيها، نحو أن يقال: الصياغة أشرف من الدباغة، لأن موضوعها- وهو الذهب والفضة- أشرف من جلد الميتة- الذى هو موضوع الدباغة"[٤] وإما بشرف صورها: نحو أن يقال: طبع السيوف أشرف من طبع القيود.. وإما بشرف أغراضها وكمالها، كصناعة الطب- التى غرضها إفادة الصحة- فإنها أشرف من الكناسة- التى غرضها تنظيف المستراح. فإذا ثبت ذلك، فصناعة التفسير قد حصل لها الشرف من الجهات الثلاث، وهو أن موضوع المفسر كلام الله تعالى: الذى هو ينبوع كل حكمة، ومعدن كل فضلة. وصورة فعله: إظهار خفيات ما أودعه مُنْزِلُهُ من أسراره **﴿لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الأَلْبَابِ﴾**[٥]، وغرضه: التَمسك بالعروة الوثقى التى لا انفصام لها، والوصول إلى السعادة الحقيقية التى لافناء لها. ولهذا عَظَّمَ الله محله بقوله: **﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً﴾**[٦]. "قيل: هو تفسير القرآن"[٧].

---

١ - فى : (ط-س) فالخفي.
٢ - سورة السجدة : الآية (١٧).
٣- فى (ن-م) وذاك وهى الأصوب.
٤ - ساقطة من : (ط-س).
٥ - سورة ص: الآية (٢٩).
٦- سورة البقرة - الآية : (٢٦٩).
٧- ساقطة من : (ط-س).
وقد نقل الإمام السيوطي هذاالفصل فى "الإتقان" ببعض اختلاف من زيادة ونقصان - انظر : ج: ٤ - ص ١٧٣.

(فَصْلٌ فِي بَيَانِ الْآلَاتِ الَّتِي يَحْتَاجُ إِلَيْهَا[1] الْمُفَسِّرُ)

اختلف الناس فى تفسير القرآن: هل يجوز لكل ذى علم الخوض فيه؟ فبعض يشدد[2] فى ذلك وقال: لا يجوز لأحد تفسير شئ من القرآن، وإن كان عالماً أديباً متسعاً فى معرفة الأدلة والفقه والنحو والأخبار والآثار، وإنما له أن ينتهى إلى ما روى له[3] عن النبى ﷺ وعن الذين شهدوا التنزيل من الصحابة- رضي الله تعالى عنهم، أو عن الذين أخذوا عنهم من التابعين، واحتجوا فى ذلك بما روي عنه عليه السلام: **«من فسر القرآن برأيه فليتبوء مقعده من النار»**[4]، وقوله عليه السلام: **«من فسر القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ»**[5]، وفى خبر[6] «من قال فى القرآن برأيه فقد كفر»[7]، وبما روي عن أبى بكر - رضي الله عنه- «أى سماءٍ تظلني وأى أرض تقلني إذا قلت فى كتاب الله برأيي». وذكر آخرون أن من كان ذا أدب وسيع فموسعٌ له أن يفسره، فالعقلاء والأدباء "فوضى فضاً"[8] فى معرفة الأغراض، واحتجوا فى ذلك بقوله تعالى:

﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ ﴾[9].

وذكر بعض المحققين "أن المذهبين"[10] هما الغلو والتقصير، فمن اقتصر على المنقول إليه فقد «ترك كثيراً ممايحتاج إليه»،[11] ومن أجاز لكل أحد الخوض فيه، فقد عرضه للتخليط، ولم يعتبر حقيقة قوله تعالى: **﴿ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ ﴾**[12] .. والواجب: أن يبين أولاً ما ينطوى عليه

---

١ - فى : (ط-س) إليه.

٢ - فى (ط-س): تشدد.

٣ - ساقطه من : (أ-ص).

٤ - أنظر روايات الحديث فى تفسير الطبري-ج:١-ص٧٧، ٧٨ وتعليق الأستاذ/ محمود شاكر عليها حيث يميل إلى تضعيف الحديث.

٥ - قال ابن كثير: عن جندب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من قال فى القرآن برأيه فقد أخطأ»، وقد روى هذا الحديث أبو داوود والترمذي والنسائي من حديث سهيل بن أبي حزم القطيعي، وقال الترمذي: غريب وقد تكلم بعض أهل العلم فى سهيل، وفى لفظ لهم: «من قال فى كتاب الله برأيه فأصاب فقد أخطأ». تفسير القرآن العظيم ج:١-ص٥.

٦- ساقطة من (ن-م).

٧- انظر ما قاله فيه ابن كثير فى تفسيره- ج:١-ص٥.

٨ - فى (د-ك) فوضى فوضى. وجاء فى اللسان: ... وكذلك جاء القوم فوضى، وأمرهم فيضي وفوضى: مختاط، عن اللحياني، وقال: معناه: سواء بينهم كما قال ذلك فى "فضا" ومتاعهم فوضى بينهن إذا كانوا فيه شركاء، ويقال أيضا فضاً قال:

طعامهم فوضى فضاً فى رحالهم ... ولا يحسبون السوء إلاّ تناديا

وفى المعجم الوسيط: قوم فوضى : ليس لهم رئيس. قال الأفوه الأودي:

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ... ولا سراة إذا جهالهم سادوا.

وقد جاءت الكلمتان فى : (ط-س) فوضى...

٩ - سورة ص : الآية (٢٩).

١٠ - ساقطة من : (ط-س).

١١- سا طة من (د-ك).

١٢- سو ـة : ص - الآية : (٢٩).

القرآن، وما يحتاج إليه المفسر من العلوم، فنقول وبالله التوفيق: إن جميع شرائط الإيمان والإسلام التى دعينا إليها واشتمل القرآن عليها ضربان: علمٌ غايته الاعتقاد، وهو الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وعلم غايته العمل، وهو معرفة أحكام الدين والعمل بها.[1] والعلم مبدأ والعمل تمام، ولا يتم العلم من دون العمل، ولا يخلص العمل من دون العلم، ولذلك لم يفرد- تعالى- أحدهما من الآخر فى عامة القرآن، نحو قوله: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِاللهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا﴾[2] ، وقوله: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾[3] وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾[4]، ولا يمكن تحصيل هذين إلاّ بعلوم لفظية وعقلية وموهبية. فالأول : معرفة الألفاظ: وهو علم اللغة، والثاني: مناسبة بعض الألفاظ إلى بعض وهو الاشتقاق. والثالث: معرفة أحكام ما يعرض للألفاظ [5] من الأبنية والتصاريف والإعراب وهو النحو، والرابع: ما يتعلق بذات التنزيل، وهو معرفة القراءات، والخامس: ما يتعلق بالأسباب التى نزلت عندها الآيات، وشرح الأقاصيص التى تنطوي[6] عليها السور من ذكر الأنبياء عليهم السلام والقرون الماضية، وهو علم الآثار والأخبار.

والسادس : ذكر السنن المنقولة عن النبى ﷺ وعمّن شهد الوحي مما اتفقوا عليه[7] وما اختلفوا فيه، مما هو بيان لمجمل، أو تفسير لمبهم المنبأ عنه بقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[8]، وبقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾[9] وذلك علم السنن.

والسابع : معرفة الناسخ والمنسوخ، والعموم والخصوص، والإجماع والاختلاف[10] والمجمَلْ والمفسَّر، والقياسات الشرعية، والمواضع التى يصح فيها القياس، والتي لا يصح، وهو علم أصول الفقه.

---

١ - فى : (أ-ص) والعمل به وكذلك فى (ن-م).
٢ - سورة التغابن : الآية (٩) وتتمتها (يكفر عنه سيئاته)والآية:(١١) من سورة الطلاق، وتمامها: (يدخله جنات).
٣ - سورة غافر : الآية (٤٠)
٤ - سورة الرعد : الآية (٢٩)
٥- فى : (د-ك) الألفاظ
٦ - فى : (ط-س) ينطوي
٧ - فى : (ط-س) فيه
٨ - سورة النحل : الآية (٤٤).
٩ - سورة الأنعام : الآية (٩٠)
١٠- فى : (د-ك) ، (ن-م) والاختلاف.

والثامن: أحكام الدين وآدابه، وآداب السياسات الثلاث، التى "هي"[1] سياسة النفس، والأقارب والرعية، مع التمسك بالعدالة فيها، وهو علم الفقه والزهد...

والتاسع: معرفة الأدلة العقلية والبراهين الحقيقية، والتقسيم والتحديد، والفرق بين المعقولات والمظنونات وغير ذلك، وهو علم الكلام.

والعاشر : علم الموهبة، وذلك علمَ يورِّثُهُ الله مَنْ عَمِلَ بِمَا عَلِمَ[2]، وقال أمير المؤمنين (علي)- رضي الله عنه:

قالت الحكمة: من أرادني فليعمل بأحسن ماعلم. ثم تلا: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾[3] وما روى عنه حيث سُئل: «هل عندك علمٌ عن النبى ﷺ لم يقع إلى غيرك؟ قال: لا، إلاّ كتاب الله وما فى صحيفتى، وفهمٌ يؤتيه الله مَن يشاء» وهذا هو التذكر الذى رجانا تعالى- إدراكه بفعل الصالحات، حيث قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ إلى قوله : ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[4].

وهو الهداية المزيدة للمهتدي فى قوله: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾[5] الآية، وهو الطيب من القول المذكور فى قوله: ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾[6] فجملة العلوم التى هى كالآلة للمفسر، ولا يتم صناعةٌ إلاّ بها هى هذه العشرة: علم اللغة، والاشتقاق والنحو، والقراءات والسير، والحديث، وأصول الفقه، وعلم الأحكام، وعلم الكلام، وعلم الموهبة. فمن تكاملت "فيه"[7] هذه الْعَشَرة واستعملها خرج عن كونه مفسراً للقرآن برأيه. ومن نقص عن بعض ذلك مما ليس بواجب معرفته فى تفسير القرآن وأحس من نفسه فى ذلك بنقصه واستعان بأربابه واقتبس منهم واستضاء بأقوالهم لم يكن - إن شاء الله من المفسرين برأيهم[8]، فإن القائل بالرأي- هاهنا- من لم

---

١ - ساقطة من : (ط-س).

٢ - فى : (ط-س)، و(ف-ض)، (أ-ص) ، (د-ك) : علم ما يعلم، ويبدو أنها جزء من الحديث الوارد: «من عمل بما علم أورثه الله علم مالم يعلم».

٣ - سورة الزمر : الآية (١٨).

٤ - سورة النحل : الآية (٩٠)، وتمامها : (وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون).

٥ - سورة محمد : الآية (١٧).

٦ - سورة الحج : الآية (٢٤).

٧ - ساقطة من : (ط-س).

٨ - فى : (ط-س) برأيه.

تجتمع[١] عنده الآلات التى يستعان بها فى ذلك[٢]، ففسره وقال فيه تخميناً وظناً. وإنما جعله النبى ﷺ مخطئاً وإن أصاب، فإنه مخبر بما لم يعلمه، وإن كان قوله مطابقاً لما عليه الأمر فى نفسه.

ألا ترى أن الله تعالى قال : ﴿إِلاَّ مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[٣]، فشرط مع الشهادة العلم[٤] وكذب المنافقين فى قولهم : ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ﴾[٥]، فقال: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾[٦] ومن حق من تصدى للتفسير أن يكون مستشعراً لتقوى الله مستعيذاً من شرور نفسه والإعجاب بها، فالإعجاب بالنفس أسُّ كل فساد وأن يكون اتهامه لفهمه أكثر من اتهامه لفهم أسلافه الذين عاشروا الرسول وشاهدوا التنزيل، وبالله التوفيق..

(فَصْلٌ فِى جَوَازِ إِرَادَةِ الْمَعْنَيَيْنِ الْمُخْتَلِفَيْنِ بِعِبَارَةٍ وَاحِدَةٍ)

العبارة الموضوعة لمعنيين على سبيل الاشتراك حقيقةً فيهما أو مجازاً فى أحدهما؟ متى تنافى معناهما[٧] فى المراد لم يصح أن يرادا معاً بعبارة واحدة، نحو أن يقال : صل صلاةً واحدةً على سبيل الوجوب والندب. وإذا[٨] لم يتنافيا[٩] صح ذلك، نحو اللمس -المراد به المسيس- والمس. وإلى ذلك ذهب الشافعي- رحمه الله-، وهو مقتضى مذهب سيبويه، لأنه قال فى قولهم: "الويل له": إنه دعاءٌ[١٠] عليه وإخبارٌ عن حاله، فجعله للأمرين فى حالةٍ واحدةٍ، إلى غير ذلك مما دل من كلامه[١١] عليه. والدلالة على جواز ذلك قولهم :"افعلوا كذا"- فى مخاطبة الرجال والنساء- وقولهم: "الرجال والنساء فعلوا"، وهذه العبارة للمذكر حقيقة، وللمؤنث مجاز. وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾[١٢]، وعناه والمؤمنين، فهو حقيقة فيه ومجاز فيهم.

---

١ - فى : (ط-س) يجتمع.
٢ - فى : (ط-س) فيها بذلك.
٣ - سورة الزخرف : الآية (٨٦).
٤ - فى : (ط-س) والعلم.
٥ - سورة المنافقون : الآية (١).
٦ - سورة المنافقون : الآية (١).
٧ - فى : (ف-ض)، (ط-س) معنياهما.
٨ - فى : (ف-ض)، (ط-س) والتى.
٩ - فى : (ط-س) ، (أ-ص)- تتنافيا.
١٠ - فى : (ط-س) عاء، وهو تصحيف.
١١ - فى : (ط-س) كلامه.
١٢ - سورة الطلاق : الآية (١).

وقال الشاعر:

ثِقَالُ الْجِفَانِ والْحُلُومِ رَحَاهُمْ رَحَى الْمَاءِ يَكْتَالُونَ كَيْلاً عُذَمْذَمَا[١]

فوصْفُ "الجفان بالثقل حقيقة، ووصف "الحُلُوم" به مجاز، وقد نظمهما بلفظ واحد، وقال آخر: وماءٍ آجِنِ الْجمَّاتِ قَفْرٍ[٢].

فذكر الماء "وأراده به"[٣] ومكانه، فقد يسمَّى مكان الماء ماء، والدلالة على أنه أرادهما[٤] أنه قد وصفه[٥] "بآجن الجُّماتِ" وذلك من صفة الماء نفسه، و"بقفر"[٦] وهو من صفة المكان، وقال ابن هرمة:

وَالْحوتُ يَسْبَحُ فى السَّمَا ءِ كَسَبْحِهِ فى الْمَاءِ[٧]

وهو بكلٍّ سبح عن معنى الحوت، والحوت السابح فى السماء غير السابح فى الماء. وقالوا: القمران، للشمس والقمر، وذلك فى الشمس مجازٌ لا محالة، فإن قيل: إن ذلك لا يصح من حيث أن المتكلم به يكون مريداً استعمال اللفظ فيما وضع له، والعدول به عن الموضوع له فى حالة واحدة، وذانك[٨] أمران متنافيان فى المراد، وهذه عمدة من منع من جواز ذلك، قيل: إن ذلك إنما ينافى إذا وضع لفظ فاستُعمل فى معنى واحد على أنه منقول إليه عن غيره، ومستعمل فى موضعه. «أما إذا استعمل[٩] فى أحد معنييه» لاعلى النقل بل على الوضع له، وفى الآخر على النقل إليه صح إرادتهما معاً.

---

١ - لم أجد هذا البيت، وفى اللسان: الموت العذمذم : الذى لا يبقي شيئاً.

٢ - البيت لربيعة بن مقروم كما جاء فى شرح اختيارات المفضل. ج:٢-ص١٨٥١-ص٨٥٨- للخطيب التبريزي، تحقيق الدكتور/ فخر الدين قباوة، وقد جاء قبل هذا البيت:

ألا صرمت مودتك الرواع وجد البين منها والوداع

ضرير قد هنأناه فأمسى عليه فى معيشته اتساع

وماءٍ آجن الجمَّات قفر تعقم فى جوانبه السباع

والآجن هو المتغير. والجمات: جمع جمة، وهو: ماكثر من الماء. والقفر : الخالي، والتعقن التشدد والخبث أى : لا يطور به أحد.. وقال المرزوقي: "تعقن": أى تتخذ السباع فى جوانبه عقماً لأمنها فيه، والاعتقام فى الحفر: المضي سفلاً.مقدمة جامع التفاسير-ص٩٩.

٣ - فى:(ط-س) وأراد به.

٤ - فى : (أ-ص) على إرادتهما.

٥ - فى : (ط-س) وصف.

٦ - فى : (ط-س) ويقفر.

٧ - لم أعثر على البيت فى ديوان ابن هرمة المطبوع، وقصده بالحوت السابح فى السماء النجم الذى يسمى الحوت.مقدمة جامع التفاسير-ص٩٩.

٨ - فى : (أ-ص)، (ط-س) وذلك.

٩ - ساقطه من : (ط-س) ومن (د-ك).

ثم ليس من شرط المتكلم أن يخطر بباله كيفية وضع اللفظ من حقيقة ومجازٍ، وأيضاً: فما من لفظٍ مستعملٍ في شيئين: حقيقةً فيهما أو مجازاً في أحدهما إلاّ ويجمعهما معنى عام لهما على طريقة من يراعي مناسبة **الألفاظ**، نحو أن يقال: اتق[١] الأسد والحمار، ويعني "بالأسد": الحيوان الجريء، و"بالحمار": الحيوان البليد، وذلك متناولٌ للبهيمة والإنسان معاً، فيصح أن يُرادا[٢] كما لو قال:[٣] الحيوان الجريء والحيوان البليد. ومما يُحمل من القرآن على ذلك قوله تعالى: **﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾**[٤]، وذلك عـام[٥] في الإنسان وغيره، وقد عُلم أن الإنسان يسبح بلسانه وفعاله، والجمادات ليست تسبح كذلك وقد قرنهما بلفظ واحد، وعلى ذلك قوله تعالى: **﴿وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى﴾**[٦] قيل: عنى بذلك الغنى بالكفاية والغنى بالقناعة معاً، وأمثال ذلك في القرآن أكثر من أن تحصى ههنا.

ولمثل هذه المعاني المجتمعة فيه قال تعالى: **﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾**[٧]، وعلى ذلك روى في الخبر "لِكُلِّ حَرْفٍ"[٨] ظهرٌ وبطنٌ، ولكل حرفٍ حدٌّ ومطلعٌ " تنبيهاً على كثرة معانيه المجتمعة تحت اللفظة بعد اللفظة..

(فَصْلٌ فِي إِعْجَازِ الْقُرْآنِ)

المعجزات التي أتى بها الأنبياء - عليهم السلام - ضربان : حِسّيٌّ وعقليٌّ: فالحسي : ما يُدرَكُ بالبصر، كناقة صالح، وطوفان نوح، ونار إبراهيم وعصى موسى- عليهم السلام- والعقلي: ما يُدرَكُ بالبصيرة، كالإخبار عن الغيب تعريضاً وتصريحاً، والإتيان بحقائق العلوم التي حصلت عن غير تعلم. فأما الحسي: فيشترك في إدراكه العامةُ والخاصةُ، وهو أوقعُ عند طبقات العامة، وآخَذُ بمجامع قلوبهم، وأسرعُ لإدراكهم، إلا أنه لا يكاد يفرق- بين ما يكون معجزة في الحقيقة، وبين ما يكون كهانة أو شعبذة أو سحراً، أو سبباً اتفاقياً، أو مواطأةً، أو احتيالاً هندسياً، أو تمويهاً وافتعالاً- إلاّ

---

١ - في : (أ-ص) التق، وهو تحريف.

٢ - في : (أ-ص)، (ف-ض)، (ط-س) يراد ، وهو تصحيف.

٣ - في (ن - م) كما يقال .

٤- سورة الإسراء : الآية (٤٤).

٥- ساقطة من : (ط-س).

٦ - سورة الضحى: الآية (٨).

٧- سورة لقمان : الآية (٢٧).

٨ - ساقطة من (أ-ص)، (ف-ض)، (ط-س).

ذو سعةٍ في العلوم التى يعرف بها هذه الأشياء. وأما العقلي: فيختص بإدراكه كملَة الخواص من ذوي العقول الراجحة، والأفهام الثاقبة، والروية المتناهية، الذين يغنيهم[١] إدراك الحق . وجعل تعالى أكثر معجزات بنى إسرائيل حسياً لبلادتهم، وقلة بصيرتهم.

وأكثر معجزات هذه الأمة عقلياً لذكائهم وكمال أفهامهم التي صاروا بها كالأنبياء. ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: **«كَادَتْ أُمَّتِي أن تَكُونَ أَنْبِيَاءَ»**[٢]. ولأن هذه الشريعة لما كانت باقيةً على وجه الدهر غير معرضةٍ للنسخ، وكانت العقليات باقيةً غير مبتذلةٍ، جعل أكثر معجزاتها مثلها باقية. وما أتى به النبى ﷺ من معجزاته الحسية، كتسبيح الحصا فى يده، ومكالمة الذئب له، ومجيء الشجرة إليه، فقد حواها وأحصاها أصحابه، وأما العقليات: فمن تفكر فيما أورده ﷺ من الحكم التى قصرت عن بعضها أفهام حكماء الأمم بأوجز عبارة، اطلع على أشياء عجيبة. ومما خصه الله تعالى به من المعجزات القرآن: وهو آيةٌ حسيةٌ عقليةٌ صامتةٌ ناطقةٌ باقيةٌ على الدهر مبثوثةٌ فى الأرض، ولذلك قال تعالى: **﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾**[٣]، ودعاهم ليلاً ونهاراً مع كونهم أولى بسطةٍ فى البيان إلى معارضته[٤] بنحو قوله: **﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ﴾**[٥] وفى موضع آخر: **﴿وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾**[٦]، وقال: **﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾**[٧].

فجعل عجزهم علماً للرسالة، فلو قدروا ما أقصروا[٨] وبذلوا أرواحهم فى إطفاء نوره وتوهين أمره، فلما رأيناهم تارةً يقولون **﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ﴾**[٩]، وتارةً يقولون: **﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا﴾**[١٠]، وتارةً يصفونه بأنه **﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾**[١١]، وتارةً يقولون: **﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ**

١- في (ن – م) ، (د–ك) يغنيهم وهو تصحيف .
٢ – الحديث فى مسند الإمام أحمد – ج: ١–ص٢٩٦
٣ – سورة العنكبوت : الآيتان (٥٠) ، (٥١).
٤ – في (د–ك) المعارضة
٥ – سورة البقرة : الآية (٢٣).
٦ – سورة يونس : الآية (٣٨)
٧ – سورة الإسراء : الآية (٨٨).
٨– في (ن – م) ماقصرا ، وهو تصحيف ، وفي (د–ك) ماقصروا .
٩– سورة فصلت : الآية (٢٦).
١٠– سورة الأنفال : الآية (٣١).
١١– سورة الأنفال : الآية (٣١) ، وسورة النحل : الآية (٢٤). ، وسورة الفرقان : الآية (٥) ووردت كذلك فى عديد من السور..

﴿جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾[١]، وتارةً يقولون: ﴿ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾[٢] كل ذلك عجزاً عن الإتيان بمثله، علمنا قصورهم عنه، ومحالٌ أن يقال: إنه عورض فلم ينقل، "فالنفوس"[٣] مهتزة لنقل مادق وجلّ. وقد رأينا كتباً كثيراً صُنفت فى الطعن على الإسلام قد نقلت وتدوولت[٤]. وهذه الجملة المذكورة، وإن كانت دالةً على كون القرآن معجزاً، فليس بمقنعٍ إلاّ بتبيين فصلين: أحدهما: أن يبين ما الذي هو معجز: أهو اللفظ، أم المعنى، أم النظم؟ أم ثلاثتها؟ فإن كل كلامٍ منظومٍ مشتملٍ على هذه الثلاثة. والثاني: أن المعجز: هو ما كان نوعه غير داخل تحت الإمكان، كإحياء الموتى وإبداع الأجسام.

فأما ما كان نوعه مقدوراً ،فمحله محل الأفضل، "وما كان من باب الأفضل"[٥] فى النوع، فإنه لا يحسم نسبة مادونه إليه. وإن تباعدت النسبة حتى صارت[٦] جزءاً من ألف، فإن النجار الحاذق وإن لم يبلغ شأوه لا يكون معجزاً. إذا استطاع[٧] غيره جنسَ فعله، فنقول وبالله التوفيق: إن الإعجاز "قد ذُكِـــرَ"[٨] فى القرآن" على وجهين : أحدهما : إعجازٌ متعلقٌ بفصاحة، والثاني: بصرف الناس عن معارضته: فأما الإعجاز المتعلق بالفصاحة: فليس يتعلق ذلك بعنصره الذى هو اللفظ والمعنى،[٩] وذلك أن الفاظه ألفاظهم، ولذلك قال تعالى: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾[١٠]، وقال: ﴿الٓمٓ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ﴾[١١] تنبيهاً على أن هذا الكتاب مركبٌ من هذه الحروف التى هى مادة الكلام. ولا يتعلق أيضاً بمعانيه، فإن كثيراً منها موجود فى "الكتب المتقدمة[١٢]، ولذلك قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ﴾[١٣]، وقال ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ﴾[١٤] وما هو معجز[١٥] فيه من جهة المعنى، كالإخبار بالغيب فإعجازه ليس يرجع إلى القرآن بما هو قرآن، بل هو لكونه خبراً بالغيب، وذلك سواء كونه بهذا النظم أو بغيره.

وسواء كان موردا بالفارسية أو بالعربية أو بلغةٍ أخرى أو بإشارةٍ أو بعبارةٍ. فإذا بالنظم المخصوص صار القرآن قرآناً، كما أنه بالنظم المخصوص صار الشعر شعراً، أو الخطبة خطبةً.

---

١ - سورة الفُرْقَانَ : الآية (٣٢).
٢ - سورة يونس : الآية (١٥).
٣ - ساقطة من - (ط-س).
٤ - فى : (أ - ص) وتداولت.
٥ - ساقطة من (ط-س).
٦ - فى : (أ-ص) صار.
٧ - فى : (ط-س) استعمله.
٨ - ساقطة من : (ط-س)، وهو تحريف.
٩- في (د-ك) وذاك .
١٠- سورة يوسف - الآية رقم (٢) ، سورة طه - الآية رقم (١١٣) ، سورة الزمر - الآية رقم (٢٨) ، سورة فصلت - الآية رقم -(٣) ، سورة الشورى - الآية رقم (٧)، سورة الزخرف - الآية رقم (٣).
١١- سورة البقرة - الآيتان : (١. ٢).
١٢ - فى : (أ-ص) و (ط-س) كتب الأقدمين.
١٣ - سورة الشعراء : الآية (١٩٦).
١٤ - سورة طه : الآية (١٣٣).
١٥- في (ن - م) بمعجز .

فالنظم صورة القرآن، واللفظ والمعنى عنصره، وبإختلاف الصور يختلف حكم الشئ واسمه لا بعنصره، كالخاتم والقرط والخلخال تختلف[١] أحكامها وأسماؤها باختلاف صورها لا بعنصرها الذى هو الذهب والفضة. فإذا ثبت [هذا ثبت][٢] أن الإعجاز المختص بالقرآن متعلق بالنظم المخصوص. وبيان كونه معجزاً هو أن نبين نظم الكلام، ثم نبين أن هذا النظم مخالفٌ لنظم سائره، فنقول : لتأليف الكلام خمس مراتب : الأولى: ضم[٣] حروف التهجي بعضها إلى بعض، حتى يتركب منها الكلمات الثلاث: الاسم والفعل والحرف. والثانية: أن يؤلف بعض ذلك مع بعض حتى يتركب منها لجمل المفيدة، وهى النوع الذي يتداوله الناس جميعاً فى مخاطباتهم، وقضاء حوائجهم، ويقال له: المنثور من الكلام، والثالثة: أن يُضم بعض ذلك إلى بعض ضماً له مبادىء ومقاطع، ومداخل ومخارج، ويقال له المنظوم، والرابعة: أن يُجعل له فى أواخر الكلام مع ذلك تسجيع ويقال له[٤] : المسجع. والخامسة: أن يجعل له مع ذلك وزنٌ مخصوصٌ، ويقال له الشعر. وقد انتهى.

وبالحق صار كذلك: فإن الكلام إما منثور فقط، أو مع النثر نظم، أو مع النظم سجع، أو مع السجع وزن. والمنظوم: إما محاورة، ويقال[٥] لها: الخطابة، وإما مكاتبة، ويقال[٦] لها: الرسالة، وأنواع الكلام لا تخرج[٧] عن[٨] هذه الجملة. ولكل من ذلك نظمٌ مخصوص. والقرآن حاوٍ لمحاسن جميعه بنظم ليس هو نظم شئ منها بدلالة أنه لا يصح أن يقال: القرآن رسالة، أو خطابة، أو شعر، كما يصح أن يقال: هو كلام، ومن قرع سمعه فصل بينه وبين سائر النظم. ولهذا قال تعالى: ﴿ **وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ** ﴾[٩] تنبيهاً على أن تأليفه ليس [على][١٠] هيئة نظم يتعاطاه البشر، فيمكن أن يزاد فيه كحال الكتب الأخر، فإن قيل: ولِمَ لمْ يتبع نظم القرآن الوزن الذى هو الشعر، وقد علم أن للموزون من الكلام مرتبةً أعلى[١١] من مرتبة المنظوم غير الموزون، إذ كل موزون منظوم وليس كل منظوم موزوناً؟ قيل: إنما جُنب القرآن نظم الشعر ووزنه لخاصية[١٢] فى

---

١ - في (د-ك) اختلفت .
٢- ساقطة من (ن - م).
٣ - ساقطة من : (ط-س) وفى : (أ-ص) : نظم وضم.
٤ - فى : (ط-س) ويقاله . وهو خطأ من الناسخ.
٥- فى : (ط-س) له.
٦- فى (ط-س): ويقالها وهوخطأ من الناسخ.
٧ - فى : (ط-س) لا يخرج، وهو تصحيف.
٨- فى (ط-س) : من.
٩- سورة فُصلت : الآيتان (٤١ ، ٤٢).
١٠- ساقطة من (ن - م).
١١ - فى : (ط-س) أعلى مرتبة.
١٢ - فى : (ط-س) بخاصية.

الشعر منافية للحكمة الإلاهية، فإن القرآن هو مَقَرُّ الصدق، ومَعْدِنُ الحق. وَقُصْوَى الشاعر تصوير الباطل فى صورة الحق، وتجاوز الحد فى المدح والذم دون إستعمال الحق فى تحري الصادق، حتى إن الشاعر لا يقول الصدق ولا يتحرى الحق إلاّ بالعرض.

ولهذا يقال: من كانت قوته الخيالية فيه أكثر كان على قرض الشعر أقدر، ومن كانت قوته العاقلة فيه أكثر كان فى قرضه أقصر. ولأجل كون الشعر مقر الكذب، نزه الله نبيه - عليه الصلاة والسلام- عنه لما كان مرشحاً لصدق المقال، وواسطة بين الله وبين العباد، فقال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ﴾(١)، فنفى ابتغاءه له. وقال تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾(٢) أى: ليس بقول كاذب. ولم يعن أن ذلك ليس بشعر، فإن وزن الشعر أظهر من أن يشتبه عليهم حتى يحتاج إلى أن ينفى عنه. ولأجل شهرة الشعر بالكذب، سمى أصحاب البراهين الأقيسة المؤدية فى أكثرالأمر إلى البطلان والكذب شعرية، وما وقع فى القرآن من الألفاظ متزنة، فذلك بحسب ما يقع فى الكلام على سبيل العرض بالانفاق، وقد تكلم الناس فيه. وأما الإعجاز المتعلق بصرف الناس عن معارضته، فظاهرٌ أيضاً إذا اعتبر، وذلك أنه ما من صناعة ولا فعلة من الأفعال محمودة كانت أو مذمومةً، إلاّ وبينها وبين قوم مناسباتٌ خفيةٌ،(٣) واتفاقاتٌ إلاهيةٌ بدلالة أن الواحد فالواحد يؤثر حرفةً من الحرف فينشرح صدره بملابستها، وتطيعه قواه فى مزاولتها فيقبلها باتساع قلب، ويتعاطاها بانشراح صدر.

وقد تضمن ذلك قوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾(٤)، وقول النبى ﷺ: «اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لما خُلِقَ لَهُ»(٥)، فلما رؤي أهل البلاغة والخطابة الذين يهيمون فى كل وادٍ من المعاني بسلاطة ألسنتهم ، وقد دعا الله جماعتهم إلى معارضة القرآن وأعجزهم عن الإتيان بمثله، وليس تهتز(٦) غرائزهم البتة للتصدي لمعارضته لم يَخْفَ على ذي لب أن صارفا إلهياً يصرفهم عن ذلك. وأي إعجاز أعظم من أن تكون(٧) كافة البلغاء مُخَيرةً فى الظاهر أن يعارضوه، ومُجْبَرَةً فى الباطن عن ذلك. وما أليقهم بإنشاد ما قال أبو تمام:

فَإِنْ نَكُ أُهْمِلْنَا فَأَضْعِفْ بِسَعْيِنَا ... وَإِن نَكُ أُجْبِرنَا فَفِيمَ نُتَعْتِعُ (٨)

والله ولي التوفيق [والعصمة](٩)

---

١ - سورة يس : الآية (٦٩).
٢ - سورة الحاقة : الآية (٤١).
٣- في (ن - م) ، (د-ك) واتفاقية.
٤ - سورة المائدة : الآية (٤٨).
٥ - الحديث فى البخاري: كتاب (تفسير سورة والليل إذا يغشى)، وكتاب الجنائز: باب موعظة المحدث عند القبر وقعود أصحابه حوله، وكتاب الأدب: باب الرجل ينكت الشئ بيده فى الأرض، وكتاب القدر باب: (وكان أمر الله قدراً مقدوراً)، وكتاب التوحيد: باب قول الله تعالى: (ولقد يسرنا القرآن للذكر). ورواه مسلم فى القدر برقم: (٢٦٤٧) وأبو داوود برقم : (٤٦٩٤)، والترمذي برقم : (٢١٣٧) و (٣٣٤١).
٦ - فى : (أ-ص)، (ط-س) يهتز، وهو تصحيف.
٧ - فى : (أ-ص)، (ط-س) يكون، وهو تصحيف.
٨ - البيت لأبي تمام وقبله:
تروح علينا كل يوم وتغتدي ... خطوبٌ كأن الدهر منهنّ يُصْرعُ
والأبيات من قصيدة قالها يمدح بها أبا سعيد محمد بن يوسف الثغري ومطلعها
أما إنه لولا الخليط المودع ... وربع عفامنه قصيف ومربع
والبيت فى الديوان : ج:٢ - صـ ٣٢٥ - ط: دار المعارف.
٩- ساقطة من (ن-م) ، (د-ك).

بسم الله الرحمن الرحيم

قال بعض العلماء إنما قال "بسم الله" ولم يقل "الله" لأنه لما استُحب الاستعانة بالله تعالى فى كل أمرٍ يفتتح به من قراءةٍ وغيرها، فبعضهم [1]-يذكره[2]-بقلبه، وبعضهم يزيد عليه ويقوله بلسانه ويكون أبلغ – "وذكر الله مستعملٌ فى كل ذلك"[3]- وألفاظ الاستعانة نحو "أستعين بالله" و"اللهم أعنى" ونحو ذلك كثير، فصار لفظة "بسم الله" مستغنىً به عن جميعها وقائماً مقامها، ولو قال "بالله" (لكان يقتضي الاستعانة)[4] بهذه اللفظة فقط[5] و"اسم- ههنا- موضوع موضع المصدر، أى : التسمية، نحو قوله:

[6]-وَبَعْدَ عَطَائِكَ المِائَةَ الرِّتَاعَا[7]

أى: إعطائك، وكما وضع "السلام" موضع "التسليم".

وذكر أبو عبيدة أن قوله "بسم الله" معناه: الله- والاسم زيادة- واحتج بقول الشاعر:

إِلَى الْحَوْلِ ثُمَّ اسْمُ السَّلَامِ عَلَيْكُمَا   وَمَنْ يَبْكِ حَوْلاً كَامِلاً فَقَدِ اعْتَذَرْ[8].

وإنما المعنى أن القائل إذا قال " الله أبتدى"، فمعناه: بهذا الاسم. وإذا قال:"بسم الله" فإن المقصود به "المسمى" فصار قول القائل « أفتتح باسم الله » يفيد فائدة أفتتح الله . [9]-

وما ذكر من الخلاف فى أن "الاسم" هل هو "المسمَّى"؟ أو "غيره". فقولان قالواهما بنظرين مختلفين، وكلاهما صحيح بنظر ونظر، وذاك أن من قال: الاسم الذى هو زيد أو عمرو، هو المسى، فإنما نظر إلى نحو قولهم: "رأيت زيدا"، و"زيد رجلٌ فاضلٌ"، فإن "زيداً" -ههنا- عبارة عن المسمى، والرؤية تعلقت به، ومن قال: هو[10]- غير المسمى، فإنه نظر إلى [نحو][11]- "قولهم": سميت ابنى زيداً" و"زيد اسم حسن"، وإنما عني: أني سمَّيتُ: بهذا اللفظ الذى هو "ز ى د " وأن هذا محكومٌ عليه بالحسن، فإذا[12]- قولك: زيدٌ حسنٌ لفظٌ مشتركٌ يصبح "أن يعنى به أن هذا اللفظ حسن وأن يعنى به أن المسمى به حسن، ونحو هذا الاشتباه فى قولك: هذا إنسان، فإنه يستعمل على ضربين أحدهما

١- في : ٠(ط – س) وبعضهم.   ٢- في (أ-ص) يذكرهم وهوتصحيف.

٣ – جاءت هذه الجملة فى الأصل بعد قوله «ونحو ذلك كثير»، والظاهر أنه كان خطأ من الناسخ.

٤ – جاءت هذه الجملة فى الأصل بعد قوله: «وقائماً مقامها»، والظاهرأنه كان خطأ من الناسخ.

٥- جاءت هذه الكلمة فى الأصل بعد "بالله"، والظاهرأن اضطراباً وقع من الناسخ فى الصفحة الأولى.

٦- في (أ-ص) ببعض وهو تصحيف ، والرغاما بدلاً من الرتاعا.

٧ – هذا هو الشطر الثاني من بيت للقطامي- فى ديوانه- ص٣٧ والشطر الأول:

أكفراً بَعْدَ رَدِّ الموْتِ عنِّي ويريد بذلك أنه يعترف بحق زفر بن حارث الكلابي عليه، وكان قد أسره فى الحرب، ثم منَّ عليه وأعطاه مائة من الإبل التي ترتع والشاهد فى البيت مجئ «العطاء» بمعنى «الإعطاء» الذى هو المصدر ولذلك نصب به «المائة» وهو فى خزانة الأدب ج : ٣ – ص ٤٤٢ ، والمقاصد النحوية ج:٣ ص ٥٠٥ ، وفى اللسان – مادة (عطا) ، وتفسير البحر المحيط ج:١ – ص ١٢٧ ، ج:٥ – ص ٢٧٦ ، وتفسير القرطبي ج : ٢ ص ١٣١١ ، ج : ١٠ – ص ,٦٧٥١ ، ومقدمة جامع التفاسير – ص١١٠.

٨ – البيت للبيد بن ربيعة، وهو من قصيدة مطلعها :

تمنى إبنتاي أن يعيش أبوهما   وهل أنا إلا من ربيعة أو مضر

والبيت قبله :-

وقولا هو المرء الذى لا خليله   أضاع ولا خان الصديق ولاغدر

ولفظ اسم فى البيت تعد مقحمة هنا، وقيل : السلام هو الله، والتعليقات على هذا البيت كثيرة أوردها صاحب الخزانة. وقالها يخاطب ابنتيه عندما أدركته المنية يوصيهما أن تذكراه وترثياه من غير خمش الوجه ولا حلق الشعر ، وتظلا كذلك إلى الحول . والبيتان فى ديوان لبيد – ص ٧٩ ، وأمالى الزجاجي – ص ٦٣ ، و الخصائص – ج:٣ – ص ٢٩ ، وفى خزانة الأدب – ج:٢ – ص ٢١٧ ، و المقاصد النحوية ج:٣ – ص ٣٧٥ ، وتفسير القرطبي – ج:٥ – ص ٣٠٦٣ ، ج:٦ – ص ٣٨٤٧ ،– ص ٦٣ ، والمفصل – ج:١ – ص ٢٧٢ ، وشرح ابن يعيش – ج : ٣ – ص ١٤ وفى همع الهوامع – ج : ٢ – ص ٤٩ . وكتاب الشعراء لأبي علي الفارسي ج ١ : ص ٢٢٩ ، ٢٣٧.

٩- في (ط – س) وإذا قال باسم الله فمعناه قول القائل أفتتح بالله فإن المقصود به المسمي أو غيره .

١٠- ساقطة من (أ-ص) .   ١١- ساقطة من (أ – ص) .   ١٢- في (ط – س) فإني .

أن يختلف أو يشك [١] فى اسمه، فيقال: هذاإنسان أى اسمه إنسان، والثاني: أن يختلف أو يشك [٢] فى جوهره، فيقال هذا إنسان أى جوهره الإنسانية، وكثير من المواضع مثل هذا يقع فيه المغالطة، وأما تصور من قال: لو كان الاسم هو المسمى، لكان من قال: "النار" أحرقت فمه،[٣] فهذا تصور بعيد. فإن عاقلاً لا يقول: إن هذه الحروف التي هى "زى د" هو الشخص.

واشتقاق "اسم" : قيل[٤] هو من "وسمت"، لأن الاسم علامةٌ للمسمى، وهذا وإن كان من حيث المعنى يصح، فتصريف الكلمة يبطله، نحو سميت، والتسمية، أو والمسمَّى[٥] ، ولأن ألف الوصل لا يدخل فيما حذف فاؤه نحو[٦]: "عِدَةٌ" و"زِنَةٌ"، والصحيح: أن أصله من "السمو"، لأن الاسم شعارٌ للمسمى ورفعة له. وأصله: سِمْو، كعِضْو[٧]، وحِنْو[٨]، أو سَمَوْ، كجَبَل وجَمَل، لِقَوْلهِمْ فى الجمع: أسماء. وقد كثر "أفعال" فى جميع هذين البنائين، ولا يُجْعَلُ فُعْلاً "كتُرْسٍ" و"أتراس"، لأن باب "فُعْل" لم يكثر فيما آخره واو استثقالاً. وأما قول الشاعر:

بِاسْمِ الَّذِى فِى كُلِّ سُورَةٍ سِمُهُ[٩]

فقد قيل إنما ضُم اتباعاً لما بعده، ولو كان الميم مكسوراً لم يجُز فى السين الضمة، فأما لفظة: الله، فيجب أن يعلم أن أسماء الله تعالى كلها مشتقة باتفاق أهل اللغة إلا لفظة الله، فإنه مختلفٌ فيها: فبعضهم جعلها كالعلم مستدلاً بأنه يوصف ولا يوصف به كالأسماء الأعلام، ويقوي ذلك إنه يقال بالتنوين -إلاهاً-و[١٠] لأنه قال تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾[١١]، ويعنى به "الله. وآخرون قالوا هو مشتق، ثم اختلف بعد ذلك فيها:

فقيل: أصله «إلاه» مصدر من «أله » «يألهُ » أى :عَبَدَ فسُمِّي به كقولهم فى صفاته تعالى: «السلام» ، وهو فى الأصل مصدر وسَمُّوا الشمس « إلهة » لعبادتهم لها. ولذلك نهاهم الله تعالى

١، ٢ - في (أ - ص) أوشك .

٣ - يريد بذلك أنه لو كان الاسم هو المسمى لكان مجرد اللفظ بكلمة "النار" كافياً لإحراق فم قائلها .

٤ - هو قول الكوفيين.

٥- في (أ - ص) وأسميه أو سمى .

٦ - قال ابن عطية فى تفسيره: وحذفت فاؤه اعتلالاً على غير قياس،والتصغير والجمع المذكوران يردان هذا المذهب الكوفي، وأما المعنى فيه فجيد لولا ما يلزمهم من أن يقال- فى التصغير- وسيم- وفى الجمع- أو سام، لأن التصغير والجمع يردان الأشياء إلى أصولها. ج:١-ص٥٥ - مقدمة جامع التفاسير - ص ١١١.

٧ - قال فى مختار الصحاح: والعضو: بضم العين وكسرها- واحد الأعضاء.

٨ - قال صاحب القاموس المحيط: والحِنْو- بالكسر والفتح: كل ما فيه اعوجاج من البدن.

٩- هذا المشطور من الرجز لرؤبة بن العجاج، وقد روي بضم السين وكسرها فى "سمه"، وقد جاء بعده:

أرسل فيها بازلاً يقرمه   فهو بها ينحو طريقاً يعلمه

وهو فى نوادر أبي زيد- ص ١٦٦، وفى النوادر لأبى مسحل-ج:١ص٩٥، وفى تفسير أرجوزة أبى نواس لابن جني، والإنصاف لابن الأنباري: ج:١-ص١٠، وذكره القرطبي فى تفسيره بدون نسبة - ج : ١- ص ١٤٧ - وفي مقدمة جامع التفاسير - ص ١١٢.

١٠- في (أ-ص) باسورته وفي (و - ج) باسورة وهو تصحيف .

١١ - سورة مريم: الآية (٦٥).

بقوله: ﴿لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾(١)، وسموا الأصنام آلهةً لذلك، وأصله: إلاه، فحذفوا همزته، وجعلوا الألف واللام عوضاً منها(٢)، ولكونهما عوضاً استجيز قطع الهمزة الموصولة، وإدخال حرف النداء عليه في قولهم: "ياالله". وقال سيبويه- في موضع: أصله: لاه، على "فَعْل" من لاه- يلوه لياهاً، أي: احتجب، قالوا: وذلك إشارة إلى ما قال تعالى: (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار)(٣)، وقيل: من أله: إذا فزع، وألَهَه: أي :أجَارَهُ وأمَّنَهُ (٤). وإلا له إسم المفزوع إليه كالإمام لمن يؤتم به. وقيل هو من أله يأله، إذا تحيَّر، وكأنه عنى ذلك أمير المؤمنين- رضي الله عنه-(٥)، **بقوله: «كلٌّ دُونَ صفاته تحبيرُ اللغات(٦) وضلَّ فيما هناك تصاريف والصفات »**(٧)، ومنه قيل في صفة المفازة: والعاتية (٨) تالهُ العينُ وَسْطَهَا» وقيل: أصله: ولاه، من وَلَهَ يَوْلَهُ، فقلب الواو همزة، فيكون الإله اسماً لما يُوْلَهُ نحوه. فمن الناس من قال: إن ذلك قيل لأن الأشياء تأله نحوه إما تسخيراً، واما إرادةً وقصداً، كما أنه يُسَبِّحُ له لذلك. وعلى هذا قال: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾(٩) وذلك إما تسخيراً وإما إرادةً(١٠) ومنهم من قال ذلك مختصٌّ بالعقول التى فطرها الله تعالى وأشار إليها بقوله: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾(١١)، لأن العقول بفطرتها دالةٌ على وحدانية ومُنْبِئَةٌ عن وجوب شكره مالم يدسها صاحبها كما قال تعالى: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾(١٢)، ومنهم من قال : ذلك مختصٌّ بالأحوال التى ينقطع الإنسان عن غيره، فيقصده بفكره، وإليه أشار بقوله: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾(١٣)، ومنهم من قال: مختصٌّ بالعباد المخلصين والعبادة عنه بذلك كالعبادة عنه بالمحبوب، والمراد المشار إليها بقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾(١٤) وبقوله: ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾(١٥)، وقد أطلق بعض الأولياء وبعض القدماء عليه تعالى لفظ المعشوق، والمشوق، (١٦) **إلاّ أن ذلك كرهه أهل العلم لأمرين**: عدم التوقيف فيه، وكون العشق فى هذه اللغة متعارفاً فى اللذات البدنية...

---

١ - سورة فصلت : الآية (٣٧).
٢ - كتاب سيبوية : ج: ٢-ص١٩٥.
٣ - هذه الإضافة ساقطة من الأصل، وقد استدركناها من كتاب "المفردات" للمؤلف ليستقيم الكلام.
٤- في : (ط - س) إعادة .
٥- في (ط - س) عليه السلام .
٦- في (ط - س) الصفات.
٧- في (ط - س) اللغات .
٨- فى (ط - س) ومهمهة.
٩ - سورة الإسراء: الآية (٤٤).
١٠ - انظر المفردات للراغب - مادة : "أله".
١١ - سورة الروم : الآية (٣٠).
١٢ - سورة الشمس : الآية (١٠).
١٣- سورة النحل : الآية (٥٣).
١٤ - سورة المائدة : الآية (٥٤).
١٥ - سورة الكهف : الآية (٢٨).
١٦- في (كا ؟ ص) ، (و - ج) والمشتوق وهو تحريف .

﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾: الرحمة -في اللغة- رقةٌ مقتضيةٌ للتعطف والتفضل، فمبدأها الرقة التي هى انفعال، ومنتهاها: العطف والتفضل الذى هو فعل. فالإنسان إذا وُصِفَ بالرحمة، فتارةً يُرادُ به حصولُ المبدأ الذى هو الرقة، وتارةً يُراد به المنتهى الذى هو التفضل والعطف، وتارة يرادان معاً، وإذا وُصف بها البارى، فليس يراد به إلا المنتهى الذى هو الفعل دون المبدأ الذى هو الانفعال، إذ هو منزه عن الانفعالات وعن كل نقص[1] تعالى الله عن ذلك، «الرؤف»، فإن الرأفة انعصار القلب عن مشاهدة شدة مقتضية للإغاثة[2]، فمتى وصف به الإنسان صح أن يراد به المبدأ الذي هو انعصار القلب . وإذا وصف به الباري ، فليس يراد به إلا الغاية التى هي الإغاثة [3] ، وعلى ذلك الجود فإنه اختصاص بخلق مقتض لأن لايدخر عن المحتاج ماينتفع به عليمايجب ومتى وصف به الباري تعالي فالمراد به النهاية التي هي ترك الإدخار دون الإختصاص .بالخلق.

وهذا التفسير – أغنى في « الرحمة » – هو علي ماروي عن التابعين ، حيث قالوا « الرحمة من الله إنعام وإفضال ، ومن الآدميين : رقة وتعطف ». وهذه الطريقة أظهر وأبين ، وأشبه بنظر السلف ، من نظر من تخبط في تفسير ذلك زاعماً أنالوصف لايختلف معانيه باختلاف الموصوفين ، وذلك أن فاعل ذلك لم يتصور أنه قد يكون بين مبدأ المعنى ومنتهاه بون بعيد .

فإن قولنا « العالم» وإن كان موضوعة للمدح ، فإن مبدأ، أن يتخصص الموصوف به بمعلومات مايخرج بها عن حد الجهالة ، ووسطه : أن يحصل له معلومات كثيرة تفوق بها أكثر العلماء ، وغايته : أن يحيط بجميع المعلومات بحيث لايخفى عليه شئ ، ولايدركه سهو ولاغفلة ولانسيان . ومعلوم أن المبدأ يصح لأكثر الخلائق ، ووسطه ليس إلا للخصائص ، من الأنبياء والحكماء ، وغايته : ليس إلا لله تعالى : وذلك ظاهر ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [4] فأما لفظة ﴿الرَّحْمَنِ﴾ فليس يُطلق إلاّ لله كلفظه الله، فإنهما اسمان اختص بهما الباري جل وعز باتفاق، ولأجل ذلك قال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾[5]، فالرحمن هو الذى كثرت رحمته وتكررت ووسعت كل شئ، ولذلك فَسَّر[6] بأنه الذى يكون منه تعُّطفٌ بعد تعطف وتفضل. وأما ﴿الرَّحِيمِ﴾، فقد

١- فى (أ-ص) نقض وهو تصحيف .

٢، ٣ - في (ط – س) الإيمان وهو تصحيف .

٤- اقتباس من الآية (٣٧) سورة (ق).

٥ – سورة الإسراء : الآية (١١٠).

٦- في (أ – ص) فسرت .

يُوصَفُ به غيره إذا كان معناه: الذى كثرت رحمته، وعلى ذلك: "نديم" و"نُدمان"، فإن "النديم": هو الذى كثرت منادمته.[١] و"النُّدْمَانُ" : هو الذى مع كثرة ذلك منه تكررت عنه، ولذلك قال أهل اللغة: "ندمان" أبلغ من "نديم"، ولفظهما يدل على ذلك، فإن العرب إذا أرادوا زيادة معنى زادوا فى اللفظ فى الأمر العام، كأنما يحاكي باللفظ المعنى، نحو "قَطَعَ" و"قَطَّعَ"، و"كُبَار" و"كُبَّار"، و"احمرَّ" و"احمارَّ"، وذلك فصلٌ قد أُحْكِمَ فى غير هذا الموضع،[٢] فإن قيل: ماالفائدة فى الجمع بينهما مع أن **"الرحمن"** يقتضي معنى **"الرحيم"** إذ هو أبلغ منه؟ قيل: إنه تعالى لما خلق الدارين وكان فى دار الدنيا منعماً على المؤمن والكافر، واختص رحمته بالمؤمنين فى الآخرة- ولذلك قيل: رحمن الدنيا، ورحيم الآخرة، وقال تعالى: ﴿**وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا**﴾[٣] جمع بين الوصفين، وأما ذكر "الرحيم" بعد "الرحمن" فذكر خصوص بعد عموم.

وروى عن عطاء أنه قال: كان الله اختص بالرحمن، فلما تسمى بذلك بعض الكفار قال: **"الرحمن الرحيم"**: إذ كان [٤] الاسمان معاً لم يوصف غير الله به بوجه. وقدم ذكر "الله" إذ هو أخص الأسماء. و"الرحم" و"الرحمة" مشتق بعضها من بعض، وقد دل على ذلك قوله عليه السلام: **(لما خلق الله الرَّحِمَ،[٥] قال: انا الرحمنُ، وانت الرَّحم، شققتُ لك اسماً من اسمى، فوعزتي وجلالي لأصلنَّ من وصلك، ولأقطعن من قطعك)**[٦] .

ومـــعنى ذلك أن الله تعالى لما جعل بين نفسه وبين عباده سبباً، فهو كما أنه كتب على نفسه الرحمة لعباده، وأوجب عليهم فى مقابلتها شكر نعمته لما كان هو السبب الأول فى وجودهم وخلق قواهم وقدرهم وسائر خيراتهم، كذا أيضاً (جعل) [٧] بين ذوي اللُّحْمَةِ بعضهم مع بعض سبباً أوجب به على الأعلى التوقر على الأدون، وعلى الأدون توقير الأعلى، فصار بين « الرحم » و«الرحمة» والرحمة مناسبة معنوية، كما أن بينهما نسبةً لفظيةً، ولهذا عَظُمَ شكر الوالدين، فقرنه بشكره فى قوله تعالى: ﴿**اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ**﴾[٨] تنبيهاً أنهما السبب الأخير فى وجود الولد، كما أن الله تعالى[٩] السبب الأول فى وجود كل موجود.

١- فى (أ - ص) مقاومته وهو تحريف .

٢- هنا يشير إلي كتاب للراغب الأصفهاني يدور حول تحقيق الألفاظ المترادفة على المعنى الواحد ومابينها من فروق غامضة ، وقد ذكره في مقدمة كتاب المفردات ، ص.٥٥

٣- سورة الأحزاب : الآية (٤٣).

٤- في (أ - ص) إذا كان .

٥- في (أ-ص) الرحيم وهو تصحيف .

٦ - الحديث فى سنن أبى داود تحت رقم: ١٩٦٤- بلفظ: حدثنا مسده وأبو بكر بن شيبة قالا: ثناسفيان عن الزهرى عن أبي سلمة عن عبدالرحمن بن عوف أنه قال: "سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم يقول: (قال الله: أنا الله، وأنا الرحمن خلقت الرَّحِم، وشققت لها اسماً من اسمي، فمن وصلها وصلته، ومن قطعها قطعته). وورد فى جامع الأصول -ج:٦-ص٤٨٦، وأخرجه الترمذي ، وأورده القرطبي في تفسيره - ج : ١- ص.١٥١

٧- زيادة يقتضيها الكلام.

٨- سورة لقمان : الآية (١٤).

٩- في (ط - س) أنه تعالي .

﴿ سورة الفاتحة ﴾

قوله عز وجل : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ :الآية (٢) سورة الفاتحة .

الحمد: هو الثناء بالفضيلة. والشكر: مقابلة النعمة قولاً وعملاً. ولما كانت النعمة لا تخرج من كونها فضيلة، صار الحمد منطوياً على معنى الشكر، فكل شكر حمد، وَلَيْسَ كلُّ حَمْدٍ شُكْراً. ولكون الحمد أعمَّ قال ابن عباس[١]- رضى الله تعالى عنهما[٢]: "الحمد هو الشكر لله والاستخذاء والإقرار بنعمه"، وقال عليه السلام "**اَلْحَمدُ رَأسُ الشُّكْرِ، وَمَا شَكَرَ اللهَ عَبْدٌ لَمْ يَحْمَدْهُ**"[٣]، ولذلك قيل : الحمد لله شكراً[٤] ولم يقل: شكرت الله حمداً[٥]، ولكون الشكر بالفعل كما يكونَ بالقول، قيل: دابة شكور، إذا ظهر سمنها بأدنى علف لها[٦]، وقال تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾[٧] .

وأما الفرق بين "الحمد و"المدح": فالحمد أخص، إذ لا يستحق إلا بالفعل الاختيارى، والمدح قد يستحق بما يكون من قبل الله تعالى، يقال: فلان ممدوح على جوده ومحمود.وممدوح على حسنه، ولا يقال محمود. والمدح: أكثر ما يُقال إنما يقال فى الأشياء النافعة التى لم تبلغ الغاية[٨]، كالثروة، والجلادة، والجود. والحمد يقال فى ذلك، وفيما فوقه، فيقال: الجود محمود. والله تعالى محمود. وقلَّ ما يقال: الله ممدوح[٩]

ودخول الألف واللام فى "الحمد" للجنس، تنبيهاً أن الحمد كله فى الحقيقة لا يستحق سواه، وإن كل حمد لغيره فهو عارية له. والله تعالى هو المستحق له فى الحقيقة، إذ هو سبب كل نعمةٍ وخيرٍ، ولذلك قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾[١٠]، إن قيل: لِمَ لَمْ يَقُلْ: الْحَمْدُ لى؟ قيل: لأن ذلك تعليم منه لعباده، كأنه قال:

قولوا: بسم الله، الحمد لله، بدلالة قوله: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾[١١]

---

١ - قال السيوطي فى الدر المنثور: وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: "الحمد" هو الشكر والاستخذاء لله، والإقرار بنعمه وهدايته وابتدائه وغير ذلك". ج:١-ص١١.

٢- ساقطة من (و - ج) ، (ط - س).

٣ - قال السيوطي فى الدر المنثور: "وأخرج عبد الرزاق فى "المصنف" والحكيم الترمذي فى "نوادر الأصول" والخطابي فى "الغريب" والبيهقي فى "الأدب" والديلمي فى "مسند الفردوس" والثعلبي عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قرأ: "الحمد رأس الشكر فما شكر الله عبد لم يحمده-ج:١-ص١١.

٤- في (ط - س) أحمد الله شكراً .

٥- في (أ - ص) شكر الله حمداً .

٦- في (و - ج) ، (أ - ص) ظهر سمنه بأدنى علف له، وهو تصحيف .

٧- سورة سبأ : الآية (١٣).

٨- في (أ - ص) ولم يبلغ .

٩ - انظر مادة / حمد فى المفردات للراغب- ص ١٣٠.

١٠ - سورة النحل : الآية (٥٣).

١١ - سورة النمل : الآية (٥٩).

وقيل: إن ذلك كقول الرجل لابنه: الْحَمْدُ فِي كَذَا لأبيك. فيأتي بلفظ الْغَائِبِ ليكُونَ أَبْلَغَ. وقيل: إنَّ "قُلْ" غيرُ مُقَدَّرٍ في هذا الْمَوْضِعِ، لأن الله حَمِدَ نَفْسَهُ ليُقْتَدَى به، في حمده، بدلالة ما روي عن النبي ﷺ: «**ليس شئ أحب إلى الله من الْحَمْدِ، اثنى على نفسه فقال: "الْحَمْدُ لِلَّهِ"**[١]، ولأن أرفَعَ حَمْدٍ ما كان من أرفع حامد وأعرفهم بالمحمود وأقدرهم على إيفاء حقه في الحمد، وما حامد أرفع منه وأعرف بذاته وأقدر على حمده منه تعالى، كما لا محمودَ أرفع منه وأعلى، وقال بعضهم: كل ثناءٍ أثنى الله على نفسه، فهو في الحقيقة إظهاره بفعله. فحمده لنفسه: هو بثُّ آلائه، وإظهار نعمائه بمحكمات أفعاله المقتضية لحمده. فكأن قوله: "الحمد لله"- تقديره:الحمد لله ظاهرٌ بآلائه، وعلى ذلك قوله: ﴿**شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ**﴾[٢]، فإن شهادته لنفسه إيجاده الأشياء دالةً على وحدانيته ناطقة بالشهادة له. وعلى هذا قال ذو النون: لما شهد[٣] الله لنفسه، أنطق كل شئ بشهادته:

فَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ شَاهِدٌ ... يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدٌ[٤]

وعلى ذلك قوله تعالى:

﴿**وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ**﴾[٥]، وقوله: ﴿**يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾[٦] إن قيل: استحسن حمده لنفسه وقد علم في الشاهد استقباح حمد الإنسان نفسه حتى قيل لحكيم:

ما الذي لا يحسن وإن كان حقاً؟ فقال: مدح الرجل نفسه؟! قيل: إنما قُبح ذلك من الإنسان، لأنه ما من أحد إلاّ والنقص فيه ظاهر، ولو لم يكن إلاّ في كون أثر الصنعة عليه وحاجته إلى الكمال، ومن خفي عليه نقصه، فقد خدع عنه عقله.

ثم مدح الإنسان نفسه ليس بقبيح[٧] على الإطلاق، فإن ذلك مُستحسن عند تنبيه المخاطَب على ما خفي عليه من حال المخاطِب، كقول عالم يحث المتعلم على الأخذ عنه: اسمع مني فإنك لا تجد فيه مثلي[٨]. وعلى ذلك قول يوسف- عليه السلام: ﴿**اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ**﴾[٩].

---

١ - قال السيوطي في الدر المنثور:
«وأخرج ابن جرير عن الأسود بن سريع أن النبي- صلى الله عليه وسلم قال: "ليس شئٌ أحبَّ إليه من الحمد، ولذلك أثنى على نفسه فقال: "الحمد لله". -ج:١-ص١٢.
٢ - سورة آل عمران : الآية (١٨).
٣- ساقط من : (ط-س)، (أ-ص).
٤- البيت لأبي العتاهية ، وهو في ديوانه ص ٦٢ وفي الزهرة ج : ٢ - ص ٥٠٢ ، وفي البصائر ج : ٣ - ص ٣٥٢ ، وفي نظم الدرر ج: ٤ - ص ٢٨٩ به ونسبه وهو في مفردات الراغب - ص ٤٦٦ :

وفي كل شئ له آية ... تدل على أنه واحد.

٥- سورة الإسراء : الآية (٤٤).
٦- سورة الحشر : الآية (٢٤).
٧- في (أ - ص) بقبح .
٨- في (أ - ص) لاتجد مثلي .
٩- سورة يوسف : الآية (٥٥).

إن قيل : "الحمد لله" خبرٌ، ويقتضي مخبراً، فما الفائدة في إيراده في الخلوات؟ قيل: أما في القرآن، فَلِمَا ندب الله تعالى إلى تلاوته. وأما في غيره، فلئلا ينفك من حمده في شئ من الأحوال، كما لا ينفك من نعمه اعترافاً له بها، فكأنه هو المخبر.

قوله عز وجل:

﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الآية :(٢) سورة الفاتحة

الرب- في الأصل- التربية: يقال: رَبَّهُ وربَّاهُ، فسُمِّي الرَّابُّ ربّاً لزيادة معنى تُصُوِّر منه، [لرحمته][1] ومنه قيل:

«لأنْ يَرُبَّنِي رجلٌ من قريش أحبُّ إليَّ من أن يَرُبَّنِي رجلٌ من هوازن»[2] فـ "رب العالمين": هو المتكفل بمصلحتهم، ولا يقال: "الرب"-مَطلقاً بالألف واللام- إلا لله تعالى. وتسميتهم إياه بذلك للنظر إلى آلائه. قال بعض المحققين- في الفرق بين قوله تعالى : **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾**[3] وقوله: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾**[4] قال: حيث خاطب الناس كافة حثهم على اتقائه برؤية آلائه، لاشتراكهم كلهم في معرفتها وتصورهم إياها. وحيث خاطب المؤمنين حثهم على اتقائه بلا واسطة. و"العالم": اسم للفلك وما يحويه، وجميع ما فيه من الجواهر والأعراض. وهو في الأصل: اسم لما يُعلَمُ به. و"فاعل": كثيراً ما يجئ في اسم الآلة التي يُفعل بها الشئ كـ"الطابع" و"الخاتم" و"القالب". فَجُعِلَ بناؤه على هذه الصيغة لكونه كالآلة في الدلالة وعلى صانعه[5]. وأما جمعه، فقد قيل لأن لله تعالى بضعة عشر**ين** عالماً. ولما كان في جملتها الناسُ جمع جمعهم إذ من شأن الإنسان- إذا شارك غيره في اللفظ- أن يكون الحكم في اللفظ له. وقيل : لأنه عنى به أصناف الخلائق من الملائكة والجن والإنس دون غيرها- وإليه ذهب ابن عباس ومجاهد -[رضي الله عنهما]،[6] وقيل: عنى به الناس وجعل كل واحد منهم عالماً- قال ذلك جعفر بن محمد، قال: العالمُ عالمَان، عالمٌ كبيرٌ، وهو الفلك بما فيه، وعالَمٌ صغير، وهو الإنسان.

١- ساقطة من (ط-س).

٢- هذا من حديث صفوان بن أمية لأبي سفيان يوم حنين قالها لما انهزم الناس أول المعركة من المسلمين . وقد أورده الراغب في المفردات - ص ٣٣٦ ، وهو في الروض الأنف - ج : ٤ - ص ١٢٤ ، وفي النهاية في غريب الحديث - لابن الأثير - ج : ٢ - ص ١٨٠.

٣- سورة النساء: الآية (١) ، وسورة الحج : الآية (١) ، ولقمان : الآية (٣٣).

٤ - سورة البقره : الآية (٢٧٨) ، وسورة المائدة : الآية (٣٥) ، وسورة التوبة : الآية (١١٩)، والأحزاب:الآية (٧٠). وسورة الحشر- الآية (١٨).

٥- قال المؤلف في كتاب "المفردات" بعد هذه الجمله:«ولهذا أحالنا تعالى عليه في معرفة وحدانيته فقال: **(أولم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض)** - الأعراف : (١٨٥) - مفردات ألفاظ القرآن - ص٥٨٢.

٦- ساقطة من : (ط-س).

وقال: سَمَّى كُلُّ إنسانٍ عَالَماً، لأن فيه جواهر العالم الأكبر من الأخلاط الأربعة، ولأن لحمه كالأرض الرَّخوة، وعظامه كالجبال، ودمه الجاري فى العروق كالمياه فى الأنهار، ونفسَهُ كالريح، وشعرَه كالنبات. وفيه من ألْمَلَكِ: العقل، ومن البهائم: الشهوة، ومن النبات: النمو والتغذي. قال: فصار عالماً يُعلم به وحدانيته صانعه كما يُعْلَمُ بالعالم الكبير. ولذلك قال تعالى:

﴿وَفِى أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾[١]، **وقال عليه السلام: «أعلمكم بنفسه أعلمكم بربه»**[٢]، وقيل- فيما أنزل الله فى السفر الأول: "من عرف نفسه فقد عرف ربه"[٣]، وإلى نحو ذلك أشار بقوله عز وجل:

﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ﴾[٤] تنبيهاً أنهم لو تفكروا فى أنفسهم لما خفى معرفته عليهم. وقال المفضل بن سلمة العرب تقول: "العالمين"- بالياء- فى موضع النصب والرفع والجر، إلاّ قوماً من كنانة يقولون: "اللذون" قال: ويدل على ذلك أن "فاعل" لم يجمع السلامة قال: وعلى ذلك "الأقورين"[٥] و"الفتكرين"[٦] و"البرجين"[٧]، وذكر أن من قال: العالمون، فقد وقع عليه السهو حيث لم يجد ذلك فى موضع الرفع، كما وجد الذين فى موضع رفع، وذكر المبرد أن هذا سهو من قائله، لأنه رأى ذلك فى القرآن إما خفضاً أو نصباً.

قوله -عز وجل- ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ الآية :(٤) سورة الفاتحة.

قيل: الملك الذى يملك الأمر والنهي فى الجمهور، وإنما شرط الجمهور لأن كل إنسان يملك ذلك فى نفسه وما يختص به، ثم يقال له: ملك، وهذا إنما قاله بالنظر العامي وأما بالنظر الخاصي، فهو

---

١ - سورة الذاريات : الآية (٢١).

٢ - ورد فى كشف الخفاء ومزيل الإلباس:"وقال النجم: قلت: وقع فى "أدب الدين والدنيا" للماوردي: عن عائشة سُئل النبى- صلى الله عليه وسلم- من أعرف الناس بربه؟ قال: أعرفهم بنفسه: كشف الخفاء- ج:٢-ص٣٤٣ - ٣٤٤.

٣ - ورد فى كشف الخفاء ومزيل الإلباس قول ابن تيمية فى هذا الأثر: موضوع. وقال النووي قبله: ليس بثابت. ج:٢-ص٣٤٣.

٤ - سورة الحشر : الآية (١٩).

٥- قال صاحب القاموس الوسيط: "الأقورين"-بكسر الراء-، والأقوريات أى:"الدواهي". وفى المعجم الوسيط: الأقورين: الدواهي العظام.

٦ - قال صاحب القاموس المحيط: الفتكرين بتثليث الفاء وفتح القاء وبكسر الفاء وسكون التاء وفتح الكاف: الداهية، أو الأمر العجب العظيم.

٧ - جاءت هذه الكلمة فى الأصل، والظاهر أنها تصحيف لكلمة أخرى. ولم أعثر لها على معنى فى"القاموس المحيط" أو "المعجم الوسيط".

فى الحقيقة اسمٌ لمن يملك السياسة من نفسه أو منها أو من غيرها[١]، ومالك ذلك من نفسه أجل مَلِكٍ وأكبر سلطان ولذلك قيل لحكيم: ما الملك الأعظم؟ فقال: أن يغلب الإنسان شهواته، بل لهذا قال عليه السلام لمن سأله أى الأعمال أشدُّ؟ فقال: «جِهَادُكَ هَوَاكَ»[٢]، وقال: «رَجَعْنَا مِنَ الْجِهَادِ الأَصْغَرِ إلَى الْجِهَادِ الأَكْبَرِ»[٣]، وحجة من قرأ مَلك قوله تعالى: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾[٤] وقوله: ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾[٥] والملك: مصدر"الملك" لا "المالك".

وأما "المالك": فهو الضابط للشئ المتصرف فيه بالحكم، ومنه "مَلَكْتُ العجين". و"الوكيل": وإن كان ضابطا للشئ متصرفاً فيه– فإنه لا يقال له: "مالك" لما كانت يده يد غيره. ويقال للصبي والمعتوه: "مالك"، لما كان ذلك لهما حُكماً وإن لم يكن لهما فعلاً.

وحجة قارئه قوله– عز وجل–﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ﴾[٦]، فجعل الملك مملوكاً. وقال: ﴿وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾[٧]، وقوله: (﴿يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا﴾[٨]، فإن قيل: أيهما أبلغ؟ قيل: قال بعضهم: "مالك" أبلغ، لأنه يقال: مالك الدراهم والحيوانات والريح، ولا يقال مَلِكُها. وقيل: "الملك" أبلغ، لأنه لا يكون إلاّ مع تعظيم. وهما مختلفان فى الحقيقة، فإن الْمَلِكَ: هو المتصرف بالأمر والنهي فى المأمورين. والمالك: هو المتصرف فى الأعيان المملوكة على أى وجه كان. فإن قيل: على أى وجهٍ أضيف إلى اليوم؟ قيل: أما "مَلِكٌ"، فعلى حد: ياسارق الليلة أهلَ الدار. فى أنه اتسع للظرف، فجعله مفعولاً به، وأما "مالك" فمضاف إلى المفعول به. لأنه تعالى هو موجده وضابطه. وإذا أضيف إلى "الوقت" غيرُ الله تعالى فيقال: فلان مالك يوم كذا. فإنما هو على تجوُّزٍ إذ كان حقيقة اليوم والوقت ليس بملك لغيره. وأما اختصاص ذلك اليوم مع كونه فى الحقيقة مالكاً لجميع الأشياء، وفى جميع الأزمنة– لأمرين: أحدهما: أنه قد ملَّك فى الدنيا قوماً أشياء يبطل عنها ملكهم لها يوم القيامة، ولذلك قال: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾[٩]، وقال: ﴿نَرِثُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾[١٠]، وقال: ﴿وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾[١١]،

١– فى (ط – س) أو في غيرها .

٢، ٣– ورد فى : كشف الخفاء قول الحافظ بن حجر فى تسديد القوس:هو مشهور على الألسنة، وهو من كلام إبراهيم بن أبى عبلة– انتهى– وأقول: الحديث فى الأحياء، قال العراقي: رواه البيهقي بسند ضعيف عن جابر، ورواه الخطيب فى تاريخه عن جابر بلفظ: «قدم النبى–صلى الله عليه وسلم– من غزاة، فقال عليه الصلاة والسلام:"قدمتم من خير مقدم وقد رجعتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر، قالوا: وما الجهاد الأكبر؟ قال: مجاهدة العبد هواه، والمشهور على الألسنة : رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر – دون باقي الحديث ففيه اقتصار مقدم جامع التفاسير ص ١٢٣.

٤ – سورة غافر : الآية (١٦).

٥ – سورة الحج : الآية (٥٦).

٦ – سورة آل عمران : الآية (٢٦).

٧، ٨ – سورة الانفطار : الآية (١٩).

٩ – سورة غافر : الآية (١٦).

١٠ – سورة مريم : الآية (٤٠).

١١ – سورة الانفطار : الآية (١٩).

والثاني على وجه التعظيم، لأنهم يجعلون ما يستعظمونه ملكاً له نحو: بيت الله وناقة الله وتعظيم إياه على وجه أن اليوم الآخر لا انقضاء له ولا فناء، وجميع ما في الدنيا فإن، وقد علم أن الباقي أشرف من الفاني، فأما الدِّين فالجزاء، كقوله: ﴿وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾(١)، وقيل: الدِّين عبارة عن الشريعة كقوله: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾(٢)، ومعناه يوم جزاء الدين، ومثل: الدين الطاعة، أي يوم جزاء الطاعة وخص الطاعة وإن كانت المجازاة عنها وعن المعصية لأمرين أحدهما إن كل أحد بطبعه في ذلك اليوم ولذلك قال: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً﴾(٣) والثاني: أن الطاعة هي المقصودة بالجزاء ولأجلها خلقنا وعلى ذلك دل قوله ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾(٤)، وقرئ "مالك" -بالنصب- فقيل: هو نداء(٥)- فعلى هذا يقع في اللفظ عدول عن الخبر إلى الخطاب به. وقيل : نصبه على المدح والعدول عن الخير إلى الخطاب حينئذ، يكون في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾.

قوله عز وجل: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ .الآية (٥) - سورة الفاتحة.

قال بعض النحويين(٦): "إياك" كله اسمٌ واحدٌ.

وقال بعضهم : "الكاف"(٧) هو الاسم، و"إيا": وَصْلَةٌ له، وهذان لا تنافي بينهما في الحقيقة، لأن ذلك بنظرين مختلفين، وذاك أن الضمير المتصل إذا قُدِّمَ أو فُصِلَ بينه وبين المتصل به لا يَحْسُنُ النطقُ به مفرداً، فضم إليه: "إيا" ليصير بذلك كلاماً مستقلاً، فمن قال: الضمير هو الكاف، فإنما اعتبر بذلك بعد انضمام "إيا" إلى الضمير، والعرب كماأنهم يتحرون بالحروف المركبة إفادة المعنى، فقد يأتون ببعضها تهذيباً للفظ وتحسيناً له، بدلالة إدخالهم الحروف بين الحرفين المتنافرين في

---

١ - سورة الذاريات : الآية (٦).
٢ - سورة آل عمران : الآية (١٩).
٣ - سورة مريم : الآية (٩٣).
٤ - سورة الذاريات : الآية (٥٦).
٥ - قال مكي بن أبى طالب في كتاب: "الإبانة": قرأ أبو صالح: "مالك يوم الدين" بألف والنصب على النداء، وكذلك قرأ محمد بن السميفع، وهي قراءة حسنة، وقرأ شريح بن يزيد الحضرمي أبو حيوة "مَلِكَ يوم الدين" بالنصب على النداء من غير ألف"... الإبانة- ص٩٠، ٩١.
٦ - هو قول الكوفيين كما ذكره مكي بن أبي طالب في كتاب: "مشكل إعراب القرآن" -ج:١-ص١١.
٧ - قال مكي بن أبي طالب في مشكل إعراب القرآن:
«وحكى ابن كيسان أن الكاف هو الإسم، و"إيا" أتي بها لتعتمد الكاف عليها، إذ لا تقوم بنفسها.. ج:١-ص١٠.

التركيب، لئلا يَقْبُحَ التفوُّه بهما. وذلك قد أشبع الكلام فيه في غير هذاالكتاب[١] . "فـ إيا": جُعِلَ وصلَةً لتحسين اللفظ بالضمير إذا قُدِّمَ لمَّا لم يَحْسُنْ أن يقال: ك ألزمت. وهُ ضُربت كما أتوا بـ"ذي" لما أرادوا للوصف باسم الجنس في نحو قولهم: "مررت برجلٍ ذي مال". وأُتِي بـ "الذي" لما أُريدَ أن تُوصَفَ بالمعرفة بالجمل. وعلى ذلك أُتِيَ "مثل" مع "الكاف" في نحو "لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ" لما لم يحسن إدخال الكاف على الضمير، فيقال: كَكَ، وكَهُ. و"العبادة": التذلل. ومنه : طريقٌ مُعبَّد. وفي المتعارف. الاشتغالُ بالخدمة. قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي﴾[٢].

والعبد على ضربين: عبد بالإيجاد والتسخير: وذلك يُطلق على كل أحد، وإياه عنى بقوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾[٣] وعبدٌ على طريق التخصيص وذلك قوله: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾[٤] واستثناهم إبليس بقوله ﴿إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾[٥] وقوله: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا﴾[٦]. فعلى الثاني: يصح أن يقال : فلان ليس عبدا، وعلى هذا قيل : فلان عبد الهوى، وعبد الشهوة، وعبد الطاغوت، وقال تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ﴾[٧] وعلى ذلك قال عليه السلام: «تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَار، تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَم»[٨]. والاستعانة: طلب المعونة، وهي ضربان: ضروري في الأمر وغير ضروري: فالضروري: مالا يتم إيجاد الفعل من دونه، وبوجوده يوصف الإنسان بالاستطاعة للفعل. وبعدمه يوصف بالعجز عنه، وهي بالقول المجمل أربعة: بنية صحيحة للفاعل وتصوُّره للفعْل، وتَأتِّي مادة له، وآلة يُعمل بها، وذلك متصور في الكاتب، فإنه يحتاج إلى بنية صحيحة، وهي العضوُ: وإلى تصور لها وهو : المعرفة . وإلى آلاتٍ كالدواة والقلم. وإلى مادةٍ توجد الفعل فيها، وهو الكاغد. وغير ضروري: وهو ما يصح إيجاد الفعل من دونه، لكن ربما يكون فيه الصعوبة، كمن يقصد مكاناً بعيداً فيعيرُهُ صديق له مركوباً، فَيُسَهِّلُ عليه طريقه. فغير الضروري لا يمكن حصره، ويصح التكليف من دون وجوده، وهو المعبر عنه بالتوفيق والتسهيل، وتسميه العامة: سَعَادَةُ الجَدِّ، وجودةَ الْبَخْتِ. وفي تيسيره ودفع ضده يستعمل في كثير من

---

١ – لعل في هذا إشارة من الراغب إلي كتابه (تحقيق الألفاظ المترادفة على المعنى الواحد) الذي سبقت الإشارة إليه من قبل.
٢ – سورة البقرة : الآية (١٣٣).
٣ – سورة مريم : الآية (٩٣).
٤ – سورة الحجر : الآية (٤٢).
٥ – سوره الحجر : الآية (٤٠).
٦– سورة الفرقان : الآية : (٦٣).
٧ – سورة البقرة : الآية (٢٥٦).
٨ – الحديث أخرجه البخاري في كتاب الجهاد: باب الحراسة في الغزو في سبيل الله.

الأدعية. فإذا ثبَّتَ هذه الجملة، فالاستعانة بالله: طلب الأمرين. فبحصول الضروريات من المعاون يتوصل إلى اكتساب الثواب، وبحصول غير الضروريات منها يتسهل علينا السلوك إليها. إن قيل: كيف قال: "إياك" نعبد" ولو قال:"نعبدك" كان أوجز منه لفظاً؟ قيل: إن عادتهم أن يقدموا من الفاعل والمفعول ما القصد الأول إليه، والاهتمام متوجهُ نحوه، وإن كان في ذكر الجملة القصدان جميعاً. تقول: بالأمير استخف الجند- إذا كان القصد الأول ذكر من وقع به استخفاف الجند- و"الأمير أستخف بالجند- إذا كان القصد الأول إلى من أقدم على الاستخفاف بهم.

ولما كان القصد الأول- في هذا الموضع - ذكر المعبود دون الإخبار عن إتخاذ[1] عبادتهم، كان تقديم ذكره أولى. وعلى هذا قوله تعالى:

﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾[2] وأيضاً، ففي ذكر المفعول إشارة إلى إثبات الحكم المذكور ونفيه عن غيره تقول: إليك أفزع تنبيهاً أنى لا أفزع إلا إليك، وإذا قال:أفزع إليك، فليس فيه هذا المعنى وعلى هذا فسر ابن عباس- رضي الله تعالى عنهما فقال: معناه: لا نوحد غيرك وقال بعضهم: إنما نبه تعالى بتقديم ذكر أن تكون نظر العباد من المعبود إلى عبادتهم له لا من العبادة إلى المعبود، وعلى ذلك فضل ما حكى اللهعن نبينا- عليه السلام- إذ قال: **﴿لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾**[3]، فنظر من الله تعالى إلى نفسه على ما حكى عن موسى عليه السلام حين قال: **﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي﴾**[4]، فقدم ذكر نفسه، ونظر منها إلى ربه إن قيل: لِمَ كرر إياك؟. قيل لأنه لو قال: **﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾**، لكان يصح أن يعتقد أن الاستعانة بغيره، وكان إعادته أبلغ. إن قيل: لم قدم العبادة على الاستعانة، وحق الاستعانة أن تكون مقدمة، إذ لا سبيل إلى عبادته إلاّ بمعونته؟ قيل: قد قالوا : هو على التقديم والتأخير. وقيل: الواو لا تقتضي الترتيب. والوجه- في ذلك- أن الله تعالى علَّم خلقه بذلك أن يقدموا حقه ثم يسألوه ليكونوا مستحقين للإجابة. ويجوز أن يكون قوله: (وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ): في موضع الحال، نحو قول الشاعر:

بِأَيْدِيَ رِجَالٍ لَمْ يَشِيمُوا سُيُوفَهُمْ ... ولم يكْثُر القَتْلَى بِهَا حِينَ سُلَّتِ[5].

---

١ - في (و - ج) ، (ط - س) إيجاد .
٢ - سورة الزمر : الآية (٦٤).
٣ - سورة التوبة : الآية (٤٠).
٤ - سورة الشعراء : الآية (٦٢).
٥ - البيت للفرزدق- وهو في ديوانه- ص ١٣٩، ومعنى: (لم يَشِيمُوا): لم يُغْمِدُوا.

فقوله: "ولم يكثر القتلى بها" في موضع الحال.

قوله عز وجل: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾: الآية (٦) - سورة الفاتحة.

الهداية: دلالة بلطف، ومنه الهدية، وهوادي الوحش متقدماتها، لكونها هادية لسائرها، وخص ما كان دلالة بفعلت نحو: هديته الطريق، وما كان من الإعطاء ب "أفْعَلْتُ" نحو: أهديت الهدية"، و"أهديت إلى البيت"، ولما تصور العروس على وجهين، قيل فيه: هديت وأهديت، فإن قيل: كيف جعلتَ الهدى دلالةً بلطف، وقد قال الله تعالى، **﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾**(١)، وقال تعالى: **﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾**(٢)؟ قيل: إن ذلك على حسب استعمالهم اللفظ على التهكم كما قال:

وَخَيْلٌ قَدْ دَلَفْتُ لَهُ بِخَيْلٍ … تَحِيَّةُ بَيْنِهِمْ ضَرْبٌ وَجِيعُ(٣).

والهداية: هي الإرشاد إلى الخيرات قولاً وفعلاً، وهي من الله تعالى على منازل بعضها يترتب على بعضٍ، لا يصح حصول الثاني إلاّ بعد الأول، ولا الثالث إلاّ بعد الثاني: فأول المنازل: إعطاؤه العبد القوى التي بها يهتدي إلى مصالحه: إما تسخيراً، وإما طوعاً، كالمشاعر الخمسة، والقوى الفكرية، وبعض ذلك قد أعطاه الحيوانات، وبعضه خُصَّ به الإنسان.

وعلى ذلك دل قوله تعالى: **﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾**(٤) وقوله تعالى: **﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾**(٥)، وهذه الهداية إما تسخير واما تعليم، وإلى نحوه أشار بقوله تعالى: **﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾**(٦) وقوله تعالى: **﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾**(٧)، وقال في الإنسان بما أعطاه من العقل وعرّفه من

---

١ - سورة الصافات : الآية (٢٣).

٢ - سورة الحج : الآية (٤).

٣ - البيت لعمرو بن معد يكرب كما جاء في كتاب سيبويه -ج:١-ص٣٦٦، ٤٢٩، وقال فيه الشنتمري: الشاهد فيه جعل الضرب تحية على الاتساع... يقول: إذا تلاقوا في الحرب جعلوا بدلاً من تحية بعضهم البعض الضرب الوجيع. ومعنى :دلفتُ: زحفت: مشيت رويداً وقاربتُ الخطى ، يقال: دلف الشيخ، ودلف الحامل بحمله وإليه. أقلل عليه. انظر: المعجم الوسيط- نوادر أبي زيد، ص١٥٠- الخصائص-ج:١-ص٣٦٨. وهو في المقتضب. ج:٢ ص ٢٠ ، ج:٤ - ص ٤١٣ وفي المفصل لابن يعيش - ج:٢-ص٨٠ ، وخزانة الأدب - ج:٤ - ص ٥٣ ، ومعاني القرآن - ج:١ -- ص ١٢٧ ، والممتع - ص ٢٦٠ ، والخصائص - ج:١-ص٣٦٨ وديوان الشاعر - ص ١٤٩ ، وتفسير الطبري ج١٠-ص٣١٠، وأورده الراغب في المفردات ص ١٢٦ ، ص ٨٣٥ .

٤ - سورة طه : الآية (٥٠).

٥ - سورة الأعلى : الآية (٣).

٦- سورة النحل : الآية (٦٨).

٧ - سورة الزلزلة : الآية (٥).

الرشد: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾[١] وقال: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾[٢]، وقال فى ثمود: ﴿فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾[٣] وثانيها: الهداية بالدعاء وبعثة الأنبياء عليهم السلام وإياها عنى بقوله تعالى ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾[٤] وبقوله : ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾[٥] وهذه الهداية تنسب تارة[٦] إلى الله -عز وجل- وتارةً إلى النبى- عليه السلام- وتارةً إلى القرآن قال تعالى ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾[٧]. وثالثها: هداية يوليها صالحى عباده بما اكتسبوه من الخيرات. وهى الهداية المذكورة فى قوله- عز وجل ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾[٨]، وقوله : ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾[٩]، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[١٠]، وهذه الهداية هى المعنية بقوله: ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾[١١] ، ويصح أن تنسب هذه الهداية إلى الله -عز وجل- فيقال: هو آثرهم بها من حيث أنه هو السبب فى وصولهم إليها، ويصح أن يقال: اكتسبوها من حيث إنهم توصلوا إليها باجتهادهم، فمن قصد سلطاناً مسترفداً فأعطاه، يصح أن يقال إن السلطان خوله، ويصح أن يقال: «فلان اكتسبه بسعيه»، ولانطواء ذلك على الأمرين قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾[١٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ﴾[١٣]، فنبه أن ذلك بجهدهم وبفضله جميعاً، وهذه الهداية يصح أن يقال هى مباحة للعقلاء كلهم ، ويصح أن يقال : هي مباحة للعقلاء كلهم، ويصح أن يقال هى محظورة إلاّ على أوليائه لما كان فى إمكان جميع العقلاء أن يترشحوا لتناولها ومن قبل أنها لا يسهل تناولها قبل أن يتشكل الإنسان بشكل مخصوص بتقديم عبادات. وقد قال بعض المحققين: الهدى من الله كثير، ولا يبصره إلاّ البصير ولا يعمل به إلاّ اليسير، ألا ترى إلى نجوم السماء ما أكثرها، ولا يهتدي بها إلاّ العلماء. وقال بعض

١ - سورة الإنسان : الآية (٣).
٢ - سورة البلد : الآية (١٠).
٣ - سورة فصلت : الآية (١٧).
٤ - سورة الأنبياء : الآية (٧٣).
٥ - سورة الرعد : الآية (٧).
٦ - في (أ - ص) ينتسب .
٧ - سورة الإسراء : الآية (٩).
٨ - سورة الحج : الآية (٢٤).
٩ - سورة الأنعام : الآية (٩٠).
١٠ - سورة العنكبوت : الآية (٦٩).
١١ - سورة الحديد : الآية (٢٨).
١٢ - سورة محمد : الآية (١٧).
١٣ - سورة يونس : الآية (٩).

الأوليـاء: إن مـثل هداية الله مع الناس كمثل سيل مرَّ على قلاَّتٍ وغدَاير، فيتناول كل قلتٍ منها بقدر سعته، ثم قال قوله: ﴿أنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾(1)، وقال بعضهم: هي كمطر أتى على أرضين، فتنتفع (2) كل أرض بقدر ترشيحها للانتفاع به، والمنزلة الرابعة من الهداية، التمكين من مجاورته في دار الخلد وإياها عنى الله تعالى: بقوله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا﴾(3) فإذا ثبت ذلك فمن الهداية مالا ينفى عن أحد بوجه، ومنها ما ينفى عن بعض ويثبت لبعض، ومن هذا الوجه قال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ (4)، وقال: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾(5) ، وقال: ﴿وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلالَتِهِمْ﴾(6) ، فإنه عنى الهداية التي هي التوفيق وإدخال الجنة دون التي هي الدعاء، لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(7) ، وقال في الأنبياء: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾(8) ، فقوله: (إهدنا الصراط المستقيم) فُسِّر على وجوه بحسب أنظار مختلفة إلى الوجوه المذكورة: الأول: أنه عنى الهداية العامة، وأمر أن ندعو بذلك، وإن كان هو قد فعله لا محالة، ليزيدنا ثواباً بالدعاء، كما أمرنا أن نقول: «اللهم صل على محمد». الثاني: قيل: وُفِّقنا لطريقة الشرع. الثالث: احرُسْنا عن استغواء الغواة وإستهواء الشهوات، واعصمنا من الشبهات. الرابع: زدنا هدى واستنجاحاً لما وعدت بقولك: ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾(9)، وقولك: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾(10)، الخامس. قيل: علِّمنا العلمَ الحقيقي، فذلك سبب الخلاص، وهو المعبَّر عنه بالنور في قوله تعالى: ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾(11)، السادس: قيل سؤال الجنة، لقوله تعالى: (﴿الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾(12).

---

١ – سورة الرعد : الآية (١٧).
٢ – في (أ – ص) فينتفع .
٣ – سورة الأعراف : الآية (٤٣).
٤ – سورة القصص : الآية (٥٦).
٥ – سورة البقرة : الآية (٢٧٢).
٦ – سورة النمل : الآية (٨١).
٧ – سورة الشورى : الآية (٥٢).
٨ – سورة الأنبياء : الآية (٧٣).
٩ – سورة التغابن: الآية (١١).
١٠ – سورة محمد : الآية (١٧).
١١ – سورة النور : الآية (٣٥).
١٢ – سورة محمد : الآية (٤، ٥).

وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾[١] الآية. فهذه الأقاويل اختلف باختلاف أنظارهم إلى أبعاض الهداية وجزئياتها والجميع يصح أن يكون مراداً بالآية إذ لا تنافي بينها. وبالله التوفيق. وقوله : "الصراط [المستقيم][٢] " يقال: الصراط، والسراط، والزِّراط[٣] ، والأصل من: سرطت الطعام، وزردته: إذا ابتلعته. وسمي الطريق بذلك، تصوراً أنه إما أن يبتلعه سالكُه، أو يبتلع هو سالكه. ذلك ألا ترى أنه قيل: فلانٌ أكلته المفازة- إذا أضْمَرَتْهُ أو أهْلَكَتْهُ. وأكل المفازة- إذا قطعها- وعلى هذا النحو قال [أبو تمام[٤]:]

رَعَتْهُ ٱلْفَيَافِى بَعْدَمَا كَانَ حِقْبَةً ... رَعَاهَا وَمَاءُ الرَّوْضِ يَنْهَلُّ سَاكِبُهْ[٥].

ويقال: قتل أرضاً عالِمُها. وقتلت أرضٌ جاهِلَها. وسمي الطريق: "اللَّقْمُ وَالْمُلْتَقِم" - على هذاالنحو- وذلك في معنى: "الملقوم" كالنقض والرفض في معنى "المنقوض" و"المرفوض". و"المستقيم": القائم بالقسط. قال :

أمير المؤمنين على صِرَاطٍ ... إذا اعْوَجَّ الْمَوَارِدُ مُسْتَقِيمُ[٦].

وذلك قد تصور على وجهين: أحدهما: أنه إشارةٌ إلى أن الطريق المستقيم "واحدة" بإضافتها إلى طرق الضلال واحد، وطرق الضلال كثيرة، وعلى هذا النحو، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾[٧]، وروى أن النبي ﷺ قال: «ضَرَبَ الله مثلاً صراطاً مستقيماً، وعلى جنبتي الصراط ستورٌ مرخاةٌ، وعلى رأس الصراط داعٍ يقول: "ادخلوا الصراط ولا تعوجُّوا"، ثم قال: "الصراط: الإسلام، والستور المرخاة: محارم الله. وذلك الداعي: «القرآن«[٨]، وعلى هذا فسر الآية.

١- سورة يونس : الآية (٩). ٢- ساقطة من (و- ج) ، (أ - ص).

٣- قرأ جعفر الصادق (صراط مستقيم) بالصاد ، وقرأ بن كثير وقنبل وابن صحيص (سراط) وقرأ حمزة وخلف (زراط) لاشمام الصاد زاياص . انظر إتحاف الفضلاء ص١٢٣، البحر المحيط ج : ١ ص٢٦ والمحتسب لابن جني ج : ١ ص٤١ ، والغيث للصفاقسي ص ٦٢ ، ومعجم القراءات القرآنية ج : ١ ص١٢ - الطبعة الأولي .

٤- ساقطة من : (ط-س)، (أ ٠ص).

٥ - البيت لأبى تمام، وهو فى ديوانه - ص ١٢٢ من قصيدة له يمدح بها عبد الله بن طاهر بن الحسين، ومطلعها :

من عوادى يوسف وصَوَاحبه ... فعزماً فقدماً أدرك السؤل طالبهْ

وقد قال الخطيب التبريزى فى شرح البيت:

المعنى أنه قطعت عليه القفار من الأرض فهزل بعدما كان سميناً ، فكأنها رعته بعدما رعى نبتها . ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزى ج:١ - ص ١٢٢ ، ، وهو فى المفردات - ص ,٤٠٧

٦- البيت الجديد فى ديوانه ص ٤١١ - ط- دار صادر بيروت.

٧- سورة الأنعام : الآية (١٥٣).

٨ - الحديث أخرجه الإمام أحمد فى مسنده من حديث النواس بن سمعان، وإسناده صحيح ج:٤-ص٣١٨، وأخرجه الحاكم فى المستدرك-ج:٢-ص٣١٨، وقال : صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبى، وأخرجه الترمذى بلفظ قريب منه تحت رقم (٢٨٦٣) فى الأمثال باب رقم (١) وقال : هذا حديث حسن غريب.

فقيل: الصراط المستقيم: القرآن، وقيل : الإسلام، وقيل: سنة النبي ﷺ، وهذا كله إشارة إلى شئ واحد وإن اختلفت[١] العبارات. والثاني أن طريق النجاة بإضافة بعضها إلى بعض كثيرة، ولكن بعضها أقصد، وبعضها أبعد، وأقصد الطرق الطريق المستقيم الذى هو طريق السابقين دون طريق المقتصدين الظالمين وإن كانا مؤديين إلى النجاة أيضاً، ولكنهما أبعد. ألا ترى أنه قال تعالى: **﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾**[٢] - الآية- فجعل ثلثهّم مصطفين[٣]، ولكون بعض الطرق أقرب من بعض، قال النبي عليه السلام فى قوم: **(إنهم يدخلون الجنة قبل آخرين بكذا سنة)**[٤].

قوله عز وجل: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ : الآية (٧) - سورة الفاتحة.

الإنعام: إيصال الإحسان إلى الغير. والنعمة -يقال فيما يرتضيه العقل وإن كان كريه المحتمل- والنعمة- قد يقال فيما يستلذه الهوى، وإن كان كريه العاقبة- هذا هو الحقيقة، وإن كان قد يعد الإنسان بسوء تصوره بعض ما يستلذه هواه نعمة وإن كان وخيم العقبى. ونعمة الله، وإن كانت لا تحصى، كما قال تعالى: (**﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾**[٥] فهى بالقول المجمل ضربان دنيوي وأخروى. فالدنيوي ضربان موهبي ومكتسبي. فالموهبي: ثلاثة: أشرفها : العقل وقواه من الفهم والحفظ والفكر والنطق. ثم البدن:[٦] وقواه من الصحة والقوة والجمال والكمال. ثم ما يكنفه من الخارج كالمال والجاه والأقارب والأصدقاء. وأما المكتسب: فأربعة:

---

١ - في (و - ج) ، (أ - ص) اختلف .
٢ - سورة فاطر : الآية (٣٢).
٣ - في (ط - س) ثلاثتهم .
٤ - لعله يريد بذلك مثل الروايات التى ذكرها الترمذي فى كتاب الزهد، والتى منها:
عن أبى هريرة قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم: (يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل اغنيائهم بنصف يوم وهو خمسمائة عام). وقد علق عليه الترمذي بقوله: (وهذا الحديث صحيح ج:٤-ص٣٦، ٣٧.
٥ - سورة إبراهيم : الآية (٣٤) ، و سورة النحل : الآية (١٨).
٦ - في (أ - ص) البدني وهو تصحيف .

وأما المكتسب فأربعة :

- الحكمـة [١] والعفة وعنها يصدر الجود والنجدة وعنها يصدر الصبر والعدالة. وهي ثلاث : عدالة في نفس الإنسان ، وذلك بأن يجعل هواه تابعاً لعقله ، وعدالة بين العبد وخالقه وذلك فى توفية حق العبادات ، وعدالة بين كل إنسان وبين غيره في المعاملات ، وهذه الأربعة ينطوي عليها العبادة المأمور بها فى قوله : ﴿ مَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ [٢] ، وأما الأخروي : فرضاء الخالق . ومعاشرة الملائكة . وبقاء الأبد . والغني عن كل حاجة إلا إليه تعالي ، وعلي ذلك دل قوله تعالي : ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾[٣] وقوله تعالي : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾[٤] فالنعمة الحقيقية التي لاغناء عنها ، ويقال لها : الخير المطلق هى الأخروية ، فأما الدنيوية فضربان : ضرب هو نافع ضروري في الإيصال إلى الخير المطلق ، وهي المكتسبات ، فإنها ضرورية فيه ، إذ لايمكن الوصول إلى نعيم الآخرة إلا بها أو ببعضها ، ولذلك قال تعالي ﴿ لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾[٥] ، وضرب غير ضروري ، وقد يكون تارة نافعاً في بلوغ المقصود، وتارة ضاراً فيه ، نحو المال والجاه والقوة والجمال ، ولذلك لايقال في الملك : إنه نعمة على الإطلاق ، لأنه قد يكون نعمة لزيد ، ونقمة على عمرو ، ولهذا قيل :« رب مغبوط بأمر وهو داؤه. ومرحوم بأمر هو شفاؤه » ولذلك قال بعض الصالحين : (يامَنْ مَنْعُهُ عَطَاءٌ) ، وقال آخر : (يَامَنْ لاَيَسْتَحِقُّ بِمَنْعِهِ الْشُكْرَ سِوَاهُ)، وعماد ذلك كله في إيصالنا إلى المقصود من نعيم الآخرة توفيق الله - عز وجل - ، فقد قيل لبعض الحكماء : ما الذي لايستغنى عنه في كل حال ؟ فقال : التوفيق . إذا ثبت معرفة أنواع النعم ، علم أن قوله تعالي : ﴿ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ : يعنى به من سهلت عليهم طريق الفوز بإعطائهم مايمكنهم منه ، ومنهم مايثبطهم عنه ، ومن المفسرين من قال: أراد به أن عرفهم مكائد الشيطان وخيانة النفس ، ومنهم من قال : عني الإنعام عليهم بالعلم والفهم وكل هذا أبعاض للحكمة ، فالوجه : أن يجري ذلك علي العموم في كل ماصح أن يكون نعمة بدلالة قوله تعالي : ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾[٦] . وهؤلاء المنعم عليهم : المعنيون بقوله تعالي :

١- في (أ - ص) الحمية وهو تصحيف .
٢- الآية : (٥) - سورة البينة .
٣- الآية : (١٠٠) - سورة التوبة .
٤- الآيتان : (٧، ٨) - سورة البينة .
٥- الآية : (٩٢) - سورة آل عمران .
٦- الآية : (٢٠) - سورة لقمان .

﴿الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ هم المذكورون بقوله تعالي : **﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾**[1] الآية .

وقوله عز وجل : **﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ الآية :(٧) - سورة الفاتحة**

أصل «الغضب » : غليان دم القلب إرادة الإنتقام ، ومبدأ الغضب : انفعال مكروه ، بدلالة قوله عليه السلام: « **إِنَّ الْغَضَبَ مِنَ الشَّيْطَانِ ، وإِنَّ الشَّيْطَانَ خُلِقَ مِنَ النَّارِ** » [2] وقال عليه السلام : «**اتقُوا الغَضَبَ، فَإِنَّهَا جَمْرَةٌ تُوقَدُ فِي قَلْبِ ابْنِ آدَمَ أَلَمْ تَرَوْا إِلَى انْتِفَاخِ أَوْدَاجِهِ وَحُمْرَةِ عَيْنَيْهِ . فَمَنْ وَجَدَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئاً ، فَلْيَلْزَمِ الأَرْضَ** » [3] وَالْغَضَبُ : «وَالْغَمُّ » ثوران في النفس ، وهما من أصل واحد - إلا أنه متي كان معه الطمع في الوصول إلى الانتقام كان غضباً ، وإذا لم يكن معه الطمع كان غماً [4] ، فإذاً : الغم والحزن : هما ماينال الإنسان ممن فوقه ، والغضب مايناله ممن هو دونه ، فيختلفان بالإضافة لا بالذات ، ولهذا قال بعض المحدثين : « فحزن كل أخي حزن أخو الغضب» . فإذا ثبت ذلك ، فالغضب من الصفات التى لو خلينا ومجرد العقل لم نجوز وصف البارى - عز وجل- بها ، لكن أطلقنا عليه ذلك لما جسرنا السمع ، وفسح لنا الشرعُ على معني صحيح هو أنه قد تقدم أن الصفات - التي مبدؤها انفعالات ، ومنتهاها فعلٌ - متى وصف البارى تعالي به أريد به المنتهى دون المبدأ ، فإذاً [5] المراد بالغضب في صفته تعالي : إرادة الإنتقام ، وعلي هذا فسر المتكلمون : فقال بعضهم : هو إرادة الانتقام ، وقال بعضهم : هو ذم العصاة ، وقال بعضهم : هو جنس من العقال ، وقال بعضهم : هو استجازة البطش. [6] لاستنكار أمر ، وقال بعضهم : هو الانتقام ، وهذه التفاسير عنهم [7] متقاربة [وكلها][8] لنظرهم منه إلى منتهى الغضب دون مبدئه ، وأما الضلال والخطأ : فالعدول عن الصراط المستقيم عن الصواب ، سواء كان العدول عن ذلك عمداً

١- الآية : (٥٨) - سورة مريم .

٢- الحديث أخرجه فى الأدب - تحت رقم ٤٧٨٤ ، كما أخرجه أحمد في مسنده - ج : ٤- ص٢٢٦ .

٣- الحديث أخرجه الترمذى من حديث طويل عن أبي سعيد الخدرى فى كتاب الفقه تحت رقم : ٢١٩١ - ج : ٤ - ص ٤٨٢ ، ٤٨٤، كما أخرجه الإمام أحمد فى مسنده : ج :٣ ص١٩ ، ٦١، وأخرجه عبد الرزاق في مصنفه ج : ١١- ص٣٤٧ ، وأورده الراغب فى المفردات - ص ٦٠٨، ونص الحديث عن أبى سعيد الخدرى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ألا وإن الغضب جمرة في قلب ابن آدم ، أما رأيتم إلى حمرة عينية ، وانتفاخ أوداجه ، فمن أحس بشئ من ذلك فليلصق بالأرض .»

٤- ساقطة من (ط - س)

٥- في (أ - ص) فإن المراد

٦- في أ - ص) استجارة البطش .

٧- في (و - ج) عنه .

٨- ساقطة من (ط - س).

أو سهواً ، وسواء كان يسيراً أو كثيراً ، والصواب من الشيء يجرى « مجرى القرطاس » من المرمى في أنه هو الصواب . وباقيه ضلال وخطأ ، ولهذا قال الحكماء : كوننا أخياراً من وجه واحد ، وكوننا أشراراً من وجوه كثيرة ، **ولهذا روي عن بعض الصالحين أنه رأى النبي ، صلى الله عليه وسلم – في منامه ، فقال له : ما الذي شيبك يارسول الله – حيث قلت : « شيبتني هود وأخواتها** [1] **» ؟ فقال : مثل قوله** : (**فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ**)[2] ولصعوبة الصواب وكونه واحداً ، قال عليه السلام : (**اسْتَقِيمُوا وَلَنْ تُحْصُوا**)[3] ، وعلى هذا النظر قال : (**مَن اجْتَهَدَ فَأَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ ، وَمَنِ اجْتَهَدَ فَأَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ**) [4] .

فإذا ثبت أن كل عدول عن الغرض والمقصود يقال له خطأ وضلال ، وأن الصواب فى نهاية الصعوبة ، علم أنه ليس كل ضلال وخطأ يستحق به العقاب الدائم ، بل كما قد يسمى أكبر الكبائر نحو : الكفر ضلالاً وباطلاً وخطأ وقد يسمى بذلك أصغر الصغائر . قال يجب أن يشككنا مشككٌ إذا رأينا بعض الأولياء موصوفاً بضلال وخطأ ، كما رأينا الكافر موصوفاً بهما ، فقد يتقارب الوصفان حداً ، وموصوفاً هما متباعدان ، فغرض الضلال والخطأ عريض ، والتفاوت بين أدناه وأقصاه كثير ، ولذلك قال تعالي للنبي – صلي الله عليه وسلم – : ﴿ **وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَىٰ** ﴾ [5] أى : ووجدك غير مهتد إلى ماسبق إليك من النبوة والعلم ، ونحوه قوله : ﴿ **وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ** ﴾ [6] ، وقد يعبر عن سوء الاختيار بالضلال نحو قوله : ﴿ **فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ** ﴾ [7] ، ويعبر عن الخيبة بالضلال والغي والخطأ ، كما قال في الكفار : ﴿ **إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ** ﴾ [8] ، فإذا ثبت ذلك ،

١- في (أ – ص) شيبتني سورة هود وأخواتها، والحديث أخرجه البيهقي فى [شعب الإيمان] عن أبى علي السري رضي الله عنه قال: رأيت النبي صلى الله عليه وسلم فقلت يارسول الله: روي عنك أنك قلت شيبتني هود؟ قال:[نعم]، فقلت: ما الذي شيبك منه، قصص الأنبياء وهلاك الأمم؟ قال: لا، ولكن قوله: فاستقم كما أمرت، آية ١١٢ . وعن ابن عباس قال: قال أبو بكر: يارسول الله قد شبت ، قال صلى الله عليه وسلم: [شيبتي هود، والواقعة، والمرسلات، وعم يتساءلون، وإذا الشمس كورت]. أخرجه الترمذي وحسنه، والحاكم ج:٢ ص٣٤٣ وصححه ووافقه الذهبي، كما ورد في الدر المنثور ج:٤ ص٣٩٦ – ص٣٩٨ وفى شرح السنة ج:١٤ص٣٧٢، وأورده الراغب في المفردات ص٢٤١.

٢- سورة هود الآية (١١٢).

٣- الحديث عن ثوبان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « استقيموا ولن تحصوا ، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة ، ولايحافظ على الوضوء إلا مؤمن » الحديث صحيح ، أخرجه الإمام مالك فى الموطأ ج : ١- ص٣٤ في الطهارة ، وأخرجه الإمام أحمد في مسنده – ج : ٥ – ص٢٨٠ ، وابن ماجه ج : ١- ص١٠١ وأخرجه الحاكم في المستدرك ج : ١- ص ١٣٠ ، وأورده الراغب فى المفردات – ص ٢٤٠.

٤- الحديث أخرجه البخاري – ج : ١٣ – ص ٢٦٨، في كتاب الاعتصام ، وأخرجه مسلم فى الأفقية تحت رقم ١٧١٦، وأخرجه أبو داود تحت رقم ٣٠٧٤ في الأفقية عن عمرو بن العاص – رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران ، وإذا حكم فاجتهد فأخطأ فله أجر » وأخرجه الترمذي تحت رقم : ١٣٢٦ في الأحكام ، والنسائى فى القضاء – ج : ٨- ص٢٢٤ عن أبي هريرة .

٥- الآية : (٧) – سورة الضحى .

٦- الآية : (١٦٤) – سورة آل عمران ، والآية : (٢) سورة الجمعة .

٧- الآية : (٢٠) سورة الشعراء .

٨- الآية : (٤٧) – سورة القمر .

فقد روي عن النبي – صلي الله عليه وسلم أنه قال : «**المغضوب عليهم » – ههنا : اليهود ، و«الضالين»** : النصارى ، ودل على ذلك قوله في اليهود ﴿**مَن لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ** ﴾ [١] ، وقوله في النصاري : ﴿**وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ**﴾ [٢] . ، إن قيل : كيف فسر على ذلك وكلا الفريقين ضال ومغضوب عليه ؟ قيل : هو كذلك ، ولكن خص تعالى كل فريق منهم بصفة كانت أغلب عليهم ، وإن شاركوا غيرهم في صفات ذم . إن قيل : ما الفائدة في ترادف الوصفين ، وأحدهما يقتضى الآخر ؟ قيل إن : اقتضاء أحدهما الآخر من حيث المعنى ، وليس من شرط الخطاب أن يقتصر في الأوصاف على مايقتضي وصفاً آخر دون ذلك الآخر . ألا ترى أنك تقول :« حي سميع ، بصير » ، والسمع والبصر [٣] يقتضي الحياة . ثم ليس من شرط ذلك أن يكون ذكره لغواً ، وإنما ذكر ﴿**غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ** ﴾ لأن الكفار قد شاركوا المؤمنين في إنعام كثير [٤] عليهم [٥] ، فبين بالوصف أن المراد بالدعاء ، ليس هو النعم العامة ، بل ذلك نعمة مخصوصة ، وقوله: « غير » إذا خفض : فصفة ، ويصح أن يوصف مافيه الألف واللام ، ويدل على الجنس بـ « غير » و «مثل » وأخواتها ، لكونه قريباً من النكرة ولايصح أن يوصف به مافيه الألف واللام ، ودل على العهد، ولاسائر المعارف . ويجوز خفضه على البدل : وإذا نصب : فحال : إما من الضمير في « عليهم » أو من « الذين » . قال الأخفش : ويصح أن يكون استثناء . ولم يجوز ذلك الفراء ، لأن الاستثناء لايعطف عليه بـ « لا » ، لاتقول : رأيت القوم إلا زيداً ولاعمروا ، قال أبو علي الغسّوي – رحمه الله –: من جعله استثناء فإنه يقول : أدخل عليه «لا» – حملاً على المعنى ، لأن معنى قولهم :« أتاني القوم إلا زيداً » : أتوني لازيداً . وتجعل « لا» زائدة ، وزل أبو علي الجبائي في قوله : ﴿**غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ**﴾ زلة عظيمة في النحو ، وقال : ذكر « المغضوب » بلفظه المفرد ، وهو يعني الجماعة ، قال : إلا أن هذا يجوز في سعة الكلام ، وخفي عليه أن المتعدي بالجار يدخل التثنية والجمع على الضمير المتصل به دون لفظ المفعول .

١– الآية : (٦٠) – سورة المائدة .
٢– الآية : (٧٧) – سورة المائدة.
٣– في (أ – ص) والسميع البصير .
٤– في (و – ج) كتب وهو تصحيف .
٥– ساقطة من (ط – س).

وقوله : (آمين) : قيل : هو اسم الفعل ، كصه ومه ، ومعناه : استجب - وذلك عن الحسن - وإليه ذهب الأخفش ، ويدل على كونه اسم فعل ماروى أن موسى كان يدعو وهارون - عليهما السلام - كان يؤمن ، فقال تعالي : ﴿ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا ﴾ [١] ، فكما أن قول [مو سى عليه السلام][٢] ﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ ﴾ [٣] جملة ، فكذلك قول هارون (آمين) جملة من حيث المعنى، وقال مجاهد وابن جبير وجعفر بن محمد : هو اسم من أسماء الله - عز وجل - .

وقال أبو على الغنوي: تأويل ماقالوه : إن هذا الاسم لما تضمن الضمير المرفوع ،وهو ذكر الله ، قالوا : هو اسم الله ، لأن الكلمة كما هي اسمه وماروي عن أمير المؤمنين - [رضي الله عنه][٤] أنه قال : آمين خاتم رب العالمين ختم به دعاء عبده ، فقد قيل : إن ذلك ليس بتفسير لآمين [٥] ، وإنما هو وصف له . ومن قال : « آمين » بالمد : فقد قال الأخفش [٦] : هو اسم أعجمي نحو « حاميم » . وقال محمد بن يزيد : هو علي مثال عاصين ، وليس يعنى أنه جميع ، ولا أن النون فتحت كما فتحت [٧] في عاصين » ، وإنما يريد : أن لفظه كلفظه : وقيل إن الألف : فيه زيادة للمد ، نحو : «ينباع » و «أتطور» في : « ينبع » و « أنظر » .

١- الآية : (٨٩) - سورة يونس .

٢- ساقطة من (ط - س) ، (و - ج).

٣- الآية : (٨٨) - سورة يونس .

٤- فى (ط - س) عليه السلام .

٥- فى (أ - ص) ليس بتفسير لأمير المؤمنين .

٦- في (أ - ص) فقال الأخفش .

٧- في (أ - ص) كما فتح.

﴿ســـــورة البقـــرة﴾

قوله - عز وجل - ﴿الٓمٓ﴾ : الآية (١) - سورة البقرة.

اختلف الناس فى الحروف التى فى أوائل السور، فقالوا فيها أقوالاً جلها مراد باللفظ وغير متناف على السير، لكن بعضها مفهوم بلا واسطة، وبعضها مفهوم بواسطة، فنقول وبالله التوفيق: إن المفهوم من هذه الحروف الأظهر بلا واسطة ما ذهب إليه المحققون من أهل اللغة كالفراء وقطرب، وهو قول ابن عباس- رضي الله عنهما- وكثير من التابعين على ما بُيِّن من بعد، وهو أن هذه الحروف لما كانت هى عنصر الكلام ومادته التى تركب منها بيَّن تعالى أن هذا الكتاب من هذه الحروف التى أصلها عندكم تنبيهاً لهم على إعجازهم؛ وأنه لو كان من عند البشر لما عجزتم مع تظاهركم عن معارضته، وأما اختصاص هذه الحروف وهذا العدد المخصوص وكونها فى سور معدودة وجعل بعضها مفرداً، وبعضها ثنائياً وثلاثياً ورباعياً وخماسياً، ثم لم يتجاوز ذلك واختصاصها ببعض الحروف دون بعض، ففيها عجائب وبدائع إذا اطلع عليها علم أنه كما وصفه تعالى بقوله :**﴿لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ﴾**(١)، والقول فى ذلك إن حروف التهجِّي قد قيل : ثمانية وعشرون، وقيل: تسعة وعشرون. وهذا الخلاف من حيث أن "الألف" حرف لا صورة له فى اللفظ حتى قال بعض الناس: الألف- فى حروف التهجي: حرف لا ساكن ولا متحرك، وإنما هو مدٌّ لا اعتماد له وقيل : إن الله تعالى جعل هذه الحروف طبقاً للعدد الذى هو أصل العلوم، ولو توهم ارتفاعه ارتفع سائر العلوم، لأن عقود الأعداد ثمانية وعشرون: آحاد: وهى تسعة. وعشرات، وهى تسعة. ومائات، وهى تسعة وألف: وهو واحد، ثم الباقي مكررات. وجعلها أيضاً طبقاً لمنازل القمر، وهى ثمانية وعشرون إلى غير ذلك من العجائب. وأما "لام الألف": فمركب من حرفين، ولا اعتداد به فى حصر المفردات. وقد قال بعض النحويين: إن ذلك يجب أن يقال: "لا"، ذاك أنهم لما أرادوا تعريف صورة لفظ الألف مفردة: ولم يكن سبيل إلى التفوه به مفرداً، إذ لا يكون إلا مدةً ضم إليها اللام ليمكن النطق به. وخص بذلك اللام لعلة مذكورة فى موضعها . فإذا ثبت ذلك فقد قيل: إن السور التى ذكر فى أوائلها هذه الحروف تسع وعشرون، وجعل ذلك تنبيهاً على عدد حروف التهجي- إذا عُدَّ فيها الألف. وقد ذكر هذه الحروف مفردةً وثنائيةً إلى الخماسية تنبيهاً أن الكتاب المنزل على رسوله مركب من كلماتهم التى هي أصولها:

---

١ - سورة : فصلت : الآية (٤٢).

إما مفرداً وإما ثنائياً- إلى الخماسي- وإن أصول أبنية كلامهم لا يتجاز ذلك. وجاء ثلاث سور مفتتحة بمفردات، وتسع سور بالثنائيات. وثلاث عشرة سورة ثلاثيات، وسورتان برباعيات، وسورتان بخماسيات، وذلك **"صَ" و"قَ" و"نَ" و"طَه" و"يس" و"طس"** وست من الحواميم ، و"الم" في ست سور، و"الر" في خمس سور، و"طسم" في سورتين ، **و"المر" ، و"المص" ، و"كهيعص"، و"حم عسق"**، فجعل عدد الثلاثي أكثر تنبيهاً أن أكثر تراكيب كلامهم الثلاثي. وباقيها أقل. وإنما جعل الثلاثي ثلاثة عشر تنبيهاً أن أصول الثلاثي المستعملة : ثلاثة عشر: عشرة منها[1] للأسماء المستعملة وذلك **"فَعْل" "كعاس، و"فُعُل" كقُفُل، و"فِعْل" كقِرْد، وفَعَلٍ كجعل**[2] ، و"فَعُل" كعضُد. و"فَعِل" ككَتِف وفعل كابل وفعل **كعُنق، وفِعَل كعِنَب**، و(فُعَل) **كصُرَدَ**، وثلاثة للأفعال: **"فَعَلَ". و"فَعُلَ" و"فَعِلَ"، ولم يعتد بـ"فُعِلَ"**: أما في الأسماء، فلأنه لم يوجد ما يعتد به.، أما في الأفعال: فإن الفعل في الأصل يجب أن يبني للفاعل ويُسند إليه دون المفعول. وأما التسعة الثنائية، فتنبيهاً أن ماجاء من الكلم على حرفين تسعة اضرب ثلاثة للحروف: **"إن" و"مَن" ومذ إذا جَرَّ به**.- وثلاثة للأسماء: **"من"، و"إذ"** وهذا[3] إذا رُفع به. وثلاثة للأفعال في الاستعمال، نحو**"قل"، و"بع"، و"خف"**. وأما الثلاثة المفردة: فتنبيهاً أن الحروف ثلاثة أضرب مفتوح ومكسور وساكن، نحو: له، وبه، ولام التعَريف، وأما الرباعيان والخماسيان، فتنبيهاً أن لكل واحدٍ منهما ساكن [4] أصلاً وملحقاً به، أما الأصل: فكجعفر وسفرجل، وأما الملحق بهما: فكقرد وحجنكل[5] ، واقتصر من حروف التهجي على النصف منها- وهو أربعة عشر حرفاً من غير تكرير- لتدل على حكمٍ عجيبة. ولما خص نصفها بالذكر أورَد فيها من الحروف المجهورة والمهموسة والشديدة، وما ليس بشديدة، واللينة، والمطبقة، وحروف البدل، ومالا يصح فيه الإدغام، ومالايدغم فيما قاربه، ولا يدغم ما قاربه فيه، وما لا يدغم فيما قاربه، ويدغم ماقاربه فيه [6] ، ومن حروف اللقلقة [7] ومن الحروف التي للعرب دون العجم، من كل ذلك ما هو زوج، واحتمل التنصيف فإنه أخرج نصفه، ومن كل ما هو فرد لا يحتمل التنصيف نصَّفه بإسقاط حرف أو زيادة حرف، وأما الحروف الذلقية والحلقية، والزوائد، فقد زيد فيها على النصف بخاصيةٍ فيها: من ذلك: الحروف المجهورة: وهي ما أشبع الاعتماد على منبعه،

---

١ - ساقطة من (ط-س)

٢ - في (و-ج)، (أ- ص) كجبل.

٣ - في (و- ج)، (أ - ص) ومذ.

٤ - في (و-ج) ، (أ-ص) بنائين وهو تصحيف.

٥ - في (و - ج) وحجنفد، في (١-ص) حجنفك.

٦ - ساقطه من (ط - س).

٧ - في (أ - ص) القلقلة.

ولم يجر معه النفس. وهى تسعة عشر حرفاً يجمعها :(زاد ظبي غنج لي ضموراً إذ قطع)[١] . أسقط منها الألف الزائدة التى قيل فيها: إنه لم يعتد بها من حيث لا تكون إلاّ مدة، وذكر نصفها فى هذه الأربعة عشر[٢] ، وهى تسعة يجمعها: «لن يقطع أمر».

والمهموسة: وهى: ما ضعف الاعتماد على منبعه، وذلك عشرة يجمعها: "(ستشحثك خصفه)[٣] ذكر منها فى هذه الأربعة عشر نصفها، وهى ما يجمعها: (صه حسك). والشديدة: وهى ثمانية يجمعها: "أجَدْتَ طبقك" ذكر نصفها، ويجمعها "أقطك" وباقيها [رخوة،][٤] وهو : أحد وعشرون، إذا سقط منها الألف فنصفها عشرة يجمعك "حمس على نصره".

واللينة حرفان- سوى الألف: الواو والياء، وفى هذه الأربعة عشر أحدهما: وهو الياء. والمطبقة أربعة: ص، ض، ط، ظ. ذكر اثنان منها، وهى : الصاد والطاء. وحروف البدل إثنا عشر حرفاً- فيما ذكر سيبويه- يجمعها: (أجد طويت منها): ذكر منها ستة يجمعها "أهطمَين" وترك باقيها.

وإنما لم يجر مجرى غيرها فى أن ترك منها الألف ثم نصّف، بل زيد لأمرٍ اختص به باب البدل، وهو أن الألف فى باب البدل أكثر من سائر الحروف، فلم يجز الإخلال بها فى باب الإبدال. وأما على غير طريقة سيبويه، فقد بلغ حروف البدل ثمانية عشر، فعدَّ فيها اللام بدلاً من النون فى "أُصيَلان"، و"الصاد" تبدل من "السين" فى "الصراط" و"الثاء" من "الفاء" فى "فروع الدلو"، والفاء من التاء فى "جدث" و"جدف" و"ثوم" و"فوم"، والعين من الهمزة فى عنعنة تميم، نحو قوله:

أأنْ تَرَسَّمْتَ مِنْ خَرْقَاءَ مَنْزِلَةً.[٥]

فى "أأن تَرَسَّمْتَ". والباء من الميم "باسمك" فى "ما اسمك"، والزاي من السين فى قولهم: "زقر" أى "سقر"- فعلى هذا- فى الحروف من الثمانية عشر تسعة، وهى الستة المذكورة ،واللام، والصاد، والعين. وما لا يصح فيه الإدغام: اثنان: الهمزة والألف. وذكر أحدهما. وما لا يُدغم ولا يُدغم فيه: فالواو والياء- إذا انفتح ما قبلهما- وقد ذكر أحدهما. وأما الحروف التى لا يدغم فيما قاربها، ويُدغم ما قاربها فيها: فهى الميم ، والراء، والشين، والفاء، وقد ذُكر من هذه الحروف اثنان. وأما حروف القلقلة[٦] : فخمسة : القاف، والجيم، والطاء، والدال، والباء، وذكر منها اثنان: الطاء والقاف وهما

---

١ -.وهى: الزاى، والدال، والظاء، والباء، والياء، والغين، والنون، والجيم، واللام، والياء، والضاد، والميم، والواو، والراء، والذال، والقاف، والطاء، والعين، والألف.

٢ - يريد بالأربعة عشر أى التى. ذكرها القرآن فى فواتح السور

٣ - في (و - ج) ، (أ-ص) ستسخصك حصفه

٤ - ساقطة من (و-ح)، (أ-ص)، (ط-س) وهي زيادة يقتضيها السياق ويلاحظ أنه جعل مع الرخوة ما بين الشديدة والرخوة وهى المجموعة في قوله لم يروعنا)

٥ - البيت لذي الرمة، وهو وفي ديوانه: ج : ١ - ص ٣٧١ ، وشطره الثاني: ماءُ الصَّبابة مِنْ عَيْنَيْكَ مَسْجُومُ؟

والبيت الذى بعده :- رمى ضرع ناب فاستمر بطعنة كحاشية البرد اليماني المسهَّم

والخرقاء هى التى لاتحسن العمل لكرامتها على أهلها.

انظر ديوان ذي الرمة - تحقيق د/عبدالقدوس أبوصالح - دمشق ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢م.

٦ - في (أ-ص) القلقلة.

أقوى الخمسة. وأما الحروف التى للعرب دون العجم: فالضاد والحاء، وقد ذكر أحدهما. وأما الحروف الذلقية: وهى التى ذلقت وسهلت على اللسان، فستة يجمعها "رمل فنب". وحروف الحلق. وهى ستة: الحاء، والخاء، والعين، والغين، والهاء، والهمزة، فقد ذكر من النوعين أكثر من النصف للتنبيه على كثرة وقوعهما فى الكلام، إذ قلَّ ما ينفكُّ رباعيٌّ وخماسيٌّ من حرف[1] أو حرفين و ثلاثة من هذه الحروف، فلما كثر وقوعها فى الكلام أيد المذكور منهما على النصف تنبيهاً على ذلك. وأما الزوائد: فعشرة يجمعها **(اليوم تنساه)**، وقع في هذه الحروف منها سبعة لخاصيَّةٍ فيها، وهى التنبيه على أن البناء من الكلمة قد يبلغ [2] سبعة أحرف بالزيادة، فهذه هي التي زاد المذكور منها على النصف لفائدةٍ تختصه وحكمة تقتضيه. وما رُوِي عن ابن عباس- رضي الله تعالى عنهما- أن هذه الحروف اختصار من كلمات، فمعنى "الم": أنا الله أعلم، ومعنى "المر"[3] أنا الله أعلم وأرى، فإشارة منه إلى ما تقدم. وبيان ذلك ما ذكره بعض المفسرين أن قصده بهذا التفسير ليس أن هذه الحروف مختصة بهذه المعاني دون غيرها، وإنما أشار بذلك إلى ما فيه الألف واللام والميم من الكلمات تنبيهاً أن هذه الحروف منبع هذه الأسماء، ولو قال: إن اللام يدل على "اللعن"، والميم على "المكر" لكان يُحْمل[4]، ولكن تحرّى فى المثال اللفظ الأحسن، كأنه قال: هذه الحروف هى أجزاء ذلك الكتاب. ومثل **هذا فى ذكر نبذ تنبيها على نوعه قول ابن عباس**- رضي الله عنهما فى قوله تعالى : **﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾**[5] أنه الماء الحار فى الشتاء، ولم يرد به أن النعيم ليس إلاّ هذا، بل أشار إلى بعض ما هو نعيم تنبيهاً على سائره، فكذلك أشار بهذه الحروف على ما يكتب منها، وعلى ذلك ما رواه السدِّي عنه أن ذلك حروف إذا ركبت يحصل منها اسم الله. وكذا ما روي عنه أنه قال: هى أقسام غير مخالف لهذا القول، وذلك أن الأقسام الواردة فى فواتح السور إنما هى بقسم[6] وأجوبتها تنبيه عليها.

فيكون قوله: "الـمَ ذَلِكَ الْكِتَابُ" جملةٌ فى تقدير مقسم بها. وقوله: "لاَرَيْبَ فِيهِ" جوابها، ويكن إقسامه بها تنبيهاً على عظم موقعها، وعلى عجزنا عن معارضة كتابه المؤلف منها. فإن قيل: لو كان قسماً لكان فيه حرف القسم. قيل: إن حرف القسم يُحتا ج إليه إذا كان المقسم به مجروراً. فأما إذا

---

١ - في (١-ص) حروف.
٢ - في (١-ص) تبلغ.
٣ - في (١-ص) الم.
٤ - في (١-ص) كمثل وهو تصحيف.
٥- سورة التكاثر : الآية (٨).
٦ - في (ط-س) بنعم وهو تصحيف.

كان مرفوعاً نحو و"أَيْمُ الله، أو منصوباً، نحو يمين الله فليس بمحتاج إلى ذلك وما قاله زيد بن أسلم والحسن، ومجاهد، وابن جريج أنها أسماءً للسور فليس بمنافٍ للأول، فكل سورةٍ سُميت بلفظٍ متلوٍ منها، فله **(معنى)** فى السورة معلوم. وعلى هذا القصائد والخطب المسماة بلفظ منها يفيد معنى فيها، وكذلك ما قاله أبو عبيدة، وروى أيضاً عن مجاهد، وحكاه قطرب والأخفش: أن هذه الفواتح دلائل على انتهاء السورة التى قبلها، وافتتاح ما بعدها، فإن ذلك يقتضي من حيث إنها لم تقع إلاّ فى أوائل السور ولا يقتضي أن لا معنى لها سواه، كما أن بسم الله فى أوائل السور يقتضي ما قالوه ولا يوجب ذلك أن لا معنى سواه. وما ذكر من أن هذه الحروف قُصد بها الرد على من **قال**: إن النبى ﷺ كان يتلقن ما يودعه القرآن من بعض الأعجمين، وذلك فى قوله: ﴿ **وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ** ﴾ (١) .فذلك (٢) شبيه أن هذه الصورة المخصوص بها القرآن، هي من النظم الذى أصوله عندكم، وذاك أن القوم لم يدَّعُوا أنَّ لفظ هذا القرآن أعجميٌ، وإنما ادَّعوا أن معناه مأخوذ عنهم ولهذا قال تعالى: ﴿ **فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ** ﴾ (٣) ، فإذا: المعنى يرجع إلى ما تقدم بأنه تنبيه على إعجازه. وما قاله قطرب إنه قصد بها صرف أسماع المشركين إلى الاستماع إليه لما تَوَاصَوْا بأن لا يستمعوا(٤) له حتى قال تعالى: ﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ** ﴾(٥) فإنما يشير به أيضاً إلى المعنى المتقدم، لأنه تعالى قصد بصرف أسماعهم تنبيههم على عجزهم عن معارضته، وأن من حقكم إذا عجزتم عن مثله أن تتدبروا(٦) آياته، وأن تعرفوا(٧) أنه حق فلا تلغوا(٨) فيه. وما روي عن ابن عباس- رضي الله عنهما- أنه قال: الألف من "الم": دلالة على "الله" ، اللام على "جبرائيل"، والميم على "محمد"، فدل بذلك أن القرآن (من الله)- عز وجل- مبدؤه، وأن الواسطة: "جبريل". ومنتهاه إلى محمد. فهذا صحيح ودالٌّ على ما تقدم، وقد نبه بمخرج "الألف" الذى هو مبدأ مخارج الحروف على المبدأ، وهو الله تعالى. وبمخرج اللام الذى هو أوسط المخارج على جبريل، وبمخرج الميم الذي هو منتهى المخارج على المنتهى الذى هو النبى -عليه السلام-.

---

١ - سورة النحل : الآية (١٠٣).
٢ - في (أ-ص) فلذلك.
٣ - سورة هود : الآية (١٣).
٤ - في (ط - س) تسمعوا له.
٥ - سورة فصلت : الآية (٢٦).
٦ - في (أ-ص) يتدبروا وهو تصحيف.
٧ - في (أ-ص) يعرفوا وهو تصحيف
٨ - في (أ-ص) يلغوا وهو تصحيف.

فكأنه قال: من هذه الحروف الدالة على الأسباب الثلاثة حصول الكتاب الذى عجزتم عن الإتيان بمثله. وما قاله الربيع بن أنس أن هذه الحروف حروف الجُمَّل، وأن ذلك من علوم خاصتهم، وقد نبه بها على مدد، فذلك غير ممتنع أن يكون مع المعنى الأول مراداً، بدلالة أن النبى- عليه السلام- لما أتاه اليهود فسألوه عما أُنزل عليه، تلا عليهم "الم"، فحسبوه، وقالوا: إن مُلْكاً يبقى إحدى وسبعين سنة لقصير المدة فهل غيره؟ فقال: "آلر"، و"آلمر"، و"آلمص" فقالوا: خلطت علينا، فإنا لا ندري بأيها نأخذ. فتلاوة النبى- عليه السلام- ذلك عليهم، وتقريرهم على استنباطهم دلالةٌ أنه لا يمتنع أن يكون فى كل واحدة دلالة على مدة لأمر ما[1]. وأما ما حُكي عن الزبيري أن هذه الحروف ذكرت علماً منه تعالى أن يكون فى هذه الأمة مَن يزعم أن القرآن ليس بكلام الله، وإنما هو حكايةُ كلامه، فأراد أن يبين أن القرآن مما يكتب ويخبر عن أبعاضه وأجزائه بالحروف التي هي معلومة إنها محدثة، فإن هذا القول من الوهي بحيث يستغنى عن إظهار بطلانه، إذ لا يقول أحدٌ إن الكتاب بما هو كتاب ليس بمؤلف من هذه الحروف وإن كانوا قد اختلفوا في القرآن. بل هو مقصورٌ على الكتاب، أو المراد به هو غيره.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ﴾ الآية (٢)-سورة البقرة .

قال أبو عبيدة: عنى به هذا الكتاب. وقال غيره: عنى هو الكتاب، فظن بعض من لم يتقوَّ في الحقائق أن قولهم:"ذلك" قد يجئ بمعنى "هذا"، و"هو". ليس الأمر على ما ظنوه. وإنما قصد هذا المفسر أن يبين أن الاسم الذي فيه الألف واللام هو الخبر، لا لأنه[2] وصف والخير منتظر، كقوله تعالى: ﴿إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ﴾[3]، والفصل كما يقع بالمضمرات، فإنه يقع بالمبهمات. فإن قيل: إذا كان هذا المعنى ما قدمت في "الم ذلك الكتاب" فهلا قيل: "ذلك الكتاب ألم"، فإنه قد علم أن حروف التهجي- كما يكون الكتاب المشار إليه- قد يكون شعراً وخطبةً ورسالةً. وقد تقرر أن العام إذا أُخبر عنه بالخاص كان كذباً، نحو قولهم: الحيوان إنسان وإذا أخبر عن الخاص بالعام كان صدقاً، نحو قولهم: الإنسان حيوان، فيحصل من ذلك أنه إذا قيل: "الم

١- وهذا الكلام مقبول فيما لو صح الحديث، إلاّ أن الحديث ضعيف لا يحتج به كما ذهب إلى ذلك ابن كثير فى تفسيره. فهذا الحديث مداره على محمد بن السائب الكلبى، وهو ممن لا يحتج بما انفرد به. ثم كان مقتضى هذا المسلك إن كان صحيحاً أن يحسب ماالكل حرف من الحروف الاربعة عشر التى ذكرناها وذلك يبلغ منه جملة كثيرة، وإن حسبت مع التكرار فأطمُّ وأعظم. "تفسير القرآن العظيم- ج:١-ص٦٩ . ٧٠. مقدمة جامع التفاسير ص ١٤٩.
كما نقل السيوطى فى الإتقان رد ابن حجر السهيلي الذى قال: «لعل عدد الحرف التى فى أوائل السور مع حذف المكرر للإشارة إلى مدة بقاء هذه الامة»، ويقول ابن حجر في رد ذلك: وهذا باطل لا يعتمد عليه، فقد ثبت عن ابن عباس- رضي الله عنهما- الزجر عن عد أبى جاد، والإشارة إلى ذلك من جملة السحر. الإتقان- ج:٣-ص٢٦.

٢ - في (أ - ص) لأنه وصف.

٣ - سورة الأنفال: الآية (٣٢).

ذَلِكَ الْكِتَابُ"- كان كذباً على هذا- وإذا قيل: "ذَلِكَ الْكِتَابُ الم" كان صدقاً؟ قيل: في ذلك الكتاب جوابان أحدهما: أن يجعل "ذَلِكَ الْكِتَابُ": مبتدأ. و"الم": خبراً له مقدماً. وتقديمه على كون العناية به أصدق كما تقدم. والثاني: أنه قد يقال: الإنسان زيد. بمعنى غير معنى "زيد إنسان"، وهو أن يراد أن كمال الإنسانية موجود في زيد. فكأنه قيل: كمال حروف التهجي موجود في هذا الكتاب والمكتوب في التعارف اسم للمكتوب، أي : المنظوم كتابةً، وقد يعبر عن المنظوم عبارة قبل أن يكتب بالكتاب.

قوله تعالى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ الآية :(٢) – سورة البقرة .

قال المفسرون: معناه لا شك فيه. فإن قيل: كيف نفى الريب عنه، وقد علم تشكك كثير من الناس فيه؟ قيل: في ذلك أجوبة: الأول: إن ذلك نفيٌ على معنى النهي نحو قوله: **﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾**[1] ، بدلالة قوله: **﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾**[2] وقوله: **﴿فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾**[3] فإن قيل: الشك لا يقصده الإنسان، فكيف ينهى عنه؟ قيل: اللفظ لذلك، والمعنى حثٌّ على التدبر والتفكر النافيين للشك. والثاني: أنه يقال: رابني كذا، إذا تحققت منه الريبة، وأرابني: أوهمني الريبة. **قال الشاعر:**

أَخُوكَ الَّذِي إِنْ رِبْتَهُ قَالَ إِنَّمَا أَرَبْتُ وَإِنْ عَاتَبْتَهُ لَانَ جَانِبُهُ[4]

فالقرآن لا ريب فيه، وإن كان فيه ارتيابٌ من بعض الكفار، والثالث أنه يقال: هذا لا ريب فيه، والقصد إلى أنه حق، تنبيهاً أن الريب يرتفع عنه عند التدبير والتأمل، والرابع: أنه لا ريب في كونه مؤلفاً من حروف التهجي وقد عجزتم عن معارضته، والخامس لا ريب فيه للمتقين، ويكون خبر (لا ريب فيه) قوله تعالى: (للمتقين) وهدى نصب على الحال أو خبر ابتداء مضمر في موضع الحال.

قوله عز وجل- : ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ : الآية:(٢) – سورة البقرة.

قد تقدم الكلام في الهداية. أما اختصاص المتقين، فلأن الهداية: نصب العلم ليهتدي به الناس فله موضوع هو المبدأ: وذلك نصب العلم للكافة. وغاية: وهو الاهتداء به، فيقال: **﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾** . لما لم يهتد به غيرهم. ومثاله: من بنى مسجداً مباحاً للكافة. يصح أن يقول: "بَنيت هذا المسجد للناس كافة"، اعتباراً بالمبدأ. ويصح أن يقول: بنيته للمصلين فيه، اعتباراً بالغاية. وطريقة[5] أخرى: وهي أن

---

١ – سورة البقرة : الآية (١٩٧).   ٢ – سورة البقرة : الآية (١٤٧).   ٣ – سورة الأعراف : الآية (٢).

٤ – البيت لبشار بن برد، وهو في ديوانه : ج:١-ص٣٢٦، وهو من قصيدة مطلعها :-

جفا وده فازور أومل صاحبه وأزري به أن لايزال يعاتبه

وهو من قصيدة قالها يمدح فيها قيس عيلان وفي الحماسة البصرية: ج:٢-ص٣٤، ونصه في الحماسة:

أَخُوكَ الَّذِي إِنْ تَدْعُهُ لِمُلِمَّةٍ يُجِبْكَ وَإِنْ عَاتَبْتَهُ لَانَ جَانِبُهُ

وفي (دلائل الإعجاز) -ص١٣٤، ومعنى: (إن ربته): أي: أتيت بما يرتاب فيه، قال لك: أربت أي : انتفت عنك الريبة.وهو في مقدمة جامع التفاسير ص١٥١.

٥ – في (أ – ص) فطريقة.

"اللام" فى قول القائل" :خرجت لأظفر" يقال على وجهين: أحدهما أن المقصود بالخروج: الظفر والثاني: أن الحاصل منه الظفر، لا أنه قصد به، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾[1]، فقوله: هدىً للمتقين: تنبيه على حصول الهدى لهم، وإن كان القصد لهم ولغيرهم. وطرقة ثالثة- إذا تؤمِّلتْ تُصُوِّرَ عنها جواب مسائل كثيرة فى القرآن- وهو أن الله تعالى جعل لنا طبين طبا بدنياً، وطبّاً دينياً، وكل واحدٍ منهما ضربان : أحدهما: إعادة الصحة، والآخر: حفظ الصحة. قد أجرى العادة أن الذي يحفظ به الصحة غير الذي يعاد به الصحة أما في الطب البدني: فالذى يعادبه الصحة العقاقير والأدوية. والذي يحفظ به الصحة فالغذاء والأطعمة، وأما في الطب الديني فالذي يعاد به الصحة صقل العقل واستعماله فى تدبر[2] الدلالات، وتعرف المعجزات، ومعرفة النبوات. والذي يحفظ[3] به الصحة: تدبر[4] الكتاب المنزل، وتتبع سنن النبى المرسل. فكما أن من لم يستفد الصحة في الطب البدني، إذا تغذّى، كان ذلك ضرراً عليه، ومتى أعاد صحته كان تناول الغذاء عائداً بنفعٍ إليه، كذا من لم يستفد صحة عقله بتدبر الدلالات كان القرآن ضرراً عليه، ومتى استعمل ذلك وتهذب فيه، جلب بالاستماع إلى القرآن نفعاً إليه. وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾[5]، وقوله : ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا﴾[6]، إلى قوله: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾[7]، وأما [التقوى] فهو: جعل النفس في وقاية مما يخاف. هذا حقيقته. ثم يسمى تارة "الخوف" التقوى. والتقى: خوفاً على تسمية المقتضي باسم المقتضي والمقتضي باسم المقتضي وفي التعارف: حفظ النفس عن كل ما يُؤْثِم. ولها منازل: الأول: ترك المحظور. وذلك لا يتم الاّ بترك بعض المباح مما يليه. ولذلك قال عليه السلام «مَنْ يَرْتَعْ حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَقَعَ فِيهِ»[8] ، وقيل: من

---

١ - سورة القَصَص : الآية (٨).

٢ - في (١ - ص) تدبير وهو تصحيف.

٣ - في (ط - س) والذي به حفظ.

٤ - في (١ - ص) تدبير.

٥- سورة الإسراء : الآية (٨٢).

٦ - سورة التوبة : الآية (١٢٤).

٧ - سورة التوبة : الآية (١٢٥).

٨ - الحديث أخرجه البخاري فى الإيمان-ج:١ - ص ١١٧، ومسلم فى المساقاة برقم: ١٥٩٩، وأبو داود فى البيوع برقم/ ١٢٠٥، والنسائي فى البيوع ج: ٢٤١/٧.

لم يجعل بينه وبين محارم الله ستراً من حلال، فحقيقٌ به أن يقع فيها . فقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾(١)، أي: التاركين (٢) للمحظورات. وقال ﴿ فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾(٣). وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾(٤) فجعل "المتقى"- فى الآيتين- غير المصلح والمحسن. والثاني: من منازل التقوى - أن يتعاطى الخير مع تجنب الشر، وإياه عنى الله تعالى بقوله: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾(٥) والثالث منها: التبرؤ من كل شئ سوى الله-عز وجل- فلا سكون إلى النفس ولا إلى شئ من القُنيات والجاه والأعراض. وهو المعنىُّ بقوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾(٦) وما وعدناه بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾(٧) ورجاناه بقوله : ﴿وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾(٨) إلى قوله: ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾(٩). فهذه المنازل مرتبٌ بعضها على بعض. وقد فسر قوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ على الوجوه الثلاثة، فقيل: عني به التاركين لمحارم الله. وقال ابن عباس -رضي الله عنهما: عني به الخائفين عقوبته الراجين رحمته. وقال بعض المتقدمين: معنى ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي وصلةٌ للمنقطعين إليه عن الأغيار الذين نزع عن قلوبهم حب الشهوات. فهذا نظرٌ منهم إلى الغاية.

---

١ - سورة المائدة : الآية (٢٧).
٢ - في (و - ج) تاركين المحظورات.
٣- سورة الأعراف : الآية (٣٥).
٤ - سورة النحل : (١٢٨).
٥- سورة الزمر : الآية (٧٣).
٦- سورة آل عمران : الآية (١٠٢).
٧ - سورة محمد : الآية (١٧).
٨ - سورة الأنعام : الآية (٥١).
٩ - سورة الأنعام : الآية (٥١)، وقبلها قوله تعالى: (ليس لهم من دونه وليٌّ ولا شفيعٌ).

قوله - عز وجل : ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ الآية : (٣) سورة البقرة.

الإيمان: التصديق بالشيء، ولا يكون التصديق إلاّ عن علم، ولذلك قال تعالى: **﴿إِلاَّ مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾**[١]. فالإيمان: اسم لثلاثة أشياء: علم بالشيء، وإقرار به، وعمل بمقتضاه، إن كان لذلك المعلوم عمل، كالصلاة والزكاة. وهذا هو الأصل، ثم قد يستعمل في كل واحد من هذه الثلاثة، فقال: "فلان مؤمنٌ"، ويعنى به أنه مقرٌّ بما يحصن دمه وماله. وإياه عنى النبي ﷺ بقوله: **«أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلاّ بحقها»**[٢]، وبذلك حكم- عليه السلام- على الجارية التي عُرضت عليه، فسألها ما سألها. ثم قال: **"اعتقها فإنها مؤمنة"**[٣] ويقال: "مؤمنٌ"، ويراده: أنه يعرف الأدلة الإقناعية التي يحصل معها سكون النفس، وإياه عنى النبي ﷺ بقوله: **«من قال لا إله إلاّ الله مخلصاً دخل الجنة»**[٤]، ويقال: "مؤمن"، ويعنى به: أنه يسكن قلبه إلى الله من غير تلفت إلى شيء من عوارض الدنيا وإياه عنى الله تعالى بقوله: **﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾**[٥]. الآية، وبقوله: **﴿أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ﴾**[٦]، و"الغيب": مالا يقع تحت الحواس، ولا تقتضيه بداية العقول، وإنما يعلم إما بواسطة علم ما أو الاستشهاد به عليه، وإما بخبر الصادق، وهو الذي دفعه قوم، فلزمهم اسم الإلحاد، لأن الإلحاد: دفع أخبار الغيب، وقول[٧]: "زرٌّ بأن": الغيب: هو القرآن. وقول عطاء: إنه القدر: تمثيل لبعض ما هو غيب. وليس ذلك بخلاف بينهم، بل كل أشار[٨] إلى الغيب بمثال. وكذا ما روى أبو جمعة "إِنَّا كُنَّا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ-، فَقُلْنَا يَارَسُولَ الله: هل قومٌ أعْظَمُ أجْراً مِّنا، آمَنَّا بِكَ واتَّبَعْنَاكَ. قال: **ما يمْنعكُمْ من ذَلكَ ورسُولُ الله بَيْنَ أظْهُرِكُمْ يَأْتِيكُمْ بالوحْيِ مِنَ السَّمَاءِ، بَلْ قَوْمٌ مِن بَعْدِكُمْ يَأْتيهم كِتَابٌ بَيْنَ لَوْحَيْن،**

---

١ - سورة الزخرف : الآية (٨٦).

٢ - الحديث أخرجه البخاري في أول الزكاة- ج:٣-ص٢١١، ومسلم في الإيمان تحت رقم: ٢١، والترمذي في الإيمان تحت رقم: ٢٦١٠، والنسائي في الزكاة: ج:٥-ص١٤، وأبو داود في الجهاد تحت رقم : ٢٦٤٠.

٣ - هذا جزء من حديث طويل أخرجه الإمام مسلم في المساجد تحت رقم ٥٣٧، وأبو داود في الصلاة تحت رقم: ٩٣ و ٩٢١، والنسائي في السهو- ج:٣-ص١٤-١٨.

٤ - أخرج الترمذي في الدعوات برقم/ ٣٥٨٤ عن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "ما قال عبدٌ لا إله إلاّ الله مخلصاً من قلبه إلا فُتحت له أبواب السماء حتى يفضي إلى العرش ما اجتنب الكبائر».

٥ - سورة الأنفال : الآية (٢).

٦ - سورة المجادلة : الآية (٢٢).

٧ - في (أ-ص)، (و-ج)، (ط-س): (شريك) وهو تصحيف لزر بأن وهو زربن حبيش وانظر خبر زرٌّ وعطاء في تفسير الطبري-ج:١-ص٢٣٦، وتفسير ابن كثير: ج:١-ص٦٣.

٨ - في (و - ج) إشارة، وهو تصحيف.

فيؤمنونَ بِهِ ، ويعملُونَ بِمَا فيهِ ، أولئك أعظم أجراً منكم.»[١] فتبين منه- عليه السلام- أن من بعده يحتاج إلى نظر أكثر من نظر الذين شاهدوه فقد كُفُوا كثيراً من أخبار الغيب. وقوله: "بالغيب" في موضع المفعول، كقوله: ﴿**وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ**﴾.[٢] وقال بعضهم: معناه: يؤمنون إذا غابوا عنكم، ولم يكونوا كالمنافقين الذين ﴿**وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ**﴾[٣].

وقوى ما قاله بقوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ**﴾[٤] وقوله ﴿**وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ**﴾[٥]، **قول الشاعر:**

وَهُمْ بِغَيْبَ وَفِى عَمْيَاءَ [٦]مَا شَعَرُوا[٧]

ويكون "بالغيب" على هذا في موضع الحال، ومفعول :"يؤمنون": محذوف. وقال بعض المتأخرين من المتكلمين: يحمل قوله تَعالى: "بالغيب" على المعنيين، وخفي عليه أن ذلك لا يصح، فإن وبالغيب في القول الأول: مفعول: في القول الثاني: حال، لا يصح أن يقال ضربت راكباً، و"راكب" يكون مفعولاً :لـ"لضربت" و"حالاً" للفاعل. والوجه: هو القول الأول، لأنه مستوعب لمعنى الثاني وزائدٌ عليه، إذ كل من آمن -على الوجه الأول- فلا شك أنه بخلاف من يقول: ﴿**إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ**﴾. وقيل: معنى قوله: ﷻ ﴿**يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ**﴾ يعنى بالقلب، والنور الذى آتاهم الله وهو العقل، ومعناه: آمنوا بقلوبهم، بخلاف من أخبر الله تعالى عنهم بقوله: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ**﴾[٨]، ومن حكى عنهم: ﴿**يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ**﴾[٩]، وهذا أيضاً يرجع إلى الأول عند التحقيق، وقيل: "يؤمنون" من :"آمنَ فلانٌ"- أي: صار ذا أمنٍ نحو أحال[١٠] وأجرب. ومعناه: صاروا ذوي أمنٍ بظهر الغيب بأن ما أخبروا به حق، فتطمئن قلوبهم بذكر الله.

---

١ - ورد لهذا الحديث عدة روايات أوردها ابن كثير فى تفسيره-ج:١-ص٦٤.
٢ - سورة البقرة :الآية (٤).
٣- سورة البقرة : الآية (١٤).
٤ - سورة الأنبياء : الآية (٤٩).
٥ - سورة يس : الآية (١١).
٦ - في (أ - ص) عمي، وهو تصحيف.
٧ - البيت للأخطل فى ديوانه ص ١٠٩ ، وتمام البيت :

مُخلفون ويقضي الله أمر همو ... وهم بغيب وفي عمياء ما شعروا .

وهو فى بصائر ذوي التمييز - ج:٣ - ص ٣٥٣ بدون نسبة ، وأورده الراغب فى المفردات - ص:٤٦٧
٨ - سورة البقرة : الآية (٨).
٩ - آل عمران : الآية (١٦٧) ، وهى ساقطة من (ط-س).
١٠- في (و - ج) ، (ط - س) أماه وأجرب وفي (أ-ص) أعاه وأجرب، والتصحيح من كتاب سيبويه حيث جاء فيه: وتقول احرب الرجل، وأنحز، وأحال أي: صار صاحب جرب وحيال ونحاز في ماله، وتقول كما أصابه: هو نحز وجرب وحائل للناقة، الكتاب ج ٤ ص ٥٩- مقدمة جمع التفاسير، ص ١٥٦.

قوله (عز وجل): ﴿ ويُقيمونَ الصَّلاةَ ﴾:

إقامة الصلاة: توفية حدودها وإدامتها، وتخصيص "الإقامة" تنبيه على أنه لم يرد إيقاعها فقط.

ولهذا لم يأمر بالصلاة ولم يمدح بها إلاَّ بلفظ الإقامة نحو: ﴿ أَقِمِ الصَّلاةَ ﴾[1] وقوله: ﴿ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاةَ ﴾[2]، و﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ ﴾[3] ولم يقل المصلي إلاَّ في المنافقين ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾[4] وذلك تنبيه أن المصلين كثير والمقيمين لها قليل، كما قال عمر- رضي الله عنه [الحاج قليل والركب كثير]، ولهذا قال عليه السلام:

«مَن صلَّى رَكْعَتَيْنِ مُقْبِلاً بِقَلْبِهِ عَلَى اللهِ خَرَجَ مِن ذُنُوبِهِ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ»[5]، فذكر مع قوله ﷺ الإقبال بقلبه على الله تنبيهاً عَلَى معنى الإقامة، وبذلك عظم ثوابه وكثير من الأفعال التي حث تعالى على توفية حقه ذكره بلفظ الإقامة نحو: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ ﴾[6] ونحو: ﴿ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ ﴾[7] تنبيهاً على المحافظة على تعديله. وقال أبو علي الجبائي: الصلاة لما جاورها القيام صح أن يعبر عن المصلى بالقيام وهذا بعيد، لأن المجاور للصلاة القيام لا الإقامة، ثم مع القول المتقدم لا يعرج على هذا، وقوله -عز وجل- ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ الرزق: لفظ مشترك، يقال للعطاء الجاري تارة، وللنصيب تارةً، ولما يصل إلى الجوف ويتغذى به تارة. فقوله تعالى : ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾[8] يعني نصيبكم من النعمة.

وقوله: ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ ﴾[9] تنبيه على أن الحظوظ بالمقادير. وقوله: ﴿ وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم ﴾[10] ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ ﴾[11] محمول على المباح دون المحظور لأمرين: أحدهما: [أنه][12] حث

---

١ – سورة الإسراء : الآية (٧٨).

٢ – سورة النساء : الآية (١٦٢).

٣ – سورة المائدة : الآية (٥٥)، سورة الأنفال : الآية :(٣) و سورة النمل: الآية:(٣)، وسورة لقمان: الآية:(٤).

٤ – سورة الماعون : الآيتان (٤) ، (٥).

٥ – الحديث في صحيح مسلم في كتاب الطهارة بلفظ: «ما من مسلم يتوضأ فيحسن وضوءه ثم يقوم فيصلي ركعتين مقبلاً عليهما بقلبه ووجهه إلاَّ وجبت له الجنة» صحيح مسلم بشرح النووي-ج:٣-ص١١٨.

٦ – سورة المائدة : الآية (٦٦).

٧ – سورة الرحمن : الآية (٩).

٨ – سورة الواقعة : الآية (٨٢).

٩ – سورة الذاريات : الآية (٢٢).

١٠ – سورة المنافقون : الآية (١٠).

١١ – سورة الأنفال : الآية : (٣) ، (و سورة الحج : الآية (٣٥) و سورة القصص : الآية (٥٤) و سورة السجدة : الآية (١٦) وسورة الشورى . الآية رقم (٣٨).

١٢ – ساقطة من (ط – س).

على الإنفاق، ومدحٌ لفاعل، ولا يحث ولا يمدح بانفاق المحظورات. والثاني: باضافته إليه وتمكينه منه، حيث قال: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ من شرط ما يضاف إليه من الأفعال مفصلاً أن يخص الأفضل، فالأفضل، وإن كان قد يضاف إليه الأفعال كلها على سبيل العموم، بمعنى : انه هو السبب الذي لولاه -تعالى- لم يحصل ولم يكن بوجه. والظاهر -من إنفاق ما رزقه الله -المال، وذلك عام فيما يخرج من الزكاة [1] المفروضة، ومن العطايا النافلة، بدلالة أن ذلك مدحٌ منه. والمدح قد يستحق بالفرض والنفل، وما روي عن ابن عباس -رضي الله عنهما أنه عنى "الصلوات المفروضة" و"الزكوات[2] [المحدودة][3] فإنه، ذكر أَوْكَدَ ما يستحق به المدح، إذ لا يعتد بالنفل مالم يُؤتَ بالفرض، لقوله عليه السلام: **«إنَّ اللهَ لاَ يَقْبَلُ نَافِلَةً حَتَّى تُؤَدَّى الْفَرِيضَةُ»** وروي عن ابن مسعود رضي الله عنه «إن المؤمن ليؤجر في كل شئ حتى اللقمة يضعها في فيّ امرأته» فالإنفاق من الرزق بالنظر العامي من المال كما تقدم. وأما بالنظر الخاصي:

فقد يكون الإنفاق من جميع المعاون التي آتانا الله-عز وجل- من النعم الباطنة والظاهرة، كالعلم والقوة والجاه والمال. ألا ترى إلى قوله -عليه السلام: **«إنَ عِلْماً لاَ يُقَالُ بِهِ كَكَنْزٍ لاَ يُنفَقُ مِنْهُ»**[4]. وبهذا النظر عد الشجاعة وبذل الجاه وبذل العلم من الجود حتى **قال الشاعر:**

والجود بالنفس أقصى غاية الجود[5]. وقال آخر :

بَحْرٌ يَجُودُ بِمَالِهِ وَبِجَاهِهِ   وَالجُودُ كُلُّ الجُوْدِ بَذْلُ الْجَاهِ [6]

وقال حكيم :"الجود التام: بذل العلم. فمتاع الدنيا عرض زائل ينقِصُهُ الإنفاق. وإذا تزاحم عليه قومٌ ثلم بعضهم حال بعض. والعلم بالضد- فهو باق دائم. ويزكو على النفقة، ولا يثلم تناول البعض حال الباقين، وإلى هذا ذهب بعض المحققين فقال: (وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ) أى: "مما خصصناهم به

---

١ - في ٠ أ - ص) الزكوات.

٢ - في (و - ج) والزكاة.

٣ - ساقطة من (أ - ص) ، (ط - س).

٤ - الحديث أخرجه الإمام أحمد عن أبي هريرة بلفظ: قال قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم: "إن مثل علم لا ينفع كمثل كنز لا ينفق فى سبيل الله -"عز وجل" وورد الحديث أيضاً عند الدارمي فى المقدمة : باب البلاغ عن رسول الله -- صلى الله عليه وسلم وتعليم السنن.. انظر: سنن الدارمي-ج:١-ص١١٣.

٥ - البيت لمسلم بن الوليد، وهو فى ديوانه، وشطر البيت الأول:
تجود بالنفس إذ أنت الضنين بها... مقدمة جامع التفاسير ص ١٥٩.

٦- ثلم الشئ ثلما فيه ثلمة وثلم السيف : صيره غير ماض القطع ، ثلم الشئ ثلماً : صارت فيه ثلمة ، وثلم الرجل الرجل : بلد طبعه . فهو ثلم القاموس المحيط مادة : ثلم.

من أنوار المعرفة يفيضون"، فعلى هذا عامٌ في كل ذلك.

قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾.

سورة البقرة :الآية (٤)..

الإنزال، والوحي متقاربان، لكن استعمال "الإنزال" على اعتبار حال المنزل والمنزل إليه بالشرف والمنزلة، لا بالمكان، والوحي: هو الإشارة والإبقاء، وذلك على ثلاثة أضرب بيّنها الله تعالى في قوله **﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾**[١]، الأول-من ذلك الوحي: والإنزال الذي بينه تعالى وبيَن أولي العزم من الرسل بسفير يرونه، والثاني: بسماعٍ من غير رؤية، كحال موسى -عليه السلام- في ابتداء بعثته، والثالث: بالإلهام والإلقاء في الروع، وذلك ضربان: إما الإلقاء في الروع في حال اليقظة، وهو المعبر عنه بالمحدَّث و"المروّع"، وعليه نبه عليه السلام بقوله[٢]: **(إن في أمتي لمروعين)**[٣]، وقوله: **(إن يك في هذه الأمة محدَّثٌ فعمر بن الخطاب)**[٤]، وقوله: **(إن روْح القدس نفث في روعي)**[٥] وإما إلقاء إليه في المنام، وذلك ضربان: إما ظاهر من المنام لا يحتاج إلى تعبير... وإما تلويحٌ ورمزٌ يُحتاج إلى تعبيره، ولهذا قال عليه السلام:

«الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ [الصالحة][٦] جزء مِنْ خَمْسٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءاً مِنَ النُّبُوَّةِ»[٧]، فالذي يكون في المنام بالإلقاء في الروع، قد يكون لغير[٨] الأنبياء -عليهم السلام- والذى يكون بالسماع من غير رؤية قد يكون لغير أولي العزم من الرسل، والذي يكون بالسفير المرئي لا يكون إلاّ لأولي العزم، وعلى هذا

---

١ - سورة الشورى: الآية (٥١).

٢ - في (و - ج) بقوله عليه السلام.

٣، ٤ - أخرجه البخاري في فضائل الصحابة-ج:٧-ص:٤٠، ٤١، كما أخرجه مسلم في فضائل الصحابة تحت رقم ٢٣٩٨- ونصه: عن أبي هريرة- رضي الله عنه قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم: "لقد كان فيمن كان قبلكم من الأمم ناس محدثون من غير أن يكونوا أنبياء، فإن يكن في أمتي أحد فإنه عمر"، ومعنى: (محدثون) ملهمون وفي الحديث رواية أخرى عن عائشة أخرجها مسلم تحت رقم: ٢٣٩٨ والترمذي تحت رقم: ٣٦٩٤.

٥- نص الحديث: "إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها"، وقد رواه أبو نعيم في الحلية من حديث أبي أمامة وابن حبان والحاكم وابن ماجة من حديث جابر والحاكم من حديث ابن مسعود والبزار والطبراني عن أبي الدرداء وأبو يعلي عن أبي هريرة وابن ماجة عن أبي حميد الساعدي مطولاً ومختصراً وهو حديث صحيح.

٦ - ساقطة من (أ - ص) ، (ط - س).

٧ - هذا الحديث جزء من حديث طويل أخرجه مسلم في كتاب الرؤيا بلفظ: "... ورؤيا المسلم جزء من خمس وأربعين جزءاً من النبوة..." وقد ورد الحديث في أكثر الروايات بلفظ ".. جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة"، وفي بعضها .. "جزء من أربعين جزءاً"، وفي بعضها الآخر: "جزء من سبعين جزءاً".

٨ - في (أ - ص) بغير وهو تصحيف.

حال الإنزال. فقد ذكر تعالى: **﴿اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾**[١]، وقال: **﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾**[٢]، وقوله: **﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾**[٣]. ومعلوم أن ذلك بالتمكين والإلقاء في الروع: بالهداية إليه. واليقين أقوى إدراكات العقل، ولهذا قيل: هو مشاهدة الغيوب بعين القلوب تنبيه أنه أقوى إدراكات العقل، كما أن رؤية البصر أقوى إدراكات الحواس، ولصعوبة إدراكه، قال -عليه السلام- : « **أخوفُ ما أخافُ على أمتي ضعفُ اليقين**»[٤] ولذلك قالوا : اليقين هو اطمئنان القلب اعتباراً بثمرته. وقال تعالى: **﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾**[٥]. واستعمل فيه "الرؤية" تنبيهاً على ما تقدم، والكلام في ترتيب الآيتين ونظمها صعبٌ. وذاك أنه إن كانت تفصيلاً للمتقين، فالوجه أن يفصل[٦] ذلك بفصلٍ لا يُدخل أحد القسمين في الآخر، نحو أن يقال: العرب بدويٌّ وحضري[٧]، وشاعرٌ وغير شاعرٍ، أو تميمي وغير تميمي، فأما أن يقال: شاعر وتميمي، فلا يصح، ومعلوم أن بعض ما ينطوي عليه أحد[٨] الآيتين داخلٌ في جملة الأخرى. وإن كان ذلك ليس بتفصيل، وإنما هي صفات للمتقين، ويكون ذكر بعض ذلك مخصصاً عن الجملة كذكر جبرائيل وميكائيل بعد الملائكة على سبيل التخصيص، فالوجه: أن لا يعاد "الذين" ثانياً، [ثم][٩] قوله: **﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الآية:(٥)- سورة البقرة** .

[يجب أن يُعلم هل هما صفتان لموصوفين أو لموصوف واحد][١٠] فيقال- وبالله التوفيق[١١]: إنه قد قيل: الآيتان- وإن كانتا عامتين فمعناهما خاص. فالأولى أشير بها إلى الذين آمنوا عن الشرك، والثانية إلى الذين آمنوا من أهل الكتاب- وهو قول ابن عباس- واستدل على تقوية ذلك بأنه كما صنف الكفار- بعد

---

١ - سورة الشورى: الآية (١٧).
٢ - سورة الزمر : الآية (٦).
٣ - سورة الحديد : الآية (٢٥).
٤ - الحديث أورده صاحب كنز العمال تحت رقم ٧٣٣٢-ص٤٣٧ بلفظ "ما أخاف على أمتي إلاَّ ضعف اليقين"، وعزاه للطبراني في الأوسط، وللبيهقي في شعب الإيمان عن أبي هريرة. كما أورده تحت رقم ٧٣٤١-ج:٣-ص٤٣٩ بلفظ "أنما أتخوف على أمتي ضعف اليقين"، وعزاه لابن المبارك عن أبي هريرة.
٥ - سورة الأنعام: الآية (٧٥).
٦ - في (أ - ص) يفضل وهو تصحيف.
٧ - في (ط - س) وحضروي.
٨ - في (ط - س) ، (و- ج) إحدى.
٩ - ساقطة من (و - ج).
١٠- ساقطة من (ط - س).
١١ - زيادة في (ط - س).

ذلك- فجعلهم "مجاهداً" و "منافقاً"، كذلك صنف المؤمنين، فجعلهم مؤمناً عن شرك، ومؤمناً عن غير مخالف فى النبوة. فعلى هذا قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾[1] كأنه قيل: هذا الكتاب هدىً للمسلمين الذين هذا وصفهم. ولأهل الكتاب الذين جمعوا بين الإيمان بك وبمن تقدمك. وقد قيل فيه قول ثان: وهو أن الإيمان ضربان: ضرب يمكن أن يدرك جملتها بالعقل، وإن لم يكن إدراك تفاصيله إلا بالشرع. وذلك ثلاثة أشياء. ذكرها فى الآية المتقدمة: وهى أفضل ما يؤدى بالجوارح وهى الصلاة، وأفضل ما يؤدى من الأملاك، وهو الزكاة. وذلك صفات المتقين. ثم ذكر بعد ذلك ثلاثة أشياء. ذكرها فى الآية المتقدمة: وهى أفضل ما يؤدى بالجوارح وهو الصلاة. وأفضل ما يؤدى من الأملاك، وهو الزكاة. وذلك صفات المتقين. ثم ذكر بعد ذلك ثلاثة أحوال من أسرار الإيمان مما لا سبيل إلى معرفته إلاَّ بالسمع وهو الإيمان بالقرآن والإيمان بالكتب المنزلة على الرسل المتقدمة الإيقان بيوم القيامة قال: وإنما أعاد "الذين" تنبيهاً أن هذه الثلاثة سبيلها غير سبيل الأول، وقد قيل فيه قول ثالث: وهو أن الإيمان ضربان، ضرب هو معرفة سبيل الحق، وطلب الوسيلة إليه وهو المشار اليه بقوله : ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾[2]، وبقوله : ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾[3]، وضرب هو مزاولة السلوك إليه المشار [إليه][4] بقوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾[5]، وبقوله: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾[6]، فالمعنيون بالآية الأولى هم الموطئون السبيل إليه بالإيمان به والعبادات البدنية والمالية، وبالثانية المجتهدون فى التوصل إليه وهم الذين يعرفون حقائق مراد الله بما أنزله على أنبيائه وعناهم الله تعالى بقوله: ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾[7] وبقوله: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾[8]، وبقوله: ﴿أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾[9]، وهم المزيد لهم بقوله: ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾[10]، فعلى

---

١ - سورة البقرة : الآية رقم (٤).
٢ - سورة النحل : الآية (١٢٥).
٣ - سورة المائدة : الآية (٣٥).
٤ - ساقطة من (ط - س).
٥ - سورة يوسف : الآية (١٠٨).
٦ - سورة الحج : الآية (٧٨).
٧ - سورة الحج : الآية (٢٤).
٨ - سورة الزمر : الآية (٢٢).
٩- سورة المجادلة : الآية (٢٢).
١٠- سورة الشورى : الآية (٢٣).

هذا يرجع قوله تعالى: **﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾** إلى الصنف الأول، **﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾** إلى الصنف الثاني، قوله تعالى : **﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾**:، قد تقدم القول في ذكر الهداية بما أغنى عن الإعادة. فأما "الفَلْحُ" فأصله: الشق. ومنه قيل: "الحديد بالحديد يُفْلَحُ"، وسمى «الأكار»[١] فلاحاً، اعتباراً بمبدأ فعله، وهو شق الأرض، ومن قال: يسمى "الْمُكَارِى"[٢] فلاحاً لقول الشاعر[٣] "**وَفلاَّحٌ يَسُوقُ لَها حِمَاراً**"[٤]، فهذا سوء نظر منه، فإنه أراد أكاراً يسوق حماراً، فكما أنه لو قال: أكَّاراً يَسُوقُ حِمَاراً، لم يكن يجب أن يقال: الأكار: هو المكارى، كذلك هذا . وسمى "الظَّفَرَ" فلاحاً اعتباراً بكشف الكربة. ثم "الفلاح" تارةً يعتبر بأعراض الدنيا، فيقال: أفلح فلان: إذا ظفر بما يريده. وقول من قال: الفلاح: البقاء، **لقول الشاعر: وَتَرْجُو**[٥] **وَالْفَلاَحَ بَعْدَ عَادٍ وَحِمْيَراً**[٦]، فإنما عني الفرج. والبقاء: بعض الفرج. فإذاً ذلك عامٌ موضوعٌ موضع خاص. وقد استعمل "الفلاح" فى الآية لما هو في الحقيقة ظفرٌ وفرجٌ، **كما قال عليه السلام: «لاَ عَيْشَ إلاَّ عَيْشُ الآخِرَةِ»**[٧]. **وهو قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾**[٨].

---

١ - الأكار: والحراث.

٢ - المكاري: مكري الدواب، ويغلب على "الحمار" و"البغال".

٣ - هذا عجز بيت لعمرو بن أحمر الباهلي ، والبيت بتمامه:

لها رطل تكيل الزيت فيه ... وفلاح يسوق لها حماراً

وهو من قصيدة له مطلعها :-

الم تسال بفاضحة الديارا ... متى حل الجميع بها وسارا

وقالها فى بني سهم حيث كانوا قد أوعدوه بالقتل.

انظر شعر عمرو بن أحمر الباهلي - جمع وتحقيق : د/حسن عطوان. ص ٧٥- مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق.

٤ - في (و - ج) ، (أ - ص) ، (ط - س) وفلاح يسوق الحمارا.

٥ - في (و - ج) ورجوا، وفي (أ - ص) ويرجوا وهو تصحيف.

٦ - البيت للبيد، وأوله: نحل بلاداً كلها حل قبلنا والبيت بعده :-

وإنا وأخوانا قد تتابعوا ... لكا لمغتدي والرائح المتهجر

وهو من قصيدة قالها لبيد يذكر من فقد من قومه ومن سادات العرب، ويتأمل فى سطوة الموت وضعف الإنسان، ومطلعها :-

أعاذل قومي فاعذلي الآن أو ذري ... فلست وإن أقصرت عني بمقصر

ديوان لبيد -ص ٦٨ . ط : دار صادر.

٧ - أخرج البخاري ومسلم والترمذي عن أنس بن مالك- رضي الله عنه- قال: "خرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم- إلى الخندق، فإذا المهاجرون والأنصار يحفرون في غداة باردة ولم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم، فلما رأى ما بهم من النصب والجوع قال:

اللهم إن العيش عيش الآخرة ... فاغفر للأنصار والمهاجرة

وفي رواية :

اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة ... فاكرم الأنصار والمهاجرة

وفي رواية:

اللهم لا خير إلا خير الآخرة ... فبارك في الأنصار والمهاجرة

وقال الحافظ في الفتح : قال ابن بطال: قول ابن رواحة يعني تمثل به النبي صلى الله عليه وسلم.

وقال الحافظ في الفتح قال ابن بطال:

هو قول ابن رواحة يعني تمثل به النبي صلى الله عليه وسلم.

٨ - سورة العنكبوت : الآية (٦٤).

قوله -عز وجل- ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

الآية: (٦)- سورة البقرة

الكفر في اللغة الستر، ووصف الليل بالكافر لستره الأشخاص، والزارع لستره البذر في الأرض وليس لهما باسم كما ظن بعض أهل اللغة لما سمع قول الشاعر: **أَلْقَتْ ذُكَاءُ يَمِينَهَا في كَافِرٍ**[١] فإن ذلك على إقامة الوصف تمام الموصوف، **وقول الشاعر: كَالْكَرْمِ إِذْ نَادَى مِنَ الْكَافُورِ**، أي: الأكمام منه، وسمي القرية كفراً لذلك، وكفر النعمة: سترها، يقال: كَفَرَ كُفراً وكُفُوراً، نحو شَكَرَ شكراً وشُكُوراً، وهو كَافِرٌ وكَفُورٌ، وشاكرٌ وشَكُورٌ. وحقيقة الكفر ستر نعم الله تعالى، ولما كانت نعمه[٢] تعالى بالقول المجمل ثلاثاً، نعمةٌ خارجة: كالمال والجاه، ونعمةٌ بدنيةٌ: كالصحة والقوة، ونعمةٌ نفسيةٌ: كالعقل والفطنة، صار الشكر والفكر ثلاثة أنواع بحسبها، وأعظم الكفر ما كان مقابلاً للنعمة [النفسية][٣]، فبها يتوصل إلى الإيمان واستحقاق الثواب، ومن قابل تلك النعم بالكفران فهو الكافر المطلق، ولذلك صار الكفر في الإطلاق جحود الوحدانية والنبوة والشريعة[٤]... **وقوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ﴾** في الأصل مصدر كالعلاء والنماء، وفي المتعارف[٥] يستعمل في وسط الشئ المعتبر استواؤه بطرفيه، ومنه سواء الدار، وأما السيان: ففي الشيئين المعتبر أحدهما بالآخر في المساواة، فالشئ هو المساوى كالقتل والمثل في معنى المقاتل[٦] والمماثل، فإذا قيل: "سيَّان زيدٌ وعمرٌ"، فمعناه: "كلٌّ واحد منهما مساوٍ للآخر"، وإنما جاز قولهم: ([سَوَاءٌ][٧] عَلَيَّ أَقُمْتُ أَمْ قَعَدْتُ) منه بإبهام الأمر على استواء الحالين لديه، وإن كان القصد الأول بهذا الكلام إلى الاستفهام دون المساواة، فلما صار فيه معنى الاستواء، جاز أن يقال ذلك بمعنى أن ما اقتضاه هذا السؤال سوى عندي، وأكثر النحويين جعلوا "سواءٌ" مبتدأ وما بعده خبره، وقالوا: "كل جملة حصلت خبراً لمبتدأ فلابد من أن يكون فيها ضمير منطوقٌ به، أو مقدرٌ إلاَّ[٨] هذه الجملة"، فإنه لا ضمير فيها بوجه، وذكر بعضهم أن المبتدأ ههنا مقدر، وقد دل عليه لفظ الاستفهام وسواء: خبره فالجملة قد تدل على المخبر عنه نحو من كذب

---

١ - هذا عجز بيت لثعلبة بن صغير المازني وشطره:

فتذكرت ثقلاً رثيداً بعدما وهو من مفضليته التي مطلعها

هل عند عمرة من ثبات مسافر ذي حاجة متروح أو باكر

والبيت في المفضليات ص ١٢٠ واللسان مادة (كفر) والأفعال ج: ٢ ص ، ١٧٤.

٢ - في (و - ج) نعمته.

٣ - ساقطة من (و - ج).

٤ - في (و - ج) والشرائع.

٥ - في (أ - ص) وفي التعارف.

٦ - في (أ - ص) المقابل.

٧ - ساقطة من (و - ج).

٨ - في (و - ج) إلى.

كان شراً له أى كان الكذب شراً له، وهذاالتقدير أجود لأمور منها: أنه لا ينكسر[١] الباب على هذا، لأن الباب مقرر فى أن الجملة إذا كانت خبراً فلابد لها من ضمير يرجع إلى المخبر عنه، والثاني : أنا إذا قلنا: "سواءٌ عليهم[٢] القيام والقعود" يخبر عن القيام والقعود بالسواء لا عن السواء بالقيام والقعود والثالث: إن سواءً نكرة غير موصوفة ولا محدودة، فيقبح الابتداء به، وقال أبو علي الغنوي في نصرة المذهب الأول: "إنك إذا قلت سواءٌ هو خبر، بقى الكلام بلا مبتدأ فالجملة بعده خبرٌ ساقطٌ على التقدير المتقدم ويشهد لصحة ما قلنا[٣] قولهم: **"تسمع بالمعيديّ خيرٌ مِنْ أنْ تَرَاه[٤]"**، فإن قولهم: "تسمع" يدل على مبتدأ، وقولهم: "خير" خبره، كأنه قيل: "تسمع وسماعُك بالمعيدي خيرٌ"، والإنذار إخبارٌ فيه تخويف، كما أن التبشير إخبار فيه سرور، وقولهم: نذرت يقتضي معنى خشيت وخفت، وأما قولهم: "أنذرت"، فذلك تقديم قول يقتضي خوفاً من محذورٍ أو رجاءً لسرور. إن قيل: كيف قال (**سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ**) الآية، وقد علم أنه قد آمن من الذين كفروا قومٌ قيل: إيمان مَنْ آمن لا ينافي مقتضى الآية، وذلك[٥] أنه تعالى نفى أنهم ينتفعون بالإنذار مع حصول الكفر، فأما إذا زال[٦] الكفر وهو الجحود، فإنه لا يمتنع أن ينتفعوا بالإنذار، كقولك :"المريضُ سواءٌ أطعمته أم لم تطعمه لا ينفعه[٧] الطعام"- تنبيهاً أنه ما دام مرضه حاصلاً لم ينفعه ذلك، ولا تقتضي أنه لا ينتفع بذلك إذا زال مرضه، وقد تقدم أن الطب ضربان: إزالة المرض، وحفظ الصحة، وأن الإنذار يجرى مجرى الغداء الحافظ للصحة، وأن النظر فى الأدلة المقتضية للتوحيد وإثبات الرسل جارٍ مجرى الدواء المعيد للصحة، والمريض لا ينتفع[٨] بالغذاء مالم يَزُل مرضه، فتبين[٩] أن الذي فى قلبه مرض من الكفر لا ينتفع بما يجري مجرى الغذاء مادام به المرض، وقد روى عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- مادل على هذا، وهو أنه قال:"عنى به الجاحدين لنعمه" وأن الإنذار لا ينفعهم مع كفرهم"، وقيل: إن ذلك حكمٌ على جميعهم، لأن النبى -عليه السلام- كان يحب أن يؤمنوا بأجمعهم، وإيمان بعضهم ليس يقتضي أن الحكم على الكل كاذب، وقيل: الآية نزلت فى اليهود الذين جحدوا نبوة النبى ﷺ مع ظهور المعجزات لهم، ولم يؤمن أحد منهم، وقال الربيع: "نزلت فى قادة الأحزاب الذين نزلت فيهم.

---

١ - في (أ - ص) أنها.
٢ - في (أ - ص) عليها وهو تصحيف.
٣ - في (أ - ص) ما قلناه.
٤ - هذا المثل يقال إذا لم يطابق الخبر العيان ،أو لم يؤكد السماع ما رأته العينان ، وروى أن المنذرين ماء السماء كان يسمع عن رجل من معد ، ويعجبه ما يبلغه عنه ، فاستقدمه ليرى ذلك الرجل العظيم الذي ملأت صورته قلبه، فلما جاءه لم يجده كما سمع فقال : "تسمع بالمعيدي خيرٌ من أن تراه " - المنتخب من أمثال العرب ص ٥٥.
٥ - في (أ - ص) وذاك.
٦ - في (أ - ص) أزال.
٧ - في (أ - ص) لا تنفعه وهو تصحيف.
٨ - في (أ - ص) ما لا ينتفع.
٩ - في (أ - ص) فبين.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْراً وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾[١] وقيل: لمَ يدخل في الإسلام منهم إلا نفرٌ لا يدري هل حصل لهم الإيمان الموصوف في قوله تعالى: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً)[٢]؟، فإن قيل: إذا عُلِمَ أنَّهُ لا ينجع فيهم الإنذار، فما فائدة حث النبي ﷺ على إنذارهم؟.

قيل: قد بين الله تعالى في الآية ما هو تنبيهٌ على الجواب عن ذلك، لأنه قال: "سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ"، ولم يقل: عليك، ليبقى للنبي فضلُ الإنذار والسعي، ففي إبلاغه فائدتان: فائدةٌ له في استحقاق الثواب لما تكلفه من المشاق، وفائدةٌ لهم أن قبلوا[٣]، فهم وإن حُرِمُوا فائدة القبول[٤]، فإنه -عليه السلام- لم يحرم فائدة الإبلاغ، وعلى ذلك قال: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾[٥] تنبيهاً على هذا المعنى، وقال فيما خاطب به الكفار وذمهم لعبادتهم الأصنام ﴿سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ﴾[٦]، فقال عليكم لما كان ذلك راجعاً إلى الداعين دون المدعوين وخبر أن يصح أن يكون قوله: (لاَ يُؤْمِنُونَ)، وقوله: (سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ) مع خبره اعتراضٌ في موضع الحال، ويصح أن يكون الجملة التي هي "سواءٌ عليهم" مع خبره خبر "إن"، وقوله: (لاَ يُؤْمِنُونَ) حالٌ مؤكدة، أو تفسيرٌ لذلك، لأنه إذا قيل: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾[٧]، لا يعلم من ظاهره أن هذا الاستواء هل هو في: "أن يؤمنوا"، أو في "أن لا يؤمنوا"، فبين ذلك قوله- عز وجل: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾. الآية:(٧)- سورة البقرة.

الختم، والطبع الأثر الحاصل على نقش، وتجوز به في أمور، يقال: "ختمت كذا" في الاستيثاق من الشئ والمنع منه- نظراً إلى ما يحصل من المنبع بالختم علي الكتب والأبواب، ويقال ذلك، ونعني به تحصل أثر نظرٍ إلى النقش الحاصل عن الطابع إذا طبع، ويقال ذلك ونعني به بلوغ آخر الشئ- نظراً إلى أنه آخر فعل يُفعل في إحراز الشئ منه، ومنه قيل: "ختمت القرآن"، ويقال ذلك لما يُستدل به الى الشئ- نظراً إلى ختم المناشر المستدل به على منشيها، وأما المراد من الآية، فقد قيل: "للإنسان بالقول المجمل ثلاثة

١- سورة إبراهيم : الآية (٢٨).
٢- سورة الأنفال : الآية (٢) .
٣- في (أ - ص) قبلوه .
٤- في (و - ج) لعيوب وهو تصحيف .
٥- سورة المنافقون : الآية (٦).
٦- سورة الأعراف : الآية (١٩٣)
٧ - سورة البقرة : الآية (٦).

أنواع من الذنوب يقابلها في الدنيا ثلاث عقوبات. الأول: الغفلة عن العبارات، وذلك يُورِثُ صاحبها جسارة" على ارتكاب الذنوب، وهي المشار إليها بقوله عليه السلام: «**إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَذْنَبَ ذَنباً كَانَ نُكْتَةً سَوْدَاءَ فِي قَلْبِه، فَإِن تَابَ وَنَزَعَ واسْتَغْفَرَ صُقِلَ قَلْبُهُ، وإن زَادَ زَادَتْ حتى يُغْلَقَ قَلْبُهُ**»[(١)] والثاني: الجَسَارَةُ على ارتكاب المحَارِمَ، إما الشهوة تدعوه إليه أو وشرارة تحسنه في عينه، وذلك يورثه وقاحة، وهي المعبَّر عنها بالرَّيْن في قوله تعالى: ﴿**كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾[(٢)]، والثالث: الضلال، وهو أن يسبق إلى أعتقاد مذهب باطل، وأعظمه الكفر، فلا يكون منه تلفتٌ بوجه إلى الحق، وذلك يورثهُ هيئةً تُمرنُه على استحسانه للمعاصي واستقباحه للطاعات، وهو المعبر عنه بالختم والطبع، وكما عبر عنه بذلك في قوله تعالى: ﴿**وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ**﴾[(٣)]، وقوله: ﴿**أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ**﴾[(٤)] فقد عبر عنه بالإقفال في قوله تعالى: ﴿**أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا**﴾[(٥)]، وبالإغفال في قوله: ﴿**وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا**﴾[(٦)]، وبقساوة القلب في قوله: ﴿**وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً**﴾[(٧)]، وبجعل أكنة عليها في قوله: ﴿**وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ**﴾[(٨)]، وبعدم العقل في آيات كثيرة. ويجب أن يتصور ههنا نكتةٌ تزيل الشبهة فيها وفيما أشبهها من الآيات، وهي أن الهداية من الله تعالى ضربان، أحدهما: بالعقل الذي هو فطرته التي فطر الناس عليها، ومتى توهم نفياً مرتفعاً ارتفع التكليف، والثاني: العلم المحصل للإنسان بالفكر والروية بواسطة ما أُعطى من نور الهداية الأولى، وهو الذي أشار إليه النبي ﷺ فيما قال لعلي -رضي الله تعالى عنه: «**إِذَا تَقَرَّبَ النَّاسُ إِلَى خَالِقِهِمْ بِالصَّلَاةِ والصِّيَام، فَتَقَرَّبْ أَنتَ إِلَيْهِ بِالعَقْلِ تَسْبِقْهُمْ بِالدَّرَجَاتِ**» [(٩)] فإذا كان كذلك، وجب أن يكون متصوراً أن هذه الهداية الثانية مباحةٌ للكافة،

١- قال العراقي : رواه الترمذي وصححه والنسائي في اليوم والليلة وابن ماجة وابن حسان والحاكم. ورواه كذلك أحمد حميدو ابن جرير وابن المنذر، وابن مردويه والبيهقي في الشعب بلفظ :«إن المؤمن إذا أذنب ذنباً نكتت في قلبه نكتة سوداء إلخ ... تخريج أحاديث إحياء علوم الدين للعراقي وابن السبكي والزبيدي . الجزء الأول ص ٧٧١ : ص ٧٧٢ استخراج أبي عبد الله الحداد.

٢- سورة المطففين : الآية (١٤)

٣ – سورة الجاثية : الآية (٢٣).

٤ – سورة النحل : الآية (١٠٨).

٥ – سورة محمد : الآية (٢٤).

٦ – سورة الكهف : الآية (٢٨).

٧ – سورة المائدة : الآية (١٣).

٨ – سورة الإسراء : الآية (٤٦).

٩- هذا الحديث مشهورٌ بألفاظ قريبة من هذا اللفظ، وأورده الراغب في الذريعة إلى مكارم الشريعة، كما أخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث علي «إذا اكتسب الناس من أنواع البر ليتقربوا بها إلي ربنا-عز وجل- فاكتسب أنت من أنواع العقل تسبقهم بالزلفة والقرب». وقال الحافظ العراقي: إسناده ضعيف.. الذريعة – ص١٦٩.

لكن لا سبيل إلى لقائها وتناولها والانتفاع بها إلاَّ لمن جَلَّى بصيرتَهُ لرؤيتها، وطهر قلبَهُ بقبولها، وقد نبه تعالى على ذلك بقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾(١)، والكافر من حيث لم يجل البصيرة لم يرها، وإذا لم يرها لم يتناولها ، وإذا لم يتناولها، صحَّ أن يقال: "هو ممنوعٌ منها ومصروفٌ عنها"، كما قال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً﴾(٢)، ثم بين سببه فقال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾(٣)، وتصور بعض الناس أن ذلك الختم منعٌ من الله تعالى للكافر عن الإيمان، واستدل به على جواز تكليف مالا يستطاع، وهذا تصورٌ فاسدٌ، فالإنسان في هذه الحالة، وإن كان لا سبيل له إلى الإيمان في الحال، فذلك بما كسبت يداه من إهمال نفسه، فما فسد بينهما من يده، فإنه وإن كان لا يقدر على رده، فقد كان من قبل سهلاً عليه أن يضبطه فلا يرمي به، ألا ترى أنه تعالى قال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾(٤)، فجعل الكفر علةً للطبع على قلوبهم، وقال بعض المتكلمين: إن الختم والكنَّ لو كان مانعاً من الإيمان، لما أنكر الله تعالى على الكفار حيث قالوا ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ﴾(٥) ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾(٦)، وليس بصحيح استدلاله، وذاك أن هذا المنع حاصل، لكن هو من جهتهم على ما تقدم، والقوم لم يتصوروا ذلك، فلذلك أنكر الله عليهم ما قالوه، وأما ما قاله أبو علي الجبائي في أن "الختم" سمةٌ جعلها الله تعالى في قلوب الكفار دلالةً للملك على كفرهم كالكتابة في قلوب المؤمنين ليعرفوا بها الاعتقادات التي لا تظهر بالجوارح، فإن هذا كما قال الشاعر:

تخرصاً وَأحاديثاً مُلَفَّقَةً ... لَيسَتْ بِنَبْعٍ إذا عُدَّتْ وَلاَ غَرَبِ(٧)

وذاك أن هذا الحكم لا سبيل إلى إثباته إلا بسمعٍ غير محتمل، وأيضاً فإن هذه الكتابة إن كانت

---

١ – سورة الشمس – الآية :(٩) .
٢ – سورة الأعراف : الآية (١٤٦).
٣ – سورة الأعراف : الآية (١٤٦).
٤ – سورة المنافقون : الآية (٣).
٥ – سورة البقرة : الآية (٨٨).
٦ – سورة فصلت : الآية (٥).
٧– البيت لأبي تمام في مدحه المعتصم في وقعة فتح عمورية وحريقها ، والتخرص هو الكذب وافتراء القول ، وملفقة :أي ضم بعضها إلى بعض وليست من شكل واحد ، والنبع شجر صلب ينبت في رؤوس الجبال وتتخذ منه القسي وإذا وصف الرجل بالجلادة شبه بالنبع أي أنه صلب لا يقدر على كسره ، ومن أمثالهم «النبع يقرع بعضه بعضاً» وذلك كما في ديوان أبي تمام – بشرح الخطيب التبريزي – تحقيق محمد عبده عزام – الطبعة الرابعة – دار المعارف.

محسوسة، فمن حقها أن يدركها ذو الحاسة وإن كانت معقولة، والاعتقاد أيضاً معقولٌ، فالملائكة غير مفتقرةٍ في شئ من المعقولات إلى الأدلة والبراهين كما يحتاج إليها البشر، وقال أبو القاسم البلخي: "إنَّ خَتْمَ اللّٰه عَلَيْهَا شهادتُهُ عَلى صَاحِبِهَا بأنه [1] لاَ يُؤْمِنُ" قال: "وتخصيص القلب بذلك لاختصاصه بالاعتقادات، كتخصيص الرجْل بالمشي، واليد بالبطش إذا قيل: "مشت رجله"، و"بطشت يده"، وقد جعل اللّٰه تعالى في قوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾[2] ثلاثتها مطبوعاً عليها، وفي هذه الآية، وفي قوله: ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾[3]. البصر مغشيٌّ عليه مفرداً عن القلب، والسمع، فقد قيل: إن ذلك لاختصاص البصر بمعنى، وهو أنه لما كان يحتاج في إدراك مدركاته إلى نور من خارج كما يحتاج إلى نورٍ من داخل، والقلب والسمع يستوى حالهما في إدراكٍ مدركاتها [4] في الضوء والظلمة، خص البصر بالغشاوة -تنبيهاً على أن النور ممنوعٌ منه، فلا يحصل به الانتفاع وأيضاً، فإن ما يدركه القلب والسمع لا يختص بجهةٍ دون جهة، وما يدركه البصر يختص بجهة المقابلة، فجعل ما يمنعهما من خاصٍ، فعليهما الختم الذي يمنع من جميع الجهات، وجعل ما يمنع البصر من خاص الغشاوة المختصة بجهةٍ دون جهةٍ، وأكثر ما ذكر اللّٰه القلب، فالمقصود به "العقل والمعرفة"، وكان ذلك عبارةً عن الموعى بالوعاء، وعلى هذا قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾[5]، وقوله تعالى: ﴿فتكون لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾[6]، وقوله عليه السلام: «اسْتَفْتِ قَلْبَكَ وَإِنْ أَفْتَاكَ الْمُفْتُونَ»[7]، وأما إفراد السمع مع جمع القلب والبصر، فقد قيل: إن السمع في الأصل مصدرٌ، فأجري مجرى أصله، وقيل: أراد موضع سمعهم، وقيل: المضاف إلى الجمع يصح جمعه على الأصل، وإفراده على الإيجاز- اعتماداً على المضاف إليه، كقول الشاعر:

أمَّا عِظَامُهَا فَبِيضٌ وَأَمَّا جِلْدُهَا فَصَلِيبُ[1]

١- ساقطة من (أ - ص).

٢ - سورة النحل : الآية (١٠٨).

٣ - سورة الجاثيه : الآية (٢٣).

٤ - في (أ - ص) مدركاتهما وهو الأصح .

٥ - سورة ق : الآية (٣٧).

٦ - سورة الحج : الآية (٤٦).

٧ - الحديث من قوله - ﷺ لوابصة بن معبد الأسدي ويكنى بأبي سالم وأبي الشعثاء وأبي سعيد من خيار الصحابة ، ونصه : «استفت قلبك وإن أفتوك وأفتوك وأفتوك» هكذا بالتكرار ثلاثاً ، وقال العراقي : رواه أحمد في مسنده عن يزيد بن هارون عن حماد بن سلمة عن الزبيري عبد السلام عن أيوب بن عبد الله بن مكرز عن وابصة وأخرجه الدارمي وأبو نعيم في مسنديهما والطبراني في الكبير وأبو نعيم في الحلية ، وأخرجه البخاري في التاريخ .

٨ - شطر البيت لعلقمة ،وتكملته ، بها جيف الحسرى فأما عظامها فبيض وأما جلدها فصليب

والبيت في ديوان علقمة ص ٤٠ ، وفي المفضليات ص ٣٩٤ ، وفي خزانة الأدب ج ٣ : - ص ٣٩٧ والمقتضب ج ٢ - ص ١٧٠ وكتاب سيبويه ج ١ - ص ١٠٧وفي إملاء العكبري ج ١ - ص ١٥ وفي معاني القرآن للأخفش ج ١ - ص ٢٢٦ وهو يصف طريقاً شاقة وجيف الحسرى : المعيبة من الإبل يتركها أصحابها فتموت وعظامها بيض أي أكلت السباع والطير ما عليها من اللحم فتعرت وجلدها صليب : أي يابس ، لأنه ملقى بالفلاة لم يدبغ

والغشاوة: ما يُغشى به كالعلاقة، والعلاقة، وغشى منه، لكن قلب واوه ياءً لانكسار ما قبله، وكذلك: غشيانٌ، كغليان. ومن نصب غشاوةً فعلى تقديره جَعَلَ عَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً، وَمَن رَفَع فعلى القطع والاستئناف، والعذاب: اسم من التعذيب، وكان الأصل من قولهم ما عذب والتعذيب إزالة ذلك العذاب كقولهم مرضته وفديته في إزالة المرض والقذى والفرق بين العذاب والعقاب أن العقابَ لا يقال إلاَّ فيما كان مجازة، وكأنه هو المتعقب للجرم المتقدم، والعذاب يُقال فيه وفي غيره. ووصفه[1] بالعظيم: تنبيهٌ أنه إذا قويس بسائر ما يجانسه قُصرَ جميعه عنه.

قوله -عز وجل- ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ الآية:(٨) – سورة البقرة.

الناس: جماعةُ حَيَوَانٍ ذي فِكرٍ ورويةٍ، واختلف في لفظه، فقيل: هو من قولهم : أُنَاسٌ، وحذف همزته وتقديره بعد الحذف عال، وقيل: بل هو من :"ناس" -ينوس- أي اضطرب، وتسميته بذلك لكونه ذا اضطرابٍ زائدٍ على غيره، إما ببدنه أو ببدنه وفكره معاً، فللإنسان بالفكر حركةٌ زائدةٌ على سائر الحيوان، وقيل: هو ومقلوبٌ من: نسي، نحو: "جَذَبَ"، و"جَبَذَ"، ولاهِ أبوك، ولَهَى أَبُوكَ، وكذا قال ابن عباس-رضي الله تعالى عنهما- في الإنسان: إنه سُمِّي بذلك لأنه عُهِدَ إليه فَنَسى، فإنسانٌ: على ذلك: "أفعلان" أصله "إنسيان"، بدلالة تصغيرهم على أُنَيْسَان، وقيل: سُمِّيَ إنساً، وإنساناً، لأنه خُلِقَ خَلْقُهُ لا قوَامَ له في حياته بجميع أسبابه، فيحتاج البعض إلى بعض، ليتسبب لهم أمورهم، ولأنه إذا لم يكن له مَسْكُونٌ إليه من جنسه، لم تطب حياته، وعلى ذلك قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾[2]، وهذا المعنى رمقه الشاعر حيث قال :

مَنْ كَانَ فِي الدُّنْيَا بَغَيْـــــر حَبِيبٍ ... فَحَيَاتُهُ فِيهَا حَيَــاةُ غَرِيـــبِ

مَا كَانَ [3] فِي حُورِ الجِنَـــان لآدَمٍ ... لَوْ لَمْ يَكُنْ حَوَّاءُ منْ مَرْغُـــوبِ

قَدْ كَانَ فِي الْفِرْدَوْسِ يشْكُو وَحْشَـةً ... فِيهَا فلمْ [4] يَأْنَسْ بِغَيْرِ حَبِيبِ[5]

١- في (أ-ص) وفي وصفه بالعظيم .
٢- سورة الأعراف : الآية (١٨٩).
٣- في (و-ج) من كان وهو تصحيف .
٤- في (أ-ص) ولم .
٥- الأبيات للشاعر : ديك الجن، وذلك كما نسبها الراغب فى كتابه المخطوط وعنوانه «رسالة فى آداب مخالطة الناس » – ص ٢ ، وعدد ورقات هذه الرسالة سبع وعشرون ورقة وهي مخطوطة منها مصورة فى المكتبة المركزية بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة على الفيلم رقم : (٥٢٥٣) ولديَّ مصورة منها. وقد بحثت عن هذه الأبيات فى ديوان ديك الجن الذي حققه كل من د. أحمد مطلوب، وعبدالله الجبورى فلم أجدها، ولكنني وجدتها فى ديوانه الذى حققه مظهر الحجي ص ٦٧. والبيت قبل هذه الأبيات :-

عين الرقيب غرقت فى بحر العمى ... لا أنت لا بل عين كل رقيب

وقد قالها فى ذكر الرقيب.

وقد روى أنه سُمي إنساناً لأنه نسى العهد، وهذا من حيث اللفظ لا يصح، لكن من حيث المعنى يصح أن يقال: عنى أنه[1] أنسَ بالشجرة، فنسى العهد والله أعلم، وأما القول: فيقال على أوجه: الأول: اللفظ المبرز بالعبادة، والثاني: للمعنى المتصور في النفس المعبر عنه باللفظ، والثالث: للمذهب، نحو: "فلان يذهب إلى قول أبي حنيفة"- رحمه الله تعالى-.

والرابع: للعناية الصادقة بالشئ، نحو: فلانٌ يقول بكذا، والخامس، للدلالة المنبئة[2] عن الشئ، نحو: **امتَــلاَ الحَــوْضُ، وَقَــالَ قِطْنِــي**

والسادس: في استعمال المنطقيين عبارةٌ عن الحد، يقولون قول الجوهر كذا، وقول العرض كذا، أي حدهما، ولاستعمال القول على أوجهٍ مختلفةٍ، قال تعالى: ﴿**يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم**﴾[3]، وقال: ﴿**وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ**﴾[4]، والأصل في ذلك العبارة، لكن عبر عن نسبة تارةً بهِ كتسمية العنب خمراً في قوله تعالى: ﴿**إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا**﴾[5] والفرق بين القول والكلام أن الكلام لا يطلق[6] إلا لجملة مفيدة لفظاً أو تقديراً، والقول قد يقال لبعض الجملة، فإذا كل كلام قول، وليس كل قول كلاماً، ولذلك قال سيبويه:

«قلت : في كلامهم: يحكى به ما كان كلاماً لا قول»، فأورد ذلك مورد المقرر فى النفس أن الكلام موضوع لجملةٍ مفيدة، وقد بين الله تعالى في هذه الآية أن في الناس من يدَّعي الإيمان بالله والمعاد، وهو كاذبٌ [7] في قوله ودعاه، وذلك كقوله: (﴿**وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَد دَّخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا**﴾[8]، وقوله: ﴿**يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ**﴾[9] كل ذلك تنبيهٌ على أن الإيمان غير نافعٍ ولا مقبولٍ إلا بتقديم النية والإخلاص ومطابقة المقال والفعال، وقال أبو علي الجبائي: هذه الآية تدل على أن إقرار مَنْ أقرَّ بالله إذا لم يَكُنْ عارفاً بالله لا يكون بهذا القول مؤمناً بل مُدَّعياً له. والمخالف لا يخالف في ذلك، وإنما يقول: إنه يصيرُ مؤمناً إذا تَفَوَّه بالشَّهَادَتَيْنِ، وقال أبو علي أيضاً: "إن الآية

---

١ - فى (و-ج) به وهو تصحيف .
٢ - فى (و-ج) المبينة، وهو تصحيف.
٣ - سورة آل عمران : الآية (١٦٧).
٤ - سورة المجادلة : الآية (٨).
٥ - سورة يوسف : الآية (٣٦).
٦ - في (أ - ص) لايقال.
٧ - في (و-ج) وهو كان هو تصحيف .
٨ - سورة المائدة : الآية (٦١).
٩ - سورة آل عمران الآية (١٦٧).

تدل على بُطْلَانِ قول مَنْ زعم أن جميع المكلفين عارفون بالله"، قال: لأن هؤلاء المنافقين لو كانوا بالله عارفين، وكانوا بحضرة النبي- عليه السلام- مُقرِّين، لكان يجب أن يكون إقرارهم بذلك إيماناً منهم، لأن من عرف الله وأقرَّ به لم يكن إقراره غيْرَ إيمان، فلما بين تعالى أنهم غير مؤمنين بما أُخبروا به، علمنا أنهم لم يكونوا يعرفونه، وليس في الآية دلالةٌ على ما قال، أو لأن الله تعالى قال: يَقُولُونَ آمَنَّا بالله وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ، ثم نفى عنهم الإيمان بهما، واحدٌ لا يقول: إن معرفة الإنسان بالله وباليوم الآخر ضرورة وإن ادعوا معرفة الله وحدها، وثانياً: أن أحداً لا يقول: "الإقرارُ بالله عَلَى وَجْهِ الْخَداعِ إيمَانٌ"، والله تعالى قد أخبر أنهم يُخَادِعُونَ الله بهذا القول، وثالثاً: أن الإيمان المنفي عنهم ليس هو الإقرار، بل هو سكون النفس المذكور في قوله عز وجل: ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ**﴾[١].

ورابعاً: أن من يقول: معرفة الله ضرورةٌ، يذكر أن ذلك لايحصل إلا عن سبب يتقدمه كالعلم بمخبر الأخبار المتواترة لايحصل إلا بتقديم سماع المخصوص فكذلك معرفة الله ضرورة [لكن لابد فيها من سببٍ يتقدمها، وخامسها: أن عند كثير ممن يدعي][٢] أن معرفة الله ضرورة، أن ذلك موجودٌ في الإنسان بالقوة، كوجود النار في الحجر، فلابد لها من انقداحٍ به يخرج، ومتى لم يحصل السبب لم تكن النار، كذلك المعرفة بالله تعالى.

قوله عز وجل: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ الآية:(٩) - سورة البقرة.

الخداع: إنزال الغير عما هو بصدده بأمرٍ تبديه على خلاف ما تخفيه، ومنه: قيل: خدع الضب. إذا استتر في جحره، واستعمال ذلك فيه لما اعتقدوا في الضب، أنه يعد عقرباً يلدغ من يدخل يده في جحره حتى قالوا العقرب بواب الضب، ولاعتقاد الخديعة فيه قالوا :"أَخْدَعُ من ضَبٍّ"[٣]، و"طريقٌ خادعٌ" مخالف لما يقتضيه ظاهره، والمخدع كأنك جعلته خادعاً لمن رام تناول مافيه لأنه بيتٌ في بيتٍ، وقولهم:"خدع الطريق" إذا قل، فتغيرٌ متصورٌ منه هذا المعنى. والأخدعان[٤]: تُصُوِّرَ منهما الخداع، لاستنادهما تارةً، وظهورهما أخرى، وفي الحديث:

«**بَيْنَ يَدَى السَّاعَةِ سِنونَ خَدَّاعَةٌ**»[٥] أي مُغْتَالَة، لتلونها بالجدب تارةً، والخصب أخرى. إن قيل:

---

١ - سورة الرعد : الآية (٢٨).

٢ - ساقطة من (و - ج).

٣ - المثل أورده أبو عبيد فى كتابه الأمثال ص ٣٦٤ وأورده الراغب فى كتابه «مفردات ألفاظ القرآن» - مادة (خدع) ص ٢٧٦.

٤ - هما عرقان خفيفان فى موضع الحجامة من العنق.

٥ - الحديث عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : قبل الساعة سنون خداعة يكذب فيها الصادق ويصدق فيها الكاذب ويخون فيها الأمين ، ويؤمن الخائن ، وينطق بها الرويبضة ويروى عن أنس عن النبى ﷺ إن أمام الدجال سنين خداعة» ، إلخ وقال إبن كثير هذا إسناد قوي جيد . الفتن والملاحم لابن كثير ج ١ - ص ٥٧ مسند الإمام أحمد ج ٢ - ص ٣٣٨ الدر المنثور ج ٧ - ص ٤٧٥.

لم قال (يُخَادِعُونَ اللهَ) وهم لم يَقْصِدُوا بِفِعْلِهِمْ خديعته؟ قيل: ذكر بعض النحويين [١] أنه أراد تعالى "يخادعون رسول الله"، فحذف المضاف، وهذا باعتبار حكم اللفظ دون المعنى، فأما باعتبار المعنى، فإنهم لما قصدوا خديعة النبي -عليه السلام- وقد أنبأ تعالى أن معاملة الرسول معاملة الله تعالى، حتى قال: ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾[٢]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾[٣] جعلهم مخادعين له بخديعتهم النبي ﷺ، فإن قيل: المخادعة من بين [٤] اثنين، وقد عُلم أن ذلك لم يكن من الله تعالى ولا من الرسول ﷺ، فكيف قال [٥] يخادعون؟ قيل: قد قال أهل اللغة وكثير من المفسرين: أن الخديعة من الله هي مجازاته إياهم بمثل فعلهم، فسمى مجازاة الشئ باسمه، وكذلك قالوا في المكر والهزؤ ونحوهما مما وصف به نفسه، ولا يليق به، وعلى ذلك قول الشاعر:

فَنَجْهَلُ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَا[٦]

ووجهٌ آخر وهو أنه قد تقدم أن مخادعتهم لله -عز وجل- في الحقيقة مخادعة الرسول، ولما كانوا يُراؤون بالإيمان ليزيل عنهم حكم المشركين ويجريهم في الأحكام مجرى المؤمنين، ويطلعهم على الأسرار، وهو لا يجريهم في كثير من الأمور مجراهم تصوروا أن ذلك لهم خداعٌ، كما أن الأول منهم له خداع، فأخرج اللفظ على حسب وهمهم وحسبانهم فهمهم، لا على ما عليه حقيقة الأمر. وقد يطلق الحكم على المعنى عبارةً على حسب اعتقاد المخاطب [٧] والمخبر[٨] عنه لاعلى ما عليه حقيقة الأمر كقوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾[٩] أي على زعمك، وقول الشاعر:

.. خُذْهَا خُذَيفُ فَأَنْتَ السَّيِّدُ[١٠] الصَّمَدُ..[١١]

١- ساقطة من (و – ج).
٢ – سورة النساء : الآية (٨٠).
٣ – سورة الفتح : الآية (١٠).
٤- ساقطة من (أ – ص).
٥- ساقطة من (أ-ص).
٦- شطر البيت لعمرو بن كلثوم وتمامه

ألا لا يجهلن أحد علينا ... فنجهل فوق جهل الجاهلينا

– وقال بعده :

بغاة ظالمين وما ظُلمنا ... ولكنا سنبقى ظالمينـــــا

جمهرة أشعارالعرب ص ٤١٤ لأبي زيد القرشي تحقيق الدكتور – محمد علي الهاشمي.
٧- في (و-ج) المخلصين وهو تصحيف.
٨- فى (و – ج) في المخبر .
٩- سورة الدخان : الآية (٤٩).
١٠- في (و – ج) الصيد وهو تصحيف .
١١- هذا عجز بيت وصدره :-

علوته بحسام ثم قلت له

ولم أتوصل إلى قائله.

وما حكى الله تعالى عن موسى -عليه السلام- في قوله: ﴿وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾،(١) فإن قيل: كيف وصف تعالى نفسه بأنه خادعهم في قوله: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾؟(٢) قيل هو على ما تقدم، ووجهٌ آخر في هذااللفظ، وإخوانه مما وصف الله تعالى نفسه به من الصفات التي تنزه تعالى عما يتصور من ظواهر معانيها نحو قوله تعالى: ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾(٣)، وقوله: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا﴾(٤) وقوله: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾(٥)، وقوله: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾(٦) كل ذلك قد قيل فيه قول، من تصوره متحرياً به الحق ثلج قلبه، واستقرب ما كان من قبل يستبعده، وهو أن المكر والخديعة، وإنما هو استنزال الغير عما هو بصدده بأمر يبدي منه خلاف ما تخفيه ويتحراه مستعمله على وجهين: أحدهما: قاصداً به استنزال الغير عن ضلال إلى الرشد وذلك جميلٌ، وهو كما يفعله الأب البار بابنه من تحذير يستجره به إلى ترك شرٍّ أو تعاطي خيرٍ(٧)، فيقول: "خَدَعْتُ ابْنِي عَمَّا كَانَ يَتَعَاطَاهُ من القبيح"، و"مكرت به حتى قبحته في عينه"، وقد عُلم أن هذا الفعل وإن أطلق عليه لفظ الخديعة والمكر فهو فعلٌ حسنٌ، فإذا المكر والخديعة وإن كان لفظهما مستبشعاً فقد يقصد به وجهٌ محمودٌ، وبالعكس من ذلك فعل العدالة، فقد يتحراه الإنسان لاستغواءِ غيره وإضلاله مما يعد فساداً وجوراً وخديعةً ومكراً، قد يكون صلاحاً ورشداً وعدلاً، وما يُعد صلاحاً وعدلاً ورشداً قد يكون فساداً وجوراً ومكراً، وبهذا النظر قال بعض التابعين: "كل قبيح من العبد فهو حسن من الله تعالى"، ويعني بذلك أن الفعل يقبح (٨) ويحسن بحسب المقاصد، ولهذا قال عليه السلام: **"الأعمال بالنيات ولكل امريءٍ مانوى"**(٩)، وقال: **"نِيَّةُ المؤمِنِ خَيْرٌ مِنْ عَمَلِهِ"**(١٠)، وبهذا النظر قال بعض المحققين وقد سُئل عن شئ يقبح إطلاقه

١- سورة طه - الآية : (٩٧) .
٢ - سورة النساء : الآية (١٤٢).
٣- سورة الرعد : الآية (١٣).
٤- سورة النمل : الآية (٥٠).
٥- سورة الأعراف : الآية (٩٩).
٦ - سورة القلم : الآيتان (٤٤ ، ٤٥).
٧- في (و-ج) إلى ترك شر وتعاطي خير .
٨- في (و-ج) القبيح، وهو تصحيف .
٩- الحديث متفق عليه ، وأخرجه البخاري في بدء الوحي ج:١ ص ٧ ،وأخرجه مسلم في الإمارة برقم (١٩٠٧) وغيرهما ، وأورده الراغب في المفردات ص ٧٠٨ .
١٠- لم أجده في الأحاديث، ولعل الراغب عني قول يحيى ابن أبي كثير: تعلموا النية فإنها أبلغ من العمل ، وقد أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الإخلاص والنية ، ونقله عنه ابن رجب في (جامع العلوم والحكم) - ج-١-ص٩٨ - تحقيق : الدكتور محمد الأحمدي أبو النور - ط : وزارة الأوقاف .

في الله تعالى مع ورود الشرع به، فأنشد:

وَيَقْبُح مِنْ سُؤَالِ الشَّئْ عِنْدِي فَتَفْعَلُهُ[1] فَيَحْسُنُ مِنْكَ ذَاكَا[2]

فهذا ظاهرٌ لمن جلى بصيرته وتأمل حقيقته، ونبه بقوله: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ﴾ [3] أنَّ وبَالَ خديعتهم راجعٌ على أنفسهم لا على الله تعالى وعلى المؤمنين، كقولك: "ظلمتَ فلاناً ومَا ظَلَمْتَ إِلاَّ نَفْسَكَ"، وذلك في الحقيقة أعظم خديعةٍ وظلمٍ وجور، فإن الله تعالى لما قيض لهم النعيم الأبدي والخيْرَ السرمديَّ، وسَهَّلَ لهم السبيلَ إليه، ثم غفلوا عنه، ومالوا إلى زهراتٍ الدنيا، صاروا في الحقيقة خادعين لأنفسهم ظالمين لها، ولذلك وصفهم في القرآن بظلم أنفسهم في غير موضع وبأنهم خسروا أنفسهم [4] وما يمكرون إلا بأنفسهم، ولأنه قيل: "من خدعك وقد عرفت خديعته فقد خدع نفسه"، ومعلومٌ أن الله تعالى لا يخفى عليه شئ، فمن خادعه فقد خدع نفسه، وقوله: (وَمَا يَشْعُرُونَ) أصل هذا اللفظ الشعر ومنه الشعار للثوب الذي يلي الجسد، فيقال: أشعرته ثوباً، ثم يقال على التشبيه بذلك أشعرهما، واستشعر سروراً، و"شعرت كذا": يستعمل على وجهين، تارةً يُؤخَذُ من مس الشعر، ويعبر به عن اللمس، وعنه استعمل المشاعر للحواس، فإذا قيل: "فلانٌ لا يشعر" فذلك أبلغ في الذم من أنه لا يسمع ولا يبصر، لأن حس اللمس أعم من حس السمع والبصر، وتارةً يقال: "شعرت كذا": أي أدركتُ شيْئاً دقيقاً من قولهم: شعرته أي أصبت شعره نحو: قادته وراسته، وكأن ذلك إشارة إلى نحو قولهم: "فلان يشق الشعر في كذا" إذا دقق النظر فيه ومنه أخذ الشاعر لإدراكه دقائق المعاني..

قوله تعالى : ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ الآية:(١٠)- سورة البقرة.

المرض ضربانَ: جسميٌّ ونفسيٌّ، وكلاهما خروج عن الاعتدال الخاص بهما، فالجسمي: معروفٌ، والنفسيُّ: كالجهل والجبن والبخل والحسد والحرص وسائر الرذايل الخلقية وتسميتها بالمرض إما لكونها مانعةً عن إدراك الفضائل، كالمرض المانع للبدن عن التصرف الكامل، وإما لكونها ذريعةً إلى سلب الحياةالحقيقية التي هي في الدنيا لسان صدق، وفي الآخرة بقاء الأبد، كما وصفه تعالى في قوله:

١- في (أ-ص) فتفعله.

٢- هذا بيت لقصيدة لأبى نواس مطلعها :-

فديتك قد جبلت على هواكا فنفسى لاتنازعني سواكا

إلى أن يقول :

ويسمج من سواك الشئ عندي فتفعله فيحسن منك ذاكا

ديوان أبو نواس ص ٣٨٣ - تحقيق أحمد الغزالي - نشر دار الكتاب العربي - بيروت.

٣- سورة البقرة - الآية :(٩).

٤- ساقطة من (و-ج).

﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ ﴾[١]، وأما الميل النفس به إلى الاعتقادات الرديئة ميل[٢] البدن المريض إلى الأشياء المضرة، ويكون هذه الأشياء متصورةً بصورة المرض قيل: نوي صدر فلان، ونُقِلَ قَلْبُهُ، وقال عليه السلام: «وأيُّ داءٍ أدْوَأُ مِنَ البُخْلِ»[٣]، وقوله تعالى: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ عبارةٌ عن نفاقِهِمْ وشكهمْ وعداوتهم،وقولَ ابن مسعود -رضي الله عنه والحَسن وقتادة رحمهما الله تعالى: "إنَّهُ شكٌّ، وقول غيرهم: إنَّهُ حُبُّ الدُّنْيَا واتِّبَاعُ الهوى، وقول آخر: إنه غَمٌّ، وآخر: إنه حسَد، وآخر: إنه السُّكُونُ إلى الدنيا، وكلها إشاراتٌ على سبيل المثال إلى أبعاض ما ينطوي عليه معنى المرض ولاخلاف بينهم فيه، فمعنى قوله: (فَزَادَهُمُ اللّهُ مَرَضاً) على أوجه، الأول كما تقدم: أن ما أنزله الله يجري من النفس مَجْرَى الغذاء الحافظ للصِّحَّةِ، ومتى تناوله المريض الذي لم يزل مرضه لم ينفعه بل يضره، والثاني: أن هذه الزيادة في المرض هي ما كان الله تعالى يؤتيه نبيه والمؤمنين من إنعامه ويصير زيادة في مرض المنافقين وذلك كقولك لمن أعطاك شيئاً: "قد أكمدتُ عَدُوِّي" وهو لم يقصد إكماده، ولكن لما تولد من فعله بك ذلك صح نسبته إليه، وعلى ذلك قول الشاعر :

يَامُرْسِلَ الرِّيح جَنُوباً وصباً   إنْ غَضِبَتْ قَيْسُ فَزِدْهَا غَضَباً[٤]

أي زدنا إيلا ليزدادوا غضباً، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً ﴾[٥]، وقوله: ﴿ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً ﴾[٦]، ولا يختلف المعنى في قوله تعالى: (فزادهم الله مرضاً) أي جعل مورده مورد خير أو مورد دُعَاءٍ، فإن الدُّعَاءَ من الله واجبٌ، وإن كان منَّا رغبةً وطلباً، ويجوز أن يكون ذلك راجعاً إلى حال الآخرة، ومعناه من في قلبه مرض، فإن الله يزيده في الآخرة مرضاً نحو قوله: ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً ﴾[٧] وهذا والأول يرجعان إلى معنى، لأنهم إذا زيدوا[٨] في الدنيا عداوة للنبي ﷺ ما ازدادوا إلا شكّاً في الآخرة استحقاق عذاب. قوله تعالى: ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾[٩]

---

١ – سورة العنكبوت – الآية : (٦٤).

٢- في (و – ح) مثل وهو تصحيف .

٣- قال أبو هريرة: قال رسول الله – صلي الله عليه وسلم: «من سيدكم يابني سلمة؟» قالوا: سيدنا جدُّ بن قيس إلا أنه رجل فيه بخل، فقال صلى اله عليه وسلم: «وأي داء أدوأ من البخل؟ بل سيدكم بشر بن البراء». أخرجه الحاكم في المستدرك -ج:٣-ص٢١٩، وقال : صحيح علي شرط مسلم، وأقره الذهبي، وأورده الراغب في المفردات – ص٧٦٥.

٤- لم أعثر علي نسبته.

٥ – سورة التوبة : الآية (١٢٥).

٦- سورة المائدة : الآيتان (٦٤، ٦٨).

٧- سورة الإسراء : الآية (٧٢) وهي في (و – ج) [ومن كان في هذه أعمي وأضل سبيلا] وهو تحريف .

٨- في (أ – ص) زيدا وهو تصحيف .

٩- سورة البقرة : الآية :(١٠).

-أليمٌ: بمعنى مؤلم نحو سميعٌ وخصيبٌ بمعنى مسمع ومخصب، وقوله: (بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ)، أي بسبب كذبهم أو بدل كذبهم، كقولهم: هذا بذاك، وحجة من قرأ بالتخفيف أن ما قبله كذب، وهو قوله: (وَمَاهُمْ بِمُؤْمِنِينَ) وهو به أشبه، ولأنه [1] في صفة المنافقين، وقد قال الله تعالى فيهم ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾[2]، ومن قرأ "يُكَذِّبُونَ"، فلقوله: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾[3]، ولأن التكذيب أبلغ، إذ كُلُّ مُكَذِّبٍ بشئ كاذب وليس كل كَاْذَب مكذباً،

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾.

الآية (١١) - سورة البقرة.

الفساد: خُرُوجُ الشئ عن الاعتدال، والصلاح على الضد منه، والإفسادُ: إخراجه عن الاعتدال، والفساد عامٌ في الكفر والضلال وكل ما هو ضار. والصلاح عام في الإيمان والرشد وكل نافع، فقوله: ﴿لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ﴾ عام في كل ذلك، وقول ربيعة وقتادة أن معناه "لا تسالموا الكفار"، ومثله: ﴿وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا﴾[4]، ومن قال: عنى بذلك كنز الدراهم، فإنه تمثيلٌ بأدنى ما يكون فساداً - تنبيهاً أن ذلك عامٌ، فإنه إذا كان ذلك فساداً، فما فوقه من قتل النفس الزكية بغير حق ونحوه أولى بذلك، والخطابُ في الآية للمنافقين، وما روي عن سلمان أن أهل هذه الآية لم يأتوا بعد، فيجوز أن يكون معنى قوله: "أنه سيكون من بعد حاله من له في ذلك شبيهه بحال المنافقين، فإن الآية متصلةٌ بما قبلها، والضمير فيها ليس إلا لمن تقدم ذكره، وقولهم (إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ) فيه تنبيهٌ أنهم يتصورون إفسادهم بصورة الإصلاح لما في قلوبهم من المرض، كما قال: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾[5]، وقوله: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[6]، وقوله: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[7] قال الحسن: من ذلك الإفساد: بناؤهم مسجد قباء ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وقوله -عز وجل-﴿ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ ﴾ [8] "ألا": تقرير للإثبات لأن "لا" للنفي، والألف

١- في (أ - ص) ولأنه .
٢ - سورة المنافقون : الآية (١).
٣- سورة يونس : الآية (٣٩).
٤ - سورة الأعراف : الآيتان (٥٦ ، ٨٥).
٥ - سورة فاطر : الآية (٨).
٦ - سورة الأنعام : الآية (٤٣).
٧- سورة الكهف - الآية : (١٠٤).
٨- سورة البقرة - الآية(١٢).

للاستفهام، واجتماعهما يقتضي إثباتاً نحو: "أليس" و"الم"، إن قيل: ما الذي يفيد تعريف قوله المفسدون وإدخال لفظة هم عليه؟، قيل: أما التعريف: فيقتضي كون الكلام جواباً أو كالجواب، وأما إدخال لفظ هم، فيقتضي إثبات الحكم للمذكور ونفيه عمن عداه نحو أن يقال: "زيدٌ منطلقٌ"، فتقول: أنت بل عمرو هو المنطلق، ولما كان في قولهم: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ تعريض إنكم المفسدون رد الله تعالى عليهم بقوله: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾ وقد تقدم أن "شعرت" يستعمل على وجهين أحدهما بمعنى: أحسست والثاني: بمعنى فطنت، فقوله:﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ في الآية الأولى نفي الإحساس عنهم، وفي هذه الآية نفي الفطنة عنهم، لأن معرفة الصلاح والفساد تُدْرَكُ بالفطنة، وفي الآية التي بعدهما نفي العلم عنهم،(١) فإن قيل: كيف نفى أولاً الحس ثم الفطنة ثم العلم ومعلوم أن مالاحس له فلا فطنة له ولا علم؟، قيل: إن في نفي هذه الثلاثة على هذا الوجه تنبيهاً لطيفاً ومعنى دقيقاً وذلك أنه يبين في الأول أن في استعمالهم الخديعة نهايةً للجمل (٢) الدالة على عدم الحس، ثم بين في الثاني أنهم لا يفطنون-تنبيهاً على أن ذلك لازمٌ لهم، لأن مَن لا حسٌ له لا فطنةَ له، ومن لا فطنةَ له لا علمَ له،ثم بين في الثالث أنهم "لا يعلمون" -تنبيهاً أن ذلك أيضاً لازم لهم، لأن من لا فطنة له فلا علم له فإذا: من الألفاظ الثلاثة إشارةٌ إلى قياسٍ ظاهرٍ وإلزامٍ واجبٍ لمن تأملها وتدبرها.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ الآية: (١٣) – سورة البقرة.

قولهم: الناس، بل كل اسم نوع، فإنه يستعمل على وجهين، أحدهما: دلالةٌ على المسمَّى وفصلاً بينه وبين غيره، والثاني: وجود المعنى المختص به وذلك هو الذي يمدح به في نحو:

"إِذِ النَّاسُ نَاسٌ وَالزَّمَانُ زَمَانُ (٣)

ونحو ذلك: "زيدٌ رجلٌ"، و"هَذَا الْفَرَسُ فرسٌ"، ومثال ذلك أن كل ما أوجده الله في هذا العالم يصلح لفعلٍ خاصٍ به لا يصلح لذلك العمل سواه، فإن الفرس للعدو الشديد، والبعير لقطع الفلاة البعيدة، والمنجر لنجر الخشب والمنحت لنحته، وعلى ذلك الجوارح كاليد والرجل والعين، والإنسان أوجد لأن يعلم ويعمل بحسبه، وكل شئ لم يوجد كاملاً لما قد خلق له لا يستحق اسمه مطلقاً، بل قد ينفى عنه نحو قولهم: "فلانٌ ليس بإنسان"، أي لا يوجد فيه المعنى الذي خُلقِ من أجله، فإذا ثبت ذلك، فقوله

١- ساقطة من (و – ج). ٢- في (أ – ص) للجهل وهو تحريف.

٣- في (أ – ص) غلام، والبيت يروى كما يلي :-

ياليت شعري أين كنت من الدنى ... والناس ناس والزمان زمان

وهو لشاعر يدعى عرقلة الكلبي، واسمه حسان بن نمير بن عجل الكلبي أبو الندى من سكان دمشق.

تعالى: (ومن الناس من يقول آمنا بالله) هو اسم جنس لا غير، وقوله: (كما آمن الناس) معناه كما يفعل من وجد فيه تمامَ فعل الإنسانية الذي يقتضيه العقل والتمييز فإذا قول ابن عباس -[رضي الله عنهما-][1] : إنه عنى كما آمن أصحاب النبي عليه السلام وقول غيره أنه عنى كما آمن الذين أسْلَمُوا مِنَ اليَهُودِ مثل "عبد الله بن سلام". وأصحابه كلاهما صحيحٌ، لأن الفريقين يجري على ما اقتضاه فعل الإنسانية، وقوله تعالى: (قالوا أنؤمن) استعلامٌ على جهة النفي نحو **﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾**[2] ومعناه: لا نؤمن إيمان السفهاء تعريضاً بأصحاب النبي -عليه السلام-، والسفه: خفة في البدن وفي المقال يقتضيها نقصان العقل. والحلم رزانة في البدن يقتضيها زيادة [3] العقل، وعنه استعير "زمام سفيه"، و"رمح سفيه". إن قيل: كيف عذرهم بأنهم لا يعلمون؟ قيل لهم: ليس ذلك عذراً لهم، بل تعظيمُ أمرٍ عليهم وأنهم مع جهلهم يجهلون جهلهم كما قال :

جَهِلْتَ وَلَمْ تَعْلَمْ بأنَّكَ جَاهِلُ وَذَاكَ لعَمْرِي مِن تَمَامِ الْجَهَالَةِ[4]

وكل ما ذُم به الكفار من أنهم لا يعلمون ولا يبصرون ولا يسمعون فتنبيهٌ أنهم لم يستعملوا هذه الآلات ولم يتفكروا.

وقوله -عز وجل: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ .الآية (١٤)- سورة البقرة.

قال الخليل: كل شئ استقبلته وصادفته فقد لقيته، وأما ألقيته أي طرحته، فأصله جعلته بحيث يلقي أي يصادف، ثم جعل عبارة عن الطرح واللقي المطروح الذي لا يحجزه شئٌ عن لقاء المارة به. ولقى من اللقوة كنايةٌ[5] بذلك عنها، ثم كثر حتى صار معروفاً بالداء. و"خلا الإناء" صار خالياً، و"خلا فلانٌ بفلان[صار معه في خلاء والخلي: من خلاَّهُ الهم، نحو المطلق في قوله: يطلقه][6].طوراً وطوراً

١- ساقطة من (و - ج).
٢- سورة يس الآية (٤٧).
٣- في (أ - ص) وفور .
٤- لم أجده.
٥- في (و - ج) كتابة ، وهو تصحيف .
٦- ساقطة من (و - ج).

يراجع، والشياطين: جمع الشيطان، فقيل هو "فعلان" من شاط اذا احترق غضباً، وذلك لما قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾[1] ، وذلك لما خُص به من فضل القوة الغضبية، وقيل هو فيعال من شطن، أي تباعد، ومنه بين شطوان، وقيل للحبل الطويل شَطَنٌ، والشيطان كل عارمٍ[2] من الجن والإنس والحيوانات، وعلي ذلك قال الشاعر شياطين تنزوا[3] بعضهم على بعض [وقال: "إن شطان النئاب العُسَّل"،[4] وقال آخر: "ماليلة الفقير إلا شيطان"،[5] وسمى الحية شيطاناً لذلك، وقيل هو فعلان من قولهم: وقد شط على أرماحنا البطل، ومعنى الآية: أنهم يراؤن للمؤمنين، فإذا عادوا إلى مَرَدَتهم ادعوا أنهم معهم وعلى دينهم، وأنهم يستهزؤن بالمؤمنين،

وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ الآية:(١٥) - سورة البقرة -.

الهزء: إظهار جدٍّ يُرادُ به مزح أوَ ما هو في الظاهر كالمزح يقال: هزأت واستهزأتُ، نحو أجبت، واستجبتُ، والصحيح أن الاستهزاء إرتياد الهزؤ وإن كان قد يُعبر به عنه، وكذا الاستجابة في الأصل معناها مخالف للإجابة وإن كان قد يجري[6] مجراها، والهزؤ إذا أريد به المزح لا يصح منه تعالى، كما لا يصح منه اللعب واللهو وإطلاقه عليه، إما لأنه يراد به المجازاة، فسماه به إما لمقابلة اللفظ باللفظ إما مع مقابلة اللفظ مراعاة مطابقةٍ ما لكونه مماثلاً له في القدر، فسماه لذلك باسمه نحو قوله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾[7] وقوله تعالى: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾[8] ولأنه تعالى لما أمهلهم لتطول المدة التي يمكنهم أن يتوبوا فيها فلم يحصل ذلك منهم سمى إمهاله هزؤاً، ولأنه لما استدرجهم من حيث لا يعلمون[9] صار ذلك كالهزؤ، وإما لأن الهزؤ لما لم يخل

١- سورة الرحمن الآية (١٥)

٢- في (و-ج) عازم وهو تصحيف .

٣- تنزوا من (نزا) ، ونزا الفحل نَزْواً ، نُزُوّاً، ونزوانا أى: وثب: المعجم الوسيط - مادة (نزا)، وهى في (و-ج) تنروا وهو تصحيف ، وهذا الشطر ساقط من (أ-ص).

٤- لم أجده ، وأورده الراغب بلا نسبة في المفردات ص ٤٥٤.

٥- الرجز للشماخ ، وبعده :

ساهرة تودي بروح الإنسان   يدعى بها القوم دعاء الصمان

وهو في ديوانه - ص٤١٣ ، والملاحن - ص٥٢، واللسان (شطن)، ومفردات ألفاظ القرآن - ص٤٥٥.

٦- في (أ -ص) تجرى .

٧ - سورة الشورى : الآية (٤٠).

٨- سورة البقرة : الآية (١٩٤).

٩- إقتباس من الآية : (٤٤) - سورة القلم .

من العيب أطلق على العيب لفظ الهزؤ ونحو قوله: ﴿إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا﴾[١] أي تعاب، فالآيات لا يستهزؤ بها في الحقيقة ، أو لما تقدم في المخادعة وهو أنهم لما قدروا أنهم يهزؤن وقد عرف منهم الهزؤ كأنه يهزؤ بهم كما قيل: "من خدعك وقد عرفت خديعته فقد خدعته" أو لما روى في الخبر "إن المستهزئين بالناس في الدُّنْياَ يُفْتَحُ لهُمْ وهم في النار بابٌ إلَى الجَنَّة فيُسْرِعُونَ نحوَهُ، فإذَا صَارُوا إليه سُدَّ عليهم" وذلك قوله : ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾[٢] وعلى هذه الوجوه قوله : ﴿سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾[٣] وأصل المد الجر ومنه المدة، ومدّة الجرح، ومد النهر، ومدّه نهر آخر، وإمداد الجيش، وإمداد الإنسان بالطعام، وقال بعضهم:

أكثر ما جاء من الإمداد في القرآن فبالخير، نحو قوله تعالى: ﴿وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ﴾[٤] وقوله: ﴿نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ﴾[٥] وقال : **وما كان من المد فبالشرّ** نحو قوله تعالى: ﴿وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾[٦] وقال ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ﴾[٧] والطغيان في المصادر كالعدوان والكفران، يُقال : طغى يطغوا ويطغى، نحو صفا، وحكى: طغيت. والفرق بين عدا، وطغى، وبغى أن العدو أن تجاوز المقدار المأمور بالانتهاء إليه والوقوف عنده وعلى ذلك قال: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ﴾[٨] أي من تجاوز معكم المقدار المأمور بالانتهاء إليه، فتجاوزوا معه بقدره، لتكون العدالة محفوظة في المجازاة بالتعدي وأما الطغيان: فتجاوز المكان الذي وقعت فيه، وكأن من أخلَّ بما فُطِر عليه من المعارف العقلية والمواقف الشرعية فلم يراعها فيما يتحراه ويتعاطاه، فقد طغى، وعلى ذلك قوله: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾[٩] أي تجاوز الحد الذي كان عليه من قبل، والبغي: طلب تجاوز

١- سورة النساء :(الآية (١٤٠).

٢ – سورة المطففين – الآية : (٣٤)، وأورده القرطبي من رواية الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال فى قوله تعالي (وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا) هم منافقو أهل الكتاب ، فذكرهم وذكر استهزائهم ، وأنهم إذا خلوا إلى شياطينهم يعنى رؤسائهم في الكفر – على ماتقدم – قالوا إنا معكم على دينكم إنما نحن مستهزئون بأصحاب محمد صلي الله عليه وسلم ، الله يستهزئ بهم فى الآخرة ، يفتح لهم باب جهنم من الجنة ، ثم يقال لهم : تعالوا فيقبلون يسبحون فى النار والمؤمنون على الآرائك وهى السرر في الحجال ينظرون إليهم، فإذا انتهوا إلى الباب سد عنهم، فيضحك المؤمنون منهم، فذلك قول الله عز وجل : (الله يستهزئ بهم)، أى فى الآخرة، ويضحك المؤمنون منهم حين غلقت دونهم الأبواب، فذلك قوله تعالى : (فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون على الأرائك ينظرون) إلي أهل النار (هل ثوب الكفار ماكانوا يفعلون) تفسير القرطبي ج : ١: ص٥٥ طبعة دار الغد العربي كما أورده الراغب في المفردات ص٨٤١، وأخرجه البيهقي فيما روي عن ابن عباس في قوله تعالى : (الله يستهزئ بهم) بلفظه ومعناه فى كتابه : الأسماء والصفات ص٦١٦.

٣- سورة التوبة : الآية (٧٩).

٤ – سورة الطور : الآية (٢٢).

٥ – سورة المؤمنون : الآية (٥٥).

٦- سورة مريم : الآية (٧٩).

٧- سورة الأعراف : الآية (٢٠٢).

٨- سورة البقرة – الآية : (١٩٤).

٩- سورة الحاقة : الآية (١١).

قدر الاستحقاق تجاوزه أم لم يتجاوزه[١] ، وأصله الطلب، واستعمل في التكبر، لأن المتكبر طالب منزلة ليس لها بأهل، والعمه في البصيرة كالعمى في البصر، وهو التردد في الضلالة، يقال رجل عامهٌ وعَمَهٌ، فقوله تعالى: ﴿ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾[٢] يصح أن يتعلق بقوله : نمدهم فيكون ذلك عبارةً عن خذلانهم عن توفيقه لهم، لا لبخله عليهم، بل لسدهم طريقه على أنفسهم بإعراضهم عنه، ويصح أن يتعلق بقوله: "يعمهون"، ومعناه: يمدهم استصلاحاً لهم، وهم مع ذلك يعمهون [في طغيانهم ومثاله معنى وتقديراً قوله: ﴿ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾] [٣]

قوله تعالى ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ الآية:(١٦) - سورة البقرة .

المبايعة ضربان: مبايعة سلعة بناضٍّ، فيقال لدافع السلعة: بايع، ولدافع الناضّ مشتري، ومبايعة سلعة بسلعة أو ناضّ بناضّ، ويصح أن يقال لكل واحد منهما بائع ومشتري، وذلك بحسب ما يتصور في الثمن والمثمن فأي السلعتين تصورتها بصورة الثمن فأخذه بايع، والآخر مشتري، ولهذا الشأن[٤] صار البائع والمشتري من الأسماء المشتركة المعدودة في باب الأضداد والمشاراة وإن كانت موضوعة لمعاملة في أعيان علي وجه مخصوص فقد يتحرز بها في كثير من المعارضات فيقال لمن أفرح عن شيء في يده مخصلاً به غيره قد باعه به، وقد يقال ذلك لمن رغب عن شئ طمعاً في غيره. وقوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم ﴾[٥] الآية- ومعناه: أراد منهم أن يبذلوا مهجهم وأموالهم في سبيله، فيجعل لهم بذلك الجنة، فسمي ذلك شرى، وقد تقدم أن الهدى يقال على أربعة أوجه : الأول: لما جعله الله للإنسان بالفطرة، والثاني: لما جعله له بالوحي. والثالث: لما يكتسبه الإنسان بالفكر والنظر والعمل و الرابع: زيادة الهدى في الدنيا، وطريق الجنة في الآخرة. فكذلك الضلال على أربعة أوجه مقابل للهداية. فالأول: اضاعة الإنسان ما جعله الله له بالفطرة من العقل الغريزي، وذلك بأن لا يزكيه كما قال تعالى: ﴿ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾[٦]. والثاني: إضاعته لما أنزل الله تعالى على ألسنة الأنبياء. والثالث: لما يكتسبه الإنسان بالفكر والنظر والعمل. والرابع: أن بترك ما يستحق به زيادة الهدى في الدنيا والثواب فى [٧] الآخرة، وقد علم من هذا أن من الضلال ما هو

١- فى (و-ج) تجاوزه، وهو تصحيف.

٢- سورة البقرة - الآية :(١٥).

٣- سورة الانعام - الآية : (١١٠) وما بين المعقوفين ساقط من (و - ج).

٤- ساقطة من (أ - ص).

٥ - سوره التوبة : الآية (١١١).

٦ - سورة الشمس : الآية (١٠).

٧- فى (أ - ص) وثواب الآخرة .

كفر، ومنه ما هو ذنب صغير، وكذلك الهدى منه ما هو الإسلام، ومنه ما هو رفيق الورع، فكل من رغب عن منزلةٍ من الهدى إلى ضدها من الضلال، فقد اشترى ذلك الضلال بما يقابله من الهدى لكن منه ما يستحق به النار كالشرك، وكالكبائر، ومنه ما هو متجافٍ عنه كالصغائر، فإذا ثبت ذلك، فقول من قال: عنى به الذين أخلُّوا بالهدى الذي جعله الله لهم بالفطرة، وقول مجاهد: إنه عنى به الذين آمنوا ثم كفروا، وقول قتادة: استحبوا الضلالة على الهدى، وقول من قال: اشتروا النار بالجنة لا اختلاف بينهم إلا باختلاف النظرات فقط. وكذا قول من قال: من التزم فعلاً من الخيرات ثم أخل به فقد اشترى الضلالة بالهدى، ولما استعمل في ذلك المشاراة قال تعالى: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ﴾ (١)، والربح والخسران يُنسَبَان مرة إلى صاحب السلعة، ومرةً إلى السلعة، ومرةً إلى الصفقة، إذ لا اشتباه فيه، ونحوه قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ ﴾ (٢) ونفى أنهم كانوا مهتدين أي طالبين للهدى تنبيهاً أنهم لو طلبوه لوجدوه .

قوله عز وجل- ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ ﴾ الآية:(١٧) – سورة البقرة.

التمثيل : تصويرُ الخفي بالظاهر، وأصله من مثل إذا انتصبَ. والتمثال للشيئ المصور، وسمي الوصف مثلاً، إذ هو مثال للموصوف يدل عليه كالمثال في دلالته على ما هو مثال له، والمستوقد: طالب الوقود وآخذه، وقد يقال للموقد كما يقال للمجيب مستجيب. والنار حرارةٌ مخصوصة والنور والضياء وأحدهما مشتق من الآخر من حيث إنه قل ما ينفك أحدهما عن الآخر، ولهذا قال :﴿نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾(٣) فاستعمل فيه الاقتباس الذي هو للنار، ويقال: أضاءت الشيئ فضاء وأضاء والأظهر في الآية أن يكون متعدياً لإدخال حرف التأنيث فيه والآية مثل ضربه الله لمن آتاه ضرباً من الهداية والمعارف(٤) النفسية أو البدنية أو الخارجة، فأضاعه ولم يتوصل به إلى نعيم الأبد فإذا قول من قال ذلك هو فيمن آثر الضلالة على الهدى المجعول له بالفطرة، وقول من قال : هو في الذين آمنوا ثم كفروا، وقول من قال : هو فيمن أظهر الإيمان نفاقاً منه وحقناً لدمه،(٥) كل ذلك داخلٌ في عمومه، وكذا قول من قال إنه يعني من لم تصح له أحوال الإرادة، فارتقى منها بالدعوى إلى أحوال المحبة، فأذهب الله عنه ما جعل له من النور عبد الإرادة، فبقي متحيراً في حال الدعوى، وقد نبه تعالى بتشبيههم بمستوقد نارٍ أضيع نورها على حيرتهم أو نكسهم فيما أضاءه من الهدى، وقوله: (ذهب الله بنورهم) الأظهر أن يكون ذلك راجعاً إلى المشبه الذي هو في قوله: "مثلهم" دون المشبه به الذي هو

١- سورة البقرة – الآية : (١٦).
٢- سورة الزمر – الآية : (١٥) .
٣ – سورة الحديد : الآية (١٣).
٤- في (و-ج) والمعاون.
٥- في (و-ج) لديه، وهو تصحيف.

قوله استوقد ناراً، واختصر، ولو بسط الكلام، لقيل: "فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنارهم ذهابه بنورهم وقد قيل: إن ذلك يرجع إلى المشبه به، وأن الذي قد يستعمل في الجميع كاستعماله في الواحد- استدلالاً بقول الشاعر:

فإن الذي خانت بفلج دماءهم هم القوم [١]،**هم فقال:** استوقد رداً إلى لفظ الذي ثم قال بنورهم رداً إلى معنى الجمع، وإنما قال على هذا "بنورهم" ولم يقل "بنارهم"، لأن المراد من النار ههنا النور الذي يضيئ لهم الطريق فتركه[٢] إياهم في ظلمات إنما هو لتركهم إياه في قبول التوفيق منه، فلما تركوه تركهم كما قال تعالى: **﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾**[٣]، وإنما قال: فى"ظلمات" لأنه عنى ظلمة ضلال لهم، وظلمة همومهم في الدنيا، وظلمة يوم القيامة التي تنزه عنها الموصوفون بقوله تعالى **﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم﴾**[٤]، وقوله عز وجل **﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾** [٥] والصم صلابة من اكتناز الأجزاء، ومنه قيل: حجرٌ أصَمٌّ، وصخرة صماء، أو قناةٌ صَمَّاءُ، وقيل لرأس القارورة "الصمام" والبكم: اعتقال اللسان وأصله فيمن يولد أخرس والعمى يقال في عدم البصيرة والبصر[٦]، جميعاً، فمن ترك الإصغاء إلى الحكمة وأعرض عن طريق الآخرة واشتغل عن تعرف حالها ولم ينعم تدبرها صح أن يستعمل هذه الألفاظ فيه، فيقال: هو أصم عن سماعه، وأبكم عن تعرفه، وأعمى عن إدراكه، والآية مبنيةٌ على الآية الأولى، ومفسرةٌ بحسب تفسيرها، وقوله "لاَ يَرْجِعُونَ" أى لا يعودون إلى طريقة الرشد، وقيل معناه: "لا يرجعون جواباً" أى لا يردونه.

قوله تعالى **﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾**

الآيتان: (١٩ . ٢٠) - سورة البقرة.

الصيب: فيعل من "صاب" يصُوبُ، وذلك يقال للسحاب والمطر وإن كان الصيب في السحاب أكثر، والصوب يُقَالُ في المطر، وكأن المطر تُسمَّىَ صَوْباً لمجيئه على الصواب إما اعتباراً بالوقت المحتاج إليه فيه، وإما بالقدر المعتدل على حسب قوله تعالى **﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ﴾**[٧] وعلى طريقه نظر من وصف المطر بقوله..

١- لم أهتد إليه.
٢- فى (أ-ص) وتركه.
٣- سورة التوبة : الآية (٦٧).
٤- سورة الحديد: الآية (١٢).
٥- سورة البقرة الآية: (١٨).
(٦) في (أ-ص) عدم البصر والبصيرة.
٧- سورة الزخرف : الآية (١١).

فَسَقَى دِيَارَكَ[١] غَيْرَ مُفْسِدِهَا صَوْبُ الرَّبِيعِ وَدِيمَةٌ تَهْمِي[٢]

وأصاب السهم إذا توجه نحو الرمية على الصواب، وقد شبه العقل والقرآن بل العلوم كلها بالمطر والماء من حيث أنه سبب الحياة الأبدية، كما أن الماء سبب الحياة الدنيوية والسماء في هذا الموضوع يجوز أن يكون السحاب وأن يكون المطر، ومن فيه للتبعيض، وقوله "فيه ظُلُمَاتٌ" يقتضي معنى الإصطحاب، فلا فرق بين أن يقال : صيب فيه ظلمةٌ ورعدٌ- وأما الكلام في مائية الرعد والبرق فليس يليق بهذا الموضع، والصاعقة يستعمل في كل هائلٍ عظيم من مرئيٍّ ومسموعٍ، وإنما قال: "أو كصيب"، لأنه من حيث أنه يدل على أحد الشيئين، ويستعمل في الإباحة والتخيير، وفيه تنبيهٌ على أنه إن شبه بأحدهما فصواب، وإن شبه بهما فصوابٌ، وهذا المعنى في لفظه أو دون الواو، فإن قيل كيف وجه العطف في ذلك وقد قال في الأول "مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ" ناراً، ولا يليق أن يقال بعده: "أو كصيب"؟ قيل: قد أجيب عن ذلك بأنه أريد أو كاهل صيب من السماء، وقيل: إن ذلك عطفٌ على المعنى وذاك أن التشبيه تارةً يؤتى به مطابقاً للمشبه في اللفظ، وتارة يؤتي به على ما يقتضيه المعنى دون اللفظ،وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿ **مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ** ﴾[٣] ومعناه كحرثِ قوم ظلموا أنفسَهُمْ أَصَابَتْهُ ريحٌ، فروعي فيه المعنى دون اللفظ، وعلى ذلك قول الشاعر:

فَلابْنَةِ حَطَّانِ بْنِ عَوْفٍ مَنَازِلُ كَمَا رَقَشَ الْعُنْوَانَ في الرَّقِّ كَاتِبُ[٤]

وتقديره: كعنوان رقشه الكاتب، وهذا النوع من التشبيه يقال له: التشبيه الملفف، والآية تأولت على وجهين: أحدُهُما أنه شبه حال المتحيرين الذين اشتروا الضلالة بالهدى بمن حصل في ليلة مطيرة ومظلمة راعدة بارقة يخاف من أهوالها وصاعقتها ويسد أذنه خوفاً من أن يصعق ويكون هذا فى شغل[٥] الكلام بالمشبه به ووصفه بما يعظم من غير أن يكون فى تفاصيل صفة المشبه به[٦] ما يُرجع إلى المشبه طريقة العرب على ذلك قول لبيد.

أَفَتِلْكَ أَمْ وَحْشِيَّةٌ مَسْبُوعَةٌ خَذَلَتْ وَهَادِيَةُ الصُّوَارِ قِوَامُهَا[٧]

---

١ - فى (أ - ص) وبارك .
٢ - البيت لطرفة بن العبد ، وهو في ديوانه ص ٨٨ ، وفي تفسير القرطبي ج:١ - ص ٢٤٣ ، وفي مفردات ألفاظ القرآن للراغب - ص ٤٩٥ ، وفى بصائر ذوي التمييز - للفيروز آبادي - ج : ٣ - ص ٤٤٨ .
٣ - سورة آل عمران - الآية: (١١٧).
٤ - البيت للأخنس بن شهاب التغلبي ، وهو شاعر جاهلي قديم والبيت فى المفضليات ص ٢٠٤ ، وفي معجم الشعراء ص ٢٧ ، وفي سمط اللآلئ: ص ٧٣٠ ، والمؤتلف والمختلف ص ٣٠ والاشتقاق ص ٣٣٦ ، وخزانة الأدب ج : ٣ - ص ١٦٩ ، وشرح الحماسة للمرزوقي ص ٧٢٠ ، وشرح ديوان الحماسة للتبريزي - ج : ٢ - ص ٢٤١ ، وشرح اختيارات المفضل - ج : ٢ - ص ٩٢١ .
٥ - فى (أ - ص) من أسفل.
٦ - ساقطة من (أ - ص).
٧ - البيت فى معلقة لبيد.

فشبه الناقة بالوحشية ثم ذكر أنها مسبوعة مخذولة، ولا اختصاص للناقة بهذاالوصف.
والثاني: أنه شبه[١] ما آتى الله الإنسان من المعاون التي هي سبب الحياة الأبدية بالصيب الذي فيه حياة كل ذي حياة، وما فيه من المشاق المبهمة والعوارض المشكلة بظلمات، وجمع الظلمات تنبيهاً على كثرة العوارض، وشبه ما فيه من الوعيد بالرعد، وما فيه من الآيات الباهرة بالبرق، ثم ذكر كل واحد من هذه الأشياء فقال: إذَا سَمِعُوا وَعِيداً تصاموا عنه كحال من تهوله [٢] الرعد فيخاف من صواعقه، فيسد أذنه عنها مع أنه لا خلاص لهم منها وهذا معنى قوله: "اللّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ"، ثم ذكر أنه إذا رأوا لامعاً لهم إمَّا رشداً تدركه بصائرهم وإما رفداً ينفعهم اهتزوا له، فمضوا بنوره وذلك قوله "كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ"، ثم بين أنه إن اعترض لهم شبهةٌ أو عنّ لهم مصيبة تحيروا، فوقفوا، وذلك معنى قوله ﴿وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾ [٣] وقوله ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾[٤] تنبيهاً على أنهم يصرفون أسماعهم وأبصارهم عما فيه نجاتهم وتأمل ما فيه صلاحهم وإنما جعل الله لهم السمع والأبصار لينفعهم ولو شاء الله لجعلهم بالحالة التي يجعلون أنفسهم عليها بسدهما وتعطيلهما، وذلك تنبيهٌ على أنه إنما أعطاهم هذه الآلات لينتفعوا بها.

قوله عز وجل : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ الآية:(٢١) - سورة البقرة.

قد تقدم أن "الناس" يستعمل على وجهين أحدهما المشار به إلى الصورة المخصوصة، وذلك عام في الصغير والكبير، والعاقل وغير العاقل، والثاني المشار به إلى المختص بقوى[٥] العلم والعمل المحكم وهو المستعمل على طريق المدح، ولذلك يقال: فلان أكثر إنسانية من فلان، لاختصاص هذاالمعنى بقبول الزيادة والنقصان، وهذا المعنى هو المراد في هذا الموضع، والعبادة نهاية التذلل في الخدمة وبذل الطاعة وذلك في مقابلة أعظم النعم، ولا يستحقها غير الله تعالى، فهو الذي له أعظم النعم، و"العبادة" تقال في ثلاثة أشياء: اعتقاد الحق، وتحرى الصدق، وعمل الخير، وعبادة الله قد يكون في فعل المباحات كما يكون في آداء الواجبات وذلك إذا قصد بالفعل وجه الله وتحرى به مرضاته. وقد قال بعض الحكماء: "مباحات أولياء الله كلها واجبات" وواجباتهم نوافل" فقيل كيف يكون ذلك؟ قال : لأنهم لا يقومون على تناول مباح لهم كالأكل والشرب حتى يضطروا إليه، فيصير تناولها[٦] متحتماً ويلتزمون من الفرائض فوق ما يلزمهم حتى يصير فرضهم متنفلاً، وبهذا النظر قيل

---

١ - ساقطة من (أ - ص).
٢ - في (أ-ص) تهواه وهو تحريف.
٣ ، ٤ - سورة البقرة الآية: (٢٠).
٥ - في (أ-ص) بقوتي.
٦ - في (أ-ص) تناوله.

عن أكل الصالحين تنزل الرحمة تنبيهاً أنه لا يتناول إلا إذا اشتد به الأمر، ووجب عليه الأكل إمساكاً لرمقه. ألا ترى أن كثيراً من المحظورات يصير مباحاً عند الضرورات بل ربما يصير عليه من الواجبات. إن قيل: ما الفرق بين قوله : (اعْبُدوُ اللّٰه) وبين قوله (اعْبُدُوا رَبَّكُمْ) قيل في قوله (اعْبُدُوا ربَّكُمْ) إيجاب العبادة بواسطة رؤية نعمه التي بها تربيتهم وقوامهم، وفي قوله : (اعبدوا اللّٰه) إيجاب عبادته بمراعاته عز وجل من غير واسطةٍ وعلى ذلك قوله : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾[1] وقوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾[2]، فحيث ذكر الناس ذكر معه الرب، وحيث ذكر الإيمان ذكر اللّٰه- لما تقدم وأما الخلق فتقدير الأعراض الجسمانية وإيجادها، وقد يقال مفيداً للتقدير من غير إيجاد نحو قول الشاعر:

وَأَرَاكَ تَفْرِي مَا خَلَقْتَ وَبَعْضُ الْقَوْمِ يَخْلُقُ ثُمَّ لاَ يَفْرِي[3]

واستعمل الخلق في الأجسام والخلق في القوى والأفعال، وجعلَّ "خلقت" للتكوين، وأخلقت للإفساد، نحو فريت، وأفريت، وذلك نحو "أخلقت الثوب" فخلق وأخلق، ولما كان الشئ الحلِقُ كثيراً ما يلين قبل حجرٍ أخلق و"الصخرة [4]خلقاء" أي "ملساء"، ومن أجل أن "الخلقْ لا يستعمل إلا في إيجاد الأجسام وأعراضها امتنع قومٌ من إطلاق الخلق على القرآن، فراعوا فيه هذا الوجه دون الوجه الآخر، قالوا: ولا يكاد يقال في وصف الكلام مخلوق ومختلق إلا إذا أريد به المنقول المفتعل. وعلى هذا قال تعالى حكايةً عن الكفار في وصفه ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ خُلُقُ الأَوَّلِينَ﴾[5] ولا يكاد يستعمل الخالق مطلقاً إلا في وصف الله تعالى . وقيل في الجملة : يستعمل في المتقدم لكن ذلك على أربعة أوجه تقدم بالزمان نحو آدم قبل نوح عليهما السلام، وتقدم بالذات وهو في كل شيئين متى توهمت ارتفاع أحدهما ارتفع معه الآخر، وإذا توهمت ارتفاع الآخر لم يرتفع معه الأول، كالحياة مع العلم، وتقدم بالشرف، نحو تقدم الأمير للحاجب، وبهذا النظر استعمل العتيق في الشريف وإن كان موضوعه لما تقدم زمانه، نحو

---

١ – سورة النساء : الآية (١) ، سورة الحج : الآية (١) ، سورة لقمان : الآية (٣٣)

٢– سورة البقرة الآية:(٢٧٨)، سورة المائدة الآية(٣٥)، وسورة التوبة الآية(١١٩)، وسورة الأحزاب الآية(٧٠)، سورة الحديد الآية(٢٨)، وسورة الحشر الآية(١٨).

٣– البيت لزهير بن أبي سلمى ، وهو من قصيدة مطلعها :

لمن الديار بقنة الحجر ... أقوين من حجج ومن شهر

وهو في ديوانه ص ٢٩ ، وفي تفسير القرطبي ج : ١ – ص ٢٢٦ ، وفي تفسير البحر المحيط ج : ١ – ص ٩٣ ، وفي مفردات ألفاظ القرآن ص ٢٩٦ ومعنى تفري ما خلقت : أي إذا قدرت أمراً أمضيته.

٤– في (أ–ص) وصخرة.

٥– سورة الشعراء (١٣٧).

قولنا: تمر عتيق، وتقدم بالرتبة الوضيعة نحو قولنا: الواحد قبل الاثنين، وقوله: "الذين" هاهنا يتناول نوع العقلاء وغيرهم من جميع الأشياء، وفي ذلك تنبيهٌ أن الله تعالى خالقنا وخالق كل ما تقدمنا، وكل ما هو سبب في وجودنا وحصولنا من الآباء والأمكنة والأزمنة والسماء والأرض وسائر ما لو توهمناه[١] مرتفعاً لم يحصل، وأخرج الكلام مخرج المقرر عند المخاطبين أنه تعالى خالق الكل ومبدع الجميع، فعلم ذلك عندهم إما موجودٌ وإما ممكن وجوده، ولهذا قال ﴿ **وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ** ﴾[٢] ولعل ذكر بعضهم أن معنى مافى غاية [٣] القرآن، قال: لأن "لعل" للشك، والشك لا يصح على الله تعالى، فكما لا يصح أن يقول أرجو، وأشك وأظن، فكذلك لا يصح منه[٤] أن يقول "لعل" و"عسى" بمعنى ذلك فثبت أن معناه إذا أورده معنى ما. وهذا تصور بعيد، وذاك أن القائل إذا قال: "إفعل كذا لعلك تفلحْ يصح أن يكون "لعلك" حال للمخاطب بمعنى أنا طامع راج لفلاحك ويصح أن يكون للمخاطب بمعنى "وأنت طامع في فلاحك"، ولما دلت الدلالة أن الطمع إنما يكون لمن يخفى عليه العواقب، علم أنه لا يصح أن يكون لله تعالى إذا ورد في كلامه، فصار ذلك حال للمخاطب كأنه[٥] قال: "اعبدوا ربكم راجين تقاكم"، وإخراج الكلام على ذلك لأن من شرط المكلف أن يكون واقفاً بين الرجاء والخوف ولذلك قال في مدح المؤمنين ﴿ **يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا** ﴾[٦] وقال: ﴿ **يَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ** ﴾[٧]، وكذلك التقوى فقد تقدم أن لها ثلاث منازل: الأولى: ترك الكفر، والثانية: ترك المحارم التي تحظرها الشريعة، والثالث: حفظ الخواطر والنيات، والآخران اللذان رجانا هما الله تعالى هاهنا دون الأولى، إذ لا يصح فعل العبادة مع وجود الكفر، وحقيقة التقوى جعل النفس في وقاية من كل ما يبعد عن الله تعالى، ولهذا قال بعض المحققين: التقوى أن يتجنب الإنسان بغاية جهده الأخلاق الحيوانية، ويتخصص بالأخلاق الملكية، فلا يكون متكبراً كالنمر، ولا مهيناً كالكلب، ولا حقوداً كالجمل، ولا غمراً كالثور، ولا جاهلاً كالحمار- وقد نبه بالآية أن العبادة لله تعالى هي المبلغة بنا إلى نهاية التقوى التي يُسْتحق بها جوار الله تعالى، نحو قوله عز وجل: ﴿ **وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾[٨] وقوله: ﴿ **وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ** ﴾[٩].

قوله عز وجل: ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ﴾. الآية (٢٢) - سورة البقرة.

جعل: لفظٌ عام في الأفعال كلها، ويتصرف على ثلاثة أوجه: تارةً تجري مجرى صار، و"طفق"

---

١ - في (أ - ص) تصورناه .
٢ - سورة الزخرف : الآية (٨٧).
٣- في (أ-ص) عامة.
٤- ساقطة من (و-ج).
٥ - في (أ-ص) كما أنه ..
٦ - سورة السجدة : الآية (١٦).
٧- سورة الإسراء : الآية (٥٧).
٨ - سورة الحج: الآية (٧٧).
٩- سورة آل عمران : الآية (١٣٢).

فلا يتعدى مثل قولك جعل زيد يقول كذا، قال الشاعر:

وَقَدْ جُعِلَتْ قَلُوصُ بني سُهَيْلٍ مِنَ الأكْوَارِ مرتَعُها قَرِيبُ(١).

وتارةً تجري مجرى "أوجد، فيتعدى إلى مفعول واحد، نحو قوله تعالى: ﴿**وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ**﴾(٢)، وتارةً تجري مجرى صير وكون فيتعدى إلى مفعولين نحو قوله تعالى «جعل لكم الأرض فراشاً» وتقول جعلته خارجاً إذا حملته على الخروج وإذا أخبرت عنه بالخروج أو حكمت له سواء كان خارجاً أو لم يكن والفراش والبساط متقاربان وهو كل مافرش من ثوب أو غيره والبناء لكل مرتفع وحائط وغيره والقصد بالآية إلى ما جعله الله تعالى لنا من الآية الواصلة إلينا من السماء والأرض وما بينهما ودل على ذلك بأظهر الآلاء وأقربها من الحواس وقد بسط ذلك المعنى بأبلغ من هذا في قوله ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ**﴾(٣) وهذا المعنى على مقتضى ظاهر اللفظ.

وقد قال بعض المفسرين إن الله تعالي مع إرادته لهذا المعني جعل ذلك مثلاً فذكر أنه جعل الأرض فراشاً أي مركباً من قوله : « افترشت البعير» إذا ركبته ، (والسماء بناء) أي الجنة مقراً أو منزلاً ، وجعل مايصل الينا من الوحي والعلم ماء ، ومايثمر ه من الأعمال الصالحة التي هي سبب الحياة الأبدية ثمرات ، وهذا إذا جُعل مثلاً فليس ببعيد ، إذ قد عُلم أن السماء تُجعل مثلاً لكل منزلة رفيعة كقول الشاعر :

نالوا السماء فأمسكوا بعنانها ... حتى إذا كانوا هناك استمسكوا(٤)

ولامنزلة أرفع من الجنة ، ثم لما كانت الجنة في السماء على ماروي في الخبر صح أن يعبر به عنها وقد جعل الأرض مركباً لنا لما روى في الخبر : « اجعلوا الدنيا مطية تبلغكم إلي الآخرة ، واجعلوا الآخرة دار مقركم ومحط رحالكم ، وجعل الماء مثلاً للعلم والحكمة حتى قيل في قوله تعالي ﴿**وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ**﴾ (٥) أنه عنى بالماء القرآن بدلالة أنه علقه بالسماع ، وليس الماء مما يسمع ، وفي قوله عز وجل : ﴿**أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا**﴾(٦) أنه عنى به القرآن ، فذلك روي عن ابن عباس – رضي الله عنهما – ، ويروى أن رجلاً قال لابن سيرين :

١– البيت لرجل من بحتر بن عتود ، وصف الخزانة ج : ٩ ص ٣٥٢ ، ومعنى البيت ، ص٣١٠ ، شفاء الغليل بشرح التسهيل – ج : ١ – ص ٣٤٥ ، والأشموني – ج : ١ ص ٢٥٩ ، كما ذكره الراغب فى المفردات ص ١٩٧ تحقيق صفوان داوودي .

٢– سورة الأنعام : الآية (١).

٣ – سورة آل عمران : الآية (١٩٠).

٤– لم أعثر عليه.

٥– سورة النحل: الآية(٦٥). .

٦– سورة الرعد : الآية (١٧).

رأيت في منامي كأن ماءً يتبعني وأنا أهرب منه وكنت عطشان"، فقال إنه يُعْرَضُ عَلَيْكَ عِلْمٌ أنت مُحْتَاجٌ إلَيْه وتأبى أَنْ تَتَعَلَّمَهُ"، وجعل الثمر مثلاً لما يتحصل من الأفعال الصالحة عن ذلك البيان، وقد جعل الله تعالى الماء والثمر مثلاً في قوله **﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾**[1] الآية... وجعل بعضهم ذلك مثلاً [2] على وجه آخر، فقال: الأرض مثلٌ للأبدان، والسماء مثلٌ للعقل، والماء مثلٌ لما أفاض الله به علينا من العلوم المكتسبة التي تحصل بواسطة العقل. والثمرات التي جعلها الله رزقاً لنا مثلٌ لما يحصل من الأفعال التي تقتضيها العلوم والله أعلم. وهذا يكون أبلغ في المعنى، لأنه يحصل مع المعنى المحسوس معنى معقول. والله أعلم.

قوله عز وجل : ﴿ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ الآية:(٢٢) - سورة البقرة.

النِّدُّ والشِّبْهُ والْمُسَاوي والشكل والمثل متقاربة المعنى، لكن بينها فروق- فند الشيئ[3] هو المشارك له في الجوهر وإن خالفه في الكمية والكيفية وشبهه مماثله في الكيفية، وإن خالفه في غيرها ومساويه مماثله في الكمية كلها وإن خالفه في غيرها، وشكله مماثله في القدر والمساحة ويدل على هذاالفرقان إنه إذا قيل ما هذا؟ فيقال: ند كذا، أو يقال كم هذا؟ فيقال مساو لكذا، أو يقال: كيف هذا؟ فيقال: شبه كذا قنع المخاطب متى عرف المشبه به، ولو قال كم هذا؟ فيقال: شبه هذا أو قال كيف هذا؟ فيقال مساوٍ لهذا لم يقنع به، والمثل عام في جميع ذلك، ولهذا لما أراد الله تعالى نفى الشبيه من كل وجه خصه بالذكر، فقال: **﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾**[4]، وقال أبو عبيد: النِد" هو الضد، وهذا نظر منه إلى بعض الأنداد،

---

١ - سورة إبراهيم : الآية (٢٤).

٢ - في (٢-ص) مثلاً، وهو تصحيف.

٣ - في (و - ج) الند للشئ.

٤ - سورة الشورى : الآية (١١).

وذلك ان الشيئين قد يشتركان في الجوهر، ثم يختلفان في فصل ما، كالإنسان والفرس فإنهما مشتركان في الحيوانية، ومنفصلان في كثير من المعاني فمن اعتبر في مثل ذلك ما بينهما من الفصل قال: الند: هو الضد أو المخالف لأن أهل اللغة يطلقون الضدَّ عَلَى الْمتَقَابلَيْنِ، وعلى المختلفين كثيراً على ما يدل عليه كلامهم في الأضداد، وقوله: **﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَاداً﴾** عامٌ في النَّهْي عن الشرك المطلق وعن الدقائق المؤدية إلى الشرك المنبأ عنه بقوله: **﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾**[1] ، ولهذا قال ابن عباس- رضي الله تعالى عنهما[2] - في هذه الآية هو قول الرجل: (لَوْلاَ نُبَاحُ الْكَلْبِ لَدَخَلَ علىَّ اللّصُّ)، وقيل: هو نهيٌ لقومٍ كانوا يقولون : إن شاء الله وشاء رسول الله[3] فقال -عليه السلام: "**أمِثْلاَنِ أمِثْلاَنِ؟ قولوا إنْ شَاءَ الله**"[4] ، فأنزل الله هذه الآية. إن قيل: ما وجه قوله: "وأَنتُمْ تَعْلَمُونَ"؟ فإن ذلك إن جعلته خبراً مستأنفاً، فلابد له من ذكر معلمٍ يقترن به حتى يحصل به تمام الخبر، إن جعلته حالاً يصير تقديره: "لاَ تَجْعَلُواْ له أنداداً في حال علمكم"، وذلك غير صحيح، لأن جعل الأنداد محظور في كل حال، قيل إن ذلك حال للمنتهى، وليس الإتيان به شرطاً لقصر الحكم على هذه الحال، وإنما هو تنبيهٌ على قبح فعلهم، لأن مرتكب القبيح مع علمه بقبحه أعظم جرماً، وإذا قيل: "لا تكفر معانداً"، فذلك نهيٌ عن الكفر وعن العناد، فكذلك هذا، وعلى هذا قوله تعالى: **﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾**[5]، ثم قوله: (وأنتم تعلمون) عامٌ فيمن حصلَ له العلم بذلك، وفيمن له التمكن مع العلم به، فقد

---

١ - سورة يوسف : الآية (١٠٦).

٢ - ساقطة من (و - ج).

٣ - في (؟ - ص) وشاء رسوله.

٤ - الحديث أورده ابن كثير فيما أخرجه سفيان بن سعيد الثوري بسنده إلى ابن عباس قال: قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم «ما شاءالله وما شئت»، فقال: أجعلتني لله نداً؟ قل ما شاء الله وحده، «رواه ابن مردويه وأخرجه النسائي وابن ماجه من حديث عيسى بن يونس عن الأجلح به، وفي الحديث الآخر: «نعم القوم أنتم لولا أنكم تنددون تقولون ما شاءالله وما شاء فلان» تفسير ابن كثير- ج:١ - ص ٥٧، ٥٨.

٥- سورة المؤمنون : الآية (١١٧).

يصف من حصل له التمكن من الشئ الترشح له بذلك الشئ كتسميتهم العصير خمراً، الصبي ناطقاً، والنائم عالماً قد تقرر في عقل كُلِّ عاقلٍ إذا تأمَّل أدنى نظر أنه لابد للموجودات من موجدٍ لها يخالفها، يصح أن يقال لهم: "أنتُم تَعْلَمُنَ"، وبهذا الوجه قال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾(1)، ومعلومٌ أنهم لا يقولون ذلك إلا بأدنى تأمل واعتبار.

قوله عز وجل: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ الآية:(٢٣)- سورة البقرة.

قَد تقدم الكلام في الريب، وأما الفرق بين الشك والمرية، والريب والأرابة، والتخمين والحدس، والوهم والخيال، والحسبان والظن، فإنه يذكرها هنا إذا كانت معرفته نافعةً، فنقول:وبالله التوفيق: إن الشك هو وقوف النفس بين الشيئين المتقابلين بحيث لا يترجح أحدهما على الآخر بأمارةٍ، والمرية هي التردد في المتقابلين، وطلب الإمارة مأخوذ من مرى الضرع، أي مسحه للدر، فكأنه يحصل مع الشك ترددٌ في طلب ما يقتضي عليه الظن. والريب أن تتوهم في الشئ أمراً ما، ثم ينكشف عما توهمت فيه ، والأرابة أن تتوهمه، فينكشف بخلاف ما توهمت ، ولهذا قيل: "القرآن فيه أرابة وليس فيه ريب"، والتخمين توهمٌ لا عن إمارة. والحدس إسراع الحكم بما لا يأتي به الهاجس من غير توقف فيه مأخوذٌ من :حدس في سيره، أي أسرع، والوهم صورةٌ تتصورها في نفسك سواءً كان لها وجودٌ من خارج، كصورة إنسان ما، أم لم يكن له وجودٌ كعنقاء مُغْرِبٍ، وغزائل، والخيال تصور ما أدركه الحاسة في النفس. والحسبان: اعتقادٌ عن أمارة اعتدَدْت به، سواءً كان له وجودٌ في الحقيقة، أو ولم يكن وهو مشتق من: حسبت الحساب، والظن: أعم معنىً من ذلك كله، فإنه اعتقادٌ عن أمارةٍ ما مما قد ثبت، فمتى كانت تلك الأمارة ضعيفةً جرى مجرى "خِلْتُ

١- سورة يونس : الآية (٣١).

وحَسِبْتُ"، ومتى كانت الأمارة قويةً جرى مجرى "علِمْتُ"، وكتردده بين هذين. قال أهل اللغة: "ظننت" قد يكون بمعنى: "خلت"، وبمعنى: "تيقنت"، ومتى كانت الأمارة قويةً، ولحق بباب العلم استعمل معه "أن" الثقيلة والخفيفة منه نحو: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ﴾[١]، وقوله: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ﴾[٢]، ومتى كانت ضعيفة، استعمل معه "أن" المختصة بالمعدومين من الفعل، نحو قوله: ﴿تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾[٣]، وقد تقدم الكلام في الإنزال والتنزيل، وفي معنى العبد. وأما تخصيص إضافة العبد إلى الله في كثير من المواضع، فتنبيهٌ[٤] على مدحه في كونه مطيعاً له متصرفاً عن أمره، وأنه غير متعرجٍ على غيره، ولا مؤتمرٍ لسواه كمن سماهم "عبدة الطاغوت"، و"عبد الدرهم والدينار"، وتنبيه أنهم ممن وصفهم الله بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾[٥]، وتنبيه أنه يجري مجرى الملك الموصوف في قوله ﴿لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [٦]، ثم إضافته بنون الملوكية مبالغة في الاختصاص، وكل إضافةٍ إليه تعالى على هذه الوجه، فالمبالغة والسورة المنزلة في نحو:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَعْطَاكَ سُورَةً [٧]،

ويقال للمحيط بالمدينة "سورٌ" لحياطته بجملتها، وتسمية القطعة من القرآن بذلك لكونه كالمحاط [٨] بها إحاطة السور بالمدينة، أو لكونها منزلة ما من القرآن كما تقدم، ومن قال سؤرة بالهمز، فمن :أسأرت أي: أبقيت قطعةً، فكان ذلك قطعةً مفرزةً من جملته، وقوله:

---

١ – سورة البقرة – الآية : (٤٦)
٢ – سورة المزمل : الآية (٢٠).
٣ – سورة القيامة : الآية (٢٥).
٤ – في (أ – ص) فتنبيهاً.
٥ – سورة التوبة : الآية (١١١).
٦ – سورة التحريم : الآية (٦).
٧– هذا شطر بيت للنابغة الذبياني وعجزه : ترى كل ملك دونها يتذبذبُ والبيت فى ديوان النابغة ص ٥٤، ٥٥ وهو من قصيدة يعتذر فيها إلى النعمان بن المنذر (ملك الحيرة) ومطلعها :–

أتاني أبيت اللعن أنك لمتني ... وتلك التى أهتم منها وأنصب

ديوان النابغة. جمع وتحقيق وشرح : الشيخ / محمد الطاهر ابن عاشور . نشر الشركة التونسية للتوزيع . ط : سنة ١٩٧٦م. وهو فى ديوان النابغة بتعليق وشرح د/ حنا نصر الحيتي – ص ٢٥ ، وقد أورد الراغب البيت كاملاً فى مفردات القرآن – مادة – سور – ص ٤٣٤ – تحقيق صفوان داوودي.
٨ – في (و – ج) كالمخاط وهو تصحيف.

"من مثله"، قيل: من مثل القرآن، وقيل: من مثل النبي [عليه السلام][١] من البشر- تنبيهاً أن مثله ليسَ في طرق البشر، ومن على الوجه[٢] الأول: للتبعيض، وعلى الثاني: للابتداء.

قوله -عز وجل: ﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ .

الآية:(٢٣)-سورة البقرة.

الشهادة: تبين الشئ الحاضر، فقولهم: "شهد زيد" في المعنى من قولهم: "حضر" وإن كان قد يفسر به، ولما كان تبين الشئ على ضربين: تبين بالبصر، وتبين بالبصيرة، والحضور على ضربين: حضورٌ بالذات، وحضورٌ بالتصور، صارت الشهادة تستعمل على أوجه بحسب ذلك، فيقال ذلك لحصول قُربةٍ ومنزلةٍ، ومنه قليل: أستشهد فلان" و"هو شهيد"، كأنه حضر وتبين ما كان يرجوه، واستعمال ذلك فيه كاستعمال القريب نحو قوله: "الْمَلَائِكَةُ الْمقَرَّبُونَ" ولهذا المعنى قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾[٣]، وقال في الشهداء: ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[٤]، وقالوا: "أنا شاهد لهذا الأمر"، أي عارفٌ به متصورٌ له -إشارةً إلى قولهم" "لَئِن غِبْتَ عَنْ عَيْني لَمَا غِبْتَ عَن قَلْبِي".

وقالوا: "شاهده" أي: ناصره، وعلى نَحوه قال [تعالى][٥]: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾[٦] وقالوا: "صحبك الله، وأما الشهادة المتعارفة : فأصلها الحضور بالقلب والتبين، ثم يقال ذلك إذا عُبِّر عنه باللسان، ولذلك متى أطلقَ لفظ الشهادة على ما يظهر من اللسان دون حصوله في القلب عُدَّ كذباً، كقوله تعالى في المنافقين حيث قالوا : ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾[٧]، فكذبهم وقال: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾[٨] ثم يقال لكل ما يدل على شئٍ شهادة وإن لم يكن قولاً فقوله: (وادعوا شهداءكم) قد فسر على كل ما يقتضيه لفظ

---

١ - زيادة في (أ - ص).
٢ - في (و- ج) على الأوجه.
٣ - سورة الأعراف : الآية (٢٠٦).
٤ - سورة آل عمران : الآية (١٦٩).
٥- ساقطة من (و-ج).
٦- سورة التوبة : الآية (٤٠).
٧ - سورة المنافقون : الآية (١).
٨ - سورة المنافقون : الآية (١).

الشهادة. قال ابن عباس -رضي الله عنهما- معناه : أعوانكم، وقال مجاهد: معناه الذين يشهدون لكم، وقال غيرهما: أئمتكم نحو: ﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾[١]، وكأنما عنى بذلك الكبير الذي لا يبرم أمراً من دونهم كقولهم: "فلانٌ يحضر به النوادي وهو من أهل النجوى"، وبضده هجى من قيل فيه بيتُ:

مُخلفون، ويقْضي النّاس أمرَهم وهُمْ بغَيْبٍ وفي عمْياءَ ما شعَروا"[٢]

وأما الصدق: فإنه يُحَدُّ بأنه مطابقة الخبر المخبر عنه، لكن حقيقته وتمامه أن يتطابق في ذلك ثلاثة أشياء، وجود المخبر عنه على ما أخبر عنه، واعتقاد المخبر فيه ذلك عن دلالة وأمارة، وحصول العبارة مطابقاً لهما، فمتى حصل ذلك وُصِفَ بالصِّدْقِ المطلقِ، ومتى ارتفع ثلاثتها وُصِفَ بالكذب المطلق، ومتى حصل اللفظ والمخبر عنه و الاعتقاد وبخلافه، صَحَّ أن يُوصَفَ بالكذب.. ألا ترى أن الله تعالى كذب المنافقين في إخبارهم "إنك لرسول الله "لما كان اعتقادهم غير مطابق لقولهم؟ وإذا قال لك من اعتقد كون زيد في الدار، ولم يكن فيها صح أن يقال كذب، وإن كان قوله مطابقاً لاعتقاده. ولما كان اللسان ترجمانَ القلب، صح أن يقال: "صَدُقَ في اعتقاده أو كَذَبَ"، وقد يتجوز أيضاً بذلك في جميع الأفعال، فيقال لكل فعل جميل على ما يجب صدق، ولما كان بخلافه [قيل][٣] كذب، ويقال أيضاً لكل شئ يعتقد فيه اعتقاداًما فوجد مطابقاً لذلك صدق، وإن وُجدَ بخلافه كذب، ووجه الآية أن الله تعالى تحداهم بأن قال: ادْعُوا أعوانَكُم وأنصَارَكُمْ، واسْتَعِينُوا بكل ناصرٍ لكم غير الله الذي هو مفزع الكل، وانظروا هل في طوقكم الإتيان بمثله- تنبيهاً على أن ذلك لو أتى به محمدٌ من قِبَلِهِ لَقَدَرْتُمْ أنتم مع تظاهركم على الإتيان بمثله، ويجوز أن يكون قوله: (مِن دُونِ الله) ذماً لهم أي : ادعوا أعوانكم التي من عادتكم الاستعانة بهم الذين هم غير

---

١ - سورة القصص : الآية (٧٥).

٢- البيت للأخطل فى ديوانه - ص ١٠٩ ، وهو فى بصائر ذوي التمييز - ج : ٣ - ص ٣٥٣ بدون نسبة ، وهو أيضاً فى مقدمة جامع التفاسير ص ١٥٥ ، وفى مفردات ألفاظ القرآن ص ٤٦٧.

٣- ساقطة من (أ-ص).

الله، ويجوز أن يكون معناه (وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم الَّذِينَ لكُم دُونِ الله،) فإن الاستعانة به ليس بكم، وعلقه بقوله: (إن كُنتُمْ صَادِقِينَ) - تنبيهاً أن إقامة الدلالة على الشئ الصدق ليس يقصر، فعجزكم عنه دلالة على أنكم كاذبون في دعواكم.[1]

قوله عز وجل : ﴿ فإن لَّمْ تفعَلُوا ولَن تفعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾.الآية:(٢٤) - سورة البقرة.

لفظ الفعل أعم من معنى سائر أخواته، نحو: العمل، والصنع، والإبداع، والإحداث، والخلق، والكسب، وذاك أن الإبداع أكثر ما يقال في إيجاد عينٍ عن عدمٍ، وليس حقيقة ذلك إلا الله تعالى، والإحداث يقال في إيجاد الأعيان والأعراض معاً، والعمل لا يقال إلا ما كان عن فكرٍ ورويةٍ، ولهذا قُرنَ بالعلم، فقيل: عِلْمٌ وَعَمَلٌ، حتى قال بعض الأدباء: "قُلِب لَفْظُ" "الْعَمَل" عن لفظ "العلم" تنبيهاً أنه من مقتضاه، والصنع يقال لإيجاد الصورة في المواد، كالصياغة والبناء، فإن الصائغ يُوجِدُ صورة الخاتم والخلخال في الذهب والفضة، والبنَّاء يُوجِدُ صورة البناء في الطين، والكسبُ أكثر ما يقال في اجتلاب المنافع، وقد يقال أيضاً في اجتلاب المضار مقيداً، والخلق قد تقدم القول فيه، وقد أمر الله بالتقوى على ثلاثة أوجه، وخص بكل وجه عصابةً من الناس وذلك بحسب اختلاف مراتبهم من العلم ومكانهم من الإيمان، فالأول : حث الانسان على اتقاء عقوبة الله برؤية ذنوبه، وذلك في قوله: **﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾**[2]، **﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ﴾**[3]، والثاني : حثٌّ على

١ - في (٢ - ص) في دعواكم كاذبون.

٢- سورة آل عمران : الآية (١٣١).

٣ - سورة البقرة : الآية (٢٨١).

اتقائه برؤية آلائه ونعمه لقوله : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾[١]، والثالث: حثٌّ على تقواه برؤية وحدانيته دون الوسائط، وذلك في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾[٢].

وجعلها على ثلاثة مراتب حسب ما سَنَّهُ تعالى في سياسة الأصناف الثلاثة من الناس الخاصة والعامة، وبهذا الاعتبار قسمهم تعالى ثلاثة أقسام في قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾[٣]، وأشرف هذه المنازل "تقوى الله" تعالى[٤] من غير رؤية الوسايط بلا مخافة ولا رجاء، ولذلك عظم ثوابه بقوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ﴾[٥] وهم الأتقَوْنَ المعنيون بقوله تعالى : ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[٦]، والمعبر عنهم بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾[٧].. والوقود: الحطب الذي يوقد به، ولذلك فُسِّرَ بأنه دقاق الحطب، لأن الدقاق الذي يوقد به، ولما كانت نار الدنيا محتاجة إلى دقاق توقد به، ونار جهنم مستغنية عن ذلك، بل يكتفي في إيقادها بالناس وبالحجارة التي ليست من عادة النيران المشاهدة أن يتقدبها، عظم أمرها، ومن قال: أراد بذلك حجارة "الكبريت"، فإنما عنى أن الحجارة لتلك النار كحجارة الكبريت لنار الدنيا، وقوله: أُعِدَّتْ: أصله في العدد وهو الإحصاء، لكن العد يُتَجَوَّزُ به على أوجه، فيقال: شيءٌ معدودٌ ومحصورٌ للقليل مقابلة بما لا يُحْصِي كثرة، ويقال على الضِّدِّ من ذلك، وجيشٌ عديدٌ، وإنهم لذُو عددٍ، أي: كثيرة، وذلك مقابلةً بما لا يحتاج إلى حصره وتعداده لقلته، ولهذا قيل: أعددت هذا لكذا، أي جعلته معاداً للمعَدِّ له، يتناول منه بحسب حاجته إليه، وقد ألزمهم الله تعالى بهذه الآية الحجة بأنكم إن أتيتم بمثله، فقد أدحضتم حجته،

١- سورة النساء : الآية (١) ، سورة الحج : الآية (١) ، سورة لقمان : الآية (٣٣).
٢- سورة البقرة : الآية (٢٧٨) ، وسورة الحديد : الآية (٢٨) ، وسورة الحشر : الآية (١٨).
٣- سورة فاطر : الآية (٣٢).
٤ – ساقطة من (أ – ص).
٥ – سورة الطلاق : الآية (٢،٣)
٦ – سورة الحجرات : الآية (١٣).
٧ – سورة البينة : الآية (٧).

وإن لم تأتوا به لزمتكم الحجة، ووجب عليكم أن تتقوا عقابه. وفصل بين الشرط والجزاء بحكم جزم أن لا تأتوا بمثله، وذلك زيادةً في إعجازه[١] لوجود مخبره على ما أخبر به وذلك مثل قوله: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾[٢] الآية، فإن قيل كيف خص الكافرين بالنار دون الفاسقين؟ قيل: يجوز أن يكون أراد أن هذا الضرب من النار يُختص به الكفار، وهي المخصوصة أيضاً بقوله: ﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾[٣]، وقوله: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾[٤]، ثم إذا قيل: "أعد هذا لزيد" لا يقتضي أن لا يكون معداً لغيره، بل قد يكتفي بأعظم الشيئين عن الآخر نحو قوله: ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾[٥] لم يذكر معه البرد، فيكون النار على هذا الوجه للجنس، وعلى الأول للنوع..

---

١ - في (٢ - ص) إعجاز.
٢ - سورة الإسراء : الآية (٨٨).
٣ - سورة غافر : الآية (٤٦).
٤ - سورة النساء : الآية (١٤٥).
٥ - سورة النحل : الآية (٨١).

قـولـه - عـز وجـل : ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا ﴾ .

الآية:(٢٥) – سورة البقرة .

أصل بشرته تلقيته مني ببشرةٍ ووجهٍ طلْقٍ، وذاك أن من شأن من أتى بخبرٍ سارٍ أن يكون طلْقَ الوجه، ومن أتى بخبرٍ بخلافه يكون عابس الوجه، وقيل معنى بشرته: أطلقت بشرته بما أخبرته فإنَّ مَنْ ناله سرورٌ، طَارَ دمه منتشراً في صفحة وجهه، ومن ناله سوءٌ يقيض دمه فاصفر أو اسود، وقيل: بشرته: أظْهَرْتُ له خبراً دلت بشرته على المسَرَّة به، أي ظاهره، فاستعير لظاهر الخبر البشرة، وذلك لكثرة ما يدل وجه الشئ على باطنه، فإن قيل: فإن كانت البشارة للأخبار السارة، فما وجه قوله تعالى:
﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[1] ؟ قيل إن مثل ذلك قد يستعمل على سبيل التهكم نحو:

"تحِيَّةُ بَيْنِهِمْ ضَرْبٌ وجيعٌ[2]"

تنبيهاً أن السارَّ لهم الإخبار بالعذاب الآليم، فما الظن بما وراءه؟ والإيمان لما كان في الأصل للتحقيق والتصديق، قيل: ما ذكره الله تعالى إلاَّ قَرَنَ به الأعمالَ الصالحةَ، تنبيهاً أن[3] الاعتقاد لا يغني من دون العمل، فالعلم أُسٌّ والعمل بناءٌ، ولا غناء للأس مَالَمْ يكُنْ بنَاءٌ، كما لا بناء مالم يكن له أسٌّ، ولذلك قيل: "لولا العَمَلُ لم يُطلب علْمٌ"، وَلولا العلم لم يكن عملٌ، فإذاً: حقهما أن يتلازما . والجن: أصله المستر[4] عن حسِّ الْبَصَرِ، وسمى الجن لاستتاره عنه، ثم اشتق من الجن، فقيل جُنَّ فُلاَنٌ، وَبنى على فعلْ نبأ" عامة الأدواء نحو:

---

١ – سورة الإنشقاق : الآية (٢٤).

٢ – . في (و – ج) وجمع وهو تحريف وهذا عجز بيت لعمرو بن معد يكرب، وصدره:

وخيل قد دلفت لها بخيل.

وهو في البصائر – ج: ٢–ص ٢٠١، وخزانة الأدب ج: ٩ –ص٢٥٢، وديوانه– ص١٤٩، والخصائص– ج:١ – ص٢٦٨، وشرح أبيات سيبويه – ج:٢–ص٢٠٠، والمقتضب – ج:٢ – ص ٢٠، وتفسير الطبري ج:١–ص ٣١٠، كما ورد في مفردات الراغب ص: ١٢٦، ص ٨٣٥.

٣ – ساقطة من (أ – ص).

٤ – في (أ – ص) الستر.

"زَكَمَ" و"حُمَّ"، ولَقِيَ"، والجَنان: القلب، لكونه مستوراً عن البصر، و"جَنَّ الليل"، والمجنُّ لذلك، وقيل للبستان ذي الأشجار جَنَّة، لاستتاره بها، والجنة قيل: [تسمى تشبيهاً][١] بجنةٍ الأرض وإن كان بينهما بونٌ، وقيل: سُمِّيَتْ بذلك، لأنه سُتِرَ في الدنيا حقيقةُ ما أُعِدَّ الناس[٢] فيهَا من عظَم الآلاء، وبذلك أخبر تعالى في قوله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾[٣]، وإنما قال: "جَنَّات" بلفظ الجمع لما قال ابن عباس- [رضي الله تعالى عنهما][٤] "إنَّ الْجنَانَ سَبْعٌ: جَنَّةُ الفرْدَوْسِ، وَجَنَّةُ عَدْنٍ، وَجَنةُ النَّعِيمِ، وَجَنَّةُ الْمَأْوَىَ، ودارُ الخُلْدِ، ودَارُ السَّلَامِ، وَعِلِّيُّونَ"، والجري: المرُّ السَّرِيعُ، ويقال ذلك في الماءِ والرِّيَاحِ والسَّحَابِ والْفَرَسِ، ويقالُ للرسولِ والوكيل المتحقَّقَيْنِ في الحال[٥] جَرْيٌ، والإتيان: عام في المجيء والذهاب وفيما كان طبعاً[٦] وقهرياً، والآتي: يقال للماء الجاري، ولما وقع فيه من خشبٍ ونحوه، ولمجرى الماءِ الْقَرِيبِ أيضاً. إن قيل: لم قال: (تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنْهَارُ) وقد عُلِمَ أن الماء في البساتين إذا كان جارياً على وجه الأرض أحسنُ منها إذا كان جارياً تحتها؟ قيل: عنى أنهاراً جاريةً تحت الأشجار، لا تحت الأرض، وقد روي عن مسروق ما يدل على ذلك، وهو أن كل أنهار الجنة تجري في غير أخاديد[٧]. إن قيل: كيف قالوا: ﴿هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾[٨] وما كان من قبل قد فنى وعدم؟ قيل: لفظة "هذا" وأخواته يشار بها إلى العين الموجودة طوراً، وإلى النوع والجنس طوراً. والنوع من حيث ما هو نوعٌ ليس يفنى، وإنما الذي يفنى هو الجزئيات، وعلى ذلك تقول في الإشارة إلى نهرٍ جار: "هذاالماء

---

١ – ساقطة من (أ – ص).

٢ – ساقطة من (أ – ص).

٣ – سورة السجدة : الآية (١٧).

٤ – ساقطة من (و – ج).

٥ – في (أ – ص) في الحاجة.

٦ – في (أ – ص) طبعياً.

٧ – في (و – ج) على غير أخاديد.

٨ – سورة البقرة : الآية (٢٥).

لا يفنى" وأنت لا تعني بذلك الجزئيات المشاهدة منه، وإنما تعني به النوع المعلوم وقوله: (مِن قَبْلُ) هو للمتقدم، فقيل: عنى بذلك ما أتوا به قبل ذلك في الجنة، وإليه ذهب الحسن ويحي بن أبي كثير، فقال: "إذا أُوتي أحدهم بصَحْفَةٍ فيأكل منها ثم يؤتى بآخر، فيقول : هذا الَذي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ، فيقول له الملك: كُلْ فاللون واحدٌ والطعم مختلفٌ".، وقال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما : (رُزِقْنَا مِن قَبْلُ) أي في الدنيا شبهه. وابن جرير رجَّحَ هَذَا الوجه، وقال: إن قوله: (كُلَّماً) عام يقتضي أنهم قالوا ذلك في كل مرة من غير تخصيص، ومتى جعل ذلك للأولى، اقتضى أن يكون ذلك مخصوصاً خلاف ما يقتضيه عموم الآية، وقال بعض المفسرين قول ابن عباس -[رضي الله عنهما][1] - في قوله: (هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ) أي: في الدنيا، يعني ثواب ما رُزقنا من المعارف كقوله: ﴿ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[2]، قال: ويدل على صحة هذا أن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: "لَيْسَ في الْجَنَّةِ مِنْ أَطْعَمِةِ الدُّنْياَ إلاَّ الأَسْمَاءُ"، والمتشابه: المتَماثل في الكيفية، ولهذا يقال فَيما لا يتميز أحدهما عن الآخر مُتَشَابِه، وكذلك للواقع من الكلام بين معنيين فصاعداً ومتشابه والشبهة في الشئ ما يقع فيه من مشابهة الغير، فقوله:﴿ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا ﴾، قيل: هو تفسير لقوله: ﴿ هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ﴾ أي يشبهه اسماً ولوناً لا طعماً وحقيقةً وقيل: عنىَ به متماثلاً في الكمال وأن لا تقارب[3]، فيه كأطعمة الدنيا، وقال بعض المفسرين: إن الآية مثلٌ لا على الحقيقة، وقد نبه على كونه مثلاً بقوله بعده: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾[4]،، والأنهار مثلٌ لمجاري الخيرات، كقولك: ينابيع الحكم، وأنهار الفعل والرزق لم يُعْنَ به ما يُؤْكَلُ فقط، وإنما هو كقولك: "رُزِقْت فهماً وعلماً"، والثمرة: اسمٌ

---

١ - زيادة من (أ - ص).

٢ - سورة العنكبوت : الآية (٥٥).

٣ - في (أ-ص) لا تفاوت.

٤ - سورة البقرة : الآية (٢٦).

لما يَتحصَّلُ عن الشئ، كقولهم :"ثَمَرَةُ الْعِلْمِ الْعَمَلُ الصَّالِحُ، وَثَمَرَةُ الْعَمَلِ الصَّالِحِ الْجَنَّةُ"، ومعناه: كُلَّماَ أُعْطُوا في الجنة جزاءً لما رزقوا من المعارف والأعمال، (قالوا هذا الذي رزقنا من قبل)، أي: هَذَا ثوابُ الذي وُفِّقْنَا لَهُ في الدُّنيا. وهذا القول وإن كان لمجازه مَسَاغٌ في اللغة، فهو ترك لما روي عن السَلَف في تفسير الآية، وقد طعن في هذه الآية وأمثالها من الآيات قومٌ من المتفلسفين والطبيعيين، وقالوا: "إن الجنة لاَ يَصحُّ فيها الأَكْلُ والشرْبُ، فإن الأَكْلَ لا يطيب إلا عن جُوع، والجوع مرضٌ وأذًى، والأَكْلُ مداواةٌ له، ولا مَرَضَ ولا أَذَى بوجهٍ في الجنة، ثم إن الطعام يصير بعضه ثقلاً بعد طبخ المعدة إياه فيخرج من البدن، وبعضه يصير غذاءً يزيد في البدن بقدر ما يتحلل منه، وإلاَّ خرج به البدن عن الاعتدال. وكل ذلك لا يصح إلاَّ في دَارِ الكون. والفَساد دون دار الخلد والبقاء". وهذا كلام من نظر إلى الأجساد في الآخرة نظره إليها في هذه الدنيا، وهي مركبةٌ تركيباً مُعَرَّضاً للاستحالات، ولم يعلم أن الله تعالى [قادر على أن][1] يعيدها إعادةً لا تعْتَوِرُهَا الاستحالات، ويجعل لها أطعمةً يُتَلَذَّذُ بها، فلا يكون لها ثِقلٌ ولا تغَيرٌ منكرٌ، وقد دل على ذلك تعريضاً وتصريحاً، أما إعادتها على وَجْهٍ معرى من الاستحالات، فقوله تعالى ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لا تَعْلَمُونَ﴾[2]، وبقوله عليه السلام في أهل الجنة: (جُرْدٌ مُرْدٌ مُكْحُولٌ)[3]، وأما إن أطعمتها لا يستحيل فبقوله عليه السلام: (إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لاَ يَبُولُونَ ولاَ يَتَغَوَّطُونَ، إِنماَ هُوَ عَرَقٌ يَجْرِي مِنْ أَعْرَاضِهِمْ مِثْل المِسْك)[4].

---

١ – ساقطة من (١ – ص).
٢ – سورة الواقعه : الآية (٦١).
٣ – الحديث عن معاذ بن جبل أن النبي ﷺ قال :
«يدخل أهل الجنة الجنة جرداً مرداً مكحلين ، بناء ثلاثين أو ثلاث وثلاثين سنة» . أخرجة الترمذي ، وقال : حسن غريب وأورده الإمام أحمد فى مسنده ج:٢ – ص ٢٩٥ وأورده الراغب فى مفرداته ص ، ٧٦٤
٤ – الحديث رواه البخاري ومسلم من حديث جرير عن عمارة بن القعقاع عن أبي زرعة عن أبي هريرة قال. قال رسول الله «صلى الله عليه وسلم» «أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر والذي يلونهم على ضوء أشد كوكب دري في السماء إضاءة، لا يبولون، ولا يتغوطون، ولا يتفاون، ولا يتمخطون. أمشاطهم الذهب. ورشحهم المسك، ومحابرهم الألوة، وأزواجهم الحور العين، أخلاقهم على خلق رجل واحد على صورة أبيهم آدم ستون ذراعاً في السماء» وأورد ابن كثير في تفسيره – ج: ٤ – ص ٢٩٣.

ويقول ابن عباس "رضي الله عنهما:« لَيْسَ في الْجَنَّةِ شَيْءٌ مَا في الدُّنْيَا إلا أَسْمَاؤُهَا » فإنَّ الله تعالى سَمَّى الْمَاءَ وَاللَّبَنَ وَالْخَمْرَ والْعَسَلَ والسُّنْدُسَ والْحَرِيرَ والْمِسْكَ والزَّنْجبِيلَ، وَوَصَفَ لَكمْ مَا في أيْدِيكُمْ لِيَحْلُوَ عِندَكُمْ، ولكي تهتدي [1]، إليه قُلُوبُكُمْ. وليس لهذا القول منه وجهٌ إلا التوقيف، إذ لا مدخل للاجتهاد فيه، وروي أن يهودياً سأل النبي ﷺ "أتزعم أن في الجنة نكاحاً وأكلاً وشرباً، ومن أكل وشرب كانت له عذرةٌ؟ فقال النبي – عليه السلام–: «**وَالَّذِي نَفْسِي بيَدِه إنَّ فِيهَا أَكْلاً، وشرْباً» ونكاحاً، ويخرج منهم عَرَقٌ أَطْيَبُ مِن رِيحِ الِمسْكِ"، فقال رجلٌ: صَدَقَ رَسُولُ الله، خلق الله دوداً يأكل مما تأكلون، ويشرب مما تشربون ، فيخلف غَسَلا سَائغاً»، فقال عليه السلام: «هَذَا مَثَلُ طَعَامِ أَهْلِ الْجَنَّةِ»**. وفي هذا إشارةٌ عجيبة، فإنه إذا أمكن أن يأكل دود أطعمةً مستحيلةً، فتخلف جنساً طيباً يبقى أطول مدةٍ، فلا يلحقه فسادٌ، فكيف ينكر أن يتناول أهل الجنة طعاماً معرّى من العفونات والاستحالات، فيخلف منه مسك؟ والذي يستبعده بعض الناس من ذلك هو أنهم يريدون أن يَتَصَوَّرُوا أبْدَاناً متَنَاوِلةً لأطعمةٍ لا استحالة فيها ولا تَغَيُّرَ لها، ولا يكون منها فضولات، وتصوُّرُ ذلك محالٌ، وذاك أن التصور: هو إِدْرَاكُ الوهم خَيَالَ ما أدْرَكَهُ من الحس وما لا يُدْرِكُ الحسُّ جُزْءَهُ ولا كُلَّهُ، كيف يمكنه[2]، تصوره؟ وَلَوْ كَانَ للإنسان سبيلٌ إلى تصور ذلك، لما قال تعالى: ﴿**فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ**﴾[3]، ولما قال "عليه السلام" مخبراً عن الله تعالى: (**أعددت لعبادي الصالحين مالا عين رأت، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر**)[4]، وجملة الأمر: يجب أن يكون معلوماً أن النُّقْصَانَاتِ مَنفيَّةٌ عَن الْجَنَّةِ، لأنها من الأعدام، وَلَيْسَ في الْجَنَّةِ أَعْدَامٌ، إِذ الْجَنَّةُ في غَايَةِ الْكَمَالِ وَ التَّمَام..

---

١ – في (١ – ص) ولتهتدي.

٢ – في (١ – ص) يمكن.

٣ – سورة السجدة : الآية (١٧).

٤ – هذا جزء من حديث رواه البخاري عن أبي هريرة فى بدء الخلق – فتح الباري ج:٦ – ص ٣١٨ – رقم ٣٢٤٤ ، وأورده ابن حجر العسقلاني فى فتح الباري – كتاب التفسير – ص ٤٦١ ج رقم : ٩٧٧٤ .

قوله - عز وجل: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ الآية:(٢٥) سورة البقرة.

الزوج: يُقَالُ لِكُلِّ واحدٍ من القرينين من الذَّكَرِ والأنثى في الحيوان المتزاوجة، ومن القرينين في غيرهما، كزوج الخُفِّ والنَّعْلِ، ولكل ما معه آخرُ مقارنٌ له- مُمَاثلاً كان أو مُضَاداً، مُرَكَّباً مَعَهُ أَوْ مُفْرَداً، فقوله تعالى: **﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾**[١] أي أَشْكَالَهُمْ وَمُوَافقيهِمْ في الدِّين، ولم يُرد الرَّجُلَ وَحَلِيلَتَهُ، فقد تكون تحت المؤمن الكافرة وتحت الكافر المؤمنة، وقوله تعالى : **﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾**[٢] أي اثنين، إمَّا من حيث الأعداد، أو من حيث التركيب- تنبيهاً أنه تعالى هو الْفَرْدُ من كُلِّ وَجْهٍ، وَمَاسِوَاهُ زَوْجٌ من وجهٍ ما، والزوجية: أي أنثوية يُقْتَضَى كونُهَا مُحْدَثَةً، والتطهير يقال في الأجسام والأخلاق والأفعال جميعاً، وقيل في قوله: **﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾**[٣]. أي نفسك نقها من الأوساخ، وذلك مخاطبة للكافة[٤] وإن كان لفظه للنبي- عليه السلام-، وقال تعالى: **﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾**[٥]، ومعلوم أنه تعالى لم يرد تطهيراً عن نجاسة في ثوب وبدن، وإنما أراد تطهير النفس الذي يستحق به المدح والخلود والبقاء الدائم وأصله لما يطول مكثه، ومنه قيل للأثافي والأحجار "خَوَالِدُ"، والخُلْدُ: اسمٌ للجزءِ الذي يبقى من الإنسان على حالته ما دام حيّاً...

١- سورة الصافات : الآية (٢٢).

٢ - سورة الذاريات : الآية (٤٩).

٣ - سورة المدثر : الآية (٤).

٤ - في (و - ح) مخاطبة الكافة.

٥ - سورة الأحزاب : الآية (٣٣).

قوله عز وجل : ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ﴾. الآية (٢٦) سورة البقرة.

الحياءُ: عَارِضٌ للفرع مِن النَّقيصَةِ، وذلِكَ بَيْنَ الْوَقَاحَةِ والْخَجَلِ، فَإِنَّ الْوَقَاحَةَ هي الْجُرْأةُ عَلَى الأفعال الْقَبيحَةِ مِنْ غَيْرِ مُبَالاةٍ، وَ الخَجَلَ انْحِصَارُ النَّفْسِ عن الفِعْلِ، والْحَيَاءُ مأخوذٌ من لفظ (الحياة) التي يرادَ بها العلم والعقل، ووجه ذلك أنَّ الْحَيَاءَ أُسُّ الْعَقْلِ، إذْ هُوَ أولُ أَمَارةٍ منهُ تَظْهَرُ من الصَّبِّي، ولهذا قال عليه السلام: **«مَنْ لا حَيَاءَ لَهُ لا إيمَانَ لَهُ»**[1]، لأن الحياء أوَّلُ منزلةٍ من العقل، والإيمَانُ آخِرُ مَنزِلَته، وَمُحَالٌ أن يَحْصُلَ آخِرُ المنزلَة لمن لَمْ يَحْصُلْ لَهُ الأولى[2]، وأماالحياء الذي هو الفرح، فَسُمِّي بِذَلِكَ لِكَوْنِه مُسْتَحَبًّا من ظُهُوره، ومن أجل ذلك قيل: "شَوَّرْتُ لِفُلانٍ" أي خَجَّلْتُهُ خَجَلَ مَنْ يَظْهَرُ شوارُه أي فَرَحُهُ، والضَّرْبُ أصله وقع شئ على شئ، ثم تُجُوِّزَ بِهِ على أنظارٍ مختلفةٍ، ولما قيل: "ضَرَبْتُ الدِّرْهَمَ"، و"دِرْهَمٌ ضَرْبٌ" أي مَصْوغٌ، استعير منه: "ضَرَبْتُ الْمَثَلَ" والكلام في المثل، والمثل قد تَقَدَّمَ، وما في قوله: "مثلاً ما" للمبالغةِ في التَّنكيرِ، فَإِنَّ "ما" في الخبر إما أن تكون معرفةً، فتكون موصلةً، أو نكرةً، وذلك على ثلاثة أوجه: إما موصوفةٌ نحو قوله:

رُبَّ مَا تَجْزَعُ النُّفُوسُ مِنَ الأَمْـ ... ـرِ لَهُ فُرْجَةٌ كَحَلِّ الْعِقَالِ[3]

أو مبتدأً بلا صفة وذلك في قولهم: "مَا أَحْسَنَ زَيْداً" على مذهب "سيبويه"، وإما تابعاً

١- قال بن الفرس: ضعيف، وفي إسناده من لم يُعرف - انظر : كشف الخفاء - للعجلوني - ج :٢ -ص٣٧٢ - حديث ٣١٣٧.

٢ - في (أ - ص) الأول.

٣- هذا البيت من شعر أمية بن أبي الصلت كما في ديوانه - ص ٤٤٤ وهو من قصيدة مطلعها :-

سمع الله لابن آدم نوح ... ربنا ذو الجلال والإفضال

وقد ينسب إلى عبيد بن الأبرص أو ابن صرمة ، أو إلى أبي قبيس اليهودي ، وهو من شواهد سيبويه الجزء الأول - ص ٢٧٠ ، ص ٣٦٢ ، والمقتضب ج:١ - ص ٤٢ ، والأمالي الشجرية - ج:٢ - ص ٢٣٢ ، وابن يعيش- ج:٤ ص ٢ ، ج:٢ - ص ٥٤١ ، ومعاني القرآن - للأخفش - ج : ١٠ - ص ٣٦. خزانة الأدب ، ج : ٦ ، ص ١٠٩ - كتاب الشعر ج : ١ - ص ٢٦٣.

لاسمٍ منكور- تنبيهاً أنه لم يقصد به معين، نحو: "رَأَيْتُ رَجُلاً ما"، وقوله: "فَمَا فَوْقَهَا"، قيل معناه: مادونَهَا، وإنما عنى ما فوقها في الصِّغَر، ففسره بِدُونٍ، فظن بعض أهل اللغة أن فوق يكون بمعنى "دون"، فأخرجه في جملة ما صنف من الأضداد. والْحَقُّ: لفظٌ عامٌ لصِدْقِ الْمقَالِ وصوابِ الفعالِ، يقال: قولٌ حقٌّ، كقولك صواب، وقيل: الحَقُّ هو الذي لا يزاحمه في ذاته ضدٌّ، ولهذا وُصِفَ الله تعالى به في قوله: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾[1]، والإرادة منا تقتضي نُزُوعَ النفس إلى الشئ مع الحكم بأنه ينبغي أن يفعل، وأن لا يفعل، وإذا وصف الباري تعالى، فلا يصح أن يكون فيه النزاع، إذ هو مُنَزَّهٌ عن ذلك، والاختيار أَخَصُّ من الإرادة، فإن فيه مع الإرادة دلالةً من اللفظ على تفضيل أحد الشيئين على الآخر، والإيمان ههنا: الاعتقاد الصادر عن العلم وإن كان في التعارف يقتضي مع الاعتقاد قولاً وعملاً بحسب مقتضاه، والكفر ههنا: الاعتقاد الكاذب عن تخمين، ومعنى الآية: أن الكفار لما سمعوا النبي ﷺ وقد تلا عليهم قوله: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾[2] وقوله: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾[3] قالوا: لا يستحي ربك عن ذكر الذباب والعنكبوت؟، فأنزل الله تعالى ذلك -تنبيهاً- أن الاعتبار بالحكمة لا بصغر الجثة وكبرها، ان قيل: من حق مطابقة قوله [تعالى][4]: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ أي يقول: (وأما الذين كفروا فلا يعلمون)؟، قيل: لما كان الإيمان صادراً عن العلم، والعلم يقتضي سكون النفس وطمأنينة القلب، وذلك لا يقتضي مراجعةً ومساءلةً ذكر مقتضاهولما كان الكفر منبع الجهل التام[5] وتمام الجهل والاعتراض[6] على الحق على

---

١ - سورة النور : الآية (٢٥).

٢ - سورة العنكبوت : الآية (٤١).

٣ - سورة الحج : الآية (٧٣).

٤ - زيادة من (أ - ص).

٥ - في (أ - ص) الجهالة التامة.

٦ - في (و - ج) الإعراض ، وهو تصحيف.

سبيل الإنكار، نبه بإنكارهم لما لا يعرفونه على تمام جهلهم[١]، وقوله: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ﴾[٢]- [قد تقدم][٣] الكلام في الإضلال والهداية، فأما الفاسق: فهو الخارج عن حجر الإيمان من قولهم:"فسق الرطب عن قشره"، وكل كفرٍ فِسْقٌ، وليس كل فِسْقٍ كُفْراً، وأكثر ما يقال الفاسق لمن التزم[٤] فسق [٥]حكم الإسلام، وأقرَّ به أو ببعضه، ثم أخَلَّ به، وإذا قيل للكافر الأصلي فاسقٌ، فلأنه أخل بحكم ما ألزمه العقل واقتضاه الفطرة، وللفاسق في انحلاله عن الإسلام ثلاث درجات: التغابي، والانهماك، والجحود، فبالتغابي: يرتكب بعض الذنوب مع استقباحه من نفسه، وبالانهاك: يرتكبها غير مبالٍ بها، وبالجحود: يرتكبها مستصوباً لها. [والكبيرُ والكثيرُ يتقاربان، إلا أنَّ الْكَبِيرَ والكثير أكثر ما يُقَالُ في آخر الشئ المتصل][٦]، فالكثير في الأعداد والمعدودات[٧] المنفصلة: إن قيل: كيف قال: (يُضلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً) والكثير والقليل إنما يقالان في شيئين يعتبر أحدهما بالآخر، والناس إذا فرقوا فرقتين فحكمت على إحديهما بالكثير، فالأخرى لا محالة قليلة، فكيف جعلهما[٨] كثيرين؟ قيل: إن ذلك باعتبارين، فقوله: (يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً)، يعني من حيث العدد، (ويهدي به كثيراً) يعني من حيث الفضل والشرف. وعلى هذا قول الشاعر:

"قَلِيلٌ إِذَا عُدُّوا كَثِيرٌ إِذَا شَدُّوا"[٩]

أو يحكم عليهما بالكثرة- اعتباراً بالإضافةِ إلى غيرهما-.

١- فى (و-ج) جهله، وهو تصحيف.
٢ - سورة البقرة : الآية (٢٦).
٣ - ساقطة من (و - ج).
٤ - في (و - ج) ألزم.
٥ - ساقطة من (أ - ص) .
٦ - زيادة في (أ - ص).
٧ - في (و - ج) والمعدودان وهو تصحيف.
٨ - في (و - ج) جعلها.
٩ - هذا عجز بيت للمتنبي ، وتمامه :-

ثقالٌ إذا لاقوا خفاف إذا دعوا ... كثيرٌ إذا اشتدوا قليل إذا عدوا

وهو من قصيدة قالها يمدح فيها على بن محمد بن يسار بن مكرم التميمي، ومطلع القصيدة :-

أقل فعالى بله أكثره مجد ... وذا المجد فيه نلت أم لم أنل جَدُّ

ديوان المتنبي - ص ١٩٨ - دار صادر -بيروت.

قوله تعالى:

﴿الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ الآية:(٢٧)- سورة البقرة.

النقض: فسخ المبرم، وأصله في طاقات الحبل، والنكث: مثله، لكنه يقال في المتبلد كالأكسية، والأخبية، والعهد: كل أمرٍ شأنه أن يراعى كاليمين، والمشاركة، والمبايعة، ويقال العهد للدار المراعاة بالرجوع إليها، والتاريخ المراعي، وللمطر المتعهد، والميثاق: اسم لما يقع به الوثاقة، والعهد المأمور بحفظه ضربان: عهدٌ مأخوذٌ بالعقل، وعهد مأخوذٌ بالرسل، والمأخوذ بالرسل مبنيٌّ على المأخوذ بالعقل، ولا يصح إلا بعده أو معه، وقد حُمِلَتِ الآيةُ عليهما، وذلك هو المذكور في قوله: **﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾**[1] الآية، وفي قوله: **﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ﴾**[2]، وقد عظم الله تعالى أمر العهد، وتوعد على الإخلال به في آيٍ كثيرةٍ، كقوله: **﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾**[3]، وقوله : **﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى﴾**[4] الآية، وقال: **﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ﴾**[5]، وقوله تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾**[6]، وأما ذمهم بقطع ما أمر الله به أن يوصل، فَذمٌّ بقطع الخيرات وتَعَاطِي السَّيِّئَات، وذلك أن التقاطُعَ بين الناسِ يَحْصُلُ من رفْضِ المحبة والعدالة ورفضُهما[7] سَبَب كُلِّ فسَادٍ، فَإِنَّ القومَ إذا أحبُّواْ وعَدَلُوا تواصلوا، وإذا تَوَاصلُوا تعَاوَنُوا، وإذا تعَاونُوا عَمروا، وإذا عَمروا عَمَّرُوا وأمروا، وبالعكس إذا تباغضوا وظلموا تَدَابَرُوا، وإذا تَدَابَرُوا تَخَاذَلُوا، وإذا تَخَاذَلُوا، لَمْ يَعْمَلْ بعضُهُم لِبَعْضٍ

---

١ – سورة الأعراف : الآية (١٧٢).

٢ – سورة آل عمران : الآية (٨١).

٣ – سورة الفتح : الآية (١٠).

٤ – سورة الأحزاب : الآية (٧).

٥ – سورة المائدة : الآية (١٣)، وسورة النساء : الآية (١٥٥).

٦ – سورة آل عمران : الآية (٧٧).

٧ – في (و – ج) ورفضها.

فهلكوا، ولهذا قال عليه السلام:

(لاَتَقَاطَعُوا، وَلاَ تدابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَاناً كمَا أَمَرَكُمْ اللهُ)(١)، وقال: **(الْمُؤْمِنُ مُأْلَفٌ، ولاَ خَيرَ فِيمن لا يُؤْلَفُ ولاَ يَأْلَفُ)**(٢)، ولذلك حثنا على الاجتماعات في الجماعات والجمعات، لكون ذلك سبباً للألفة، بل لذلك عظَّمَ الله تعالى المنة على المؤمنين بإيقاع الألفة بين المؤمنين، فقال تعالى: ﴿**لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ**﴾(٣)، وقال: ﴿**وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا**﴾(٤)، وليس ذلك في الإنسان فقط، بل لولا أن الله تعالى ألف بين الأركان المتضادة، لما استقام العالم، ولذلك قال عليه السلام: «**بِالْعَدْلِ قَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ**»(٥)، ومتى تَصَوَّرَ هذه الجملة، عَلِمَ أن الآية في نهاية الذم

---

١ - الحديث أخرجه الإمام مسلم في صحيحه برقم ٢٥٦٤ ، وأخرجه البخاري في الفرائض ج:١٢ - ص ٤ ، وأورده الراغب في المفردات - ص ٣٠٧ و أورده ابن حجر العسقلاني في فتح الباري في باب : تعليم الفرائض عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ : ولا تجسسوا ، ولا تباغضوا ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخواناً» - ج : ١٨ - حديث : ٦٧٢٤.

٢ - نص الحديث : «المؤمن إلف مألوف ، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف»، أورده العراقي في تخريج أحاديث الإحياء ، وقال : رواه أحمد والطبراني من حديث سهل بن سعد والحاكم من حديث أبي هريرة وصححه ، وأخرجه الحاكم في المستدرك من طريق صخر عن أبي حازم عن أبي هريرة ، وقال : إنه صحيح على شرطهما ولا أعلم له علة ، وتعقبه الذهبي فإن أبا حازم هو المدني لا الأشجعي وهولم يلق أبا هريرة ولا لقيه أبو صخر ، وقال الحافظ السخاوي : وقد رواه العسكري من طريق الزبير بن بكار عن خالد بن وضاح عن أبي حازم بن دينار عن أبي صالح من حديث عبد الملك بن أبى كريمة عن ابن جريج عن عطاء عن جابر مرفوعاً بلفظ: «المؤمن آلفٌ مألوف ، ولا خير فيمن لا يألف ، وخير الناس أنفعهم للناس » وليست الجملة الأخيرة منه عند العسكري.

٣ - سورة الأنفال : الآية (٦٣).

٤ - سورة آل عمران : الآية (١٠٣).

٥ - أخرجه أبو داوود عن أن عباس قال : «افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم خيبر ، واشترط أن له الأرض وكل صفراء وبيضاء ، قال أهل خيبر : نحن أعلم بالأرض منكم فأعطناها على أن لكم نصف الثمرة ، ولنا نصف ، فزعم أنه أعطاهم على ذلك ، فلما كان حين يصرم النخل بعث إليهم عبد الله بن رواحة ، فحزر عليهم النخل وهو الذى يسميه أهل المدينة الخرص - فقال : فى ذه كذا وكذا ، قالوا أكثرت علينا يا ابن رواحة فقال : فأنا إلى حزر النخل وأعطيكم نصف الذي قلت . قالوا: هذا الحق ، وبه تقوم السماء والأرض ، قد رضينا أن نأخذه بالذي قلت».سنن أبي داوود - رقم ٣٤١٠ - باب في المخابرة.

وقد أورده الراغب في مفردات ألفاظ القرآن - ص ٥٥١ ، ص ٥٥٢ .

لهم، وقول قتادة: "إنه أمْرٌ بصلة الأرحام"، وقول غيره: "إنَّهُ ذَمٌّ لهُمْ بقطعِهِم[١] النبي ﷺ إشارةً منهم إلى أبعاض ما يقتضيه عموم الآية، والخاسر من خسر إحدى المقتنياتِ الثَّلاَثةِ مِنَ الْمَالِ والْبَدَنِ والْعَقْلِ، وكما أن الفاسق بالقول المجمل على ثلاث طبقات بعضها فوق بعض، فكذلك ناقضوا العهد على ثلاث طبقاتٍ: ناقضُ عهْدِهِ في أوامره المفروضة، ونَاقضُ عَهْدِهِ في أوامره النَّافلة، وناقض عهده في أركان الدين، وذلك أعظم الثلاثة، وكذلك قاطعو ما أمر الله به أن يوصل، قاطعٌ لبعض ما يشير إليه عقله تابعاً لهواه، وقاطع لبعض ما يأمر به العلم وبنوه، وقاطعٌ للعصمة بينه وبين الله، وكذلك الخاسر: خاسرُ ماله في ابتغائه غير الدار الآخرة، وخاسر بدنه في غير خدمة الله، وخاسر عقله في إهماله عن اقتباس ما يفيده الحياة الأبدية، وذلك أعظم الخسران المنبأ عنه بقوله تعالى: **﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً﴾**[٢]، وقوله تعالى: **﴿ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ ﴾**[٣].

فلكل منزلةٍ من الفسق منزلة من نقض العهد، ومنزلة من القطع، ومنزلة من الخسران تلازمه، فالأول في كل ذلك مخطئٌ، والثاني فاسقٌ، والثالث كافرٌ، ثم منزل كل واحد منهم يتفاوت.

---

١ - في (و - ج) بقطيعهم.

٢ - سورة الكهف : الآية (١٠٣).

٣ - سورة الزمر - الآية: (١٥).

وقوله - عز وجل : ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ . الآية:(٢٨) - سورة البقرة.

كيف: ههنا استخبار لا استفهام، والفرق بينهما أن الاستخبار قد يكون تنبيهاً للمخاطب وتوبيخاً، ولا يقتضي جهل المستخبر، والاستفهام بخلاف ذلك، فكل استفهام استخبارٌ، وليس كل استخبار استفهاماً، والحياة: يستعمل على أوجه، يقال للقوة النامية في النبات والحيوان حياة: ومنه قيل نباتٌ حيٌّ إذا كان نامياً، وعلى ذلك قوله تعالى: **﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾**[1]، وقوله عز وجل: **﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾**[2]، والثاني: للقوة الحساسة الحاسة[3]، وبه سمي الحيوان حيواناً، والثالث: للقوة المختصة بالإنسان من العقل والعلم والإيمان، وذلك لكونها سبباً لِلْحَيَاةِ الْأَبَدِيَّةِ، وعلى ذلك قوله تعالى: **﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾**[4]، وقوله : **﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾**[5]، وعلى نحوه قوله:

وَقَدْ أَسْمَعْتُ لَوْ نَادَيْتُ حَيًّا [6] وَلَكِن لاَ حَيَاةَ لِمَنْ تُنَادِي[7]

والموت: يستعمل في فقد كل واحدٍ مما تقدم، وأما وصف الباري -جل ثناؤه- بالحي، فليس يُتصور منه مقابله الموت، فإنه تعالى الدائم الباقي الذي به حياةُ كلِّ حي، ومعنى الآية: قبل[8] "كنتم أَمْوَاتاً" أي: تراباً ونطفةً، فأحياكم، بأن أنشأكم وخلقكم ثم يميتكم الموت المعروف، ثم يحييكم يوم ينفخ

١ - سورة الحديد : الآية (١٧).
٢ - سورة ق : الآية (١١).
٣ - ساقطة من (أ - ص).
٤ - سورة الأنعام : الآية (١٢٢).
٥ - سورة الأنفال : الآية (٢٤).
٦ - في (و - ج) لقد ناديت لو أسمعت حياً، ولكن الصواب كما هو في (أ - ص) طبقاً لما في الديوان.
٧ - البيت لكثير عزة من قصيدة له يرثي بها خندفاً الأسدي ومطلعها .

شجى أظعان غاضرة الغوادي ∴ بغير مشورة عرضاً فؤادي

وهو في ديوانه ص ٢٢٣ ، والأغاني ج:١٢ ص ١٧٣ ، وأورده الراغب في المفردات ص ٢٦٨ وهو أيضاً في ديوان دُريد ص ٢٩ ، وفي معجم البلدان ج:٥ ص ٤٢٩ والبحر المحيط ج:١ - ص ٣٢٧ ، وقيل آن هذا البيت لعمرو بن معد يكرب ، وقيل هو لدُريد بن الصمة ، والصحيح أنه لكثير عزة.
٨ - في (و - ج) قيل.

في الصور، "ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ" أي تُرَدُّونَ إلى دار [١] الثواب والعقاب، وذلك نحو قوله: ﴿رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾[٢]، ونبه بمثل هذه الآيات على أن القادر على الإبداء، قادرٌ على الإعادة، كما قال: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾[٣]، وقال بعض أهل الحقائق: الآية خطابٌ للمؤمنين، لا على الإنكار بل على تعظيم المنة عليهم وتبعيد الكفر منهم بعد تحققهم بالإيمان، فقد قيل: "ما رجع من رجع إلا من الطريق{، أي: لا ينكر الله أحدٌ بعد تخصصه بالمعرفة الحقيقية، وإنما يرتد ويتشكك مَن لم يبلُغْها، فمحالٌ أن يصير العارف جاهلاً، وليس بمحالٍ أن يصير الجاهلُ عالماً، فيقول: "كنتم أمواتاً[٤]" أي جهالاً فأحياكم بما أفادكم من العقل ورشحكم له من العلم، كما قال: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾[٥]، وهذا أعظم أعجوبةً، وأولى بالاعتبار به والتنبيه عليه لمن ألقى السمع وهو شهيد، ثم قال: (يميتكم) الموت المعروف الذي لا يجب أن يتكادكم[٦]، ثم يحييكم الحياة الحقيقية، ثم تثابون الثواب الذي لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خَطَرَ على قلب بشر.

قوله - عز وجل:

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾. الآية (٢٩)-سورة البقرة .

الاستواء : طلب السواء، أي المساواة، وسمي وسط الشئ سواء، لتساوي مساحة الجوانب كلها إليه، وقيل للعدل سواء لكونه وسطاً للظلم والانظلام، إن قيل: قوله تعالى: (خلق لكم ما في الأرض جميعاً) يقتضي أن كل ما في الأرض خُلِقَ لأجل الإنسان، والانتفاع به، ومعلومٌ أن في الأرض كثيراً مما لا ينفع للإنسان فيه، بل فيه المضارُّ كالحيات، والعقارب، (والسموم)[٧] والأشرار من الناس، قيل: الأشياء الضارة في الظاهر لكل نوع منها خاصة فيها نفع للإنسان أو نفع لما فيه نفع[٨] للإنسان،

---

١ - ساقطة من (أ - ص).
٢ - سورة غافر : الآية (١١).
٣ - سورة الروم : الآية (٢٧).
٤ - ساقطة من (أ - ص).
٥ - سورة الأنعام : الآية (١٢٢).
٦ - تكده الشئ: تكسر، واكتد: أمسك وبخل، والمكدود: هو المغلوب، وعلى هذا يكون معنى الكلمة. يغلبكم. المعجم الوسيط- مادة:(كد)
٧- ساقطه من (أ - ص).
٨ - ساقطة من (و - ج).

فأجزاء العالم [١] إذا تأملتها إما أن تكون [٢] قراراً للإنسان، أو غذاءً له، أو غذاءً لما هو غذاءٌ له، أو دواءٌ له، أو ما ينتفع به[٣] نفعاً ما على وجه.

وذلك بيِّنٌ في أنواع الأشياء وأجناسها. فأما نفع جزئياتها في أن يقال: ما نفع هذه الحية بعينها فلا سبيل لنا إليه، وأجزاء العالم شيءٌ ضار بالإطلاق، وإنما الضار ضار بالاعتبار إلى جزئياته، إن قيل: كيف ذكر ههنا أنه خَلَقَ ما في الأرض قبل السماء وقد قال: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا﴾[٤]، ومعلومٌ أن ما في الأرض محالٌ وجوده قبل وجودها؟ قيل: قد ذكر في هذا جوابان: أحدهما :أنه تعالى خلق جوهر الأرض، ثم دحاها وبسطها بعد خلق السماء، والثاني: أنه خلق السماء بعد خلق الأرض ووجودها[٥]، وإنما وقعت الشبهة من قوله: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا﴾، لأن بعض الناس تصور له من جهة القرآن قوله: (بعد ذلك) ظرف لقوله: (دَحَاهَا)، واعتبر في (بعد) الزمان وليس كذلك، فإن تقدير الآية :(وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ)، ثم قال: ﴿دَحَاهَا أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾[٦].

كقوله: ﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ﴾[٧] ثم قال: ﴿بَنَاهَا رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا﴾[٨]، وليس "بناها" وصفاً للسماء، بل تقديره: (أم السماء أشد خلقاً)، ثم استؤنف فقيل: بناها- تنبيهاً أن من قدر على ذلك [فهو على][٩] إعادتكم قادر، ثم قال: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾[١٠] أي الأرض بعد السماء أشد خلقاً من إعادة خلقكم، وذلك لأن السماء بما فيها من عجائب الصنعة أعظم خلقاً من الأرض، ثم الأرض أعظم من الإنسان، وليس يريد بقوله بعد التوقيت، وإنما يريد الترتيب في الشرف والرفعة، فإن قيل: ولم نصب الأرض ولم يرفعها كما رفع السماء؟

---

١ - في (أ - ص) وأجزاء.
٢ - في (أ - ص) يكون وهو تصحيف.
٣ - في (أ - ص) أو ينتفع به.
٤ - سورة النازعات : الآية (٣٠).
٥ - في (أ - ص) ووجودها وهو تصحيف.
٦ - سورة النازعات : الآية (٣١).
٧ - سورة النازعات: الآية (٢٧).
٨ - سورة النازعات : الآية (٢٨).
٩- ساقطة من (و-ج).
١٠ - سورة النازعات : الآية (٣٠).

قيل: لأن الأول استخبار، وقوله:"والأَرْض" ليس بداخلٍ في الاستخبار، لأنه لو كان استخباراً لقال: أم الأرض، لكنه استأنفه، فأضمر له فعلاً نحو: ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ﴾[١]، وذلك الفعل ما دل عليه (أنتم أشد) من التعرف، وقوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾[٢]، فالاستواء وإن كان في الأصل للإقبال الدال على الانتقال، فقد يراد به التوفر على إصلاح الشئ، وهو المراد ههنا، وعلى ذلك الاتيان في نحو قوله: ﴿فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾[٣]، ويكون اللفظ متجوزاً [به][٤] ههنا، قال بعضهم: معناه : استولى، وقال الحسن: أقبل على خلقه، وقال ابن عباس -رضي الله عنهما- استوى أمره عليه، وقيل معنى: (سَوَّاهُنَّ) أي تحري السواء، أي العدالة وذلك لما جعل فيها من التركيب المتعادل المشار إليه يقول النبي ﷺ: «بِالْعَدْلِ قَامَتِ السَّمَاوَاتُ»[٥]، إن قيل: لم ذكر السماء ثم قال: (فَسَوَّاهُنَّ)؟ قيل: لما عنى بالسماء السموات رد الضمير إلى المعنى، ومجاز ذلك أن الأسماء على ضربين: اسمٌ موضوع لأجزاء الرجل والمرأة متشابهة، نحو: الدم، واللحم، والماء، والأرض، واسمٌ موضوع لأجزاء غير متشابهة، نحو: اليد، والرجل، فما كان من الأول، فإنه يقع على بعضه اسم كله، فلا فرق بين أن يذكر بلفظ الواحد، أو بلفظ الجمع. والسماء من هذا الباب، لأنه يقال لأقطاع اللحم لحم، ولكل قطعة منها منفصلة كانت أو متصلة لحم كذلك السماء، والله أعلم.

١- سورة الإنسان : الآية (٣١).

٢- سورة فصلت : الآية (١١).

٣ - سورة الحشر : الآية (٢).

٤ - ساقطة من (و - ج).

٥- أخرج أبو داود عن ابن عباس قال: افتتح رسول الله خيبر، واشترط أن له الأرض وكل صفراء وبيضاء، قال أهل خيبر. نحن أعلم بالأرض منكم، فأعطناها على أن لكم نصف الثمرة، ولنا نصف، فزعم أنه أعطاهم على ذلك، فلما كان حين يصرم النخل بعث إليهم عبدالله بن رواحة، فحرز عليهم النخل- وهو الذي يسميه أهل المدينة الخرص- فقال: في ذه كذا وكذا، قالوا: أكثرت علينا يا ابن رواحة، فقال: فأنا إلى حرز النخل وأعطيكم نصف الذي قلت. قالوا: هذا الحق، وبه تقوم السماء والأرض، قد رضينا أن نأخذه بالذي قلت. سنن أبي داود- رقم (٣٤١٠) باب في المخابرة.

قـولـه - عـز وجـل: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾.

الآية (٣٠) - سورة البقرة.

إن: يتعلق بمضمر في مَوضع المفعول به، لأن تقديره: اذكر[١] لا أذكر فيه، وقول أبي عبيد: إن "إذ" في مثل هذه المواضع زائدة، فإنه تقصيرُ[٢] منه في النظر، والملك[٣] أصله "ملاك" مقلوباً عن مالك، والألوك: الرسالة المحفوظة في الفم من "ألك الفرس اللجام"، إذا لاكه، وروى أن الملائكة على أضرب خواصٌ يتميزون تمييزاً مبايناً في الفضيلة، منهم وأدون ألو[٤] أجنحة، وجماعة يقال لهم الجن، وهم أقرب إلى الناس، وقد يقال للصالح من الناس "مَلَك" على ذلك قوله تعالى: **﴿ إِنْ هَـٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾**[٥] .

وقال الشاعر:

فَلَسْتَ لِإِ نسيٍّ وَلَكِنْ لَمَلاك[٦]

والخليفة والخلف يتقاربان من قَولك: خلف فلانٌ فلاناً إذا قام مقامه، والخلف والسلف يتناقضان كخلف وقدام، فإن قيل: ما وجه استخلاف اللّٰه تعالى، والخلافة إنما تكون للنيابة عن الغير؟ إما لغيبته أو موته أو عجزة، وذلك لا يجوز على الله تعالى قيل: بل قد يكون على غير ذلك، وهو أن يستخلف المستخلف غيره امتحاناً للمستخلف، أو تهذيباً له، أو يستخلفه لقصور المستخلف عليه عن قبول[٧] التأثير من المستخلف لا لعجز المستخلف وذلك ظاهر في الأشياء المهينة[٨] والطبيعية، فإن السلطان

---

١ - في (أ - ص) أذكره.
٢ - في (و - ح) ليقتصر وهو تصحيف.
٣ - في (١ - ص) والملائكة.
٤ - في (أ - ص) أولى.
٥ - سورة يوسف : الآية (٣١).
٦ - هذا شطر بيت العلقمة بن عبدة في البيت هو: فلست لأنسي ولكن لملاك وهو منسوب لعلقمة في ملحق ديوانه ص١١٨، ونسبته في اللسان إلى رجل من عبد القيس، وهو في المفضلات ص ٣٩٤، وكتاب سيبويه ج:٢-ص٢٩٧٠، وأمالي ابن الشجري -ج:٢-ص٢٠، وجمهرة أنساب العرب ج:٣-ص١٧٠، وتفسير الطبري ج:١-ص١١٣، وإملاء العكبري ج:١-ص٢٨. والملاك واحد الملائكة ويصوب: ينزل، والبيت هو الثاني والثلاثون من القصيدة الأولى في ديوان علقمة، وقد قالها يمدح الحارث بن جبلة الغساني. وعلق السيد أحمد صقر محقق الديوان أن البيت يُنسب لغير علقمة، والصحيح أنه له. انظر: هامش الديوان- ص١٦
ورواية البيت في الديوان: فَلَسْتَ بِإِنْسِيٍّ وَلَكِنْ مَلَاكاً تَنَزَّلَ مِنْ جَوِّ السَّمَاءِ يصوبُ.
وقد ساقه هنا في هذا الباب يراد به التعظيم لشأنه إذ شبهه بالملك.
٧ - في (و-ج) أن يقبل.
٨ - في (أ - ص) المهيبة.

جعل الوزير بينه وبين رعيته، إذ هم يقبلون من الواعظ ماله قربٌ إلى قبولهم منه، وكذا الواعظ جعل بين العامة والحكماء، فإن العامة لا يقبلونه من الحكيم، وليس ذلك لعجز الحكيم، بل لعجز العامة عن القبول منه، وعلى هذا اللحم والعظم لما تباعد[1] ما بينهما عجز العظم عن قبول الغذاء من اللحم، فجعل الله تعالى بحكمته بينهما الغضاريف التي بينهما، ولها مناسبة إليهما لتأخذ ذلك من اللحم وتعطيه[2] العظم، وكذلك جعل تعالى الرسل بين الملك الذي هو من قبله تعالى وبين العباد لفضل قوة أعطاهم ليأخذوا منه الحكمة ويوصلوها إلى الناس، وبهذا الوجه قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾[3]، والخليفة يقال للواحد والجمع، وهاهنا [هو][4] جمع، فإن الخليفة لم يرد به آدم عليه السلام فقط، بل أريد هو وصالحو أولاده، فهم خلفاؤه وحزبه لقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ﴾[5]، وأنصاره لقوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ﴾[6]، وعباده لقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[7]، وعماره في الأرض لقوله: ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾[8]، والمقصود واحد بهذه العبارات وإن اختلفت بحسب الاعتبارات، وقيل سماهم خليفة لكونهم بعد جانٍّ سكنوا الأرض، فإن كل من تولى[9] شيئاً بعد آخر يقال له هو خليفةٌ، وعلى ذلك قوله تعالى ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾[10]، وقوله تعالى: ﴿خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ﴾[11]، وأما السفك، والسبك، والسفح، والسن، والشن، والصب، فمتقاربة، وبينهما فروقٌ، فالصب: أعم هذه الألفاظ، والسفك: يقال في الدم والدمع، والسبك يقال للجواهر المذابة، والسفح: في الصب من أعلى، كسفح الجبل، وعنه استعير السفاح، والشن للصب عن القربة ونحوها، والسن يقاربه، لكن استعير السن في إماهة الحديد، وعنه بني المس والشن

---

١ - في (و - ج) تباعدتا.

٢ - في (أ - ص) ويعطيه.

٣ - سورة الأنعام : الآية (٩)

٤ - هو زيادة في (أ - ص).

٥ - سورة المجادلة : الآية (٢٢).

٦ - سورة الحديد : الآية (٢٥).

٧ - سورة الذاريات : الآية (٥٦).

٨ - سورة هود : الآية (٦١).

٩ - في (أ - ص) يولي

١٠- سورة الأعراف : الآية (٦٩).

١١- سورة الأعراف : الآية (٧٤).

للصب عن القربة ونحوها، والسن يقاربه، لكن استعير السن في إماهة الحديد، وعنه بني المس.والشن استعمل في الغارة، وفي لبس الدرع، وذلك لتشبيه الدرع بالماء، وأجزاء الكتيبة بأجزاء السيل، وأما التسبيح فأصله السبح أي سرعة الذهاب في الماء، واستعير لمر النجوم في الفلك، ولجري الفرس، قال تعالى: ﴿ **إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلاً** ﴾[١] أي: سعة ذهاب . وسبحته عن كذا: أي نزهته. وتسبيح الله: تنزيهه بالقول والحكم، و"سبحان" مصدر، ككفران، وجعل السبحة للتسْبيح، وسمى الصلاة بها لكونها تسبيحاً، والحرزات: سمى سبحة، ومعنى: (نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ) أى : نسبحك والحمد لك، أو نسبحك بأن نحمدك، والتقديس : التطهير، وقوله: (نقدس لك) قيل: معناه نطهر أنفسنا لك- إشارةً إلى نحو قوله: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ** ﴾[٢]، وليس ذلك إظهاراً للمنة، بل هو على حسب ما نقول مجتهدٌ محبٌّ أن يفوض صاحبه إليه خدمةً ما ، فيقول: أتَسْتَعِينُ بغيري وأنا مجتهد[٣] في خدمتك؟، وعلى ذلك قولهم :﴿ **وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ** ﴾[٤]، وليس قوله: ﴿ **إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً** ﴾ على سبيل الاستشارة، فالاستشارة استمداد علم من المستشار، والله تعالى منزهٌ عن ذلك، وإنما ذلك إعلامٌ،[٥] كإعلامه إيانا كثيراً من الكائنات لمصلحةما، إن قيل: فمن أين حكمت الملائكة على الإنسان بالإفساد في الأرض وسفك الدماء، وذلك إما ادِّعَاءُ علم الغيب أو الحكم بالظن والتخمين، وهم مُنَزَّهُونَ عن ذلك؟ قيل: قد قيل إنهم قاسوهم[٦] على من كان يسكن الأرض قبل من الجان، فأفسدوا فيها، وقيل: وهو أصح أن الله تعالى كان قد أخبرهم بذلك، لكن لم يقص[٧] علينا فيما حكى عنهم تنبيهاً عليه بما ذُكر في الجواب، وذلك عادة القرآن في كثير من الأقاصيص المذكورة، كقوله تعالى في قصة يوسف عليه السلام: ﴿ **أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا** ﴾[٨]، وقولهم: ﴿ **أَتَجْعَلُ فِيهَا** ﴾ ليس بإنكار، إنما هو استخبارٌ مُجَرَّدٌ ليُعَرَّ فَهْمَ ما تَسْكُنُ نُفُوسُهُمْ إليه، ويُرْشِدَهُمْ إلى ما يُزيلُ شبهتهم، وليسألوا عن ذلك، ألا وقد أذن لهم في السؤال

١- سورة المزمل : الآية (٧).
٢- سورة البقرة : الآية (٢٢٢).
٣ - في (أ - ص) مجد.
٤ - سورة الصافات : الآيتان (١٦٥) ، (١٦٦).
٥ - في (أ - ص) هو.
٦ - في (و - ج) قاسون وهو تصحيف.
٧ - في (و - ح) نقص وهو تصحيف.
٨- سورة يوسف : الآية (٤٥ ، ٤٦).

اما جملةً وتفصيلاً، إن قيل: كيف أدخل [1]عليهم الشبهة حتى سألوا عن ذلك واستنكروه؟ قيل: إن اللّٰه تعالى لما خلق الإنسان جسمانياً وروحانياً وجعله مُرَكَّباً مَنْ قوى ثلاثٍ، قوةٍ شهويةٍ، وقوةٍ غضبيةٍ، وقوةٍ ملكيةٍ، فبقوته الشهوية يفسد[2] في الأرض، وبقوته الغضبية يسفك الدماء متى لم تكونا مهذبتين، ويتولى خلافة اللّٰه تعالى بقوته الملكية التي هي العقل، وعلى ذلك دل النبي- عليه السلام- بقوله: «**لَمَّا خَلَقَ اللهُ الْعَقْلَ، قَالَ لَهُ: أَقْبِلْ، فَأَقْبَلَ، ثم قال له: أَدْبِرْ، فَأَدْبَرَ، ثم قال: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي مَا خَلَقْتُ خَلْقاً أَكْرَمَ عَلَيَّ مِنْكَ، بِكَ آخُذُ، وَبِكَ أُعطِي**»[3]، فلما سمعت[4] الملائكة أن الإنسَانَ مركبٌ من هذا التركيب، ورأوا القوة التي بها تصلح لخلافته، القوة التي خُصوا بها، ونظروا إلى رذيلة القوتين الأخريين ولم يعرفوا فضيلتهما، استنكروا، فراجعوا الله تعالى وقالوا : أما العبادة التي هي التسبيح والتقديس المختصة بالقوة الملكية، فنحن نقيمها،[5] فما معنى الإنسان المركب تركيباً لا ينفك[6] من فساد وقتل؟ فقال تعالى في جوابهم: ﴿**إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ**﴾ ، فعرَّض ولم يصرح هاهنا، ليريهم فضيلة الإنسان وما خُصُّوا بِهِ من العلم والعمل اللذين يفضلان [7]المَلَكَ عنهما عياناً ومشاهدةً، والإجمال في هذه الآية بقوله: ﴿**إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ**﴾ هو المبَيَّنُ بما بعده من الآية التي [تليها][8]..

---

١ - في (و - ج) دخل.

٢ - في (و - ج) تفصيل في الأرض وهو تحريف.

٣ - قال العجلوني : قال فيه الصفاني وابن تيمية وغيرهماإنه موضوع باتفاق. (كشف الخفاء-ج:١-ص٢٣٦، ٢٦٣.

وقال العراقي: روي من حديث أبي أمامة وعائشة وأبي هريرة وابن عباس والحسن عن عدة من الصحابة، فأما حديث أبي أمامة، فرواه الطبراني في الأوسط وأبو الشيخ في كتاب فضائل الاعمال من رواية سعيد بن الفضل القرشي.. بسنده، وعمر بن أبي صالح ذكره العقيلي في الضعفاء وأورد له هذا الحديث. وقال الذهبي في الميزان لا يُعرف، وقال: ثم إن الراوي عنه من المنكرات، قال: والخبر باطل.

وقال أبو نعيم: غريب من حديث سفيان ومنصور والزهري لا أعلم له راوياً عن الحميدي إلاَّ سهلاً وأراه واهياً.

تخريج أحاديث العراقي ج: ص

وعلق الدكتور/ عبد المجيد النجار على الحديث بقوله: "ولا يبعد أن تكون مثل هذه الأفكار متسربة من الثقافة الفلسفية اليونانية فيما عُرف فيها من أن الله (العقل الأول) فاضت منه عقول عشرة مترتبة في الشرف، ثم من العقل العاشر وجدت المادة المحسوسة تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين- للراغب الأصفهاني- تقديم وتحقيق : الدكتور/ عبد المجيد النجار- طبعة: دار الغرب الإسلامي.

٤ - في (و - ج ، ١ - ص) سمع وهو تصحيف.

٥ - في (و - ج) نقيمها وهو تصحيف.

٦ - في (و - ج) ألا ينفك.

٧ - في (و - ج) يقصر.

٨ - ساقطة من (و - ج).

﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى المَلائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ العَلِيمُ الحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾.

الآيات: (٣١، ٣٢، ٣٣) سورة البقرة.

الإنباء: إخبارٌ فيه إعْلاَمٌ، وهو مُتَضَمِّنٌ لهما، ولذلك كل إنباء أخبارٌ، وَلَيْس كلُّ إخْبارٍ إنباءً، وَكُلُّ نبأٍ عِلْماً، وليس كُلُّ عِلْمٍ نَبَأً،[١] ولكونه متضمناً لهما، ومشتملاً عليهما، أجري مجرى كل واحد منهما، فقيل أنبأته بكذا، كقولك أخبرته وأنبأته كذا، كقولك أعلمته كذا، ولا يقال: "نَبَأٌ" إلاَّ لكل خبرٍ يقتضي العلم كالمتواتر، وخبر الله تعالى، وخبر الأنبياء [عليهم السلام][٢] وما جرى مجراها، وسمى النبي لكونه مُنْبِئاً بما تسكن نفسه إليه، ومنبأً بما سكن المؤمنون إليه، فهو أصح من أن يكون فعيلاً بمعنى فاعل، وبمعنى مفعول، أما بمعنى الفاعل، فلقوله: **﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾**[٣]، وقوله: **﴿ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ ﴾**[٤]، وأما بمعنى المفعول فلقوله: **﴿ نَبَّأَنِيَ العَلِيمُ الخَبِيرُ ﴾**[٥]، وشرح هذه الآية لابُدَّ أن يُبَيَّنَ فيه كيف كان تعليمُ الله آدم الأسماء، وهل فيه دلالةٌ على أن اللغات توقيف[٦]، أو أوائلها اصطلاح؟ وأنه هل عَلَّمهُ الأسماء دون المعاني؟ أو علمه إياها جميعاً؟ وما في ذلك مما تنبه الملائكة على خطئهم فيما توهموه وقالوه حتى رجعوا عن دعواهم واعتقادهم وأذعنوا للاستسلام؟:

فنقول [٧] وبالله التوفيق: إن الناس اختلفوا في اللغات، فذهب بعض المتكلمين إلى أن أوائلها اصطلاح، والباقي يصح أن يكون توقيفاً، واستدل على ذلك بأنه لا سبيل إلى معرفة مراد الله تعالى إلا بالخطاب، ولا يصح أن يكون العلم بمراده ضرورةً والعلم بذاته مُكْتَسَباً، لأن ذلك مؤدٍّ إلى أن تعلمه ضرورة أن العلم بمراده فرع على العلم بذاته فلا يصح أن يكون العلمُ الْخَفِيُّ ضَرُورِياً والجلي

---

١ - في (و - ج) وليس كل نبأ علماً.

٢ - ساقطه من (و - ج) .

٣ - سورة الحجر : الآية (٤٩).

٤ - سورة آل عمران " الآية (١٥).

٥ - سورة التحريم : الآية (٣).

٦ - في (أ - ص) توقيفي.

٧ - في (و - ج) فيقول ، وهو تصحيف.

مكتسباً، وذلك فاسدٌ، هذا ما قاله، والصحيح- إن شاء الله- ما ذهب إليه الجمهور إنه توقيف[١]، وقيل: الدلالة على المسألة إن تعليم الله عبادَه على أى وجهٍ يكون، فذلك[٢] يسهل الكلام في المسألة، والقول في ذلك- إن شاء الله تعالى- قد أشار إلى ذلك بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾[٣]، فذكر أن مكالمته للبشر على أحد هذه الوجوه الثلاثة، وأشرفها ما كان بإرسال رسولٍ يُرى ذاتُهُ، ويُسَمعُ كلامه[٤] كحال النبي ﷺ مع جبرائيل – عليه السلام–، والثاني: ما كان بإلقاء الكلام في السمع من غير رؤية، كحال موسى- عليه السلام- في ابتداء أمره، والثالث: ما كان بوحي، والوحي – ههنا- مخصوصٌ بالإلقاء في الروع، والإلهام-، والتَّسْخيرِ، والمنامَاتِ فتعليم الله تعالى آدم [عليه السلام][٥] الأسماء على أحد هذه الوجوه، ومحالٌ أن يكون الاصطلاح على الألفاظ متقدماً على التعليم، فإن الاصطلاح لابد له[٦] من كلامٍ يتواطؤون عليه، وذلك يؤدي إلى أن لا يكون اصطلاحٌ ولا لغةٌ، فإن قيل: فما ينكر أن يتواضعوا بإشاراتٍ وتصويت، فإن الأخرس يقدر على ذلك، وله مخارج الحروف، لأنا نجد الذين لا يتكلمون يَفْهَمُونَ، ويُفهِمُونَ ولا لغة لهم! قيل: الإشارات يُفْهَمُ عنها بالاستدلال كسائر الاستدلالات التي لو توهمنا الكلام مرتفعاً لصحَّ حصوله وليس للأخرس إلاَّ الاستدلال فقط، ولا قدرة له على الألفاظ يؤلفها، وإنما صوته كصوت الطفل الذي لم يتلقن الألفاظ، واللغة إنما تكون[٧] لغةً بحصول تركيب المفردات الثلاث ولو كان إلى ذلك سبيلٌ من غير تعليم، لكان من شرط البكم أن يتواضعوا فيما بينهم كلاماً، لأن آفة البكم من السمع، وإنما عجز عن الكلام لعجزه عن التلقن بالسمع، فثبت أن ابتداء تعليم الكلام لا يكون إلاَّ من معلم، وذلك قد كان من الله تعالى لآدم بأحد هذه الوجوه المتقدمة، إن قيل: كيف علمه الأسامي[٨] كلها وقد علمنا أنه مامن زمن إلاَّ وبنوه يضعون

١ – في (أ – ص) توقيفي.
٢ – في (أ – ص) فإنه.
٣ – سورة الشورى – الآية (٥١).
٤ – في (أ – ص) خطابه.
٥ – زيادة في (أ – ص).
٦ – في (أ – ص) فيه.
٧ – في (أ – ص) يكون وهو تصحيف.
٨ – في (أ – ص) الأسماء.

أسامي لمعاني وأعيان إما مخترعة وإما منقولاً إليها عن غيرها؟ قيل: قد قال بعض الناس: "إن كلَّ تلك بجزئياتها علَّمَهَا الله تعالى آدم – عليه السلام– وإن ظهر في بعض الأزمنة من بعض أهله[١] والصحيح: أن العلم في الحقيقة يتعلق بمعرفة الأصول المشتملة على الفروع، والمعاني الكلية المنطوية على الأجزاء كمعرفة جوهر الإنسان والفرس والقوانين التي يعرف بها حقيقة الشئ، مثل أصول الضرب في الحساب، وأحوال الأبعاد والمقادير في الهندسة، والأصول المبني عليها المسائل الكثيرة في الفقه والكلام والنحو. فأما معرفة الجزئيات متعريةً عن الأصول، فليس بعلمٍ، ولا يقال للعارف بها عالمٌ على الإطلاق، وإنما هو[٢] في معرفتها محاك[٣] محاكاة الببغاء للألفاظ. وإذا كان كذلك، فتعليم الله تعالى آدم الأسماء كلها إعلامه القوانين والأصول المشتملة على الجزئيات والفروع. وقد علم أن تعليم الكليات أعظم في الأعجوبة وأشبه بالأمور الإلاهية؛ من تعليمنا الصبي الحرْفَ بعد الْحَرْفِ، وقوله :(ألأَسْمَاءَ كُلَّهَا) أراد بها الألفاظ والمعاني ومفرداتها، ومركباتها، وحقائقها، وذوات الأشياء في أنفسها، وبيان ذلك أن الاسم يُستعمل على ضربين: أحدهما بحسب الوضع الاصطلاحي، وذلك هو لِلْمُخْبَرِ عنه، نحو: "رَجُلٍ وفَرَسٍ"، والثاني: بحسب الوضع الأول، وذلك يقالُ للأنواع الثلاثة[٤] التي هي المخبرعنه، والخبرِ والرابطِ بينهما، وهي المعبر عنها بالاسم، والفعل والحرف، وهذا هو المراد ههنا، فإنه– تعالى – لم يرد بقوله: ﴿**وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا**﴾ تعليمه رَجُلاً وفَرَساً دون ذَهَبَ، وخَرَجَ"، وَمِنْ، وَعَنْ، ولا يعرف الإنسان الاسم،[٥] فيكون عارفاً بمسماه إذا عُرِض عليه إلا أن يعرف الْمُسَمَّى، ألا ترى أنا لو علمناه أسامي [بالهندية][٦] أو بلغةٍ مجهولةٍ، ولم يعرف صورة ماله تلك الأسماء لم يكن عارفاً بها[٧] إذا شاهدناها وكنا عارفين[٨] بأصواتٍ مجردةٍ، فثبت أن معرفة الاسم لا تحصل إلاَّ بمعرفة المسمى في نفسه وحصول صورته في الضمير، ثم المعلومات قد تكون جواهر وأعراضاً من

---

١ – في (أ – ص) أهلها وهو الصحيح.
٢ – في (أ – ص) هي.
٣ – في (أ – ص) محاكي.
٤ – في (أ – ص) الثلاث.
٥ – في (و – ج) للاسم.
٦ – ناقصة من (و – ج).
٧ – في (أ – ص) لم نعرفها.
٨ – في (أ – ص) عالمين.

كميات وكيفيات، وإضافات وسائر ذلك من الأعراض، ويجعل للشيء الواحد أسامي بحسب هذه النظرات، فلابد أن يكون الإنسان عارفاً بهذه المعاني مجتمعةً ومفترقةً حتى يكون عارفاً بالأسماء التي يُجعل [ذلك][١] لها بحسبها، مثال ذلك: أنه يقال للشخص الواحد "فلانٌ"- اعتباراً بلقبه، و"رجُلٌ" اعتباراً بالآلة المولدة، [و"ابن" اعتباراً بوالده، و"أب" اعتباراً بولده][٢]، و"أخ" اعتباراً بمن ضمه وإياه نسبٌ، وقرشيٌّ وأصبهاني[٣] اعتباراً بقبيلته وبلده إلى غير ذلك من الأسماء [التي يكثر تعدادها، فإذا حقيقة قوله:[٤] ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ متضمنةٌ[٥] لما ذكرناه، فإن قيل: فأي شئ في تعليم آدم الأسماء من تنبيه الملائكة على ما سُئلوا[٦] عنه؟ قيل: إن الله تعالى لما خلق الإنسان من أمشاج مختلفةٍ وقوى متفاوتة[٧] وجعله جسمانياً روحانياً، وحصل له بحسب القوى المختلفة معارفُ مختلفةٌ وأفعال[٨] متفاوتة، فإن له بحسب الحواس الخمس معارفاً خمساً، وبحسب العقل معارفَ معقولةً، وبحسب الوهم والخيال معارفَ موهومةً مُتَخَيَّلةً، وحصل له بحسب التراكيب البدنية وبسائطها أفعالٌ متباينةٌ وَمِهَنٌ متفاوتةٌ كالتجارة، والصياغة، وسائر الصناعات. وجُلُّ ذلك معدومٌ في الملك لعدم كثافة الجِسْمِ المركَّبِ من الأمشاج، ولاستغنائها عن ذلك، فبين الله تعالى بتعليمه آدم- عليه السلام- هذه الأسماء كلها والمعاني وعرضها على الملائكة، وأنبأ آدم- عليه السلام- بها وبحقائقها. ومعرفة تعاطي الصناعات المختصة بالإنسان عَجْزَ الملائكة، وأن الإنسان مستصلحٌ لعلومٍ وأعمالٍ[٩] ليس للملك سبيل إليها [بوجه][١٠] فإن المحسوس لا يدركه محسوساً إلاّ ذو الحاسة، والمهن لا يتعاطاها إلاّ من رُكِّبَ تركيب الإنسان من القوى المتفاوتة التي منها القوتان اللتان كانوا يرونهما مفسدتين. أعني القوة

---

١ - زيادة في (أ - ص).
٢ - زيادة في (أ - ص).
٣ - في (أ - ص) وقرشي ومكي.
٤ - ساقطة من (و - ج).
٥ - في (و - ج) كما.
٦ - في (أ - ص) سألوا.
٧ - في (أ - ص) متباينة.
٨ - في (أ - ص) وأحوال.
٩ - في (و - ج) وأعلام وهو تصحيف.
١٠-زيادة في (أ - ص).

الشهوية والقوة والغضبية،[1] ونبههم أن ذلك وإن كان فيه مفسدةٌ ما، ففيها مصالح كثيرة، وأن الخلافة التي رُشّحَ لها الإنسان في الأرض لا يصلح لها إلاّ هذا التركيب، فحينئذ قال لهم: (ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون).

إن قيل : ما وجه قوله: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾، وهل كان لهم في ذلك التَشَكُّكُ حتى احتاجوا[2] إلى أن يُقَالَ لهم ذلك؟ قيل له: ليس مخرجُ هذا الكلام على الوجه الذي تَوَهَّمْتَهُ، بل هو تنبيهٌ لهم بما عملوه مُجْمَلاً على ما اشتبه عليهم مُفَصَّلاً، وتقديرذلك[3]: كأنه قيل: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾، ومَنْ عَلِمَ غيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ عَلِمَ ما تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُون،

وَمَنْ عَلِمَ ذلك عَلِمَ مَالاَ تَعْلَمُونَ. إن قيل: فما [تلك][4] الفضائل التي اختص[5] الإنسانُ بها واستصلح لها ممالم يكن للملائكة؟ قيل له: إن ذلك هو تعاطي العفة التي هي مختصة[6] بالقوة الشهوية، والنجدة المختصة بالقوة الغضبية، والإنصاف في المعاملات، وسياسة الإنسان نفسه، ومجاهدة هواه وسياسة ذويه وأبناء جنسه ، فإن كل ذلك فضائل ليست إلاّ للإنسان المختص بقوته الشهوية والغضبية، فأما اَلْمَلَكُ المعرَّى عن مقاساتٍ عارية "بطنه وفرجه"، فليس بمحتاجٍ إلى سياسة البدن[7] وسياسة أبناء جنسه في مراعاة ذلك منهم،[وهذا ظاهر][8] إن قيل: في وجه قوله: (أنبئوني بأسماء هؤلاء)، وذلك تكليفٌ لهم مالا تعلمون وتكليف إيراد مالايُعلم تكليف مالا يُطاق، وماوجه قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾، والصدق إنما يتعلق بالخبر، وهم إنما استُخْبِروا ولم يُخْبَرُوا، فكيف يصح أن يصدُقوا أو يكذبوا [9]قيل: أما قوله: ﴿أَنبِئُونِي﴾، فليس بتكليفٍ، وإنما هو تنبيهٌ على عجزهم عن الخلافة التي رُشّحَ الإنسانُ لها، وقد عُلم أن لفظة "افعل" تجيء على أوجه، منها: التبكيت، والتعجيز، وقوله: ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾، فالصدق وإن كان لا يدخل الاستخبار والأمر والنهي بالقصد

---

١ - في (أ - ص) الشهوية والغضبية.
٢ - في (و - ج) حتى إذا احتاجوا. وما في (أ - ص) الأصح.
٣ - في (أ - ص) وتقديره.
٤ - ساقطة من (أ - ص).
٥ - في (أ - ص) خص.
٦ - في (أ - ص) المختصة.
٧ - في (أ - ص) سياسة نفسه.
٨ - ساقطة من (أ - ص).
٩ - في (- ص) فكيف يصد قون أو يكذبون.

الأول، ومن حيث مقتضى اللفظ، فإنه قد[١] يدخلها بالقصد الثاني، ومن حيث المعاني فإن السائل إذا قال مستفهماً: أزيدٌ في الدار؟ أو قال: : أعطني شيئاً[٢]، فكأنه بالأول ينبه على جهله بكون زيدٍ في الدار، وبالثاني على حاجةٍ وافتقارٍ، فمن هذا الوجه صح[٣] أن يقال: "هو صادق أو كاذب"، على أن هذا حكمٌ على قولهم: (من يفسد فيها ويسفك الدماء)، فإنهم استفهموا بقولهم :﴿ **أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ** ﴾، ويصح أن يكون ذلك راجعاً إلى قوله: ﴿ **وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ** ﴾- تنبيهاً لهم على أنه ليس كل تسبيح وتقديسٍ بما يقولونه، بل من التسبيحات والتقديسات ما يصلح له غيركم، وهو ما تقدم ذكره. إن قيل: ما وجه قوله: ﴿ **سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا** ﴾ وهو عالمٌ بما علمهم وعالمٌ بأن لا علم لهم إلاّ ما علمهم؟ قيل: القصد بذلك إظهار أن ليس سؤالهم[٤] على وجه الاعتراض، بل على سبيل الاستفادة وإظهار العجز، وأنه قد بدا لهم ما كان خفي عليهم من فضيلة الإنسان وإظهار الشكر لنعمته وتعظيم منته بما عَرَّفَهُمْ، وفيه تنبيهٌ على استعمال [حسن][٥] الأدب عند سؤال المعلم بتفويض العلم إليه وتنبيهٌ على أعظم التواضع، فقد قيل لبعض الحكماء: ما أعظم التواضع؟، فقال: الاعتراف بالجهل للعالم، وفيه تنبيهٌ على العلم بما جهلوه، وذلك إحدى فضيلتي الإنسان، وقال بعض المحققين[٦]: الافتخار مَدْرَجَةٌ للسُّقُوط، انظر كيف اضطَرَّ الله الملائكةَ لما قالوا :﴿ **وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ** ﴾ إلى أن اعترفوا بعدم العلم، فمن استكثر لله طاعةً واستكبر له خدمة[٧] فالجهل موطنُهُ، واستَدَلَّ بعضهم بهذه الآية على أن العلم أفضل من العبادة، فإن الملائكة أذعنوا لآدم [عليه السلام][٨] لِمَا أُفِيدَ مِنَ الْعِلْمِ. والْحَكِيمُ أصله لمن له الفعل المحكَم، لكن لما لم يصح حصول الفعل المحكم إلا بالعلم [المتْقن][٩] صارت الحكمةُ متناولةً للعلم والعمل معاً، فالحكمة مُنْتَهى العلم، والعلم مبدأ الحكمة، ولا يتم أحدهما إلاّ بالآخر، فلهذا جَمَعَ بينهما، وقَدَّمَ "العليم" [هاهنا][١٠] على "الحكيم"، فقال : (إنك أنت العليم الحكيم).

---

١ - في (أ - ص) فقد يدخلها.
٢ - في (أ - ص) أعطني كذا.
٣ - في (أ - ص) يصح.
٤ - في (و - ج) سؤالنا وهو تصحيف.
٥ - ساقطة من (أ - ص).
٦ - في (أ - ص) وقال بعضهم.
٧ - في (أ - ص) عبادة وهي الأوقع في النفس.
٨ - ساقطة من (أ - ص) .
٩ - ساقطة من (و - ج).
١٠ - ساقطة من (و - ج).

قوله (عز وجل) :
﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾
الآية :(٣٤) سورة البقرة.

الخضوع والخشوع والخنوع والسجود والركوع تتقارب، وبينهما فروقٌ، فالخضوع ضراعةٌ بالقلب، والخشوع بالجوارح، ولذلك قيل: "إذا تواضع القلب خشعت الجوارح"، وقال تعالى: **﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾**[١]، وقال: **﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾**[٢]، والخشوع ضراعةٌ لمنَ دونه رغبة في عَرَضٍ [٣] في يده، وكذلك[٤] أكثر ما يجيء في الذم ، والركوع تَذَلُّلٌ مع التطأطؤ. والسجود مع خفض الرأس. وسجود الملائكة إنْ أُريدَ بِهِ المتعارفُ في الشرع[٥]، فليس بعبادةٍ لآدم-[عليه السلام][٦]، فعبادة غير الله تعالى لا تجوز بوجهٍ، وإن كان على حسب المتعارف للخدمة، فقد قيل: إن ذلك كان مباحاً قبل شرعنا، وعلى ذلك ما رُوِي[٧] في قصة يوسف- عليه السلام- **﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾**[٨]، وقد قيل: أريد به التذلل كقوله تعالى: **﴿يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ﴾**[٩]، **وقول الشاعر:**

تَرَى الأَكْمَ فيهِ[١٠] سُجَّداً لِلْحَوَافِرِ [١١]

وإبليس : لفظةٌ أعجميةٌ، فلا يصح أن تَكُونَ مشتقةً من العربية.

---

١ - سورة المؤمنون : الآية (٢).
٢ - سورة طه : الآية (١٠٨).
٣ - في (أ - ص) طمعاً لعرض.
٤ - في (أ - ص) ولذلك وهو الأصح.
٥ - في (أ - ص) بالشرع.
٦ - ساقطة من (و - ج).
٧ - في (أ - ص) ما قيل.
٨ - سورة يوسف : الآية (١٠٠).
٩ - سورة الحج : الآية (١٨).
١٠- في (و - ج) منه، وهو تصحيف.
١١-البيت لزيد الخيل، وأوله : بجمعٍ تَضِلُّ البلقُ في حُجُراتِهِ تَرَى الأُكْمَ فِيهِ سُجَّداً لِلحَوَافِرِ.
وهو من قصيدة قالها في وقعة بين طئ وبني عامر يذكر فرار فارسيهم عامر بن الطفيل وعلقمة بن رعلاثة ومطلعها :-
بني عامر هل تعرفون إذا غدا أبو مكنف قد شد عقد الدوابر
وزيد الخيل كان أحد شعراء الجاهلية، ووفد على النبي صلى الله عليه وسلم- سنة تسع من الهجرة، فسماه زيد الخير، توفي في خلافة عمر بن الخطاب. شعر زيد الخيل الطائي، جمع ودراسة وتحقيق : د/ أحمد مختار البزرة - ط : دار المأمون للتراث - دمشق.والبيت في الكامل - ج:١-ص٢٣، والحماسة البصرية -ج:١-ص٦٢، وتفسير الطبري -ج:١-ص٢٨٩- تحقيق: محمود شاكر-ط: دار المعارف.

وقول ابن عباس -رضي الله عنهما- "إبليس أبلس من رحمة الله، فقصده إلى ذكر الحكم لا إلى معنى اللفظ، ويصح أن يجعل[١] "إبليس" مشتقاً منه بعد الانتقال إلى العربية، وعلى ذلك كثير من الأعلام أعجمياً كان أو عربياً يتصورون منه معنى ما، فيعتبرونه، ويشتقون منه نحو قولهم: "تَفَرْعَنَ فُلَانٌ" إذا فَعَل فِعْلَ فرعون في العُتُو[٢] وتَشَيْطَنَ إذا فَعَلَ فِعْلَ الشيطان، وتمرد: فعل فعل المردة، فعلى هذا تصوروا من إبليس يأسه من رحمة الله، فاشتقوا منه، فقالوا "أبلس فلان" أي :"أجري مجرى إبليس" في يأسه من الرحمة[٣] وإبعاده من الخير، وقوله: ﴿فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾[٤] أي: يائسون من الخير يأس إبليس منه. وأيضاً قد تتطابق لغة العرب والعجم في لفظة نحو: "أَيُّوبَ وَإِسْحَق"، فإنهما قد يكونان فيعولاً[٥]، وإفعالاً من "أب وسحق[٦]"، ويكونان أعجميين، وآدم - عليه السلام- قيل: سمي بذلك لكونه مخلوقاً من أديم الأرض على ما روى أن الله تعالى قبض قبضةً من جميع الأرض -سهلِهَا وجبلِها، فخلق منها آدم- عليه السلام- فلذلك يأتي بنوه أخيافاً[٧]، وقال قطرب: "لا يكُونُ من أديم الأَرْضِ، لأنه لو كان كذلك، لانصرف نحو: "طابَع، وخَاتَمْ"، وطابق[٨] وليس كما قال، فإن "آدم" أفعل منه، وأصله :أأدم، فقُلِبت الهمزة ألفاً، وقيل: هو أفعلُ من الأدمة: أى اختلاط البياض بالسواد، و"أدمتُ بين الشيئين"، أي خَلَطْتُ، ومنه : الأدم، وطعامٌ مأدومٌ أي مخلوطٌ، وقال : وسمى بذلك، لأنه خُلق[٩] من الأركان الأربعة، ومن الأمزجة المتفاوتة والقوى المتباينة، والإباء: الامتناع من الشئ مع

---

١ - في (أ - ص) يكون.

٢ - في (و - ج) العنق، وهو تصحيف.

٣ - في (أ - ص) الرحمة.

٤ - سورة الأنعام : الآية (٤٤).

٥ - في (و - ج) فعولاً.

٦ - في (و - ج) وإسحق.

٧ - الأخياف من الناس: الضروب المختلفة الأخلاق والأشكال. ويقال: الناس أخياف : لا يستوون. وهم أخياف: أمهم واحدة وآباؤهم شتى. والخيف: ما انحدر عن غلظ الجبل وارتفع عن مسيل الماء، وهو الناحية، وهو جلد الضرع حين يخلو من اللبن ويسترخي والجمع: أخيافٌ، وخيوفٌ. المعجم الوسيط- مادة: خيف.

٨ - ساقطة من (أ - ص).

٩ - ساقطة من (أ - ص).

الإرادة، فكل إباءٍ امتناعٌ، وليس كل امتناع إباءً، قال الله تعالى: ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ﴾[١] وقيل :"أبيت اللعن"،[٢] وهي أبواً، إذا تسلط عليها داءٌ، فصار[٣] مانعاً لها من الشراب والتكبر: أن يرى الإنسان نفسه أكبر من غيره فضلاً، والاستكبار: طلب ذلك بالشبع والكبر. والتيه، والبغي، والزهو، والاستطالة، والخيلاء، والصلف تتقارب، وبينها فرقٌ، فالتيه: التحير في معرفة قدر النفس، والبغي: طلب منزلةٍ فوق ما يستحقه، والزهو: سرعة الحكم لنفسه بالفضل، من :"زهاه كذى" إذا استحقه، والاستطالة: إظهارُ طَوْلٍ، أي فَضْلٍ على الغير. والخيلاء: ظَنٌّ بالنَّفْسِ كَاذِبٌ، من قولهم: خِلْتُ، والصَّلَفُ: قلة التلفت إلى الغير من قولهم: صَلَفَ[٤]: إذا اشتكى صَلِيفَه، واعْتَباراً بهذا المعنى قال الشاعر:

إِنَّ الْكَرِيمَ مَنْ تَلَفَّتَ حَوْلَهُ ... فَإِنَّ اللَّئِيمَ دَائِمَ الطَّرْفِ أَقْوَدُ [٥]

* واختلف في إبليس هل كان من الملائكة؟ فقال قومٌ: كان منهم، بدلالة استثنائه من الملائكة المأمورين للسجود لآدم، وقال قوم: لم يكن منهم اعتباراً بقوله تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾[٦]، وروى عن ابن عباس- رضي الله عنهما- أن الملائكة على ثلاثة أضرب على ما تقدم آنفاً، وضربٌ منهم يقال لهم الجن، ومنهم إبليس، ولهم توالدٌ، ولهذا قال: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾[٧]، وقيل : إن الجن كانوا مأمورين مع الملائكة بالسجود له، لكن لم يحتج إلى ذكرهم، فالسلطان إذا أمر أَمَاثِلَ رَعِيَّتِه بالخُضُوعِ لإنسانٍ، فمعلومٌ أن أصَاغِرَهُمْ مأمورون بذلك، ألا تَرَى أن

---

١ - سورة التوبة : الآية (٣٢).

٢ - في (و - ج) العز، وفي (أ - ص) - العين، وهو تصحيف، وفي المعجم الوسيط: أبيت اللعن من تحية الملوك في الجاهلية، ومعناها: أبيت أن تأتي ما تلعن عليه. انظر مادة: أبي.

٣ - في (أ - ص) فصارت مانعة.

٤ - ساقطة من (و - ج).

٥ - البيت بلا عزو في لسان العرب - مادة : قود - ج : ٤- ص ٣٧٤ ، وفي التاج مادة : (قود) -ص٤٧٨، وهو في التقفية في اللغة لأبي بشر البندنيجي ص ٣٣٥ بلا نسبة ، ويروى لحاتم الطائي في شرح ديوان الحماسة - لأبي تمام - ص ٢٢٣.

* تفردت المخطوطة (أ - ص) بوضع عنوان هذه الفقرة يشير إلى مضمونها وهو (مطلب في الملائكة والجن)، وهو من عمل الناسخ

٦ - سورة الكهف : الآية (٥٠).

٧ - سورة الكهف : الآية (٥٠).

قوله تعالى لموسى ﴿ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴾[١] معلومٌ أنه لم يبعث، إليه وحده، وبعض الناس اعتبرَ لفظ "كان"، وروى أن إبليس كان من الجن الذين سكنوا الأرض قبل آدم، وحاربهم الملائكة، وسبوْا إبليس، فصار بالحكم من الملائكة، فمولى القوم منهم، وبالنسبة من الجن، فصار يصدق عليه القولان، ويجوز أن يكون عنى أنه كَانَ مِنَ الْجِنِّ فعلاً، ومن الملائكة نوعاً، وباعتبار الفعل قال تعالى: (كَانَ مِنَ الْكَافِرِين)، إنْ قيلَ: كيف يصح أن يكون من الملائكة نوعاً والله قد وصفهم بأنهم ﴿ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾[٢]؟ قيل: إن ذلك في وصف خزنة جهنم، وليس كون بعضهم على هذه الصفة مقتضياً أن يكون كلهم كذلك، و(كان من الجن): قيل معناه: صار ههنا، وليس ذلك بشيء، فإن (كان) استعمل (ههنا) على أحد وجهين: إما لاعتبار وقت العصيان بوقت الإخبار، ويكون بالإضافة إليه ماضياً فيجب أن يقال : كَانَ، وإما أنه قال: (كَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ)- تنبيهاً أن ما تقدم من طاعته غير معتَدٍّ به، وأن حكمه من قبل حكم الكافرين، فمن شرط الطاعة أن لا تحبط ومن حكم الإيمان أن يمْتَدَّ وَيَتَّصِلَ، إن قيل: كيف أمر الملائكة بالسجود لآدم ومنزلتهم فوق منزلته بدلالة أن إبليس منَّاهُ أن يكون إياهم بقوله: ﴿ مانهاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ ﴾[٣]، وبعيد أن يؤمر الفاضل بالتخضع للمفضول؟ قيل: الخضوع لآدم كان خضوعاً لله تعالى من أجل الائتمار له فيما أمرهم به، وظاهرٌ في العادات أن التذلل لخادمِ كبيرٍ خضوعٌ لذلك الكبير، وأيضاً: فإن الإنسان في باب الفضائل التي ذكرناها آنفاً أفضلُ من الملك وإن كان الملك أفضل منه من وجوه أخر، والشيئان قد يكون كل واحد منهما أفضل من الآخر من وجهٍ ووجهٍ، وإنما المنكران[٤] بفضل كل واحدٍ منها الآخر من وجه واحد، وفي الآية تنبيهٌ على وجوب الائتمار لمن له الخلق والأمر، ومجانبة عصيانه، وارتكاب التكبر والحسد، وإنها قد يفضيان براكبهما إلى الكفر، كما روى في الخبر: "أن أول ما عُصِيَ بِهِ الله في السَّمَاءِ والأَرْضِ الْكِبْرُ وَالْحَسَدُ"[٥]، وحث على ترك الدخول في سره والاعتراضِ على حكمه.

---

١ - سورة طه : الآية (٢٤)، ، سورة النازعات : الآية (١٧).

٢ - سورة التحريم : الآية (٦).

٣ - سورة الأعراف : الآية (٢٠).

٤ - في (أ - ص) منكران.

٥ - أورد القرطبي في تفسيره ما رواه ابن القاسم عن مالك أنه قال: "بلغني أن أول معصية كانت الحسد والكبر، حسد إبليس آدم، وشح آدم في أكله من شجرة، وقال قتادة: حسد إبليس آدم على ما أعطاه الله من الكرامة فقال أنا ناري وهذا الهيني، وكان بدءاً لذنوب الكبر، ثم الحرص، حتى أكل آدم من الشجرة، ثم الحسد إذ حسد ابن آدم أخاه. تفسير القرطبي -ج:١-ص٣٣٩-ط.دار الغد العربي- سنه ١٩٨٨.

قوله عز وجل :

﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ الآية : (٣٥)- سورة البقرة.

قيل: ما الفرقُ بين أن يقال: افعل أنت وقومك كذا وبين أن يقال: افعلوا كذا، قيل: الأول تنبيهٌ أن المقصود هو المخاطب، وغيره تبعٌ له، وأنه لولاه لما كانوا مأمورين بذلك، وعلى نحوه: **﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى﴾**(١)، وليس كذلك إذا قال: افعلوا، وقال بعضهم: إنما قال: اسكن، فاستعمل السكن تنبيهاً أنه يعرض النقل، عنها(٢) وأنه لا يجب أن يركن إليها. إن قيل: ما الفرق بين الإرادة والمشيئة؟ قيل: الإرادة قد تكون بحسب القوة التسخيرية،والفكرية، والحسية، ولذلك تستعمل في الجماد، نحو: **﴿جِدَاراً يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾**(٣) وفي الحيوان، وفي العقلاء، والمشيئة(٤) لا تكون إلا مع اختيار، ولذلك لا يُقالَ إلا للعالِمِ والمتفكرِ(٥) ، وقوله تعالى: **﴿ وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾**، فالقصد بالنهي عن قرب الشئ تأكيدٌ للحظر والمبالغة في النهي، وذاك أن(٦) القرب من الشئ مقتضٍ الألفة(٧) ، والألفة داعيةٌ للمحبة، ومحبة الشئ كما قيل: "حُبُّكَ الشئ يعمي ويصم، والعمى عن القبيح والصم عن النهي عنهما الموقعان فيه، والسبب الداعي إلى الشر منهيٌّ عنه، كما أن السبب الداعي(٨) إلى الخير مأمورٌ به، وعلى ذلك قال -عليه السلام- : **(الْعَيْنَانِ تَزْنِيَانِ)** (٩) لماكان النظر داعياً إلى الألفة، والألفة إلى المحبة، وذلك

---

١ - سورة طه : الآية (٤٩).

٢ - ساقطة من (أ - ص).

٣ - سورة الكهف : الآية (٧٧).

٤ - في (و - ج) والمشبه ، وهو تحريف.

٥ - في (أ - ص) والمفكر، وهو تصحيف.

٦- في (أ - ص) وذلك لأن.

٧ - فى (أ-ص) الموصل.

٨ - في (أ - ص) للألفة.

٩- أورد القرطبي وابن كثير الحديث من رواية البخاري ومسلم في الصحيحين عن أ بي هريرة- رضي الله عنه قال : قال رسول الله - صلي الله عليه وسلم: (كتب علي ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لامحالة، فزنا العينين النظر، وزنا اللسان النطق، وزنا الأذنين الاستماع، وزنا اليدين البطش، وزنا الرجلين الخطى، والنفس تتمنى وتشتهى، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه). رواه البخاري تعليقاً، ومسلم مسنداً من وجه آخر . تفسير القرطبي - ج:٦- ص٤٧٦٣- تفسير ابن كثير - ج:٣-ص٢٨٢.

مقتضٍ لارتكابه، فصار النظر مبدأ للزنا، وعلى هذا قال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ﴾[١]، و﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[٢]، ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ﴾[٣]، وعلى هذا قال في الخمر: ﴿فَاجْتَنِبُوهُ﴾[٤]، وبهذا النظر قال عليه الصلاة والسلام: «الْحَلَالُ بَيِّنٌ، والْحَرَامُ بَيِّنٌ، وَبَيْنَ ذَلِكَ أُمُورٌ مُشْتَبِهَةٌ، وَسَأَضْرِبُ مَثَلاً، إِنَّ لِلَّهِ حِمىً، وَإِنَّ حِمَى اللهِ مَحَارِمُهُ، وَمَن رتَعَ حَوْلَ الْحِمَا أَوْشَكَ أَنْ يَقَعَ فِيهِ.»[٥]، والشجرة: قيل: كانت الحنطة، وقيل: الكرْمَ، وقيل: التين، وقوله: (فتكونا): الأظهر: أنه جوابٌ النهي،[٦] وقد قيل: يصح أن يكون عَطْفاً، لأنك تقول: "لا تجفِ[٧] وَالِدَك فَتَعْصِ رَبَّكَ" كما تقول: فَتَعْصَى رَبَّكَ، والظلم في الحقيقة: الإخلال بما يقتضيه داعيًا[٨] الله: "العقل والشرع"، وهو الخروج عن الحظر ولهذا قيل: هو وضع الشيء في غير موضعه، وقد تقدم أن الظلم ضربان: ظلمُ النفس، وظلمُ الغير، وظلم الغير لا ينفك من ظلم النفس، وظلم النفس قد ينفك من ظلم الغير، ولأجل أن الظلم خروج عن الحق، وأن الحق يجري مجرى النقطة من الدائرة، ومجرى القرطاس من الهدف، صار من تعداه يصحَ أن يقال: "هو ظالمٌ" وإن كان بين الظالم والظالم بون، وَلِذَلِكَ قد يُطْلَقُ "الظالم" على من ارتكب[٩] صغيرة، وعلى من ارتكب كبيرة، إن قيل: كيف جاز أن يُنْهَى عن الشجرة ثم يتناولها وقد أنكرتم أن يرتكب الأنبياء[١٠] الكبائر؟ قيل: قد أجيب عن ذلك بأن آدم [عليه السلام][١١] أُشيرَ له إلى شجرة، فقيل له: "لاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ "، وأُريدَبِه الجنس لا العين نحو ما روي أن النبي– عليه

---

١ – سورة الإسراء: الآية (٣٢).

٢– سورة الإسراء : الآية (٣٤).

٣ – سورة النساء : الآية (٤٣).

٤ – سورة المائدة : الآية (٩٠).

٥ – الحديث يروى عن النعمان بن بشير يقول: سمعت رسول الله – صلى الله عليه وسلم يقول: "الحَلَالُ بَيِّنٌ وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ، وبينهما مُشْتَبِّهَاتٌ لا يعلمها كثيراً من الناس، فمن اتقى الشُّبُهَاتِ استبرأ لعرضه ودينِهِ، ومَن وقع في الشُّبُهات كراعٍ يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه". وهذه الرواية الصحيحة، والحديث أخرجه البخاري في الإيمان (انظر: فتح الباري) –ج:١–ص١١٦، ومسلم في المساقاة رقم : (١٥٩٩).

٦ – في (أ – ص) جواب للنهي.

٧ – في (أ – ص) لا تحف، وهو تصحيف.

٨ – في (و ج ج) داعي الله وهو تصحيف.

٩ – في (أ – ص) على المرتكب.

١٠ – في (و – ج) أن الأنبياء يرتكبون.

١١–ساقطة من (و – ج).

السلام- خرج وفي إحدى يديه ذهب، وفي الأخرى حرير، فقال: "**هذان حرامٌ على ذُكُورِ أمتي حِلٌّ لإنَاثِهَا**. ولم يرد به العين، وإنما أراد به الجنس، فحمل آدم متأولاً الإشارة إلى العين دون الجنس، فوقع عليه السهو من هذا الوجه، وقيل : انه حمل النهي على الندب دون الحتم، ونسي الوعيدَ المقرونَ به، ولذلك قال: ﴿**وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ**﴾[١] أي: "نسي الوعيد". واختُلِفَ في الجنَّةِ التي أُسْكِنَهَا آدم -عليه السلام- فقال بعض المتكلمين: كانَ بُسْتَاناً جعله الله تعالى له امتحاناً ولم يكن جنة المأوى، فإن تلك لم تُخْلَقْ بَعْدُ، إذ هي للخلود، وقد ثبت أن الله تعالى يفني [٢] الأشياء كلها حتى لا يبقى إلا وجهُهُ ولو كانت مخلوقة الآن لم يصح أن يخص بهذه الصفة، وقال أكثر الناس: كانت جنة الْمأْوَى، وتسميتها بجنة الخلد اعتباراً بدوامها بعد أن يدخلها المثابون. والشئ الواحد قد يسمى بأسماء كثيرة -اعتباراً بمعان متفاوتةٍ، ألا ترى إلى ما حُكي عن الحسن أنه قال: "خُلِقْنَا للأبدِ، ولَكِنَّا نُنَقلُ مِن دَارٍ إلى دَارٍ"[٣] وذلك اعتباراً بحال الإعادة، ومن قال: لم تَكن تلك جنة الخلد، لأنه لا تكليفَ في الجنة، وآدم [عليه السلام][٤] كان مكلفاً، [فقد قيل في جوابه: إنما لا يكون دار التكليف في الآخرة، ولا يمتنع أن يكون في وقت دار تكليف، ولا يكون في وقتٍ كذلك، كما أن الإنسان يكون][٥] مكلفاً في وقتٍ دون وقتٍ، وقال بعض الناس: "إن الله تعالى لما خلق الإنسان لاستخلافه في أرضه واستعماره فيها كما قال: ﴿**إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً**﴾[٦] ﴿**وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ**﴾[٧] وقال ﴿**وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا**﴾[٨]، وأراد أن يوصله بذلك إلى جنة المأوى، وعلم بسابق[٩] علمه أنه لسوء تدبيره

---

١ - سورة طه : الآية (١١٥).

٢ - في (أ - ص) نفي، وهو تحريف.

٣ - في (و - ج) ذلك وهو تحريف.

٤ - ساقطة من (و - ج).

٥ - هذه الفقرة سقطت من الناسخ في (و - ج).

٦ - سورة البقرة - الآية : (٣٠).

٧ - سورة الأعراف : الآية (١٢٩).

٨ - سورة هود : الآية (٦١).

٩ - في (و - ج) يسابق، وهو تصحيف.

قد يختار العاجل الخسيس على الآجل النفيس لعجلته[١] كما وصفه بقوله تعالى: ﴿**وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً**﴾[٢]، وأنه قد تتبع هواه كما قال: ﴿**وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ**﴾[٣]، وعلم ما يكون منه أدخله الجنة ليعرف النعيم الذي أعد له عياناً، فيكون إليه أشوق، ويتذوق طعم المخالفة فيكون منها أخوف[٤]، فمعلومٌ من حال الإنسان أن المحنة تُهَذِّبُهُ، والاشتياق إلى ما عاينه من الخيرات يرغِّبُه، فصار ما جرى [على آدم][٥] من الأحوال [٦] من تمام النعمة[٧] عليه، والله أعلم بوجوه المصالح، وفي الآية حثٌّ على قبول قول مَنْ هوَ أعلم منك وتحري نصحك والمصلحة[٨]، وإن الإنسان إذا حفظ في دنياه قرناءه المتصلة به من قواه الشهوية والغضبية، وقرناءه المتصلة [٩] به من قواه الشهوية والغضبية، وقرناءه المنفصلة عنه من أهله وولده وساس نفسه وأهله، ورعى من الله أوامره، وتجنب زواجره كان في الجنة عاجلاً وآجلاً، وإلا صار معاونه عليه ومنافعه راجعةً بالمضرة إليه، كما قال تعالى: ﴿**فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**﴾[١٠].

---

١ - ساقطة من (أ - ص).
٢ - سورة الإسراء : الآية (١١).
٣ - سورة محمد : الآية (١٤).
٤ - في (أ - ص) أفرق.
٥ - ساقطة من (و - ج).
٦ - ساقطة من (أ - ص).
٧ - في (أ - ص) نعمه.
٨ - في (أ - ص) ومصلحتك.
٩ - في (و - ج) المتصل، وهو تصحيف.
١٠- سورة التوبة : الآية (٥٥).

قوله - عز وجل :

﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ الآية :(٣٦)- سورة البقرة.

زل، وزَال يتقاربان، إلا أن زَلَّ يقتضي عثرةً مع الزوال، يقال: زلت[١] رجله في المشي ولسانه بالقول، وسمي الأسد إذلالاً اعتباراً من الفاعل استقلاله حتى يعده عثرةً، وقول النبي- عليه الصلاة السلام: «**مَنْ أُزلتْ إِلَيْهِ نعمَةٌ فَلْيَشْكُرْهَا**»،[٢] أي مَنْ أُسْدِى إِلَيْهِ نِعْمَةٌ وإن كانت طفيفةً، وإزلال إبليس لآدم عليه السلام قوله له **﴿ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَىٰ ﴾**[٣]، وقوله : **﴿ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴾**[٤]، ومقاسمته إياها بقوله: **﴿ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴾**[٥]، فمن الناس من حمل هذه الأحوال على مفاوضة ومجاراة بالمشاهدة وقيل: إنَّ ذَلكَ كَانَ بِوَسْوَسَتِه، كما قال **﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ ﴾**[٦]، وما روى عن ابن عباس -رضي الله عنهما- "أن إبليس عَرَضَ نفسه على دَوَابِّ الأرض أن تحمله فتدخله الجنة ليكلم آدم وزوجتِه، فأبت عليه الدَّوَابُّ كُلُّهَا حتى كَلَّمَ الحيَّةَ وقال: أَمْنَعُكَ من بني آدم إِنْ أَنتَ أدخلتني الجنة، فجعلته بين نابين من أنيابها، فأدخلته الجنة وكلَّمَهَا مَنْ فِيهَا، قال: فلذلك أُمِرَ الإنسان بقتلها أينما وجدها"[٧] فإن بعض الناس حمل ذلك على سبيل المثل، وقال: هذا إشارةٌ، فقوله: عَرَضَ نَفْسَهُ على

١ - في (و - ج) زل، وهو تصحيف.

٢- الحديث في النهاية في غريب الحديث ج:٢-ص:٣١٠ ، والفائق في غريب الحديث ج:٢-ص١١٩، وفي مفردات ألفاظ القرآن ص ٣٨٢.

٣ - سورة طه الآية : (١٢٠).

٤- سورة الأعراف : الآية (٢٠).

٥ - سورة الأعراف : الآية (٢١).

٦ - سورة الأعراف : الآية (٢٠).

٧ - هذا المعنى مقتبس من قول الرسول صلى الله عليه وسلم «اقتلوا الحيات صغيرها - وكبيرها - وأسودها - وأبيضها فإن من قتلها كانت له فداء من النار ومن قتلته كان شهيداً » فهذا الحديث يتفق مع مارواه ابن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:« خمس يقتلهن المحرم ، فذكر الحية فيهن » أخرجه مسلم وغيره ورواه القرطبي في تفسيره ج :١ -ص٣٥٦، وقد انتقد الرازي في تفسيره رواية ابن عباس وقال : "وأعلم أن هذا الخبر وأمثاله مما يجب أن لا يُلتفت إليه. لأن إبليس لو قدر على الدخول في فم الحية، فلمَ لمْ يقدر أن يجعل نفسه حية، ثم يدخل الجنة، ولأنه لما فعل ذلك بالحية، فلم عُوقبت الحية مع أنها ليست بعاقلة ولا مكلفة" ؟ تفسير الرازي- ج : ١ - ص ٣٢٣.

دواب الأرض، أي استعان بقوى الإنسان، ونظر من أي جهة[١] يمكنه أن يأتيه، فلم يجد[٢] قوةً مستصلحةً يستعينُ بها حتى أتى الحيَّة، أي الشهوة، وكنى بالحية عنها، فإنَّهَا حَيَّةٌ لاَيَبْرَأُ سَلِيمُهَا [يقال لمن لسعته الحية والعقرب سليمٌ تفاؤلاً كما تقال المفازة لمحل الخطر والهلاك][٣] وذاك أن الشيطان لا يأتِي الإنسان إلاَّ مِن قِبَلِ هَوَاهُ، فجعلته بين نابيها كنايةً عن الأكْلِ، إذ هو أعْظَمُ شهْوَةً يتمكن الشيطان به من الإنسان، ولهذا قيل في الخبر:

(من حفظ بطنه فقد سد على الشيطان بابه، ومن شبع ونام قسا قلبه وتمكن منه الشيطان)[٤]، ويكون الهوى أعظمَ سلاحٍ للشَّيْطَانِ، صار لا فَرْقَ بين قوله تعالى: ﴿وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾[٥]، وقوله: ﴿لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾[٦] في أن المقصد واحدٌ في كونهما نَهَياً عن ارتكاب الذنوب[٧]، وقوله، فلذلك أُمِرَ الإنسان بقتلها، أي أُمِرَ أن يقهر الشهوة [ويذلِّلَهَا][٨] حيثما تَرَاءَتْ له، وطالبته بما ينافي[٩] الإيمان، وهذا الذي ذكره هذا القائل وإن كان صحيحاً من حيث المعنى ، ففي صرف[١٠] الخبر إليه تركٌ للظاهر وفَتْحُ بابٍ من التأويلات عظيم الضرر[١١]. والله أعلم بحقائق ما يخبرنا[١٢] به من الغيوب.. وقوله: (اهْبِطُوا): الهبوطُ ضد الصُّعُودِ، وليس يُرَادُ بِهِ[١٣] الانحدارُ عن رفعةٍ مكانيةٍ

١ – في (و – ج) من جهة أيها يمكنه أن يليه.

٢ – في (و – ج) فلم يوجده، وهو تصحيف.

٣ – ساقطة من (و – ج).

٤ – لعل هذا الخبر مقتبس من حديث النبي "صلى الله عليه وسلم" الذي رواه عنه المقدام بن معد يكرب– رضي الله عنه قال: قال النبي "صلى الله عليه وسلم" : «ما ملأ آدمي وعاءً شراً من بطنه.. بحسب ابن آدم لقيمات" يقمن صلبه– فإن كان لا محالة فثلثٌ لطعامه، وثلثٌ لشرابه، وثلثٌ لنفسه».. أخرجه الترمذي، ومما ورد عن سيدنا عيسى عليه السلام من قوله للحواريين: «تأكلوا كثيراً فتقسو قلوبكم».

٥ – سورة ص : الآية (٢٦).

٦– سورة مريم : الآية (٤٤).

٧ – في (أ – ص) العصيان.

٨ – ساقطة من (و – ج) .

٩ – في (أ – ص) ينافيه.

١٠– في (و – ج) ضرب، وهو تحريف

١١– في (أ – ص) منكر.

١٢ – في (و – ج) ما أخبرناه من الغيب.

١٣– في (و – ج) بها وهو تصحيف.

فقط، بَلْ يُرَادُ به مع ذلك سُقُوطُ المنزلة، فقد كثر في كلامهم استعمالُ الرِّفْعَةِ والضعةِ في المراتب حتى قيل: شريفٌ ووضيعٌ على طريق الاستعارة، وعلى ذلك قول الشاعر:

بلَغْنا السَّمَاءَ بِأحْسَابِنَا(١) -

وقال:

وَصَاعِدٌ في هِضَابِ المَجْدِ يَطْلَعُهَا(٢)

وأما المعاداة: ففقدان الملاءمة والموافقة، ومنه قيل: "هو مَكانٌ ذُو عَدْوَى". والتَّعدِّي، والعدوان، والاعتداء، والعدوى منها(٣)، وقومٌ عِدَى للأعداء أو الغرباء، لما بينهم من فقدان الملاءمة، وقوله تعالى: ﴿بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ (٤) ليس يريد المهارشة فقط، وإنما يعني فقدان الالتئام، أما بين الشيطان والانسان فظاهرٌ، وبين الرجل والمرأة كثيرٌ في الخلْق والخُلُق، حتى إن عامَّةَ ما يُحْمَدُ من أخلاق الرجل يُذم من المرأة، ثم بين قوى الإنسان في نفسه تفاوتٌ، فحذرنا الله تعالى الذي خلقنا منها ليتنبه للاحتراز مما ينافينا في بلوغ السعادة، ونسوس(٥) منها ما يمكن سياسته، وندفع منها ما يجب مدافعته، والمستقر: المكان الذي يحصل فيه القرار، والقرار هو السكون عن برودة، ولما كان من شأن البرودة السكون، كما أن من شأن الحرارة الحركة قيل في الساكن بُردٌ، وفي المتحرك: اشتعل، والتهب، وحتى شبه السريع بنارٍ متقدةٍ، والساكن بماءٍ جامدٍ، وقوله:﴿ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ كقوله :﴿أَمَّنْ جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا ﴾(٦)، وقوله: ﴿جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا ﴾(٧)، قيل: معنى المستقر القبور، والآية محمولةٌ عليها، فقد قال: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ كِفَاتًا أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ﴾ (٨)، والمتاع: انتفاعٌ

١- هذا شطر بيت وعجزه : ولولا السماء لَجُزْنا السَّماءُ وهو في مخطوط الدر الفريد وبيت القصيد بلا نسبة . ج ٥: ص٣٠٢.

٢- هذا شطر بيت للبحترى وعجزه :-

كأنه لسكون الجأش منحدر

وهو من قصيدة قالها يمدح فيها على بن مر الطائى ومطلعها :-

فى الشيب زجر له لوكان ينزجر   وواعظ منه لولا أنه حجر

ديوان البحتري - ج : ٢ - تحقيق وشرح حسن كامل الصيرفي ، ط : دار المعارف.

٣ - في (أ - ص) منه.

٤ - سورة الزخرف : الآية (٦٧)

٥ - في (و - ج) ونوسوس وهو تحريف.

٦ - سورة النمل : الآية (٦١).

٧ - سورة البقرة : الآية (٢٢).

٨ - سورة المرسلات : الآيتان (٢٥)، (٢٦).

ممتدُّ الْوَقْتِ، ومنه قيل: مَتَّعَهُ الله بِكَذَا، ومنه: مُتْعَةُ الْحَجِّ، وَمُتْعَةُ الْمُطَلَّقَةِ، ومَتَاعُ الْبَيْتِ، ومن قال: عَنَى به الْحَيَاةَ، فَلأَنَّهُ عَمَدَ إلى أشْرَفِ نوعٍ من المتاع، ففسره به، ولحين وقت بلوغ الشئ ويُتَخَصَّصُ[1] بالمضاف إليه، ولما كان أحيان الأشياء يختلف، نظر بعض المفسرين إلى المضاف إليه لفظ الحين، ففسره به، وقال: إنه يجئ على أوجهٍ، فالحين: الأجل، لقوله: ﴿ **وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ** ﴾[2]، والسَّنَةُ، لقوله: ﴿ **تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ** ﴾[3]، والسَّاعَةُ، لقوله:﴿ **حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ** ﴾[4]، والزمان لقوله: ﴿ **هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا** ﴾[5]، واختلاف ذلك لاختلاف[6] المضاف اليه، وفي الآية تحذيرٌ من الشيطان، كما قال: ﴿ **يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ** ﴾[7] الآية والتحذير من كل غرور ومن الركون إلى الدنيا، والتنبيه على أنها دارُ مَمَرٍّ، وَأَنَّ الآخِرَةَ دَارُ مَقَرٍّ.

[وبالله التوفيق][8]

---

١ - في (أ - ص) ويخصص.

٢ - سورة يونس : الآية (٩٨).

٣ - سورة إبراهيم الآية (٢٥)

٤ - سورة الروم : الآية (١٧).

٥ - سورة الإنسان : الآية (١).

٦ - في (أ - ص) باختلاف.

٧ - سورة الأعراف : الآية (٢٧).

٨ - زيادة في (أ - ص).

قوله عز وجل :

﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ الآية : (٣٧)- سورة البقرة.

التلقي كالتلقن، إلا أن التلقي يقتضي استقبال الكلام وتصوره، والتلقن يقتضي الحذْقَ في تناوله، والتلقف يقاربه، لكن يقتضي الاحتيال[١] في التناول، الكلم:التأثيرُ المدرَكُ بإحدى الحاستين السمْعِ والبَصَرِ[٢] ، فالكلام مُدْرَكٌ بحاسَّةِ السَّمْعِ[٣]، فكلمته: جرحته جراحة بان أثرها[٤] ولاجتماعهما في ذلك **قال الشاعر:**

والكلم الأصيل كأرغب[٥] الكلم [٦]

وقال:

وَجُرْحُ اللِّسَانِ كَجُرْحِ الْيَدِ.[٧]

والكلمات التي تلقاها آدم من ربه قيل : هي قوله: **﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾**[٨]، وقالَ الحَسَنُ: هو قوله: «أَلَمْ تَخْلُقْنِي بِيَدِكَ؟ ألم تُسْكِنِّي جَنَّتَكَ؟ ألم تُسْجِدْ لِي مَلاَئِكَتَكَ؟ ألم تسبق رَحْمَتُكَ غَضَبَكَ؟، فقال تعالى له: بَلَى، قال: أَرَأَيْتَ إن تبتُ تبتَ عليَّ وَأَعَدتَنِي

١ - في (و - ج) الاعتيال - هو تحريف

٢ - في و - ج) العين والأذن

٣ - في (و - ج) الأذن.

٤ - في (١ - ص) أثرهما وهو تصحيف.

٥ - في (و - ج ، ١ - ص) كأرغب وهو تصحيف.

٦ - هذا عجز بيت لطرفة بن العبد من أبيات له يهدد بها المسيب بن علس، والبيت بتمامه:

بحسام سيفك أو لسانك والـ ـكلم الأصيل كأرغب الكلم

وهو من قصيدة مطلعها :-

إن امرءاً سرف الفؤاد يرى عسلاً بماء سحابة شتمى

والبيت في ديوان طرفة ص ٨٧، والصناعتين ص ٤٣٩، والمعاني الكبير ج: ٢ ص ٨٢٣، ومفردات الراغب، ص٧٢٢،شرح ديوان طرفة ص ٨٥، ٨٦.

٧ - هذا عجز بيت لإمرئ القيس،وشطره

ولو عن نثا جاءني غيره وجرح اللسان كجرح اليد

وهو من قصيدة يتهدد فيها بنى أسد ومطلعها :-

تطاول ليلك بالإثمد ونام الخلي ولم ترقد

وهو في ديوانه ص ٨٤ ، ومنثور الفوائد ص ٢٣، والخصائص ج: ١ ص٧ والصناعتين ص ٤٣٩، ومفردات القرآن ص ٧٢٢.

٨ - سورة الأعراف : الآية (٢٣).

إلى الْجَنَّةِ؟ (١) قال: نعم، فهذا يعني قوله: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ وقيل: إنه قال تعالى له: مَنْ أَذْنَبَ ذَنْباً ثُمَّ تَابَ قَبِلْتُ مِنْهُ، وَهذا يقاربُ الأول، وقيل: (إنها قبول الأمانة المعروضة على السماوات والأرض المذكور في قوله: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا﴾(٢) الآية، وقيل: هو حروفُ التَّهَجِّي وَمَا تَرَكَّبَ مِنْهَا من الأسماء التي كانت قَدْ عَلَّمَهَا وما انتتج منها من العلوَم الحقيقةِ والأعمال الفاضلة، فإن أصل الإيمان العلوم الصادقة والأعمال الصالحة، فمن الحروف تتركبُ مفردات الألفاظ، نحو: زيدٌ، عمرو، وذهب، خرج، من، عن، ومن المفردات "تركب المقدمات المفردة، نحو: زَيْدٌ خَارِجٌ، وعَمْرُو ذَاهِبٌ، ومن المقدمات تتركب الأدلةُ والأخبار المؤلَّفَةُ، ومن الأدلة المفردة الصادقة(٣) يُتَوَصَّلُ إلى حقائقِ العُلُومِ، وبحقائق العلوم يُتوصَّلُ إِلَى ٱلأعْمَال الصَّالِحَةِ، وبمجموعها يحصل الإيمانُ الَّذِي يتحقَّقُهُ، ويصير الإنسانُ تامَّ التَّوْبَةِ مُتَطَهِّراً من النقيصة، محبوباً لرب العزة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾(٤)، والمتحقق بذلك لا محالة يَتوب الله عليه، وقيل: إنَّ هذه الكلماتِ هي التي ذكرها الله تعالى(٥) في قصةِ إبراهيم -عليه السلام- قال تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾(٦)، وهي خِصالٌ مذكورةٌ في ثلاثة مواضع من القرآن..

أحدها في سورة التوبة: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾(٧)، والثاني في قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾(٨)، والآيات إلى قوله: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾(٩)،

١ - عن ابن عباس في الآية قال : أي رب ألم تخلقني بيدك ؟ قال بلى ، قال : أى رب ألم تنفخ في من روحك ؟ قال بلى . قال : أى رب ألم تسبق إلى رحمتك قبل غضبك ؟ قال نعم . قال أى رب أرأيت إن تبت وأصلحت أراجعي أنت إلى الجنة . قال: نعم . انظر :الدر المنثور ج:١-ص١٤٣ ومفردات ألفاظ القرآن ص٧٢٣.

٢ - سورة الأحزاب : الآية (٧٢).

٣ - في (أ - ص) والأخبار الصادقة.

٤ - سورة البقرة : الآية (٢٢٢).

٥ - أ - ص) هي المذكورة.

٦- سورة البقرة : الآية (١٢٤).

٧ - سورة التوبة : الآية (١١٢).

٨ - سورة المؤمنون : الآية (١).

٩ - سورة المؤمنون : الآيتان (١٠، ١١).

والثالث: في سورة "سَأَلَ سَائِلٌ"، وهو قوله: ﴿ **إِلاَّ الْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ** ﴾[١]، الآيات إلى قوله ﴿ **أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ** ﴾[٢] فهذه الخصالُ الثلاثُ فَرَّقَ من الناس[٣] العلماء والحكماء والكُبَراء المعنيين بقول النبي ﷺ "سَائِلِ الْعُلَمَاءَ، وخَالِطِ الحكَمَاءَ، وجَالِسِ الْكُبَرَاءَ"[٤]، ولكل فرقة مقاماتٌ معدودةٌ يترتب بعضها على بعض، وهذه مسألةٌ كثيرةٌ قد أحْكَمْتُهَا في كِتَابِ **(شَــرَفِ التَّصَوُّفِ)**[٥]، وبينتُ تخصيص كل مقام،وهذا القول والذي تقدمه يتقاربان عند الحقيقة، غير أن الأول نظر إلى المبدأ، والثاني إلى الغاية، وذلك مذكورٌ هناك[٦]، ثم التوبة: تركُ الذَّنْبِ على أَحْدِ الْوُجُوهِ، وهُوَ ضَرْبٌ من الاعتذار، فإن الاعتذارَ على ثلاثة أوجه، إمَّا أن يَقُولَ الْمعْتَذِرُ: لَمْ أَفْعَلْ كَذَا، ويقول: فعلتُ لأجْلِ كَذا، أو يقول: فعلتُ وأسأتُ، وقد أقلعت، ولا رابع لذلكَ، وهذا الأخير هو التوبة، فإذاً: التوبةُ ضَرْبٌ من الاعتذار. والتوبة والأوبة والاستغفار متقاربة وبحسب ما اختلفت فيها الاعتبارات اختلفت عليها الْعِبَارَاتُ، (الإنابة) الرجوع عن طريق الضلال إلى الهدى، والأوبة: رجوعُ القلب إلى الحق والوقوف عليه، والاستغفار: طلب الغفران قولاً وفعلاً، أي : تعاطي ما يَغْفِرُ ما تقدَّمَ مِنَ الذنب، والتوبةُ التامةُ المعتدُّ بها: تركُ الذنب، والندمُ عليه، وهو العزم على أن لا يعود إليه، وتداركُ ما تقدم وهو رد المظالم "مظلمة الخلق، ومظلمة الخالق"، ومظلمة الخالق: هي إِعَادَةُ ما ترك[٧] من العبادات، وإذابة ما استفاد جسمه من الحرمات[٨]، ألا تَرَى إلى قوله [عليه السلام] «**كل لَحْمٌ نبت من سُحْتٍ النار أَوْلَى بِهِ**»[٩]، والتواب: يقال في العبد، وفي الرب، لكَن العبد تائبٌ إلى الله -عز وجل-، والله تائبٌ على عبده، وقوله: ﴿ **إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ** ﴾جَمَعَ بَيْنَ الْوَصْفَيْنِ - تنبيهاً على أنه مع تَرْكِ ذَنبه، عَلَيْهِ لا يخليه مِنَ

---

١ - سورة المعارج : الآيتان (٢٢، ٢٣).

٢ - سورة المعارج : الآية (٣٥).

٣ - ساقطة من أ - ص).

٤ - هذه إشارة من الراغب إلى أن له كتاباً في علم التصوف، غير أننا لم نستطع العثور عليه مخطوطاً في مظان مخطوطات الراغب مما يشير إلى أنه مفقود حتى الآن.

٥ - ساقطة من (و - ج).

٦ - في (أ - ص) فالإنابة.

٧ - في (١ - ص) المتروك.

٨ - في (١ - ص) الشبهات.

٩ - الخديث عن أبي بكر عن النبي - صلى الله عليه وسلم- قال: «كُلُّ جَسَدٍ نبت من سُحْتٍ فَالنَّارُ أَوْلَى بِهِ» أخرجه البيهقي وأبو نعيم، قال المناوي: وسنده ضعيف، والمشهور على الألسنة: «كُل لحم بنت من الحرام فالنار أولى به». راجع : كشف الخفاء للعجلوني - ج: ٢-ص١٢١.

الإحْسَانِ إِلَيْه، ولم يقل : تاب عليهما لما تقدم أنه جعلها تابعةً له، لا مقصوده في نفسها، وفي الآية تنبيهٌ يعني هو أنه متى تلقينا منه ما أنعم به علينا من العلوم، واستعملناه، واعترفنا بذنبنا، وطلبنا منه التجاوز عنه، ونحن في مُهْلَةٍ من الحياة تاب علينا وأحسن إلينا.

قوله - عز وجل :

﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

الآية : (٣٨)- سورة البقرة.

والمجئ، والإقبال، والإتيان متقاربةٌ، غير أن المجئ عام، والإقبالَ مجئٌ من ناحية القُبُل، والإتيانَ مجئٌ عن بُعْدٍ، ومنه قيل: الآتي للغريب، وللسبيل "الجائي" من بعيد، و"آتيته": أي : "أعطيته" منقولٌ عن أتيته و"اتوته"، وهما لغتان، والاتباع، والإتلاء، والاحتذاء، والاقتداء تتقارب، فالإتلاء[١]: مجيءٌ بعد آخر بلا فاصلٍ بينهما من جنسهما، والاحتذاء منقولٌ من حذو الفعل بالفعل، والاقتداء[٢]: اتباعٌ على مدى، أي على قدر المتَّبَع بلا تَجَاوُزٍ ولا تأخُّرٍ، والاتباع عامٌ في كل ذلك، ومنه قيل في الرعية[٣] "أتباع"، و"سُمِّي العجلُ التابعُ لأمه تبيع[٤]"، والخوف، والفزع والحذر، والرهبة، والهيبة، والخشية، والوجل، والشفقة تتقارب، فالخوف توقع مكروهٍ عن أمارةٍ وذلك للمذنب، ولهذا قال أمير المؤمنين علي رضي الله عنه[٥]: «**لاَ يَخَافَنَّ** [٦] **امْرُؤٌ إلاَّ ذَنْبَهُ، وَلاَ يَرْجُوَنَّ إلاَّ رَبَّهُ**»، والفزعُ: اضطرابٌ عَنْ وَهْمٍ، كمن يسمع هَدَّةً فاضطرب، والحَذَرُ: خَوفٌ مع احتراز، والرهبة خوفٌ مع اضطراب واحترازٍ، والهيبة: رهبةٌ مع استشعار تعظيمٍ، والشفقة: خوفٌ مع محبةٍ، ولذلك قيل: الخوف والحذر للمذنب، والرهبة للعابد،والخشية للعالِم، والهيبةُ للعارف، والحُزْنُ خُشُونَةٌ تعتري النفسَ، مُشتقٌ من حُزُونَةِ الأرْضِ.

---

١ - في (أ - ص) فالاتباع.

٢ - في (و - ج) والإقبال.

٣ - ساقطة من (و - ج).

٤ - في (أ - ص) تبيعاً، وهو الأصح.

٥ - في (و - ج) عليه السلام.

٦ - في (أ - ص) لا تخافن، وهو تصحيف.

ولذلك يقال: خَشُنت بِصَدْرِهِ، وقيل: الحُزْن والغضب من جنسٍ واحدٍ، وقد تقدم الكلام فيه. والفائدة على تكرير قوله: (اهْبِطُواْ)، لتكرير الشرط المقرون به، فإن الأول قرن بحال العداوة الثانية بينهم وسكونهم في الأرض إلى مدةٍ متناهيَةٍ، والثاني: بيَّن به أنهم وإن اشتركوا في الْهُبُوطِ، فهم متبانيُونَ في الحكم، فَإِنَّ مَن اتبع [1] هدايته، فهو على سبيل الخلاص، إن قيل: لِمَ لَمْ يَقُلْ: فمن تبعه فيستغنى بالضمير عن التكرير، فقد استقبح في باب البلاغة تكرير اللفظة الواحدة في الجملة الواحدة حتى استرذل **قول الشاعر:**

لاَ أرَى اْلموْتَ يَسْبِقُ المَوْتَ شَيْءٌ

نَغَّصَ اْلموْتُ ذَا الغِنَا وَالفَقِيْرا [2]

وقول آخر مع جودة معناه[3]

بِجَهْلٍ كَجَهْلِ السَّيْفِ وَالسَّيْفُ مُنْتَضَى

وَحِلْمٍ كَحِلْمِ السَّيْفِ وَالسَّيْفُ مُغْمَدُ [4]

قيل: إن ذلك يُسْتَقْبَحُ إذا لم يَحْصُلْ في الثاني معنى غير المعنى الأول كالبيت. والآية بخلاف ذلك، فإن الهدى من الله ضربان، ضربٌ بالعقل، وضرب بقول الرسل، وأراد تعالى بقوله: **﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى﴾** ما يأتي على أَلْسِنَةِ الرُّسُلِ - عليهم السلام-، وَبِقَوْلِهِ: هداي ما على لسانهم، وما كان من جهة العقل، فَنَبَّهَ أَنَّ مَنْ أَتَاهُ رسُولٌ وَرَعَاهُ مَعَ رِعَايَتِهِ لمقتضى العقل فَهُمُ اْلأَوْلِيَاءُ الَّذِينَ لاَخَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هم يحزنون، إن قيل: كيف نفى الخوف عن الأولياء في مواضع نحو قوله:

---

١ - في (أ - ص) تبع.

٢ - البيت من قصيدة لعدي بن زيد، وقيل لابنه سوادة بن عدي، والصحيح الأول، وهو من قصيدة أولها:

طَالَ لَيْلِي أُرَاقِبُ التَّنويرَا   أَرْقُبُ اللّيلَ بِالصَّبَاحِ بَصِيرَا

وعدي بن زيد بن حماد بن زيد بن أيوب من بني امريء القيس بن زيد مناة بني تميم راجع: الكتاب- لسيبويه- ج:١-ص٣٠ أمالي ابن الشجري-ج:١-ص٢٤٣، ص٢٨٨- الخصائص- لابن جني-ج:٣-ص٤٣- شواهد المغني-ص٢٩٦. خزانة الأدب- البغدادي ج:١١-ص٣٧٩ -ج:٢-ص٥٢٤، ج:٣-ص٥٥٢. لسان العرب مادة : نغص.

٣ - في (أ - ص) واستقبح قول الآخر.

٤ - لم أهتد إلى قائله.

﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[١] ومدحهم بذلك في مواضع نحو قوله: ﴿ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴾[٢]، وقوله: ﴿ يَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ﴾[٣]؟ قيل: أما نفي الخوف والحزن عنهم، فقد قيل: لفظه الخبر، ومعناه:النهي كقوله: ﴿ لاَ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا ﴾[٤] وقيل هو خبرٌ، لكن مَدَحَهُمْ بها في الدنيا، وحَثَّهُم عليها[٥]، وأَمَّنَهُمْ منها [٦] في الآخرة، كما روى: «مَنْ خَافَ الله في الدُّنْيَا أمَّنَهُ الله في الآخرة»، وعلى ذلك حكى عنهم بقوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ ﴾[٧]، وأيضاً: فإن الخوف الذي مُدِحَ به المؤمنون، وَحُثُّوا عليه لَيْسَ يُرَادُ به استشعارُ الرُّعْبِ المترَقَّبِ مَضَرَّتُهُ، وإِنَّمَا يُرَادُ بِهِ فِعْلُ الْخَيْرَاتِ المأمورِ بِهَا المذكور في قوله: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾[٨]، والْكَفُّ عن المعاصي، ونَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى الْمَذْكُورِ [٩] في قَوْلِهِ:

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾[١٠].

والخوف والحزن المنفيان عنهم استشعار الغم الذي يكون من ذوي العُدْوَانِ، وكذلك رُوِيَ: (لاَ يَرْجُوَنَّ امْرُؤٌ إلاَّ ربه ، وَلاَ يَخَافَنَّ إلاَّ ذَنبَهُ)[١١].

وأيضاً فالحزن إنما يكون لفَوْتِ مَحْبُوبٍ، والخوفُ يَكُونُ لفَقْدِ مَطْلُوبٍ، والمتَّبِعُ لهدى الله هو الْمؤْمِنُ الحكيم[١٢] الَّذِي لا يَقْتَنِي لِنَفْسِهِ فُضُولاَ من[١٣] الأَعْرَاضِ، وما اقتناه لضروراته علم إنه يعرض الأعراض وأنه[١٤] عاريةٌ مُسْتَرَدَّةٌ، فلا يُحْزَنُ على استردادها، ولا يطلب المستغني عنه، وما طلبه بعد وُجُوبِهِ عليه طلبه عالماً أَنَّ الله لا يبسط لأحدٍ دنيا[١٥] إلا اغتراراً واختباراً، فإذا مَنَحَ قَامَ بِحُقُوقِهِ شاكراً، وإذا منع استغنى عنه صابراً، فهؤلاء لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَهُمْ يَحْزَنُونَ فِي دُنْيَاهُمْ.

---

١ - سورة يونس : الآية (٦٢).

٢ - سورة الرعد : الآية (٢١).

٣ - سورة الإسراء: الآية (٥٧).

٤ - سورة فصلت : الآية (٣٠).

٥ - في (و - ج) عليهما.

٦ - في (و - ج) منهما.

٧ - سورة فاطر : الآية (٣٤).

٨ - سورة النحل : الآية (٥٠).

٩ - في (و - ج) المذكورة وهو تصحيف.

١٠- سورة النازعات : الآيتان : (٤٠، ٤١).

١١، ١٢-ساقطة من (أ - ص).

١٣ - في (أ - ص) فضولات الأعراض.

١٤- في (أ - ص) وأنها.

١٥- في (أ - ص) ذنباً وهو تحريف.

قوله - عز وجل :

﴿ والَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ «الآية (٣٩) - سورة البقرة».

الاصطحاب، والاجتماع، والاقترانُ تتقارَبُ، فالاجتماع أعمُّ مَعْنى، الاصطحاب: اجتماعٌ مع طول لَبْثٍ، والاقتران يقتضي شداً ما، إما صنعة، كاقتران بعيرٍ ببعيرٍ، وإما حكماً، كاقتران الصديقين واقتران العلة بالمعلول، وقولهم: "أديم مصْحَبٍ"، أي: أصحب الشعر الذي كان عليه فلم يجز عنه، وأصحب الرجل إذا صار ذا صاحب، ولما كان الأصحاب مقتضياً للانقياد، فسره أهل اللغة به، والتكذيب بالآيات بعض الكفر وتمامه، فإنَّ فيه مع تعاطي الكفر بالفعل[١] جُحُوداً باللسانِ وتخصيصه بعده نحو قوله تعالى: **﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾**[٢] في أنَّ[٣] عمل الصالحات بعضُ الإيمانِ وتمامُهُ، وليس يعني بالآيات القرآن فقط، بَلْ يُرادُ بها مع ذلك الآيات التي في السَّمَاوَاتِ والأرْضِ الدالة على الوحدانية المستحث على اعتبارها[٤] ، بنحو قوله: **﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾**[٥]، إن قيل: لم قال ههنا: **﴿ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾** وقال في الحج[٦] : **﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾**[٧] قيل: الاسم الموصول، والنكرة الموصوفة[٨] متى ضمنتا معنى الشرط قد تدخل "الفاء" في خبرها تنبيهاً على معنى الشرط، ويجوز ترك ذلك منه بقول[٩] : "الذي يأتيني[١٠] له درهم، والذي يأتيني فله درهم"[١١] .

---

١ - ساقطة من (أ - ص).
٢ - سورة الرعد : الآية (٢٩).
٣ - في (و - ج) وأن.
٤ - في (أ - ص) على اعتبارهما.
٥ - سورة يوسف : الآية (١٠٥)
٦ - في (أ - ص) في غيره.
٧ - سورة الحج : الآية (٥٧).
٨ - في (أ - ص) الموصولة.
٩ - في (أ - ص) ويجوز تركه منه نحو.
١٠، ١١- في (أ - ص) يأتيني.

قوله - عز وجل :

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾

الآية : (٤٠)- سورة البقرة.

الابن: من البناء، وسمي بذلك لكونه كالمبني لأبيه، وكل مصنوعٍ يُنسَبُ إلى صانعه وآلته، فيقال هو ابنه، وللصانع يقال: هو أبوه، وعلى هذا يقال: فلانٌ ابنُ الحرب، وأبو الحرب، وبتسمية الصانع أباً للمصنوع، والمصنوع [1] ابناً للصانعِ أُطْلِقَ على ما حُكِيَ في شريعةِ مَنْ تَقَدَّمَنَا[2] "أبناء الله"، ثم تصور ذلك الجهلة والأغبياء[3] معنى الولادة، فحظَرَ إطلاقَ ذلك حتى صار التفوُّهُ بِهِ يُعَدُّ كُفْراً، والوفاء مُرَاعَاةُ الْعَهْدِ، والغَدْرُ تَضْيِيعُهُ، كما أن الإنجاز مراعاةُ الوعد، والإخلاف تضييعه والوفاء والإنجاز في الفعل كالصدق في المقال[4]. والعذر والاخلاف كالكذب فيه، وقيل: وَفَّى وأَوْفَى بمعنى، والصحيح أن أوفى أبلغ مِنْ وَفَّى، كما أن "أَسْقَى" أبلغُ من "سَقَى"، والخِطَابُ وإن كان لبني إسرائيل لقولهم مقصودين بالتبكيت لنسيانهم نعم الله تعالى وكون نعمته عليهم أظهر، فالناس طُرّاً يُشَارِكُونَهُمْ في وجوب ذكر نعمه عليهم، وقد تقدم ذكر تفاصيل النعم. إن قيل: ما فائدة تقييد النعمة بقوله: أنعمت عليكم؟ قيل: نظر الإنسان إلى نعم الله ضربان، أحدهما: نظره[5] إلى نعمة الله تعالى التي [تختص به في نفسه دون ما اختص به غيره،][6] وذلك يفيده رضاً عن المنعم وشكراً له ومعرفة ما على غيره من النعم، والثاني: نظره إلى نعمة الله على غيره ونسيان ما قد خُصَّ بِهِ في نفسه، وذلك يجلب إليه سخطاً على ربه، وكفراناً لآلائه، وحَسَداً على عِبَادِهِ، ولهذا قيل:

«انظُرْ إِلَى مَنْ هُوَ دُونَكَ ، وَلاَ تَنظُرْ إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكَ، فَذَلِكَ أَجْدَرُ أَن لاَ تَزْدَرِي بِنِعْمَةِ ربك»[7].

---

١ - ساقطة من (و - ج).

٢ - في (و - ج) فينا وهو تحريف.

٣ - في (أ - ص) جهلتهم وأغبياؤهم.

٤ - في (أ - ص) القول.

٥ - في (أ - ص) نظر.

٦ - في (أ - ص) يختص به في نفسه دون ما اختص به في غيره.

٧ - في (أ - ص) بنعمة الله، والحديث رواه الطبراني في المعجم الكبير من حديث آبي دز قال: قلت: يارسول الله أوصني، قال «أوصيك بتقوى الله فإنها رأس أمرك، قلت. يارسول الله زدني قال: "عليك بتلاوة القران ودكر الله، فإن ذلك لك نور في السماوات ونور في الأرض،، قلت يارسول الله زدني، قال: لا تكثر الضحك فإنه يميت القلب ويذهب نور الوجه:... قلت يارسول الله زدني قال، انظر إلى من هو دونك ولا تنظر إلى من هو فوقك، فإنه آجدر آن لا تزدري نعمة الله عندك".. الخ الحديث قال الطبراني وأخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد ج:٤-ص٢١٦، ورواه ابن ماجة في حديث رقم ٤٢١٨ وفيه إبراهيم بن هشام بن يحيى الغساني وثقه ابن حبان، وضعفه أبو حاتم وأبو زرعة.. المعجم الكبير- للطبراني-ج:٢-ص١٦٧، ١٦٨ حققه وخرج أحاديثه: حمدي عبد المجيد السلفي ط وزارة الأوقاف - بغداد.

وعـهـود الله كثيرةٌ، بعضـها مرتبٌ على البعض[١]، والوفاءُ بكل واحد مُقَابلُه، فأولُ منزلتِه إظهارُ الشَّهَادَتين ويقابله من الله تعالى حَقْنُ الدِّمَاءِ وَالأموال كما قال -عليه السلام **«مَنْ قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللّٰه فَقَدْ عَصَمَ منى مَالَهُ ودمه»**[٢]. وآخره ما كان من أولياء الله في حفظ النظرات والخطرات، ويقابله من الله تعالى: **(مالا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر)**[٣]، وبينهما وسائط كثيرةٌ لها مـن الله تعالى مقابلاتٌ، ولما كان من مَبْدئِهِ إلى منتهاه عَرَضاً كثيرًا نَظَرَ كُلُّ واحدٍ من المفسرين للآية نظراً ما صارت به أقوالهم مختلفةً في الظاهر بحسْبِ اختلاف نظراتهم، فروى عن ابن عباس -رضي الله عنهما[٤]- أن الإشارة بذلك إلى قوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاَةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾[٥].

وروى عنه «أَوْفُوا بِعَـهْدِي» في اتِّباعِ محمدٍ أُوفِ بعهدكم في رفع الإصر والأغلال التي في أعناقكم».

وقيل: أَوْفُوا بِعَـهْدِي في ترك ٱلْكَبَائِرِ أُوفِ بِعَـهْدِكُمْ في غُفْرَانِ الصَّغَائِرِ، وقيل: أَوْفُوا بِعَهْدِي في أَدَاءِ الْفَرَائِضِ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ في الإِثَابَةِ عَلَيْهَا)، وقيل: (أَوْفُوا بِعَهْدِي في الاهْتِدَاءِ إلى طريق الاسْتِقَامَةِ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ في الزيادة في الاهتداء وإيتاء الاتِّقَاءِ- إشارةً إلى ما قال:

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾[٦]، وهذه الأقاويل اختلفت إما بحسب اختلاف النظرات، أو بحسب اخْتِلاَفِ الْعِبَارَاتِ، وفيما بين من الأصل معرفة نظر الكل، وإن عامة أقوالهم لا

---

١ - في (أ - ص) البعض.

٢- الحديث أورده البخاري فى صحيحه فى كتاب الصلاة باب فضل استقبال القبلة ، وهو فى فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني من حيث نعيم بسنده إلى أنس بن مالك قال : قال رسول الله - ص : «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فإذا قالوها ، وصلوا صلاتنا واستقبلوا قبلتنا وذبحوا ذبيحتنا فقد حرمت علينا دماؤهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله» فتح الباري بشرح صحيح البخاري ج:٢ - ص ٢٣٠ - حديث رقم ٣٩٢ .

٣- سبق تخريجه وأخرجه المنذري فى الترغيب والترهيب وقال رواه الترمذي والنسائي وابن ماجة وروى البخاري ومسلم بعضه ج:٤ - ص ٥٢١ طبعة مصطفى بابي - الحلبي سنه ١٩٥٤ م الطبعة الثانية.

٤ - ساقطة من (و - ج).

٥ - سورة المائدة : الآية (١٢).

٦ - سورة محمد : الآية (١٧).

تخرج عن الصواب - إن شاء الله-.

وقال تعالى لهذه الأمة: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾[١]، فقال بعض المحققين في اعتبار الآيتين دلالةً على تشريف هذه الأمة في أنه لَمَّا خَصَّهُمْ بفضلِ فَهْمٍ وعَقْلٍ، أمرهم بذكره بلا واسطة، وأمر بني إسرائيل أن يجعَلوا ذكر الآية وصْلَةً إلى ذكره، وذلك فصْلٌ قد أحكم في كتاب: (شَرَف التَّصَوُّفِ)[٢]، وقوله: "فَارهَبُونِ"، تقديره: ارْهَبُونِي، فحذف الياء لدلالة الكثرة عليه، وكون الفواصل كالقوافي، وفائدة تكرير الضمير توكيدٌ للحث على رهبته، وأنها لا يجوز أن تكون إلا منه تعالى دون غيره، ومثله في تذكيرهم نعمة [٣] الله تعالى ما حكاه تعالى[٤] عن موسى حيث قال لهم: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾[٥]

قوله - عز وجل -
﴿وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾

«الآية: ﴿٤١﴾- سورة البقرة».

قد تقدم أن الإيمانَ مقتضٍ للعلْمِ اليقيني، ففي ضمن قوله تعالى: (آمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ) حَثٌّ على استفادة العلم، إذْ[٦] لاَ يَحْصُلُ الإيمانُ الحقيقي من دونه، ونبه بقوله تعالى: (مصدقاً لما معكم) أن لامُنَافَاةَ بين ما أتى به الأنبياء من أصول العبادات، وأنهم كنفسٍ واحدةٍ من حيثُ يَتَسَاوَى دعاؤُهُمْ إلى التوحيد والأركان الثلاث من الشرائع التي هي العبادات الخمس وأحكام الحلال والحرام والمزاجر، وإنما الاختلاف بينهم في جزئيات الأحكام وفروعها كيفما تقتضيه مصلحة قومٍ وزمان، فكلٌّ مصدّقٌ للآخر فيما أتى به من أنَّ كُلِّيَّاتِ شرائِعِهِمْ متساويةٌ، وأن فروعها حقٌّ[٧] بحسب الإضافة إلى زمان كلِّ واحدٍ منهم، وأمته حتى لو كان أحدهم في زمن الآخر لم ير المصلحة إلا فيما أتى به الآخر، ولذلك قال عليه السلام: «لَوْ نُشِرَ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ لَمَا وَسِعَهُ إِلاَّ اتِّبَاعِي»، وقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ أي لا تكونوا أئمة في الكفر، فيقتدي بكم تباعكم، فتكونوا حاملين لأوزاركم وأوزارهم، كما قال تعالى

١- سورة البقرة : الآية (١٥٢).
٢ - سبقت الإشارة إلى هذا المؤلف من مؤلفات الراغب الأصفهاني والذي يعد من المصنفات المفقودة للراغب فيما وصل إلى علمنا.
٣ - في (أ - ص) نعم.
٤ - ساقطة من (أ - ص) .
٥ - سورة المائدة : الآية (٢٠).
٦ - في (و - ج) أن ، وهو تصحيف.
٧ - ساقطة من (و - ج).

﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[1] وذلك إشارةً إلى ما قاله عليه السلام «مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَه أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا، وَمَن سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً فَلَهُ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا»[2] وقيل: معنى "أول" المتقدم بالشرف كقولهم: «حَاتِمُ أَوَّلُ الأَسْخِيَاءِ، وَمَارِدُ أَوَّلُ اللِّئَامِ"، والمعنى : لا تكونوا أرفع كافرٍ منزلةً في الكفر، وذاك أن محمداً : عليه السلام- لما كان آخر الأنبياء وكان متمماً لشرائع مَنْ تقدمه، كما روي عنه- عليه السلام أنه قال: «إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ الأَنبِيَاءِ كَرَجُلٍ بَنَى بُنْيَاناً، فَأَحْسَنَهَا وَأَكْمَلَهَا، وَتَرَكَ مَوْضِعَ لَبِنَةٍ، فَأَنَا كُنْتُ مَوْضِعَ اللَّبِنَةِ»[3]، فصار الكافر به كالكافرِ بجَمِيعِهِمْ، فإن من شرط الإيمان بهم أن يُضَامَّهُ الإيمان به، وإلا لم يُعْتَد بإيمانه بهم، والهاء في قوله تعالى: "به" ضمير "مَا أَنزَلْتُ"، وقيل: هو ضمير "مَامَعَكُمْ"، إنْ قيل: لم قال: "وَلاَتَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ" وأنت لا تقول "كُونُوا أَوَّلَ رَجُل" وإنما تقول "رِجَالٌ"؟، قيل: إن ذلك معناه: "أول فريقٍ كافرٍ أو خرب مما لفظه المفرد، ومعناه الجمع على ذلك قول الشاعر:

فَإِذَا هُم طَعِمُوا فَأَلأَمُ طَاعِمٍ　　　وَإِذَا هُمْ جَاعُواْ فَشَرُّ جِيَاعِ [4].

وقد أجاز بعضهم إخوتك أول رجل، أي أول الرِّجَالِ إذا كانوا رجلاً رجلاً، والقليل والكثير من الأسماء المتضايفه، ويعتبران بالغير وليس استعمال القلة في قوله: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً﴾، لأجل اعتبار ثمنين من أعراض الدنيا، كما تصوره بعض الناس فاعترض على الآية، وقال: ذلك

---

١ - سورة النحل : الآية (٢٥).

٢ - الحديث أخرجه الإمام أحمد بن حنبل من طريق جرير بن عبدالله البجلي في ج:٤-ص٣٥٧، ص٣٥٩، ص٣٦٠.
وأخرجه الزبيدي في :إتحاف السادة المتقين في ج:١ ص٣٤٨، ج:٨ ص٣٠٢ وأخرجه المتقي الهندي في كنز العمال حديث رقم : ٤٣٠٧٨ وأخرجه الإمام مسلم في باب الزكاة-ص٦٩، وأخرجه البيهقي في سننه ج:٤-ص١٧٥، وأخرجه النسائي والترمذي وابن ماجة من طرق، والدارمي وأبو عوانة وابن حبان من طريق جرير بن عبدالله البجلي.

٣ - الحديث رواه الإمام أحمد في مسنده من حديث أبي هريرة عن النبي - صلى الله عليه وسلم- قال: «فُضلت على الأنبياءبست. إلى أن قال: مثلي ومثل الأنبياءعليهم الصلاة والسلام كمثل رجل بني قصرا فأكمل بناءه، وأحسن بنيانه إلا موضع لبنة، فنظر الناس إلى القصر فقالوا : ما أحسن بنيان هذا القصر لو تمت هذه اللبنة- ألا فكنت أنا اللبنة- ألا فكنت أنا اللبنة» المسند-ج: ٢-ص٤١٢، ورواه البخاري في صحيحه كتاب المناقب.. ج: ٤ ص١٦٢، ورواه مسلم في صحيحه في كتاب الفضائل ج" ٥-ص١٧٩٠- ج رقم: ٢٢٨٦.
والحديث رواه الترمذي في باب ما جاء في مثل النبي (صلى الله عليه وسلم) والأنبياء قبله حديث رقم ٢٨٦٢ وهو مروي عن أبي بن كعب وأبي هريرة، وقال فيه الترمذي هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه.

٤ - هذا البيت في نوادر أبي زيد ص١٥٢ لرجلٍ جاهلي، وفي معاني القرآن للفراء- ج:١-ص٢٣، وتفسير الطبري -ج:١-ص٥٦٢، وأورده السمين الحلبي فى تفسير الدر المصون فى علوم الكتاب المكنون رقم ٤٠٧ ،تحقيق. الدكتور أحمد الخراط طبعة: دار القلم- دمشق.

يَقْتَضِي جَوَازَ اشْتِرَاءِ الثمَنِ الكَثِيرِ بآيات اللّٰه، بل جَعَلَ الاعتبار ههنا بمنافع الدنيا والآخرة، وقد علمنا أن منفعة الدنيا طفيفةٌ، إذا اعتُبِرَتْ بمنفعة الآخرة، وإذا كان كذلك، فمن اشترى بآيات اللّٰه منافع الدنيا، وترك منافع الآخرة، فقد خَسِرَ خُسْرَاناً مُبِيناً، كما حُكِيَ عن "المنصور" لما حضرته الوفاة، قال: أُف لَنَا، بِعْنَا نَعِيمَ ٱلآخِرَةِ بِنَوْمَةٍ، **وقال الشاعر:**

وَإِنِ امْرَءاً يَبْتَاعُ دُنْيَا بِدِينِهِ لمُنْقَلِبٌ مِنْهَا بِصَفْقَةِ خَاسِرِ (١)

وعلى هذا قوله تعالى:

﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ .

الآية : (٧٩)– سورة البقرة.

وإنما ذكر في الآية الأولى، (فَارْهَبُونِ)، وفي الآية الأخرى (فَاتَّقُونِ)، لأنَّ الرَّهْبَةَ دُونَ التقوى، فَحَيْنماَ خاطَبَ الْكَافَّةَ عَالِمَهُمْ ومُقَلِّدَهُمْ، وحثهم على ذكر نعمه التي يشتركون فيها، أمرهم بالرهبة التي هي من مباديء التقوى، وحينما خاطب العلماءَ منهم، وحَثَّهُمْ على مُرَاعَاةِ آياته والتنبه لما يأتي به أولو العَزْمِ من الرسل، أمَرَهُمْ بالتَّقْوَى التي هي مُنتَهى الطَّاعَةِ..

قوله – عز وجل :

﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ «الآية (٤٢) – سورة البقرة.

اللبس والستر، والتغطية، والتعمية، والتمويه، والكتمان، والإخفاء يتقارب، فالستر أعمُّ الألفاظ، لأنه يُقَالُ في المحسوس والمعقول "سَتَرْتُ كَذَا بِثَوْبِي"، وسَتَرْتُهُ فِي نَفْسِي، والتَّغْطِيَةُ في الأعيان فقط، واللَّبْسُ أصلُهُ في الثَّوْبِ، ثم يقال في المعنى أيضاً، وذلك أن يُخْلَطَ حقٌّ بباطل، وصدقٌ بِكَذِبٍ، والتعمية: ما جعل الإنسان عن إدراكه كالأعمى، والتمويه: ما جَعَل على وجْهه مواهةً، والكتمان: يقال في الحديث ونحوه، وقوله: **﴿وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ﴾**أخصُّ من قوله **﴿تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾**، لأن اللبس هو الْخَلْطُ بغيره، والكتمانَ إخفاؤهَ جملةً، والأجود أن يكون قوله: **﴿وَتَكْتُمُوا﴾** جواباً بالواو منصوباً. وإن صح أن يكون عطفاً مجزوماً، فيكون أمراً بخصوص بَعْدَ عُمُومٍ، وقراءة أُبَيٍّ:

---

١ – لم أهتد إلى قائله

(ولاتكونوا أول كافر به وتشتروا بآياتى ثمناً قليلاً وتكتموا الحق)، ونحو ذلك فى احتمال الجواب والعطف ..

قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ﴾(١)، وقوله: (وأنتم تعلمون) تعظيمٌ لارْتِكَاب الذَّنبِ، فَإِنَّهُ مع العلم بقبحِهِ أَعْظَمُ عُقُوبةً، ولهذا قال بعض الحكماء:

(لأنْ أَدَعَ الْحَقَّ جَهْلاً بِهِ، أَحَبُّ إليَّ مِنْ أَنْ أَدَعَهُ زهداً فِيهِ، ولأن أَتْرُكَ جَمِيعَ الْخَيْرِ جَهْلاً بِهِ أَحَبُّ إليَّ مِنْ أَنْ أَفْعَلَ أَقَلَّ الشرِّ (٢)، بَعْدَ الْمَعْرِفَةِ بِقُبْحِهِ).

وقد تقدم الكلام في الحق، فأما الباطل: فالإثبات له عند الفحص عنه، والحق يناقضه، وذلك عامٌ في الاعتقاد والمقال والفعال، ولذلك قال الشاعر:

لَقَدْ نَطَقَت بَطَلاً عَلى الأَقَارِعِ.(٣)

فاستعمله في القول، وفي الآية حثٌّ على تجنب الشر والنهي عن كل تلبيس وتمويه وإن كانت الآية واردة فيمن آمنوا ببعض الكتاب، وكفروا بالبعض، وجَحَدُوا صفة النبي ﷺ وقول ابن عباس -رضي الله عنهما:[لاتخلطوا الصدق بالكذب وقول بن زيد](٤) لاَ تَخْلِطُواْ الْحَقَّ الَّذِي هو التوراة بِألْبَاطِلِ الَّذِي كَتَبْتُمُوهُ بِأَيْدِيكُمْ، فإشارة إلى بعض ما يقتضيه عموم الآية.

١- سورة البقرة : الآية (١٨٨).
٢- في (أ - ص) شر .
٣ - هذا عجز بيت للنابغة الذبياني وتمامه :-
لعمري وماعمري علي بهينٍ ... لقد نطقتْ بطلاً عليَّ الاقارعُ
وهو من قصيدة مطلعها :-
عفا ذو حساً من فرتني فالفوارع ... فجنبا أريك فالتلاع الدوافعُ
وهو من قصيدة يمدح بها النعمان بن المنذر ، ويعتذر إليه، ويهجو مرة بن ربيع بن قرين.
وهو فى ديوان النابغة - ص ١٢٤.
٤- ساقطة من (أ - ص).

قوله تعالى:

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ «الآية (٤٣)- سورة البقرة.

قد تقدم الكلامُ في إقامة الصلاة، فأما الزكاة، فأصلها من :"زَكَا الزرْعُ، فهي بالنظر، العامي: تثميرُ الْمَالِ باسْتِجْلَابِ بَركة الله -عز وجل-، وبالنظر الخاصي: تَثْميرُ النَّفْسِ، وهو تَطْهِيرُهَا بإِخْرَاجِ الحقُوقِ من المال. والتزكيةُ قد تقالُ في المقال، نحو: "زكيْتُ فُلَاناً، وعلى ذلك قوله : ﴿فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ﴾[1]، وذلك نهيٌ عن الثناء على النفس، فإنه من المستقبح بالعقل والشرع، ولذلك قيل لحكيم:

مَا الَّذِي لاَ يُحْسنُ وَإِنْ كَانَ حَقّاً؟ فقال: مَدْحُ الَّرجُلِ نَفْسَهُ. وقد تقال التزكية في الفعال، وهي ما يقتضي تطهير النفسَ المدعوَّ إليه بقوله تعالى: **﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾**[2].

وقلما حث الله تعالى على إقامة الصلاة، أو مدح بها، إلا قرن بها إِيتَاءَ الزَّكَاةِ، فبهمَا يتمُّ الإِيمَانُ، وعليها دل قوله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾[3]، وقوله :(ارْكَعُوا) حثٌّ على الخُضُوعِ وتذَرعِ الخُشُوعِ، وَيَصِحُّ أن يكون مع ذلك- حثاً على مراعاة الجماعات في الصلوات والاجتماع مع المؤمنين في كل مأمور به نحو قوله تعالى:

﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾(٤)، ولذلك قال: (مَعَ الرَّاكِعِينَ).

---

١ - سورة النجم : الآية (٣٢).
٢ - سورة البقرة : الآية (٢٢٢).
٣ - سورة التوبة : الآية (١١١).
٤ - سورة آل عمران : الآية (١٠٣).

قوله - عز وجل :

﴿أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون﴾.

الآية (٤٤)- سورة البقرة.

البر: التوسعُ في أفعال الخير، بدلالة ما قاله -عليه السلام- وقد سأله أبو ذر عن البر، فتلا عليه قوله تعالى : **﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر﴾** الآية إلى قوله : **﴿أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون﴾**[١].

فذكر جملة أفعال الخير، فرائضها، ونوافلها، ومكارم الأخلاق كلَّهَا[٢].

فالبر في ثلاث:

برٌّ في معاملة الله تعالى وعبادته، وَبِرٌّ في معاملة الأقارب ومراعاة حقوقهم، وبِرٌّ في مُعَامَلَةِ الأجَانِبِ [٣] وإنصَافِهِمْ. واشتقاقه من البر الذي هو الفَضَاءُ والسَّعَةُ، ولهذا وُصِفَ المؤمنُ بسعةِ الصَّدْرِ، والكَافِرُ بِضِدِّهِ، نحو قوله تعالى:

﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا﴾[٤].. الآية، فَسُمِّي براً..،

وقد وُصِفَ الله تعالى بِالْبَرِّ كما وُصِف به العَبْدُ، يقال "بَرَّ الْعَبْدُ رَبَّهُ"، أي أطاعه، على ذلك قول الشاعر:

.. يَبَرُّكَ النَّاسُ وَيَفْخَرُونَكَا[٥]

والله -عز وجل- برٌّ عَبْدَهُ، أي وسَّعَ عَلَيْه إحسَانَهُ، ويقال: "أَبَرَّ فَلاَنٌ عَلَى فُلاَنٍ" أي تقدَّمَهُ بِبِرٍّ،

١- سورة البقرة : الآية (١٧٧).
٢- في (أ-ص) جلها .
٣- في (و- ج) الأقارب وهو تصحيف .
٤- سورة الأنعام : الآية (١٢٥).
٥- هذا عجز بيت وشطره :
لاهُمَّ رَبُّ إنَّ بَكْراً دُونَكَا .·. يَبَرُّكَ النَّاسُ وَيَفْخَرُونَكَا
وهو في تفسير القرطبي بدون نسبة ج:١ - ص٣٦٨ .

أي سَعَةٍ مِنَ المَكَانِ، وعلى هذا قالوا: بينهما بون، وقال الشاعر:

فَثَمَّ الْفَتَى كُلُّ الْفَتَى كَانَ بَيْنَهُ ∴ وَبَيْنَ الْمَرَاجِي[1] نَفْنَفٌ مُتَبَاعِدُ[2]

والنسيان: زوال الشئ عن الحفظ، فهو ضربان :

انفعال بغير فعل من صاحبه، وهو المعفو عنه بقوله -عليه السلام- **«رُفِعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأُ وَالنِّسْيَانُ»**[3]

وأنه قال بفعلٍ من صاحبه، وهو أن يترك مراعاة المحفوظ حتى يذهب عنه، وهو المذموم بقوله تعالى:

﴿كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾[4]، وقال عليه السلام:

«مَنْ حَفِظَ الْقُرْآنَ، ثُمَّ نَسِيَهُ، لَقِيَ اللهَ وَهُوَ أَجْذَمُ»[5]، ولما ورد هذاالخبر عن النبي – عليه السلام– كره ابن مسعود –رضى الله عنه أن يقول القائل: "نَسِيتُ آيَةَ كَيْتٍ وَكَيْتٍ، وقال:

لتقل: "أُنسيتُ"، وَمَنْ جَعَلَ الإنسَانَ مِن ذَلكَ، فأصله عنده: "أنسيان"، بدلالة: "أُنَيْسِيَانْ" في تصغيره، ومعنى تلاه: تَبِعَهُ، والتلاوة في القرآن إتِّبَاعُ اللَّفْظ اللَّفْظَ، أوْ: إتِّبَاعُ اللَّفْظِ بِتَدَبُّرِ الْمعْنَى، وهو المراد بقوله : **﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾**[6]، والعقل: أَصْلُهُ المَنْعُ الشَّدِيدُ، ومنه : "عَقَلَ الْبَعِيرَ" ، وَالْعَاقُولُ: الدَّوَاءُ يُمْسِكُ الْبَطْنَ، والعَقِيلَةُ لِلنَّفسِ[7] الْمَمْنُوعِ عنِ الإِخْرَاجِ، والمعقلة، والعقال، واعتقل لسانه. وقد ذكر الله تعالى "العقل" بأربعة أسماء: "العقل، والنهي، والحجر، واللب" وذلك بأنظارٍ مختلفةٍ–، فأكثرها ذكرالعقل، وذلك لعقله عما يقبح وعلى ما يحسن، والنهي: لكونه ناهياً عن القبائح، والحجر: لجعل صاحبه في حجر عما لا يحسن، واللب: لكون ذلك الجزء من الإنسان، بالإضافة إلى

---

١ - في (و – ج) المرجي وهو تصحيف .

٢- لم أهتد إلى قائله، والنفنف هو الهواء، والمفازة البعيدة ، يقال : قطعت نفنفاً من الأرض، وهو أيضاً المكان المرتفع بينه وبين الأرض مهوى ، ويقال بئرٌ بعيدة.المنفنف : بعيد ما بين أعلاها وأسفلها ، والجمع نفانف ونفانف الدار أى نواحيها. المعجم الوسيط – ج:٢– ص٩٤٣.

٣ – الحديث مروي عن ابن عباس ونصه أن النبي ﷺ قال : «رفع الله عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهواعليه » أخرجه أبو القاسم التميمي في فوائده ورجاله ثقات غير أن فيه انقطاعاً ، وأخرجه الطبراني فى المعجم الكبير ج:١١ – ص ١٣٣ ، والدار قطنى فى سننه ج:٤ – ص ١٧١ ، وابن ماجة فى سننه ج١، ص١٥٩، وأخرجه الحاكم في المستدرك ج:٢، ص١٩٨ وانظر كشف الخفاء للعجلوني ج٢:ص١٣٥، وأورده الراغب فى المفردات ص ٢٨٧ .

٤ – سورة طه : الآية (١٢٦).

٥ – هذا الحديث مروي عن سعد بن عبادة رضي الله عنه قال : قال : رسول الله ﷺ « ما من إمرئ يقرأ القرآن ثم ينساه إلا لقي الله أجزم» رواه المنذري فى الترغيب والترهيب فى باب «الترهيب من نسيان القرآن بعد تعلمه» – وقال المنذري : رواه أبو داود عن يزيد بن أبي زياد وعن عيسى بن فائد عن سعد. الترغيب والترهيب – ج:٢ ، ص، ٢١٢ : ٢١٣

٦– سورة البقرة : الآية (١٢١).

٧– في (و–ج) للمعفين ، وهو تحريف .

سائر أجزائه، كَلُبُّ الشئ إلى أجزائه، وهو أشرف أسمائه، وقد ذمهم[١] الله تعالى في هذه الآية بغاية ما يُذَمُّ به المتصدي للوعظ بغير الحق، وذاك أن الواعظ من الموعوظ يجري مجرى المظَلَّةِ من الظل، والطَّابَعِ والمطبُوعِ، ومحالٌ أن تَعْوَجَّ المظلةُ، ويَسْتَوِي[٢] ظلُّهَا، أو يمكن للطابع أن يوجد في مطبوعه أحْسَن مَّا في طبعه.

ولهذا قيل: "كفى بالمرء تهزياً أن يعظ غيره وينسى نفسه، ولأن المدعي لمصلحة هو يتجنبها إما كاذبٌ في دعواه، وإما خبيث النفس، وكلاهما لا يقبل قوله، فإذاً: حق الإنسانُ أن يبدأ بنفسه فيما يعظ به غَيْرَهُ، حتى يكُونَ وَاعِظاً بفعْلِهِ كَوَعْظِهِ بقوله.

وروي أن رجلاً أتى ابن عباس [رضي الله تعالى عنهما][٣] فقال: "إني أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر، فقال: إن لم تخش أن تفتضح بثلاث آياتٍ من كتاب الله تعالى فَافْعَل.

قوله تعالى: **﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾**،[٤] وقوله تعالى: **﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ﴾**[٥]، وقول شعيب: **﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾**[٦]، وقد أتبع الله ذمهم بحكمين حقق غيهم أحدهما، قوله: (وأنتم تتلون) أي : تتدبرون التوراة، والثاني: قوله: (أفلا تعقلون)- تنبيهاً- أن الجامع للعقل ومتبع الكتاب ليس من حقه أن يأمر الغير بما لا يفعله، فذلك منبئ عن الجهل، فصارت الآية بما عقبت أبلغ من معنى قول الشاعر:

لاَتَنْهَ عَنْ خُلُقٍ وَتَأْتِي بِمِثْلِهِ. [٧] **عَارٌ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيمُ** [٨]

وقوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾**[٩] مثل هذه الآية في حَثِّ الإنسان على (العناية بنفسه)[١٠] قبل العناية بغيره، لا نهياً عن الوعظ كما تصوره بعض الناس، حتى قال هذه الآيةُ منسوخَةٌ..

١- في (و-ج) ذمم، وهو تصحيف .
٢- في (أ-ص) فيستوي .
٣ - زيادة في (أ-ص).
٤ - سورة البقرة : الآية (٤٤).
٥ - سورة الصف : الآية (٢).
٦ - سورة هود : الآية (٨٨).
٧ - عجز هذا البيت ساقط من : (أ-ص).
٨ - هذا البيت في خزانة الأدب ج:٣ - ص ٦١٧ ، ص ٦١٨ ، وفي المقاصد النحوية ج:٤ - ص ٣٩٣ ، ونسبه سيبويه في الكتاب للأخطل ج:١ - ص ٤٢٤ كما رواه الشنتمري للأخطل ، وذكر أنه يروى لأبي الأسود في شرح الشواهد على حاشية الكتاب - ج:١- ص ٤٢٤ ، وورد هذا الشاهد غير منسوب في معاني القرآن للفراء- ج:١ - ص ٣٤ ، ص ١١٥ ، كما أورده أبو جعفر النحاس في إعراب القرآن ج:١ - ص ١٦٩ .
٩ - سورة المائدة الآية (١٠٥).
١٠ - ساقطة من (أ - ص).

قوله - عز وجل :
﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾: الآية (٤٥) - سورة البقرة.

أصل الصبر: الإِمْسَاكُ في ضيقٍ، ومنه: دأَبةٌ مَصْبُورَةٌ، والصبرة من الْطَعام للجمعة منه، وفي التعارف: إمساكُ النَّفْسِ على ما يقتضيه العقل وعما يقتضيه، وذلك ضربان: صَبْرٌ عن المشْتَهَى، وهو العفة، وصَبْرٌ على الْمكْرُوه وهو الشَّجَاعَةُ، وقيل الصبر: الصوم، لقوله عليه السلام: **(صِيَامُ شَهْرِ الصَّبْرِ وَثلاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ يُذْهِبُ كَثِيراً من وحر الصَّدْرِ)**[١]، وتَسميته بالصَّبر، لكونه بعضه، إذ هو إمساك الشَّهْوَةِ، ولهذا قال عليه السلام:

«الصَّوْمُ نِصْفُ الصَّبْرِ»[٢]، والصَّلاَةُ أرفع منزلةً من الصبر، لأنها تجمع ضُرُوباً من الصَّبْرِ، إذْ هي حَبْسُ الحواسِّ على العبادة، وحَبْسُ الخواطر والأفكار على الطاعة، ولهذا قال:
﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾، وخَصَّهَا[٣] بِرَدِّ الضَّمِيرِ إليها دون الصبر، وأما الصلاة التي تُخَـفَّفُ [٤] على غير الخاشع، فإنها مُسَمَّاةٌ باسْمِهَا، وليس هي في حكمِها، بدلالة قوله تعالى: **﴿ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ﴾**[٥]، ومثلها،[٦] وقلَّ ما ترى صلاة غير الخاشع تنهاه عن الفحشاء والمنكر، ومثلها في رد الضمير على أحد المذكورين لاختصاص العناية به، قوله: **﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انفَضُّوا إِلَيْهَا ﴾**[٧]، فأعيد الضميرُ إلى التجارة- لما كانت سَبَبَ انفضاضِ الذين نزلت الآية فيهم، ولأنه قد تشغل التجارةُ عن العبادة مَن لاَ تَشْغَلُهُ اللهو، وعلى ذلك قوله: **﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾**[٨] لَمَّا كانَ حَبْسُ الفضةِ عن الناس أَعْظَمَ ضرراً، إذ كانت

١- الحديث عن يزيد بن عبد الله ابن الشخير عن الأعرابي قال سمعت رسول الله ﷺ يقول «صوم شهر الصبر ، وثلاثة أيام من كل شهر يذهبن وحر الصدر» الحديث أخرجه أحمد والطبراني في الكبير ، ورجال أحمد رجال الصحيح ، وأخرجه البزار عن بن عباس، ورجاله رجال الصحيح . مجمع الزوائد ج:٣ - ص ١٩٩ ، والمسند- ج:٥ - ص ١٥٤ ، وأورده الراغب في المفردات -ص ٤٧٤ ، ورواه البخاري في التاريخ الكبير ج:٧ - ص ٢٣٩ ورواه أحمد في مسنده ج:٥ - ص ٧٧ وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ج:٣ - ص ١٩٦ وأخرجه الهندي في كنز العمال ج:٨ - ص ٦٦٤ ، ص ٦٦٥ حديث رقم ٢٤٦٢٨ .

٢- قال العراقي رواه الترمذي وحسنه من حديث رجل من بني سليم ، وابن ماجة من حديث أبي هريرة ، وكذلك رواه البيهقي ، ولكنه زاد فيه «وعلى كل شيء زكاة وزكاة الجسد الصوم » ، تخريج أحاديث إحياء علوم الدين . للعراقي وابن السبكي والزبيدي ج:٢ - ص ٦٠٣ . لأبي عبد الله محمد الحداد.

٣ - في (و-ج) وخصتها وهو تصحيف .

٤ - في (و-ج) يخف .

٥ - سورة العنكبوت : الآية (٤٥).

٦ - ساقطة من (و-ج) .

٧ - سورة الجمعة : الآية (١١).

٨ - سورة التوبة : الآية (٣٤).

الحاجة[١] إليها أمسُّ، ومنعُهَا للمَضَرَّةِ أجلب، [خُصًّا بالضمير]،[٢] وقوله: (كَبِيرَةٌ) أي: كبيرةُ القدر، أو ثقيلة على النفس، بالإضافة إلى غيرها من العبادات، إذ هي جامعةٌ للعبادات وزائدةٌ عليْهَا، فإنها لاَ تَصِحُّ إلاَّ بِبَذْلِ مالٍ مَّا جارٍ مَجْرَى الزكاةِ فيما يُسْتَرْ به العَوْرَةُ، ويُطَهَّرُ بِهِ البَدَنُ، وإمتساكٍ في مَكانٍ مَخْصُوص يجري مَجْرَى الاعتكاف، وتوجهٍ إلى الكعبة يجري مجرى الحج، وذكر لله ولرسوله يجري مجرى إظهار الشهادتين للإيمان، ومجاهدةٍ في مُدَافَعَةِ الشَّيْطَانِ ساريةٍ مجرى الجهاد، ومساندةٍ عن الأطيَبَيْن جار مجرى العُمُوم، وفيها ما ليس في العبادات الأُخَر من وجوب القراءة، وَإِظْهارِ الخُشُوعِ، والرُّكُوعِ والسُّجُودِ وغير ذلك. ولهذا عَظَّمَ النبي ﷺ **أمْرَهَا، فكان آخرُ ما أَوْصَى به عندَ وَفَاتِه: «الصَّلاَةَ، ومَا مَلَكَتْ أيْمَانُكُمْ**[٣]، وجعل بقولها وما يفيض بها لسانه.

قوله - عز وجل:

﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ .. الآية (٤٦) سورة البقرة .

قد تقدم الكلام في الظن، وأنه أعَمُّ ألفاظ الشَّكِّ وَالْيَقِينِ، وأنه اسمٌ لما تَحْصُلُ عن أَمَارَةٍ متى قَوِيَتْ أدَّتْ إلى العلم، ومتى ضعفت حداً لم يَتجاوز حد الوهم، [وأنه متى قوي استعمل معه أَنَّ المشددة، و"أَنْ" الْمُخَفَّفَةُ منها][٤]، ومتى ضعفت استعمل معه "أن" المختصة بالمعدومين من الفعل نحو: "ظَنَنْتُ أَنْ خَرَجَ، وأَنْ يَخْرُجَ" فالظن إذا كان بالمعنى الأول فمحمودٌ، وإذا كان بالمعنى الثاني:[٥] فمذمومٌ، والآية من المعنى الأول والمعنى الثاني كقوله: **﴿إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ﴾**[٦]، وقوله: **﴿وَإِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾**[٧]، وعنى بلقاء الله "الموت" وبالرجوع إليه "الثواب والعقاب"، وتخصيص ذكر الظن ها هنا إعلامٌ بأنَّهُمْ في كل حالٍ لاَ يأمنون الموت، ولو كان بدله العلم، [لم يصح على الوجه][٨] الذي يصح فيه الظن، لأنك تقول: "أظن أني أموت في كل حال، وأما قوله **﴿أَلاَ يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾**[٩]، فهو نهايةٌ في الذَّمِّ،ومعناه: ألاَ تَحْصُلُ لهُمْ أَمَارَة تنبههم على التفكر في ذلك -تنبيهاً

١- ساقطة من (أ - ص).

٢- ساقطة من (و-ج) .

٣- قال العراقي الحديث مروي عن أنس عن النبي ﷺ قال « الصلاة وما ملكت أيمانكم - الصلاة وما ملكت أيمانكم» رواه أحمد وعبد بن حميد والنسائي وابن ماجة وابن سعد وابو يعلى وابن حبان والطبراني والضياء ورواه ابن سعد والطبراني من حديث ابن عمر وحديث أم سلمة وتخريج أحاديث الإحياء للعراقي وابن السبكي والزبيدي حديث رقم ٣٩٧٩ ص ٢٥٥٠ - ص ٢٥٥٠ .

٤ - ساقطة من (و - ج) .

٥ - في (و - ج) وبالمعني الثاني .

٦ - سورة البقرة : الآيتان : (٧٨)، سورة الجاثية : الآية (٢٤).

٧ - سورة النجم : الآية (٢٨).

٨ - (و-ج) لم يصح الوجه.

٩ - سورة المطففين : الآيتان (٤ ، ٥).

أن هذا لا محالة مماً تبين أمارته للإنسان إذا تأمل، أدنى تأمل، وخاطب بالآيات عُمَاءَ بَني إسْرَائِيلَ الآمرينَ غَيْرَهُمْ بالْبرِّ، النَّاسينَ أنفُسَهُمْ بأن "اسْتعينوا في مُدَافعَةِ هذه الحال بالصَّبْرِ والتَّوَصُّلِ بِهِ إلى الصَّلَاةِ، فَبِهَا يَصيرُ الإِنْسانُ خاشعاً ملتزماً للحق ممن ظهر منه.

وقوله - عز وجل :

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾

الآية(٤٧) سورة البقرة.

الفضل: كالزيادة، إلا أنه أخصُّ منها، وهو من الأسماء المتضايفة، كالكثير، والقليل، والكبير، والصغير، ويستعمل على اعتبارين: أحدهما: اعتباراً بالطَّرفِ الذي هو النَّقْصُ، وذلك يُسْتَعْمَلُ عَلَى سَبيل الْمَدْحِ، والثاني: اعتباراً بالْوَسَطِ الذي هو الْعَدْلُ والسَّوَاءُ، ويُستعْمَلُ ذلك على وجهين: أحدهما: الزَّائِدُ عَلَى الْعَدَالَةِ على سَبيلِ الاستظهار، وهو السماحة والإسماح ببعض مالا يجب عليه، أو بترك بعض مالا يجب له، وذلك هو المعنى بالإحسان: في قوله :

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾(١)، وبالزيادة في قوله: **﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾**(٢)، وإياه عنى بقوله: **﴿وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾**(٣)، والثاني: الإفراط الجاري في الذم مجرى التفريط، كالإسراف والتبذير المنهي عنه بقوله: **﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾**(٤)، وقوله: **﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً﴾**(٥)، والمعبر عنه بقول العامة :"الزيادة على الكفاية نقصان"، وأكثرما يعبر عنه بالفضلة والفضالة فالزيادة على الاعتبار الأول فضيلة، وهو استظهار في العدالة، وعلى الاعتبار الثاني رذيلة، وهو ترك العدالة، والتفضيل: يستعمل على وجهين، إما بمنحة خُصَّ الْمُفَضَّلُ بها نحو قوله: **﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾**(٦)، فإن ذلك أمورٌ خُصَّ بها بَنُو آدَمَ ابتداءً، وأما الحكم للمفضل بالْفَضْلِ الحاصل منه، نحو قوله: **﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً﴾**(٧)، فالأول : يجب على العبد به الشكر، إذ هو مَدْحٌ له، ولَيْسَ لَهُ بِهِ حَمْدٌ، والثاني: يجب له به حمد، ويستحق به الثواب، وأما العالمون: فقد تقدم الكلام فيه، وأنَّهُ تَارَةً يُقَالُ لجميع ما أوجده الله تعالى من الفلك، وما يحويه عالمٌ بلفظ الإفراد، وتارةً

---

١ - سورة النحل : الآية (٩٠).
٢ - سورة يونس : الآية (٢٦).
٣ - سورة البقرة : الآية (٢٣٧).
٤ - سورة الأعراف : الآية (٣١).
٥ - سورة الإسراء : الآية (٢٦).
٦ - سورة الإسراء : الآية (٧٠).
٧- سورة النساء : الآية (٩٥).

يقال لكل جنس نوع من الموجودات عالم وتارة يقال لأهل كل زمان عالم وتارة يُقَالُ لكل إنسان في نفسه عالمٌ، وذلك يقال على وجهين :أحدهما: إن الإنسان الواحد هو كالعالم في تخصيصه بمثال كل ما هو موجود في العالم والثاني: يقال ذلك للفاضل الكامل من الرجال، وبهذا النظر قال الشاعر:

فَوَاحِدُهُمْ فِي الْوَرَى عَالَمُ.[1]

إن قيل كيف قال: فضلتكم على العالمين وقد قال تعالى لهذه الأمة : ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ**﴾[2] الجواب: أن التفضيل الذي ذكره الله تعالي هو الفضيلة التي خص بها بنو آدم، المعنية بقوله: ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ**﴾[3] الآية. وبنو إسرائيل وإن كان قد شاركهم غيرهم في هذه النعمة، فإنهم لما نسوا نعم اللّٰه تعالى خُصُّوا بالنِّدَاء لتذكيرهم، كقولك: "يافُلَانُ نَسِيتَ نِعْمَةَ اللّٰه عَلَيْكَ"، وقد تقدم أنه ربما يُخَصُّ بالمخاطبة [4] لتَذْكِيرِهِمْ بَعْضَ المعنِيِّينَ بالحُكْمِ، لأنه أرفعهم منزلةً، أو لأن العناية به أكثر، أو لأن ذكره بالموضع المقصود إليه أَلْيقُ، وقيل: عنى بهذه الفضيلة فضيلةً خُصُّوا بها، وهي مَا أُعْطُوا من الْمَنِّ والسَّلْوَى وإظلالهم بالغمام، وَالْحَجَرِ الذي تفجَّر منه الأنهار، وغير ذلك، وقيل: إنه جعل كل فَرقة أو كل نفس في زمانهم عالماً، وذكر أنه فضلهم على غيرهم ممن في زمانِهمْ، وقيل: إنَّ ذَلِكَ بمارشحهم له من الإيمان بالله ورسوله والأعمال الصالحة، فَإنَّ مَن فَعَل ذلك كان هو الْمُفَضَّلُ على العالمين، كقوله: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ**﴾[5].

إن قيل : كيف قال ذلك وهذه النعم كانت على أسلافهم؟ قيل: قد قال بعضهم: لما ذكر اللّٰه تعالى ذلك في التوراة على سبيل الخطاب، أعاد اللفظ على الحكاية، وقيل: "النعمة على الإنسان ضربان": نعمةٌ تصل إليه من المنْعِمِ بلا واسطة، ونعمةٌ تصل إليه من المنعم بواسطة، أو بوسائط وذلك كتسخير اللّٰه مَنْ يزرع لنفسه زرعاً يصل إلينا نفعه على بعض الوجوه، فهذا الزارعُ[6] منعمٌ علينا، وعلى هذا قيل: إن اللّٰه تعالى منعمٌ على كل واحدٍ منا بأكثر ما يتعاطاه الناس من أعمالهم [7] من المهن والصنائع المرفقة لأنفسهم، ونحو هذه الآية قول اللّٰه -عز وجل- ﴿**اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ**﴾[8] وأعاده قوله:

---

١ - لم أهتد إلى قائله.
٢ - سورة آل عمران : الآية (١١٠).
٣ - سورة الإسراء - الآية (٧٠).
٤- في (أ - ص) بالخطاب .
٥ - سورة البينة : الآية (٧).
٦ - في (و-ج) الزراع، وهو تصحيف.
٧ - ساقطة - من (أ - ص) .
٨ - سورة المائدة : الآية (٢٠).

﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾، فلأن الأول: حَثٌّ على استبقاءِ نعمته بالوفاء بعهده، والثاني: لِتَبَيُّنِهَا [١] بتفضيلهم على العالمين.

قوله - عز وجل :

﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ ﴾.. الآية (٤٨) سورة البقرة.

الجـزاء، والمكافـأة،[٢] والمقابلة متقاربةٌ، لكنَّ الْجَزَاءَ أَعَمُّهَا، لأن المكافأة: يعتبر فيها المماثلةُ والْمقَابلَةُ: يراعى فيها الْمُجَازَاةُ، والجزاء لا يُرَاعَى فيه شيٌ من ذلك، ويُقَالُ: جَزَاهُ "بلا همزة"، يجزيه، أو "أجزأه" بالهمزة، ففي الجزاء معنى العناء ، والقبولُ تناولُ المقبل، ومنه القابل : المتناول الدلو، وأصل ذلك من قَبل وقُبل، فقبل يستعمل في المتقدم المنفصل، ويُضَادُّهُ بَعد، وقبل: في المتصل، ويضاده: دبرٌ، وقد جُعِلَ كنايةً عن السَّوْءَتَيْنِ، ويقابل الْقَبُولَ الردُّ. والشَّفَاعَةُ: جعل الفرد شفعاً[٣] يُقَالُ: شَفَعْتُ له، أي صِرْتُ شَفَعاً لَهُ بانضمامي إليه، وعُبرَ عمن انضم إلى غيره في طلب ما "شَافِعٌ"، وعلى ذلك **قول الشاعر:**

لَهُ مِنْ عَدُوٍّ مِثْلُ ذَلِكَ شَافِعُ[٤]،

ومنه الشُّفْعَةُ، وأصلها ضَمُّ مِلْك إلى مِلْكِه، وشَفَعَهُ بِهِ، والْعَدْلُ: التسوية، يُقَالُ: عدلته، وانعدل،وعدلته، فاعتدل، وعدل الشئ مساويه بلا إفراط ولا تفريط، وأكثر ما يقال في المساوي من حيث الحكم نحو قوله – عز وجل:

﴿ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا ﴾[٥]، وَالْعَدْلُ :يقَالُ في المساوي [٦] في الكمية في الْوَزْنِ وَالْكَيْلِ، وقيل الفداء : العدل إذا اعتُبِرَ فيه مَعْنَى المساواة، وقولهم: «لايُقْبَلُ مِنْهُ صَرْفٌ وَلاَ عَدْلٌ»[٧].

---

١ – فى (و – ج) لتبينها　　　٢ – في (أ – ص) والمكافآت .　　　٣ – في (أ – ص) ضم الشئ إلى مثله .

٤– هذا عجز بيت للنابغة الذبياني وتمامه : –

أتاك امرؤ مستبطن لي بغضه　　　له من عدو مثل ذلك شافع

وهو من قصيدة مطلعها :–

عفا ذو حسًا من فرتني فالفوارع　　　فجنبا أريكٍ فالتلاع الدوافع

وهو فى ديوان النابغة – ص ١٢٤.

٥ – سورة المائدة : الآية (٩٥).

٦– في (أ –ص) للمساوي .

٧ – هذا جزء من حديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلي الله عليه وسلم : (من تعلم صرف الكلام ليسبي به قلوب الرجال أو الناس ، لم يقبل الله منه يوم القيامة صرفاً ولاعدلاً) أخرجه أبو داود في سننه فى الأدب برقم (٥٠٠٦)، وقال المنذري في الترغيب والترهيب فيه انقطاع. الترغيب والترهيب ج : ١ ص٦٩، وأورده الراغب في المفردات ص ٤٨٢، ٥٥٢، وهذا الحديث أيضاً مروياً عند البخاري ولفظه : (المدينه حرام مابين عير إلي ثور ، فمن أحدث حدثاً أو آوى محدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لايقبل منه حرف ولاعدل) أخرجه البخاري في الجهاد وأورده ابن حجر العسقلاني في فتح الباري ج : ٦ ص٢٠٠ ، وأخرجه مسلم فى الحج برقم : ١٣٧٠ .

وتفسيرهم بأن العدل: الفريضة، والصرف:النافلة، فمن حيث أن العدل هو المساواة، وتعاطيه واجبٌ، والصرف: الزيادة الحاصلة عن التصرف،وتعاطيه تَبَرُّعٌ وهما كالعَدْلِ والإحْسَانِ. والنصرة أخصُّ من المعونة، فإنها تختصُّ بدفعِ الشرِّ والظلم،وقيل أرضٌ منصورةٌ: إذا أتاها المطر بعد طول مدة، والقصد بالآية التقوى من يوم لايكفي أحدٌ أحداً. وقد أعاد تعالى هذا المعنى في غير موضع، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ لا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا﴾[1].

وقوله: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ﴾[2]، وقوله: ﴿وَاخْشَوْا يَوْمًا لاَّ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا﴾[3]. تنبيهاً أن لكل واحد ما يستصحبه من الإيمان والأعمال الصالحة، كما قال: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ﴾[4]، إن قيل: كيف قال ذلك، وقد أثبتت الشفاعة في غير آية، قيل: هذا رَدٌّ على اليهود فيما ادعوه حيث قالوا: «نحن أبناء الأنبياء وهم يشفعون لنا وإن ارتكبنا (ما ارتكبنا) [5]، فنبه على أنه ليس لهم شفاعة كما قال: ﴿يَوْمَئِذٍ لاَّ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً﴾[6]، وقوله: ﴿وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾[7]،والضمير من قوله عز وجل ﴿وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا﴾ راجع إلى النفس الأولى وقيل أنه أيضاً أنه راجع إلى الثانية، وفي قوله: ﴿وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا﴾ راجع إلى الثانية لا محالة، وقوله: ﴿وَلا هُمْ يُنصَرُونَ﴾، أي ليس لهم من ينتصر من الله تعالى بأن يمنعهم من عذابه إشارةً إلى قوله تبارك وتعالي : ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ﴾[8]، وقوله: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِي﴾، قيل : معناه: ﴿لاَّ تَجْزِي﴾ فيه، فحذف، وهو قول الكسائي، وقال البصريون: وَصْلُ الْفِعْلِ إليه.

فنصبه نحو قول الشاعر :

وَيَوْمٍ شَهِدْنَاهُ سُلَيْماً وَعَامِراً[9]

ثم حذف الهاء كحذفه من "الذي ضربت". وحقيقة الخلاف أن ما يقدر الكسائي حذفه بدُفعةٍ يقدره البصريون بدفعتين، ولا خلافَ أن الأصل كان في ذلك فيه وأنه لا يطرِدُ في كل مكان حذفُ الجار مع المجرور.

١- سورة الدخان : الآية (٤١) .

٢ - سورة عبس : الآيتان (٣٤ ، ٣٥) .

٣ - سورة لقمان : الآية (٣٣)

٤ - سورة النجم : الآية (٣٩) .

٥ - ساقطة من (أ-ص) .

٦ - سورة طه : الآية (١٠٩).

٧ - سورة الأنبياء : الآية (٢٨).

٨ - سورة الصافات الآيتان (٢٤. ٢٥)

٩- هذا صدر بيت وتمامه :-

ويومٌ شهدناه سليمًا وعامرًا ... قليل سوى الطعن النِّهال نوافله

والبيت .. قائله رجل من بني عامر كما في الكتاب ج : ١ - ص ١٧٨ . والبيت من غير نسبة في المقتضب ج : ٣ -ص ١٠٥ والكامل ج: ١ - ص ٣٣، والشعر - ص ٤٥، وشرح الحماسة ص ٨٨، والمقرب ج : ١ -ص ١٤٧، والتبصرة ص ٣٠٨، ٥٢٩، ومجمع الأمثال ج: ١ -ص ١٢ ، والمغني ص ٥٠٣، وشرح ديوان المتنبي المنسوب خطأ إلى العكبري ج : ١ -ص ٢٩٩، وإعراب القرآن المنسوب خطأ إلى الزجاج ص ٤٥٠، وشرح أبيات المغني ج : ٧ -ص ٨٤، واللسان (جزى)، وأورده ابن الشجري في أماليه ج: ١- ص٧ تحقيق د/محمود الطناحي - كذلك أورده أبو على الفارسي في كتاب الشعر ج : ١ - ص ٤٥. وهو في (أ - ص) ويومًا شهدناه سليما وعامرا.

قوله - عز وجل :

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ الآية (٤٩) سورة البقرة..

أصل النجاء: طلب الخلاص، ويقال لمن عدا نجا، لكون العدو أحد أسباب التخلص، فإن الله تعالى جعل للحيوانات قوتين تزيل بهما الأذى، قوةً بها تهرب مما يؤذيها، وقوةً بها تدفع ما يؤذيها، فمن الحيوانات ما يختص بأحديهما، ومنها ما جُعِلَتا جميعاً له، فإذاً: العدو أحد أسباب الخلاص، فصحٌ أن يُعَبَّرَ عنه به، وقيل: (نجا فلان)، إذا ألقى ثوبه وذلك استعارةً له، كما استعير إلقاء الثوب للعدو في نحو قولهم: "ألقى بزه" وخلع ثوبه، وعلى ذلك قوله:

أَلْقَيْتُ لَيْلَةَ خَبْثِ الرَّهْطِ أَرْوَاقِي(١)

وسميت الربوة "نَجْواً" اعتباراً بأنه منجي مَن السيل وكثير من الآفات التي تكون في الوهاد، وكنى عن العذرة الملقاة بالنجو إما اعتباراً بأنه خلاصٌ من الأذى، أو كنايةً عنه بالنجو ، كما كنى عنه بالغائط ولما اعتقد في السر أنه خلاصٌ من الوُشَاةِ والعِدَاة سُمِّيَ بِنَجْوَى، وبهذا النظر قال الشاعر:

وَنَجْعَلُ نَجْوَانَا نَجَاةً مِنَ الْعِدَا..(٢)

والآل : قيل هو مقلوب عن الأهل، كالماء عن الموه، ويُصَغَّرُ على أُهَيْل، كما أن الماء مُصَغَّرٌ(٣) على مُوَيْه، إلا أنه خُصَّ بالإضافة إلى أَعْلاَمِ النَّاطِقِينَ دُونَ النَّكِرَاتِ ودُونَ الأزمنة والأَمْكِنَةِ، يُقَالُ: "آلُ فُلاَنٍ"، ولا يُقَالُ: آلُ مَكَّةَ، وَزمان كَذَا: هو إسمٌ للشَّخْصِ، ويُصَغَّرُ عَلَى "أُوَيْلٍ"، وهو قول الكسائي، ويُستَعْمَلُ فيمن اختص بالإنسان اختصاص ذاته به إما بِقَرَابَتِه قربته(٤)، أو بِمُوَالاَةِ دينه، أو كالدينية، فقد أجرى الموالاة الدينية مجرى القرابةِ و اللُّحْمَةِ حتى قال تعالى: **﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾**(٥)،

---

١ - هذا عجز بيت لتأبط شراً ثابت بن جابر وتمامه :-

نجوت منها نجائي من تحيلة إذ ... ألقيت ليلة خبث الرهط أرواقي

ديوان تأبط شراً ثابت بن جابر.

٢ - بحثت عنه فلم أجده.

٣ - في (و - ج) يصغر مويه.

٤- ساقطة من (أ - ص).

٥ - سورة المائدة : الآية (٥١).

وقال: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾[١]، وقال في نوح وابنه: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾[٢]، والاختصاص المذكور **قال تعالى:**

﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾[٣]، ولاختصاص[٤] الآل بما قلنا، قال تعالى: ﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾[٥]وقال هذا القائل: أهل الدين من النبي -عليه السلام- ضربانِ: ضربٌ يتخصص منه بالعلم المتقن والعمل المحكم، فيقال لهم: آلُ النَّبِيِّ، وضربٌ يتخصص منه بالعمل على سبيل التقليد دون العلم المتقن، ويقال لهم أمة، فَكُلُّ آل النَّبِّي أمتُهُ، وليس كلُّ أُمَّتِهِ آلَهُ، وقيل لجعفر بن محمد: إنَّ نَاساً يَقُولُونَ:المسلِمُونَ كلهم آلُ النَّبي، فقال: كَذَبُوا وصَدَقوا، قيل: فما معنى كَذَبُوا وَصَدَقُوا؟ قال: كَذَبُوا: أن النَّاسَ على ما هم عليه من التقصير في دينهم هُمْ آلُ مُحَّمدٍ، وصَدَقُوا: أنهم آله إذا قَامُوا بِشَرِيطَةِ شَرِيعَتِهِ، فَمِنْ ضيع الشَّرِيطَةَ، فَلَيْسَ مِنْهُ وإن قَرُبَ نَسَبُهُ، وَمَنْ حَافَظَ على شريطته فهو منه وإن بعد نسبه، والسَّوْمُ: أصله الذهابُ في إبتغَاءِ الشَّيْءِ، فَهُوَ لَفْظٌ لِمَعْنَى مركب الذَّهَابِ والابتغاء فَإِنَّهُ جَرَى مَجْرَى الذَّهَابِ، فَقِيلَ: "سَامَ الإِبِلَ"، فهي سائمةٌ إذا ذهبت في المرعى، و"سمته كذا"، كقولك نعيته كذا، ومنه السوم في البيع، فعدى تعديته والسوء: يتناول كل ما يسوء الإنسان من آفة وداء، ويقال: السوء والسوى، أي: نحو الحسن والحسنى، وعلى سبيل كراهية ذكر الفرج والنظر إليه، كنى عنه بالسوءة، وكذا كنى عن البرص بها، وسوء العذاب: أي شدة العذاب، والذبح أصله شق الأوداج، وقيل: ذبحت الفارة النافجة على الاستعارة، لماشبه ذلك الوعاء بفارة فسمي بها، والذباحة: داءٌ كأنه يذبح بشدته وكونه في المذبح، وخصت سنا يكثر في الأدواء، نحو: خراجة تخصيص التذبيح دون الذبح تنبيهاً على كثرة ذلك منهم، والاستحياء: كالاستبقاء، وهو تَحَرِّي طَلَبِ الْحَياةِ فِيهِنَّ، وقيل: معناه: يَبْتَغُونَ مَا فِي أَرْحَامِ النِّسَاءِ مشتقاً من

---

١ - سورة إبراهيم: الآية (٣٦).

٢ - سورة هود: الآية (٤٦).

٣ - سورة آل عمران: الآيتان: (٣٣، ٣٤).

٤ - في (و- ج) والاختصاص.

٥ - سورة غافر: الآية (٤٦).

الحيا، أي الفرج، والبلاء أصله من قولهم: بلى الثوب بلى، وبلاءً، وقيل "بلوت فلانً" أى أخبرته كأني أخلقته من كثرة اختباري له، ولهذا قيل: "لَبِسْتُ فُلاَناً"، أي :خبرته،وسمي الغم بلاءً من حيث أنه يُبْلى الجسم، وسمي التكليف بلاءً من أوجه، الأول: أن التكاليف كُلَّهَا مَشَاقٌ على الأبدان، فصارت من هذا الوجه بَلاَء، والثاني: أن التكاليف اختباراتٌ، وكذلك[١] قال:﴿ وَلَنَبْلُونَّكُم ﴾[٢]، وقال: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾[٣]،ونحو ذلك، والثالث: أنه لما كان اختبار الله تعالى لعباد تارةً بالمسار ليشكروا، وتارةً بالمضار ليصبروا، صارت[٤] المنحة والمحنة جميعاً بلاءً، فالمحنةُ: مقتضيةٌ للصبر والمنحة: مقتضيةً للشكر، وكأن القيام بحقوق الصبر أَيْسَرُ مِنَ الْقِيَامِ بحقوق الشكر لما بيناه في كتاب: (شَرَف التَّصَوُّفِ)، فصارت المنحة أَعْظَمَ الْبَلاَءِ، وبهذا النظر قال أمير المؤمنين علي- رضي الله عنه وكرم الله وجهه :«مَنْ وُسِّعَ عليه[٥] في دنياه، ولم يعلم أنه مُكِرَ بِهِ، فهو مَخْدُوعٌ عن عقله»[٦] والرابع: أنه رُبَّ مِنْحَةٍ تعقبُ محْنةً، ومحنة تفضي إلى مِنْحَةٍ، ولهذا قيل: «رُبَّ مغبوط بنعمة هِيَ دَاؤُهُ، وَمَرْحُومٍ لِشِدَّةٍ هي شِفَاؤُهُ»، فإذاً : من النعمة[٧] مَا هُوَ نِقْمَةٌ" ولكون البلاء متناولاً للأمرين، قال تعالى: ﴿ **وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ** ﴾[٨]، وقال: ﴿ **وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً** ﴾[٩]، وقالوا "في الخير والشر معاً: بلاه"، فإذا أفردا قالوا [في الخير: ابلاؤه ، وفي الشر بلاه،][١٠] وقال تعالى: ﴿ **وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَناً** ﴾[١١]، وأما **قول الشاعر:**

جَزَى الله بالإحسان مَا فَعَلاَبِكُمْ وَأَبْلاَهُمَا خَيْرَ الْبَلاَءِ الَّذِي يَبْلُو.[١٢]

١- في (أ - ص) ولهذا

٢- سورة محمد : الآية: (٣١).

٣- سورة المائدة : الآية (٤٨). ، وسورة الأنعام : الآية (١٦٥).

٤ - في و - ج) ، (أ - ص) صار.

٥ - في (و - ج) من وسع دنياه.

٦- أورده الزمخشري فى ربيع الأبرار ونصوص الأخيار ج:١ - ص ٤٥ ، كما أورده الفيروز آبادي فى بصائر ذوي التمييز ج:٢ ص ٢٧٤ ، وأورده الراغب فى مفردات ألفاظ القرآن - ص ١٤٦ ، ٧٧٢ .

٧ - في (و - ج) النقمة، وهو تحريف.

٨ - سورة الأعراف : الآية (١٦٨).

٩ - سورة الأنبياء : الآية (٣٥).

١٠- في (أ - ص) في الخير أبلاه، وفي الشر أبلاه.

١١ - سورة الأنفال : الآية (١٧).

١٢- في (و - ج) **وكلاهما خير البلاءالذي يبلو جزى الله بالإحسان ما فعلا بكم**

والبيت لزهير بن أبي سلمى وهو أحد الشعراء الجاهليين وأحد أصحاب المعلقات ، والبيت فى ديوانه ص ٦١ ، وفى تفسير القرطبي ج:١ - ص ٣٨٧ ، وفى تفسير الماوردي ج:١ - ص ١٠٥ ، وفى تفسير البحر المحيط ج:١ - ص ١٨٩ .

فمعناه: أعْطَاهُمَا الله خَيْراً فيما يمنحهما به، وجعل لهما بدل المكروه محبوباً، فقوله: ﴿ **وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ** ﴾ راجعٌ إلى الأمرين إلى المنحة التي هي الإنجاء من آل فرعون المقتضية للشكر، وإلى المحنة التي هِيَ ذَبْحُهُمْ واسْتِحْيَاؤُهُمْ للنِّسَاءِ المُقْتَضِيَةِ للصَّبْر، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿ **وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** ﴾[1] فإذا صح ذلك، فقول مجاهد وابن جريج: أنه أراد في إنجائكم منهم نعمةً، نظرمنها إلى مبدأ الآية، وهو قوله: ﴿ **أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ** ﴾[2]، وقول مقاتل: «أراد في قتل الأولاد واستحياء النساء شدة نحو قوله: ﴿ **إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ** ﴾[3]، نظر منه إلى منتهى الآية، وهو قوله: ﴿ **يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ** ﴾، وكلا القولين صحيح، وقول السدي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- أراد بقوله: "بلاء" أي نعمةٌ أو نقمةٌ تصريح أن الأمرين مرادان وليس قوله (أو) ههنا شكاً منه كما ظنه بعض المفسرين، وقال إن ذلك شكٌ من السُّدِّي، بل ذلك روايةٌ عن ابن عباس- رضي الله تعالى عنهما- تنبيهاً منه أن النعمة والنقمة في هذه الجملة حاصلتان، وكلٌّ واحدٍ منهما موجودٌ فيها، وفي الآية تذكيرٌ لهم بما أولاهم من النعم في إنقاذهم من آل فرعون [وما كانوا يسومونهم من العذاب، وكان الأصل فيما روى أن فرعون][4] رأى في المنام، أو قال له الكهنة: سيولد في هذا العام مولودٌ يَذْهَبُ بِمُلْكِك، فجعل على كل عشرٍ من النساء رَجُلاً، فقال: انظروا إلى كل امرأةٍ ولدت، فإن كان ذكراً، فاقتلوه، وإن كان أنثى فأبقوه، وكان ذلك أعْظَمَ للرزية كما قال الشاعر:

وَمِنْ أَعْظَمِ الرُّزْءِ فِيمَا أَرَى ... بَقَاءُ الْبَنَاتِ وَمَوْتُ الْبَنِينَا[5]

وقيل كان ذبْحهُمْ للأبناء استخدامهم في الأعمال القذرة الجارية مجرى أعظم الذبحين القتل، والإهانة"، قال: وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ** ﴾[6]، وفيها حثٌّ لنا على تذكر نعمه ومراعاتها واحدةً واحدةً، وتجديدُ الشُّكْرِ لكلٍّ منها...

---

١ - سورة الأعراف : الآية (١٦٨).
٢ - سورة الأعراف : الآية (١٤١)
٣ - سورة الصافات : الآية (١٠٦).
٤ - ساقطة من (أ - ص).
٥- هناك بيت يشبه، ولا أدري إن كان نفسه أم لا وهو للبحتري يقول فيه:-

ومن نعم الله لاشك فيه ... بقاء البنين وموت البنات

٦ - سورة القصص : الآية (٤).

قوله - عز وجل :
﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ . الآية : (٥٠) سورة البقرة.

الفَرْقُ، والفَلْقُ كالفصل، لكن الْفَلْقَ لا يكُونُ إلاَّ بَيْنَ جِسْمَيْنِ، والفرق : قد يكون في الأجسَام والْمعَاني، وفي هذه القصة قد جاء اللفظان، قال تعالى: **﴿فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾**[١] أي كُلُّ قطْعَةٍ من الماء، والفرقان: كلُّ كتَابٍ يَفْرقُ بين الأحكام، وسمي عمر - رضي الله تعالى عنه- فَارُوقاً لأجل أن النبي ﷺ قضى ليَهُودِيٍّ على مُنَافقٍ، فأتى عُمَرَ وقال "إن مُحَمَّداً قضى بَيْني وبيْنَ هذا، ولَسْتُ أَرْضى قضاءهُ فاقضْ بيننا"، فقال: أَوَ رَضِيتَ قَضَائي؟ قال : نعم، فدخل داره، وأخرج السيف وحزَّ رأْسَهُ، فنَزَلَ جِبْرَائِيْلُ -عليه السلام- وقال: **(إن عمر قد سمى في السماء فاروقاً)**، والبحر: استعير للسعة، فقيل: بحرت كذا أي: "وسعته كسعته"، وقيل بحرت الناقة: أي: شققت أذنها شقاً واسعاً، والباحر: الأحمق الموسع عليه من جهة رفع حجر العقل عنه، وكأنه اعتبر في تسميته بذلك مقابلة العاقل، فقد جعل أسماء العقل كلها معتبراً فيه الضيق، والشدة، والفرق، والرسوب في المآثم شبه به غيره حتى قيل: غرق فلان في النعمة، وغرقه من اللبن أي مليء قدح، وأغرق في الشئ إذا تناهى والنظر نظران، نظر بصر، وبه يدرك المحسوسات ونظر بصيرة، وبه يدرك المعقولات، ونظر البصر كالخادم لنظر البصيرة فإن كان كلاهما سبيلاً إلى المعرفة، والنظير[٢] أصله للمناظر، كأنه ينظر كل واحد من الناظرين إلى صاحبه في المشاكلة، وناظرته: باريته في النظر، وأنظرته: تركته ينظر فيطلب، ومعنى الآية ما ذكره في قوله **﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ﴾**[٣] الآية، وفي قوله: **﴿فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا﴾**[٤]، وفي قوله تعالى: **﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾**[٥]، وقوله: **﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾**.. لما كان النظر متردداً بين المحسوس الذي منه

---

١ - سورة الشعراء : الآية (٦٣).
٢ - في (و - ج) والنظر.
٣ - سورة الشعراء : الآية (٦١).
٤ - سورة طه : الآية (٧٧).
٥ - سورة الشعراء: الآية (٦٣).

الإبصار، والنظر المعقول الذي منه البصيرة، نظر كل واحدٍ من المفسرين نظراً ما، فقال: من نظر نظر محسوس معناه (وأنتم تشاهدونه)، فقد روى أنه أفرد لكل سبط طريق من الماء، وجعل الحاجز الذي بينه وبين الآخر مشفاً كالزجاج[١] ينظرون منها إلى الآخرين، وقال بعضهم: قذف [٢] الماءُ بجثث آل فرعون بعد إغراقهم إلى الشط، فكان الناس ينظرون إليهم، وعلى ذلك حمل قوله: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً﴾[٣]، وقال: "مَنْ نَظَر نَظَرَ مَعْقُول" معناه: وأنتم تعتبرون بذلك، [وقيل معناه: "وأنتم مُتَمكِنُونَ مِنَ النَّظَرِ، أي الاعتبار بذلك][٤]، وقال بعضهم: في الآية مع إرادة هذا المعنى، أو النعمة المحسوسة التي أولاهم، إشارةٌ إلى معنى آخر، وإلى نعمةٍ معقولةٍ أعطاهم، فإنه أشار بالبحر إلى الشُّبَهِ التي تَعْتَرِي[٥] وتفرقه إلى إزَالَتِهَا، وبإغراق آل فرعون إلى إبطال الكفر وبالنظر إلى المعرفة والتمكن منها بما أولاهم من البصيرة والتمييز، وهذا الذي ذكره هذا [القائل][٦] صحيحٌ أنه تعالى فعله بهم اقتضاه لفظ الآية، أو لم يقتضه..

---

١ - ساقطة من (أ - ص).
٢ - في (و - ج) وفي الماء، وهو خطأ من الناسخ.
٣ - سورة يونس : الآية (٩٢).
٤ - ساقطة من (و - ج).
٥ - في (أ - ص) يعتري.
٦ - زيادة في (أ - ص).

قوله - عز وجل :
﴿ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴾

الآية (٥١) سورة البقرة..

قُرِىءَ: "وَاعَدْنَا" [١] اعتباراً بالموعود وقبوله من الواعد وعده، فكان من كل واحد منهما وعداً، هذا بالإعطاء، وذاك بالقبول، "ووعدنا"[٢] هو للاعتبار بالواحد دون الموعود، وعلى الثاني أكثر ما في القرآن نحو: ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ ﴾[٣]، ﴿ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً ﴾[٤] ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ ﴾[٥]، وتقدير أربعين ليلة انقضاؤها، كقولك: اليوم أربعون يوماً منذ خرج زيد، أي تمامها، وقيل: إنما وعدهم ذلك في الأربعين، وأن لا يتجاوز هذا القدر، وهو الأصح، وقوله: ﴿ وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ ﴾[٦] على ذلك، فإنه قيل له: يكون ذلك انقضاءَ ثلاثينَ، ثم كَانَ عند الأربعين، فلم يكن في الوعْدِ إخلافٌ، وإنما كان فيه بعضُ الإبْهَامِ، فلهذا التبس عليهم، وذكر تعالى عظم جهلهم، وأنهم بعدما أعطوا من البينات ورشحوا لما وعدوا، تهافتوا على عبادة عجْلٍ اتخذُوهُ. وقوله: وأنتم ظَالِمُونَ: عنى به الظلم المطلق وهو الكفر، وقد تقدم الكلام في أنواع الظلم وأنها بالقول المحمل ثلاث: أعظمها الكفر، وفي الآية حثٌّ على معرفة ما وعدنا الله تعالى به ومراعاته والمنع من الاشتغال عنه تعالى بشئ [٧] بغيره، وعلى هذا الوجه قال بعض الناس: كل ما شغلك عن الله فهو عجلٌ متخذٌ، وطاغوتٌ متبعٌ، وشيطان مطاعٌ، ومبدأ كل ذلك اتباع الهوى، ولذلك قال: ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾[٨] وقال: وهذا وإن لم يكن كفراً فهو شرك، وبهذا الوجه قال تعالى: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾[٩]

١- قرأ الحسن وأبو رجاء وأبو جعفر وشيبة وعيسى بن عمر وقتادة وعبدالله ابن أبي اسحق (واعدنا).

٢ - قرأ أبو عمرو وعاصم الجحدري وأبو جعفر والحسن وشيبة وعيسى بن عمر وقتادة وعبد الله بن أبي إسحق وأبو حاتم وأبو عبيد ويعقوب واليزيدي وابن محيصن (وعدنا)- معجم القراءات القرآنية - ج: ١-ص٥٥.

٣ - سورة إبراهيم : الآية (٢٢).

٤ - سورة البقرة : الآية (٢٦٨).

٥ - سورة الأنفال : الآية (٧).

٦ - سورة الأعراف : الآية (١٤٢).

٧ - في (أ - ص) بغيره.

٨ - سورة ص : الآية (٢٦).

٩ - سورة يوسف : الآية (١٠٦).

وقوله - عز وجل:
﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ سورة البقرة الآية (٥٢)...

العفوُ: القَصْدُ لِتَنَاوُلِ الشَّئ، يقال: عفاه، واعتفاه، وعفت الريح الدراري، قصدته متناولةً منها أثارها، ولهذا المعنى قال الشاعر:

أَخَذَ البِلَى آياتهـــــــــا[١] ..

وإذا قيل: "عَفَا فُلاَنٌ عن فُلاَنٍ"، كأنه قصد تناول شيءٍ مَا مُنصَرِفاً عَنْهُ، والمفعول به متركٌ لكونه غير مقصودٍ، وذلك كقولهم: ذهبت عما ارتكبته، وتجاوزت عنك: أي تجاوزت إلى شيءٍ ما و"عفا النبت والشّعر"، أي قصد تناول الزيادة كقولهم: أخذ النَّبْتُ في الزِّيَادَةِ، وقولهم: "أَعْطَى عفواً، فعفوا، مصدر في موضع الحال، أي أعطى، وحاله حال العافي في الاهتزاز- إشارةً إلى المعنى الذي عُدَّ بَدِيعاً للشعراء [٢] في نحو قول الشاعر:

كَأَنَّكَ تُعْطِيهِ الَّذِي أَنْتَ سَائِلُهُ[٣]

والشكر: مقابلة الصنيعة بإظهار[٤]، ومنه : دابةٌ شكورٌ، إذا كانت مُظْهِرةً احسَانَ صَاحِبَهَا إِلَيْهَا، و"ضره شكرى" من[٥] ذلك والشكر: كنايةٌ عن الفرج المزوج، لكونه مقابلاً للمهر مقابلة الشكر للمشكور عليه، والشكر ضربٌ من العدالة، إذ هو في مقابلة النعمة، وأعم من المكافآت، فإن المكافأة يعتبر فيها تارةً مماثلة في الكمية، وتارةً في حال المكافئ والمكافأ، والشكر: لا يعتبر فيه ذلك. وأيضاً فالشكر قد يكون باللسان تارةً، وبالمقابلة تارةً، وقد تقدم الكلام في (لعل) وأنه وإن كان مقتضياً

١- هذا جزء من عجز بيت لعدي بن الرقاع العاملي وهو فى ديوانه ص ٤٩ وتمامه.

عرف الديار توهما فاعتادها ∴ من بعدما أخذ البلى أبلادها

وهو فى مفردات الراغب ص ٥٧٤ .

٢ - في (أ - ص) المعنى الذي عد بديعاً من قول الشاعر.

٣- هذا عجز بيت لزهير بن أبي سلمى من قصيدة يمدح بها حصن بن حذيفة بن بدر ومطلعها :-

صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله ∴ وعرّى أفراسُ الصبا ورواحله

وتمام هذا البيت :- تراه إذا ما جئته متهللاً ∴ كانك تعطيه الذي أنت سائله

والبيت فى ديوان زهير ص ٨٤ ط : دار صادر - بيروت. كما أورده الراغب فى مفردات ألفاظ القرآن ص ٥٧٤ .

٤ - في (أ - ص) بإظهارها.

٥ - في (أ - ص) على ذلك.

للرجاء، فليس على الاعتبار به تعالى، فإن الرجاء لمن يخفى عليه العواقب، ولا يتمكن من كل ما يريده، والقصد بالآية "بتبين عفوه عنهم بعد ارتكابهم الجرائم ليتحروا شكره المقتضي لرحمته" تنبيهاً لنا أن نراعي عفوه وإحسانه- راجين بلوغ شكره بالأفعال الحميدة، وقوله: (مِن بَعْدِ ذَلكَ): أي من بعد اتخاذكم العِجْلَ، وإنما لم يقُل: (ذَلِكُمْ) لأن كَافَ الخَطَابِ إذا اتصل بالمبهمات يصير كَوَصْلِهِ لَهاَ وجُزْءاً مِنْهَا، فتارةً يُعَتَبَرُ فيه الأصل فَيُجْمَعُ، وتارةً يعتبر فيه [1] كونه وصْلَةً لاَخِطَاباً، فيترك على حالته لا يثنى ولا يجمع.

قوله - عز وجل :
﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾. : الآية (٥٣) – سورة البقرة .

الكتابُ والفُرْقَانُ: اسمان لشيءٍ واحدٍ، لكن يقالان باعتبارين مختلفين، أما الكتابُ، فلجمع الأحكام المتفرقة فيه[2]، وأما الفُرْقَانُ: فلكونه مفرقاً بين الحق والشبهة وبين الأحكام المختلفة، وأتى باللفظين تنبيهاً على تضمين التوراة للمعنيين، وهذا أصحُّ من قوْل من قال: تقديره: "وإذ آتينا موسى الكتاب ومحمداً الفرقان"، فإن التوراة والقرآن[3] كُلُّ واحدٍ كتابٌ من وجهٍ، وفرقانٌ من وجْهٍ، وقد قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾[4]، وما قالوه من أن الفرقان أريد به فرق البحر، فلا يمتنع إرادته مع ما تقدم، والإيتاء منقولٌ عن: أتَيْتُ، لكن تُعُورِفَ في الإعطاء لماَّ كَانَ الإعْطَاءُ ضرْبَانِ من الإيتاء. وقد تقدم الكلامُ في"لعل" وفي الابتداء.

---

١ – ساقطة من (أ – ص).

٢ – في (أ – ص) منه.

٣ – في (أ – ص) الفرقان.

٤ – سورة الأنبياء : الآية (٤٨).

قوله - عز وجل :

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ . الآية :(٥٤)- سورة البقرة

قد تقدم الكلام في الظلم، فأما ظلم النفس، فقد يُقَالُ لكل فعل يباعدها عن توفيق الله تعالى في الدنيا وعن ثوابه في الآخرة صغيراً كان أو كبيراً، وقوله: **﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾**[١]، وقوله: **﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾**[٢].

فالأظهر أن فِعْلَ الفاحشة وعَمَلَ السُّوء للكبيرة، وظلم النفس في الآيتين للصغيرة. وفي الجملة: فإن ظُلْمَ النَّفْسِ هو الخروج عن الاعتدال صغيراً كان أو كبيراً، وقوله :"بَارِئِكُمْ" فأصل البرء خلوص الشيء عن غيره إما على سبيل التقصي منه، أو على سبيل الإنشاء عنه، فعلى التقصي قولهم: برئ فلان من مرضه، والبايع من عيوب مبيعه، وصاحب الدين من دينه، ومنه: استبراء الجارية، فإنه أراد تقصيها من "مَا" ومن "عسى" أن قد غشيها من قبل، وعلى سبيل الإنشاء: قولهم: أبرأ الله الخلق، وقوله تعالى: **﴿الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ﴾**[٣]، فإشارة إلى أحوالٍ ثلاثٍ، فالخلق: إلى إيجاد البدن، والْبُرءُ: إلى إيجاد الروح، وهي النسمة التي عناها أمير المؤمنين بقوله: «والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة»، والتصوير إلى الجمع بينهما وإلى ثلاثتها أشار بقوله: **﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾**[٤] الآية.. ، وإلى ذلك أشار بقوله: **﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾**[٥]، وأما البرية، فكثيرٌ من الناس ذهبوا إلى أنها منه، فترك همزة، كالذريةِ والنبيِّ والْخَابِيةِ، ومنهم من قال: البرى. أي التراب، أو من البرى، وإليه ذهب الكسائي فبرا هي اعتباراً بالأرواح، وبرى اعتبراً بالأشباح، والقتلُ معروفٌ، وقد يستعمل في معنى

---

١ – سورة آل عمران – الآية : (١٣٥).

٢ – سورة النساء ، الآية (١١٠).

٣ – سورة الحشر : الآية (٢٤).

٤– سورة ص الآيتان (٧١ ، ٧٢).

٥ – سورة الزمر : الآية (٦).

التذليل وإزالة السورة، يقال: قتلت الدابة[١]، أي: ذللتها، وقتلت الخمر: أزلت سورتها بالمزج، **قال الشاعر:**

إِنَّ الَّتي نَاوَلْتني فَرَدَدْتُهَا   قُتِلَتْ قُتِلْتَ فَهَاتِهَا لَمْ يُقْتَلِ.[٢]

وفُلاَنٌ قَتَل فُلاناً، أي :مثله، فأصله مقاتلة، فتصوُّرَ منه معنى المماثلة، لكون المقاتلين متماثلين في فعليهما المختص بهما، وإذا قيل: فلانٌ قتل نفسه، فقد يقال: إذا فعل بنفسه فعلاً أزال[٣] به الروح، وقد يقال إذا سلم نفسه للقتل، وإن كان أكثرما يقال في ذلك المستقتل، وقد يقال: إذا قيل من يختص به اختصاص نفسه نحو: **فَلَمْ أَقْطَعْ بِهِمْ إِلاَّ بَنَانِي، وقوله: وإِذَا رَمَيْتُ يُصِيبُنِي سَهْمِي،**

وقد يقال: "قَتَلَ فُلاَنٌ نَفْسَهُ، إذا ضيع حظها في طلب الآخرة، فأدى به ذلك إلى زوال حياته الأبدية، وذلك مذمومٌ، وقد يقال في ضد ذلك وهو إذا أفنى شهوته وذلك هواه في الدنيا طلباً للآخرة، وذلك مَحْمُودٌ، وعلى الأول قال جعفر بن محمد في قوله: **﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾**[٤] أي: اطلبوا لهاالحياة الأبدية، وعلى هذا قيل: "قَتْلُ النَّفْس إحْيَاءُهَا، وإحياءها قتلها، يعني في حالة وحالة، وروى أن الله تعالى أوحى إلى موسى (**أن من أحبنى قتلته، فقال يارب: إذا انتهيت فى الخلة لم أبال بقتل الدنيا**)، وقال بعض الحكماء: "من لم يعذب نفسه لم ينعمها، ومن لم يقتلها لم يحبها (فاقتلوا أنفسكم) حملوه على أكثر هذه الوجوه، قال بعضهن: أُمِرُوا أَنْ يجبأ كل واحدٍ نفسه بالسكين، وقيل: أمروا أن يسلم كل أحدٍ للقتل، وقال أكثرهم: "أمروا أن يقتل بعضهم بعضاً، فكان الرجل يقتل أباه وأخاه، غير متحاشٍ[٥] من ذلك، وقال بعضهم: أمروا أن يزيلوا شهواتهم ويفنوا نفوسهم الشهوية في الوصول إلى رضاء[٦] الرب ويبلغوا[٧] إلى الحياة الأبدية وقد طعن في هذه الآية بعض الملحدة، وزعم أن قتل

---

١ - في (و - ج) الدالة، وهو خطأ من الناسخ.

٢ - هذا البيت لحسان بن ثابت ، وهو من قصيدة مطلعها :-

أسألت رسم الدار أم لم تسأل   بين الجوابي فالبضيع فحومل

وقالها فى عمرو بن عبدالحارث وبحضرته كل من النابغة وعلقمة بن عبدة.

ديوان حسان بن ثابت - ص ١٧٩ -ط : دار صادر - بيروت.

٣ - في (أ - ص) ما أفات به.

٤ - سورة النساء: الآية (٢٩).

٥ - في (أ - ص) ولا يتحاشى.

٦ - في (أ - ص) مرضاة.

٧ - في (أ - ص) والبلوغ.

النفس مستقبحٌ في العقل، وهذا الجاهل إنما استقبحه لكونه جاهلاً [١] أن لنفوسنا خالقاً بأمره نستبقيها وبأمره يقيها، وأنّ لها بعد هذه الحياة التي هي لعبٌ ولهوٌ معاداً إلى دارٍ فيها حياةٌ سَرْمَدِيَّةٌ، كما قال: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾[٢]، وإن قتلها بأمره يوصله[٣] إلى حياة خير منها، ومن علم أن الإنسان في هذه الدنيا كمجاهدٍ أقيم في ثغرٍ يحرسه ووال على بلد يسوسه، وأنه مهما استرده [يعاد][٤]، فلا فرق بين أن يأمره بخروجه بنفسه أو يأمر غيره بإخراجه، ومن تصور هذه الجملة علم أن الإنسان إنما أنكر له قتل نفسه في الدنيا لأنه كالراجع عن الثغر إلى حضرة صاحبه قبل استرداده، وإذا أمره أن يقتل نفسه- فقد رجع عنه بأمره وذلك ظاهر لمن تصور حالتي الدنيا والآخرة، وعرف قدر الحياتين والميتتين فيهما، وقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ الإشارة به إلى التوبة[٥] وقتل النفس، ولما كان الشئ قد يكون خيراً عند الاعتبار بالدنيا شراً عند الاعتبار بالآخرة، وقد يكون على عكس ذلك.

بين تعالى بقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ﴾ أن ذلك خير[٦] بالاعتبار بالأمور الإلاهية، إن قيل: لم أعاد ذكر "بارئكم"؟.

والإتيان بالضمير في مثله أحسن؟ قيل: إنما يحسن الضمير إذا لم يشتبه، ولم يقصد بالتكرير تعظيم[٧] الأمر، وكان ذلك في جملةٍ واحدة أو ما حكمه حكم الجملة الواحدة، فأما إذا لم يكن كذلك فتكريره أحسن، وقد حصل ههنا الأحوال الثلاث، فإنه جرى ذكر موسى والعجل، فلو قيل عنده: يصح توهم إرادة أحدهما، ثم قد علم أن المقصود في مثل هذا الموضع تفخيم الأمر، ثم قوله: (ذلكم خير لكم) جملةٌ أخرى غير الأولى..

---

١ - في (أ - ص) لذهابه عن.

٢ - سورة العنكبوت : الآية : (٦٤).

٣ - في (أ - ص) يوصلها.

٤ - ساقطة من (و - ج).

٥ - في (و - ج) التورية وهو خطأ من الناسخ.

٦ - في (و - ح) خبر وهو تصحيف.

٧ - في (أ - ص) تفخيم.

وقول الشاعر :

لاَ أرَى المَوْتَ يَسْبِقُ المَوْتَ شَيءٌ(١)

وإنما استقبح لأن قوله: يسبق الموت "مفعول ثان" لقوله: لا أرى الموت فصار المصراعُ كله جملةً واحدة، والكلامُ في التوبة والثواب قد مضى، وعند قوله: (بَارِئِكُمْ) أي في حُكْمِهِ وفيما(٢) يرتضيه نحو قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾(٣)، والشئ الذي يرتضيه تعالى تارة ينسب إليه، فيقال: [هُوَ](٤) لَهُ، وتارة يقال: "هُوَ من عندِهِ"، و"هو عنده" وقد بين(٥) في قوله: (وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى) ما ارتكبوه من الذنب، وبين في هذه الآية ما قال لهم موسى -عليه السلام- عند ارتكابهم ذلك الذنب، وأن موسى -عليه السلام مع تعظيم ما ارتكبوه لم يُخْلِهِمْ عن النصح لهم وتصريفهم بين بلاء النعمة والنقمة حَسْبَ ما أمره الله تعالى(٦)

قوله - عز وجل :

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾

الآية (٥٥)- سورة البقرة .

[الرؤية:](٧) إدراك المرئي،(٨) وذلك على أوجه بحسب اختلاف قوى الإنسان، فالأول [الرؤيا](٩)

١- هذا شطر بيت وتمامه:

لا أرى الموت يسبق الموت شيئ ∴ نغص الموت ذا الغني الفقيرا

والبيت لعدي بن زيد العبادي ، وهو من شواهد سيبويه فى الكتاب ج:١ - ص ٣٠ ، وأمالي ابن الشجري - ج:١ - ص ٢٤٣ ، ومغني اللبيب ص ٥٠٠ ، والخصائص - ج:٣ - ص ٥٣ ، وخزانة الأدب ج:١- ص ١٨٣ ، ومعاني القرآن للأخفش ج:١ - ص ٢١٢ ، والمدخل لعلم تفسير كتاب الله تعالى - لأبى النصر السمرقندي المعروف بالحدادي ص ٢٩٨ .

٢ - في (أ - ص) وما يرتضيه.

٣ - سورة آل عمران - الآية : (٧٨).

٤ - ساقطة من (و - ج).

٥ - في (أ - ص) مر.

٦ - في (أ - ص) ما أمره الله به.

٧ - ساقطة من (و - ج).

٨ - في (و - ج) المرائي وهو تحريف.

٩ - ساقطة من (أ - ص).

بالحاسة، وهو إدراك البصر، والثاني بالوهم والتخيل، نحو أرى أن زيداً منطلق، أي أتوهم، وقد يكون ذلك في اليقظة طوراً، وفي المنام طوراً، لكن يجعل اسم ما في المنام رؤيا، والثالث بالتفكر ، والرابع بالعقل المشار إليه في قوله: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾[١]، فأما الرؤية الحسية على ما هي [عليه][٢] في الدنيا من المقابلة، وكونها في جهة دون جهة فمنفية عن الباري سبحانه، إذ كان ذلك لا يصح إلا على جسم ذي لون وكيفية ولعدم اللون لا يُبصر الهواء مع كونه جسماً، ولا يصح أيضاً على الله الرؤية الوهمية إذ كان ذلك تصور هيئة محسوس كما تقدم أو مثل محسوس باطلاً كتوهم إنسان طائر، وأما الفكرية فهي للعلماء في الدنيا، وذلك إدراك المعرفة بالفكر [والرؤية][٣]، وإياه عنى أمير المؤمنين بقوله: "لم تره العيونُ بشواهدِ الأبصار، ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان"، وأما العقلية فإنها تحصل في الآخرة لكل أحد من حيث أنهم يضطرون إلى معرفته تعالى، لكن للمؤمنين حالةٌ زائدة تقصر العبادة عنها، وهي المبشر بها في **قوله عليه السلام:**

(ترون ربكم-عز وجل- كما ترون القمر ليلة البدر)[٤]، والمشار اليها بقوله - عز وجل: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (٥٤) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾[٥].

ولا يحصل في الدنيا إلا لبعض الأنبياء في بعض الأحوال، وذلك بتصور أفعاله تعالى مجردةً عن أفعال المخلوقين بلا شبهةٍ تعتريه ولتعري نفسه من الشهوات والهوى، ولكون ذلك لبعض الأنبياء في حال دون حال، قال عليه السلام:

«رأيت ربي في بعض طرقات المدينة»[٦]، بمعنى وأنا فيها، وقال تعالى:

---

١ – سورة التكاثر : الآية (٧).

٢ – ساقطة من (و – ج).

٣ – ساقطه من (و – ج).

٤– الحديث أورده ابن حجر العسقلاني فى فتح الباري بسنده إلى جرير قال : كنا جلوساً عند النبي ﷺ إذ نظر إلى القمر ليلة البدر قال إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون فى رؤيته ، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروب الشمس فافعلوا» الحديث رقم ٧٤٣٤ – ج:١٩ – باب قول الله تعالى ، «وجوه يومئذ ناضرة».

٥ – سورة القمر : الآيتان (٥٤ ، ٥٥).

٦ – هذا الحديث بحثت عنه فلم أهتد إليه، ولكني وجدت مايقارب معناه في كتاب:(راموز الأحاديث)، لأحمد ابن مصطفي النقشبندي الخالدي حيث أورد مانقله الطبراني عن أبي زرعة الرازي قوله عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (رأيت ربي في المنام في صورة شاب موفر فى الخضر، عليه نعلان من ذهب)، وكذلك الحديث الذي رواه الطبراني في السنة عن معاذ بن عفراء عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: رأيت ربي في خطير من الفردوس في صورة شاب عليه تاج يلتمع البصر)، وخطير من الفردوس أى محل، والظرف مجاز والله منزه عن المكان وقال السيوطي: هو محمول علي رؤية المنام. وقال الطبراني: وهو صحيح . كتاب راموز الأحاديث – ص٢٨٦ ,٢٨٧ .

﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾[1] وقوله ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٣) عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ﴾[2]، [أي وكان النبي عندها،] [3]وقال: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾[4] وروى ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- "أن محمداً ﷺ رأى ربه مرتين" وهذه الجملة إذا تُصُوِّرت أسقطت الشبهة التي تعتري مَن لَمْ يتصور الحقائق، فاحتاج إلى رفع الأخبار الصحيحة والآثار الواضحة التي هي كأن عليها من شمس الضحى نوراً، ومن فلق الصباح عموداً وليس قوله تعالى إخباراً عن موسى -عليه السلام- في قوله: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾[5] كما ظنه بعض الناس أن ذلك سأله لأن قومه كلفوه سؤاله أن يدركه محسوساً في الدنيا وكان يعلم أن ذلك محال، فإنه عليه السلام منزهٌ عن أن يسئ لإساءة قومه، ويتجاهل اتباعاً لجهلة تباعه، وإنما سأله هو الحالة التي كانت للنبي- ﷺ - مرتين، وهذه إشارةٌ يمكن مع الاستعانة بما تقدم آنفاً أن يعرف معناه إلى أن ينتهي إليه، فنشرحه شرحاً شافياً- إن شاء الله-، وأما الجهر: فالظهور لحاسة البصر أو حاسة السمع، فمن حاسة البصر، قيل: رأيته جهاراً، وتجاهروا بالأمر، وأجهرت فلاناً، وفلان يجهر[6] بالمعاصي، وجهرت البئر أظهرت ماءها، ومنه اشتق الجوهر[7]، لكون أكثره ظاهراً للحواس فيمن لم يجعله منقولاً عن الفارسية، ومن حاسة السمع، قيل: جهر فلان بقراءته، وكلامٌ جهيرٌ، وهو جهوري الصوت، والصاعقة والصاعقة يتقاربان، إلاَّ أن الصقعَ يقال في أصوات الأجسام الأرضية، والصعق فيما يكون من الجو[8] والسماء، وقال بعض أهل اللغة: الصاعقة

---

١ - سورة النجم : الآية (١١).
٢ - سورة النجم : الآيتان : (١٣، ١٤).
٣ - ساقطة من (و - ج).
٤ - سورة النجم : الآية (١٧).
٥ - سورة الأعراف : الآية (١٤٣).
٦ - في (أ - ص) تجهر ، وهو تصحيف.
٧ - في (أ - ص) عبارة جانبية وضعها الناسخ وهي: (مطلبٌ في اشتقاق الجوهر).
٨ - في (و - ج) من الحق.

على ثلاثة أوجه، الموت: لقوله: ﴿فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ﴾[١]، وقوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ﴾[٢]. والثاني: العذاب، لقوله: ﴿أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾[٣] والثالث: نارٌ تسقط من السماء لقوله: ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ﴾[٤]، وهذا سوءُ تصور، لأن الصاعقة هي الصوت الشديد على ما تقدم، ثم قد يكون منه الموت تارةً والعذاب تارةً وتصحبه[٥] النار تارة، فإذا الموت، والنار والعذاب من [٦] يستفد من لفظ الصاعقة ويجب أن لا يلتبس علينا المعنى الذي وُضع له اللفظ بالمعنى الذي يتبعه ويقتضيه، وليس بموضوع له بالقصد الأول، وهذا بابٌ قد [يقع فيه السهو كثيراً على بعض ناقلي اللغة] [٧] وقد أحكم في غير هذا الكتاب[٨]، وقد بين الله تعالى في هذه الآية جهلهم بالباري وسؤالهم منه مالا يصح سؤاله -تنبيهاً أن الجهل يرد بالإنسان أن يعتقد في الباري مالا يصح عليه، ويرَغب إليه بما لا يجوز أن يرغب به إليه، وقد نبه على ذلك بآية أخرى [٩] تسكيناً للنبي - عليه السلام- فيما سألوه جهلاً منهم بقوله [عز وجل][١٠]: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾[١١] الآية..

---

١ – سورة الزمر : الآية (٦٨).

٢ – سورة الذاريات : الآية (٤٤).

٣ – سورة فصلت : الآية (١٣).

٤ – سورة الرعد : الآية (١٣).

٥ – في (أ – ص) ويصحبه ، وهو تصحيف.

٦ – في (أ – ص) لم يستفد وهو خطأ من الناسخ.

٧ – هذه الجملة ساقطه من (أ – ص).

٨ – في هذه العبارة إشارة إلى كتاب مفقود للراغب يدور حول تحقيق الألفاظ المترادفة على المعنى الواحد، وقد ذكره الراغب أيضاً في مقدمة كتابه " مفردات ألفاظ القرآن".

٩ – في (أ – ص) بالآية الأخرى.

١٠– ساقطة من (أ – ص).

١١ – سورة النساء : الآية (١٥٣).

قوله - عز وجل :

﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الآية (٥٦) - سورة البقرة .

البعث: إرسال المبعوث عن المكان الذي فيه، لكن فُرق بين تفاسيره بحسب اختلاف المعلق به، فقيل: بعثت البعير [من][١] مبركه، أي : أثرته، وبعثته في السير، أي : هيجته، وبعث الله الميت: أحياه، وضُرب البعث على الجند إذا أمروا بالارتحال، وكل ذلك واحدٌ في الحقيقة، وإنما اختلف لاختلاف صور المبعوثات، والموت حُمِلَ على المعروف، وحُمِلَ أيضاً على الأحوال الشاقة الجارية مجرى الموت، وليس يقتضي قوله: **﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾**[٢] أنهم ماتوا، ألا ترى إلى قوله تعالى: **﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾**[٣]، لكن الآية تحتمل الأمرين، وحقيقة ما كان إنما يعتمد فيها على السمع المتعري عن الاحتمالات والكلام في **﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾** قد تقدم، ونبه بالآية على أنه تعالى ينقذ[٤] من الشدائد عبده حالاً فحالاً تنبيهاً له من غفلته، وإليه أشار بقوله: **﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾**[٥]..

وقوله - عز وجل :

﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ الآية (٥٧)- سورة البقرة : .

الظل في الحقيقة عدم الصبح، وسمي سواد الليل ظلاً لعدم الصبح فيه والظلة كالصفة، والمظلة آلة يُطلب بها الظل، و"أظل فلان علينا حقيقته" ألقى ظله علينا لدنوه منها، واستعير الظل للمكان الذي فيه النعمة تصوراً له في اليوم الصائف حتى قيل: فلانٌ في ظل فلان، وقد أشار ابن عباس -رضي الله عنهما- إلى أن [الغمام][٦] ههنا فيضُ الباري -عز وجل- وتوفيقه وإحسانه، فقال: هذا الغمام

---

١ - ساقطة من (و - ج).
٢ - سورة البقرة : الآية (٥٥).
٣ - سورة الأعراف : الآية (١٤٣).
٤ - في (و - ج) يقدم وهو خطأ من الناسخ.
٥ - سورة فاطر : الآية (٣٧).
٦ - ساقطة من (و - ج).

الذي يـأتي الله فيه المذكور في قوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ﴾[١] ، وهـو الذي جاءت فيـه الملائكة فيه[٢] يوم بدر، وهذه إشارة منه عجيبة، وأما المن: فمصدر منَّ، أي أنعم وأصله من : مننت، أي قطعت والمنة تتصور على وجهين، أحدهما: النعمة المقطوعة عن المَنيَّة[٣]، وعلى ذلك قول النبي ﷺ «وَارْغَبْ لكَ رَغْبَةً من المال» [٤] أي اقطع، والثاني: السبب الذي يقطع الشكر ويحرمه، وهو المعنى بقوله: ﴿لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ﴾ [٥] وبقولهم[٦]: المنة تهدم الصنيعة والسلوى أصله ما يُسلى الإنسان، ومنه السلوان والتسلي، وقال مجاهد: المن صمغة، وقال قتادة، وهو مثل الثلج، وقال الربيع: شراب كالعسل، وقال السدي: هو الزنجبيل، وقالوا: السلوى : طائرٌ كالسماني، وأما قول ابن عباس- رضي الله عنهما- المن الذي يسقط من السماء على الشجر فيأكله الناس، والسلوى طائر، فقد قال بعضهم: إن ابن عباس -رضي الله عنهما- أشار بذلك إلى ما يرزق الله بني آدم من النبات واللحوم وسائر الخيرات، ودل على ذلك بهذين المثالين، قال وعلى هذا قول غيره إنما هو مثالات..

وقوله: ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾[٧]، قد تقدم الكلام في الرزق، وأنه بالنظر الخاصي ليس يتناول الأعراض الدنيوية فقط، بل جميع ما خولنا ومكننا منه من النعم الثلاث النفسية والبدنية والخارجية ولم يرد بالطيب المستطاب بحاستي الذوق والشم، بل المستطاب من كل وجه محسوساً ومعقولاً وعاجلاً وآجلاً، والطيبات من الطعام هي المتناولة بحكم العقل والشرع من حيثما يسوغ تناوله في وقت ما يحتاج إليه [إلى تناوله وبقدر ما يحتاج][٨]غير مسرف فيه ولا مشتغل به عما خلقنا لأجله ومتى تؤول على هذا الوجه يكون طيباً على الإطلاق، وإلاّ فإن طاب من وجه خَبُث من وجه، وعلى ذلك

١ - سورة البقرة : الآية (٢١٠).
٢ - في (أ - ص) جاءت فيه الملائكة.
٣ - في (و - ج) القنية وهو خطأ من الناسخ.
٤ - في (أ - ص) وأرغب منه رغبة من المال.
٥ - سورة البقرة : الآية (٢٦٤).
٦ - في (أ - ص) ويقول الناس.
٧- سورة البقرة الآية:(١٧٢)، وسورة الأعراف - الآية (١٦٠).
٨- ساقطة من (أ - ص).

قوله: ﴿كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالاً طَيِّبًا﴾ (١)، وقوله: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾(٢)، وإذا عرف هذه الجملة علم أن من قال الطيبات اللذيذات نظر نظر حس، ومن قال الحلال والحرام نظر نظر معقول، وقوله: (وما ظلمونا) لما كان الله ذكرأفعالاً تجري مجرى معاملات بينه وبين العباد كمعاملة العباد بعضهم مع بعض، من نحو الاستقراض في قوله: ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾(٣)، والابتياع في نحو: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾(٤)، ووصف نفسه بشكره لهم كشكرهم له ومحبته لهم كمحبتهم له ونصرته لهم كنصرتهم له، وموالاته لهم كموالاتهم له، وذكر مخادعته لهم كمخادعتهم له تعالى الله عن القبائح، وسائر ذلك من الأفعال التي تجري بين المتكافئين بيَّن تعالى أنه لا يعتقدنَّ [به](٥) معتقد أنى إذا فعلت به فعلاً حسناً مما إذا فعله إنسان بآخر ولم يقابله بمثله كان ظلماً منه له أن يكون قد ظلمني في ذلك، ولكن قد ظلم نفسه وضيع حظه،(٦) إذ هو منزه أن يلحق نقيصة، إن قيل: كيف يعلق قوله: (وما ظلمونا) بما تقدم قيل: معناه: قلنا لهم: ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾(٧)، فخالفوا، وما ظلمونا بمخالفتهم، وفي الآية تحذيرٌ لنا من كفران النعم (٨)وتلقيها بالبطر، وأن ما تعامله به من إساءة وإحسان فعائد علينا منافعه ومضاره..

---

١ - سورة البقرة الآية : (١٦٨).

٢- سورة الأعراف : الآية (٣٢).

٣ - سورة البقرة : الآية : (٢٤٥) ، سورة الحديد : الآية (١١).

٤ - سورة التوبة : الآية (١١١).

٥ - ساقطة من (أ - ص).

٦ - في (أ-ص) ولكن نفسه ظلم وحظه ضيع.

٧ - سورة البقرة : الآية (١٧٢) ، سورة الأعراف : الآية (١٦٠).

٨ - في (أ - ص) من الكفران بالنعم.

قـولـه عـز وجـل:

﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ الآية (٥٨)-سورة البقرة .

الدخول والولوج والتفحم والتوغل متقاربة، لكن الدخول عام، والولوج الدخول في مضيق، والتفحم دخول في شدة، والتوغل في مشتبك شجر[١]، وأوردت الإبل دخالاً إذا تداخلت في الورود، وفلان دخيل في القوم، وفيه دخل كناية عن الفساد، ودخول في مغمرة بالكلام، والدخل طائر صغير سُمي بذلك لدخوله[٢] خلال الشجر الملتفة، والحجر الضيقة، والقرية من قريت الشئ جمعت، وقيل أصله قرية، والقرى مجمع الماء، فكل بقعة يجتمع فيها الماء والأبنية قيل قرية، والمقرى للحوض، والقرى للحوض، والمكيلة، و(حطة) فعلة من حططت، وقرى نصباً ورفعاً، وبالنصب قيل هو مفعول بها نحو: قلت كلمة طيبة، وقيل هي في موضع سؤال أي: حط عنا ذنوبنا، نحو: غفراً لنا، وبالرفع، قيل هي حكايةٌ، كأنه قيل: ما نسأله حطة، وقيل معناه هو مُّلمٌ تحطون فيه رحالكم، والغفر ستر بحائل، ومنه المغفر للبيضة، والغفارة لخرقة يغطى بها الرأس، ولما تلف على سنة القوس، وغفر المريض" نكس كأنه غطى المرض على عقله أو على صحته، وغفر ذنبه استعارة في الأصل، كقولهم: "ليست عليه ذيلي، والخطايا على ضروب أحدها أن يريد غير[٤] ما يحسن إرادته ويفعله، فهذا هو الخطأ التام [من كل وجه][٥] المأخوذ به الإنسان، والثاني أن يريد ما يجوز[٦] فعله، لكن وقع منه خلاف ما أراد، فيقال:

---

١ - في (أ - ص) في مشتبك كالشجر.

٢ - في (أ - ص) اعتباراً بدخوله- وهي تؤدي المعنى.

٣ - قرأ (حطة) بالنصب كل من الأخفش وابن أبي عبلة وطاووس اليمني، انظر: معجم القراءات القرآنية ج:١ - ص ٥٩.

٤ - في (و - ج) على ما يحسن.

٥ - ساقطة من (أ - ص).

٦ - في (أ - ص) ما يحسن.

أصاب في الإرادة، وأخطأ في الفعل، وهو المعنى بقوله: عليه السلام: (رُفِعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأُ وَالنِّسْيَانُ)[١]، وقوله: (مَن اجْتَهَدَ فأخْطَأَ فله أجرٌ)[٢]، والثالث: أن يريد مالايحسن فعله ويتفق منه خلافه، فهذا مذموم لقصده وغير محمود على فعله، وجملة الأمر أنه يقال لمن أراد شيئاً فأنفق منه خلافه أنه أخطأ، وإذا وقع منه، كما أراده أنه أصاب الخطأ ويقال لمن – فعل فعلاً لا – حسن أو أراد إرادة لا – حسن أنه أخطأ ولهذا يقال- أصاب فأخطأ الصواب، وأصاب الصواب وأخطأ الخطأ، فإذا هذه اللفظة مشتركة كما ترى، مترددة بين معاني يجب لمن يتحرى الحقائق تأمله، فهي مشكلة[٣] جداً، وقال بعض أهل اللغة: يقال خطيء[٤] إذا أصاب ما أراده من الخطأ، وأخطأ إذا أراده ولم يصبه، والحسن يقال لما يألفه البصر أو تألفه البصيرة، وأحسن إذا فعل ما استحسنه أحد هذين، وقد تقدم أن الإحسان زائد على العدالة، لأن العادل هو الذي يفعل ما إذا أخل به تلحقه[٥] المذمة، والمحسن من زاد على ذلك، ولذلك قيل: "عدل الله كله إحسان" وورد في التفسير أنهم أمروا بدخول بيت المقدس من باب القبة منحنين، وقيل ساجدين، وأن يستغفروا، وذكر بعض المحققين أن الإشارة مع إرادة الظاهر بدخول القرية إلى الدخول تحت حجر الشريعة، وبالأكل إلى تحري ما يبلغهم إلى العيش الرغد، وبدخول الباب سجداً سلوك الاستقامة على التذلل والتخضع، وبقوله: (حطة) إلى الاستغفار قولاً وفعلاً طلباً لحط الذنوب، وقال بعضهم: الإشارة به إلى التحقق بالعلم الذي أتاهم به موسى- عليه السلام- وتناولهم منه والتمسك به فهو الحلال الحلو الذي يتناول بلا خطر، إذ إن جميع المتناولات في

١- الحديث عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال : رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه،أخرجه أبو القاسم التميمي فى فوائده ، ورجاله ثقات ، غير أن فيه انقطاعاً ، وأخرجه الطبراني فى المعجم الكبير – ج:١١ – ص ١٣٣ ، وأخرجه الدارقطني فى سننه – ج:١ – ص ١٧١ وابن ماجة – ج:١ – ص ٦٥٩ ، وأخرجه الحاكم فى المستدرك – ج:٢ – ص ١٩٨ ، وصححه ابن حبان والحاكم ، ووافقة الذهبى ، وضعفه الإمام أحمد فقال عبد الله بن أحمد فى العلل سألت أبي عنه فأنكره جداً ، وانظر: كشف الخفاء – ج:٢ – ص ١٣٥ ، والمقاصد الحسنة ص ٢٢٨ وتخريج أحاديث اللمع – للغماري ص ١٤٩ وأورده الراغب فى مفردات ألفاظ القرآن ص ٢٨٦.

٢- الحديث عن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله ﷺ «إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران ، وإذا حكم فاجتهد فأخطأ فله أجر » أخرجه البخاري فى ج:٩ – ص ١٩٣ – كتاب الاعتصام بالسنة ، وأخرجه مسلم ج:١٥ – ص ١٧١٦-كتاب الأقضية وأبو داود وأخرجه الخطابي في معالم السنن ج:٤ – ص ١٦٠ وأورده الراغب فى المفردات ص ٢٨٧ .

٣ – في (أ – ص) مشككة.

٤ – في (و – ج) خطه، وهو تصحيف.

٥ – في (أ – ص) لحقته.

تناوله مزاحمة البعض البعض ومنع الغير على وجه آلاء العلم، فإنه يمكن لكل واحد أن يتناول كل جزء منه بلا منع منه للآخر، وأمر بسلوك طرقه على ما يجب، وذلك بأن لا يقدم ما يجب أن يؤخر أو يؤخر ما شأنه أن يقدم، وعلى ذلك قوله - عز وجل: ﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾[١]، والإشارة بالقرية إلى العلم كإشارة النبي - عليه السلام بالمدينة إليه حيث قال: «أنا مدينةُ العلم وعليٌّ بابها»[٢]، وهذان القولان يتقاربان، فإن العلم والعمل يتلازمان، وبهما يتم الإيمان، لكن الأول نظر إلى المنتهى الذي هو العمل، والثاني نظر إلى المبدأ الذي هو العلم، وبحسب هذه الآية قوله تعالى: ﴿ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾[٣]..

قوله عز وجل:
﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾

الآية (٥٩) - سورة البقرة :.

التبديل والتغيير يتقاربان، لكن أكثر ما يقال التبديل في شئ يجعل مكان آخر، والتغيير في حالة للشئ تغير كالماء الحار إذا جُعل بارداً، وقيل: الأبدال من الناس هم قوم يجعلهم الله مكان آخرين ممن هم [المعنيون من العالم] [٤] الذين بدلوا أحوالهم البهيمية بالأحوال الملكية حسب الطاقة، والرجز: الرجس والنجس يتقارب معانيها بتقارب ألفاظها نحو: السراط والزراط، والبراق والبساق، وأصل ذلك لما يُعَافُ ذوقاً أو شماً أو عقلاً أو شرعاً، فالكريهُ بالعقل والشرع يعبر عنه بالخبيث والقذر ونحو ذلك، كما يعبر عن ضده بالطيب والنظيف، وعلى ذلك قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾[٥]، وقوله

١- سورة البقرة : الآية (١٨٩).

٢ - الحديث رواه الحاكم فى المستدرك والطبراني فى الكبير وأبو الشيخ فى السنة وغيرهم ، وكلهم عن ابن عباس مرفوعاً مع زيادة «فمن أتى العلم فليأت الباب» ورواه الترمذي وأبو نعيم وغيرهما عن علي بلفظ أن النبي ﷺ قال : «أنا دار الحكمة وعلي بابها» وهذا حديث مضطرب غير ثابت كما قال الدار قطني فى العلل ج:٣ - ص ٢٤٧ ، وقال الترمذي : منكر ، وقال البخاري ليس له وجه صحيح وأورده ابن الجوزي فى الموضوعات ووافقه الذهبي وغيره والحاصل أن الحديث ينتهي بمجموع طريقي أبي معاوية وشريك إلى درجة الحسن المحتج به كما ورد كذلك فى اللآلى وكشف الخفاء. اللآلى المصنوعة ج:١ - ص ٣٢٩ ، كشف الخفاء ج:١ - ص ٢٠٣ ، وأورده الراغب فى المفردات ص ١٥٠ .

٣ - سورة المائدة : الآية (٢١).

٤ - ساقطة من (أ - ص).

٥ - سورة التوبة : الآية (٢٨).

تعالى: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾[١]، فإن بعض ذلك كريه بالطبع، وبعضه كريه بالشرع، وسمى العذاب رجزاً في قوله: ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ﴾[٢]، ورجساً في قوله: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾[٣]، ومن قال: ليس الرجس النتن، فقد وصف الله الخمر بذلك، وهي طيبة الرائحة، وقد وصف الله تعالى [خمراً][٤] في الجنة باللذة، [فإن هذا القائل][٥] بعيد التصور للموهومات فضلاً عن المعقولات، وهذه الجملة إذا تصورت علم أن الكسائي لما قال: الرجس النتن، والرجز العذاب، والزجاج لما قال الرجس قد يجئ للعذاب كله قريب، وإنما اختلافهم لنظرهم إلى مواقع الكلمات لا إلى موضوعها[٦] في أنفسها، وكونها مستعارة من[٧] المحسوس للمعقول، وأما تبديلهم، فقد قيل إنه قيل لهم: قولوا حطة، فقالوا استهزاءً حنطة، وقيل لهم: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾[٨] فدخلوا مقعين على أستاهم، والإشارة بذلك في الجملة أنهم غيروا ما شرع لهم ولم يراعوا أمر الله تعالى، فأنزل الله عليهم العذاب، وتخصيص قوله: (رجزاً من السماء)[٩] هو أن العذاب ضربان، ضرب قد يمكن على بعض الوجوه دفاعه أو يظن أنه يمكن فيه ذلك، وهو كل عذاب على يد آدمي أو من جهة المخلوقات كالهدم والغرق، وضرب لا يمكن ولا يظن دفاعه بقوة آدمي كالطاعون والصاعقة والموت، والوحي[١٠] وهو المعنى بقوله (رجزاً من السماء) إن قيل: لم قال: (فأنزلنا على الذين ظلموا) ولم يقل: (فأنزلنا عليهم) مع أنه كان أوجز؟ قيل: قصداً إلى

---

١ - سورة المائدة : الآية (٩٠).
٢ - سورة الأعراف : الآية (١٣٤).
٣ - سورة التوبة : الآية (١٢٥).
٤ - ساقطة من (و - ج).
٥ - ساقطه من (و - ج).
٦ - في (و - ج) موضعهما.
٧ - في (و - ج) عن.
٨ - سورة البقرة : الآية : (٥٨) ، سورة الأعراف : الآية (١٦١).
٩ - في (و - ج) وجزاءً من السماء وهو خطأ من الناسخ.
١٠- في (و - ج) والموحي ، وهو تصحيف.

أن يبين أن إنزال الرجز كان لظلمهم لا للإبدال فقط، فإن الإبدال بعد[١] الظلم، ثم بين بقوله: (بما كانوا يفسقون) أن ذلك الظلم الذي تعاطوه كان فسقاً منهم، "والله الموفق"[٢]...

قوله - عز وجل :

﴿ وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾. الآية(٦٠)- سورة البقرة.

الاستسقاء طلب السقي أو الإسقاء، فالسقي أن يجعل له ماء يشربه، والإسقاء التعريض للماء، وجعله له ليتناوله متى أراد، فهو أخص معنى من السقي، والسقي إسم للمفعول نحو النقض والنكث، فيقال[٣] للماء سقي، وللأرض التي يجعل فيها الماء سقياً، والعصا أصله من الواو، بدلالة قولهم عصوته نحو هروته إذا ضربته بهما، وقيل عصيته بالسيف، وعصى فلان أصله أن يتناول العصا فيضرب بها، ثم كثر فعبر به عن الخارج من الطاعة، فصار العصا اسماً للطاعة حتى قيل: شق فلان العصا، ولما كانت عادة المسافر ملازمة العصا قيل: ألقى فلان عصاه إذا ترك السفر..

والانفجار والانبجاس، والانصداع والانشقاق يتقارب، لكن الانشقاق عام، والانصداع أكثر ما يقال في الأشياء الصلبة.

والانفجار في الأشياء اللينة، ومنه "فجرة الوادي" للمكان الذي ينبعث منه الماء، واستعير للخروج عن خطر الشريعة لتصور الفاجر بصورة الماء المنفجر من الحوض،واستعير الانفجار والانصداع والانشقاق [٤] لظهور الفجر، وقولهم: فَجَرَ" أي كَذَبَ ،هو استعمال لفظ عام في موضع خاص، فإن الكذب بعض الفجور، إذ قد يكون الفجور قولاً وفعلاً،والانبجاس يقارب الانفجار، إلاَّ أن الانبجاس لا يكون إلاَّ واسعاً، والانفجار يستعمل في الضيِّق والواسع، فكُلُّ انبجاسٍ انفجارٌ، وليْسَ

---

١ - في (أ - ص) بعض.

٢ - زيادة في (أ - ص).

٣ - في (و - ج) لكما وهو خطأ من الناسخ.

٤ - في (و - ج) الإنسان، وهو خطأ من الناسخ.

كلُّ انفجارٍ انبجاساً، فإذاً صح أن قيل ههنا: "انفجرت"، وفي غيرها: "انبجست" لأن العام يستعمل أبداً مكان الخاص، والمشرب مكان الشرب، وسُمِّي الشَّعْرُ على الشفة العليا والعروق التي في باطن الخلق شَارِبٌ لتصورهما بصورة الشاربين، واستُعير الشُّرْب والشَّبَعُ لما يولج في المصبوغ، فقيل: ثَوْبٌ مُشَرَّبٌ ومُشَبَّعٌ صبغاً، و"أشْرَبْتُ فُلَاناً كَذَا" مكنته في نفسه، وعلى ذلك **﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾**[1] والعيثُ والعثي يتقاربان نحو "جذب" و"جبذ"، يقال: عثى يَعثى عثا، وعثى يعْثُوا عُثُواً، وعَاثَ يعيثُ عَيْثاً، إلا أن العيث أكثر ما يقال فيما يُدرَكُ حساً، والعثو فيما يدرك حكماً، فإن قيل: فما فائدة قوله [2] (مُفْسِدِينَ)، والعُثُوُّ ضربٌ من الإفساد، وقيل: قد قال بعض النحويين إن ذلك حالٌ مؤكدةٌ، وذكر ألفاظاً مما يشبهه، وقال بعض المحققين: "إن العُثُوَّ وإن اقتضى الْفَسَادَ فليس بموضوع له، بل هو كالاعتداء، وقد يوجد في الاعتداء ما ليس بفساد وهو مقابلة المعتدي بفعله، نحو: **﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾**[3]، وهذا الاعتداء ليس بإفساد، بل هو بالإضافة إلى ما قوبل به عدل، فلولا[4] كونه جزاءً [5] لكان إفساداً، فبين تعالى أن العثو المنهي عنه هو المقصود به الإفساد، فالإفساد مكروهٌ على الإطلاق، ولهذا قال: **﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾**[6]، وقد يكون في صورة العثو، والتعدي ما هو صلاحٌ وعَدلٌ على ما تقدمَ، وهذا ظاهرٌ، والمروي في الخبر أنه كان مع موسى – عليه السلام حَجَرٌ إذا نزلوا منزِلاً وضعَهُ فضربه بالعصاةِ فانفجرت منه اثنتا عشرةَ عيناً لكل سبط عين، وأنكر ذلك بعض الطبيعيين واستبعده، وهذا المنكرِ مع أنه لم يتصور قدرة الله في

١- سورة البقرة : الآية (٩٣).

٢ – في (و – ج) قولهم، وهو تصحيف.

٣- سورة البقرة : الآية (١٩٤).

٤ – في (أ – ص) ولولا.

٥ – في (و – ج) خبراً، وهو خطأ من الناسخ.

٦- سورة الأعراف : الآية (٥٦).

تغيير الطبائعِ والاستحالات الخارجة عن العادات، فقد ترك النظر على طريقتهم[١]، إذ قد تقرر عندهم أن حجر المغناطيس يجر الحديد، وأن الحجر المنقر للخل ينفره، والحجر الحلاق يحلق الشعرِ، وذلك كله عندهم من أسرار الطبيعة، وإذا لم يكن مثل ذلك منكراً عندهم، فليس[٢] ممتنع أن يخلق الله حجراً يسخره لجذب الماء من تحت الأرض، وقال بعض الناس: "إن في الآية مع هذا المعنى الظاهر إشارةً إلى معنى آخر دقيق، وهوأنه أريد بالعصا السياسة، وذلك يكثر في استعمالهم نحو قوله - عليه السلام: **«لا ترفع عصاك عن أهلك»**[٣] و"شق فلان العصا" إذا خرج عن السياسة المشروعة، وأريد بالحجر إسرائيل الذين وصفهم الله تعالى بقوله: **﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾**[٤]، وكان موسى - عليه السلام طلب لهم مداواة[٥] تعم جميعهم العالم والجاهل "منهم"[٦] وعموم المطر للبقاع العامرة والغامرة، فأمره الله تعالى أن يسوسهم سياسة ظاهرة بالعلوم والأعمال التي هي حمل الإسلام والإيمان وهي اثنتاعشرةَخصلة التي بينها النبي ﷺ في حديث جبرائيل [عليه السلام][٧] ستة منها الإسلام، وهي: "شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، والصلاة والزكاة، والصيام والحج"، وستة منها وهي: "الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره"، وذلك أن هذه الأركان الاثنى عشر يتشارك في أصولها المكلفون وإن

١ - في (أ - ص) - على طريقته.

٢ - في (أ - ص) فغير.

٣ - نص الحديث : «لا ترفع عصاك عن أهلك وأخفهم في الله"

أخرجه السيوطي في الدر المنثور -ج:٤-ص١٧٣.

وأخرجه الإمام أحمد في مسنده من حديث عبدالرحمن بن جبير بن نفير الخصومي عن معاذ قال: أوصاني رسول الله صلى الله عليه وسلم بعشر كلمات قال: «لا تشرك بالله شيئاً، وإن قتلت وحُرقت، ولا تَعُقَّن والديك وإن أمراك أن تخرج من أهلك ومالك، ولا تتركن صلاة مكتوبة متعمداً، فإن من ترك صلاةً متعمداً فقد برئت منه ذمة الله، ولا تشربنَّ خمراً فإنه رأس كل فاحشة، وإياك والمعصية، فإن بالمعصية حلَّ سخط الله عز وجل، وإياك والفرار من الزحف وإن هلك الناس، وإذا أصاب الناسَ موتان وأنت فيهم فاثبت، وأنفق على عيالك من طَوْلك ولا ترفع عنهم عصاك أدباً، وأخفهم في الله». مسند الإمام أحمد-ج:٥-ص٢٣٨- موسوعة السنة وأخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد -ج:١-ص١٠٥، وأخرجه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين-ج:٦-ص٣٩٢، وأخرجه كذلك الحاكم في المستدرك - ج: ٤-ص٤١.

٤ - سورة البقرة : الآية (٧٤).

٥ - في (أ - ص) المداواة.

٦ - زيادة في (أ - ص).

٧ - زيادة في (أ - ص).

اختلفت فروضهم في أحكامها وفروعها، وقيل أن "استسقاء موسى -عليه السلام- لقومه هو طلب علوم لهم تعمهم وتقلهم من حيث لا يحتاج فيه أحد إلى الاستعانة بالآخر[١]، بل يجري مجرى المطر"[٢] العام للغني والفقير، فبين الله تعالى أن ذلك ليس من الحكمة، إذ قد جعل بينة الدنيا على تفاوت بيِّن بينها. ولذلك قال:

﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾[٣]، وأمره أن شرع لهم بالسنة الأسباط الاثنى عشر أنهاراً من العلوم يتناول كل فرقة على قدر منزلته واستحقاقه من مشربه، وقيل: إن موسى - عليه السلام - طلب لهم العلوم الموهبية وهي الحكمة الحقيقية التي نبه عليها الخضر حيث قال له موسى عليه السلام: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾[٤]، فبين الله تعالى له أن منزلة (بني إسرائيل) تقصر عن إدراك ذلك، وأمره[٥] أن يأخذهم بالعلوم والأعمال الظاهرة، وذلك هو الاعتقادات والعبادات والمعاملات والمزاجر التي قد بنيت عليها الشرائع كلها ولكل واحدٍ من ذلك ثلاث منازل منزلة الظالم والمقتصد والسابق، وهم العامة والجامة والخاصة، فالعامة تؤخذ منها بالقهر السلطاني والجامة بالقهر العلمي والخاصة بالقهر اليقيني، فهذه اثنتا عشر خصلة من استكملها بلغ منزلة من وصفهم الله تعالى بقوله : ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾[٦] ووصف به أصحاب الكهف في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾[٧] ، الآية وهذه الأقوال محققة في أنفسها وإن لم تكن مقصودة في الآية والله أعلم.

---

١ - في (و - ج) إلى الآخر.

٢ - ساقطة من (و - ج).

٣ - سورة الزخرف : الآية (٣٢).

٤- سورة الكهف : الآية (٦٦).

٥ - في (و - ج) وأمرهم، وهو تصحيف.

٦ - سورة محمد : الآية (١٧).

٧ - سورة الكهف : الآيتان : (١٣)، (١٤).

قوله عز وجل :

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ الآية :(٦١)- سورة البقرة.

الصبر الحبس على المكروه، وذلك ضربان: أحدهما: حبس الغير، فيتعدى نحو: صبرت الدابة، وصبرت يمينه أي: حلفته بالله حلفةً لا خروج لها منها، والثاني : حبس النفس، ولا يتعدى في اللفظ، وهو حبس النفس عما يقتضية الهوى أو على ما يقتضيه "الهوى"[١] والعقل، ويختلف مواقع الصبر، وربما خولف بين أسمائها[٢] بحسب اختلاف مواقعها، فإن كان في مصيبة يقال له : صبر لا غير وضده الجزع وإن كان في محاربة سمي شجاعةً، وضدهاالجبن وإن كان في نائبةٍ مضجرةٍ، سمي "رحب الصدر"، وضده "ضيِّقُ الصَّدْرِ" والضجر والتبرم، وإن كان في إمساك [النفس فضولات العكس، سمي قناعة وعفة، وضدها الحرص والشره، وإن كان في إمساك][٣] كلامٍ في الضمير سمي كتماناً، وضده الذل[٤] والإفشاء، ثم الصبر ضربان: نفسي، وبدني، فالبدني: أكثره لأخساء الناس، والنفسي: للأشراف، ولذلك قال الشاعر:

وَالصَّبْرُ بِالأَرْوَاحِ يعرف فضله ... صَبْرِ المُلُوكِ، وَلَيْسَ بِالأَجْسَادِ[٥]

والطعام ما يغتذى به مأكولاً كان أو مشروباً، وفي المشروب قال: **﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي﴾**[٦]، ورجلٌ طاعم لمن يطعم، ويتجوز به لمن حسنَ حاله في المطعم، ويقال: "قَوْسٌ مطعَمَةٌ، وبعيرٌ مُطْعَمٌ، ومطعمنا الباري لبرئتة كل ذلك تصور أنها تطعم صاحبها، والواحدُ يُقَالُ على أوجهٍ من حيث الجنس

---

١ - ساقطة من (أ - ص).

٢ - في (و - ج) أسماؤها، وهو خطأ من الناسخ.

٣ - ساقطة من (أ - ص).

٤ - في (و - ج) المذل، وهو تصحيف.

٥ - البيت قائله أبو تمام وهو فى ديوانه ص

٦- سورة البقرة : الآية (٢٤٩).

فيقال: الإنسان والفرس واحد، أي من حيث الحيوانية، وواحد من حيث النوع، يقال زيد وعمرو واحد، أي من حيث الإنسانية واحد من حيث الشخص، وإن كان ذا أجزاء كثيرة، يقال: رجلٌ واحدٌ، وواحدُ من حيث الشرف، نحو قولهم: وَاحِدُ دَهْرِهِ، وواحدٌ من حيث العدد، وهو مبدأ العدد بمعنى أنه لو ارتفع ارتفعت الأعداد، [ولو ارتفعت الأعداد][1] لم يرتفع الواحد بها، فالواحد كيف ما أدرته وأجْرَيْتَهُ لَمْ يَزِدْ فيه شيءٌ ولم ينقص، فإنه يحفظ ذاته، ولذلك قيل: إن الواحدة في العدد أقرب الأشياء إلى معرفة وحدانية الله تعالى. فإن قيل: كيف قال: ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾[2]، وكان لهم المن والسلوى؟ قيل: إن ذلك إشارةٌ إلى مساواته في الأزمنة المختلفة، كقولك فُلَانٌ يفعل فعلاً واحداً في كل يومٍ وإن كثرت أفعاله إذا تحرى طريقةً واحدةً وداوم عليها، والدعاء أعمُّ من النداء، فإن النداء يقال فيمن يكون بعيداً أو في حكم البعيد والدعاء فيه وفي القريب، وقوله: ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا﴾[3] ذكر جواب الدعاء، ولم يذكر المطلوب في الأول لكونه معلوماً كقولك: قُلْ لفلانٍ يعطني كذا، وتقديره: قل له أعطني يعطني، والنبت والنبات يقال لما يُنبت الله ولمصدر نبت، وقد يقال ذلك لذوي الساق من الشجرة، وأنبت الغلام إذا راهق على طريق[4] الاستعارة ولنبات عانته، والبقل مالا ينبت أصله ولا فرعه في الشتاء، وأبقل المكان: صَارَ ذَا بَقْلٍ وتبقلت تناولته وبقل وجهه استعارة، والفوم: الزرعُ، وقيل: الحنطة خاصة، وقيل:الثوم، والثاء والفاء يبدل أحدهما من الأخرى[5] نحو: جَدَثَ، وجَدَفَ، ومغافيرُ، ومغاثير، وأدنى أي أوضع، ويعبر عن الوضيع بالدني، والخيرُيُقالُ على ضربين: أحدهما الخير المطلق، وهو الشيء النافع الحسن الملذ، وضده الشر المطلق، وهو الضار القبيح المؤلم، والثاني: الخير المفيد، وهو ما يحصل فيه أحد الأوصاف الثلاثة، فيصح أن يوصف بالخير مرة والشر مرة على نظرين مختلفين، نحو أن يقال: المال خير والمال شر، ولأجل أن الخير المطلق هو ما جمع الأوصاف الثلاثة،

---

١ - ساقطة من (و - ج).
٢ - سورة البقرة : الآية (٦١).
٣ - سورة البقرة : الآية (٦١).
٤ - في (أ - ص) طريقة.
٥ - في (أ - ص) الآخر.

وهي غاية ما يتحرى ويطلب، قيل الخير: هو الذي يطلبه الكل، والشر هو الذي يهرب منه الكل، فإن ما جمع الحسن واللذة والنفع يرغب فيه الكل، وما جمع منه أضداده الثلاثة يهرب منه الكل-، والمصر: اسم لكل بلدٍ عظيمٍ مجموع الأقطار والحدود، وهو في الأصل اسمٌ للمصور أي المضموم بالحدود، نحو النقص والنكث للمنقوص والمنكوث،وعبر عن الحد بالمصر في قول الشاعر :

وَجَاعِلُ الشَّمْس مصراً لاخَفَاْءَ بِهِ ... بين النَّهَارِ وَبَيْنَ اللَيْلِ قدْ فَصَلاَ(١)

من حيث إن الحد معتبر فيه، ومصرت الناقة جمعت ضرعها بإصبعين للحلب، ولما كان خروج اللبن على ذلك قيل غير مصور لقليلة اللبن، و"فلان مصور" أى بخيل يعسر(٢) إخراج الشئ منه تشبيهاً بذلك، فمصر هـهنا قيل هو البلد المعروف، ولذلك قيل هو في قراءة أبيٍّ - رضي الله تعالى عنه- بغير تنوين،(٣) وقيل : عنى به مصراً من الأمصار، والذلة تقال على وجهين، على الهُون وقريء: ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾(٤) والمسكنة: الفَقْرُ الذي يُسكِّنُ الإنسان عن التصرف، ومعنى ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ﴾ أي الزمت، وأوجبت- تشبيهاً بضرب(٥) الخيمة على من فيها والإحاطة به، و"بَاؤُا" أى احتملوا، وأصل ذلك من البوأ. أي المساواة، فباء فلانٌ بكذا" تنبيهٌ أنه تحمل مِقْدَارَ ما يُسَاوِي وقوته، والمباءة: اَلْمنزلُ (٦) في المُسْتَوَى، وذلك إذا لم يكن ذَا عد، وبَيَّنَ الله تعالى في هذه الآية أنه لما اختار الله لهم ما يتبلغون به، أَبَوْا إلاَّ الميلَ إلى القاذورات وما فيه مراعاة القوة

١- البيت لعدي بن زيد وهو في ديوانه ص ١٥٩، وفى الدر المصون فى علوم الكتاب المكنون للسمين الحلبي ج:١-ص ٣٩٦ ، وفي بصائر ذوي التمييز ج:٤ - ص ٥٠٩ وفى المجمل فى اللغة لابن فارس ج:٣ - ص ٨٣٣ ، وفى لسان العرب مادة (مِصْر) ونسبه ابن منظور إلى أُمَّية وقال : فى اللسان والتمصير حلب بقايا اللبن فى الضرع بعد الدَّرِّ فصار مستعملاً فى تتبع القلة يقولون يمتصرونها ، وقال الزمخشري : ومن قولهم : لبني فُلانٍ غَلَّةٌ يمتصرونها - انظر الفائق فى غريب الحديث ج:٣-ص ٣٧٠ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وأورده الراغب فى مفردات ألفاظ القرآن - ص ٧٦٩ .

٢ - في (و - ج) بغير، وهو خطأ من الناسخ.

٣ - قرأ (مصر) بغير تنوين كل من الحسن، والأعمش، وابن مسعود، وأبي، وطلحة، وأبان بن تغلب، وابن عباس. معجم القراءات القرآنية -ج: ١-ص٦٤.

٤ - سورة الإسراء : الآية (٢٤).

٥ - في (و - ج) يضرب، وهو تصحيف.

٦ - في (و - ج) المترك، وهو تحريف.

البَهيميَّة، والعناية بتربيتها فقال: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ﴾ أي أخس بما هو خير مطلق، ثم قال: ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا﴾ وذلك على نحو: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾[١]، فكأنه قيل: إن لم ترغبوا فيما اخترته لكم، وفيه خلاصكم، فشأنكم في قصد المكان الذي لا يُعدم فيه ما ترمونه، وذكر ثلاثة أحوال كل واحدة كالمعلول للأخرى، فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾، أي حصلت لهم هذه العقوبة التي هي الذلة والمسكنة والغضب من أجل كفرهم بآيات اللّٰه وقتلهم النبيين، وحصل لهم الكفر، وقتل النبيين بالعصيان والاعتداء، وذلك أنه كما أن الخيرات صغارها سببٌ لتحري كبارها، كذلك الشرور صغارها سببٌ لارتكاب كبارها، فبين أنهم لما عصوا وتعدوا، أدى ذلك بهم إلى الكفر وقتل الأنبياء، وأدى ذلك بهم إلى أن أُلْزِمُوا الذِّلَّةَ والمسكنةَ، وغضب اللّٰه عليهم، وفيها تنبيهٌ لنا أن من طلب لنفسه غير[٢] ما أثره اللّٰه له، فقد خرج من التوكُّلِ بل قد تَعَدَّى، فقد قيل: (من لم يهتد بما يختاره الله له، لم يهتد بما يختاره لنفسه)، ولهذا قيل في الدعاء: «**اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين، وأكلني كلاية الوليد في المهد**»..[٣]

قوله - عز وجل:

﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾ «**الآية : (٦٢) – سورة البقرة**».

الهود: قبل التوبة، لقوله تعالى: ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾[٤]، أي تبنا ، ومنه أخذ اليهود، وقيل: أصل اليهود ويهدوا منقولٌ عن السريانية، وهو أقرب، وهَادَ فُلانٌ إذا تحرى طريقتهم في الدين، والاسم الْعَلَمُ قد يُتَصَوَّرُ منه [معنى][٥] ما يتعاطاه المسَمَّى به والمنسوبُ إليه، ثم يشتق منه ، نحو قولهم تَفَرْعَنَ فُلاَنٌ، إذا تحرى في فعله الجور الذي كان يتعاطاه فرعون[٦]، و"تَطَفَّلَ فُلاَنٌ"[٧] اذا فعل فعل

---

١ – سورة فصلت : الآية (٤٠).

٢ – في (أ–ص) عن، وهو خطأ من الناسخ.

٣ – الحديث «اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين ولا تنزع عني صالح ما أعطيت» ،رواه البزار عن ابن عمر ، وأخرجه المتقي الهندي في كنز العمال حديث رقم «٣٦٧٤» وحديث رقم «٥٠٧٥» ، وأخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد ج:١٠ – ص ١٨١ ، وأخرجه العجلوني في كشف الخفاء – ج:١ – ص ٢١٧ ، وأورده القرطبي في تفسيره ج : ١٦ – ص ١٨١ .

٤ – سورة الأعراف : الآية (١٥٦).

٥ – زيادة من (أ – ص).

٦ – في (أ – ص) إذا فعل من الجور ما كان.

٧ – ساقطة من (و – ج).

طفيل في كونه وارثاً[١] أو فاعلاً[٢] في الدعوات، وقالوا: "لَاطَ فلانٌ وتَلَوَّطَ" إذا فَعَلَ فعْل آلِ (قَوْمِ)[٣] لُوطٍ، وهذا أبعد من الأول، ولما كان دين اليَهودُ قبل أن ينسخ دين حق قيل لمن تاب "هاد" حتى كثر ذلك، ولما تُصُوِّرَ منه الحركةُ عند القراءة شبه بهم المتحركُ طَوْراً والماشي مَشْياً مخصوصاً طوراً، فقيل: "تهوَّدَ فُلَانٌ في مَشْيِهِ"، و"هَوَّدَ الرابض[٤] الدَّابَّةَ" إِذَا سَيَّرَهَا بِرِفْقٍ، وأما النصارى، فقد قيل: هُوَ مِمَّا حُكِي عَن المسيح ﴿مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ﴾[٥] والأقرب ما قال بعضهم إن المسيح كان من قرية يقال لها نصران، فإما أن سموا باسمها، ثم جمعته العرب على نصارى نحو: "سَكْرَانٌ" و"سَكَارَى" أو جُعِلُوا منسوبين إليها ثم جُمِعَتْ نحو : "مَهْرَى" و"مَهَارَى" و"الصائبون"، قيل: قَوْمٌ كانوا على دين نوُح، وذلك كان من أديان الحق قبل النسخ، وقولهم: "صَبَأَ فُلَانٌ" إذا اخرج من دينه إلى دين آخر يجوز أن يكون أصله فيمن كان يخرج إلى دينهم ثم صار يستعمل في كل دين كقولهم الهالكي في أن أصله لحداد مخصوص، ثم صار يستعملُ في كل حداد، ويكون أن يكون "صباعربياً" طابق ذلك، و"صباناب البعير" طلع، ومن قرأ: "صابئين"، فقد قيل هو من : صَبَا يَصْبُو، وقيل: أَصله "صبأ" ، فَتَرَكَ همزه، والأجر والجزاء والثواب يتقارب، لكن الأكثر في الجزاء أن يُستعْمَلَ في المعاملة بين الأَكْفَاء أو فيما يجري مجراه بضربٍ من التلطف والأجر فيما يعطى الرفيع من دونه والثواب فيما يرجع إلى الإنسان من نفعٍ عن فعله، وقد تقدم أن الإيمان يُسْتَعْمَلُ على وجهين: أحدهما: الإقرار بالشهادتين الذي يؤمن نفس "الإنسان"[٦] وماله عن الإباحة إلا بحق، وذلك بعد استقرار هذا الدين مختص به، كالإسلام، والثاني: تحري اليقين فيما يتعاطاه الإنسان من أمر دينه فقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾عنى به المتدين بدين محمد ﷺ، وقوله: ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ﴾ عنى به المتحري

---

١ – في (أ – ص) دارساً.
٢ – في (أ – ص) واغلاً.
٣ – زيادة في (أ – ص).
٤ – في (أ – ص) الرابضة، وهو تصحيف.
٥ – سورة الصف : الآية (١٤).
٦ – في (و – ج) الإيمان.

للاعتقاد اليقيني، فهو غير الأول ولما كانت مشاهير[١] الأديان هذه الأربع، بين الله تعالى أن كل من تعاطى[٢] ديناً من هذه الأديان في وقت شرعه، وقبل أن ينسخ عنه، فتحرى في ذلك الاعتقاد اليقيني، وَأَتْبَعَ اعتقاده بالأعمال الصالحة، فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ولاَ هُمْ يَحْزَنُونَ، وبين صحة ذلك ما رُوي أن سلمان[٣] الْفَارِسَيُّ -رضي الله عنه- لما ذكر له خبر النبي ﷺ قصده وآمن به، وذكر حسن أحوال رهبانٍ صحبهم، قال النبي- عليه السلام: **«مَا تُواوَهُمْ فِي النَّارِ»**، فأنزل الله تعالى هذه الآية، ثم قال عليه السلام: **«مَنْ مَاتَ عَلَى دين عِيَسى قَبْلَ أن يسْمَعَ بِي، فَهُوَ عَلَى خَيْرٍ، وَمَن سَمِعَ بِي وَلَمْ يُؤْمِن بِي فَقَدْ هَلَكَ»**[٤] وقول ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وسعيد - رضي الله عنه- "إن هذا منسوخٌ بقوله: **﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾**[٥] يعنون أن هذه الأديان كلها منسوخةٌ بدين الإسلام، وأن الله- عز وجل جعل لهم الأجر قبل وقت النبي - عليه السلام-، فأما في وقته، فالأديان كلها منسوخةٌ بدينه...

---

٦ - في (و - ج) الإيمان.

١ - في (و - ج) متناهية.

٢ - في (أ - ص) يتعاطى.

٣ - في (و - ج) السلمان الفارسي.

٤ - الحديث: أخرجه السيوطي في الدر المنثور- ج:١ - ص٧٤.

٥ - سورة آل عمران : الآية (٨٥).

قوله - عز وجل :

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

الآية:(٦٣)- سورة البقرة».

الميثاق: عقدٌ مؤكدٌ بمين أو عهدٍ، يقالُ: أَوْثَقْتُ كَذَا ووثقته ووثق به ثقة، ثم قيل: رجلٌ ثقةٌ، وقومٌ ثقةٌ، فاستعير لفظها للموثوق به، والميثاق الذي أخذ منهم ما ذكره الله تعالى في قوله : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ ﴾[١]، وفي قوله: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ﴾[٢] وفي قوله: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ﴾[٣] الآية، والطور: قيل هو اسمٌ لجبل مخصوصٍ، وقيل: هو اسم لكل جبل ينبت شيئاً، وطابق لفظه الطور أي الفناء، و"طار يطور" لسرعة المشي، كما أن طار يطير للسباحة في الهواء، والقوة يستعمل تارةً بمعنى القدرة، وتارة للتهيؤ الموجود في الشيء، نحو أن يقال: النَّوَى بالقوة "نخلة"، أي متهيأ ومترشحاً أن يكون منه ذلك، ويستعمل القوة في البدن تارة، وهو الأظهر، وتارةً في النفس، ولما كانت القوة للشدة الموجودة في الشيء سُمِّيَت المفازة قوى- تصوراً منها ذلك، ثم قيل: أقوى فلانٌ، إذا صار في قوى، أي قفر، وتصور من حال الفقر الفقر، فاستعير الأقوى للافتقار استعارةً قولهم أترب وأرمل، لذلك، فقوله: (خذوا ما آتيناكم بقوةٍ) أي: تعاطوا ما فيه بعلم ودراية، فالعلم هو الذي يقوي الإنسان ويبلغه المقصود في[٤] أمور الدين، وقال الضحاك: (بقوة): أي بطاعة الله، وذلك لما روى "أقوى الناس من أطاع الله واتقاه"، وقيل :"بقوة، أي بعمل ما فيه، وذلك صحيحٌ بنظرٍ، فإن تعاطي كل جزء من العمل الصالح يقوي الإنسان على ما فوقه، وقد تقدم أن الذكر ذكران، ذكرٌ باللسان، وذكرٌ بالقلب وأنه يتجوز به في الحفظ والمراعاة، فيقال: اذكر كذا، كما يقال في الترك: النِّسْيَانُ، وذاك أن الذكر[٥] سببٌ

---

١ - سورة البقرة : الآية (٨٣).

٢ - سورة المائدة : الآية (١٢).

٣ - سورة آل عمران : الآية (٨١).

٤ - في (أ - ص) من ، وهو الأصح.

٥ - ساقطة من (أ - ص).

لحفظ صورة الشئ في النفس، كما أن النسيانَ والترك سَببٌ لانحداقها عنها، فمن قال: الذكر والنسيان ليسا من فعل الإنسان، فإنما نُظرَ إلى الغايةِ التي هي السببُ دونَ الْمَبْدَإِ الذي هو السَّبَبُ، ومن قال: قد يكون من فعل الإنسان، فإنما اعتَبر السبب الذي عنده يحصِّل ويُثَّبتُ صورة الشيئ في النفس، وعنده ينحذف، ومعنى الآية: قيل إن موسى - عليه السلام- لما أتي بني إسرائيل بالتوراة متضمنة لأحكام شريعتهم، أَبَوْا أن يَلْزِمُوهَا[١]، فأمَرَ اللّٰه الملائكة أن ترفع الطور، فقيل لهم: خُذُوها وإلا طُرِحَ عليكم، وذلك قوله: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾[٢] الآية إن قيل: إن هذا يكون إلجاءً، ولا يُستحق به الثوابُ، قيل: لم يستحقوا الثواب بالإلتزام، وإنما استحقوا بالعمل بها من بعد، فأما في التزامها فمضطرون، وقال بعض الناس: "عُنِي برفع[٣] الطُّور تشديد الأمر عليهم وجعل ذلك مثلاً"، وذلك بعيدٌ، وقوله: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾، الواو فيه للحال لا للعطف، لأن أخذ الميثاق كان بعد رفع الطور، وذلك نحو قول الشاعر :

قَالَت وَلَمَ تَقْصِدْ لِقِيْلَ الْخَنَا ... مَهْلاً فقدْ أَبْلغْتَ إِسْمَاعِي[٤]

قوله - عز وجل :

﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللّٰهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾

الآية :(٦٤)سورة البقرة.

التولي:التفعل من الولاية في الأصل، ويقتضي تولى الأمرحصوله في أقرب المواضع منه، وإذا قيل: تولى عنه، فمعناه ترك[٥] التولي معرضاً، فالتولي عن الشئ أخص من الإعراض،والإفضال والإحسان والإنعام لا يكاد يفرق بينهما في التعارف سيما إذا وصف به الباري سبحانه وإن كان قد

---

١ - في (أ - ص) يلتزموها.

٢ - سورة الأعراف : الآية : (١٧١).

٣ - في (أ - ص) عني بالطور.

٤ - قائل البيت هو أبو قيس بن الأسلت، وهو من شعراء الجاهلية وقيل: دخل الإسلام وكانت امرأته كبشة بنت ضمرة ابن عمرو بن عوف، وقد جاءها ليلاً فأنكرته، فقال لما دفعته: أنا أبو قيس، فعرفت كَلاَمَهُ فدخل، وقال هذه القصيدة :
والبيت الثاني بعد هذا البيت هو

أنكرتهُ حين تَوَسَّمْتُهُ ... والحربُ غَوْلٌ ذَاتُ أَوْجَاعِي

والبيتان في خزانة الأدب -ج:٣-ص٤١٠، وفي المفضليات ، ص٢٨٤، وفي الأغاني - ج: ١٥-ص١٥٢.

٥ - في (و - ج) نزل وهو خطأ من الناسخ.

يختلف في أصل الموضوع، ومن حيث الاشتقاق فالإفضال بَذْلُ ما لا يجب عليه، أو ترك ما يجب له وذلك من الفضل وهو الزائدُ على العدل، والإحسان. الفعل الحسن سواء كان واجباً وعدلاً أو نافلة وزائدًا على العدل وإن كان في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾[١] الآية ما يقتضي ما يزيد على العدل،والإنعام يقتضي ما يتنعم به المنعم عليه، ولا يكاد يقال في التعارف يقال فيما يقتنيه الإنسان في نفسه تارةً، وفيما يعطي غيره تارة، فيقال فيهما: فلان ذو فضل، والثاني هو المراد ههنا، وقول أبي العالية والربيع: "إِنَّ فَضْلَ اللهِ الإِسْلامُ"، وَرَحْمَتَهُ "الْقُرْآنُ"، فذلك بعض ما يقتضيه عموم اللفظ، ولكن في قولهما تنبيهٌ، إن هذا خطابٌ لمن كان في زمان النبي ﷺ دون المتقدمين، والخاسر المطلق في القرآن هو الذي خَسِرَ أَعْظَمَ ما يُقْتَنى، وذلك [نعيم][٢] الأبد، وهو المذكور في قوله: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[٣]، إن قيل: : إن ذلك يقتضي أن لا فَضْلَ لَهُ تعالى عَلى الذين خَسِرُوا [أنفسهم][٤]؟ قيل: تخصيصُ مَنِ انتفع بذلك من حيث إنه قبله لا يقتضي إن لم يعرض فضله لغيره،فإن فضلَه تعالى الديني مُعَرَّضٌ لكل أحد، لكن حق الإنسان أن يترشح بقبوله والانتفاع به، فَمثَله كمثل نعمته بالشمس والصوب اللَّذَيْنِ وإن كانا عَامَّيْنِ لا يَنتَفِعُ بهما من زرعه من لم يرشحها للانتفَاع بهما، كذلك فضله الديني والعقلي لا يَنتفعُ به من لم يُرَشِّحْ نَفْسَهُ بِقَبُولِه..

---

١ - سورة النحل : الآية (٩٠).

٢ - ساقطة من (و - ج).

٣ - سورة الزمر : الآية (١٥).

٤ - ساقط من (و - ج).

قوله عز وجل :

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾

الآية :(٦٥) سورة البقرة».

العلم هـهنا بمعنى المعرفة، ويتعدى ذلك إلى مفعول واحد، وحقيقة ذلك أن معارفنا ضربان: أحدهما: حصول صور[١] الموجودات في النفس وذلك كالمعرفة بذات الشيء، والثاني: الحكم بوجود شيء لشيء هو موجدٌ [٢] له، أو الحكم بنفي شيءٍ عن شيءٍ هو منتفٍ عنه، فالأول: يُقَالُ له معرفةٌ وعلمٌ، ويتعدى إلى مفعول واحدٍ، وعلى ذلك قوله: **﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ ﴾**، وقوله: **﴿ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾** [٣] والثاني: يُقَالُ له علمٌ، ولاَ يقالُ له مَعْرِفَةٌ، ويتعدى إلى مفعولين لا يصح الاقتصار فيه على أحدهما من حيث إن ذلك يقتضي إثبات حكم أو نفي حكم لمعلوم، والاعتداء مجاوزةُ الحق على وجهٍ محظورٍ، قال الحسن: كان اعتداؤهم في السبت أخذهم الحيتان على جهة الاستحلال، وقيل: حَبْسُهُمْ إياها في الشباك يوم السبت ليأخذوها يوم الأحد، والسبت في الأصل راحةٌ بعد تعب ، واستُعْمِلَ في الشَّعْرِ إذَا حُلِقَ لهذا المعنى، وفي الجلد إذا أُزِيلَ عنه الشَعْرُ تشبيهاً به، وقيل للنعل "سَبْتٌ"، أي مسبُوتٌ نحو نقض، ونكث،و السبات للنوم من ذلك، والسبت قيل جعل اسماً للنوم[٤] من ذلك، وخَسَأْتُ الكلب فخسأ، زجرته فانزجر، وخسأ البصر من ذلك، أي انقبض، وقوله: **﴿ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾** أي جعلناهم ، فذكر القول هـهنا تنبيهاً على سرعة جعله كذلك نحو قوله: **﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ ﴾**[٥]، أي جعلنا له وبيان جعله الإنسان قردة وخنازير يحتاج فيه إلى مقدمة وهي أن الإنسان أتم ما أوجده الله تعالى في هذا العالم وأشرف، فإن الأعيان المبصرات بالقول المجمل أربعة، الجماد [وهو الجسم غير النامي][٦]، ثم النبات وهو الجسم النامي، ثم الحيوان، وهو النامي

---

١ - في (و - ج) صوم،وهو خطأمن الناسخ.

٢ - في (و - ج) موجود، وهو تصحيف.

٣- سورة الأنفال - الآية: (٦٠).

٤ - في (و - ج) لليوم، وهو تصحيف.

٥ - سورة النحل الآية (٤٠).

٦ - ساقطة من (و - ج).

الحساس، ثم الإنسان وهو الحساس المروي، فللإنسان صورتان، مهما باين ما سواه إحداهما مدركة بالحاسة، وهو الشكل المخصوص، والثانية مدركة بالعقل، وهو ما خُصَّ به من قوة الفكر والتمييز والعقل، فالإنسان بهذه القوة يشابه الملائكة وبقوته الشهوية والغضبية يشابه البهائم، فصار واسطة بين القبيلين[١]، وفيه تمكن من التشبيه بالقبيلين[٢]، أما تشبهه بالملائكة، فبإماتة قوته الشهوية بقدر الطاقة وتربية قوته الفكرية وتعاطيه ما وصف الله به الملائكة في قوله: **﴿لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾**[٣]، وأما تشبهه بالبهائم، فبإماتة قوته الفكرية وتربية قوته الغضبية والشهوية وتعاطيه ما وصف الله به الكفار، فقال: **﴿يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ﴾**[٤] وقال: **﴿أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾** [٥]، فإذا ثبت ذلك، فمن اعتبر الصورة المعقولة [٦] قال: هذا مثل ضربه الله لهم كقوله: **﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً﴾**[٧]، وقوى ذلك بقوله: (**﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾**[٨] وإليه ذهب مجاهد ومن اعتبر الصورة الشكلية قال: جعلهم على شكل القردة والخنازير كذا روى عن ابن عباس - رضي الله تعالى عنهما- والحكمة تقتضي الأمرين إذا تحرى بذلك ردع الكافة، فإن تغيير الصور المعقولة لا يعرفه إلا الخاصة من أولي البصائر والعقول الراجحة وتغيير الصور المحسوسة يشاركهم فيها العامة وأصحاب الحواس والذين لا يرتدعون إلاَّ بما تدركه حواسهم فتبهرهم وغيرهم[٩] .

١، ٢ - في (أ - ص) بالقبيلتين.

٣ - سورة التحريم : الآية (٦).

٤ - سورة محمد : الآية (١٢).

٥ - سورة الأعراف الآية (١٧٩)، وهي ساقطة من (أ - ص).

٦ - في (أ - ص) المفعولة، وهو تصحيف.

٧ - سورة الجمعة : الآية (٥).

٨ - سورة المائدة : الآية (٦٠).

٩- في (أ - ص) نحوهم.

قوله - عز وجل :

﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ الآية : (٦٦) سورة البقرة.

النكال: العقوبة الرادعة على سبيل القهر والفضيحة المشهورة، وهو منقول عن نكل فلان عن كذا أي ارتدع، ومنه النكل للقيد ولحديدة[١] اللجام ولكل ما ينكل به،والوعظ ردع بالعبارة والإحالة على الاعتبار، وقوله: (لما بين يديها) أي لما في زمانها، (وما خلفها) أي لمن بعدها، ولما كانت عامة السياسات ضربين، قهرية وهي للعامة وذلك بالنكال ووعظية، وهي للخاصة وذلك بالمقال ذكرالله تعالى أنه جمع في ذلك الأمرين نكالاً لعامتهم وموعظةً لخاصتهم وهم المتقون، فإن قيل: لم قالَ (لما بين يديها) ولم يقل لمن بين يديها؟ قيل في ذلك تنبيه على لطيفة وهي أن لفظة (ما) يعبر بها عن الأجناس من الحيوان وغيره ومن لا يعبر به مفرداً إلاَّ عن العقلاء، ولما قال في الجهلة: **﴿ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ﴾**[٢] استعير لهم لفظ ما تنبيهاً على ما ذكرنا، وعلى ذلك كثير مما وضع ما وضع من في كلامهم، ويكشف ذلك قوله تعالى: **﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾**[٣]، فجعلهم شر الدواب كما جعلهم في الأولى أضل من الأنعام، وبهذا المعنى أُلمَّ بعض المحدثين في قوله:

حَوْلِي بِكُلِّ مَكَانٍ مِنْهُمُ خَلْقٌ   تُخْطِي إِذَا جِئْتَ فِى اسْتِفْهَامِهِم بِمَنِ[٤]

وقال بعض الأدباء قوله: (وما خلفها) نصب ومعطوف[٥] على الهاء في قوله: فجعلناها أي جعلنا هذه العقوبة وهو المسخ وما خلفها من عذاب النار عقوبةً (لما بين يديها) أى لذنوبهم المتقدمة. [والله أعلم][٦]

---

١ - في (أ - ص) لحديد.

٢ - سوة الفرقان : الآية (٤٤).

٣ - سورة الأنفال : الآية (٥٥).

٤- هذا البيت للمتنبي ، وهو فى ديوانه - ص ١٧٠ ، وقد ورد عجز البيت فى مفردات ألفاظ القرآن ص ٧٧٨ ، وفى الذريعة إلى مكارم الشريعة ص ٧٩ ونسبة الراغب فيه للمتنبي.

٥ - في (و - ج) وطوف، وهو خطأ من الناسخ.

٦ - ساقطة من (أ - ص).

قوله - عز وجل :

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾الآية :(٦٧) سورة البقرة.

قد فرق العرب بين كثير من ذكور مشاهير الحيوان وإناثها في الأسماء، فقالوا : رجل وامرأة وجمل وناقة وثور وبقره وعير وأتان، وجعلوا في عامة ذلك اسماً يجمعها كالإنسان والبعير والحمار، وربما جمعوها تحت أحد اسمي الذكر والأنثى كقولهم البقروالضبع، وقيل: سمي البقر لأنه يبقر الأرض، أي يشقها، والأقرب أن يكون البقر أصلاً في الباب، ثم اشتق منه هذه الأفعال بحسب تصورها منه، فلما عرف من البقر هذاالفعل اشتق من لفظه بقر، وشبه به بقر فلان بطن فلان، وتصور انفعال من البقر ما فيه من البلادة، فاشتق منه بقر فلان إذا تبلد في الأمر تبلد البقر وتصور منه أسراع مضطرب، فقيل بقر إذا أسرع إسراعه، وقيل لجماعة البقر بقرنحو الحمير والكليب، وقيل الباقر للبقر وأصحابها وعلى ذلك الخامل، وذلك كقولهم لابن وتامر في أنه اسم للبن وصاحبه، لكن الباقر يستعمل لجماعة البقر منفرداً، نحو قول الشاعر :

وما ذنبه أنْ عافت الماء باقره[1]

والعوذ: الالتجاء إلى الغير والتعلق به، وعوذه إذا أرقاه منه، والعوذة اسم لما يعاذبه من الشر، وقيل: أطيب اللحم عوذه أي ما عاذ بالعظم وتمسكك به، والجهل عدم العلم، وربما جعله أهل اللغة- وبعض المتكلمين معنى مقتضياً للأفعال الخارجة [2]على النظام، وعلى ذلك قالت العرب المجهلة للأمر

١- هذا شطر بيت قاله ميمون بن قيس «الأعشى الكبير» وتمامه:

وَمَا ذَنْبُهُ أنْ عَافَتِ الْمَاءَ بَاقِرٌ وَمَا إن يعافُ الْمَاء إلاّ لِيَضْرِبَا

والبيت فى ديوانه ص ٩٠ ، والحيوان ج:١ - ص ١٩ ،ك ص ٣٠١ ، ج:٦ - ص ١٧٤ وهو فى لسان العرب مادة «ثور» ، وفى تفسير الطبرى ج:١ - ص ٢٠٩ .أمثال حمزة الأصفهانى - ج -٢ - ص ٥٦٢، شرح التحفة الوردية للبغدادى : ص ٥٤٦.

٢ - فى (أ - ص) الجارية ، وهو خطأ من الناسخ .

أو للأرض أو الخصلة التي تحمل الإنسان على الاعتقاد فى الشئ على خلاف ما هو به، أو على إيقاع الفعل على غير ما يجب، وقالوا : استجهلت الريح الغصن إذا حركته حركة شديدةً، ويجب أن يعلم أن الجهل ضربان: أحدهما افتقاد العلم، والثاني تصور الشئ بخلاف ما هو عليه، وهو أعظم الجهلين، ولما لم يسم كثير من المتكلمين الضرب الأول جهلاً حدوا الجهَل بأنه اعتقاد الشيئ على خلاف ما هو به، لكن لما كان افتقاد العقل يقال له جهل حتى يقال عاقل وجاهل، كما يقال عالمٌ وجاهلٌ صار عدم العلم مسمى بالجهل، والهزؤ مرح مع عيب، وأما السخرية، فمعه تسخير بالفعل، ولهذا قال تعالى: ﴿ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ﴾ [١]وهو أن يجعله منقاداً لك بضرب من الهزؤ، ولما قال موسى لهم: اذبحوا بقرة، واستطرقوا هذا الحديث، فقالوا لغباوتهم وقلة تثبتهم :﴿ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ﴾، فأجابهم بجواب مختصر متضمن لمقدمتين ونتيجة، فقال: ﴿قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾، فكأنه قال: الهازئ جاهل، والجهل منتف عنى فاذاً لست بهازئ، وأخرج ذلك بقوله: أعوذ بالله مخرج منكر منقطع لما رمى به،فإن قيل كيف جعُل الهازئ جاهلاً وقد يهزأ الإنسان وليس بجاهل؟ قيل: لما كان يقال لمن اعتقد في الشئ خلاف ما هو به جاهل، ولمن فعل مالا يقتضيه العلم وإن لم يعتقد فيه خلاف ما هو به جاهل، والهازئ إما أن يهزأ، لاعتقاده أن ذلك يجوز أو لا يعتقد ذلك، ولكن يفعل مالا يقتضيه العلم، فيصح من هذا الوجه أن يقال هو جاهل، فإذاً كل هازئ جاهل على أحد هذين الوجهين.

---

١ - سورة / الزخرف - الآية (٣٢)

قوله - عز وجل :

﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾. الآية (٦٨) من سورة البقرة.

التبيين كالتعريف، إلا أن التبيين يقتضي إظهار الفضل بين الشئ وغيره، والتعريف قد يكون إظهار الشئ في نفسه من دون اعتبار بغيره واشتقاق ذلك من البين وهو المسافة بين الشيئين، وأصل الفرض قطع الحديد وهو أبلغ من الفرض، والمفراض والمقراض ما يقطع به الحديد، ونحوه وفرض الزند والقوس مستعار من ذلك، وكذا فرضه الماء [للمقسم المحكوم به][1] وقيل لما أوجب وقطع به الحكم فرض كفرض العبادة وما ألزم إعطاؤه من المال، وسمي ما يؤخذ في الصدقة من [الإبل والبقر والغنم][2] فريضته، والفارض من البقر يجوز أن يكون من هذا، لأن السائغ في الصدقة من سن البقر اثنان، التبيع والمسنة فالتبيع يجوز في حال دون حال والمسنة يصح بدلها في كل حال، فيجوز أن يكون سمى فارضاً لهذا، وقيل فرضت البقر، وفرضت، والبكر المتقدم على أمثاله في السن، وبه سمي البكر، وأول نكاح وأول مولود وأول والد ووالدة، وقيل في البعير بكر، وفي الفواكه باكورة وبكر فلان في الحاجة إذا تعجل، وعلى ذلك قوله:

بَكَرَتْ تَلُومُكَ بَعْدَ وَهْنٍ فِي النَّدَى[3]

والعوان: الوسط بين السنين وهو المحمود، لأنه بين الحالين، وقد يُجعل كنايةً عن المسنة بين

---

١ - ساقطة من (أ - ص) .

٢ - فى (أ - ص) من النعم .

٣ - هذا شطر بيت وتمامه :

بَكَرَتْ تَلُومُكَ بَعْدَ وَهْنٍ فِي النَّدَى   بَسْلٌ عَلَيْكِ مَلَامَتِي وَعِتَابِي

وهو فى لسان العرب مادة «بكرَ» بلا نسبة ، وهو ضَمُرَةَ بن ضَمرةَ النهشَليِّ، وهو فى نوادر أبي زايد ص ٢ ، والأفعال للسرقسطى ج ٤– ص ٦٧ ، والبرصان والعرجان للجاحظ ص ٥٩ ، وأمالي القالي ج:٢ – ص ٢٧٩ ، وهو فى مفردات ألفاظ القرآن ص ١٤٠ .

النساء، فتذم به المرأة كما قال:

وَإِنْ أَتَوْكَ فَقَالُوا إِنَّهَا نِصَفٌ فَإِنَّ أَمْثَلَ نِصْفَيْهَا الَّذِي ذَهَبَا[١]

وقيل: حربٌ عَوَانٌ تشبيهاً بالمرأة، واستعارة منها كاستعارة القناة والشمطاء وغير ذلك من الأسماء، وقوله: ﴿لاَ فَارِضٌ﴾ أي غير فارض، وهو وصف أو خبر ابتداء مضمر وكذلك عوان، لكن الأجود في عوان أن يجعل خبر ابتداء مضمر، فقد كثر عن الفراء الابتداء به وذلك قصد منهم أن يكون خارجاً عن النفي في اللفظ كما هو خارج عنه في المعنى، وجاز أن يقال "بين ذلك"، وإن كان بين ذلك تضاف إلى شيئين لما كان ذلك عبارة عن الفارض والبكر في قوله: ﴿فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾ زجرٌ لهم عن المراجعة وتطلب العناد وتنبيه أن مراجعتهم[٢] تشدد الأمر عليهم وذلك كما روي عن النبي ﷺ لما قيل له في الحج: العامنا هذا أم للأبد؟ فقال: بل للأبد، ثم قال: **(إنما أهلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم على أنبيائهم)**..[٣]

قوله - عز وجل :

﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾ .

الآية (٦٩) سورة البقرة.

الصفرة لون مخصوص وعبر عن ذلك السواد بالصفرة، كما عبر عن الخضرة بالسواد، وذلك لكون الصفرة والخضرة سالكين إلى السواد، وقال الحسن: الصفراء هنا سوداء، لكن استبعد ذلك لقوله: فاقع، والسواد يقال فيه حالك لا فاقع، ولفظة الصفر يتصرف على وجهين، ومنه قيل للنحاس صفر وليبيس البُهْمى صفار، والثاني :حكاية صوت وهو الصفر، وعنه قيل: صفر الإناء إذا خلا حتى

١- البيت في لسان العرب مادة «نصف» بدون نسبة ، وهو أيضاً في المخصص في اللغة ج:١ - ص ٤١ ، وفي عيون الأخبار ج:١٠- ص ٤٢٣ ، وفي مفردات ألفاظ القرآن ص ٥٩٨ .

٢ - سقط الجزء المتبقي من تفسير هذه الآية، وكذلك الآيات: (٦٩، ٧٠، ٧١) من الناسخ في المخطوطة (و-ج) وهي الأصل، ولذا فإننا سنعول في تحقيق تفسير هذا الجزء المفقود على المخطوطة (أ - ص). هذا للتنويه.

٣- الحديث في مسند الإمام أحمد بن حنبل ج:٢ - ص ٣١٣ ، وهو في الدر المنثور للسيوطي ج:٢ - ص ٣٣٥ .

يسمع منه صفير لخلوه، ثم صار متعارفاً في الخالي، وقيل لخلو الجوف صفر وسمت العرب الصفر الذي هو الخلو حية الجوف من حيث إنه يتألم به الجوف، وذلك أن العرق الممتد من الكبد إلى المعدة إذا لم يجد غذاءً امتص أجزاء المعدة، فاعتقدت جهلة العرب أن ذلك حية في البطن تعض الشراسف، حتى نفى النبي – عليه السلام– ذلك بقوله :(**لا صَـفَـرَ**)[1]، والسرور مستبطن في الصدر،**وأصله** من السرو، والسرور والحبور والفرح والجذل والمرح يتقارب، لكن السرور هو الخالص المتكتم، وسمي بذلك اعتباراً بالأسرار، والحبور ما يُرَى خبره أي أثره في ظاهر البشرة، وهما يستعملان في المحمود، وأما الفرح، فما يورث أشرا وبطراً، ولذلك كثيراً ما يُذم، فقال تعالى: ﴿**إنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ**﴾[2]، وقـال: ﴿**وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا**﴾[3]، والجذل بطر معه تزعزع، ولذلك قيل: "فرس جذل وجذلان"، أي نشيط، والمرح هو النشاط المفرط، فكأن السرور والحبور أكثر ما يكونان عن القوة الفكرية والفرح والجذل والمرح عن القوة الشهوية، ومن قال: ﴿**تَسُرُّ النَّاظِرِينَ**﴾ أى تعجب، فعلى التوسع من حيث إن الإعجاب بالشئ والسرور به كثيراً ما يجتمعان..

١- الحديث عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :
«لَا عَدْوَى ولا صَفَرَ ولاهَامَةَ» أخرجه البخاري فى الطب ج:١٠ - ص ٢٠٥ ، وأخرجه مسلم فى السلام برقم «٢٢٢١» وأورده البغوي فى شرح السنة ج:١٢ - ص ١٦٧ وذكره الراغب فى مفردات ألفاظ القرآن ص ٤٨٧ وأورده بن حجر العسقلاني فى فتح الباري بشرح صحيح البخاري باب الجذام وزاد عليه : «وفِرَّ مِنَ المَجْذُومِ كَمَا تفرمن الأسد » ج:١١ - ص ٥٦٦ - حديث رقم «٥٧٠٧».

٢- سورة القصص : الآية (٧٦).

٣- سورة الرعد : الآية (٢٦).

قوله عز وجل:

﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾

الآية (٧٠) سورة البقرة.

إن قيل: لم قال: ما هي؟ولم يقل أي بقرة هي؟أو كيف هي؟وما يسأل به عن الأجناس، والأنواع، وإنما يسأل عن الأعراض بكيف وبأى؟ قيل: إنما قد يسأل به عن كل ذلك، فيقال: ما هذا الإنسان؟ أى ما حاله وما صفته، كما يقال كيف هذا الإنسان وأي إنسان هو؟ وكيف وأي لا يسأل بهما عن الأجناس والأنواع، والفصل بين ذلك أن لفظ ما من لفظة أي وكيف يجري مجرى الجنس من الأنواع، فكما يصح أن نعبر عن النوع بالجنس، فيقال للإنسان هو حيوان، ولا يصح أن يعبر عن الجنس بالنوع، فيقال لكل حيوان إنسان، كذلك يصح أن يعبر عن أي وكيف بما، ولا يصح أن يعبر عن كل ما فيه ما بأي وكيف، وقرىء "تَشَابَهَ" على لفظ الماضي، فجعل لفظ البقر مذكراً، وتشابه بالتخفيف على تقدير تتشابه، فحذف إحدى التاءين، وقرى "تَشَّابَه"[١] بتشديد الشين على إدغام التاء في الشين، وقرئ يَشَّابه"[٢] بالتشديد على الإدغام والتذكير والاشتباه أن يشبه البعض البعض، فيصعب التمييز بينهما، وروى أنهم لما قرنوا بالمراجعة الأخيرة قولهم: **﴿وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾** وفقهم الله لمعرفة ما سألوا عنه ولترك التعنت، وقال النبي -عليه السلام- «**والذي نفس محمد بيده لو لم يستثنوا ما بُيِّنَتْ لهم آخر الأبد**»[٣]، وفي ذلك حثٌّ، حيث قال الله تعالى لعباده على استجلاب توفيقه وضم لفظ المثنوية أي: مشيئة الله إلى كل ما يذكر من مستقبل الأمر كما قال: **﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾**[٤]..

---

١ - هي قراءة شاذة قرأ بها الحسن، والأعرج. معجم القراءات القرآنية ج:١- ص٧٠.

٢ - قرأ بذلك يحى بن يعمر، ومجاهد، وابن مسعود، والمطوعي. نفس المرجع-ج: ١- ص٧١.

٣ - الحديث أورده القرطبي فى تفسيره ج:١ - ص ٤٨٨ وأورده ابن كثير من طريق أبي رافع عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ «لولا أن بني اسرائيل قالوا «وإنا إن شاء الله لمهتدون» ما أُعطوا أبداً ، ولو أنهم اعترضوا بقرةً من البقر ، فذبحوها، لأجزأت عنهم ولكن شدّدوا فشدّدَ الله عليهم :- وعقّب ابن كثير على هذا بقوله - وهذا حديث غريب من هذا الوجه وأحسن أحواله - أن يكون من كلام أبي هريرة ، كما تقدم مثله عن السُّدي . تفسير القرآن العظيم - ابن كثير - ج:١ - ص ١١١ ط - دار الفكر العربي.

٤ - سورة الكهف: الآيتان: (٢٣، ٢٤).

قـولـه - عـز وجـل :

﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلاَ تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لاَّ شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ الآية (٧١) سورة البقرة.

الإثارة: البحث والكشف الشديد، ومنه ثار الدخان والغبار والقطاعن محثمها[١]، والدم في وجه الإنسان والحصبة في البدن، وتورث الأمر، وقوله: ﴿تُثِيرُ الأَرْضَ﴾ صفة لقوله: ذلول، لأنه يراد نفي الإثارة عنها لا إثباتها لها، والحرث تذليل الأرض وتسهيلها للزراعة، ثم يتجوز به في الزراعة، ويكنى به عن النكاح وعن جميع المال، ويقال: دابة محروثة أي مذللة، والمحراث لما يحرث الزرع والنار، والمسلمة المتروكة سليمة من العاهات، وأصل ذلك من السلامة، والتسليم أصله بذل السلامة، وجعل في التعارف[٢] لبذل المقاله المخصوصة لما كان ذلك في الأصل موضوعاً لبذل السلامة، ولما كان قوله السلام مقتضياً لذلك، قال عليه السلام: «**أفشوا السَّلاَمَ بينكُمْ تَدْخُلُوا جَنَّةَ رَبِّكُمْ**»[٣]، ولم يرد بذلك المقال دون الفعال وإن كان ظاهره المقال، ولهذا ضمن به الجنة، وقوله: ﴿لاَّ شِيَةَ فِيهَا﴾ أي؛لا أثر بها يخالف معظم لونها،وهي فعلة من الوشي، واستعمل الوشي في الكلام بالمنسوج وحض التقول على سبيل النميمة بالوشاية والمجئ والإتيان يتقاربان، لكن المجئ كأنه يقال باعتبار الحصول والإتيان باعتبار القصد، ولذلك قيل للماء المجتمع حية، وللسيل القاصد أتى، وقوله: ﴿قَالُوا الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ لا يتضمن أن ما جئت به من قبل كان باطلاً، وإنما أرادوا الآن جئت بما تحققنا المراد مناً، وليس كما قال بعض الناس إن القوم كفروا بذلك، لأن كلامهم تضمن أن موسى لم يكن يأتي بالحق قبله، والنفي في قوله: ﴿وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ وإن دخل في لفظ "كاد"، فهو متناول لقوله يفعلون نحو: ما كان زيد

---

١ - الحثمة: الربوة، والطريق العالية، والحثمة: مصب الماءعند السد. المعجم الوسيط- مادة : حثم.

٢ - من هذا الموضع تعاود التحقيق من النسختين حيث كنا قد اعتمدنا في تحقيق تفسير الآيات السابقة من رقم (٦٨) حتى رقم (٧١) والتي أسلفنا الاشارة إليها من قبل على النسخة (أ - ص). فقط لعدم وجودها في النسخة (و - ج) الأصل.

٣ - الحديث أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة مرفوعاً ، ولفظه: «ألا أدلكم على ماتحابون به ، أفشوا السلام بينكم» وأخرجه البخاري في الأدب المفرد ، وصححه الترمذي والحاكم ،وصححه ابن حبان من حديث عبد الله بن عمر . فتح الباري بشرح صحيح البخاري ج:١٦ - ص ٥٢٣ - حديث رقم «٦٢٣٥».

يخرج، وتقدير ذلك كادوا يفعلون لتعذر ذلك عليهم وكثرة مراجعتهم، وقيل: (كادوا لا يفعلون) خشية الفضيحة.وأما إنهم بكم اشتروا البقرة، وممن اشتروها فليس مما يفتقر إليه تفسير الآية، وقال بعض الناس: في هذه الآية دلالة على فسخ الشئ قبل فعله، فإن في الأول أمروا بذبح بقرة غير معينة، وكان لهم أن يذبحوا أيّ بقرة شاؤوا، وفي الثاني والثالث أمروا بذبح بقرة مخصوصة، فكأنهم نهوا عما كانوا أمروا به من قبل وليس الأمر كذلك، فإن الأول أمرٌ مطلق والثاني والثالث كالبيان له لما راجعوه[١] ولم يسقط عنهم ذبح البقرة، بل زيد في أوصافها، وكشف عن المراد بالأمر الأول، وفي الآية دلالة على جواز تأخير بيان المجمل[٢] إلى وقت الحاجة..

قوله - عز وجل:

﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾. الآية (٧٢ ، ٧٣) سورة البقرة.

ادارأتم أي تدافعتم، وأصل الدرء الاعوجاج، فالتدارؤ أن يعوج كل على الآخر بمخالفته له، وقال الخليل: كوكب دري، فعيل من الدرء أي تدافع الضوء، ودرأت عنه الحد منه، ووزن "ادارأتم" من الفعل تفاعلتم، أصله تدارأتم، فأريد الإدغام تخفيفاً، فأبدل من التاء دالا فسكن للإدغام، واجتلب لها ألف الوصل، فحصل على اتفاعلتم، وقال بعض الأدباء: ادارأتم افتعلتم، وغلط فيه من أوجه:

أولاً: أن ادارأتم على ثمانية أحرف، وافتعلتم على سبعة أحرف، **وثانياً**: أن الذي يلي ألف الوصل تا، فجعلها دالاً، **وثالثاً**: أن الذي يلي الثاني دال، فجعلها تاء، **ورابعاً**: أن الفعل الصحيح العين لا يكون ما بعد تاء الافتعال منه إلا متحركاً، وقد جعله ههنا ساكناً **وخامساً**: أن ههنا قد دخل بين التاء والدال زائد، وفي افتعلتم لا يدخل ذلك، **وسادساً**: أنه أنزل الألف منزل العين وليست بعين، **وسابعاً**: أن تاء افتعل قبله حرفان وبعده حرفان، وادّاراً بعد التاء ثلاثة أحرف، وثامناً أن عين افتعل في المستقبل مكسور، وعين "ادارأتم" في المستقبل مفتوح، وفي قوله: **﴿ وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾**

١ - في (أ - ص) راجعوا.
٢ - في (أ - ص) البيان.

اعتراضٌ متضمن لتمرد، وتنبيه أنه تعالى لا يخفى عليه خافية، وأن كل من عمل خيراً أو شراً، فإن الله تعالى لا يظهره على بعض الوجوه، وعلى ذلك روى "ما عمل عبدٌ حسنة في تسع آبيات إلا أظهره الله تعالى، لقوله: ﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾، ونظم هذه الآيات مشكل، فقد كان في الظاهر يقتضي أن يكون قوله: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾ متقدماً على قوله: (وإذ قال موسى لقومه..)، لأن أمر موسى -عليه السلام- بذبح البقرة بعد التدارؤ، وفي قتل النفس والظاهر أن ذبح البقرة قد كان من قبل، وبيان ذلك أنه قد قيل قولان: أحدهما:أن موسى -عليه السلام- قد أمر بني إسرائيل أن يذبحوا بقرة قبل الحادثة، فلذلك تعجبوا وقالوا: أتتخذنا هزواً، فلما ذبحوا البقرة اتفق حصول[1] المقتول، فقال موسى لما راجعوه: "اضربوه ببعْضها"، وقيل: بل كان الأمر بذبح البقرة بعد وقوع التشاجر،وعلى هذا قوله: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾ ليس بمعطوف على قوله: (وإذ قال موسى لقومه)، بل هو في موضع الحال له، كأنه قيل: (واذكروا إذ قال موسى لقومه..) الآية..

وذلك إذ قتلتم نفساً [فادارأتم فيها] [2] أو إذ قتلتم نفساً كان ذلك، لكن اختصر، وفي قوله ﴿اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ اختصار، كأنه قيل: ليحى محى، وأما بأي عضو ضرب، فقد قال مجاهد: بفخذها، وقال السدى: بمضغة من لحمها، وقال الفراء: بذنبها، وقال وهب: بأصغريها قلبها ولسانها، فظاهر[3] الآية لا يقتضي تخصيص عضو، (من عضو)[4] وقوله: ﴿يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ﴾، قيل: هو حكاية عن قول موسى- [عليه السلام][5]- لقومه، وقيل : بل هو خطاب من الله تعالى لهذه الأمة تنبيهاً على الاعتبار بإحيائه الموتى، وقد استبعد بعض الناس ذلك وماحكاه الله منه، وأنكر حصول ذلك الفعل على الحقيقة، وقال ذلك ممتنع من فعل[6] الطبيعة، [وأيضاً فإن ذلك لا يعرف فيه حكمة إلاهية فأما

---

١ - في (و - ج) الحصول، وهو خطأ من الناسخ.

٢ - ساقطة من (و - ج).

٣ - في (أ - ص) وظاهر.

٤ - ساقطة من (أ - ص).

٥ - ساقطة من (و - ج).

٦ - في (أ - ص) من حيث.

استبعاده ذلك من حيث الطبيعة][1]، فإنما هو استبعاد للإحياء والنشور، ولذلك موضع لا يختص بالتفسير، ومن كان ذلك طريقته، فلا خوض معه في تفسير القرآن، وأما الحكمة فيه فظاهرة، إذهو من المعجزات المحسوسات[2] الباهرة للعقول، وتخصيص[3] البقرة، فإن كثيراً من حكمة الله تعالى لا يمكن للبشر الوقوف عليه، ولو لم يكن في تخصيص بقرة على وصف مخصوص إلا توفر المأمور[4] بذلك على طلبها واستيجاب الثواب في بذل ثمنها وجلب نفع إلى صاحبها لكان في ذلك حكمة عظيمة، وفي الآية تنبيه على أن الجماعة التي حكمهم واحد، يجوز أن ينسب الفعل إليهم وإن كان واقعاً من بعضهم، ولا يكون ذلك كذباً، كما أن الجملة المركبة من شخص واحد يصح أن ينسب إليها ما وقع من عضو منها، وذكر بعض الصوفية أن الله تعالى قصد بما ذكره لبني إسرائيل إشارةً إلى معنى لطيف، فإن في الأمر بذبح البقرة أمراً بتذليل القوة الشهوية، ولما لم ينتبهوا لمراده، قالوا أتتخذنا هزواً،وبيّنَ قوله[5] ﴿لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ﴾ أن حق الإنسان أن يتحرى في إماتة شهوته وقت ما يزول عنه شره صباه، فلا يكون كبكر، ولم يلحقه حسوا لكبر، فيكون كفارض، ثم نبه بما ذكره من اللون أنه لا يحب أن يمنع النفس[6] من إماتة شهوتة كونها رائقة المنظر، بل يجب أن يميتها أعجب ما تكون إليه، ثم نبه بقوله: ﴿لا ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ﴾ أن النفس التي تحمل على تذليلها في العبادة هي النفس التي لم تستعبدها الدنيا ولم تتأثر بدنسها، ولم تتوسم بمقابحها، وظاهر الآية لا يقتضي ذلك، لكن مثله إذا حكى، فتصحيحه مفوض إلى فكرة قارئه ومتأمله، والله أعلم..

---

١ - هذه العبارة - ساقطة من (و - ج).

٢ - في (أ - ص) المحسوسة وهو تصحيف.

٣ - في (أ - ص) وأما تخصيص.

٤ - في (أ - ص) توافر المأمورين.

٥ - في (أ - ص) لقوله.

٦ - ساقطة من (أ - ص).

قوله - عز وجل :

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

الآية : (٧٤) سورة البقرة.

قساً وحساً وعساً تتقارب معانيها تقارب ألفاظها، فالقساوة تقال في الصلب الذي لا تخلخل فيه كالحجر ونحوه، وقيل: قلب قاس تشبيهاً به، وعسا إذا كان معه عصيان فهو يقارب عصى، وحساً يقال فيما يتصلب، والصلابة تقال فيما في جوهره شدة، وأما الشدة فتقال فيما تعتبر فيه انضمام الأجزاء بعضها إلى بعض، ومنه قيل: شددته، وشد الشئ واشتد، وقيل للعد والشد، كما يقال فيه القبض والتقريب والشدة تارة تقال في القوة الجسمية، وتارةً في القوة النفسية، وقولهم: "بلغ فلان أشده"، أي حاله استمر مرير نفسه وجسمه، والنهر يقال لمسيل الماء الواسع، وللماء جميعاً ولتصور السعة فيه يقال منه أنهرت فتقه، أي أوسعته، والنهار خص به السعة فيما بين طلوع الفجر إلى غروب الشمس، والشق أن يجعل الشئ شقين، وقيل للأخوين شقيقان، وللخلاف الشقاق، إذ هو ضد الائتلاف، والشقيقة في الداء تشبيهاً بذلك، ولهذا قيل له الصداع والخشية خوف عن تعظيم المخشى، وقد تقدم الفرق بينه وبين إخوانه، والغفلة والسهو والنسيان يتقارب، لكن النسيان بانحذاف ذكر الشئ عن القلب، والغفلة استتارةً في بعض الأحوال اشتغالاً بغيره،والسهو يقاربه، إلا أن الغفلة أكثر ما يقال فيما تركته وحقه أن لا يترك، والسهو يقال فيه وفيما فعلته ولم يكن حقه أن يفعل، فإذاً السهو أعم من الغفلة واستعمل لأحد الشيئين، وقول من قال هو للشك فنظر منه إلى بعض تفاصيله، فإن الشك لا يقيده أو بالقصد الأول، فقد يقال: لقيت زيداً أو عمراً قصداً إلى الإجمال والإبهام، أو لعله عنابه التفصيل، وقد بين الله تعالى بالآية أنهم ارتكبوا ذنوباً قست بها قلوبهم بعد آيات مقتضية للين قلوبهم من إحياء الموتى ومسخ الناس قردة وخنازير ورفع الطور فوقهم وأنها صارت في القساوة

بحيث إن قلت إنها كالحجارة[١] قساوة صح بنظر، وإن قلت هي أشد من الحجارة صح بنظر، ثم ذكر حكماً كلياً، فقال «وإن من الحجارة أي من القلوب القاسية التي هي كالحجارة، فذكر المشبه بلفظ المشبه به تحقيقاً للتشبيه، كقولك: هم كالبقر[٢] ومن البقر ما يفعل كذا، أي من القوم الذين كالبقر[٣]، فكأنه قيل: وإن من القاسية قلوبهم من يراجع، فبعض يتفجر منه الأنهار، ومعناه حكمة بالغة كأنهار متفجرة، وبعض يتحصل منه نوع من العلوم يجري مجرى الماء، وقد تقدم أن الماء يضرب به المثل في العلم، وبعض يحصل[٤] منه الخشية، ونبه بفحوى في الكلام أنَّ هؤلاء المذمومين لم يحصل منهم شئ من ذلك فهم أحجار صلدة، وإنما قال: ﴿لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ﴾، ولم يقل من اعتبار بلفظ الحجارة، وهذا الذي قلناه على قول من اعتبر هذه الأحكام في المشبه دون المشبه به، فأما من اعتبر ذلك في المشبه به دون المشبه، ففيهم من تعسف جداً في قوله: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ أي من الحجارة، ومنهم من قارب[٥]، قال أبو علي الجبائي: عنى بهذه الحجارة البَرَد الهابط من السماء[٦]، وبقوله: ﴿مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ أي بخشيته، وعنى بالخشية التخويف، لأن الخوف والخشية واحد، قال: "ولما كان نزول البرد تخوف الله لعباده قال ذلك، ثم قال، وإنما قلت هذا، لأن الحجارة جماد فلا يصح منه الخشية، كما ترى [قال الشيخ أبو القاسم- أيده الله][٧]- فهذا كما ترى، وقال البلخي: هذا على جهة التمثيل لما في الحجارة من الانقياد لأمر الله الذي لو كان من حي قادر دل على أنه خاشٍ لله..، وقال بعضهم: وإن منها أي من الحجارة لما يهبط من أجل أن يخش الله العباد، وقال أبو مسلم ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾، الهاء فيه راجعُ إلى القلوب لا إلى الحجارة، أي من القلوب ما يخضع،

---

١ - في (أ - ص) هي كالحجارة.
٢ - في (أ - ص) كبقرة.
٣ - في (أ - ص) كالبقرة.
٤ - في (و - ج) حصل، وهو خطأ من الناسخ.
٥ - في (و - ج) ما قارب.
٦ - في (أ - ص) من السحاب.
٧ - ساقطة من (و - ج).

فيكون ذلك مستثنى من القاسية قلوبهم، كما قال: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ﴾[١]، وقال مجاهد وابن جريج كل حجر تردى من رأس جبل فخشية الله نزلت به، وقال الزجاج: الهابط منها قد جعل له معرفة، قال: ويدل على ذلك قوله: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾[٢]، وقال: ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض إلى قوله: ﴿وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ﴾[٣]، وقد روي مثل هذا عن السلف ولابد في معرفة ذلك من مقدمة تكشف عن وجه هذا القول، وحقيقته، فإن قوماً استسلموا لما حكى لهم من هذا النحو، فانطووا على شبهة، وقوماً استبعدوا ذلك واستخفوا[٤] عقل رواته وقائليه، فيقال وبالله التوفيق إن قوماً من المتقدمين ذكروا أن جميع المعارف على أضرب، الأول: المعرفة التامة التي هي العلم التام وذلك لعلام الغيوب الذي أحاط بكل[٥] شيء علماً، والثاني: معرفة متزايدة،[٦] وهي للإنسان، وذاك أن الله تعالى جعل له معرفة غريزية، وجعل له بذلك سبيلاً إلى تعرف كثير مما لم يعرفه، وليس ذلك إلا للإنسان، والثالث: معرفة دون ذلك وهي معرفة الحيوانات التي سخرها لإيثار أشياء نافعة لها والسعي إليها واسترذال أشياء هي ضارة لها وتجنبها ودفع مضار عن أنفسها، والرابع: معرفة الناميات من الأشجار والنبات، وهي دون ما للحيوانات وليس ذلك إلا في استجلال المنافع وما ينميها، والخامس: معرفة العناصر، فإن كل واحد منها مسخر، لأن يشعر المكان المختص به كالحجر في طلب السفل، والنار في طلب العلو وذلك له بتسخير الله تعالى لا بإختيار[٧] منه، قالوا: والدلالة على ذلك أن كل واحد من هذه العناصر إذا نقل عن مركزه قهراً أبى إلا العود إليه طوعاً، قالوا: ويوضح ذلك أن السراج تجتذب الأدهان التي تبقيه ويأبى الماء الذي يطفيه، وأن المغناطيس

---

١ - سورة آل عمران : الآية (١٩٩).
٢ - سورة الحشر : الآية (٢١).
٣ - سورة الحج : الآية (١٨).
٤ - في (أ - ص) واستسخفوا.
٥ - في (و - ج) أحاط به كل، وهو تحريف.
٦ - في (أ - ص) متزائدة.
٧ - في (أ - ص) بلا اختيار.

يجر الحديد ولا يجر غيره، هذا ما حكوه، فعلى هذا إذا قيل إن لهذه الأشياء معرفة، فليس ببعيد متى سلم لهم أن هذه القوى تسمى معرفة، فأما إذا قيل إن للجمادات معارف الإنسان في أنها تميز وتختار وتريد، فهذا مما تعافه العقول، ونبه الله تعالى تخويفاً لنا أن ارتكاب الذنوب يقضي براكبها إلى قساوة قلب حتى إنه ربما يعدم فيه رجاء الخيرات كلها، ونبه أنه تعالى لا يغفل عن أفعال البشر، إذ هو علام الغيوب..

قوله - عز وجل:

﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ الآية (٧٥) سورة البقرة.

الطمع يقارب الرجاء، والأمل، لكن الطمع أكثر ما يقال فيما يقتضيه الهوى والأمل والرجاء قد يكونان فيما يقتضيه الفكر والروية، ولهذا أكثر ذم الحكماء للطمع، حتى قيل الطمع طبع، والطمع يدنس الثياب، ويفرق الإهاب [١] ، والأصل في تحريف الشئ الانتهاء به إلى ناحية يمكن جره إلى غيره، ثم يقال في كل كلام غير عن وجهه محرف،[٢] والسماع يقال على ما يُحس وعلى ما يتصور، ولذلك وصف الله تعالى الكفار بالصمم، فقوله: **﴿يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ﴾** حمل بعضهم على المسموع[٣] منه تعالى، فجعل الفريق بعض السبعين الذين كانوا مع موسى [عليه السلام][٤] في المناجاة، لاستماع كلامه، فلما عادوا حرفوا ما سمعوه وإليه ذهب ابن عباس والربيع، وبعضهم حمله على ما كان في الأصل منه تعالى، وإن سمع من غيره فجعله التوراة وجعل الفريق العلماء الذين غيروا التأويل، وإليه ذهب السدي والحسن وابن زيد، وفي الآية تسلية للنبي ﷺ والمؤمنين، وتوهين للطمع في أئمتهم؛ وإن هؤلاء إذا كان علماؤهم وأحبارهم الذين سمعوا لكلام الله وعقلوه وحرّفوه ولم يؤمنوا، فكيف يرجى أن تؤمن[٥] جماعتهم مع جهل أكثرهم إن قيل: كيف يقتضى امتناع بعض من الإيمان

---

١ - أصل الإهاب الجلد، وهذه استعارة أوردها الراغب في المفردات، ص ٥٢٤.
٢ - في (أ - ص) فهو محرف.
٣ - في (أ - ص) مسموع.
٤ - ساقطة في (و - ج).
٥ - في (أ - ص) إيمان.

قطع الطمع في إيمان سائرهم؟ قيل: لما كان الإيمان هو العلم الحقيقي مع العمل بحسب مقتضاه[١] فمتى لم يتحر ذلك من حصل له بعض العلوم، فحقيق أن لا يحصل لمن غنى عن كل العلوم، فذكر تعالى ذلك تبعيداً لإيمانهم لابثاً للحكم بذلك، إذ ليس كل مالا يطمع فيه كان ميؤوساً منه، وقوله: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي يعلمون أنهم محرفون ومعاندون، وفي الآية تنبيه أن ليس المانع للإنسان عن تحري الإيمان الجهل به فقط، بل[٢] قد يكون عناداً وغلبة شهوة..

قوله - عز وجل :

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ الآية (٧٦) سورة البقرة.

الحديث ما يوجد بعد أن لم يكن نطقاً كان أو عيناً، والفتح أصله فتح الغلق، ولما استعمل في الأمر المبهم والكلام الصعب الغلق استعمل في إزالته الفتح، ومنه قيل في الحرب وفي آياته الحجة، وفي الحكم الفتح حتى قيل للحكم المفصول فتاحة، وللحاكم فتاح، وقوله: ﴿بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي بما أطلعكم عليه من العلم، وهذا أولى من قول [من قال]:[٣] ﴿بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ من النصر في مغازي رسول الله ﷺ ومن الآيات التي كانت في بدر من المواضع التي انتهى إليها قبل وقوع الحرب، فقال: **[هذا مصرع فلان غداً، وهذا مصرع فلان]**[٤]، ثم كان على ما قال، فإن هذا لم

---

١ - في (أ - ص) بمقتضاه.

٢ - في (أ - ص) بل يكون.

٣ - ساقطة من (و - ج).

٤ - هذا الحديث رواه مسلم في صحيحه من حديث أنس قال: "كنا مع عمر بن الخطاب بين مكة والمدينة، فتراءينا الهلال.. ثم أنشأ عمر يحدثنا عن أهل بدر، فقال: إن رسول الله ص- كان يرينا مصارع أهل بدر بالأمس يقول: "هذا مصرع فلان غداً- إن شاء الله- إلخ. صحيح مسلم - ج٣-ص ٢٢٠٣، ورواه الطبراني من حديث أنس ص ٢٦١٧ ، وأخرجه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده ج١-ص٢٦، وأخرجه المتقي الهندي في كنز العمال في غزوة بدر- ج:١ حديث رقم «٢٩٩٣٨»، وأخرجه البيهقي بلفظ مقارب في كتاب السير - ج: ٩- ص ١٤٨.

يخصهم النبي – عليه السلام – بالاطلاع عليه دون المؤمنين، حتى كانوا يكتمونه ويتواصوا به، والحجة هي ما يقتضي صحة أحد النقيضين، وأصله من الحج أي القصد للزيادة، وسمى سبر الجراحة حجاً، وخلا فلان أي صار في خلاء، فالآية[١] إخبار عن المنافقين منهم، وأنهم يظهرون الإيمان ويتواصون فيما بينهم أن لا يظهروا ما انكشف لهم من حقائق النبوة لئلا يصير ذلك حجة عليهم في حكم الله، وهذا معنى قوله: (عند ربكم)، كقوله [٢]﴿فَأُولَئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾[٣] أي في حكمه، وهذا التأويل أولى من قول من قال: ﴿لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ﴾أي يوم القيامة، وقيل: ﴿عِندَ رَبِّكُمْ﴾ أي : عند سيدكم يوم الخصام، وقوله: ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ يصح أن يكون من جملة الحكاية عنهم على سبيل إنكار بعضهم على بعض، ويصح أن يكون استئناف إنكار من الله –عز وجل– [عليهم] [٤] على سبيل ما يسمى في البلاغة بـ "الالتفات"[٥].. ويصح أن يكون ذلك خطاباً للمؤمنين تنبيهاً على ما يفعله الكفار والمنافقون..

---

١ – في (أ – ص) والآية.

٢ – في (و – ج) لقوله.

٣ – سورة النور الآية : (١٣).

٤ – ساقطة من (أ – ص).

٥ – في (و – ج) الالتفات.

قـوله - عـز وجـل:

﴿أَوَلا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ الآية :(٧٧) سورة البقرة.

هذا تبكيتٌ لهم وإنكار لما يتعاطونه مع علمهم أن [١] الله لا يخفى عليه خافية.

قوله - عز وجل :

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ﴾ الآية : (٧٨) سورة البقرة.

الأمي : قيل هو الذي لا يكتب، وأصل هذا اللفظ في المنسوب إلى الأم، ولما كانت الأم هي المنشئة المربية للولد، تصور ذلك في أشياء، فقيل له أم[٢] نحو أم الأضياف، وأم الجيش للرئيس، وأم القرى لمكة وذلك لنحو ما روى أنه لما خلق الأرض دحاها من تحت الكعبة، وأم الكتاب للوح المحفوظ ولفاتحة الكتاب تصوراً أن منهما منشأ الكتاب، وقيل أمه إذا قصده قصد الإنسان للأُم المشفقة عليه، ومنه اشتق الإمام والأمة، فالأمي في التعارف هو المنسوب إلى ما يجري[٣] منه مجرى أمه في العناية وتربيته في الفضيلة وحفظها عليه أما ماكان ذلك أو غيره، واستعمل فيمن لا يقرأ فيحتاج إلى من يحفظ عليه معارفه، وهذه الحالة فضيلة للنبي -عليه السلام- ونقيصة لغيره، من أجل[٤] أنه -عليه السلام- حفظ عليه علومه فيض إلاهي ونور سماوي، فصار افتقاره غنىً، كماروى [عنه ﷺ][٥]أنه كان يقول في دعائه:

«اللهم اغنني بالافتقار إليك»،[٦] وغيره لما احتاج إلى أن يحفظ معلومه عليه آدمي مثله صار في الحقيقة ناقصاً، وفقيراً[٧] وقوله: (إلا أماني)، الأصل في هذه اللفظة الدائر في جميع متصرفاته التقدير، ومنه الْمَنَا الذي يوزن به، والمني الذي منه الحيوان، ومنى الله كذا، أي قدر، وعن ذلك

---

١ - في (أ - ص) بأن.
٢ - ساقطة من (و - ج).
٣ - في (أ - ص) من يجري.
٤ - في (أ - ص) من حيث.
٥ - ساقطة من (و - ج).
٦ - هذا الدعاء من قول عمرو بن عبيد، وليس من قول الرسول(ص)، انظر جواهر الألفاظ، ص ٥، ومفردات ألفاظ القرآن- ص ٢٩١.
٧ - ساقطة من (أ - ص).

وضع الأمنية، فإنه تقدير شئ في النفس وتصويره فيها، وذلك قد يكون عن تخمين وظن، ويكون عن روية وبناء على أصل، لكن لما كان أكثره عن تخمين صار الكذب به أملك، فأكثر التمني تصور مالاحقيقة له، ولما كان الكذب تصور ذلك ويراد[1] باللفظ صار التمني كالمبدأ للكذب،فيصح أن يعبر عن الكذب بالتمني في نحو ماروي عن عثمان- "رضي الله تعالى عنه"[2]- أنه قال: **«ما تغنيت ولا تمنيت»**[3]، ولما قلناه قال مجاهد: "إلا أماني" معناه "إلا كذباً"، وقال غيره: إلا تلاوة مجردة عن المعرفة من حيث أن التلاوة بلا معرفة المعنى تجري عند صاحبها مجرى أمنية مبنية على التخمين، فإن قيل: فما معنى قوله تعالى على هذا: **﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾**[4] قيل: قد قلنا إن التمني كما يكون عن تخمين وظن، فقد يكون عن روية وبناء على أصل، ولما كان النبي -عليه السلام- كثيراً[5] ما كان يبادر إلى ما نزل به الروح الأمين على قلبه حتى قيل له: **﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾**[6] **﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾**[7] سمي تلاوته على ذلك تمنياً..، وقوله: **﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾**[8] كناية عن الكذب لما كان الظن واقعاً بين الصدق والكذب، كما كنى عنه بالخرص الذي هو تقدير الأثمار لما كان ذلك متردداً بين الوفاق والخلاف، وقد أنبأ الله تعالى بالآية عن جهل الأميين وذمهم والمبالغة في ذم علمائهم وأحبارهم[9]، فإن الأميين لم يعرفوا إلا مجرد التلاوة، واعتمدوا على زعمائهم و"أحبارهم" وهم قد ضلوا وأضلوا، ونبهنا الله تعالى بذم الأميين على اكتساب المعارف لئلا يحتاج إلى التقليد والاعتماد على من لا يؤمن كذبه وبذم زعمائهم على تحري الصدق وتجنب الإضلال، إذ هو أعظم من الضلال..

---

١ - في (و - ج) وإيراده، وهو تصحيف.

٢ - ساقطة من (و - ج).

٣ - أورده ابن الأثير في كتاب النهاية في غريب الحديث قال: «وفي حديث عثمان.. ما تغنيت ولا تمنيت، ولا شربت خمراً في جاهلية ولا إسلام»، وفي رواية "ما تمنيت منذ أسلمت"، أي: ما كذبت، والتمني هو التكذب. انظر النهاية لابن الأثير ج:٤-ص٣٦٧، وأورده الراغب في مفردات وألفاظ القرآن -ص٧٨٠.

٤ - سورة الحج: الآية (٥٢).

٥ - ساقطة من (و - ج).

٦ - سورة طه : الآية (١١٤).

٧ - سورة القيامة : الآية (١٦).

٨ - سورة الجاثية : الآية (٢٤).

٩ - ساقطة من (و - ج).

قوله - عز وجل :

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ الآية (٧٩) سورة البقرة.

ويل: تقبيح، وقد يستعمل على سبيل[١] التحسر، وما روى أبو سعيد الخدري -"رضي الله عنه"[٢]- أنه وادٍ في جهنم، فليس يعني أن الويل هو اسم لذلك الوادي، وإنما يعني أن الذين يجعل لهم الويل هم المتبوئون في ذلك[٣] الوادي، والكسب استجلاب نفع، وقوله: ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً﴾[٤]، فعلى نحو قوله: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[٥] إن قيل ما وجه توكيد الكتابة باليد، وهي لا تكون إلا بها، قيل: لما كانت اليد العاملة يختص بها الإنسان من بين الحيوان وهي أعظم جارحة، بل عامة المنافع راجعة إليها حتى لو توهمناها مرتفعة ارتفع بها الصناعات التي بها قوام العالم كالبناء، والحوك، والصوغ صارت مستعارة في القوى جميعاً، والمنافع كلها حتى قيل: فلان يد فلان إذا قواه، وقيل للنعمة يد لما صارت معينة للمعطى إعانه يده وحتى صار مستعاراً في اللفظ لله تعالى بدلاً عن القدرة أو عن النعمة أو صفة أخرى غيرهما، فذكرت مثناة مرة ومجموعة مرة تصويراً للمبالغة في ذلك، فقال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾[٦]، وقال تعالى: ﴿مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا﴾[٧]، وقال: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾[٨]، ووجه آخر، وهو أن الفعل ضربان: ابتداء، واقتداء، فيقال فيما كان ابتداء: "هذا مما عملته يد فلان"، فقوله: ﴿مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي مما اخترعوه من تلقائهم، وعلى هذا قد يحمل قوله تعالى:

---

١ - في (أ - ص) على التحسر.
٢ - ساقطة من (و - ج).
٣ - في (أ - ص) لذلك.
٤ - سورة النساء : الآية (١١٢).
٥ - سورة الانشقاق : الآية (٢٤).
٦ - سورة الذاريات : الآية (٤٧).
٧ - سورة يس : الآية (٧١).
٨ - سورة ص : الآية (٧٥).

﴿**يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ**﴾[١]، إن قيل: لم ذكر يكسبون بلفظ المستقبل، وكتبت أيديهم بلفظ الماضي؟ قيل:تنبيهاً على أن ما قال النبي -عليه السلام- «**من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها ومن سن سنةً سيئةً فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة**»[٢]، فنبه بالآية أن ما أضلوه وأثبتوه من التأويلات الفاسدة التي يعتمدها الجهلة هو اكتساب وزر يكتسبونه حالاً فحالاً إن قيل: لم ذكر الكتابة دون القول؟قيل: لما كانت الكتابة متضمنة للقول وزائدة عليه إذ هو كذب باللسان واليد صار أبلغ، لأن كلام اليد يبقى رسمه، والقول يضمحل أثره.. إن قيل ما الذي كانوا يكتبونه؟ قيل: قد روي عن بعض السلف أن رؤساء اليهود كانوا يغيرون من التوراة نعت النبي ﷺ، ثم يقولون هذا من عند الله، وهذا فصل يحتاج إلى فضل شرح، وهو أنه يجب أن يتصور أن كل نبي أتى بوصف لنبي بعده فإنه أتى بلفظة معرضة به وإشارة مدرجة لا يعرفها إلا الراسخون في العلم وذلك لحكمة إلاهية، فإن من شأن المسوسين سيما الذين لم يتمهروا في الحقائق أنهم متى أحسوا بحال سايس[٣] يتعقب "سايسهم"[٤] وإمامهم تواكلوا عن الائتمار لأوامره، والارتسام لزواجره، وهذا معروف من عادات الناس، وقد قال العلماء "ما انفك كتاب منزل من السماء من تضمن ذكر النبي عليه السلام، ولكن بإشارات ولو كان ذلك متجلياً لعوام لما عوتب علماؤهم في كتمانه، ثم ازداد ذلك غموضاً بنقله من لسان إلى لسان من العبراني إلى السرياني "ومن السرياني"[٥] إلى العربي، وقد ذكر المحصلة ألفاظاً من التوراة والانجيل إذا اعتبرتها وجدتها[٦] دالة على صحة نبوة محمد ﷺ بتعريض هو عند الراسخين في العلم جلي، وعند العامة خفي، فبان بهذه الجملة أن ما كتبت أيديهم كان[٧] تأويلات محرفة، وقد نبه الله تعالى بالآية على التحذير من تغيير أحكامه وتبديل آياته وكتمان الحق عن أهله وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر طمعاً في عرض من أعراض[٨] الدنيا،وقد تقدم أنه قد عنى بالثمن القليل أعراض الدنيا وإن كثرت لقوله تعالى: ﴿**قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ**﴾[٩].

---

١ - سورة آل عمران : الآية (١٦٧).

٢ - الحديث عن جرير بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «من سن في الإسلام سنةً حسنةً فله أجرها،وأجر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيئ، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيئ». أخرجه مسلم- ــ ــ ـ باب الزكاة «حديث رقم ١٠١٧». وأخرجه الإمام أحمد في مسنده ج:٤-ص٣٦٢، وأخرجه الإمام الترمذي والنسائي وابن ماجة من طرق والدارمي وأبو عوانة وابن حبان، وكلهم عن جرير بن عبد الله. وأورده الراغب في مفردات ألفاظ القرآن ص ٤٥٨.

٣ - في (أ - ص) أحسوا بسايس.

٤ - ساقطة من (أ - ص).

٥ - ساقطة من (أ - ص).

٦ - في (أ - ص) إذا اعتبرت وجدت.

٧ - في (أ - ص) كانت.

٨ - في (أ - ص) في غرض من الدنيا.

٩ - سورة النساء : الآية (٧٧).

قوله - عز وجل :

﴿ وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ الآية :(٨٠) سورة البقرة.

المس واللمس والحس والجس تتقارب، إلا أن الحس عام في المحسوسات والجس فيما يخفى ويدق كنبض العرق والخبر الخفي، واللمس بظاهر البشرة، وكل ذلك يقال عند تأثير المحسوس في الحاس [(١)] وبغيره لأجله، واللمس كالطلب للمس، وقد ينفك منه، ولذلك قال: "وألمسه فلا أجده"، وجعل المس كنايةً عن النكاح تارةً، وعن الجنون تارةً، فقيل: بفلان مس، وهو ممسوس، والمسوس من الماء مامسته الأيدي، ولما كان كل وعدٍ عقداً ما وكل عقد عهداً ما كان كل وعد عهداً، فصح أن يعبر عن الوعد بالعهد، ولكونه وعداً استعمل منه الإخلاف، ومعدودة قليلة ووجه ذلك أنه لما كان المعدود ضربين، ضرباً قليلاً يسهل عده (وإحصاؤه)[(٢)] وكثيراً لا يسهل[(٣)] عده، وكانت الأعراب يقل فيهم الحساب وقوانين الحساب، تصوروا الكثير متعذر العد، والقليل متيسر العد، وقالوا: "شئ معدود ومحصور أي قليل وغير معدود، ومحصور أي كثير. ووجه الآية أن اليهود اختلفت، فبعضٌ قال نعذب بعدد الأيام التي عبد أصحابنا فيها العجل، وبعضٌ قال: مدة الدنيا سبعة آلاف سنة وإنما نعذب مكان كل ألف سنة من الدنيا يوماً من الآخرة، وبعضٌ قال: إنما بين طرفي جهنم أربعون سنة، وإذا خلا العدد انقضى الأجل ولا عذاب، فبين الله تعالى أن زعمكم أنا نعذب أياماً معدودةً ولا طريق للعقل إلى معرفة ذلك، وإنما سبيل معرفته الإخبار منه تعالى. جده–، وإخباره بذلك وعد، ووعده عهد، وما كان به من الله – عز وجل من عهد فلا خلف فيه، وقد ثبت أنه لا عهد له بذلك، فإذا ليس هو إلا تقولاً منكم على الله بما لا تعلمون، فبين بلفظ الاستفهام كذبهم فيما زعموا، وقوله: "عند الله"، أي في حكمه على ما تقدم..

---

١ – في (و – ج) في العاس، وهو تصحيف.

٢ – ساقطة من (أ – ص).

٣ – في (أ – ص) يعسر.

قوله - عز وجل :

﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

الآية: (٨١) سورة البقرة.

بلى: رد للنفي، ونعم عدة وتصديق، ويقعان في الاستفهام والخبر، فبلى لا يكون إلا في النفي، أما في الاستفهام فنحو قوله (ألست بربكم قالوا بلى)، وأما في الخبر فنحو: هذا، وأما نعم ففي الاستفهام نحو: **﴿فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ﴾**[١]، ويقال: أنا أحبك[٢]، فيقول نعم ولا يقال[٣]: بلى بوجه، وفي النفي إذا قيل ما عندي شئ، فقلت بلى، فهو رد لكلامه، وإذا قلت: نعم فإقرار منك به، والسيئة الفعل القبيح المقصود إليه في نفسه ولكونها قبيحة قوبلت بالحسنة في عامة ما جاء في القرآن، نحو: **﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾**[٤] الآية وقوله **﴿وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ﴾**[٥]، وقوله **﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾**[٦] وقوله: **﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾**[٧] والفرق بينها وبين الخطيئة أن السيئة قد يقال فيما يقصد إليه في نفسه، والخطيئة أكثر ما تقال فيما لا يكون مقصوداً إليه في نفسه، بل يكون مقصوداً إلى سببه كمن يرمي صيداً، فأصاب سهمه إنساناً أو شرب مسكراً، فجني على رجلٍ[٨] جناية في سكره، ثم السبب في ذلك سببان، سبب محظور فعله، كشرب المسكر، وسبب غير محظور،

١- سورة الأعراف : الآية (٤٤).

٢ - في (أ - ص) أناجيك.

٣ - في (أ - ص) ولا يقول.

٤ - سورة الأنعام : الآية (١٦٠).

٥ - سورة الأعراف : الآية (١٦٨).

٦ - سورة الرعد الآية : (٦).

٧ - سورة فصلت : الآية (٣٤).

٨ - ساقطة من (و - ج).

فقيل في الأول الخطأ، وقد أخطأوا في الثاني خطأ، وقد خطئ فهو خاطئ، وعلى هذا ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ﴾[١]، وقـال: ﴿لا يَأْكُلُهُ إِلاَّ الْخَاطِئُونَ﴾[٢]، وفي استعارة الإحاطة أبلغ تشبيه، وذاك أن الإنسان إذا ارتكب ذنباً فلم يقلع عنه استجره إلى معاودة مثله، ومعاودة مثله تجعل على قلبه غشاوة، فتجر به إلى ارتكاب أكبر منه، ثم ارتكابه لما هو أكبر منه يطبع على قلبه، فيشجعه على المداومة عليه، فيصير ذلك عليه حائطاً يمنعه عن رؤية ما وراءه، فيرى في مقابح الذنوب محاسن، فـينخبط في بلايا من دنياه ربما يراها[٣] نعمـاً، فيحسب أن لا وراءاللذات الدنيوية لذة ولابعد التخصيص بقاء وورائها نعمة فهذا معنى: (أحاطت به خطيئته)، وعلى ذلك دل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾[٤]، وقـوله: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ﴾[٥]، ووجه آخر روى عن السلف وهو وإن كان عائداً إلى ما تقدم، فالنظر إليهما مختلف، وهو أن السيئة الكفر، وذلك عن مجاهد وأبي وائل والربيع، فبين تعالى أن من تحرى طريق الكفر، ثم استمر مريرة في ترك الإقلاع إما الترك النظر، وإما الشرارة، وإما لشهوة مستولية عليه حتى يصير ذلك كحائط عليه لا خروج له منه، فأولئك أصحاب النار، ومن قرأ (خطيئته)، فاعتباراً بالجنس، ومن قرأ (خطيئاته)[٦]، فاعتباراً بآحاد الذنوب وجعلهم أصحاب النار لملازمتهم في الدنيا ما يوجب لهم النار، وفي الآخرة لملازمتهم إياها، إذ كان الصاحب إنما يقال فيمن كثر ملازمته لغيره..

---

١ - سورة الأحزاب : الآية (٥) والآية في (و-ج)- «ولاجناح عليكم» - وهو خطأ من الناسخ.

٢ - سورة الحاقة : الآية (٣٧).

٣ - في (أ - ص) يراه.

٤ - سورة الروم : الآية (١٠).

٥ - سورة التوبة : الآية (٧٧).

٦ - قرأ بهذا الوجه كل من نافع وأبي جعفر - معجم القراءات القرآنية- ج:١-ص٧٧.

قوله : عز وجل :

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

الآية: (٨٢) سورة البقرة.

عادة القرآن في كل موضع يذكر عقاب قوم أن يذكر بإزائه ثواب مضادتهم ليُرجى رحمته ويخُاف[١] عذابه، وقد تقدم أن عامة ذكر الإيمان في القرآن مقرونة بالأعمال الصالحة تنبيهاً أن جملة الاعتقاد والمقال لا اعتداد بها مالم يضامها الأعمال الصالحة، إذ الاعتقاد كالأس، والعمل كالبناء، ولا غناء في أسٍّ بلا بناء، كما لا ثبات لبناء بلا أس، وفيه دلالة أن قوله تعالى من قبل: ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً ﴾[٢] هو الكفر، وإحاطة الخطيئة به الأعمال السيئة، وذلك لما قابله به من الإيمان والأعمال الصالحة..

قوله - عز وجل :

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴾

الآية (٨٣) سورة البقرة.

الولد: المولود، والوليد للصبي اعتباراً بقرب ولادته، كما يقال: لما قرب اجتناؤه جني، والوليدة في الأمة كناية عن طريق التلطف بأنها تجري مجرى الولد، و"فلان لدة فلان"، أي ولد معه، واليتيم قد يقال لمن فقد كافله قبل البلوغ من أبويه، أما في الناس فأباه، وأما في البهائم فأمه، لأن كفالة الولد في الناس على غالب الأمر، وفي الحكم إلى الأب، وفي البهائم إلى الأم، وقد يقال لمن يتصور بصورة الفرد الذي إذا اعتبرت فضيلته قدر أن لا أباله من جنسه لكونه خارجياً بالفضل عن طبيعة آبائه،

---

١ - في (أ - ص) ويخشى.

٢- سورة البقرة : الآية (٨١).

وجدك فاصطفاك، كقوله تعالى في موسى عليه السلام: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾[٢]، وأخذ هذا الميثاق المذكور في الآية ليس شيئاً اختص به[٣] بنو إسرائيل فقط، بل في كل أمة، ولكل نبي، وقد تقدم أن هذه العبادات مما لا يجوز خلو شرع منها وإن اختلفت هيئاتها وأعدادها وأن كلياتها مأخوذة على الناس بقضية عقولهم وألسنة أنبيائهم وجزئياتها وكيفياتها مأخوذة عليهم بألسنة أنبيائهم -عليهم السلام[٤]- إذ لا طريق للعقل إلى معرفة جزئيات العبادات والمصالح المتعلقة بها، وليس أخذ الميثاق كله معتبراً بأن يلتزمه المأخوذ عليه ويرضى به، بل بأن توجه[٥] الحجة، وتقدير قوله: (لا تعبدون إلا الله) فيه أوجه، قال الكسائي : (أن لا تعبدوا)، فلما حذف "أن" نرفع، نحو:

أَلاَ أَيُّهَذَا الزَّاجِرِي أَحْضُرُ الْوَغَى،[٦]

وقال الأخفش: لما أفاد قوله ﴿أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ معنى القسم أجابه بجوابه نحو: حلفت لا يخرج زيد، وقال قطرب: (لا تعبدون) في موضع الحال، تقديره غير عابدين، وقال الفراء: لفظه خبر، ومعناه النهي نحو: (لا تضار والدة بولدها) بالرفع، واستدل على كونه نهياً بقراءة أبيٌّ: (لا تعبدوا إلا الله)[٧] ، وبعطف قوله: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ عليه.

---

١ - سورة الضحى : الآية (٦).
٢ - سورة طه : الآية (٤١).
٣ - في (أ - ص) منه.
٤ - زيادة في (أ- ص).
٥ - في (أ - ص) توجيه.
٦- هذا شطر بيت لطرفة بن العبد البكري وتمام البيت:

أَلاَ أَيُّهَذَا الزَّاجِرِي أَحْضُرَ الْوَغَى ... وَأَنْ أَشْهَدَ اللَّذَّاتِ هَلْ أَنْتَ مُخْلِدِي

وهو من قصيدة مطلعها : -

لخولة أطلال ببرقة مشهد ... تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد

وأحضر الوغى يعنى أحضر الوغى، والوغى الحرب، والأصل فيها أنه صوتها.
وهو من مُعلّقة طرفة في ديوانه - ص ٤٣ ، وفى شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات - ص ١٩٢ ، وهو من شواهد سيبويه - ج:١ - ص ٤٥٢ ، والفرّاء ج:٣ - ص ٢٦٥ ، والمقتضب - ج:٢ - ص ٨٥ ، ص ١٣٦ ، ومجالس ثعلب ص ٣١٧ ، والصاحبي، ص١٣٢، ص٢٣٣، والأصول - ج:٢ - ص ١٦٨ ، ص ١٨٤ ، والإنصاف ص ٥٦٠ ، وخزانة الأدب ، ج:١ - ص ٥٧ ، والعيني ، ج:٤ - ص ٤٠٢، سر صناعة الإعراب ج:١ - ص ٢٨٦، ص ٣٣٤، شرح ديوان طرفة - ص ٢١.
٧ - قرأ بهذا الوجه كل من أبي وابن مسعود.. معجم القراءات القرآنية-ج:١- ص ٧٨.

ولما تضمن أخذ الميثاق معنى الوصية حمل عليه قوله: (وبالوالدين إحساناً) واختلف في قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾[1]، فذهب بعضهم إلى أنه منسوخ بآية السيف، لأن المسلمين أمروا في الابتداء أن يتلقوا الكافر والمسلم بالحسنى، ثم أمروا بالتغليظ والقتال، وقيل : لانسخ فيه وهو الأصح،[2] لأن ذلك كقوله: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾[3] الآية.، ولأن قتالهم لا يمنع من أن يقال لهم أولاً قولٌ حسنٌ، كما قال لموسى -عليه السلام- ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا﴾[4]، ثم قوله: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾، يصح أن يكون[5] نهياً عن المقادح والكذب، ثم هذه الآية ليست خطاباً[6] للمسلمين من هذه الأمة، وإنما هي حكاية ما أمر به بنو إسرائيل، وهما خطاب للأسلاف من بني إسرائيل، وقيل:

هو خطاب لمن كان في زمان رسول الله ﷺ منهم، وقيل قوله: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾ خطاب للسلف، وقوله: ﴿وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾ خطاب لمن كان في زمنه، إن قيل: ما فائدة قوله: ﴿وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾ بعد قوله: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾ قيل فيه ثلاثة أقوال، الأول: أن قوله ﴿وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾ حال مؤكدة، لأن تقديره: (ثم توليتم معرضين)، ذلك على قول من جعلها خطاباً لفريق واحد، والثاني أن التولي قد يكون لحاجة تدعو إلى الانصراف مع ثبوت العقد والإعراض هو الانصراف عن الشئ بالقلب، والثالث: أن التولي والإعراض في ذلك مثل مأخوذ من سلوك الطريق، وإذا اعتبرنا حال سالك المنهج في ترك سلوكه، فله حالتان، إحداهما : أن يرجع عوده على[7] بدئه، وذاك هو التولي، والثانية : أن يترك المنهج ويأخذ في

---

١ - هذه الفقرة ساقطة من (و - ج).

٢ - علق الدكتور مصطفى زيد على إدعاء النسخ في هذه الآية فقال: [إن دعوى النسخ لا مكان لها في تأويل هذه الآية، ذلك أن الدعوة إلى توحيد الله، وإلى تصديق النبي محمد صلى الله عليه وسلم أو قول الصدق الذي يعرفونه بشأنه للناس والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - كل هذه المبادئ لا تقبل النسخ بآية السيف، إذ لم تنزل هذه الآية وغيرها من آيات الكتاب إلا لإقرارها والتمكين لها] النسخ في القرآن الكريم- الدكتور مصطفى زيد ج:٢ - ص ٥٤٤، ٥٤٥، طبعة دار الوفاء- المنصورة.

٣ - سورة النحل : الآية (١٢٥).

٤ - سورة طه : الآية (٤٤).

٥ - ساقطة من (و - ج).

٦ - في (أ - ص) مخاطبته.

٧ - في (أ - ص) إلى.

عرض الطريق متخطياً، وذلك هو الإعراض والمتولي أقرب أمراً من المعرض، لأنه متى ندم على رجوعه سهل عليه العودة إلى سلوك المنهج، وأخذ في عرض المفازة إلى طلب منهجه، فيعسر عليه العود إليه، فمتى جعل الخطابان لفريق واحد، فذلك غاية الذم، فإنهم جمعوا بين العود عن السلوك والإعراض عن المسلك، ومتى جعل "توليتم" للسلف، وأنتم معرضون للخلف، فتنبيه أنكم شر من أسلافكم، فقد كان منهم التولي، ومنكم الإعراض، والآية منطوية على عامة الأحكام الاعتقادية والعلمية والآداب[١] الشرعية ومكارم الأخلاق، وفيها ذم لبني إسرائيل أن مع أخذ الميثاق منهم بذلك لم يكن من أكثرهم الوفاء به..

قوله - عز وجل :

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ الآية (٨٤) سورة البقرة.

الدار سميت اعتباراً بدورها، وقيل داره، كقولهم: محلة ومنزلة اعتباراً بوحدة ما، فإن الدار يقال لها وإن انطوت على حجر وبيوت، والدواري الدهر، لكر الجديدين، والدُوار في الرأس وضم على بناء الأدواء، نحو الصداع، يقال للصنم التي يدار حوله دُوار ودَوار ودوار، وقوله تعالى: **﴿لا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾** متعلق بقوله: **﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾** على ما تقدم في الآية الأولى... إن قيل: كيف أخذ ميثاقهم أن لا يفعلوا ذلك بأنفسهم مع كون الإنسان مضطراً لأن يفعل بها ذلك؟ قيل في ذلك أجوبة..

الأول: لا يفعل ذلك بعضكم ببعض، وإليه ذهب قتادة وأبو العالية، الثاني: لا يفعلن[٢] أحدكم [ذلك][٣] بالآخر، فيفعل به، فيكون في حكم فاعله بنفسه، الثالث: [لا تفعلوا ما يؤدي بكم إلى صرفكم عن الحياة الأبدية الجاري مجرى القتل، وهو العذاب الأليم،][٤] ولا تفعلوا ما تحرمون به على أنفسكم

---

١ - في (أ - ص) والآداب الشرعية.

٢ - في (و - ج) لا يفعلوا، وهو خطأ من الناسخ.

٣ - ساقطة من (و - ج).

٤ - هذه العبارة ساقطة من (و - ج).

الجنة التي هي داركم فتكونوا في حكم من أخرج نفسه من داره، وعلى ذلك قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾[١]، وعلى هذا حمل قوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ﴾[٢] أي: شغلوهم بما يعود بوبالهم، وحرموا العلم، والإقرار قد يكون باللفظ ويكون بالفعل وهو الرضى، نحو أن يقال: فلانٌ مقر بالخسف..

قال الشاعر: .. **أقر كما قر الخليلة للبعل..**

فقوله ﴿أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ يصح أن يكونا [جميعاً خطابين][٣] للسلف، وأن يكونا للخلف، [وأن يكون الأول للسلف والآخر للخلف][٤] فإن قيل: ما الفرق بين الإقرار والشهادة؟ قيل: الشهادة إقرار مع العلم وثبات اليقين، والإقرار قد ينفك من ذلك، ولهذا كذب الله تعالى الكفار في قولهم: ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾[٥]، ولو قالوا: نقر إنك لرسول الله لم يكذبوا..

قوله - عز وجل:

﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ الآية: (٨٥) سورة البقرة.

قيل: تقدير هؤلاء ياهؤلاء، وذلك مستبعد لحذف حرف النداء، [فحرف النداء][٦] لا يحذف إلا من الأعلام وما هو كالأعلام ومن المضاف دون غيرهما من المناديات، وقيل معناه كمعنى الذين، فقد أجرى

١- سورة النساء: الآية (٢٩).

٢- سورة الأنعام: الآية (١٤٠).

٣ - ساقطة من (و - ج).

٤ - ساقطة من (و - ج).

٥- سورة المنافقون: الآية (١).

٦ - ساقطة من (أ - ص).

المبهمات مجرى الموصولات، وعلى ذلك حمل الكوفيون قوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ﴾(١) وقول الشاعر:

نَجَوْتِ وَهَذَا تَحْمِلِينَ طَلِيقُ(٢)

وقيل معناه: أنتم كهؤلاء، وتظاهرون تتعاونون، وأصل اللفظة من الظهر التي هي الجارحة، ولما كان الظهر من حيث الخلقة خالياً عن الحروق والعكن بخلاف البطن، سمي ما كان بارزاً ظهراً، وما كان خافياً بطناً، فجعل الظهر والظهور لجميع متصرفات هذه اللفظة أصلين، وقرئ تظَّاهرون(٣) بالتشديد، وأصله: يتظاهرون ويظّاهرون(٤) بالياء والتشديد على ذلك، وتظاهرون بحذف أحد التاءين وبالتخفيف، والإثم اسم الأفعال المبطئة للثواب، ولتضمن البطؤ قال الشاعر في صفة ناقة:

جُمَالِيَةٌ تَغْتَلِي بالرِّدْفِ إِذَا كَذَّبَ الآثِمَاتِ الْهَجِيرُ(٥)

وقوله تعالى: ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾(٦) أي في تعاطيهما أبطأ عن الخيرات، فإنهما شاغلان، فصار الإثم في التعارف نقيض البر.

---

١ - سورة طه : الآية (١٧).

٢ - هذا عجز بيت ليزيد بن مفرغ الحميري وتمامه :-

عَدَسْ مالعباد عليك أَمَارَةٌ نَجَوْتِ وهذا تُحملينَ طَلِيقُ

وهو من مطلع قصيدة قالها يذكر فيها خلاصه من السجن وبعده : -

طليق الذي نجّى من الكرب بعدما تلاحم في درب عليك مضيق

وقال هذه القصيدة لما خرج من الحبس وقربت إليه بغلة ، فركبها ، ولما استوى على ظهرها أنشد هذه الأبيات وهي في ديوانه ص ١١٥.

وانظر أدب الكاتب - ص ٤٤٤ - شرح أدب الكاتب للجواليقي - ص ٣٠١ ، ص ٣٠٢ - خزانة الأدب - ج:٢ -ص ٢١٦ ، ص ٥١٤ وذكر البيت غير منسوب في معاني القرآن للفراء - ج:١ - ص ١٣٨ ، وج:٢ ص ١٧٧ وذكر في إعراب القرآن - لأبي جعفر النحاس ج:١ - ص ١٩٣ .

٣ - قرأ بهذا الوجه كل من ابن كثير، ونافع، وأبي عمر، وابن عامر، معجم القراءات القرآنية - ج : ١ - ص ٨١.

٤ - قرأ (يظاهرون) بفتح الياء وتشديد الظاء وبالف كل من ابن عامر، وحمزة، والكسائي، وخلف، وأبي جعفر، وقرأ (يظّهرون) بالتشديد وبدون ألف كل من نافع، وابن كثير، وأبي عمرو، ويعقوب. انظر: إرشاد المبتدي - ص ٥٨٦.

٥ - البيت للأعشى في ديوانه ص ٨٧ ، وهو في لسان العرب «أثم» وعجزه في المجمل ج:١ - ص ٨٧.

٦- سورة البقرة : الآية (٢١٩).

وقوله عليه السلام :

«البر ما اطمأنت إليه النفس،[١] **والإثم ما حاك في صدرك»**[٢]، فهذا حكمهما لا تفسيرهما، والوزر والذنب والجرم تتقارب، لكن الوزر اسم لما يوجب العقوبة بمعاونة الغير، ولهذا روى:

«من سن سنة سيئة فله وزرها ووزر من عمل بها»، فإن السَّان والمسنن بها متآزران[٣] متعاضدان، والسانُّ أعظم إثماً، إذ ليس المتبع كالمبتدع، وأما الذنب فما يقتضي عاقبة مذمومة اعتباراً بأذناب الأمور، والجرم اعتباراً بما يحصل من ثمرة سوء العمل تشبيهاً لجرام النخل، والعدوان هو تجاوز لحد المرسوم في الاعتداء المرخص فيه على سبيل المجازاة في قوله: **﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾**[٤] فالتجاوز للمرسوم هو العدوان، والأسر شد يضم به بعض المشدود إلى بعض يُقال: أسرت الرجل، والسرح والرحل، وما يشدبه إسار، والفدا العوض الذي يخص به فكاك الإنسان وقيل الفدا والفداء واحد، والأقرب أن الفداء بالمد اسم لما يفدى به، والفدى اسم للمفدى، كما يقال الحمى للمحمي وإن كان كل واحد منهما يوضع موضع الآخر، والحرام المنع الشديد من جهة الحكم، ورجل حرام يجوز أن يكون على وضع المصدر موضع الفاعل كأنه محرم على نفسه بالتزامه ما الزم[٥] ما كان محللاً له إما بدخوله الحرم أو بالإحرام،ويجوز أن يكون في موضع المفعول، كأنه صار محروماً أي ممنوعاً من بعض ما كان مباحاً له والشهر سمي محرماً لذلك، واستحرمت الماء غيره، كأنها طلبت شيئاً محرماً في غيرها، وذلك كناية، والخزي ذل يستحي منه، ولتضمن المعنيين استعمل تارةً في الذل نحو: عليه الخزي ، وفي الاستحياء، نحو خزي،

---

١ – في (و – ج) البر ما سكنت إليه القلوب، ولكن الأصح ما في (أ– ص) وهو ما اطمئنت إليه النفس.

٢ – الحديث رواه مسلم بلفظ : «البر حسن الخلق ، والإثم ما حاك فى صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس ورد فى كتاب البر والصلة – ج:٥ ، الحديث رقم «٢٥٥٣» ، وأخرجه الترمذي فى كتابه الزهد – ص ٥٢ وأورده الإمام أحمد فى المسند ج:٤ – ص ٢٢٨ ، وأخرجه السيوطي فى الدر المنثور بلفظه – ج:٢ – ص ٢٥٥ ، وأورده الطحاوي فى مشكل ما روى عن الرسول ﷺ فى البر والإثم ما هما – ج:٣ – ص ٣٤، ٣٥ ، وأورده المنذري فى الترغيب والترهيب – ج:٢ – ص ٢٥٧ وأورده الهيثمي فى مجمع الزوائد – ج:١٠ – ص ١٧٥، وأورده ابن عساكر في تهذيب تاريخ دمشق، ج: ٣ – ص ٢١٢.

٣ – في (و – ج) متوازران، وهو خطأ من الناسخ.

٤– سورة البقرة " الآية (١٩٤).

٥ – في (أ – ص) ما التزم.

والرد والرجوع متقاربان، إلا أن الرد يقتضي قهراً[١]، أما للمردود إذا استعمل في الحيوان والرجوع لا يقتضي ذلك، فإن قبل الردة عن الإسلام يتعاطاها صاحبها طوعاً، قيل إذا اعتبرت الردة بصريح العقل والفطرة التي فطر الناس عليها، فهي[٢] قهرٌ للعقل على ما ليس من مقتضاه، لأن الكفر هو الاعتقاد الظني، كما أن الإيمان هو الاعتقاد اليقيني، والعقل لا يسكن إلى الكفر، [ولا يطمئن إليه][٣] إذهو مناف لمقتضاه، ولهذا قال تعالى: ﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾[٤] لأنهم إذا راجعوا عقولهم[٥] [أنكروه وتمنوا سواه][٦]، وعلى ذلك قوله تعالى:

﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾[٧]

ومعنى الآية أن اليهود كان أوجب عليهم أن لا يسفكوا الدماء ولا يخرجوا أحداً من ديارهم ولم يوجب عليهم مفادات الأسرى، فأخلوا بالواجب والتزموا مالم يكن يلزمهم، فأنكر[٨] الله تعالى عليهم ترك الفريضة ومراعاة النافلة وقوله: ﴿وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾ متعلق بما قبله وقد فصل بينهما بقوله: ﴿وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ﴾ وقال بعضهم: إن الله تعالى نبه بهذه الآية مع المعنى الظاهر على لطيفة، وهي أن في قوله تعالى تقتلون أنفسكم تنبيه أنكم تسعون في اكتساب العقاب الذي يجري مجرى قتل النفس، وبقوله: ﴿وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ﴾[٩] أي تضيعون بعض قواكم ولا

---

١ – في (و – ج) وتراً وهو تصحيف.

٢ – في (و – ج) فهو وهو خطأ من الناسخ.

٣ – ساقطة من (و – ج).

٤ – سورة الحجر الآية (٢).

٥ – في (أ– ص) أنفسهم.

٦ – ساقطة من (و – ج).

٧ – سورة الحج : الآية (٣١).

٨ – في (أ – ص) فأنكروا، وهو تصحيف.

٩ – سورة البقرة الآية (٨٥).

تراعونهاحق المراعاة، فإن من هذب قوته العالمة، ثم ضيع قوته العاملة بالتقصير، [فقد ضيع نفسه][١] وكأنه أخرجها من محلها الذي جعله الله تعالى لها، وعلى ذلك إذا ضبط قوته الشهوية ولم يضبط قوته الغضبية، ونبه بقوله: ﴿ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ ﴾ إنكم تتصدون لهدى غيركم مع تضييعكم أنفسكم كقوله: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾[٢]، وعلى ذلك قيل: (كفى بالمرء تهزياً أن يعظ غيره وينسى نفسه)، وقوله: ﴿ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾ فقد قيل: هو ضمير الحديث، وقيل: هو ضمير المصدر الذي هو الإخراج، وقد أعيد ذكره تأكيداً، فكأنه تكرير الخبر مرتين، ثم بين أن متعاطي ذلك له في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم، وعظم[٣] إبعادهم بتنبيههم أنه سبحانه بالمرصاد لا يغفل عن شئ تعالى الله وتقدس...

قوله - عز وجل :

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾

الآية: (٨٦) سورة البقرة.

الخفة والثقل يقالان على أضرب. الأول : خفيف في المسخر لطلب العلو كالنار، وثقيل في المسخر لطلب السفل كالحجر. الثاني : يقال على سبيل التصادف كشيئين يترجح[٤] أحدهما على الآخر، فيصح أن يوصف شئ واحد بأنه خفيف وثقيل على اعتباره بشيئين، الثالث على اعتبار الزمان نحو أن يقال: هذا الفرس خفيف، وذاك ثقيل بمعنى أنه إذا اعتبر عددهما بزمان واحد كان أحدهما أكثر عدداً من الآخر. والرابع: يقال فيما تستجليه النفس خفيف، وفيما تعافه[٥] ثقيل، فالخفيف على هذا مدح، والثقيل ذم الخامس على العكس من ذلك، وهو أن يقصد بالثقيل معنى الرزين، وبالخفيف

---

١ - ساقطة من (و - ج).

٢ - سورة البقرة : الآية (٤٤).

٣ - ساقطة من (و - ج).

٤ - في (أ - ص) يرجح.

٥ - في (و - ج) يعافه ، وهو تصحيف.

معنى الطائش، والقصد باشتراء الحياة الدنيا في هذه الآية [وبالرضى في هذه الآية][١] وبإيثارها في نحو قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾[٢] في نحو قوله: ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[٣]، وبالإخلاد إليها في قوله تعالى ﴿وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾[٤] وباتباع الهوى في نحو قوله، ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾[٥] وبعبادة الشيطان في نحو قوله: ﴿لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾[٦] وباتباع الخطوات في نحو قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾[٧] وبنصرة الشيطان في قوله: ﴿أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ﴾[٨] كل ذلك قصد واحد في أنه حث على تجنب المعاصي وان اختلفت العبارات وتفاوتت الأنظار، وبين الله تعالى بالآية أن من فعل ذلك فهو معاقب لا يخفف عذابه، أما في الدنيا، فمعذب لشرهه[٩] على تتبع فضولات المال وجمعه، كما قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[١٠]، فلا يكون لطلبها غاية إذا انتهى إليها خفف عذابه، وأما في الآخرة فبدوام العذاب الأليم، وبين تعالى أنه لا يجد نصرة من جهة ماله في الدنيا، كما قال حكاية عن المحتضر: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ﴾[١١] ولا في الآخرة، كما قال: ﴿مِّن وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْئًا﴾[١٢] الآية، وقوله: ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ﴾ قيل: هو داخل في صلة الذين والصحيح أنه جواب لتضمن لفظه الذين[١٣] معنى الشرط كما هو جواب في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾[١٤].

---

١ - ساقطة من (و - ج).

٢- سورة النازعات : الآيتان (٣٧، ٣٨).

٣ - سورة يونس : الآية (٧).

٤ - سورة الأعراف : الآية (١٧٦).

٥ - سورة الأعراف : الآية (١٧٦).

٦ - سورة يس : الآية (٦٠).

٧ - سورة البقرة : الآية (٢٠٨).

٨ - سورة المجادلة : الآية (١٩).

٩ - في (و - ج) لشبهه وهو تصحيف.

١٠ - سورة التوبة : الآية (٥٥).

١١- سورة الحاقة : الآية (٢٨).

١٢ - سورة الجاثية : الآية (١٠).

١٣- في (أ - ص) لفظة الذي.

١٤- سورة البروج : الآية (١٠).

قوله - عز وجل :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾

الآية:(٨٧) سورة البقرة.

الاقتفاء اتباع القفا، كما أن الارتداف اتباع الردف ، وقفوته: أصبت قفاه، نحو: قادته وبطنته إذا رميت ذلك منه، ثم يكني به عن الاغتياب، وقافية الشعر لاعتبار الاقتفاء فيها، والقفاوة ما يتفقد به الغير على سبيل الايثار، والهوى اسم للقوة الشهوية، وأصله من الهوى، لأنه يهوى بصاحبه فلا يستقر به، والروح من الحيوان اسم للجزء الذي معه تُحصل الحياة، ولما كانت الحياة تختلف، فمنها ما تُشترك فيه الحيوانات ويحصل به التحرك والسعي واستجلاب المنافع واستدفاع المضار، ومنها الحياة التي يختص بها الإنسان، وبها يكون الفكر والروية ولأجله قيل: فلان ليس بحي أو هو ميت إذا ضعف ذلك فيه، ومنها الحياة التي يستفيدها الإنسان بالعلم وهو أس ما يتوصل به إلى الحياة الأبدية، وإياها قصد بقوله: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾[١] صار الروح يقال لكل ذلك، فيقال "ذوروح" لكل حيوان، وقيل للقرآن روح لما كان سبباً للحياة الأبدية قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾[٢]، وقيل: سمي عيسى عليه السلام روحاً، لأنه كان يحيي الموتى، فصار كالروح، وقيل : سمي بذلك لأنه كان يفيد الناس ويعلمهم ما يتوصلون به إلى الحياة الأبدية، وقيل: سمي بذلك لقوله: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾[٣]، وذلك [٤] أنه لم يخلق من ماء ذكر وأنثى، وإنما قال له: (كن)، وسمي جبرائيل (عليه السلام) روح القدس، والروح الأمين، وهذه الآية توكيد لذمهم والإنباء عن بعدهم عن الإيمان، وأنهم قد أتاهم موسى بالكتاب، ثم اتخذوا العجل وأتاهم رسل فلم يعرجوا عليهم، وجاءهم

---

١ - سورة الأنعام : الآية (١٢٢).

٢ - سورة الشورى : الآية (٥٢).

٣ - سورة التحريم : الآية (١٢).

٤ - في (أ - ص) وذاك.

عيسى -عليه السلام بالمعجزات الباهرة فكذبوه، وقوله: ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ يصح أن يكون معطوفاً على قوله [﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ ويكون قوله ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ﴾ فصلاً بينهما على سبيل الإمكان عليهم، ويصح أن يكون معطوفًا على قوله:][1] "استكبرتم"، وقوله :﴿أَفَكُلَّمَا﴾ استئناف، وبين باتباعهم الهوى غاية معانيهم، فإن متبعه مخطئ وإن أصاب، فالإصابة منه على غيره اعتماد، إذ هو كالبهيمة المتناولة لما تدعو إليه شهوتها صواباً كان أم خطأ، ثم زاد في ذمهم بوصفهم بالاستكبار إذ هو مقر النقائص، فإنه نتيجة الإعجاب، والإعجاب نتيجة الجهل بالنفس والجهل بالنفس مقارن للجهل[2] بخالقها، ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾[3] إن قيل: لم قال: ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾، وهلا جعلا ماضيين أو مستقبلين؟ قيل: أما من حيث اللفظ، فلأنه لما لم يكن يفسد المعنى روعي فيه المجانسة بين الفواصل ليكون اللفظ أحسن، وأما من حيث المعنى: فللتنبيه أنهم لم يتوقفوا في تكذيب من جاءهم من الأنبياء، فذكره بلفظ الماضي، إذ لا مزاولة فيه، وذكر القتل بلفظ الاستقبال تنبيهاً أنهم يزاولون قتله قدروا عليه أم لم يقدروا.

قوله - عز وجل :

﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ الآية (٨٨) سورة البقرة.

أصل الغلف ستر الشئ بالشئ الذي يجعل فيه، ومنه غلفت السيف والسرج والرحل واللحية بالغالية، والأغلف الأقلف لكون ذلك منه في غلاف من غلفته أي قلفته وعزلته، فقوله: (غلف): قيل هو جمع غلاف وأصله غلف، فخفف، وقرئ غلُف ككتب، وقيل: هو جمع أغلف، فعلى الأول قيل معناه: قلوبنا أوعية للعلم لا تسمع علماً إلا وعته إلا ما تقول، بمعنى أن ما يقوله ليس بعلم، وعلى الثاني

١- ساقطة من (أ - ص).

٢ - في (أ - ص) للجاهل.

٣ - سورة الحشر : الآية (١٩).

معناه: قلوبنا مغطاة عما تدعونا إليه فلا نفهمه كما قال: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾[١] الآيـة..، ورد الله تعالى ذلك عليهم بأن ذلك لكونهم مبعدين عن العلم لسوء فعلهم، وقد تقدم أن سبب المانع من الفضيلة سببان: أحدهما: ابتداؤه ليس من جهة الإنسان نفسه، وهو متجاف عنه كمرتكب قبيح لزوال عقله بجنون أو مرض، والثاني: ابتداؤه من جهته، وهو مأخوذ به كمرتكب ذنب لسكره، فبين الله تعالى أن قلوبهم ممنوعة عن العلم بكفرهم وذلك من جهتهم، وقوله: ﴿فَقَلِيلاً مَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي لم يؤمنوا إلا إيماناً قليلاً أو زماناً قليلاً، وذلك غير معتد به، لأن الإيمان هو التصديق المخصوص، ومتى لم يحصل كمالاً لم يعتد به، ولذلك عظم عقوبة ذلك بقوله: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾[٢]،ونحو هذه الآية قوله: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾[٣].

قوله - عز وجل :

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ الآية: (٨٩) سورة البقرة.

الاستفتاح: طلب الفتح،والفتح ضربان، فتح إلاهي، وهو النصرة بالوصول إلى العلوم والهدايات التي هي ذريعة إلى الثواب والمقامات المحمودة، وفتح دنيوي، وهو النصرة في الوصول إلى اللذات البدنية؛ وعلى الأول قوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾[٤]، وقوله ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ﴾[٥] وعلى الثاني قوله:
﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾[٦]، وقوله: ﴿يَسْتَفْتِحُونَ﴾ قيل معناه:

---

١ - سورة فصلت : الآية (٥).
٢ - سورة البقرة : الآية (٨٥).
٣ - سورة النساء : الآية (١٥٥).
٤ - سورة الفتح : الآية (١).
٥ - سورة المائدة : الآية (٥٢).
٦ - سورة الأنعام : الآية (٤٤).

يستعملون خبره من الناس مرة، وقيل يطلبون من الله بذكره الظفر، وقيل: كانوا يقولون: إنا نُنصر بمحمد عليه السلام على عبدة الأوثان، وكل ذلك داخل في عموم الاستفتاح، فبين الله تعالى من جهلهم أنهم كانوا ينتظرونه، وكانوا يعرفون وصفه كما قال تعالى: ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾[١]، وكما قال: ﴿النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ﴾[٢]، فلما جاءهم كتاب لا منافاة بينه وبين التوراة في الأصول، وعرفوا عياناً ما كانوا عرفوه من قبل إخباراً كفروا به، ثم قال: ﴿فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ تنبيهاً أن اللعن ثابت للكفار، وهم كفار، فاللعن عليهم، وأما معنى اللعن هو إفضاء [٣] على وجه الإهانة، ومن قال: هو العذاب، فمن حيث أنه لا تنفك لعنة الله عن[٤] العذاب، وأما تكرير لما، فقد قيل جواب الأول محذوف، وقوله: ﴿كَفَرُوا بِهِ﴾ إنما هو جواب للثاني، وقيل: لما بين فصله لما وجوابه بقوله: ﴿وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ﴾ أعاد ذكره بلفظ يقتضي زيادة فائدة، ثم أجاب، وقيل جواب الأول "الفاء"، و(كفروا به) جواب الثاني نحو قولك: لما جاء زيد فلما قعد أوسعت له"..

قوله - عز وجل :

﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾. الآية: (٩٠) من سورة البقرة.

بئس: كلمة تستعمل في جميع المذام، كما أن "نعم" تستعمل في جميع المادح، وأصله من البؤس، وهو المكروه وتصور منه الفقر تارة، فقيل بئيس، والنكاية في الغير، فقيل بؤس، وسمي البسالة بأساً به وأصل البغي الطلب، واختلفت معانيه لاختلاف المسند إليه، وربما خولف بين

١- سورة البقرة : الآية (١٤٦).

٢ - سورة الأعراف : الآية (١٥٧).

٣ - في (و - ج) أفضى.

٤ - في (أ - ص) من.

مصادرها، فمتى أسند إلى المرأة فلابتغائها لمن[١] يحرم عليها، وإذا أسند إلى المتكبر فلطلبه إكراماً لا يستحقه، وإذا أسند إلى الرأي فلطلبه متطلعاً، والهوان يتصور[٢] على وجهين أحدهما: التذلل للإنسان في نفسه لما لا يلحق به غضاضة، فيمدح به نحو المؤمن هين لين، والثاني: أن يكون مرجعه[٣] متسلط عليه على طريق الاستخفاف فيذم به، وعلى الوجهين استعمل "ذل "فبين الله تعالى أنه بئس شيئاً باعوا أنفسهم به كفرهم بكتب الله المنزلة، ثم بين أن أعظم هذا الجنس أن يفعل ذلك حسداً على من خصه الله تعالى بفضل من عنده، وفضله ههنا أجل الفضائل، وهو النبوة، ثم بين أنهم بذلك استحقوا بذلك[٤] أنواعاً من الغضب نوعاً بعد نوع نحو قوله: ﴿يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ﴾[٥].. نعوذ بالله منه.

قوله - عز وجل :

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ الآية (٩١) سورة البقرة.

وراء يقال للخلف والقدام، وهو في الأصل مصدر وارى، فلما[٦] كان المصدر يضاف إلى الفاعل وإلى المفعول، فمتى قيل وراء زيد بمعنى قدامه، فمعناه الذي يواري زيد، وإذا قيل بمعنى "خلف"، فهو الذي يواريه زيد، ثم جعل ظرفاً مثل كثير من المصادر، وإن قيل: كيف قيل للخلف "فلم تقتلون" ، وكان القتل من السلف[٧] لامنهم ، قيل: لما كان من عادة العرب أن ينسبوا إلى أنفسهم على طريق الفخر مآثراً بأيهم، فيقول فعلنا كذا متصورين بصورتهم خوطبوا أيضاً في نسبة مثالبهم إليهم على ذلك

١ - في (أ- ص) ما.
٢ - في (أ - ص) يتصرف.
٣ - في (أ- ص) من جهة.
٤ - ساقطة من (أ- ص).
٥ - سورة الفرقان : الآية (٦٩).
٦ - ساقطه من (و - ج).
٧ - في (أ - ص) من أسلافهم دونهم.

الوجه، وقال ابن عباس [رضي الله تعالى][1] عنهما: (إذا عمل معصية، فمن أنكرها فقد برئ منها، ومن رضيها كان كمن فعلها)، فلما رضوا فعل آبائهم فكأنهم هم فعلوه، فلذلك خاطبهم[2] بذلك، إن قيل: كيف قال: (تقتلون من قبل) ولا يجوز في الكلام تخرج أمس، قيل: في ذلك وجهان[3]

أحدهما: أن عادة العرب إذا أرادوا أن يخبروا عن تعاطي فعلٍ مداوم عليه قرنوا لفظ الماضي بالمستقبل تنبيهاً على المداومة عليه نحو قول الشاعر:

وَلَقَدْ أَمُرُّ عَلَى اللَّئِيمِ يَسُبُّنِي   فَمَضَيْتُ ثُمَّةَ قُلْتُ لا يَعْنِينِي[4]

وعلى ذلك يقال: فعلت كذا قبل وبعد، وافعل كذا قبل وبعد، فيجئ تارةً بلفظ الماضي وتارة بلفظ المستقبل، والثاني إن قوله (من قبل) يتعلق بمقتضى قوله "فلم" الذي هو بحث عن علة الشئ، فكأنه قيل: أخبرني قبل عن سبب قتلكم، ومعنى[5] لم تقتلون لم ترومون قتلهم، وهذا أوضح، وقوله: ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ﴾ قيل معناه بما أنزل الله بعده من الإنجيل والقرآن، وقيل: معناه بما تنطوي عليه التوراة، وذاك أن انتساب المعنى إلى اللفظ انتساب المتأخر إلى المتقدم، والباطن إلى الظاهر، ولهذا يقال: وراء هذا الكلام معنى لطيف، وفي ضمنه شئ حسن، وقد بين الله تعالى أنهم يدّعون

---

١ - ساقطة من (و - ج).

٢ - في (أ - ص) خوطبوا.

٣ - في (أ - ص) جوابان.

٤ - البيت لشمر بن عمرو الحنفي ، أولرجل من بني سلول ، وقيل هو لعميرة بن جابر الحنفي ، وهو منسوب إليه في حماسة البحتري ص ١٧١ وفيها بعده بيت ثان يقول:

غضبانُ مُمتلئٌ علّي إهابُهُ   إنّي وَجَدِّكَ رغمه يرضيني

وهو من شواهد النحويين المشهورة في باب النعت وزيادة التاء في "ثم"، والبيت في كتاب سيبويه - ج:١ ص ٤١٦ ، وفي الخصائص - ج:٣ - ص ٣٣٠ ، وفي أمالي ابن الشجري - ج:٢ ص ٢٠٣ ، وفي خزانة الأدب - ج:١ ص ١٧٣ ، وفي همع الهوامع - ج:١ - ص ٩ - وفي مغني اللبيب ص ١٤٢ ، وفي معاني القرآن للأخفش - ج:١ - ص ١٣٩ ، وفي المحاضرات في الأدب واللغة للحسن اليوسي ، وفي المدخل لعلم تفسير كتاب الله تعالى - ص ٢٣٠ - لأبى النصر السمرقندي الحدادي، وفي الدر المصون في علوم الكتاب المكنون ج: ٢ ص٨٨، وفي الصاحب ص٢١٩.

٥ - في (أ - ص) ويعني.

الإيمان بالتوراة وهم كاذبون في دعواهم، فإنهم لا يكونون مؤمنين بها إذا كفروا بما يتضمنه من أخبار النبي عليه السلام وكفروا بما يتلوه من كتاب الله -عز وجل- فإن النبوة والكتاب لا يختلف من حيث ما هو نبوة وكتاب، ومن لم يؤمن ببعضه، فهو في حكم من لم يؤمن بشيء منه، ولهذا قال: **﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾**[1]، فأثبت لهم أشد العذاب الذي يستحقه الكافر المطلق، ثم بين أنه هو الحق أي ذلك المعنى الذي هو القرآن حتى لا يزاحمه في ذاته ضد وهو مصدقٌ لما تقدمه لا منافاة بينهما في الأصول، ثم بين [تعالى][2] ثانياً إبطال ما ادعوه بقتلهم الأنبياء إذ كانت التوراة لم تقتض ذلك، ثم قال: **﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾** تنبيهاً أنكم لستم بمؤمنين، إذ المؤمن لا يقتل الأنبياء، وفي كل ذلك حجةٌ على بطلان ما ادعوه من الإيمان بالتوراة.

قوله - عز وجل :

﴿وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ﴾

الآية: (٩٢) سورة البقرة.

جعل ذلك أيضاً دلالةً على بطلان قولهم: (نؤمن بما أنزل علينا) فكأنه قيل: كيف آمنتم به وقد أتاكم موسى بالآيات البينات فما لبثتم أن عبدتم العجل ظلماً، وظلمهم الإخلال بآيات الله وبيناته وتلقيها بالكفران والكفر، وفي تخصيص ثم زيادة فائدة، وهي أن ذلك منكم بعد تدبر الآيات والتمكن من معرفتها، والآيات ههنا هي الآيات التسع المذكورة في قوله: **﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾**[3]، وقوله: **﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ﴾**[4]..

---

١ - سورة البقرة : الآية (٨٥).

٢ - ساقطة من (و - ج).

٣ - سورة الإسراء : الآية (١٠١).

٤- سورة النمل : الآية (١٢).

قوله - عز وجل :

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾

الآية: (٩٣) سورة البقرة.

قوله: (اسمعوا)، قيل معناه: افهموا، وقيل معناه: اعملوا به،ووجه ذلك أن الشئ يُسمع به، ثم يُتخيل، ثم يُفهم، ثم يُعقد، ثم يُعمل به إن كان ذلك المسموع مما يقتضي عملاً، ولما كان السماع مبدأ والعمل غايةً وما بينهما[1] وسائط صح أن يُذكر، ويراد به بعض الوسائط وأن يعني به الغاية وهي العمل، فمن قال معنى (واسمعوا) أي اعملوا به، فنظر منه إلى الغاية، ومن قال: افهموا واعقلوا فنظر منه إلى المبدأ أو إلى[2] الوسائط، وقال بعضهم: قد قالوا قولاً سمعنا وعصينا، وقيل: إنما سمعوه وتلقوه بالعصيان، فكأنهم قالوا بذلك قولاً، كقول الشاعر:

امتلأ الْحَوْضُ وَقَالَ قِطْنِي[3]

وقال الآخر: قَالَ جَنَاحَاهُ لِرِجْلَيْه الحَقَا[4]

﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾.. من عادة العرب[5] أنهم إذا أرادوا العبارة عن مخامرة حب أو بغض في القلب أن يستعيروا لها اسم الشراب، إذ هو أبلغ منجاع في البدن، ولذلك قالت الأطباء:

---

١ - في (أ- ص) بينهما.

٢ - في (أ - ص) إلى بعض الوسائط.

٣ - هذا من الرجز ، وتتمته : - مهلاً رويداً قد ملأتُ بطني.
ولم أعثر للبيت على نسبة لأحد ، فقد استشهد به غير منسوب فى مجالس ثعلب - ج:١ - ص ١٨٩ ، وبعده : مهلاً رُوَيْدَاً قَدْ مَلأتُ بَطِنْي.
ورد فى الكامل فى الأدب - ص ٤٣٤ ، وإصلاح المنطق - ص ٥٧ ، ص ٣٤٢ ، والإبدال لأبى دواس - ص ٩٧ - ولسان العرب فى مادة «قطن» ، والمقاصد النحوية - ج:١ - ص ٣٦١ ، وإعراب القرآن لأبى جعفر النحاس - ج:١ - ص ٤٧٣ ، والقطن بمعنى الحسب.

٤ - لم أهتد إلى قائله.

٥ - في (و - ج) من عادتهم، وفيها نقص، فأثبتنا ما في (أ - ص) لوضوحه.

الماء مطية الأغذية، والأدوية، لركوبها يبلغ أقاصي الأمكنة[١]، وعلى هذه المراعاة **قال الشاعر** :

تَغَلْغَلَ حَيْثُ لَمْ يَبْلُغْ شَرَابٌ   وَلاَ حُـزْنٌ وَلَـمْ يَبْـلُغْ سُرُورٌ[٢]

وقال أهل النحو: أريد حب العجل، فحذف المضاف تحقيقاً، ويجب أن يعلم أنه لو قيل حب العجل، لم يكن له من المبالغة ماله بحذفه، لأن فيه تنبيهاً أن لفرط شغفهم به ثبت صورة العجل في قلوبهم راسخة، وإن زالت ذاته الجسمية، ثم بين أن ذلك [كذلك][٣] بسبب كفرهم، لا أنه تعالى ظلمهم به، وما قال السدي وابن جريج أن موسى -عليه السلام- لما رجع إلى [قومه][٤] بردّ العجل الذي عبدوه، فذراه في اليم، فلم يشربه أحد أحبه إلاّ خرج على شاربيه الذهب، فليس ينافي ما تقدم تصورت ذلك حقيقة أم تصورته كناية وإشارة، وقال بعضهم: معنى أشربوا من قولهم: "أشربت البعير" إذا شددت حبلاً في عنقه، قال:

وَأَشْرَبْتُهَا الأَقْرَانَ حَتَّى وَقَصْتُهَا   بِقَرْحٍ وَقَدْ أَلْقَيْنَ كُلَّ جَنِينٍ[٥]

فكأنما شد في قلوبهم العجل لفرط شغفهم به، فهو راجع إلى الأول تحقيقاً وإن خالفه تشبيهاً وتمثيلاً، ثم بكتهم تعالى بقياس شرطي يدل على إبطال دعواهم الإيمان بالتوراة وهو قوله:

﴿ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾، وتقديره: إن كنتم مؤمنين، فإيمانكم أمركم بذلك، وكل إيمان أمر بذلك فإيمان مذموم، وقد ثبت أن الإيمان بالتوراة ليس بمذموم ولا يأمر بالمذموم، فإذاً

١ - في (أ - ص) والأغذية والأروية به يبلغ أقاصي الأمكنة.

٢- البيت لعبيد الله بن عتبة ، أحد فقهاء المدينة السبعة ، وهو في بصائر ذوي التمييز - ج:٣ ص ٣٠٦ ، شرح الحماسة للتبريزي - ج:٣ - ص ٢٩٨ ، ومجمع البلاغة ج:١ ص ٤٩٧ ، ونوادر القالي - ص ٢١٧ ، ووفيات الأعيان - ج:٣ - ص ١١٦ ، وسمط اللآلي ج:٢ ص ٧٨١ ، ومفردات ألفاظ القرآن للراغب - ص ٤٤٩ ، ٦١١ .

٣ - زيادة في (أ - ص).

٤ - ساقطة من (و - ج).

٥ - البيت لأحد اللصوص من بني أسد ، وهو في بصائر ذوي التمييز - ج:٣ - ص ٣٠٥ ، ومعجم البلدان - ج:٤ - ص ٣٢١ ، ولسان العرب، وعمدة الحفاظ - مادة «شرب» - ومفردات ألفاظ القرآن ص ٤٤٩ . وقرح هو سوق وادي القرى.

لستم بمؤمنين، فكيف تدَّعون الإيمان بما أنزل إليكم، وقال الزجاج في قوله: ﴿**إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**﴾. [ما كنتم مؤمنين][١].

فإن عنى أن إنْ ههنا لفظة للنفي فذلك بعيد، وإن عنى أنه شرط مقتضاه النفي كما تقدم فصحيح والكلام في أنه كيف جعل الإيمان أمراً في قوله: ﴿**يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ**﴾ فقد تقدم في صدر الكتاب فصل كلي يكفي الاشتغال بهذه التفاصيل.

قوله - عز وجل :

﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾

الآية ٩٤ سورة البقرة.

الخالص كالصافي، لكن الصافي يقال فيما لم يكن قبل فيه شوب، ولا يقال: خالص إلا ما كان فيه شوب من [قبل][٢]، فزال عنه، ولذلك **قال الشاعر** :

خَلَاصُ الْخَمْرِ مِنْ نَسْجِ الْفِدَامِ[٣]

فاعتبر فيه معنى التخلص والتمني تقدير تأتي مشيته والتحدث به إما ضميراً، وإما مقالاً، ودون لما كان في الأصل القاصر عن الشئ اعتبر ذلك في المكان تارة وفي الشرف تارة، وفي الاختصاص تارة، فإذا قيل: هذا لي دونك، فهو مفيد للاختصاص، ومعناه: أنت تقصر عنه، وإن قيل كيف قال: (من دون الناس) والمخاطبون أيضاً من الناس؟

قيل: قد قال بعضهم[٤] لفظه عام، ومعناه خاص، أي دون سائر الناس، وقال بعضهم في ذلك لطيفة، وهو أنه يقال: "فلان ليس من الناس، وذلك متردد بين المدح والذم، فالمدح نحو قول بعضهم: فلان ليس إنساناً، بل هو ملك كريم..

---

١ - ساقطة من (أ - ص).
٢ - ساقطة من (و - ج).

٣- هذا عجز بيت و شطره الأول : **وَضَاقَتْ خطةٌ فَخَلَصْتُ مِنْهَا**

وهو من قصييدة المتنبي قالها عندما نالته حمى في مصر، فقال يصفها ويعرض بالرحيل عن مصر، ومطلع قصيدته :

ملومكما يجل عن الملام   ووقع فعاله فوق الكلام

ديوان المتنبي - ص ٤٨٥ - دار صادر.

والخطة : الأمر، والفدام : مايُجعل على فم الإبريق ليصفي مافيه يقول : وربما ضاق على أمر ، فخلصت منه كما تخلص الخمر من النسييج الذى تقدم فيه أفواه الأباريق.

وعجز البيت في عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ - للسمين الحلبي - مادة خلص - وفي عقد الخلاص - ص ٣٠٥ بدون نسبة - وهو المتبني في الوساطة بين المتنبي وخصومه - ص ١٢٠ وفى التبيان بشرح ديوان المتبني - ج:٤ ص ١٤٨ ، وأورده الراغب فى مفردات ألفاظ القرآن - ص ٢٩٢ . والْفَدَام : ما يوضع فى فم الإبريق ليصفي به ما فيه.

٤ - في (أ - ص) أكثرهم.

وقال الشاعر:

فَلَسْتَ بِإنسيٍّ وَلَكِنْ لملاك[١]

والذم نحو : فَإنْ جُلَّهُمْ أوْ كُلَّهُمْ بَقَرُ[٢]

ولما كانت الدار الآخرة لا تحصل للناس خالصة، بل لابد في نيلها من تحمل شوائب وتجرع نوائب، وكانوا قد ادعوا أنها لهم خالصة قيل لهم ذلك بمعنى إن كنتم جنساً غير الناس في أن تحصل لكم الدار الآخرة خالصة [على حسب ما تحصل للناس][٣] فتمنوا الموت، وإنما قيل لهم "تمنوا الموت"؛ لأنهم قالوا: ﴿لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إلاَّ مَن كَانَ هُودًا﴾[٤]، وقالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾[٥]، فبين الله تعالى كذبهم في دعواهم ذلك فقال: إن كنتم أحباء الله، فالمحبة داعية إلى الشوق، والشوق داعٍ إلى محبة لقاء المحبوب، ومحبة لقائه داعية إلى تمنى سهول السبيل إليه، ولا سبيل إلى الطريق [٦] إليه إلا بالموت، فيجب أن يكون الموت متمنى، فترككم تمني ذلك دلالة أن لا [محبة منكم له][٧].. إن قيل: فهل يجوز للمسلم أن يتمنى الموت؟ قيل:

أما تمنيه على أن سخط [٨]ما أراد الله من حياته فلا يجوز[٩] فإن ذلك مضادة الله في إرادته، وتسخط لقضائه، وإما على أن يكرهه إذا أتاه، فجائز، وهو غاية الحكمة وشعار المؤمن المحق، ولذلك قيل: "لا يكون الحكيم حكيماً حتى يعلم أن الموت يعتقه والحياة تسترقه، وقيل: "سرور المؤمن بموته

١- هذا شطر بيت وتتمته : تَنَزَّلَ مِنْ جوالسَّمَاءِ يصُوبُ، وهو في (و - ج) فلست لا نسي ولكن ملكنا..
وهو منسوب لعلقمة بن عبدة من مفضليته التى مطلعها:
طَحَا بكَ قَلْبٌ فى الحسان طروبُ   بُعَيْدَ الشباب عصرَحَانَ مَشيبُ، وهو في ملحق ديوانه- ص ١١٨، ونسبه ابن منظور في اللسان مادة (صوب) إلى رجل من عَبْد القيس ، وهو فى المفضليات ص ٣٩٤ ، وفى الكتاب لسيبويه - ج:٢ ص ٣٧٩ ، وفي أمالي ابن الشجري - ج:٢ ص ٢٠ ، وإملاء العكبري - ج:١ ص ٢٨ والملاك : واحد الملائكة ، ويصوب : ينزل.

٢- هذا عجز بيت لابي تمام وصدره :- **لايهمنك من دهمائهم عددٌ   فإنَّ جلَّهُمْ بل كلَّهُمْ بَقَرُ**
والبيت من قصيدة يمدح بها عمر بن عبدالعزيز الطائيّ من أهل حمص، ومطلعها : -
ياهذه أقصري ماهذه بشرٌ   ولا الخرائد من أترابها الأخَرُ

الديوان جـ ١/٣٢٨، ٣٢٩.
وذكره أبو حيان في البحر المحيط بدون نسبة - ج:٤ ص ٣٧٦.

٣ - في (أ- ص) لا على ما تحصل للناس.

٤ - سورة البقرة : الآية (١١١).

٥ - سورة المائدة : الآية (١٨).

٦ - في (أ - ص) إلى سهولة السبيل اليه.

٧ - في (و - ج) لا محبة بينكم، وما في (أ-ص) يتناسب مع السياق فلذلك أثبتناه.

٨ - في (أ - ص) على أن يسخط.

٩ - في (أ - ص) فلا بدون يجوز.

سرور القادم على أهله"، وقال عليه السلام: **«من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه»**[١] .

وقال علي -رضي الله عنه-:

«لا أبالي سقطت على الموت أو سقط الموت علي» إن قيل: كيف أعاد الشرط، فقال: إن كنتم صادقين"، وذلك يقتضي جواباً آخر، قيل: إن ذلك كالبدل من الشرط الأول، فإن مقتضاهما واحد، لكن الصدق يتناول اللفظ،وقوله: **﴿ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ ﴾** يتناول ذات الشيء، فصار كقول القائل لمن يدعي فعلاً: "إن فعلته فلك كذا إن صدقت"..

قوله - عز وجل :

﴿ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ الآية: (٩٥)- سورة البقرة.

التقدم إما أن يقال باعتبار زمانين، فيقال حديث وقديم، وإما باعتبار تقدم على الزمان، فيقال: قديم أي متقدم وجوده على وجود الزمان، وإما بالشرف فيقال:"فلان متقدم على فلان" أي أشرف منه منزلة وإما لما لا يصح وجوده إلا بوجود الآخر، فيقال لذلك الآخر قديم كقولك: الواحد متقدم على العدد[٢]، بمعنى أنه لوتوهم ارتفاعه لارتفع الأعداد، وكما استعملوا القديم والحديث باعتبار زمانين استعملوا التقدم والتأخير، وقدام وخلف باعتبار مكانين، وباعتبار التقدم المكاني سمي القدم قدماً، وقد بت الله تعالى القول بأن لا تمنى للموت منهم قط، لما احتقبوه من الآثام، وفي ذلك أعظم حجة، فإنهم ما فعلوا ذلك ولا جسروا حتى قال -عليه السلام.

«لو تمنوا الموت ما قام رجل من مجلسه»، فلم يجسروا أن يقولوا كاذبين: نحن نتمناه، ثم بين تعالى بقوله: **﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾** قدرته على معاقبتهم تهدداً لهم..

---

١ - الحديث أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الرقاق باب : من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه بسنده إلى قتادة عن أنس عن عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ قال:
من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه» حديث رقم ٦٥٠٧ وأخرجه مسلم في الدعوات عن هُدبة بن خالد وغيره ، وأخرجه الترمذي في الزهد عن محمود بن غيلان . وفي الجنائز عن أبي الأشعث أحمد بن المقدم ، وأخرجه النسائي في الجنائز عن أبي الأشعث.

٢ - في (و - ج) العدل ، وهو تصحيف.

قوله - عز وجل :

﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ الآية (٩٦) سورة البقرة.

الوجود يقال باعتباره بالحاسة، وباعتباره بالتخيل، وباعتباره بالفهم والعقل، ومتى قيل باعتباره بالعقل فعلى ضربين: متعدٍّ إلى مفعول واحد، ومعناه كمعنى عرفت، ومتعد إلى مفعولين، ومعناه قريب من معنى علمت، والحرص أصله أن لا يرضى بالكفاية ويضاده القناعة، وأصله من حرص القصار الثوب والحارصة وهي شجة تشق الجلد، فالحرص كأنه مزيل للحياء والكرم عن النفس، وأصل الشرك مساواة اثنين فصاعداً في شئ كتجارة وزراعة وميراث [وشراك للفعل وشراك الخيط][1] معتبر فيه معنى الشركة، وكذا الشرك للطريق والحبالة للصائد، وصار الشرك متعارفاً فيمن يثبت مع الله إلاهـا آخر أو يصفه بصفة على حد ما يوصف به شئ من المكونات، فيطلق تارة على من لم يكن من أهل الكتاب، كقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾[2]، وهم الذين لا يقارون على بذل الجزية، ومرة يقال لأهل الكتاب لقولهم عزيرابن الله والمسيح ابن الله [وقولهم اتخذ الله ولدا،][3] ومرة يطلق على الربا ونحوه فروى أن أبا حنيفة -رحمه الله تعالى - قال لجعفر بن محمد- رحمهما الله تعالى- من أين قال أبوك : الرياء شرك؟ فقال: من قول الله -عز وجل- ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾[4].

ولما لم ينفك عامة الناس من تشبيه ما في أوصاف الله تعالى ومن رياء ما في عبادته، قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾[5]..

---

١ - ساقطة من (أ - ص).

٢ - سورة الحج : الآية (١٧).

٣ - ساقطة من (و - ج).

٤ - سورة الكهف :الآية (١١٠).

٥ - سورة يوسف : الآية (١٠٦).

والعمر اسم لمدة عمارة البدن بالحياة، والعمارة قبيلة تحصل باجتماعهم العمارة، والمعمر المسكن ما دام عامراً بسكانه ،[والعومرة][1] صحْب تدل على اجتماع عمارة، والعمري في العطية منة، والألف مشتق من الألفة، وهو ضم البعض إلى البعض، فالأعداد آحاد وعشرات ومئون وألوف، فالألف يألف أنواعها، وألسنة للعرب في أصلها طريقان من جعلها من الواو، كقولهم سنوات، وكأنها اسم لدوران الفلك، ولاعتبار الدوران فيها سمي المستقى[2] عليها والمستقى بها [اسم لدوران الفلك][3] ساقية، ومنهم من يجعلها أمراً لها[4]، فيقول : سانهته مسانهة فكأنها اسم لتغير الفصول الأربعة، ومنه قيل لسنة[5] الطعام أي تغير، والزحزحة[6] الإزالة عن المقر، وقوله: **﴿مِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾** فمن المفسرين من يقول: تقدير الآية: "ولتجدنهم وطائفة و كثيراً من المشركين[7] أحرص الناس على حياة، واستبعد ذلك بعض النحويين لحذف الموصول ترك الصلة، وقيل: تقديره "وهم **﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾**، فكأن قوله: **﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾** خبر ابتداء مضمر، أي هم في محبتهم للحياة من المشركين، وأكثر المفسرين على أنه عطف على معنى قوله **﴿ أَحْرَصَ النَّاسِ ﴾**، فإن قيل: كيف قال ذلك والذين أشركوا من الناس؟ قيل: لما كان للمشركين فضل اختصاص في محبة الحياة الدنيا خصهم بالذكر بعد العموم تخصيص جبرائيل وميكائيل بعد ذكر الملائكة، وتخصيص النخل والرمان بعد الفاكهة، فإن قيل: فهلاً قال: أحرص الناس والمشركين، أو من أحرص من الناس ومن المشركين ليكون الكلام على نمط واحد، قيل: إنما قال كذلك لمعنى اقتضاه، وهو أن أفعل يستعمل على وجهين، أحدهما مضافاً إلى جملة هو بعضها نحو: هو أفضل الناس، ومعناه أن فضله زائد على جل المضاف إليه.

---

١ - في (و - ج) والعوم وهو تحريف.
٢ - في (أ- ص) المشتق عليه.
٣ - ساقطة من (أ - ص).
٤ - في (أ - ص) من الهاء لقولهم : سانهته مسانهة.
٥ - في (و - ج) قسنه، وهو خطأ من الناسخ.
٦ - في (و - ج) والزحزاحة ، وهو خطأ من الناسخ.
٧ - في (أ - ص) من الذين أشركوا.

والثاني : أن يذكر بـ من، نحو: الإنسان أفضل من الأسد، ويرد أنه زائد على جميع المذكور، ويدلك على صحة هذا(١) أنه إذا قيل: "زيد أفضل الناس"، وعني بالناس العموم لم يكن ذلك(٢) محالاً، لأنه يقتضي أن يكون أفضل من نفسه أيضاً، إذ هو من الناس أو لا يكون منهم، فحيث ذكر تعالى الناس وأراد أنه زائد على جلهم أصناف، وحيث ذكر المشركين وعني أنه زائدٌ عليهم كلهم ذكر "مِنْ،" وإنما قال "على حياة" فنكرها، لأن الحياة التي يحرصون عليها هي حياة ما، وهي أحسن حياة"، فكأنها لخستها وقلة وزنها ذكرها منكرة، وإنما الحياة المطلقة هي الحياة الحقيقية التي وصف بها الآخرة في قوله: ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ ﴾(٣)، فأبان الله تعالى فرط حرصهم على الحياة الدنيا، وأن تمنيهم لها فوق تمني المشركين، إذ غاية تمنيهم للحياة ألف سنة، وبذلك يتداعون، ثم بين تعالى أن بقاءهم ألف سنة لا ينقذهم من عذاب الله إن ماله مدة فقصير، وإن طال، فكما قال الشاعر:

أَرَى الْعُمْرَ كَنْزاً نَاقِصاً كُلَّ لَيْلَةٍ ... وَمَا تَنقُصُ الأَيَامُ والدَّهْرُ يَنْفَدُ(٤)

قوله تعالى :

﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾. الآية (٩٧) سورة البقرة.

العدو التجاوز ومنافاة الالتيام، فتارة يعتبر بالقلوب، فيقال له العداوة، وتارة في المشي، فيقال لها العدو، وتارة في الإخلال بالعدالة في المعاملة، فيقال له العدوان، وتارة إما في المكان وإما في النسب، فيقال قوم عدي أي غرباً، وجبريل فيه لغات، وإنما كثرت فيه اللغات لكونه معرباً، وتقرأه كل [قبيلة](٥) على حسب استحقاقه، فمنهم من لم يتحر فيه أبنية كلامهم ولا تخفيف اللفظ، ومنهم من خفف ولم

١ - في (أ - ص) ذلك.

٢ - في (أ- ص) كان محالاً.

٣ - سورة العنكبوت : الآية (٦٤).

٤ - قائل هذا البيت هو طرفة بن العبد وذلك كما في مخطوط الدر الفريد وبيت القصيد - لمحمد بن أيدمر - ج:٢ - ص ١١٣ من منشورات معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية إصدار - فؤاد سزكين.

٥ - ساقطة من (و-ج).

يراع البناء نحو جبريل، لأن "فعليلاً" ليس في أبنيتهم، ومنهم من راعى رده إلى بناء كلامهم، فقال جبريل نحو قنديل، وعلى ذلك اختلفت اللغات في ميكائيل، ومنهم من قال جبر هو العبد وإيل هو الله[1]، وإن ذلك كقولهم عبدالله، فإن ذلك لا يصح على حد كلام العرب، إذ لو كان كذلك لكان مضافاً، والإذن: الإعلام بالرخصة، وقد يعبر عن الإعلام بالختم، ومعنى الآية أن اليهود زعمت أن جبريل عدوهم، فإنه لم يكن يأتي الأرض[2] إلا بالصواعق، فقال تعالى: ﴿ **فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ** ﴾ أي أن جبريل نزل القرآن على قلبك بإذن الله ومصدقاً لما تقدمه من كتب الله -عز وجل-، وهادياً ومبشراً للمؤمنين تنبيهاً على أنه لم يعاده ولا أحداً من أنبياء الله تعالى والصالحين من عباده، فليس من شأن الملك مخالفة الرب -عز وجل-، فإن هو عاداهم، فلكونهم غير مؤمنين، إن قيل: كان الوجه أن يقال: "فإنه نزله على قلبي"، قيل: يجوز الأمران، فالحكاية تارةً تعاد على اللفظ، نحو أن يقال: قل لهم الخبر عندي كذا وكذا، وتارة على المعنى، فيقال: "قل لهم: الخبر عندك كذا"، وعلى ذلك: ﴿ **قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ** ﴾[3]، وسيغلبون ويحشرون" ،ويجوز أن يكون قوله: قل خطاباً لجبريل، كأنه قال: قل للنبي.

قوله عز وجل:-

﴿ **مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ** ﴾

الآية (٩٨)-سورة البقرة .

قد يدل على تفسير هذه الآية ما روي سأل عن جماعة من اليهود عن سبب امتناعهم من الإسلام، فقالوا : إن الملك الذي يأتي محمداً ﷺ هو جبريل، وجبريل عدونا، ولو أتاه ميكائيل لآمنا به، فإن ميكائيل صاحب كل رحمة، فقال عمر- رضي الله عنه- أنشدكم: أين جبرائيل وميكائيل من الله - عز وجل-؟

---

١ - في (أ- ص) هو اسم الله.

٢ - في (أ - ص) يأتيهم.

٣ - سورة آل عمران - الآية :(١٢).

قالوا: جبرائيل عن يمينه، وميكائيل عن يساره، قال: فاشهدوا أن الذي هو عدو لمن عن يمينه عدو لمن على يساره، ومن هو عدو لهما فعدو لله - عز وجل-، فرجع عمر- رضي الله تعالى عنه، وقد أنـــزل الله هذه الآية تصديقاً لقوله، ومنبهاً بذكر من ذكرهم والجمع بينهم أن من عادى واحداً فقد عاداهم، فإنهم أولياء من والاه، وأعداء من عاداه، وبين بذلك أن اليهود إذا عادوا أحدهم فالله عدوهم، وحقيقة معاداة الإنسان لله والبعد عنه مخالفته في تحري الصدق في المقال والحق في الفعال وأن لا يستحق أن يوصف بشئ من أوصافه، نحو العادل والجواد والكريم والقريب منه والمحب له، هو أن لا يخالفه في ذلك، وإن يصح أن يوصف بتلك الصفات وتلك المعاني هي المقتضية لمعاداة أولياء الله والداعية [١] لارتكاب المعاصي، فإذاً: قول من قال معنى قوله: ﴿ عَدُوًّا لِّلَّهِ ﴾ عدواً لأولياء الله، أو قال: معناه : عاصٍ لأمره، فإنه غير مخالف لما قلنا..

قوله - عز وجل :

﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلاَّ الْفَاسِقُونَ ﴾ الآية (٩٩) سورة البقرة.

عنى بالآيات القرآن وسائر المعجزات والدلالات التي أوضح الله-عز وجل- بها أمر النبي -عليه السلام-، وذكر أنه لا يجحد ذلك ولا ينكره إلا كل متناهٍ في الكفر، والفاسق الخارج عن الطاعة، إما عن أصل الدين، وإما عن بعض الطاعات بارتكاب كبيرة، ولذلك قال- عز وجل- في إبليس :**﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾**[٢]، وقال فيمن يرمي المحصنات: **﴿ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾**[٣]، وقال: (**﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾**[٤] فبين الفاسق والفاسق بون..

---

١ - في (أ - ص) والمقتضية.

٢ - سورة الكهف : الآية (٥٠).

٣ - سورة النور : الآية (٤).

٤ - سورة التوبة . الآية (٦٧)

قوله - عز وجل :

﴿أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ الآية (١٠٠) سورة البقرة.

[النبذ][1] والطرح والإلقاء متقاربة، لكن النبذ أكثر ما يقال فيما ينسى، وعلى ذلك **قول الشاعر:**

كَنَبْذِكَ نَعْلاً أَخْلَقَتْ مِنْ نِعَالِكَا[2] .

وقيل: صبي منبوذ إذا ألقته أمه فنسيته، واستعير للشراب الملقى المنسي إلى وقت إدراكه، والطرح أكثر ما يقال في المبسوط وما يجري مجراه، والإلقاء يعبتر فيه[3] ملاقاة بين الشيئين أو بين الشئ ومكانه، ومعنى الآية: أنه لما بين تعالى أنه قد أنزل مالا يكفر به إلا كل فاسق بين لفظ الإنكار أن عادة بعض اليهود المذمومين تضيع العهد الملتزم واطراحه، ثم بين أن عادتهم[4] لا يؤمنون تنبيهاً أن أكثرهم وإن لم ينبذوا العهد جهاراً لم يحص منهم الإيمان الذي هو معرفة ما يجب معرفته وفعل ما يجب فعله، بل اقتصروا على ظاهر القبول الذي لا يُعتد به على الحقيقة..

قوله - عز وجل :

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الآية (١٠١) سورة البقرة.

الرسول ههنا إن جعلته الرسالة أو جعلته النبي محمداً ﷺ أو جعلته المسيح عليه السلام فالكل صحيح ومراد، وكذلك[5] إن جعلت الكتاب ههنا التوراة أو جعلته القرآن فصحيح. لأن المنكر لأحدهما

١ - ساقطة من (و - ج).

٢ - هذا عجز بيت وشطره : نَظَرْتُ إلىَ عُنْوَانِهِ فَنَبَذْتُهُ

وقائله أبو الأسود الدؤلي وقبله:

وَخَبَّرَني مَن كُنتُ أَرْسَلْتُ إنَّمَا   أَخَذْتُ كِتَابِي مُعْرِضاً بِشِمَالِكَا

وهو في تفسير القرطبي - ج:١ - ص ٥٣٨ ، وهو في الطبري - ج:١ - ص ٣٢٢ .

٣ - في (أ - ص) يقال فيه.

٤ - في (أ- ص) عادة أكثرهم.

٥ - في (أ - ص) وكذا.

في حكم المنكر للآخر، وقد بين الله تعالى أنه لما جاءهم بعد موسى رسول مطابق له، صار فريق مما اختصوا بعلم الكتاب نبذوا أحكام كتاب الله وراء ظهورهم، فصاروا كالجهلة، وهذا الفريق غير الفريق الأول، ولهذا لم يدخل فيه الألف واللام، وقد دل تعالى بالآيتين أن جل اليهود ثلاث فرق، فريق جاهر وأنبذ العهد، وفريق لم يجاهروا بذلك، لكنهم[1] لم يؤمنوا به، وهم أكثرهم، وفريق آخر طرحوا حكم الكتاب عناداً، فصاروا في حكم الجهلة، وهذه القسمة عجيبة الشأن، فإن دافعي الحق ثلاثة أقسام، جاهل غير عالم بجهله، وهو الشرير الذي لامداواة له، وإياه عنى بقوله: ﴿أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْداً نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾، وجاهلٌ عالمٌ بجهل، وهو الشاك وإياه عنى بقوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾، ومعاندٌ غير جاهل، وإياه عنى بقوله: ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ ووصف هذاالفريق بأن حكمهم حكم الجاهلين الذين هم فوق الموصوفين بأنهم لا يؤمنون، [وكل من دافع الحق لا ينفك من الأقسام الثالثة التي ذكرناها. والله أعلم][2]..

قوله - عز وجل :

﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ الآية (١٠٢) سورة البقرة.

تلا: يقال تارة في اتباع الغير إما بالجسم وإما بالحكم، ومصدره تلو، وتلو وتارة في اتباع الكلام، وإما بالقراءة وإما بالتدبر[3] لمعناه، ومصدره تلاوة، وعلى الأول قوله: ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا﴾[4]،

---

١ - في (أ - ص) بل لم يؤمنوا.

٢ - هذه العبارة ساقطة من (و - ج)

٣ - في (و - ج) بالتدبير، وهو تصحيف.

٤ - سورة الشمس : الآية (٢).

وعلى الثاني قوله: ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ﴾[١]، وتلا عليه كذب نحو روي عليه، وقال عليه، (ويقولون على الله الكذب) وأما السحر فقد اختلف في مائيته على ثلاثة أوجه، ولابد من تبيينه لينبني كلام الله عليه في هذ الآية وفي غيرها من الآيات في ذكر السحر، فالأول: ما ذهب إليه أكثر الجدليين، وهو أنه اسم خداع وتخييلات لاحقيقة له، وإنما اعتماد الساحرين على شغل القلوب بشعبذة صارفة للأبصار وتمتمةٍ عايقة للأسماع ولصرف الأبصار، قال تعالى ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ﴾[٢]، ولشغل الأسماع بالنميمة، قال: فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه، قالوا: ولهذا سمي البيان الرائق سحراً، والثاني ما ذهب إليه الأغشام[٣] من العوام وجماعة من الأشرار، وهو أنه اسم لفعل من قوته تغيير الطبائع ونقل الصور، كجعل الإنسان حيواناً آخر وذكروا من ذلك خرافات توصلت بها الملحدة[٤] والبراهمة إلى إبطال النبوات والمعجزات، والثالث ما ذهب إليه محصلة أهل الأثر وعامة المتوسمين بالحكمة، وهو أنه عمل يقرب إلى الشيطان بمعونة منه، وذلك أن توقع الساحر وهمه على أمر يريد فعله بالغير لافظاً بكلمات من الشرك ومادحاً للشيطان مستعيناً به والذي يحتاج إليه في معرفة ذلك مقدمة، وهي أن الجواهر المكلفة ضربان جسماني محسوس، وروحاني معقول، فكما أن الجسماني بالقول المجمل ثلاثة أقسام: خيِّر، وشرير، ومتوسط، كذلك الروحاني، فالخير من الروحاني الأرواح المقدسة، وهي الملائكة، والشرير شياطين الجن والمتوسط مؤمنو الجن كمن نزل فيهم سورة الجن، ولما كانت الملائكة لا تواصل ولا تعاون إلا خيار الناس كل متأله نقي، وكل ناسك تقي متشبه بهم في المواظبة على العبادة والتقرب إلى الله -عز وجل- بالفعل والقول، كذلك الشياطين لا تواصل ولا تعاون إلا الأشرار من الناس كل مشرك خبيث عابد للشيطان معاند للرحمن، ولهذا قال: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾[٥]، وقال: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾[٦]، وقال: ﴿شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾[٧]، إن قيل: لو أمكن الإنسان من جهة الشيطان الوقوف على الأخبار الغائبة والأفعال

---

١ – سورة البقرة : الآية (١٢١).

٢ – سورة الأعراف : الآية (١١٦).

٣ – في (و – ج) الأغنام وهو خطأ من الناسخ.

٤ – في (أ– ص) الملاحدة.

٥ – سورة الشعراء : الآيتان (٢٢١، ٢٢٢).

٦ – سورة الزخرف : الآية (٣٦).

٧ – سورة الأنعام : الآية (١١٢).

الخارجة عن عادة البشر لكان يشبه طريق النبوة بطريق السحر، ولكن يجوز استغواء الساحر بسحره متصوراً بصورة نبي، وذلك يؤدي إلى ما ادعاه ما في الزنديق على كثير من الأنبياء في أنهم كانوا سحرة معاونين من قبل الشيطان، لا من قبل الرحمن -عز وجل-، قيل: الفرق بين ما يكون من فعل السحرة وبين ما يكون من الأنبياء لا يخفى على متنبه في المعرفة ومتدرج في أدنى منزلة من الحكمة، فإن تأثير السحر لا يكون إلا في فساد جزئي من كل مشرك خبيث في نفسه شرير في طبعه متدنس في بدنه ولذلك أكثر ما يقع في حيض النساء وعبدة الأصنام وضعاف العقول وفي الأمكنة القذرة، وأكثر تأثيرهم في مجالسهم، ثم لا يكون في الندرة، ومتى قوبل بالاستعاذة بالله تعالى ويذكره بطل سلطانه، فأما ما كان من الأنبياء عليهم السلام، فلا يحصل إلا من كل مؤمن محصن الإيمان مقدس في نفسه خير في طبعه طاهر في بدنه [ويكون تأثيره](1) في أولي العقول الراجحة والأفهام البارعة، ويزداد بازدياد التقرب إلى الله تعالى، وذلك ظاهر لمن ألقى السمع وهو شهيد، ولو لم يكن للسحر حقيقة لما أعظم الله أمره في قوله: ﴿وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾(2)، ولما أمروا بالتعوذ من شر النفاثات في العقد، ولو كان كما قال الجدليون لما ورد والشرائع بقتل السحرة ونفيهم عن بلاد الإسلام، ولما أجرى مجرى الشرك حتى قال بعض الفقهاء: لا تقبل توبتهم كالمستسر بالكفر، والنميمة والخديعة لاتستحق بها(3) هذه العقوبة، فإن قالوا فالذي هو كفر هو ما تقول العامة إن الساحر يطير بلا جناح، ويركب البيضة والمكنة(4)، فيبلغ في أقصر مدة إلى بلد بعيد، قيل : مدعى ذلك ومصدقه سخيفان يضحك منهما، ولا خلاف أن بذلك لا يستحقان الارتداد والقتل، وإنما يستحق القتل إذا ادعى قتل الإنسان بسحره على شرائط مخصوصة على قول بعض الفقهاء أو ادعى ما ينبئ عن صريح كفر، وقد أنكر الجدليون ما روي في ذلك من الأخبار الصحيحة والآثار الواضحة كنحو ما روي أن اليهود سحرت رسول الله ﷺ فقال - عليه السلام: **«أتاني ملكان، فقعد أحدهما عند رأسي، والآخر عند رجلي، فقال أحدهما: ما بالرجل فقال الآخر: مطبوب، قال: ومن طببه؟ قال: بنات لبيد بن**

---

١ - ساقطة من (أ - ص).

٢ - سورة الأعراف : الآية (١١٦).

٣ - في (أ- ص) لهما.

٤ - في (و - ج) والمكنسة.

أعصم اليهودي"، فبماذا قال في مشط ومشاطه، وجف طلعه ذكر في بئر ذوى أروان، فبعث من أخرجه وحل عقده، فكلما حل حل عقده، وجد لذلك خفة كأنما أنشط من عقال»[1] قالوا: إن ذلك إن قلنا بصحته لكان يقدح في نبوته، وليس الأمر على ماظنوه لما تقدم، ولأن تأثيرالسحر لم يكن في النبي – عليه السلام– من حيث ما هو نبي، وإنما كان في بدنه من حيث هو إنسان وبشر، وكما كان يأكل ويتغوط ويشرب ويمشي ويقعد ويغضب ويشتهي ويمرض ويصح من حيث هو بشر لا من حيث هو نبي، وإنما كان ذلك قادحاً في النبوة لو وجد للسحر تأثير في أمر يرجع إلى النبوة، ثم كون النبي – عليه السلام– معصوماً من الشيطان لا يقتضي أن لا يؤثر في بدنه ذلك تأثيراً صغيراً لا يقدح فيه من حيث ما هو نبي، فقد كان تأثير ذلك في جزء من بدنه تأثيراً محسوساً لم يتعده إلى زوال عقله ولا إلى إفساد نفسه، كما أن جرحه وكسر ثناياه يوم أحد لم يقدح فيما ضمن الله له من عصمته، حيث قال: **﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾**[2]، وكما لا اعتداد بما يقع في الإسلام من ارتداد أهل بلد أو غلبة المشركين على بعض النواحي فيما ذكر من كمال الإسلام بقوله: **﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾**[3]، ومن أثبت كليات الحقائق بإثبات جزئياتها لم يسعفه في قياسه لدى التحصيل مقدمته ولا يثبت به في المقامات قدمه، وأما متصرفات لفظ السحر، فقد كثرت، وذاك إنه من حيث يتصور تارة دقته وتارة، حسنه وتارة فتنته، وتارة خبثه وشرارته استعمل في كل ذلك لفظه بحسب تصور كل واحد من ذلك، فسمي الشعبذة سحراً ومنه قوله: **﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾**[4]، والكلام الرائق سحراً، ومنه قيل: **(إن من البيان لسحراً)**،[5] والعين الفاتنة ساحرة، والعالم ساحراً، [وعلى ذلك حمل قوله: **﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾**[6]، والفعل الدقيق سحراً][7] حتى قالت الأطباء: الطبيعة ساحرة، وسمي الغذاء

١- الحديث أورده القرطبي في تفسيره ج:١ – ص ٥٤٣ وج:١٠ – ص ٧٥٩٨ رواية عن الصحيحين كما أخرجه ابن كثير في تفسيره ج:٤ – ص ٥٧٤ . ونص الحديث.
ما روته عائشة أن النبي ﷺ سحره يهودي من يهود بني زُريق يقال له لبيد بن الأعصم ، حتى يُخيَّلُ إليه أنه كان يفعل الشيئ ولا يفعله فمكث كذلك ما شاء الله أن يمكث – ثم قال يا عائشة : أُشعرت أن الله أفتاني فيما استفتيته فيه. أتاني ملكان فجلس أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي فقال الذي عند رأسي للذي عند رجلي ما شأن الرجل .. قال مطبوب ، قال ومن طبَّه ؟ . قال لبيد بن الأعصم ، قال في ماذا؟ . قال في مُشط ومُشاطة وجف طلعة ذكر تحت راعوفة في بئرذي أروان فجاء البئر واستخرجه .. إلخ الحديث.

٢ – سورة المائدة : الآية (٦٧).

٣ – سورة المائدة : الآية (٣).

٤ – سورة الأعراف : الآية (١١٦).

٥- الحديث عن عبد الله بن عمر أنه قال : قدم رجلان من المشرق، فخطبا، فعجب الناس من بيانهما، فقال رسول الله – صلي الله عليه وسلم «إن من البيان لسحراً، أو إن بعض البيان لسحراً، أخرجه مالك في باب مايكره من الكلام، شرح الزرقاني ج:٤- ص٤٠٣، والبخاري في الطب – ج:١٠–ص٢٣٧، كما أورده الراغب في مفردات ألفاظ القرآن – ص٤١٠، كما أورده صاحب كتاب رأموز الأحاديث فيما أخرجه ابن عساكر عن علي وابن النجار عن ابن مسعود ص١٣١.

٦ – سورة الزخرف الآية (٤٩).

٧ – ساقط من (و– ج).

سحراً من حيث يدق تأثيره، قال: وتسحر بالطعام وبالشراب والسحر الرئة، فيجوز أنه سمي بذلك اعتباراً بدقة تأثيره في ترويحه القلب بإيصال النفس (البارد إليه)[1] إخراج الحارمنه، فكأنه ساحر في فعله ذلك، وقوله: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾[2]، قبل من المخلوقين وحقيقته من المجعول له سحر، أي من الحيوان، وقيل فيه، وفي قوله: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً﴾[3]، أي معه رأي من الجن والفتنة: اختيار بتعذيب، ولما انطوى معناها على الأمرين استعملت في كل واحد منهما مفردة، نحو قوله: ﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ﴾[4]، أي عذابكم وفتنت الذهب إذا اختبرته بالنار، وقوله: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾[5] يحتمل الوجهين، والآية معطوفة على ما تقدم من ذكر اليهود، وهي منطوية على أمرين: ذم اليهود في تحري السحر وإيثاره وتبرئة لسليمان- عليه السلام- مما نسبوه إليه، وذلك أنه روى أن الشياطين من الإنس والجن دفنوا تحت كرسي سليمان عليه السلام شيئاً من السحر، فلما مات عليه السلام أخرجوا ذلك، وادعوا أنه كان يتحرى ما يتحراه سحراً منه، فذكر الله تعالى أن بعض اليهود اتبعوا ما تخرصه[6] الشياطين على ملك سليمان، ونزه سليمان عن الكفر وما نسب إليه من السحر، وذكر أن الشياطين هم المستحقون. لذلك، واختلف في قوله: ﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ﴾، فقيل فيه ثلاثة أقوال:

الأول: أن ما جرى معطوف على قوله ﴿مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ ومعناه: كذبوا على ملك سليمان وعلى ما أنزل على الملكين، والثاني: أن ما نفى وعلى القولين: قيل لم يعلم الملكان السحر،بل كانا ينهيان عنه. ﴿حَتَّىٰ يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ﴾ أي حتى بلغ من نهيهما عن ذلك أنهما كانا يقولان إنما نحن فتنة، أي مفتونون بأن نعلم السحر وذلك مستبعد من حيث اللفظ، فإنه إنما يقال: فلان لا يفعل كذا حتى إنه يقول كذا على سبيل الاستئناف، ولا يقول حتى يقول، وقال هذان القائلان معنى (ويتعلمون منهما) أي

---

١ - ساقطة من (أ - ص).
٢ - سورة الشعراء : الآية (١٥٣).
٣ - سورة الإسراء : الآية (٤٧).
٤ - سورة الذاريات : الآية (١٤).
٥- سورة الدخان : الآية (١٧).
٦ - في (و - ج) ما يتخرصه.

من السحر والكفر، وقد جرى ذكر السحر صريحاً، وذكر الكفر ضمناً[١] في قوله: كفروا، والثالث قول أكثر المفسرين إن (ما أنزل) نصب معطوف على قول السحر، ومعناه علم السحر وكيفية تعاطيه وقوله "منهما" راجع إلى الملكين، وكان تعليمهما ذلك ليحترز به، لا ليتعاطى فعله، ولهذا كانا يقولان (إنما نحن فتنة فلا تكفر)، والذي أنكره من يذهب إلى التقديرين الأولين هو لظنه أن علم السحر محظور كفعله، وليس الأمر على ما ظن، وذاك لما قد ثبت أن الحكمة معرفة الصدق من الكذب في الأقوال والخير من الشر في الأمور ليتحرى الصدق والخير ويتجنب الكذب والشر، فمعرفة الكذب والشر إذاً واجبة كوجوب معرفة الصدق والخير، بل لا يتم معرفة أحدهما إلا بالآخر كما قد تبين أن المعرفة بالمتضادين واحد، وإذا كان معرفتهما لازمة، فتعريفهما واجب، وإنما المستقبح تعاطي الكذب والقبيح، فإذا كان كذلك فلا ضير أن يبعث الله تعالى من قبله في وقت يكثر فيه الاستغواء بالسحر من ينبه على وجه احتياله، فتزول عن الناس الشبهة، ثم إن استعان شرير به على تعاطي شر، فهو كالاستعانة بتعلم الفقه وتعاطي العبادات لاستغواء الناس، فما من شئ من المعادن أو من المعارف والعلوم نسخ في هذه الدار مصلح لخير إلا ويمكن استعماله في شر، ومن لم يتمسك فيما يتحراه بالطاعة وقع في المعصية أو الكفر، وأما هاروت وماروت فالظاهر أنهما كانا الملكين، وقيل: كانا رجلين سُمِّيَا ملكين اعتباراً بصلاحهما ولهذا قرأ بعض القراء (وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلِكَيْنِ) اعتباراً بِملْكهما، وقال بعض المفسرين إن الملكين ليسا بهاروت وماروت، وإنما هما شيطانان من الجن والإنس وجعلهما نصباً في اللفظ بدلاً من الشياطين بدل البعض من الكل كقولك: القوم قالوا كذا زيد وعمرو، قال: ويكون قولهما: (إنما نحن فتنة) كقول الخليع لغيره: لا تعيرني فإني خليع فاسق، ويكون قوله: (وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ) نفياً اعتراضاً بين البدل والمبدل منه، وروى بعض من جعلهما ملكين أنهما كانا صُيِّرا على صورة الآدميين وركب منهما الشهوة، وأنهما تعرضا لامرأة يقال لها زهرة فحملتهما على شرب الخمر وارتكاب المحظور ثم صعدت إلى السماء، فقد استسخف جماعة الجدليين قائل هذا الحديث[٢] وعدوه خرافة ينزه العاقل سمعه عن سماعه، وذكر بعض الناس أن ذلك رمز منقول عن

---

١ - في (أ- ص) مضمناً.

٢ - في (أ -ص) قائل هذا الخبر.

كلام القدماء، وكان عادتهم أن يرمزوا بكثير من العلوم قال: وهذا من رموزهم، وهو أنه كان عادتهم إذا أرادوا تبيين اختصاص كل نجم بفعل يختص به جعلوه بصورة متعاطي الفعل المختص به ويقول: إنه فعل كذا وقال كذا، ولما كان من شأن الزهرة على ما يدعون حمل الإنسان على تعاطي الغزل واللهو واللعب والشرب كنوا عنه بذلك، وعلى ذلك قالوا: الأفعال الزهرية كناية عن الغزل واللعب[١]، وعلى ذلك فعلوا في سائر النجوم[٢] حتى جعلوا لها صوراً مصورةً في الكتب على هيآت المتعاطين للصناعات المختصة بطبعها والله أعلم بذلك، وقوله تعالى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ قيل: عني به الرجل وامرأته، وقيل: عني به الإنسان وقرناءه وأصدقاءه امرأةً كانت أو غيرها، نحو قوله: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾[٣] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾[٤]، وقوله: (فَيَتَعَلَّمُونَ) معطوف على ضمن ما تقدم، كأنه قال: يعلمون فيتعلمون، وقوله: ﴿وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ الإذن قد يقال في الإعلام بالرخصة، وقد يقال للعلم، ومنه أذنته بكذا، ويقال في الأمر الجسيم،وينبغي أن يعلم أن الإذن في الشيء من الله تعالى ضربان، أحدهما: الإذن لقاصد الفعل في مباشرته نحو قولك: أذن الله لك أن تصل الرحم، والثاني: الإذن في تسخير الشيء على وجه تسخير السم في قتله من يتناوله والترياق في تخليصه من أذيته، فإذن الله تعالى في وقوع التسخير وتأثيره من القبيل الثاني، وذلك هو المشار إليه بالقضاء، وعلى هذا يقال: الأشياء كلها بإذن الله وقضائه، ولا يقال: الأشياء كلها بأمره ورضاه، والضر ما يعوق الإنسان عن فعل الخير سواء كان ذلك مما يعرض في بدنه، أو كان شيئاً خارجاً منه،والنفع ما يسهل سبيل الإنسان إلى الخير، ومن قال: النفع هو اللذة، فإنما اللذة بعض النفع، فقد يكون الشيء نافعاً، ولا يكون لذيذاً، إن قيل: كيف قال: ﴿مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ وما يضر يعلم أنه لا ينفع؟ قيل: إن ذلك من وجه ووجه، فقد يكون الشيء نافعاً من وجه وضاراً من وجه، وتعلم السحر كان

١- في (أ - ص) واللهو.

٢- في (أ - ص) الكواكب.

٣- سورة الصافات : الآية: (٢٢).

٤ - سورة المائدة : الآية: (٩١).

نفعاً لو احترزوا بمعرفته عمن يغوى، فلم ينتفعوا به من هذا الوجه واستضروا به لاستعمالهم إياه في غير الحق، ولقد علموا أن من استبدل ما جاءت به الشياطين من السحر بالحق أن لاحظ له في الآخرة..

قوله - عز وجل :
﴿ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ الآية (١٠٢) سورة البقرة.

يصح أن يكون معطوفاً على المعلوم، وهو قوله: (لمن اشتراه)، ويصح أن يكون استئنافاً حكماً به، وجواب قوله: ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ محذوف.

إن قيل: كيف أثبت لهم العلم في أول الكلام ونفى عنهم في آخره؟ فالجواب في ذلك من أوجه.. الأول: أن العلم المثبت لهم هو العقل الغريزي، وما جعله لهم بصيغته، والمنفي عنهم هو المكتسب الذي هو من جملة التكليف، والثاني : أن المثبت لهم هو العلم بالجملة، والمنفي عنهم هو العلم بالتفصيل، فقد يعلم الإنسان مثلاً قبح الشيء، ثم لا يعلم أن فعله قبيح، فكأنهم علموا أن شرى النفس بالسحر مذموم، لكن لم يتفكروا في أن ما يفعلونه هو من جملة ذلك القبيح، والثالث: أنهم علموا عقاب الله ، لكن لم يعلموا حقيقة عقابه وشدته، والرابع: أن معنى قوله (لو كانوا يعلمون) يعملون به، لأن من لا يعمل بما يعلم فهو في حكم من لا يعلم.

قولـه - عـز وجـل :

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ الآية (١٠٣)- سور البقرة.

الثؤوب : رجوع الشئ إلى حالة شبيهة بالحالة الأولى، يقال: ثاب الحوض إذا امتلاء بعد فراغه عقيب امتلائه، والثوب لتصوره بصورة القطن لاجتماع أجزائه بعد تفرقها بالغزل، والثيب من النساء لعودها إلى الأيمة، والتثويب في الصوت ترديده، والثواب والمثوبة في الخير تحصيل نفع يثوب إليه بإحسانه، ومعنى الآية: لو آمن الذين يتعلمون السحر واتقوا لأثيبوا وكان ذلك خيراً لهم، ولو علموا لظهر لهم ذلك، وجواب لو [الأولى] [١] مادل عليه لمثوبة وتقديره: لأثيبوا، تقول: لو أتاني زيد لإكرامي خير له، ولا تقول له أتاني زيد لعمرو منطلق، إذ لم يدل لفظ عمرو على فعل، وجواب لو لا يكون إلا فعلاً، أو ما دل عليه، ومن النحويين من أجاز ذلك إذا دل الخبر على فعل..

قوله – عز وجل :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

الآية (١٠٤): سورة البقرة :.

الراعي : حفظ الغير في أمر يعود بمصلحته، ومنه: رعي الغنم، ورعي الوالي الرعية، وعنه نقل: أرعيته سمعي، وتشبيهاً برعي الغنم قيل: رعيت النجوم إذا راقبتها، وكان يقال للنبي- عليه السلام- [راعنا][٢] أي استمع إلينا واحفظنا، فقالت اليهود: راعنا تعريضاً به من الرعونة، فلما عوتبوا قالوا: إنما نقول مثل ما يقول المسلمون، فنهوا عن ذلك، وقيل لهم: قولوا بدل ذلك انظرنا، وذلك معناه معنى راعنا، وقد نبه على ذلك بقوله -عز وعلا-: **﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾** [٣] الآيــة، وقوله: "واسمعوا": يجوز أن يكون من جملة ما أمروا لن يقولوا مع قولهم "انظرنا"، ويجوز أن يكون ذلك استئناف أمر من الله تعالى بامتثال ما أمرهم به، وقيل: إنما نهوا عن قولهم: "راعنا" لكونه

---

١ – ساقطة من (أ – ص).

٢ – ساقطة من (و – ج).

٣ – سورة النساء : الآية (٤٦).

مفاعلة متضمنة لمعنى المساواة بين المخاطب والمخاطب، فأمروا بتوقيره، كما قال ﴿لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾[١]، وكقوله :﴿وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾[٢]، وذلك عن ابن عباس -رضي الله عنه-، وروي عن مجاهد أن معناه: لا تقولوا خلافاً ويكون من الرعن، وأسترذل هذا الوجه، لأنه لو كان كما قال لكان في القراءة رعناً بالتنوين.

قوله - عز وجل :

﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ الآية (١٠٥) - سورة البقرة .

الود : محبة الشيء مع تمنيه، ولما كان لهما استعمل في كل واحد منهما، فقيل: وددت فلانا إذا أحببته، ووددت الشيء إذا تمنيته، وأصل الاختصاص الخصاص وهو فرجة بين الشيئين، ومنه الخُص لبيت من قصب لما فيه من الفرج، وسمي انثلام الحال خصاصاً وخصاصة على التشبيه، كما سمي انثلاماً واختلالاً وشعباً، وخصصت فلاناً وخصني أوليته خصاصي نحو خللته، وقولهم: وقفتهم[٣] على عجزي ونحري، وخُصان الرجل خلانه، ثم جعل الخاص مقابلاً للعام في التعارف، وسبب نزول هذه الآية أن جماعة من اليهود كانوا يظهرون مودة المسلمين، ويزعمون أنهم يودون لهم الخير، فأكذبهم الله تعالى في ذلك، ونفي ما أدعوه وكان المسلمون يوالونهم ويركنون إليهم، فأكذبهم الله تعالى في ذلك [ونفى ما ادعوه][٤] ونهاهم تعريضاً عن موادتهم، كما قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ ﴾ [٥] إن قيل: فلم قال: "ولا المشركين" وذلك يقتضي أن المشركين ضربان، كافر، وغير كافرٍ، كما أن أهل الكتاب ضربان؟ قيل: إن "من" في قوله (من أهل الكتاب) للتبيين ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ﴾[٦]، فإذا كان كذلك، فالذين كفروا هم أهل الكتاب، فجاز أن يقال: (ولا المشركين) عطفاً على لفظ أهل الكتاب، وجاز أن يقال (ولا

---

١ - سورة النور : الآية (٦٣).

٢ - سورة الحجرات : الآية (٢).

٣ - في (أ- ص) أطلعته.

٤ - ساقطة من (أ - ص).

٥ - سورة المائدة : الآية (٥٧).

٦ - سورة الحج : الآية (٣٠).

المشركين) عطفاً على الذين، ولو قرئ به لجاز، كما جاز، وقوله: ﴿مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾[1]][2] والكفار النصب والجر جميعاً، ومن في قوله: ﴿مِّنْ خَيْرٍ﴾ لاستغراق الجنس، وبين بآخر الآية أنه وإن اختص برحمته بعض الناس، فليس ذلك لضيق فضله، بل فضله عظيم، ورحمته [تسع كل شئ، وإنما يسع رحمته][3] ضربان، أحدهما يصل إليه كل من شاء الوصول إليه من العباد بتمكين الله إياه وضرب يخص تعالى به بعض عباده لما يعرفه في ذلك..

قوله - عز وجل :

﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

الآية (١٠٦) - سورة البقرة .

قد تقدم الكلام في ماهية النسخ والفرق بينه وبين التخصيص في صدر الكتاب، والنسخ في اللغة إزالة الصورة عن الشئ وإثباتها في غيره كنسخ الظل للشمس، ثم يقال في إزالة الصورة من غير إثباتها في غيره نحو قوله تعالى : ﴿فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ﴾[4]، ويقال أيضاً في إثبات مثل تلك الصورة في الغير من غير إزالتها عن الأول كنسخ الكتاب وأصحاب التناسخ زعموا أن النفوس تنتقل من هيكل إلى هيكل، فإن كانت محسنة انتقلت إلى هيكل متنعمة فيه، وإن كانت مسيئة فإلى هيكل معذبة فيه، وليس الإنساء الأمر بالترك المؤدي إلى النسيان، وليس كل متروك يقال له منسئ، وقرئ ننسأها من النسئ، وهو تأخير الشئ عن وقته أو عن هيئته، فمما هو بالوقت قولهم:

نسأت في ظمي الإبل، ونسأ الله في أجلك، و"نسأت المرأة" تأخر وقت حيضها، وأنسأت فلاناً البيع، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾[5] ومماهو بالهيئة نسأت الإبل عن الحوض،

١ - سورةالمائدة : الآية (٥٧).
٢ - سقطت هذه الفقرة من (أ - ص).
٣ - ساقطة من (أ- ص).
٤ - سورة الحج : الآية (٥٢).
٥ - سورة التوبة : الآية (٣٧).

ونسأتها في السير، ومنها المنسأة للعصا التي يطرد بها، وحمل المفسرون النسخ والإنساءعلى وجهين:

أحدهما أن النسخ هو إزالة الحكم من غير اللفظ، أو الحكم مع اللفظ، والإنساء مقابله، وهو أن لا ينسخ بل يُقر، والثاني: أن النسخ إزالة الحكم فقط ثبت اللفظ أو لم يثبت، ولهذا قال الفقهاء:

إن النسخ لا يكون إلا في معنى الأمر والنهي معنى الخبر والإنشاء يكون في الإخبار وفي الأمر والنهي، لكن في الخبر معناه لا يزول وإن زال اللفظ، وقد يستعمل أحد اللفظين مكان الآخر، فمن هذا ما روت عائشة- رضي الله تعالى عنها- أنه نزل في قصة أهل بئر معونة قرآن منه: (بلغوا قومنا أن قد لقينا ربنا فرضي عنا وأرضانا)، ثم نسخت، ففيه دلالتان:

إحداهما أن قوله: (لقينا ربنا) إخبار، وقت سمته نسخاً، والثانية: أنها استعملت النسخ في رفع التلاوة دون المعنى، وعلى ذلك ما روي أنه كان فيما أنزل الله : **(لو أن لابن آدم واديين من مال لابتغى إليهما ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب)**[1] ،ثم نسخ وذلك خبر، وقيل: الكلام في تأويل الآية أن يذكر ما يكشف خطأ اليهود وشرذمةٍ من المسلمين أنكروا النسخ زاعمين أن ذلك هو المبدأ[2] ، ولا يفعلن إلا من يجهل العواقب ويتجدد له رأي بعد رأي، فيقال وبالله التوفيق..

«إن لله تعالى خلفاء في الأرض مستخلفين فيها ومستعمرين فيها لنتوصل بذلك إلى مجاورته والقرب منه بحياة لا موت بعدها، وغنى لا حاجة معه ، وقدرة لا يعتورها عجزٌ، ولا سبيل إلى ذلك إلا باكتساب الصحة في النفس، وصحتها أمران: العلم والعمل، أما العلم: فمعرفة الصدق من الكذب، والجميل من القبيح، والخير من الشر، وأما العمل: فتحري الصدق في المقال والجميل في الفعال وتجنب ضديهما، وكما لا سبيل إلى استفادة صحة البدن إلا بطبيبين، أحدهما من داخل وهي القوة

---

١ - عن ابن عباس رضي الله عنهما قال سمعت النبي ﷺ يقول «لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن ادم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب». أخرجه البخاري ج:١١-ص٢٥٢ في باب «ما يتقي من فتنة المال»، وأخرجه مسلم في صحيحه برقم «١٠٤٦»، وأورده الراغب في مفرداته ص ٨٦٢.

٢ - في (أ- ص) البدا.

التي سخرها الله تعالى لاستدعاء الطعام وهضمه ودفعه، والثاني من خارج، وهو الذي يتلف[1] من هذه القوة إذا اختلت، كذلك لا سبيل إلى استفادة صحة النفس إلا بطبيبين أحدهما من داخل وهو العقل،والثاني من خارج وهو النبي وكما أن أدوية البدن وأغذيته العقاقير والأطعمة، فأدوية النفس الأعال الشرعية والآداب الخلقية، وكما أن طبيب البدن قد يغير الأغذية والأدوية التي يتوصل بها إلى استفادة الصحة واستبقائها لاختلاف الأزمنة، كذلك الأنبياء من قبل الله قد يغير الأعمال الشرعية التي هي مصلحة للأنفس حسب ما يعرف الله من مصالحها، فكما يكون الشئ دواءً للبدن في وقت، ثم يكون داءً في وقت غيره، كذلك الأعمال قد تكون مصلحة في وقت، مفسدةً في وقت، ولكون الشريعة طلباً للنفوس قال المسيح: "إنما أنا طبيب المرضى"، وروى: أن العالم طبيب الدين،والدنيا داؤه[2] فإذا جر الطبيب الداء إلى نفسه، فكيف يداوي غيره، ومما يبين جواز النقل من حكم إلى حكم نقل الله تعالى الأشياء حال إلى حال حتى ينتهي إلى أقصى الكمال كمال الإنسان من مبدأ إلى منتهى عمره وذلك من حين النطفة، ثم العلق، ثم المضغة، ثم كونه جنيناً، ثم طفلاً، ثم ناشئاً وكهلاً وشيخاً وهرماً، ثم ما نبه النبي عليه السلام بقوله: «إن لكم معالم، فانتهوا إلى معالمكم، وإن لكم نهاية فانتهوا إلى نهايتكم»، ولو كان نقل الشرع من حال إلى حال قبيحاً لكان بعثة موسى ونقله اليهود عن بعض ما كانوا عليه قبيحاً، وأماما حكوه عن موسى عليه السلام - أنه قال لبني إسرائيل هذه الشريعة لازمة لكم أبداً مادامت السموات والأرض، فلفظ محتمل وفي إتيانه على وجه محتمل حكمة عظيمة قد ذكرها الحكماء، وهي أن من عادة[3] العامة وغريزتها أن لا ينقاد كل الانقياد لراع أو رئيس إذا علموا كونه مصروفاً من بعد، بل يستوهنون أمره ويضعفون حاله، فإذاً واجب أن لا يعلموا[4] بأن أمره غير ممتد، وأن لا يبين ذلك إلا للأعيان الذين لا يكون منهم مفسدة، فلهذا كانت الألفاظ الواردة من الأنبياء عليهم السلام محتملة أن شريعتهم على التأييد، فإن قيل: إن ذلك يؤدي إلى أن [5] يقال في

١ - في (و - ج) يقف، وهو خطأ من الناسخ.

٢ - في (أ - ص) داء الدين.

٣ - في (أ - ص) طبائع.

٤ - في (أ - ص) يشعروا.

٥ - في (و - ج) يقول، وهو خطأ من الناسخ.

نبينا - عليه السلام- إنا لم نعلم كونه دينه - عليه السلام- على التأييد من قوله فقط، بل علمنا ذلك قول من قوله ببرهان، وهو أن دينه بالاعتبار العقلي وسط كما وصفه تعالى بقوله: ﴿جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾[١] وأنه مصون عن الإفراط والتفريط والوسط الذي هذا صفته هو الحق الذي قال تعالى فيه: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ﴾[٢] ، ولشرح ذلك موضع غير هذا وبالله التوفيق، وأما معنى الآية، فعلى قول من يجعل الإنشاء مقابلاً للنسخ قال: لما أنكرت اليهودتحليل الله الشئ في وقت [وتحريمه في وقت][٣] بين الله تعالى أن جميع ما في التوراة، والكتب المتقدمة ضربان إما حكم قد نسخ فأتى بما هو خير أي أنفع لكم، أو يترك فلم ينسخ وأتى في القرآن بمثله، أي جمعناه في لفظ آخر، فيكون بقوله[٤]: (بخير منها) راجعاً إلى النسخ وبمثلها إلى الإنسان، فإن قيل: إن الذي ترك ولم يُنسخ ليس هو مثله بل هو هو، فكيف قال بمثلها؟ قيل: الحكم الذي أنزل في القرآن وكان ثابتاً في الشرع الذي قلنا[٥] يصح أن يقال هو هو إذا اعتبر بنفسه ولم يعتبر بكسوته التي هي اللفظ، ويصح أن يقال: هو مثله إذا لم يعتبر بنفسه فقط، بل اعتبر باللفظ، ونحو ذلك أن يقال ماء البئر هو ماءالنهر إذا اعتبر جنس الماء، وتارةً يقال: مثل ماءالنهر إذا اعتبر قرار الماء، وعلى قول من جعل الإنساء ترك اللفظ حتى تنسى قال: معناه: إذا أزيل حكم آية أو أنسى لفظها نأتٍ بما هو أوفق لكم وأقرب إلى أن يبلغوا به إلى ما أريد منكم، ثم قال: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: أي لا تحسبن أن تغييري الحكم حالاً فحالاً وإن لم آت بالثاني في الابتداء هو العجز، فإن من علم قدرته على كل شئ لا يظن ذلك، وإنما يعتبر[٦] ذلك لما يرجع إلى مصلحة العباد، وإن الأليق بهم في الوقت المتقدم الحكم المتقدم وفي الوقت المتأخر الحكم المتأخر، وقال بعض المحققة أن الآية مع هذا الظاهر تنبئ عن معنى لطيف، وهو أن الله تعالى خلق الإنسان خلقة تدرجه[٧] من حال إلى حال إلى أن يصير كاملاً موصوفاً بعام

١ - سورة البقرة : الآية (١٤٣).
٢ - سورة يونس: الآية (٣٢).
٣ - ساقطه من (أ - ص).
٤ - في (أ- ص) قوله.
٥ - في (أ- ص) قبلنا .
٦ - في (أ - ص) تغير.
٧ - في (أ - ص) يدرجه.

صفاته ومتخصصاً بالبقاء الأبدي والغنى السرمدي ومنفكاً من الحاجات والنقصانات كلها[١]، فنبه الله تعالى أن هذه الأحوال آيات له ينسخها إلى مثل ما هو كالأول من وجه وخير منه من وجه، ثم بين أنه تعالى قادر على ذلك إذ هو قادر على كل شئ[٢]، وقد تعلق الشافعي وأصحابه في قولهم: إن القرآن لا ينسخ إلا بالقرآن بهذه الآية، ووجه ذلك أن قولنا هذا خيرٌ من كذا، وأفضل منه يرجع إلى شرفه من ثلاثة أوجه إما إلى فضل موجده، أو إلى جنسه، أو إلى تأثيره، مثال الأول : قولك: أفعال الله أفضل من أفعالنا، ومثال الثاني الملائكة أفضل من الحيوان ومثال الثالث: السيف أفضل من العصا ومثل يقال على ثلاثة معاني لها ثلاثة ألفاظ مماثلة في الجنس، ويقال لها الند مماثلة في الكيفية، ويقال لها الشبه ومماثلة في الكمية، ويقال لها المساواة، وثلاثتها يقال لها مثل، وقد ضمن الله تعالى أنه لا ينسخ آية إلا بخير منها أو مثلها، فالسنة ليست بخير من الآية ولا مثلها في الجنس، إذ جنس القرآن تتعلق به المعجزة وإن أمكن أن يقال: هي مثلها في الوصفين الآخرين، وأما وجه قول مخالفيه، فهو أن الله تعالى وإن ذكر الآية، فإنما أراد حكمها، لأن النسخ لا يكون إلا في الأحكام. فإذا قوله : ﴿بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ ليس إلا في الأحكام، فكأنه قيل: "ما ننسخ من حكم الآية إلا نأت بخير منه أو مثله، فعلى هذا مدار الكلام وتعلق أهل الظاهر بالآية، حيث ذكروا أن الناسخ لابد أن يكون أخف من المنسوخ، وذهبوا في الخفة إلى ما يستخفه النفس بالطبع، وذلك بعيد، فإن الشريعة مبنية على مخالفة النفس وعلى مجانبة مقتضى الطبع، ولهذا قيل هذا إذا عن أمران، فاشتبه وجه الصواب فتخير أثقلهما على النفس، وعلى هذا قوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [٣].

إن قيل: إذا لم يحمل خبر علي التخفيف فليست الثانية خيراً من الأولى في شئ من الأحوال، لأن الأولى في الوقت أصلح وأفضل، والثانية في الوقت أصلح وأفضل، فقد تساويا في عظم المصلحة، وبطل أن يكون الثانية خيراً بأن يكون أثقل وأكثر أعمالاً ليكون أجزل في الأجر وأكثر ثواباً، ومع هذا

---

١ - في (و - ج) كلاماً، وهو تصحيف.

٢ - في (أ- ص) إذ هو على كل قدير.

٣ - سورة البقرة : الآية (٢١٦).

فإن الثانية خير من الأولى في الوقت الثاني، لأن الأولى قد بطل العلم بها، وقوله بخير منها يعني في الوقت وتعلقهم بقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾[١]، وقوله: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ﴾[٢] فبعيد، فإن التخفيف واليسر في الأمور الإلهية في الدنيا والآخرة هما مما تستثقله النفس، أما في الآخرة، فإنه لا وصول إلى ذلك إلا بتحمل المشاق في الدنيا والعمل بالطاعات ومخالفة الهوى، وأما في الدنيا فإن التخفيف واليسر مع حصول العلم والصبر والعفة الواضحة عن الإنسان ثقل الجهل والجزع والخوف والفقر.

قوله - عز وجل :

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾

الآية (١٠٧) - سورة البقرة .

الولي يقال تارة لمن له موالاة نسبية أو خلف، وتارةً لمن له ولاية سلطانية، وإنما ذكر الولي والنصير، وهما متقاربان بالمعنى، لأنه قد ينفك الولي من النصرة بأن يكون ضعيفاً، والنصير من الولاية بأن يكون عن المنصور أجنبياً، وقوله: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ إذا تصور خطاباً للكفار[٣] اقتضى وعيداً أي لاولي[٤] وناصر يحميكم عنه نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّكُم مِّنَّا لا تُنصَرُونَ﴾[٥] إذا تصور خطاباً للمؤمنين اقتضى تسكيناً لهم أي لا تعتدوا بمن[٦] يواليكم وينصركم سواه، كقوله: ﴿ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ﴾[٧] ، وإذا اعتبر بهما فالمعنيان فيهما موجودان أي لا تعتقدوا أن لكم ولياً وناصراً إذا لم يكن الله وليكم تنبيهاً أنه تعالى هو الذي لا يمكن تصور ولي وناصر مع تصور

---

١ - سورة النساء : الآية (٢٨).

٢ - سورة البقرة : الآية (١٨٥).

٣ - في (و - ج) للأمار، وهو خطأ من الناسخ.

٤ - في (و - ج) إلى الأولى، وهو خطأ من الناسخ.

٥ - سورة المؤمنون : الآية (٦٥).

٦ - في (و - ج) لمن.

٧ - سورة الإسراء : الآية (٦٧).

ارتفاعه عز وجل[١]، وإنما خص النبي ﷺ بقوله: (ألم تعلم) وإن كان الخطاب له ولغيره، لذكره العلم ولا أحد من البشر أعلم بذلك منه -عليه السلام-، أو قد وقف من أسرار ملكوت السموات والأرض على مالم يوقف عليه غيره[٢] والقصد بالآية، أنهم لما أنكروا النسخ فعرفهم أنه تعالى ينقل عباده من حكم إلى حكم على ما يرى من مصالحهم، وبين أن ذلك ليس لعجزه، إذ هو قادر على كل شئ، ومالك له، إن قيل: لم كرر: "ألم تعلم"، ولم يعطف الثاني على الأول، قيل إنه لما جعل حكم الثاني كالعلة للأول أخرجه مخرج الأول، فكأنه قيل: "هو على كل شئ قدير"، لأن له ملك السماوات والأرض، وإخراج الكلام على لفظ التقرير لكونه أبلغ في حكم الخطابة، وموضع قوله: (ومالكم) معطوف على موضع **﴿أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾**..

قوله - عز وجل :

﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ الآية (١٠٨)- سورة البقرة .

السبيل والطريق يتقاربان لكن السبيل يقال على اعتبار السبل، كقولهم: طريق مسنون، ومنه أسبلت الإزار، والستر والسبلة المسترسل من الشعر على الشفة العليا والسبيل المطر مادام بين السماوالأرض، والطريق يقال على اعتبار طرقه بالأرجل، والسواء أصله يستعمل في المكان الذي يستوي فيه إليه مسافة الطرفين وفي ذلك معنى القصد والعدل، فصح أن يفسر بالوسط وبالقصد وبالعدل وليست هذه الألفاظ في تفسيره أقوالاً مختلفة كما ظنه بعض المفسرين، وأما "أم"، فقيل هو معطوف على قوله: (ألم تعلم)، وتقديره: ألم تعلموا ذلك أم لم تعلموا فتسئلوا رسولكم، وقيل هو لاستئناف الاستفهام المفسر بهل، **كقول الشاعر:**

كَذَبَتْكَ عَيْنُكَ أَمْ رَأَيْتَ بِوَاسِطٍ؟[٣]

---

١ - في (أ - ص) عز وتعالى.

٢ - في (أ - ص) على مالم يطلع غيره عليه.

٣ - هذا شطر بيت للأخطل وتمامه: كذبتك عينك أم رأيت بواسط غلس الظلام من الرباب خيالا

وهو في خزانة الأدب ج : ٦-ص٩، وديوان الأخطل ص ٣٨٥، وكتاب سيبويه ج: ١-ص٤٨٤، وشرح الأبيات لابن السيرا في ج:٢-ص٦٧، ولسان العرب- مادة - كذب، والمقتضب- ج:٣-ص ٢٩٥، ومعاني القرآن للأخفش ج:١-ص٣١.

وسبب نزول هذه الآية فيما روي أن أهل الكتاب سألوه أن ينزل عليهم كتاباً من السماء، وذلك ما ذكره في قوله - عز وجل ﴿**يَسْئَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ**﴾[1] الآية-، وقيل: هو ما سأله مشركو العرب وهو قولهم له ﴿**وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ**﴾[2] وقيل: سألوه أن يجعل الصفا ذهباً، فقال : **هو لكم كالمائدة لبني إسرائيل، فأبوا، وقيل: سألوه أن يجعل لهم ذات أنواط وهي شجرة تعلق عليها الأسلحة ليقتدوا بالمشركين في اتخاذها فقال عليه السلام: (الله أكبر، سألتم كما سأل بنو إسرائيل موسى، فقالوا: اجعل لنا إلهاً كمالهم آلهة)**[3]، إن قيل: ما فائدة قوله: ﴿**وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ**﴾ ومعلوم أنه بدون الكفر بالإيمان يعلم أنه قد ضل؟ قيل سواء السبيل وفي ذلك تنبيه أن ضلالة سواء السبيل قائدة إلى الكفر بعد الإيمان، ومعناه:﴿ **لا تسألوا رسولكم كما سئل موسى فتضلوا سواء السبيل فيؤدي بكم إلى تبديل الكفر بالإيمان**﴾، فمبدأ ذلك الضلال عن سواءالسبيل، ووجه آخر وهو أنه سمي معاندة الأنبياء عليهم السلام بعد حصول ما تسكن النفس إليه كفراً، إذ هي مؤدية إليه، كتسميةالعصير خمراً، فقال: "ومن يتبدل" أي يطلب تبديل الكفر بالإيمان أي بما حصل له من الدلالة المتقضية لسكون النفس فقد ضل سواءالسبيل، ووجه ثالث، وهو أن ذلك نهاية التبكيت[4] لمن ظهر له الحق فعدل عنه إلى الباطل، وأنه كمن كان على وضح الطريق فتاه فيه، ووجه رابع: وهو أن سواءالسبيل إشارة إلى الفطرة التي فطر الناس عليها، والإيمان إشارة إلى المكتسب من جهة الشرائع، فقال: ﴿**وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ**﴾ أي بالإيمان المكتسب فقد أبطله وضيع الفطرةالتي فطر الناس عليها، فلا يرجى له نزوع عما هو عليه بعد ذلك..

---

١ - سورة النساء : الآية (١٥٣).

٢ - سورة الإسراء: الآية (٩٣).

٣ - شجرة ذات أنواط شجرة عظيمة خضراء كانت العرب في الجاهلية تأتيها كل سنة تعظيماً له، فتعلق عليها أسلحتها وتذبح عندها، وكانت قريبة من مكة، وقيل إنهم حينما كانوا يحجون يعلقون أرديتهم عليها ويدخلون الحرم بغير أردية تعظيماً للبيت، ولذلك سميت ذات أنواط. ويقال للشئ ينوطه نواطاً إذا علقه، ومناسبة ذكرها في الحديث حين مر النبي ﷺ وبعض أصحابه بتلك الشجرة بين مكة وحنين، فقال بعضهم : يارسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال: الله أكبر، قلتم كما قال قوم موسى لموسى: اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة، إنها السنن لتركبن سنن من كان قبلكم. فأنكر النبي ﷺ مجرد مشابهتهم للكفار في اتخاذ شجرة يعكفون عليها معلقين عليها أسلحتهم. السيرة النبوية- ابن هشام- ج:٤-ص٦٤- قدم لها وعلق عليها وضبطها- الأستاذ/ طه عبد الرؤف سعد.

٤ - في (و - ج) التركيب، وهو تحريف.

قوله - عز وجل :

﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

الآية (١٠٩) - سورة البقرة .

الحسد: كراهية نعمة على مستحق لها، وعدت من عظائم الذنوب، إذ هو معاندة الله في إرادته، وهو شر من البخل، فإن الحسد بخل على الغير بنعمة من لا تنفد العطايا نعمه، والعفو ترك العقوبة على المذنب، والصفح ترك ترئته، وقد يعفو الإنسان ولا يصفح، وصفحت عنه: أي أوليته مني صفحة جميلة معرضاً عن ذنبه، أو لقيت صفحته متجافياً عنه، أو تجاوزت الصفحة التي أثبت فيها ذنبه إلى غيرها من قولك: تصفحت الكتاب، وفي الآية تنبيه أن كثيراً من أهل الكتاب يتمنون ارتدادكم بعد إيمانكم حسداً، وقوله: (من عند أنفسهم) أي من عند هواهم[١] كقوله تعالى: **﴿ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾**[٢]، وعبر عن الهوى بالنفس وهي الأمارة بالسوء، وبين أنهم فعلوا ذلك بعد وضوح الحق لهم، ولكنهم بحسدهم وهوائهم لا يتحرونه، ولا يحبون أن يتحراه غيرهم ، ثم أمر بالتجافي عنهم إلى أن يأتى الله بأمره تسكيناً لهم ووعداً بتغييره لقدرته على كل شئ، وروي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- أن هذه الآية منسوخة بقوله: **﴿ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾**[٣]، وقال غيره: هي غير منسوخة، وهذا الخلاف يرجع إلى اختلاف نظيرين، وذاك أن كل أمر ورد مقيداً بانتهاءما معين أو غير معين فورود الأمر بخلافه يصح أن يقال: هو نسخ له من حيث إنه يرفع الأول، ويصح أن يقال: إنه ليس بنسخ، فإن النسخ في الأمر المطلق[٤] .

---

١ - في (أ - ص) هوائهم، وهو خطأ من الناسخ.

٢ - سورة محمد : الآية (١٤).

٣ - سورة التوبة : الآية (٥).

٤ - أورد الدكتور مصطفى زيد ما حكاه ابن الجوزي من دعوى النسخ في هذه الآية حيث قال: "واعلم أن تحقيق الكلام دون التحريف فيه أن يقال: إن هذه الآية ليست بمنسوخة، لأنه لم يأمر بالعفو مطلقاً وإنما أمر به إلى غاية، وبين الغاية بقوله: (حتى يأتي الله بأمره)، وما بعد الغاية يكون حكمه مخالفاً لما قبلها، وما هذا سبيله لا يكون أحدهما ناسخاً للآخر، بل يكون الأول قد انقضت مدته لغايته، والآخر محتاجاً إلى حكم آخر. وقد ذهب إلى ما قلت جماعة من فقهاء المفسرين، وهو الصحيح. وهذا إذا قلنا إن المراد العفو عن قتالهم. وقد قال الحسن: هذا فيما بينكم وبينهم دون ترك حق الله تعالى، حتى يأتي الله بالقيامة. وقال غيره: بالعقوبة، فعلى هذا يكون الأمر بالعفو محكماً لا منسوخاً، النسخ في القرآن الكريم- د/مصطفى زيد-ج:٢-ص٥٩٠-ط، دار الوفاء- المنصورة.

قوله - عز وجل :

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ الآية (١١٠) - سورة البقرة .

هذا معطوف على قوله : ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا﴾[١]، ومعناه: اشتغلوا بالعبادات التي يعود عليكم نفعها نحو: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾[٢] ، وجعل ثواب الفعل نفس الفعل لكونه إياه في التقدير، وبهذا النظر سمي ثواباً وهو الثائب إليه، فلذلك قال : تجدوه، وبين أن كل خيري حصله الإنسان فمدخر له بخلاف عمل الكفار الذي قال فيه: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾[٣]، وبخلاف عمل الدنيا الذي قال فيه: ﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ﴾[٤]، وعلى ذلك قال: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ﴾[٥]، وقال : ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[٦]، وأمنهم من ضياع ما يقدمونه بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ تنبيهاً على نحو قوله: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾[٧].

إن قيل: كيف قال تجدوه، ومن أحبط عمله لا يجده! قيل الخبر المقدم في الحقيقة هو الذي لم يحبط، فأما ما أحبط فقد أخرج من كونه خيراً [وإن كان] [٨] قد يسمى في بعض الأحوال خيراً بنظر من يضعف نظره..

١- سورة البقرة : الآية (١٠٩).

٢ - سورةالبقرة : الآية (٤٥).

٣ - سورة الفرقان : الآية (٢٣).

٤ - سورة النور : الآية (٣٩).

٥ - سورة آل عمران : الآية (٣٠).

٦ - سورة الزلزلة : الآيتان (٧، ٨).

٧ - سورة النجم : الآية (٣١).

٨ - ساقطة من (أ-ص).

قوله - عز وجل :

﴿ وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ الآية (١١١)- سورة البقرة .

البرهان : كل حجة لا يعتريها شبهة بوجه. وهود، قال الفراء: أصله يهود، فحذف ياؤه لكونها زائدة، وقال غيره: هو جمع هايد أي تائب نحو: **﴿ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ﴾**[١]، وكأنه كان في الأصل اسم مدح لمن تاب منه، ثم صار بعد نسخ شريعتهم لازماً لجماعتهم كالعلم لهم وجعل مقالهم ذلك، أماني من حيث أن الأمنية مقال منيعه عن تقدير، فيستعمل تارة في التقدير حقاً كان أو باطلاً على ذلك، حتى بين ما تمنى لك المانى، وتارة في المقال، وقوله: (لن يدخل) كلام "ملفوف" وتقديره: قالت اليهود لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً، وقالت النصارى: لن يدخلها إلا النصارى فأجمل اكتفاء بعلم السامع أن يرد كلاً إلى ما يقتضيه ونحوه في الإجمال قوله - عز وجل- **﴿ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ ﴾**[٢].

ثم [كذبهم][٣] بعجزهم عن إقامة البرهان على ما ادعوه. قوله -عز وجل- **﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾**[٤].

بل: رد لدعواهم وإثبات لضد حكمهم، والإسلام: الدخول في السلم، وقيل للانقياد إسلام، نحو:

كَمَا أَسْلَمَ السِّلْكُ مِنْ نَظْمِهِ لآلِئَ مُنْحَدِرَاتٍ صِغَاراً[٥]

لأن الانقياد للمسالم من مقتضى السلم، وجعل الإسلام في الشرع ضربين، ضرباً قبل الإيمان دونه، وهو الاعتراف باللسان الذي يحقن الدماء حصل معه الاعتقاد الصحيح أو لم يحصل، وإياه

---

١ - سورة الأعراف (١٥٦).

٢ - سورة القصص : الآية (٧٣).

٣ - ساقطة من (و - ج).

٤ - سورةالبقرة : الآية (١١٢).

٥ - بحثت عنه فلم أجده.

عني بقوله- عز وجل:

﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا ﴾[١] وضرباً بعد الإيمان وفوقه، وهو أن يكون مع الاعتراف اعتقاد بالقلب ووفاء بالفعل، وإياه عنى يوسف بقوله: ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾[٢]، وقال: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ ﴾[٣] أي الطاعة هي تسليم لأمر الله- عز وجل، وهذا الإسلام بين مبدأه ومنتهاه بون بعيد، وكان منتهاه على حسب طاقة البشر حال إبراهيم- عليه السلام- حيث ابتلى، فقيل له أسلم، فقال أسلمت لرب العالمين، ثم وفي بما كان منه، وهذا هو الإخلاص المراد من الأولياء، وأصل الوجه العضو المقابل من الإنسان، فاستعير للمقابل من كل شئ حتى قيل: واجهته ووجهته، وقيل للقصد وجه، وللمقصد وجهة، وعلى ذلك ﴿ أَسْلَمَ وَجْهَهُ ﴾[٤]، ﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ ﴾[٥]، و﴿ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ ﴾[٦] وعلى ذلك قوله: ﴿ وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا ﴾[٧].

ولما جعل ذلك للقصد أضيف تارة إلى القاصد كما تقدم، وتارة إلى المقصود، كقولك: "أردت بكذا وجه الله"، وقد حمل على ذلك ﴿ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ﴾[٨]، ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ ﴾[٩]، وقيل: الوجه في هذه المواضع اسم العضو مستعاراً للذات، فقوله: أسلم وجهه أي نفسه، والإحسان قيل هو الإتيان بعد فرض العبادة بالنفل، وبعد إقامة العدل[١٠] بالفضل، ولما كذبهم الله- عز وجل فيما ادعوه

---

١ - سورة الحجرات : الآية (١٤).

٢ - سورة يوسف : الآية (١٠١).

٣ - سورة آل عمران : الآية (١٩).

٤ - سورة البقرة : الآية (١١٢).

٥ - سورة لقمان : الآية (٢٢).

٦ - سورة آل عمران : الآية (٢٠).

٧ - سورة الأنعام : الآية (٧٩).

٨ - سورة الرحمن : الآية (٢٧).

٩ - سورة القصص : الآية (٨٨).

١٠-في (أ - ص) العدالة.

من دخول الجنة بين أن من أسلم نفسه له على حد ما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم﴾[١]، وكان قصده إياه فيما يتحراه وهو ملتزم مع فرائضه نوافل حصل له ما ادعوه وزيادة فإن له أجره وهو الجنة، ومع ذلك فلا خوف عليه في الدنيا ولا في الآخرة، أما في الدنيا فبأن يجعل له يقيناً وصبراً وقناعة تكفيه الخوف على شئ يفوته والجزع لشئ قد فاته، وأما في الآخرة فبأن يكفيه شدائد "يوم لا يغني مولى عن مولى شيئاً"[٢].

إن قيل: كيف قال (فلا خوف عليهم) وقد مدح المؤمنين على خوفهم بقوله: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [٣] قيل: إن الذي نفي عنهم هو ما تقدم آنفاً، والذي مدحهم[٤] به هو توفية حق العبادة، فإن مخافة الله إقامة عباداته وارتسام مرسوماته، ولذلك قيل: من لم تخف نفسه الدنيا فلا يعذبه [خائفاً][٥] وقيل: معنى ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي : من آمن وعمل صالحاً، وما تقدم منطوٍ على هذا..

---

١ - سورة التوبة : الآية (١١١).

٢ - اقتباس من الآية: (٤١) سورة الدخان.

٣ - سورة الإسراء : الآية (٥٧).

٤ - في (أ - ص) منعهم، وهو خطأ من الناسخ.

٥ - ساقطة من (أ - ص).

قوله - عز وجل :

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾

الآية (١١٣)- سورة البقرة .

الكتاب يتناول كل كتاب منزل، والفرقان يقال في التوراة وفي القرآن، والقرآن يختص بالمنزل على محمد ﷺ ، **وروي أنه لما قدم نصارى نجران على رسول الله ﷺ أتتهم أحبار يهود فتنازعوا عنده، وقال كلا الفريقين للآخر: لستم على شئ، فأنزل الله -عز وجل- هذه الآية**[١].. إن قيل: كيف عرض تعالى بتكذيبهم فيما ادعوه وقد صدق الفريقان على قول المسلمين؟ قيل: ليس قول أحد الفريقين بسديد من وجه، إذ قد بتوا الحكم وليس ذلك على البت والقطع، فلكا الفريقين في وقت وعلى وجه على حق، على أن القصد بالآية الدلالة على جهلهم وتخبطهم مع تشاركهم في قراءة التوراة دالـــة[٢] على ما اختلفوا فيه، فبين أن كلا الفريقين حائد عن الطريق، وأنهم في الجهل أو التجاهل كالمشركين الذين لاكتاب لهم في دعواهم على أهل الكتابين والمسلمين أنهم ليسوا على شئ، ثم توعد الفريقين بحكمه بينهم [يوم القيامة][٣] وقد أبهم حكمه فيدخل فيه كل قول قالوه من قول من قال: عني إنصاف المظلوم من الظالم، وقول من قال: عني تعريف المكذِّب من المكذَّب، وقول من قال: مثل قوله **﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾**[٤].

---

١ - الحديث أورده القرطبي في تفسيره ج:١-ص-٥٧٠- كما رواه ابن كثير في تفسيره من طريق عكرمة وسعيد بن جبير عن ابن عباس قال: لما قدم أهل نجران من النصارى على رسول الله ﷺ- أتتهم أحبار يهود، فتنازعوا عند رسول الله ﷺ فقال رافع بن حرملة: ما أنتم على شيئ- وكفر بعيسى وبالإنجيل، وقال رجل من أهل نجران من النصارى- ما أنتم على شيئ وجحد نبوة موسى وكفر بالتوارة. فأنزل الله الآية. تفسير القرآن العظيم ج:١ - ص ١٥٥.

٢ - في (أ- ص) الدالة.

٣ - ساقطة من (أ - ص).

٤ - سورة التوبة : الآية (٤٩)، سورة العنكبوت : الآية (٥٤).

قوله - عز وجل :

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾الآية (١١٤)- سورة البقرة .

المنع: أن يحال بين من المراد ومريده[١]، ولما كان الشئ قد يُمنع ضناً[٢] به صار المنع[٣] متعارفا في المتنافس فيه، والسعي مشي[٤] بسرعةٍ وهو دون العدو، وخص بأنواع من السعي منها: السعاية، أي الوشاية،وسعي العبد في اكتساب ما يعتق به والتصرف[٥]، للتكسب، ولجباية الصدقة حتى صار الساعي معروفاً في جابي الصدقة، وجعل المساعاة كناية عن الفجور بالأمة والخراب ضد العمارة،وجعل الخربة لسعة خرق الأذن تشبيهاً بالخراب، وشبه عروة المزادة بها، فقيل خربة، والخارب: السارق لتخريبه، أو لكونه سكاناً في خراب متوحشاً عن الناس، فيكون بناؤه كبادٍ وحاضر، وقيل: هو مخصوص بسارق الإبل خاصة، والأولى بالمساجد أن تكون عامة في كل مكان مرشح للصلاة، فقد قال عليه السلام: «**جُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِداً وَطَهُوراً**»[٦]، وعظم تعالى ظلم من سعي في المنع من ذكر الله وتخريب الأمكنة المختصة بأهل الشرائع المحقة مسجداً كان أو غير مسجد، وليس التخريب الهدم فقط، بل تعطيله عن عباده الله -عز وجل-.

وقول ابن عباس ومجاهد: إنه عني به الروم إذ خربوا بيت المقدس، وقول غيره إنه عني "بخت نصر" لما خربه، وقول من قال : إنما عني به المشركين إذ صدوا النبي عليه السلام عن المسجد الحرام،

---

١ - في (أ - ص) أن يحال من المريد ومراده.

٢ - في (و - ج) ضمناً، وهو تصحيف.

٣ - في (أ - ص) المنيع.

٤ - في (أ - ص) شيئ، وهو خطأ من الناسخ.

٥ - في (أ - ص) وللتصرف للتكسب.

٦ - الحديث رواه أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ :«نصرت بالرعب، وأوتيت جوامع الكلم- وجُعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً»، وبين أنا نائم "أتيت بمفاتيح خزائن الأض- فتُلّت في يديَّ. أخرجه البخاري في كتاب الاعتصام -ج:١٣-ص ٢٠٩، وأورده البغوي في شرح السنة ج:١٣-ص١٩٨ وأورده البيهقي في سننه ج: ٢-ص٤٣٣، ص٤٣٤، وأورده الطبراني في الجامع ج: ١١-ص٦١، ص٧٣، ج:١٢-ص٤١٣، وأورده ابن حجر العسقلاني في فتح الباري ج:١-ص٤٣٦، ص ٤٣٧، وأورده الراغب في مفردات ألفاظ القرآن ص٣٩٧.

وكل ذلك أمثلة منهم لحكمه وسبب النزول هذه الآية لا أنه لم يرد بها غير ذلك، يبين ذلك أنه قال: مساجد بلفظ الجمع، وقوله: ﴿ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَائِفِينَ ﴾ لفظه خبر، ومعناه منطو عليه وعلى الأمر، فإن بيوت الله -عز وجل ممنوعة عن الكفار في دار الإسلام إلا بإذن، ويكونون خائفين، والحكم أن لا يمكنوا إلا بشرط حاجة تقتضي ذلك، ثم ثبت[1] لهم الخزي في الدنيا، وذلك تارة بالهوان الذي يجري عليهم، وتارة بأخذ الجزية منهم، وقتلهم، والسبي، منهم، ومنعهم عن كثير مما يباح للمسلم، وإليه نظر قتادة وجماعة وقسروا به، وتارة بالهوان الذي يلحقهم في أنفسهم من جنبهم[2] وجزعهم وخوفهم وسائر الآفات النفسية وتارة من حيائهم من عقلهم لاضطراب نفوسهم وقلوبهم وقلة سكونهم لما اختاروه، وإلى ذلك أشار تعالى بقوله : ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ ﴾[3]

قوله - عز وجل :

﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾

الآية (١١٥)- سورة البقرة .

المشرق والمغرب تارة يقالان بلفظ الواحد إما إشارة إلى ناحية الأرض، وإما إلى المطلع والمغيب وتارة بلفظ التثنية إشارة إلى مشرقي ومغربي الشتاء والصيف، وتارة بلفظ الجمع اعتباراً باختلاف المغارب والمطالع كل يوم، وشرقت الشمس: طلعت، وأشرقت: أضاءت وذلك إذا كثر شروقها، وشرقت اللحم: ألقيته على الشمس المشرق، والمشرق المصلى لأنه يقام فيه صلاة [العيد][4] عند شروقها، وشرق الثوب بالصبغ تشبيهاً بلون الشرقة، والغروب للشمس تصور منه بعد ذهابها[5] عن العمارة، فيقال لكل تباعد غروب، ومنه الغراب لكونه مبعداً في الذهاب، وغارب السنام لبعده عن المنال، وغرب السيف أبعد جزءمن صحيفته، ثم تصور منه حدته، فقيل لسان غرب وسمي الدلو غرباً

---

١ - في (أ - ص) أثبت.

٢ - في (و - ج) من جيبهم، وهو تصحيف.

٣ - سورة الحج: الآية (٣١).

٤ - ساقطه من (و - ج).

٥ - في (و - ج) بعددها، وهو خطأ من الناسخ.

لتصور بعدها في البئر، ثم سمي الماء به كتسميتهم إياها بالذنوب لكونه فيها، والغرب[١] للذهب لكونه غريباً فيما بين الجواهر، والغرب[٢] لبعده عن المثمرات من الأشجار، والآية توكيد لما تقدم أنه عني بالمساجد حيث ما صلى فكأنه قيل: لا عتبروا الأمكنة، فلله - عز وجل- ملك الدنيا، وحيث ما توجهتم فهو موجود يمكنكم الوصول إليه، إذ ليس هو جوهراً ولا عرضاً، فيكون بكونه في جانب مفرغاً جانباً ونبه بقوله: "واسع" على إحاطته بالأشياء، "وبالعليم" أنه لا يخفى عليه خافية، وقد حمل أكثر المفسرين الآية على أنها واردة في القبلة، فمنهم من قال ذلك توطئة لجواز نقلها وتقرير في نفوسهم أن ليس المعبود [سبحانه][٣] في حيز دون حيز، وقيل إن ذلك في زمان كان يجوز الصلاة فيه إلى كل جهة حتى أمروا بقوله: ﴿ **فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ** ﴾[٤] وهو قول قتادة وابن زيد،وذلك بعيدة لأن القبلة كانت مخصوصة وعلى ذلك قوله ﴿ **وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا** ﴾[٥] وقيل إن ذلك في النافلة وجوازها حيث ما توجهت بنا الراحلة، وإليه ذهب ابن عمر،وقيل إن قوماً صلوا في ظلمة خفيت عليهم جهة القبلة، فلما أصبحوا كانوا قد صلوا إلى غير القبلة، فأنزل الله -عز وجل- ذلك، وإليه ذهب ابن عباس وجماعة، وقد تقدم معنى وجه الله .

---

١ - في (و - ج) القرب،وهو تصحيف.

٢ - في (و - ج) والقرب وهو تصحيف.

٣ - ساقطة من (أ - ص).

٤ - سورة البقرة الآيتان (١٤٩)، (١٥٠).

٥ - سورة البقرة الآية : (١٤٣).

قوله عز وجل :
﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴾

الآية (١١٦)- سورة البقرة .

القنوت: لزوم الطاعة مع الخضوع، ولما كان لهما فسر بكل واحد منهما، فقيل في قوله: **﴿ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾**[١] أي خاضعين، وقيل طائعين، ولما كان من تمام القنوت القيام والسكون مالم يكن أمر بخلافه واستعمل فيهما، فقيل في قول النبي ﷺ **لما قيل له: أي الصلاة أفضل؟ قال: طول القنوت»**[٢] أي القيام، ولما ادعى النصارى في المسيح واليهود في عزير أنهما أبناءالله، ومشركوا العرب في الملائكة أنهم بنات الله تقدس الله تعالى عن ذلك، نبه على أقوى حجة على نفي ذلك وبيانها[٣] هو أن لكل موجود في العالم مخلوقاً طبيعياً أو معمولاً صناعياً عرضاً وكمالاً أوجد لأجله، وإن كان قد يصلح لغيره على سبيل العرض كاليد للبطش، والرجل للمشي، والسكين لقطع مخصوص، والمنشار للنشر وإن كان اليد قد يصلح للمشي في حال، والرجل للتناول، لكن ليس على التمام، والغرض في الولد للإنسان إنما هو لأن يبقى به نوعه،وجزء منه لما لم يجعل الله له سبيلاً إلى بقائه بشخصه، فجعل له بذراً[٤] لحفظ نوعه،ويقوي ذلك أنه لم يجعل الشمس والقمر وسائر الأجرام السماوية بذراً، واستخلافاً لمالم يجعل لها فناءالنبات والحيوان، ولما كان الله تعالى هو الباقي الدائم بلا ابتداء ولا انتهاء، لم يكن لاتخاذه الولد لنفسه معنى، ولهذا قال سبحانه أن يكون له ولد، أي هو منزه عن السبب المقتضي للولد، ثم لما كان اقتناء الولد لفقر ما، وذلك لماتقدم أن الإنسان افتقر إلى نسل يخلفه لكونه غير كامل في نفسه، بين تعالى بقوله **﴿ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾** أنه لا يتوهم له فقر فيه فيحتاج إلى اتخاذ

---

١ - سورة البقرة : الآية (٢٣٨).

٢ - الحديث مروي عن جابر بن عبد الله قال: قيل للنبي ﷺ: أي الصلاة أفضل؟ - قال: «طول القنوت»،والحديث أخرجه مسلم في صحيحه برقم «٥٣٧». وأخرجه الترمذي في سننه. كما جاء في عارضة الأحوذي ج:٢-ص ١٧٨، وأورده الراغب في مفردات ألفاظ القرآن ص٦٨٥.

٣ - في (و - ج) وثباتها.

٤- في (و - ج) هذا، وما في (أ - ص) هو الأصح.

ماهو سد لفقره، فصار فى قوله: ﴿لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ دلالة ثانية، ثم زاد حجة بقوله: (قانتون) وهو أنه لما كان الولد يعتقد فيه خدمة الأب ومظاهرته كما قال: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾[١]، بين أن كل ما في السماوات والأرض مع كونه ملكاً له فأنت له أيضاً إما طائعاً، وإما كارهاً، وإما مسحراً، كقوله: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾[٢]، وقوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾[٣]، وهذا أبلغ حجة لمن هو على المحجة..

إن قيل: من أين وقع لهم الشبهة في نسبة الولد إلي الله تعالى؟ قيل: قد ذكر أن في الشرائع المتقدمة كانوا يطلقون على الباري تعالى إسم **"الأب"**، وعلى الكبير منهم اسم الإله- حتى إنهم قالوا: **إن الأب هو الرب الأصغر، وإن الله هو الأب الأكبر"**، وكانوا يريدون بذلك أنه تعالى هو السبب الأول في وجود الإنسان، وأن الأب هو السبب الأخير في وجوده، وأن الأب هو معبود الابن من وجه، أي مخدومه، وكانوا يقولون للملائكة آلهة كما قالت العرب للشمس إلهة، وكانوا يقصدون معنى صحيحاً كما يقصد علماؤنا بقولهم: **"الله محب ومحبوب، ومريد ومراد**، ونحو ذلك من الألفاظ، وكما يقال للسلطان الملك وقول الناس **"رب الأرباب"، إله الآلهة"، "ملك الملوك"**، ومما يكشف عن تقدم ذلك التعارف ويقوي ذلك ما يروى أن يعقوب كان يقال له **"مكر الله"**، وأن عيسى كان يقول: **"أنا ذاهب إلى أبي"**، ونحو ذلك من الألفاظ، ثم تصور الجهلة منهم بأخرة معنى الولادة الطبيعية، فصار ذلك منهياً عن التفوه به في شرعنا تنزهاً عن هذا الاعتقاد، حتى صار إطلاقه وإن قصد به ما قصده هؤلاء قرين الكفر،وقد استدل بعض الفقهاء بهذه الآية على أن الملك لا يقارن الولادة، وأن من ملك والده أو مولوده عتق عليه، لأنه تعالى نفي عن نفسه الولد بإثبات الملك له وهذا بعيد عما قصد في الآية بالمقال وإن كان فيه مجال للجدال..

---

١ - سورة النحل : الآية (٧٢).

٢ - سورة الرعد : الآية (١٥).

٣ - سورةالإسراء :الآية (٤٤).

٤ - في (و - ج) إلى ربي.

قوله - عز وجل :

﴿ بَدِيعُ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾

الآيه (١١٧) - سورة البقرة .

البديع: يقال للمُبْدِع والمبدَع جميعاً، والإبداع إيجاد فعل ابتداءً لا احتذاء، ولهذا قيل: فلان بدع في كذا، وجعل البدعة اسماً لكل مخترع لم يؤثر عن أرباب الشرع. والقضاء:إتمام الشئ قولاً أو فعلاً، فمن القول قوله تعالى: **﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾**[1]،**﴿ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ ﴾** [2]، ومن الفعل قوله :**﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ ﴾**[3] وقضى فلان دينه، وقضى نحبه،وانقضى الأمر، وتقضى بلغ آخره، وذكره تعالى هذه الآية حجة رابعة شرحها أن الأب هو عنصر للابن، منه تكون، والله مبدع الأشياء كلها، فلا يكون عنصراً للولد، فمن المحال أن يكون المنفعل فاعلاً، وخص لفظ الإبداع لكونه أبلغ لفظاً وأبعده عن الاحتمال، وذلك أن أفعال الله تعالى على ثلاثة أوجه: إبداع وهو "اختراع" الشئ لا عن شئ ولا في زمان، ويستعمل ذلك في إيجاده تعالى المبادئ، و"صنع" وهو تركيب صورة مع العنصر، وتستعمل في إيجاده الأجسام، و"تسخير" وهو سوق الشئ إلى غرضه المقصود منه طوعاً أو قهراً، ويستعمل في القوى التي أوجدها في السحاب والأمطار والأغذية والأدوية، وكل هذه الثلاثة يقال له الخلق، وأقدمها الإبداع، ونبه بقوله: **﴿ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا ﴾** على حجة خامسة،وهو أن الولد يكون بنشر وتركيب حالاً بعد حال، وهو إذا أراد شيئاً فقد فعل بلا مهلة ولم يرد "بإذا" حقيقةالزمان، إذ كان ذلك إشارةً إلى ما قبل[4] وجود الزمان، ولم يرد أيضاً "بكن" حقيقة اللفظ ولا بالفاء التعقيب الزماني، بل استعير كل ذلك ،لأنه أقرب ما يتراءى لنا به سرعة[5] الفعل وتمامه، وذكر لفظ "القضاء"، إذ هو لإتمام الفعل،والآخر لكونه منطوياً على اللفظ والفعل

---

١ - سورةالإسراء: الآية (٢٣).

٢ - سورة الإسراء : الآية (٤).

٣ - سورة فصلت : الآية (١٢).

٤ - في (و - ج) ما قيل وهو تصحيف.

٥ - في (و - ج) شرعة وهو تصحيف.

والقول، إذ هو أخف موجدٍ منا وأسرعه إيجاداً، ولفظ: "كن" لعموم معناه،واختصار [لفظه][1]، ثم قال: "فيكون"، تنبيهاً أنه لا يمتنع عليه شئ يريد إيجاده، وكن فيكون، وإن كان مخرجها مخرج شيئين أحدهما مبني على الآخر، فهو في الحقيقة شئ واحد ونحوه قولنا: فلان إذا أراد شيئاً فقد كان ماأراد، واختلف في تفسير هذه الآية من حيث إن "كن" لفظ أمر، والأمر لا يكون إلا لموجود، فبعض قال: "لفظ الشئ مخصوص" ههنا للموجودين الذين قال لهم: (كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ) وبعض قال: (هو خطاب لمن يجيبهم من الموتى)، وبعض قال: هو أمر للشئ في حال تكونه لا قبله ولا بعده"، وبعض قال: هو أمر لمعلوم له، وذلك في حكم الموجود وإن كان معدوم الذات، وبعض قال: "هو أمر للمعدوم"، قال: ويصح أمراً لمعدوم، كما يصح أمراً لموجود، وبعض قال: "إنه جعل "كن" دلالة للملائكة على ما يتقضيه من الأفعال"، وأكثر هذه الأقوال يتبين وهنه بتصور ما تقدم..

قوله - عز وجل :
﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ لَوْلا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ الآية (١١٨)- سورة البقرة .

اليقين أبلغ علم وأوكده، وهو أن يكون عالماً بالشئ، وعالماً بأنك تعلمه غير شاك ولا متهيئ للشك، ولذلك قيل: هو المعلوم الذي زالت عنه المعارضة على مرور الأوقات، وإنما لم يوصف الباري تعالى به من حيث أنه لا يستعمل إلا في العلم المكتسب، ولهذا قال تعالى في صفة إبراهيم- عليه السلام **﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾**[2]، ويعني بالذين لا يعلمون الكافرين على عهد رسول الله ﷺ وقول ابن عباس: "هم اليهود"، وقول مجاهد: "النصارى"، وقول الحسن وقتادة: "هم مشركو العرب كله محتمل، ويصح أن يكونوا جميعاً مرادين، فقد قال الله: **﴿ يَسْئَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَلِكَ ﴾**[3] ومشركو

---

١ - ساقطة من (و - ج).
٢ - سورة الأنعام : الآية (٧٥).
٣ - سورة النساء : الآية (١٥٣).

العـرب قالـوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا﴾ [١]، وعني بالذين قبلهم من سبق من كافري الأمم، فقد قال أصحاب موسى: ﴿أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾[٢]، وأصحاب عيسى قالوا: ﴿أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾[٣]، ثم بين أنهم متشابهون في العمي والجهالة، لاقتراحهم على رسلهم كقوله: ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾[٤]. إن قيل : إنهم وإن أخطأوا في قولهم: (لولا يكلمنا الله) فإنهم لم يخطئوا في سؤال الآية، إذ لا يلزم الإنسان أن يؤمن إلا لمن يأتي بآية تدل على صدقه، قيل: إنما أنكر عليهم جحودهم الآيات التي آتاهم، ولذلك قال (قد بينا الآيات) كما قال: ﴿قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ﴾ كما قال: ﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾[٥]، وقوله: ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ فيه معنيان: أحدهما أنهم يطلبون اليقين وليس بهم المعاندة، والثاني: أن من حصل له اليقين بالحق المحض وليس يعتريه شبهة فله في القرآن لا آية بل آيات، كما قال: (هو للذين آمنوا هدى وشفاء)، وقرأ بعضهم: (تشابهت)[٦] بتشديد الشين، كأنه نظر إلى قوله: (تشابه)، فحمل عليه، وذلك خطأ، لأن تشابه أصله تتشابه، فأدغم، وليس في تشابهت ذلك، ومن قال: هلا[٧] أجابهم إلى سؤالهم في أثناءالآية؟: فسؤال جاهل بحكمة الله تعالى، فباقتراح جاهل، وتشهيه لا يجوز للحكيم أن يفعل ما ينافي مقتضى الحكمة، وقد أزاح العلة بغير سؤالهم وإلى ذلك أشار بقوله: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾[٨] .

١- سورة الأسراء : الآية (٩٠).

٢ - سورة النساء:الآية (١٥٣).

٣ - سورة المائدة : الآية (١١٤).

٤ - سورة الذاريات :الآية (٥٣).

٥ - سورة العنكبوت: الآيتان (٥٠، ٥١).

٦ - هي قراءة شاذة قرأ بها كل من ابن أبي إسحق، وأبي حيوة معجم القراءات القرآنية -ج:١-ص١٠٧.

٧ - في (و- ج) هذا.

٨ - سورة المؤمنون: الآية (٧١).

قوله - عز وجل :

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلاَ تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴾ الآية (١١٩)- سورة البقرة.

الجحيم المناحج من النار يقال نحجت النار، وشبه حمرة عين الأسد به، فقيل لها جحمة. وجاحم الحرب تشبيهاً، فبين تعالى أن عليك البشارة والإنذار، ولا يلزمك عقابهم تسلية له، كقوله :

﴿ فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ﴾[1] وقوله **﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ ﴾**[2]، وقوله : **﴿ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ ﴾**[3].

وقوله: **﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾**،[4] وقوله: (لا تُسْئَلُ) حال معطوف على قوله (بشيرا ونذيراً)، وقرأ نافع (ولا تُسئلْ)[5] بالجزم، فقيل ذلك تفخيماً لشأنهم، وقيل : نهى عن تتبع ما أغناه الله عنه من أخبار مَنْ مضى، وقد رُوي أنه عليه السلام كان يستغفر لأبيه، فنهاه الله تعالى عن ذلك، لقوله: **﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُوْلِي قُرْبَىٰ ﴾**[6]..

قوله - عز وجل :

﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ ﴾ الآية (١٢٠) - سورة البقرة.

الملة: من أَمْلَلْتُ الكِتَابَ، وهي اسمٌ لما شرعه الله تعالى لعباده على لسان أنبيائه ليتوصلوا به إلى آجِلِ ثوابِهِ، والدين ملة ، لكن المِلَّةَ تُقالُ باعتبار دعاء الله وإنزال كتبه والدين باعتبار طاعة العبادِ لهُ بإجابة دعائه والانقياد لأمره، والشئ الواحد قد يسمى باسمين على اعتبارين، ثم تُقَالُ المِلَّةُ والدين لما

---

١ - سورة فاطر : الآية (٨).

٢ - سورة البقرة : الآية (٢٧٢).

٣ - سورة المائدة : الآية (٩٩).

٤ - سورة الرعد الآية (٤٠).

٥ - قرأ نافع بضم التاء وتسكين اللام.. معجم القراءات القرآنية - ج: ١-ص١٠٧.

٦ - سورة التوبة : الآية (١١٣).

لم يكن من قبلَ الله على التقييد، كقولك: "مِلَّةُ مَزْدَك وغيرِه"، والهوى: رأيٌ عن شهوة داعٍ إلى الضلال، وسُمِّيَ بذلك لأنه يَهْوِي بصاحبه في الدنيا إلى كل دَاهِيَةٍ، وَفِي الآخِرَةِ إلى الْهَاوِيَةِ، ولهذا سميت النارُ هَاوِيَةً، ولشدة سلطانه وصَفَهُ الله بأنهُ إِلَهُ الْكُفَّارِ، فقال: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾[1]، ومعنى الآية أنَّ مَنْ خَالَفُوكَ لا يَرْضَوْنَ عنك إلاَّ بمُتَابَعَةِ مِلَّتِهِمْ تنبيهاً أنه لا يُرضيهم إلا ما لا يجوزُ وقوعُهُ منكَ، ثُمَّ بَيَّنَ أنَّ اتِّبَاعَهُمْ ليسَ بهُدَى، وأن الهدى هو هُدَى الله، أي إرشادُهُ، كقوله ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي﴾[2]، ثم حذره فقال: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم﴾، وذلك تحذيرٌ له ولأمته، ولكن خُصَّ بالذكر، لأن أنبياءَ الله، بل أولياءَهُ بأدنى ميلٍ إلى ضالٍ يَكُونُونَ في حُكْمِ تَابِعِيْ هواهم.

وربما بعد ذلك في جرائمهم الكبيرة ويؤاخذون بما لا يؤخذ غيرهم به، وذلك معلوم في التعارف، فإن من حصل له زلفة متناهية من السلطان لا يتجافى عما يقع منه من أدنى مخالفة كالتجافي عن الأجانب، ولهذا قيل: (كبائر الأولياء صغائر العوام)، وقيل: (فاحشة الأولياء التواني في تعهد الأنفاس، وفاحشة العوام فيما فيه المحدود) وإنما قال: أهواءهم بلفظ الجمع تنبيهاً على أن لكلٍ هوى غير هوى الآخر، ثم هوى كل واحد منهم لا يتناهى، ونحو ذلك قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[3]، وقوله: ﴿قُل لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾[4]، وقوله للمؤمنين: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ﴾[5]، وقال: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾[6]، وذلك تحذير من الهوى جملة، وقد تعلق بهذه الآية من يجعل الكفر كله ملة واحدة، لأنه جمع بين اليهود والنصارى، وسمي طريقتهما ملة واحدة..،

---

١ - سورة الجاثية : الآية (٢٣).

٢ - سورة الأعراف : الآية (١٧٨).

٣ - سورة الجاثية : الآية (١٨).

٤ - سورة الأنعام : الآية (٥٦).

٥ - سورة المائدة : الآية (٧٧).

٦ - سورة ص : الآية (٢٦).

قوله - عز وجل :

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾

الآية (١٢١) - سورة البقرة.

قد تقدم الكلام في التلاوة، وأنها تكون بالقراءة تارة، وبتتبع المعنى تارة، وباستعمال مقتضاه تارة، وهو المعنى بقوله: (حق تلاوته)، وعليه دل قول ابن عباس وابن مسعود يتبعونه حق اتباعه، وقول مجاهد: "يعملون به حق [1]عمله"، وقول عمر :"حق تلاوته": إذا ذكر الجنة سأل الله الجنة، وإذا ذكر النار تعوذ منها"، وذلك عام في كتاب الله تعالى وفي أربابها، فقول قتادة: هم أصحاب النبي ﷺ وقول ابن زيد: إنهم اليهود والنصارى، وقول غيرهما: هم الذين أسلموا من مشركي العرب كلها داخلٌ فيه، وعموم اللفظ يقتضيه،وقوله "الذين" مبتدأ، و"يتلونه" حال لهم، و"أولئك" خبره، والمعنى: هم الذين يحصل لهم الإيمان به دون الذين ينكرونه، وليس لهم إلا الخسران المبين، ونحو ذلك قوله تعالى: **﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إَلاَّ خَسَارًا﴾**[2]، وهذه الآية كالتحقيق لما تقدم من قوله: **﴿وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ لَوْلاَ يُكَلِّمُنَا اللّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾**[3].

---

١ - في (و-ج) "يعلمون به حق علمه".

٢ - سورة الإسراء : الآية (٨٢).

٣ - سورة البقرة : الآية (١١٨).

قوله - عز وجل :

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ الآيتان (١٢٢ ، ١٢٣) - سورة البقرة.

قد تقدم الكلام في مضمون الآيتين، ويسأل[١] عن فائدة تكريرها، وأنه قال في هذه الآية: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ﴾[٢] وفي الآية المتقدمة قال: **﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾**[٣]، والجواب :أما التكرير فعلى سبيل الإنذار، فالواعظ إذا وُعظ لأمرٍ ما قد يكرر الذي يعظ لأجله تعظيماً لأمره، وأما تغيير النظم، فلما كان قبول العدل وأخذه وقبول الشفاعة ونفعها متلازمة، لم يكن بين اتفاق هذه العبارات واختلافها فرقٌ في المعنى..

قوله - عز وجل :

﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ الآية (١٢٤) - سورة البقرة.

الابتلاء[٤] كالاختبار، لكن الابتلاء طلب إظهار الفعل، والاختبار طلب الخبر، وهما متلازمان، والتام والكامل والوافي والوافر متقاربة، لكن التام يقال للمعدود والممسوح[٥] جميعاً، نحو عدد تام، وليل تام، ورجل تام الخلقة، والكمال أكثر ما يقال في الممسوح والمشبه به، وقوله: **﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾**[٦]، فالمراد كمال الحكم لإكمال العدد، كما قدره بعض الملاحدة، فاعترض عليه بالإزراء،

---

١ - في (أ-ص) ويسئل.

٢ - سورة البقرة - الآية : (١٢٣).

٣ - سورة البقرة : الآية (٤٨).

٤ - في (أ - ص) الابتلاء الاختبار.

٥ - في (أ - ص) للمعد والمسوح.

٦ - سورة البقرة : الآية (١٩٦).

والوافي ما أشرف على الشئ، ومنه وفاء العهد، وأوفى على كذا، أي أشرف عليه، والوافر: مالم ينقص منه شئ، ومنه الوفر، وسقاء أوفر لم ينقص من أديمه شئ، والذرية: الأولاد الصغار والكبار، وقيل هي للصغار، وقيل أصله من الذر، وقال الفراء: أصله من ذريت وذروت، وقال أبو عبيدة: أصله الهمز من ذرأ الله الخلق، فترك همزة على غير قياس، والإمام في الأصل: المؤتم به محقاً كان أو مبطلاً، ومنه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾[١]، وقوله: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾[٢]، وفي إطلاق الشرع اسم للمقتدي به، المقتدي بالشرع، وهو أعم من النبي والخليفة إذ كل نبي وخليفة: إمام، وليس كل إمام ونبي خليفة، والكلمات قد تقع على الألفاظ المنظومة وعلى المعاني التي تحتها، فقوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾[٣] أي: قضيته وحكمه[٤]، وقال: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي﴾[٥] أي : المعاني التي تبرز بالكلمات ولم يرد اللفظ، فإن ما يحصره اللفظ يحصره الخط، والكلمات التي ابتلى بها مبهمة محتملة، وذكر المفسرون لها وجوهاً يصح أن تكون كلها مراداً، فقيل: هي عشر سنن، همسٌ في الرأس المضمضة، والاستنشاق، والفرق، وقص الشارب، والسواك، وخمسٌ في الجسد تقليم الأظافر، ونتف الأبط، والختان، وحلق العانة، والاستنجاء، وقيل: هي خصال محمودة ذكر بعضها في سورة/ التوبة، وبعضها في سورة / المؤمنون،وبعضها في سورة/ سأل سائل، وقد تقدم ذكرها في قوله: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾[٦]، وقيل: هي مناسك الحج المذكورة في قوله: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾[٧]، الآية، وكل ذلك عن ابن عباس، وقيل: هو ابتلاؤه بالكوكب وبالقمر والشمس، وقيل: امتحانه بإنفاق ماله، وهجر أوطانه، وذبح ولده، وإلقائه في النار فلما لم يؤثر على اختبار الله في شئ من ذلك قال فيه: (فأتمهن)

١- سورة الإسراء : الآية (٧١).
٢ - سورة القصص : الآية (٤١).
٣ - سورة الأنعام : الآية (١١٥).
٤ - في (أ - ص) أي قضية وحكمة.
٥ - سورة الكهف : الآية (١٠٩).
٦ - سورة البقرة : الآية (٣٧).
٧ - سورة الحج : الآية (٢٦).

وإتمامه: هو الوفاء بها المذكور في قوله: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ﴾[١]، وسماه حنيفاً مسلماً، وقال: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾، وجعل إمامته للناس كافة على التأبيد، فإنه لم يُبعث بعده نبي إلا من ذريته، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾[٢]، وقال: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾[٣] حتى قال للنبي (محمد)[٤] عليه السلام: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾[٥]، وقال: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾[٦]، وأمر – عليه السلام- بذكر إبراهيم في الصلاة، فقال: "اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم"، ولم يرد بالإمامة ههنا النبوة كما ظنه بعض المفسرين، فإنه– عليه السلام- إمام للناس على العموم في كل زمان على الإطلاق وليس بنبي لهم على [العموم][٧]بالإطلاق، ولما قيل له ذلك قال: (ومن ذريتي)، فأجيب إلى[٨] ملتمسه بقوله: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ لكنه تعالى بيَّن أنه قد يكون من ذريته ظالم، وبين أن الإمام يتحمل للعهد، والظالم لا عهد له، فإذاً لا إمامة له، ولهذا ما روي في الخبر أن الله تعالى يقول يوم القيامة لوالي السوء: (ياداعي السوء، أكلت اللحم، وشربت اللبن، ولبست الصوف، ولم تؤو[٩] الكسير[١٠] ولم ترعها في مرعاها)، واستدل بالآية بعض الناس، فزعم أن الظالم إذا عوهد لم يلزم الوفاء بعهده، وقال الحسن: "إنما لم يجعل الله لهم عهداً"..

---

١ – سورة النجم : الآية (٣٧).

٢ – سورة الحديد : الآية (٢٦).

٣ – سورة الزخرف : الآية (٢٨).

٤ – ساقطة من (أ – ص).

٥ – سورة النحل : الآية (١٢٣).

٦ – سورة الحج : الآية (٧٨).

٧ – ساقطة من (و – ج).

٨ – في (و – ج) العموم.

٩ – في (أ – ص) ولم تؤدي، وهو خطأ من الناسخ.

١٠- في (و – ج) الكسر.

قوله - عز وجل :

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ الآية (١٢٥) - سورة البقرة.

البيت: يسمى اعتباراً بالمبيت فيه، ومنه قيل: بيتهم وبات يبوت بات ليلته[١] في إنائه، ثم ترك اعتبار المبيت، وروعي صورته، وبه شبه بيت الشعر اعتباراً بأنه مبني من أوتاد وأسباب بناء بيت الشعر والوبر من نحوها، وبيت الله: سمي لوجود صورة البيت فيه، والمثابة إما لثؤوب الناس إليه، وإما لاستحقاقهم الثواب بقصده.

إن قيل: كيف جُعل مثاباً وعامة قصاده لا يثوبون إليه قبل ذلك باعتبار جنس الناس لابآحادهم، واعتبر بعض الناس ما سألته، واستدل بالآية في وجوب العمرة، فقال: لا يكون مثابة لأحاد قصاده إلا على هذا الوجه، ومقام إبراهيم الحرم عن ابن عباس، والمزدلفة عن عطاء، والحجر عن السدى، والأولى أنه الحرم كله، فما من موضع ذكروه إلا وهومصلى أي مدعى، أو موضع صلاة، والطوف المشي حول الشئ، ومنه : الطائف يدور حول البيت حافظاً، وطائف من الجن والخيال، وجعل الطوافون عباده عز الحرم، والعكوف: الإقامة مع اللزوم بيَّن تعالى أنه جعل البيت من حيث الحكم مثابةً للناس وأمناً ومصلى، ولم يعن أنهم ملجؤون إلى أن لا يخيفوا أحداً، كما لم يعن أنهم ملجؤون إلى أن يجعلوه مصلى ومثابة..

إن قيل: فقد قال: **﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾**[٢]، قيل: هو أيضاً على معنى الأول، ولو عنى ما قلت لقال: وإن من دخله كان آمنا) قيل: هو أيضاً علي معنى الأول، ولوعنى ما قلت لقال: وإن من دخله حتى كان يتعلق بالأول، وعلى ذلك حكم قوله: **﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾**[٣] على أن حكم الله في ذلك مما فيه آية منه لأنه حض[٤] الناس على

---

١ - في (أ - ص) ليلة.

٢ - سورة آل عمران : الآية (٩٧).

٣ - سورة العنكبوت : الآية (٦٧).

٤ - في (و - ج) قيض.

استعظام البيت حتى لا يجسر عامتهم على تعظيم حرمته، ومن ضيقها كان ممقوتاً في متوجهاته غير منفك من عقوبة اما متجلية للمناظر أو ظاهرةٌ لأولي البصائر، وقرئ: "واتخذوا" على الأمر، وروي فيه أن النبي ﷺ قال لعمر لما انتهى إلى المقام: "هذا مقام أبينا إبراهيم، [فقال : ألا نتخذه مصلى؟][1] " فأنزل الله- عز وجل- (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى)، فعلى هذا أمرٌ فُصل به بين الجملتين من الخبر المعطوفة، والمعطوف عليها، (وعهدنا إلى) أي أمرناهما أمراً موثقاً عليهما بأن يطهرا البيت من الأنجاس والشرك وكل ما ينافي موضع الطهارة، للطائفين: أي القصاد، وقيل لأولي الطواف، وكلاهما مراد، والركع السجود: المصلين، وقيل: قد دخل في الأمر بتطهيره أن بنيانه على تقوى كما قال: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ﴾[2] الآية .

قوله - عز وجل :

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ الآية (١٢٦) - سورة البقرة.

البلد: الأثر الباقي، وسمي المدينة، وكركرة[3] البعير، والمفازة: بلداً للآثار الظاهرة بها، وقيل للآثار في الجلد أبلاد، والبليد: المقيم على بلده أي مكانه، ثم جعل عبارةً عمن لا نفاذ له في الأمر حتى صار أملك له، والمصير: المنتهى إليه في الأمر، ومنه المصير: لمنتهى الطعام، وصير البقرة مأواها، كالزريبة للغنم، وصير الباب: حيث مصيره، وإنما قيل: شق الباب اعتباراً بصورته لا بحقيقة مقتضى اللفظ، والاضطرار: حمل الإنسان على [ما يضره وهو في التعارف][4] حمل على الأمر بكره وذلك على وجهين: أحدهما بسبب خارجٍ، وهو إما أن يضرب أو يهدد بالضرب حتى يفعله منقاداً، وإما أن يؤخذ بيده فيفعل ذلك به، والثاني بسببٍ من داخل، وذلك إما بقهر قوة له لا يناله بدفعها الهلاك، كمن غلب

١ - ساقطة من (و - ج).

٢ - سورة التوبة : الآية (١٠٩).

٣ - في (أ - ص) وكريرة، وهو خطأ من الناسخ.

٤ - ساقطة من (أ - ص).

عليه شهوة خمر أو قمار، وإما بقهر قوة يناله بدفعها الهلاك، كمن اشتد به الجوع، فاضطر إلى أكل الميتة أو تناول مال الغير، ولما بنى إبراهيم عليه السلام البيت في فقر، ومن شرط المدن أن يتحرى في بنائها موضع يمكن أن يجري فيه نهرٌ أو يشق فيه قناة، ويتخذ فيه مزرعة تفي بمطاعم قطانها، وعلم أن لا قوام لهم إلا بأن تجنى إليهم الثمرات، ولا يمكن جني الثمرات إليهم إلا بأمنه، سأل الله عـز وجل- أن يجعله بلداً آمناً بسياسة إلاهية، وأن يرزق أهله بتسخير الناس لجبي الثمرات إليه، ولما سأله لهم الرزق، وكان قد سمع في جواب سؤاله الإمامة لذريته ما سمع تدارك سؤاله فقيده وقال: ﴿مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾، فقال تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ تنبيهاً أن رحمته في الدنيا وسعت كل شئ، وأن نعمه فيها متاحة [1] للكل ليجعلوها ذريعةً إلى إدراك ثوابه، ثم من كفر وضيع النعم فمسوقٌ إلى عذابه.

إن قيل: إن قوله (فأمتعه) يقتضي كثرة ثبات الفعل، وقوله (قليلاً) ينافيه، فكيف جمع بينهما؟ قيل: ذلك على وجهين، فإن نعمته في الدنيا وإن كانت كثيرةً بإضافة بعضها إلى بعض، فقليلة بإضافتها إلى نعمة الآخرة، وعلى هذا قال: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾[2]، كيف لا يقل ما يتناهى بالإضافه إلى مالا يتناهى؟ وانتصاب "قليل" إما لكونه وصفاً لمصدرٍ محذوفٍ، أو لكونه ظرفاً، وتكون في العبارة به عن الزمان ، كقوله تعالى: ﴿عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾[3].

---

١ - في (أ - ص) مباحة.

٢ - سورة النساء : الآية (٧٧).

٣ - سورة المؤمنون : الآية (٤٠).

قوله - عز وجل :

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾

الآية (١٢٧) سورة البقرة.

الرفع والوضع يتقابلان، ويقال في الأجسام وفي الشرف والذلة على التشبيه، وكذلك يقال في الإعراب على التشبيه، والقعود المقابل للقيام، ثم جعل للثبات، فقيل لأساس البيت قواعد عن طلب الشرف، والقعيدة كناية عن الزوجة اعتباراً بقعودها في المنزل، والقعدة للفرس المقتعد في أكثر الأحوال، والقعود من البعير المدرك اقتعاده، وقيل إن إبراهيم عليه السلام- كان يبني وإسماعيل يرفع إليه الأحجار ويناوله، وذلك لا يمنع[1] من أن يكون الفعل منسوباً إليهما وقول من قال: يجب إن يكون إبراهيم يتولى بناءه مرة، وإسماعيل مرة حتى يصح نسبة الفعل إليهما فبعيد التصور لسعة مجال الألفاظ وما اختلف فيه أنه هل كان للبيت بناء قبل إبراهيم -عليه السلام-، فأعاده، أو هو الذي أنشأه واحدثه، فليس مما يفتقر معنى الآية إليه، وقيل ليس يعنى برفعهما قواعد البناء فقط، بل تحريهما تشريفه بدعاء الناس إليه، ودعاء الله بحفظه، وصح نسبة ذلك إليهما وإن كان الله تعالى في الحقيقة شرفه من حيث أنهما من الأسباب المتأخرة لتشريفه.

---

١ - في (أ - ص) يمتنع.

قوله - عز وجل :

﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ الآية (١٢٨) - سورة البقرة.

النسك: غاية العبادة، والناسك الأخذ نفسه ببلوغ قاصيتها حسب طاقته، وسمي أعمال الحج المناسك، ثم خص الذبيحة بالنسك وتعورف فيه حتى قيل نسك فلان أي ذبح، وقيل للذبيحة نسيكة ولم يعن بالمسلم هـهنا من حقن دمه بالشهادتين، كما ظن بعضهم وقال: هذا دعاء بما علم كونه لهما لا محالة، وإنما عنى من ليس في قلبه تعظيم الله معه، وهو المعنى بالمضروب له المثل في قوله: **﴿وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾**[١]، وبقوله: **﴿إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾**[٢]، وقوله: **﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾**[٣] وهذه قاصية الإيمان، ونبه تعالى بالآية أن من حق الإنسان أن يكون مع تحري الحق لا ينفك من التضرع إلى الله -عز وجل- بإرشاده وتوفيقه، ومن طلب أن يتوب عليه من ذنب عسى إن كان منه وهو غافل عنه، فإن قيل: ولم قيد؟ فقال: (ومن ذريتنا أمة مسلمة لك) ولم يعمم؟ قيل: إن هذه منزلة شريفة لا يكاد يتخصص بها إلا الواحد فالواحد في برهة بعد برهة، وعلم أن الحكمة الإلاهية لا تقتضي ذلك، فإنه لو جعل الناس كلهم كذلك لما تمشى أمر العالم إذ كان العالم يفتقر إلى كون أفاضل فيها وأوساط وأراذل لتولي عمارته والقيام بتمشية أموره، فقد قيل: عمارة الدنيا بثلاثة أشياء، أحدها الزراعة والغرس، والثاني: في الحماية والحرب، والثالث جلب الأشياء من مصر إلى مصر، وأنبياء الله لا يصلحون لذلك إذ كانوا بغرض آخر أشرف من ذلك ولهذا قيل: "لولا الحمقى لخربت الدنيا"، وإنما عُني بالحمقى المعنيون بأمر الدنيا بإضافته إلى المعنيين بأمر الآخرة، ولذلك قال: **﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾**[٤].

١- سورة الزمر : الآية (٢٩) ، وهي قراءة ابن كثير وأبي عمرو ويعقوب.

٢- سورة الشعراء : الآية (٨٩).

٣- سورة يوسف : الآية (١٠١).

٤- سورة هود : الآية (٦١).

قوله - عز وجل :

﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ الآية (١٢٩) – سورة البقرة.

العزيز : الذي يقهر ولا يُقهر، وتعزز فلان بفلان، والعزاز من الأرض ما فيه صلابة بإزاء الذلول، وعـز الشئ [١] إذا قل اعتباراً بأن كل موجود مملوك، وكل مفقود مطلوب، والحكمة حُدت بحدود على اعتبارات مختلفة، إما اعتباراً بمبدأها، فقد قيل: هي معرفة حقائق الأشياء، وقيل : معرفة الأشياء الإنسية والأشياء الإلهية، وهذا هو كالأول، إلا إنه أبين، وإما اعتباراً بمنتهاها، فقد قيل: هي إماتة الشهود وقلة الاكترات بالموت المحمود، وقيل: الترشح بالعلم والعمل لإدراك ثواب الله –عز وجل–، فأما الرسول –الذي طلبه إبراهيم– عليه السلام، فقد روي عن نبينا ﷺ أنه قال: **«أنا دعوة أبي إبراهيم وبشارة عيسى بن مريم»**[٢] يعني بالأول: قوله: **﴿ وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ ﴾**، وبالآخر: قوله: **﴿ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾**[٣].

إن قيل: كيف قال: يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة وليس الكتاب إلا الآيات، وما وجه هذا الترتيب؟

قيل:أما الآيات فهي الآيات الدالة على معجزة النبي ﷺ وذكر التلاوة لما كان أعظم دلالة نبوته متعلقاً بالقرآن، وأما الترتيب فلأن أول منزلة النبي ﷺ بعد ادعاء النبوة الإتيان بالآيات الدالة على نبوته، ثم بعده تعليمهم الكتاب، أي تعريفهم حقائقه لا ألفاظه فقط، ثم بتعليمهم الكتاب يوصلهم إلى

---

١ – في (و – ج) وعن الشئ، وهو تصحيف.

٢ – الحديث أخرجه ابن كثير من طريق محمد بن إسحاق عن ثور بن يزيد عن خالد بن معدان عن أصحاب رسول الله ﷺ أنهم قالوا يا رسول الله أخبرنا عن نفسك قال «أنا دعوة أبى إبراهيم وبشرى عيسى ، ورأت أمى حين حملت بى كأنه خرج منها نور أضاءت له قصور بصرى من أرض الشام» ، وهذا إسناد جيد وروي له شواهد من وجوه أخرى ، فقال الإمام أحمد حدثنا عبد الرحمن بن مهدى ، حدثنا معاوية بن صالح عن سعيد بن سويد الكلبى عن عبد الأعلى بن هلال السلمى عن العرباض بن ساريه قال : قال رسول الله ﷺ « إنى عند الله لخاتم النبيين وإن آدم لمجندل فى طينته وسأنبئكم بأول ذلك . دعوة أبى إبراهيم ، وبشارة عيسى بي ورؤيا أمى التى رأت وكذلك أمهات النبيين يرين» ورواه الإمام أحمد أيضاً من طرق مختلفة ، أوردها إبن كثير فى تفسيره ج:٤ ص ٣٦٠ .

٣ – سورة الصف الآية : (٦).

إفادة المحكمة وهي أشرف منزلة العلم، ولهذا قال: ﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[1]، ثم بالتدرج في الحكمة يصير الإنسان مزكى، أي مطهراً مستصلحاً لمجاورة الله -عز وجل-.

قوله - عز وجل :

﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ الآية (١٣٠) - سورة البقرة.

الرغبة: سعة الإرادة، ومنه بطل رغيب أي نَهم، والرغيب الشئ المرغوب فيه، ومتى عدى بعن اقتضى صرف الإرادة عن ذلك الشئ، وذلك بالتزهد فيه، والاصطفاء تناول صفوة الشئ، كما أن الاختيار تناول خيره، والاجتباء تناول جانبه أي وسطه، وهو المختار، و(سفه نفسه) قيل: تقديره سفه، نفسه، وقيل: أصله سفه نفسه، فصرف الفعل عنه، نحو: بطر معيشته، وسفه نفسه أبلغ من جهلها، وذاك أن الجهل ضربان جهل بسيط، وهو أن لا يكون للإنسان اعتقاد في الشئ وجهل مركب، وهو أن يعتقد في الحق أنه باطل، وفي الباطل أنه حق، والسفه أن يعتقد ذلك، ويتحرى بالفعل مقتضاها ما اعتقده، فبين تعالى أن من رغب عن ملة إبراهيم، فإن ذلك لسفهه نفسه، وذلك أعظم مذمة، فهو مبدأ لكل نقيصه، وذاك أن مَن جهل نفسه جهل أنه مصنوع، وإذا جهل كونه مصنوعاً جهل صانعه، وإذا لم يعلم أن له صانعاً، فكيف يعرف أمره ونهيه، وما حسنه وقبحه، ولكون معرفتها ذريعة إلى معرفة الخالق -جل ثناؤه- قال: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾[2]، وقال: ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾[3] فإن قيل: كيف وصفه بالاصطفاء في الدنيا وبالصلاح في الآخرة، والنظر يتقضي عكس ذلك، فإن الصلاح وصف يرجع إلى الفعل، وذلك يكون في الدنيا، والاصطفاء حال يستحقه العبد بكونه صالحاً، فحقه أن يكون في الآخرة؟ قيل الاصطفاء ضربان، أحدهما كما قلت، والآخر في الدنيا، وهو اختصاص الله بعض العبيد بولايته ونبوته لخصوصيته فيه وهو المعنى بقوله

١- سورة البقرة : الآية (٢٦٩).

٢- سورة الذاريات : الآية (٢١).

٣- سورة الحشر : الآية (١٩).

﴿**شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ**﴾[1]، والصلاح وإن اعتبر بأحوال الدنيا، فمجازى به في الآخرة، فبين تعالى أنه مجتبى في الدنيا لما عرف الله من حكمته فيه، ومحكوم له في الآخرة بصلاحه في الدنيا تنبيهاً أن الثواب في الآخرة لم يستحقه باصطفائه في الدنيا، وإنما استحق لصلاحه فيها، ويجوز أن يكون قوله "**في الآخرة**" أى في أفعال الآخرة لمن الصالحين، ويجوز إن عنى بقوله "**في الدنيا**" حال بقائه، و"**في الآخرة**" حال وفاته، ويكون الإشارة بصلاحه إلى الثناء الحسن عليه الذي رغب إلى الله تعالى فيه بقوله: ﴿**وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ**﴾[2]، ويجوز أنه لما كان الناس ثلاثة أضرب: ظالم، ومقتصد، وسابق عُبر عن السابق بالصالح، فكل سابق إلى طاعة الله ورحمته صالح، وفي الجملة، فإن الصالح هو الخارج عن حد الرذيلة، وليس في الدنيا على الإطلاق بكل نظر صالح، بل عامة ما فيه يمكن أن يوصف بفاسد إما في حالةٍ ما أو بنظرٍ ما، فإذن الصلاح المطلق في الآخرة، فلهذا خصه بها..

قوله - عز وجل :

﴿**إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ **الآية (١٣١) سورة البقرة.**

لما سأل الله تعالى بقوله: ﴿**وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ**﴾[3]، أجابه بقوله تعالى: "**أسلم**" أي أخلص سرك فإنه موضع الاطلاع، وإلى ذلك أشار النبي ﷺ بقوله : «**أخلص يكفك القليل من العمل**»[4]، وبقوله: «**الأعمال بالنيات**»[5] وقوله تعالى :﴿**وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ**﴾[6]، وقيل معنى "**أسلم**" استأسر لي كقولك للأسير: استسلم، وقيل: معناه: اجعل نفسك مسلمة عن أسر الشيطان، حيث قال: ﴿**لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ**﴾[7]، وهذان القولان واحد في

١- سورة النحل : الآية (١٢١).

٢- سورة الشعراء: الآية (٨٤).

٣- سورة البقرة : الآية (١٢٨).

٤- الحديث عن معاذ بن جبل أنه قال لرسول الله ﷺ ، حين بعثه إلى اليمن : أوصني قال : «أخلص دينك يكفك العمل القليل». أخرجه الحاكم فى الرقاق ج:٤ – ص ٣٠٦ ، وقال صحيح الإسناد ، ولم يوافقه الذهبي ، ورواه أبو نعيم فى حلية الأولياء ، ج:١ – ص ٢٤٤ ، وقال العراقي : رواه الديلمي فى مسند الفردوس من حديث معاذ ، وإسناده منقطع ، تخريج أحاديث الإحياء ج:٦ – ص ٢٤٠٦ .

٥- الحديث متفق عليه أخرجه البخاري فى بدء الوحي ج:١ – ص ٧ ، وأخرجه مسلم في الإمارة حديث رقم «١٩٠٧».

٦- سورة البينة : الآية (٥).

٧- سورة ص : الآيتان : (٨٢ ، ٨٣).

الحقيقة، فإن من أسره الرحمن فاستأسر له فهو الحر المطلق عن عبادة غيره، وقد قيل: «لن تكون عبداً لله حقاً حتى لا تكون لما دونه مسترقاً»، وإلى ذلك أشار بقوله: ﴿ وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾[١]، وروي أن [إبراهيم عليه السلام][٢] لما طلب الخلة من الله أوحى إليه فقال: (من طلبني أبليته)، فقال: إذا نلتُ الخلة لم أبال بالبلية، فلما أتى عليه حوْل قال: (من أحبني قتلته)، فقال: «إذا انتهيت في الخلة لم أبال بقتل الدنيا»، وقوله: "أسلمت" مبني في المعنى على الأول وكأنه موعد منه أنه متأهب لما يراد منه، وقد حثنا الله تعالى علي الاقتداء به في الاستسلام له والاستفادة منه الشرف الكبير جزاء بذلك..

قوله - عز وجل :

﴿ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾

الآية (١٣٢) - سورة البقرة.

الوصية: التقدم إلى الغير بما يعمل به مقترناً بوعظ واشتقاقه من وصاه أي وصله، ومضاده قصاه أي فصله، وقوله: [بها][٣] أي بالملة، وقيل بالكلمة التي دل عليها قوله: "**أسلمت**"، وكلاهما غير منفك من الآخر، إذ كانت هذه الكلمة من جملة الملة، والملة مقتضية لهذه الكلمة، فبين تعالى أن إبراهيم وصى بنيه، ووصى يعقوب بنيه أيضاً بها كما أوصى إبراهيم، وقال: (إن الله اصطفى لكم الدين) أي دين إبراهيم، فحذف القول لتضمن الوصية لذلك، وحث على الإسلام، أي أسلموا قبل أن تموتوا، وليس ذلك نهياً عن الموت، وإنما هو حث على الإسلام المتقدم ذكره فهو الذي يفيد الحياة الأبدية المذكورة في قوله: ﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾[٤].

---

١ - سورة الكهف الآية (١١٠).

٢ - ساقطة من (و - ج).

٣- ساقطة من (م-ص)

٤ - سورة آل عمران : الآية (١٦٩).

قوله - عز وجل :

﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ الآية (١٣٣) - سورة البقرة.

الشهود: حضور بالذات أو بالعناية أو بالمقال، وأحضر الفرس [أصله][1] صار ذا حضور. والفرق بين الإحضار والعدْو أن الإحضار يقال اعتباراً بالمنتهى، والعدو اعتباراً بالمبدأ المتجاوز لأنه من عداه إذا تجاوزه، وجعل الحضارة بإزاء البداوة في التعارف، والمحتضر لمن حضره الأجل، ولما ذكر إبراهيم وأن دينه الإسلام، وأن يعقوب اقتدى به، ودعا نبيه إليه، وقادهم على ذلك وأخذ اعترافهم بين أن مع وصيته لأولاده كان على جملة اعترافه معهم ولم يعن بقوله: (ما تعبدون من بعدي) العبادة المشروعة فقط، وإنما عنى جميع الأعمال، وكأنه دعاهم أن لا يتحروا في أعمالهم غير وجه الله - عز وجل- ولم يخف عليهم الاشتغال بعبادة الأصنام، وإنما خاف أن تشغلهم دنياهم، ولهذا قيل: "ما قطعك عن الله فهو طاغوت"، ولهذا قال: **﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾**[2]، أي نخدم ما دون الله، وهذا المعنى تحراه الشاعر بالعبادة:

فَتًى مَلَكَ اللَّذَّاتِ أَنْ تَعْتَبِدَنَّهُ ... وَمَا كُلُّ ذِي مِلْكٍ لَهُنَّ بِمَالِكِ . [3]

فإن قيل: لما قال: (نعبد إلاهك وإله آبائك) وتكرير اللفظ يقتضي دارين، فالجواب عن ذلك من وجهين، أحدهما من حيث اللفظ، وهو أن المضاف إلى المضمر متى عطف على المضاف إليه لابد من إعادة المضمر إذ كان المضمر المجرور لا يصح العطف عليه، والثاني من حيث المعنى، وهو أن المعبود لما لم يكن سبيل إلى الوصول إليه إلا بالنظر، فكان لكل واحد نظر، بينوا أن معبودنا هو الواحد الذي أثبته، وأثبته آباؤك، ثم بين بقوله: (ونحن له) أنه واحد، وقد استدل بالآية من منع من مقاسمة الجد

---

١ - ساقطة من (أ - ص).

٢ - سورة إبراهيم : الآية (٣٥).

٣ - البيت لأبي العتاهية ذكره محمد بن أيدمر بدون نسبة فى مخطوط كتاب الدّر الفريد وبيت القصيد ج:٤ - ص ١٧٢ ونصه :

فتى تَرَكَ اللذات أنْ يَعْتَبِدَنَهُ ... ومَا كُلُّ ذِى لُبٍّ لُهنَّ بتارك

بالأخوة، وأسقط الأخوة مع الجد كما يسقطون مع الأب، واستدل بها أيضاً في أن العم يجري مجرى الأب في الولاية على مال الصغيرة وتزويجها، وفي الجملة أن تسميتها بالأب ليس بمنكر، بل قد يسمى [كل][1] كبير من الأجانب أباً على أن الأعمام والأجداد إذا كانوا مع الأب فتسميتهم بالآباء أقرب، كتسمية الشمس مع القمر قمرين، وتسمية آل المهلب معه مهالبة..

قوله - عز وجل :

﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

الآية (١٣٤) سورة البقرة.

الأمة في الأصل المقصود كالعمدة والعدة في كونهما معموداً ومعداً، وسمي الجماعة أمة من حيث تأمها الفرق، وقيل للجبن أمة لكونه متضمنا لأمة ما وسمى الدين أمة لكون الجماعة عليه، وقوله: **﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾**[2] أي جمع في نفسه من الفضيلة ما لا يجتمع إلا في أمة، وبهذا المعنى ألم الشاعر في قوله:

وَلَيسَ على اللهِ بِمُستَنكرٍ أنْ يُجْمَعَ العَالَمُ في وَاحدٍ[3]

والكسب: اجتلاب النفع بالعمل، وإذا قيل في المضرة، فعلى طريق التشبيه، ولما بين الحجة عليهم وإنهم لم يخالفوا في الاقتداء بإبراهيم بين من بعد أن أعمالهم وأعمالكم متباينة لأيثاب ولا يعاقب أحد بما كان من الآخر كقوله: **﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾**[4]، وليس معنى بقوله: **﴿ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾** السؤال المجرد، فقد أخبر أنه يقول لعيسى بن مريم **﴿ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾**[5]، إنما يعني المؤاخذة بها.

---

١ - ساقطة من (و - ج).

٢ - سورة النحل : الآية (١٢٠).

٣ - هذا البيت لأبي نواس وقاله يمدح الفضل بن الربيع مخاطباً الخليفة فقال:

أنت علـــى بـــابك من قدرة   فلست مثل الفضل بالواحد

أوحـــده اللـــه فمـــا مثلـــه   لطالب رفد ولا ناشـــد

ديوان أبي نواس ج:١ - ص ٣٤٩ ، دلائل الإعجاز - ص ١٥٢ - مخطوط الدر الفريد وبيت القصيد ج:٥ - ص ٣٠٦ - البحر المحيط ج:٥ - ص ٥٤٧ الدر المصون في علوم الكتاب المكنون ج:٧ - ص ٣٠١ .

٤ - سورة الأنعام : الآية (١٦٤)، سورة الإسراء: الآية (١٥)، وسورة فاطر : الآية (١٨)، سورة الزمر : الآية (٧).

٥ - سورة المائدة : الآية (١١٦).

قوله - عز وجل :

﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾

الآية (١٣٥) - سورة البقرة.

يعني أن اليهود قالوا: كونوا يهوداً تهتدوا، وقال النصارى مثل ذلك، فأنزل الله تعالى على نبيه: **﴿ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴾** أي تتبع ملته المجمع على كونها هدى، وبين بقوله: **﴿ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾** أن كلتى الطائفتين قد أشركت، وأن إبراهيم كان حنيفاً، وكان يقال في الجاهلية ولمن كان على دين إبراهيم حنيفاً عليهم عن طريقتهم إلى طريقة غيرها، ثم سُمِّي من اختتن أو حج البيت [حنيفاً][1] لمن كان ذلك من سنته.

قوله - عز وجل :

﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾

الآية (١٣٦) - سورة البقرة.

السبط ولد الولد، وأصله من سبط أي امتد، كأنه امتداد للفروع، ومنه سبط الكفين، والساباط البناء الممتد بين الدارين، والسُّباطة ما مُدَّ من الكناسة، وما امتدمن الشعر، وسباط الحمى اعتباراً بتمدد المحموم وتمطيه،، إن قيل: كيف ابتدأ بما أنزل إلينا مع كونه متأخراً عن كل ما أنزل الله، وقال: **﴿ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ﴾** ولم ينزل إلى إسماعيل وإسحق كتاب، ولم قال: **﴿ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ﴾** فخصهما بالإيتاء دون الإنزال، وذكر النبيين، وقد تقدم ذكر بعضهم. قيل: أما الابتداء بما أنزل إلينا، فلأنه أول بالإضافة إلينا، فالناس بعد مجيء محمد ﷺ، مدعوون إلى الإيمان بما أنزل عليه أولاً جملة وتفصيلاً، ولا يجب الإيمان بما أنزل من قبل إلا على سبيل الجملة دون التفصيل، وأما المنزل إلى إسماعيل ومن ذكر معه، فهو المنزل على إبراهيم، إذ هم داخلون تحت

١- ساقطة من (أ-ص) .

شريعته، وذلك كقولك: ما أنزل على محمد، ﷺ والمسلمين، وأما قوله: ﴿وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ﴾ فهو على الاستئناف، وقوله: ﴿وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ﴾ معطوف عليه، وقوله: ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾ خبره، فكأنه لما اختلف فيما أنزل عليهما، وادعى بعض أتباعهما عليهما مالم ينزل إليهما بين تعالى أن ما أوتيا أي ماخُصابه لا ما ادعى عليهما، وما أوتي النبيون جملة المذكورين وغير المذكورين من ربهم، أي منزل من ربهم، ثم قال: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ﴾، أي لا يكون بمنزلة اليهود الذين آمنوا ببعض وكفروا ببعض..

إن قيل: لم قال: بين أحد منهم، ولفظ أحد وإن كان قد يعمم به في النفي فهو متناول للواحد، ولو قال بينهم لكان أوجز؟ قيل: لما كان القصد إلى أن نبين أن لا نفرق بين واحد واحد ذكر لفظ أحد فكأنه قال: لا نفرق بين أحد وجماعتهم، أي لا يخرج واحدٌ من حكمهم، فكان لفظ أحد أدل على المعنى المقصود، ثم بين بقوله: ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ إنا مسلمون له إسلام إبراهيم عليه السلام..

قوله - عز وجل :

﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ الآية (١٣٧) - سورة البقرة.

الشقاق المنازعة، يقال: شق العصا، أي فارق الجمع، وشاق القوم صار كل نفر في شق، وشاقوا الله أي صاروا في شق غير شق أوليائه، وعلى ذلك: ﴿يُحَادُّونَ اللَّهَ﴾[١] أي صاروا في حد غير حده..

إن قيل: كيف قال: (فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به) ولم يقل: بما آمنتم أو (مثل ما آمنتم)، وذلك يقتضي إثبات مثل الله - عز وجل-، وقد روي عن ابن عباس أنه قال: لا تقولوا: (فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به] [٢] [ويكن قولوا فإن آمنوا بالذي أمنتم به][٣]وإن لم يكن هذا السؤال لازماً فما كان [وجه][٤] الإنكار منه؟ قيل إن الباء هـهنا ليس للتعدية كما هو في قولك (مررت بزيد)، و(آمنت بالله) وإنما هو للإله، ومعناه أن تحروا الإيمان بالسبيل الذي تحريتم به، والإشارة بقوله: ﴿بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ﴾ إلى السبيل المذكور[٥] في قوله: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ﴾[٦]، وسبيل الله المتوصل به إليه ثلاث منازل

١- سورة المجادلة : الآيتان (٥، ٢٠).
٢- هذه العبارة سقطت من الناسخ في (و-ج).
٣- هذه العبارة سقطت من الناسخ في (أ -ص).
٤- ساقطة من (و-ج).
٥ - في (أ - ص) المذكورة.
٦ - سورة يوسف : الآية (١٠٨).

على القول المجمل مرتب بعضها على بعض الأول: معرفة الأحكام الظاهرة والعمل بها، والثاني: معرفة علم الزهاد من عيوب النفس وقمع الشهوات وأخذ النفس به، والثالث: علم المعاملات، وهي معرفة الخواطر ومراعاتها، وذلك السبيل إليه، ولا سبيل إلى تحصيل الإيمان الحقيقي الذي وصف به المؤمنين في قوله: **﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾**[1] إلا بها، وهذه المنازل الثلاث هي المعنية بقوله -عليه السلام- **«سائل العلماء، وخالط الحكماء، وجالس الكبراء»**[2]، فبين تعالى أن من أمَّن سالكاً هذا السبيل، فقد اهتدى، ومن جنح فقد شاق، ثم قال **﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾** تسكيناً للمؤمنين وأمناً من معرفتهم..

قوله - عز وجل :

﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ الآية (١٣٨) - سورة البقرة.

الصبغة إشارة من الله -عز وجل- إلى ما أوجده فينا[3] من بداية العقول التي ميزنا بها من البهائم، رشحنا به لمعرفته ومعرفة حسن العدالة وطلب الحق، وهو المشار إليه بالفطرة في قوله: **﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾**[4] الآية..

والمعنى بقوله -عليه السلام- «**كل مولود يولد على الفطرة**»[5] الخبر، وتسمية ذلك بالصبغة من حيث أن قوى الإنسان التي ركب عليها إذا اعتبرت بداية يجري مجرى الصبغة التي هي زينة للمصبوغ، ولما كانت اليهود والنصارى إذالقنوا أولادهم اليهودية والنصرانية يقولون قد صبغناه بين تعالى أن الإيمان بمثل ما آمنتم به هو صبغة الله وفطرته التي ركزها في الخلق، ولا أحد أحسن

---

١ - سورة الأنفال : الآية (٢).

٢ - الحديث أورده أحمد ضياء الدين فى كتابه راموز الأحاديث من رواية الحكيم عن أبي جحيفة ونصه: (سائل العلماء، وخالل الحكماء، وجالس الكبراء) راموز الأحاديث - ص٢٩٥.

٣ - في (أ - ص) في الناس.

٤ - سورة الروم : الآية (٣٠).

٥ - رواه الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة في كتاب القدر - حديث رقم «٢٦٥٨» وأخرجه البخاري في صحيحه ج:٢ - ص ١٢٥ ، وأورده أبو داود فى سننه ، وأخرجه السيوطي في الدر المنثور ج:٦ - ص ٢٩٨ ، ج:٥ - ص ١٥٥ وقال العراقي ، متفق عليه من حديث أبي هريرة تخريج أحاديث العراقي ص ١٥٤٠ ورواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح وأخرجه الإمام أحمد فى مسنده عن أبي هريرة. ج:٢ - ص ٢٣٣ ، وبلفظ مقارب له في كل من ص ٢٧٥ ، ص ٢٨٢ ، ص ٣٩٣ ، ص ٤١٠ ، ص ٤٨١ ، ج:٣ ص ٣٥٣ وأخرجه الإمام مالك فى الموطأ - كتاب الجنائز - ج:١ - ص ٢٤١ .

صبغة منه، وقوله: ﴿وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ تعريض بهم أي لا نشرك [به][1] كشرككم، وقول الحسن وقتادة ومجاهد أن الصبغة هي الدين، وقول غيرهم إنها الشريعة، وقول من قال هو الختان إشارة إلى مغزى واحد، وقد قيل: صبغة الله على مراتب أولها ما ركب فينا من الهداية وهي الفطرة والثانية: الهداية بالتوفيق، والثالثة: الهداية ببعثة الرسل، والرابعة: الهداية في الترقي توليه إلى الدرجة العليا والسعادة القصوى..

قوله - عز وجل :

﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾

الآية (١٣٩) - سورة البقرة.

المحاجة: المقاومة في إظهار الحجة المبينة للحجة أي المقصد وقد ألزمهم بهذه الآية الحجة المذكورة في قوله: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾[2]، ولما كانت الشرائع مبنية بالقول المجمل على ثلاثة أشياء.. الإقرار بالباري-عز وجل-، والعمل له والإخلاص في ذلك قال.. قل لهم إنا قد تشاركنا في الإقرار بالله -عز وجل- وفي العمل له ونحن قد حصل لنا الإخلاص [في ذلك][3] من دونكم، فإن قيل: ومن أين؟

إن الإخلاص حصل للمسلمين دونهم، وهل هذا إلا مجرد الدعوى قيل قد أحالهم على التأمل، وذلك ظاهر بالاستقراء والتدبر، فإن الأصول الاعتقادية هي ما ذكر الله -عز وجل-، [في قوله] ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾[4] وإذا تأمل حالة الإقرار بالله تعالى[5] فقد أخلص المسلمون فيما يدعيه اليهود من التشبيه والنصارى من التثليث، وما ادعوه على جبريل أنه عدو لهم وما ادعاه اليهود على إبراهيم، حيث زعموا أنه لم يكن نبياً، وإنما كان رجلاً صالحاً، ونسبوا إليه لوطاً من الفجور ببنيه في حال سكره، وادعى النصارى في نبوة عيسى - عليه السلام- وإنكارهم بعض ما في التوراه والإنجيل، وما ذكروه من البعث حيث قالوا ﴿لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾[6]، وادعت النصارى أنه لا بعث، وإنما ينال الثواب والعقاب الأرواح، فإذن قول المسلمين (ونحن له مخلصون) ظاهر...

---

١ - ساقطة من (و - ج).

٢ - سورة الفتح الآية : (٢٦).

٣ - ساقطة من (و - ج).

٤ - سورة النساء : الآية (١٣٦).

٥ - سقطت من الناسخ في (أ - ص).

٦ - سورة البقرة : الآية (٨٠).

قوله - عز وجل :

﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ الآية (١٤٠) سورة البقرة.

قوله: **﴿أَمْ تَقُولُونَ﴾** معطوف على قوله (أتحاجوننا) - أم تدّعون أن الأنبياء كانوا على دينكم تنبيهاً أنه من المحال أن يكون المتقدم مقتدياً بالمتأخر ومستناً بسنته، ومن قرأ بالياء فوجه العدول فيه من الخطاب إلى الإخبار استجهالاً لهم بما كان منهم من هذه الدعوى كما يفعل العالم من الإعراض عمن يخاطبه بعد ارتكابه جهالة شنيعة إلى غيره، واحتج عليهم بمقدمتين فقال: أنتم أعلم آم الله أي قد بينت آن الله أعلم منكم، وبينت أنه ليس بغافل عما تعملون وقد كتمتم الشهادة عنه، ومن كتم من الله شهادة عنده مع كون الله بهذا الوصف فهو أظلم الخلائق، فهذا تبكيت لهم في كتمانهم أحوال النبي -عليه السلام- وسائر الأنبياء واحتج عليهم بما لا انفصال لهم عنه، وقوله: **﴿مِنَ اللَّهِ﴾** على هذا متعلق بقوله :،**﴿كَتَمَ﴾** وقيل: إنه متعلق بقوله شهادة، أي من كتم عن الناس شهادة مصدرها من الله -عز وجل، وقيل : في الآية قول آخر، وهو أن قوله:**﴿مِنَ اللَّهِ﴾** يتعلق بقوله "أظلم"، وقوله **﴿مِمَّن كَتَمَ﴾** من جملة الذين كتموا، وتقدير هذا التأويل قد ثبت أن الله -عز وجل- أعلم منكم، وقد حكم أن الشهادة كتمانها عصيان بقوله: **﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾**(١)، فكأنه قيل: من أظلم من الله من الذين كتموا الشهادة إن كان الأمر على ما ذكرتم ولم يخبركم، وهذا كقولك: من أظلم ممن يجور على الفقير من السلطان أي لا أحد أظلم منه إذا ظلمه، وعلى هذا يكون قوله: **﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾** على سبيل التهديد لهم.

١- سورة البقرة الآية (٢٨٣).

قوله - عز وجل :

﴿ تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون ﴾

الآية (١٤١) - سورة البقرة.

أعادت هذه الآية من أجل أن العادة مستحكمه في الناس صالحهم وطالحهم أن يفتخروا بآبائهم ويقتدوا بهم في متحرياتهم سيما في أمور دينهم، ولهذا حكى عن الكفار قولهم: **﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ﴾**[1]، فأكد الله تعالى القول في إنزالهم عن هذه الطريقة، وذكر في أثر ما حكى من وصية إبراهيم ويعقوب ببنيه بذلك تنبيهاً أن الأمر سواء على ما قلت أو لم يكن، فليس لكم ثواب فعلهم ولا عليكم عقابه، وفي الثاني لما ذكر ادعاءهم اليهودية والنصرانية لآبائهم أعاد أيضاً تأكيداً عليهم تنبيهاً على نحو ما قال: **﴿ وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ﴾**[2]، وقوله: **﴿ لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ﴾**[3]، وقوله: **﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾**[4]، ولما جرت به عادتهم، وتقررت[5] به معرفتهم كل شاة تناط برجليها.

قوله - عز وجل :

﴿ سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾ الآية (١٤٢) سورة البقرة.

السفيه كل معتقد باطلاً يسرع إلى إظهار معتقده، ولا يكون له ثبات، والقبلة وإن كانت في الأصل اسماً للحال التي عليها الإنسان من الاستقبال كالجلسة والقعدة، فقد صار في التعارف للمكان المتوجه نحوه للصلاة[6]، وهؤلاء السفهاء المنكرون لتغيير القبلة اليهود على ما روى عن ابن

---

١ - سورة الزخرف : الآية (٢٢).

٢ - سورة الإسراء: الآية (١٣).

٣ - سورة البقرة : الآية (٢٨٦).

٤ - سورة الأنعام : الآية (١٦٤)، وسورة الإسراء: الآية (١٥)، وسورة فاطر : الآية (١٨). و سورة الزمر : الآية(٧).

٥ - فى (أ - ص) وتفردت .

٦ - فى (د - ج) نحو الصلاة

عباس، ومشركو العرب عن الحسن، والمنافقون عن السدي، ولا تنافي بين أقوالهم، فكل قد عابوا وكلٌّ سفهاء، وقد روي أن بعضهم قال: لا يثبت محمد على دين، وبعضاً قال: "رجع إلى قبلة قومه، وسيرجع إلى دينهم، وروي أن قوماً من اليهود أتوه وقالوا: ماولاك عن قبلتنا؟[١] ارجع إليها نتبعك فأنزل الله تعالى ذلك تبييناً [٢] أن الأمكنة متساوية عند الله، فله المشرق والمغرب، وهو الهادي إلى الطريق المستقيم فأي وجه يتوجه إليه، فهو تعالى موجود كما قال: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾[٣]، وكقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [٤] في اعتبار[٥] به والارتسام لأوامره لا بالأمكنة والجهات المختلفة.

قوله - عز وجل :

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ الآية (١٤٣) - سورة البقرة.

الوسط في الأصل اسم للمكان الذي يستوي إليه المساحة من الجوانب في المدورة، ومن الطرفين في المطول كالنقطة من الدائرة ولسان الميزان من العمود، وجعل عبارة عن العدل، وكذلك السواء والنصف، وشبه به كل ما وقع بين طرفين إفراط وتفريط كالجود بين السرف والبخل والشجاعة

---

١ - أورد السيوطي ما أخرجه ابن إسحاق في سبب نزول هذه الآية "سيقول السفهاء من الناس" قال : حدثني إسماعيل بن أبي خالد عن أبي اسحاق عن البراد قال : كان رسول الله ﷺ يصلي نحو بيت المقدس، ويكثر النظر إلى السماء ينتظر أمر الله، فأنزل الله قد نرى تقلب وجهك في السماء - الآية فقال رجال من المسلمين وددنا لو علمنا علم من مات منا قبل أن نصرف إلى القبلة وكيف بصلاتنا قبل بيت المقدس، فأنزل الله وما كان الله ليضيع إيمانكم، وقال السفهاء من الناس ما ولاهن عن قبلتهم التي كانوا عليها؟ فأنزل الله "سيقول السفهاء من الناس" - إلى آخر الآية ، أسباب النزول - للسيوطي - ص١٨ .

ويؤيد هذا ما أورده ابن كثير في تفسير الآية عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لما هاجر إلى المدينة ، أمره الله أن يستقبل بيت المقدس، ففرحت اليهود، فاستقبلها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بضعة عشر شهراً، وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم يحب قبلة إبراهيم، فكان يدعو الله وينظر إلى السماء، فأنزل الله - عز وجل - (فولوا وجوهكم شطره) أى نحوه، فارتاب من ذلك اليهود وقالوا : (ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها؟) فأنزل الله · (قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم). تفسير القرآن العظيم - ج - ١ - ص ١٨٩.

٢ - فى (أ-ص) مبيناً) .

٣ - سورة البقرة : الآية (١١٥).

٤ - سورة الزخرف : الآية (٨٤).

٥ - سقطت من الناسخ فى (أ-ص) .

بين التهور والجبن، ثم جعل عبارة عن المختار من كل شئ حتى قيل: فلان من أوسطهم نسباً، وكما جعلهم وسطاً جعلهم خيراً في قوله: **﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾**[١] والعقب مؤخر القدم، فتصور مكانه من الحيوان تارة، فاعتبرت في قولهم: يعقبه واعتقبه نحو: استدبره، وقفاه، وعاقب الليل النهار، وقيل المعقبات للملائكة التي تتعاقب في الليل والنهار، والعقوبة منه، والعقبة الجبل اعتباراً بالصاعد الذي يميل [نحو عقبة][٢] في ممره، ولما كان يؤخذ العقب من بعض الحيوانات فيشد به، قالوا: عقبته: أي شددته بالعقب نحو دُسته وانقلب على عقبيه إذا رجع عائداً نحو: ارتدا على آثارهما، ورجع عوده على بدئه.. إن قيل: كيف جعلهم وسطا؟ الخُلق أم لخَلْقٍ خصهم به؟ أم لعلمٍ ركزه فيهم؟ أم لشرعٍ شرعه لهم؟.

قيل: قد خصهم بكل ذلك، والظاهر من ذلك هي الشريعة التي إذا اعتبرت بسائر الشرائع وجد لها حد الاعتدال، وهو أن بني إسرائيل لما عتوا كما حكى الله عنهم في غير موضع شدد عليهم أشياء صارت عليهم إصراً وأغلالاً، نحو: **﴿وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾**[٣]، ولذلك أمرنا تعالى فيما يدعونه أن نقول **﴿وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾**[٤]، ثم خفف عنهم على لسان عيسى بعض التخفيف، ولهذا حكى عنهم: **﴿وَلأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾**[٥]، وتمم ذلك بمحمد ﷺ فقال: **﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ﴾**[٦] إلى قوله: **﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾**، وقال: **﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾**[٧]، وقال عليه السلام **«بعثت بالحنيفية السهلة»**[٨]، فصارت شريعته متوسطة بين الإفراط الذي هو الإصر والأغلال، وبين التفريط الذي هو

---

١ - سورة آل عمران : الآية (١١٠).
٢ - ساقطة من (و - ج) .
٣ - سورة الأنعام : الآية (١٤٦).
٤ - سورة البقرة : الآية (٢٨٦).
٥ - سورة آل عمران : الآية (٥٠).
٦ - سورة الأعراف : الآية (١٥٧).
٧ - سورة المائدة : الآية (٦).
٨ - الحديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده - ج:٥ - ص ٢٦٦ من حديث أبي أمامة ، كما أخرجه السيوطي بلفظه في الدر المنثور ج:١ - ص ١٤٠ ، ٢٤٩ ، وأخرجة الهندي في كنز العمال ج:٤ - حديث رقم ٩٠٠ وحديث رقم : ٣٢٠٩٥

الإضاعة والإهمال، وعلى ذلك قال: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[١]، ولكون هذه الشريعة وسطاً سمى مقتضاها كلمة (سواء) أي عدلاً باتفاق العقول، فقال: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ﴾[٢] الآية..

إن قيل: هل ذلك للأمة كلهم أم للبعض دون البعض؟ قيل: الخطاب لأصحاب النبي ﷺ خاصة على وجه، وهو خطاب للكافة عامة على وجه، وذلك أن أصحابه في الحقيقة صاروا موجودين خير الناس، وسائر أمته ممكنون أن يصيروا أخياراً وذلك بقبولهم الفيض الذي أباحه الله لهم بعقولهم ولسان نبيهم وتدرجهم إلى بلوغ أقاصيه... إن قيل: على أي وجه شهادة النبي ﷺ علي الأمة وشهادة الأمة على الناس؟ قيل: الشاهد هو العالم بالشئ المخبر عنه مبيناً [٣]،حكمه، وأعظم شاهد من ثبتت شهادته بحجة، ولما خص الله تعالى الإنسان بالعقل والتمييز بين الخير والشر وكمله ببعثة الأنبياء، وخص هذه الأمة بأتم كتاب، كما وصفه بقوله: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾[٤] وقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾[٥]، فأفادناه -عليه السلام- وبينه لنا صار حجةً وشاهداً أن نقول[٦] ما جاءنا من بشير ولا نذير، وجعل أمته المتخصصة بمعرفته شهوداً على سائر الناس..

إن قيل : هل أمته شهود كلهم ؟ أم بعضهم؟

قيل: كلهم ممكنون من أن يكونوا شهداء وذلك بشريطة أن يزكوا أنفسهم بالعلم والعمل الصالح، فمن لم يزك نفسه لم يكن شاهداً مقبولاً ولذلك قال تعالى:﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾[٧]، وعلى هذا قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾[٨]، فالقيام بالقسط

---

١ - سورة آل عمران : الآية (١١٠).

٢ - سورة آل عمران الآية : (٦٤).

٣ - فى (أ - ص) مثبتاً.

٤ - سورة الأنعام : الآية (٣٨).

٥ - سورة النحل : الآية (٨٩).

٦ - أن يقولوا، وهذا اقتباس من الآية (١٩) سورة المائدة من قوله تعالى« أن تقولوا ماجاءنا من بشير ولانذير»

٧ - سورة الشمس : الآية (٩).

٨ - سورة النساء : الآية (١٣٥).

مراعاة العدالة، وهي بالقول المجمل ثلاث:

عدالة بين الإنسان ونفسه، وعدالة بينه وبين الناس، وعدالة بينه وبين الله -عز وجل-، فمن رعى ذلك فقد صار عدلاً شاهداً لله - عز وجل-.

إن قيل: فهل هم شهود على بعض الأمم [١] أم على الناس كافة؟ قيل بل كل شاهد على نفسه وعلى أمته وعلى الناس كافة فإن مَن عرف حكمة الله تعالى وجوده وعدله ورأفته، علم أن لم يغفُل[٢] تعالى عنه ولا عن أحد من الناس، ولا يبخل عليهم ولا يظلمهم، ومن علم ذلك فهو شاهد لله على مَن في زمانه وعلى من قبله ومن بعده، وعلى هذا الوجه ما روي في الخبر "أن هذه الأمة تشهد للأنبياء على الأمم" [٣]، إن قيل: ما المشبَّهْ وما المشبه به في قوله كذلك قيل :ولما قال: ﴿وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [٤] بين أن نعمته بهذا التشريف كنعمته بالهداية إلى صراط مستقيم.

قوله - عز وجل : ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا﴾ الآية (١٤٣) - سورة البقرة .

يعني ما أمرناك بالتوجه إلى بيت المقدس إلا لنعلم، أي لنعلم الآن من يتبع الرسول ممن لا يتبعه، وقيل معناه: إلا لنعلم حينئذ من ينقاد لك من العرب في اتباعك إلى الصلاة إلى بيت المقدس، وقيل معناه: ما غيرنا حكم القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم، والقبلة على هذا كله بيت المقدس، وقيل معناه: ما جعلنا هذه القبلة التي أنت عليها أي أمرناك بها يعني الكعبة، وإنما استعمل فيه "كان" إشارة إلى أن حكم الله تعالى بذلك قد تقدم في سابق علمه، وقيل: عنى الكعبة حتى توجه إليها قبل

---

١ - فى (و-ج) الأمة وهو تصحيف.

٢ - فى (أ-ص) يفعل وهو خطأ من الناسخ.

٣ - أورد القرطبي ماروي عن عبادة بن الصامت قال : سمعت الله ﷺ يقول : أعطيت أمتي ثلاثاً لم تعط إلا الأنبياء - كان الله إذا بعث نبياً قال له : أدعُني أستجب لك، وقال لهذه الأمة - ادعوني استجب لكم، وكان الله إذا بعث نبياً قال له : ماجعل عليك في الدين من حرج، وقال لهذه الأمة - وماجعل عليكم في الدين من حرج، وكان الله إذا بعث النبي جعله شهيداً على قومه، وجعل هذه الأمة شهداء على الناس" أخرجه الترمذي في نوادر الأصول، كما أورد القرطبي ماثبت في صحيح مسلم عن أنس عن النبي ﷺ أنه قال : حين مرت به جنازة : وجبت -وجبت - وجبت، فأثنى عليها خيراً .. إلخ الحديث حيث قال من أثنيتم عليه خيراً وجبت له الجنة ومن أثنيتم عليه شراً وجبت له النار - أنتم شهداء الله فى الأرض، أنتم شهداء الله في الأرض، أنتم شهداء الله في الأرض. تفسير القرطبي ج :١ - ص : ٦٤٥ .

٤- سورة يونس : الآية (٢٥).

وروده المدينة، وهذا أظهر، فالآية التي بعدها هي الناسخة لما استفتح بقوله: (قد نرى)..

إن قيل : ما وجه قوله: (إلا لنعلم)، وذلك يقتضي استفادة علم وقد علم أن الله تعالى لم يزل عالماً بما كان، وبما يكون؟ قيل إن ذلك من الألفاظ التي لولا السمع لما تجاسرنا على إطلاقها عليه تعالى، ومجاز ذلك على أوجه..

الأول : أن اللام في مثل ذلك تقتضي شيئين: حدوث الفعل في نفسه، وحدوث العلم به، ولما كان علم الله لم يزل ولا يزال صار اللام فيه مقتضياً حدوث الفعل لا حدوث العلم.

والثاني: أن العلم يتعلق بالشئ على ما هو به، والله تعالى علمهم قبل أن يتبعوه غير تابعين، وبعد أن تبعوه علمهم تابعين، وهذا الجواب كالأول في الحقيقة، لأن التغيير داخل في المعلوم لا في العلم.

والثالث : معناه لنعلم حزبنا، فنسب ذلك إلى نفسه على علاته في نسبه، أفعال أوليائه إلى نفسه، كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [١]، وقال في موضع آخر: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [٢]، وقال تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ [٣]، وإنما علمه بملائكته.[٤]

والرابع: معناه لنجازي، وذلك متعارف نحو: قولك: سأعلم حسن بلائك، أي سأجازيك على حسب مقتضى علمي – قيل : فعبرعن الجزاء بالعلم لما كان هو سببه.

والخامس : أن عادة الحكيم[٥] إذا أفاد غيره علماً أن يقول تعالى "حتى يعلم كذا"، وإنما يريد إعلام المخاطب لكي يحل نفسه محل المشارك للمتعلم على سبيل اللطف..

إن قيل: كيف يتصور حقيقة انقلاب الإنسان على عقبيه؟

---

١ – سورة الزمر : الآية (٤٢).

٢ – سورة السجدة : الآية (١١).

٣ – سورة النساء : الآية (١١٣).

٤ – في (و – ج) ملائكته.

٥ – في (أ – ص) الحليم.

قيل: يتصور ذلك على وجهين: أحدهما: اعتبار لحال الإنسان ومعارفه، وهو أن الإنسان شرع في الفضيلة واكتساب المعرفة درجةً درجةً إلى حين الكمال، فإن حكمه في بطن أمه حكم النبات، ثم يصير في حكم الحيوان، ثم يصير بعد الولادة في حيز الإنسان باكتساب المعارف أولاً فأول، ثم لا يزال يترقى[1] بالعلم والعمل حتى ربما يصير قريباً من الملائكة علماً وفضلاً وعملاً، ومتى أخل بمرتبته، وصل إليها، فرجع عنها فقد انقلب[2] على عقبيه، والوجه الثاني : أن يعتبر بالأديان وفضائلها، وذلك أن الله تعالى أنشأ الأديان، فمازال يتممها شيئاً فشيئاً إلى أن كملها بالنبي ﷺ كما قال تعالى : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾[3]، وكما قال النبي عليه السلام في الخبر الذي قال فيه : (.. **فكنت في موضع اللبنة**)[4]، فمن أنعم عليه بأن أوجده بعد بعثته (عليه السلام)[5] فرغب عن شريعته مائلاً إلى غيرها من الشرائع المنسوخة قد انقلب على عقبيه، وبيَّن بقوله: ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ ، أن الانتقال عن المألوف من القبلة مستصعبٌ على الطبع، والإنسان ألوفٌ لما يتعوده سيما الشريعة، فإن ذلك إنما لا ينقل عليه من أنعم الله عليه وهداه وعرف حكمته، وعلم أنه تعالى يأمر عباده بما هو أصلح لهم كأهل "منا" الذين لما أتاهم الخبر بنسخ القبلة، وكانوا في الصلاة حولوا وجوههم نحو الكعبة من غير أن يستبينوا، وقوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ هو تسكين لمن صلى إلى بيت المقدس، من المسلمين ومن أهل الكتاب قبل النسخ، وبين أنهم يثابون على ذلك، فقد روي أن قوماً قالوا : كيف بمن مات من إخواننا وقد وصلوا إلى بيت المقدس؟ فأنزل الله تعالى، ذلك ، فإن قيل ولم قال: ﴿لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ ولم يقل صلواتكم؟

١- ساقطة من (و-ج).

٢- في (أ-ص) لقدرجع على عقبيه.

٣- سورة المائدة : الآية (٣).

٤- هذا جزء من حديث النبي صلى الله عليه وسلم ونصه: «إنما مثلي ومثل الأنبياء قبلي كرجل بنى داراً ما فأكملها وأحسنها إلا موضع لبنة، فجعل الناس يدخلونها، ويتعجبون منها ويقولون لولا موضع اللبنة، فكنت موضع اللبنة». رواه الترمذي في باب ماجاء في مثل النبي - صلي الله عليه وسلم والأنبياء قبله - حديث رقم : ٢٨٦٢، وفي الباب عن أبي بن كعب وأبي هريرة، وقال فيه الترمذي : هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه، ورواه الإمام أحمد في مسنده من حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم: «فضلت على الأنبياء بست.. إلى أن قال : مثلي ومثل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام- كمثل رجل بنى قصراً، فأكمل بناءه، وأحسن بنيانه إلا موضع لبنة، فنظر الناس إلى القصر فقالوا: ما أحسن بنيان هذا القصر لو تمت هذه اللبنة ألا فكنت أنا اللبنة - ألا فكنت أنا اللبنة» المسند - ج:٢، ص٤١٢، ورواه البخاري في صحيحه في كتاب المناقب -ج:٤ص ١٦٢ ورواه مسلم في صحيحه في كتاب الفضائل - ج:٥ ص ١٧٩٠ حديث رقم : ٢٢٨٦.

٥- ساقطة من (أ-ص).

قيل: عدل إلى لفظ الإيمان الذي هو عام في الصلاة وغيرها ليفيدهم أنه لم يضع لهم شئٌ مما عملوا به ثم نسخ عنهم، فإن قيل: ولمَ لمْ يقل إيمانهم؟ قيل: ذكر بلفظ الخطاب ليتناول الماضين والباقين تغليباً لحكم المخاطب على الغائب في اللفظ، ثم بين بقوله تعالى : (إن الله بالناس لرؤوف رحيم) أنه لا يضيع إحسانهم وهو رؤوف بهم، فإن رأفته بالناس وإضاعة إحسانهم متنافيان لا يجتمعان.

قوله عز وجل :

﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ الآية :(١٤٤) – سورة البقرة .

قطر وشطر وشطن ألفاظ متقاربة المعاني تقارب ألفاظها، فقطر معناه انفصل عن قطره أي جانبه ومنه القطرة القليل المنفصل من المائع، وشطر: انفصل وتباعد، ودار شطور منفصلة عن الدور، وشطون بعيدة، وقد يستعمل الشطور موضع الشطون، لكن الشطون لما هو أبعد، ورجل شاطر أي منفصل عن الجماعة بالخلاعة، وشاطرته: أي أخذت شطراً و تركت له شطراً، وشاة شطور لها ضرع واحد وأحد ضرعيها أكبر كأنه لا يعتد بالآخر، وتوجهت شطره أي نحوه اعتباراً بالشطر المقابل من شطريه، وتقلب الوجه أبلغ من تقلب العين، على أن الوجه يراد به التوجه، كقولك: "وجهتي إلى فلان" إن قيل: هل كان يستخط- عليه السلام- توجهه إلى بيت المقدس حتى قيل **﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾**؟

قيل لم يقصد بذلك أنك كنت ساخطاً، وإنما كان -عليه السلام- يحركهُ السر، ويعلم بما يلقي في روعه أن الله تعالى يريد تغييراً في القبلة، وكان يتشوفه ويحثه، وقيل معنى (ترضاها) أي يرضاها، لكن يُبين بهذا القول أن مرادك لم يخالف مرادي.

وقول مجاهد وابن زيد، أحب النبي عليه السلام التوجه إلى الكعبة مخالفة لليهود وقول ابن عباس "إنه أحبها اقتداء بإبراهيم عليه السلام" وقول الزجاج إنه أحبها لاستدعاء العرب بها إلى الإسلام فكلها صحيحة إذ لا منافاة بين هذه الإرادات، وهذه منزلة يشير إليها أولو الحقائق ويذكرون

أنها فوق التوكل؛ لأن قاضية المتوكل الاستسلام لما يجري عليه من القضاء كأعمى يقوده بصير فهو به، وهذه المنزلة هي أن يحرك الحق سره بما يريده فعله، وربما يكون ذلك بوحي من خارج لقوله تعالى لإبراهيم أسلِم، وربما كان ذلك بإلهام من باطن كما أوحى إلى أم موسى، ومعنى (تقلب وجهك في السماء) أي تطلعك الوحي المنزل، وقيل: إن في ذلك تنبيهاً على حسن أدبه حيثما انتظر ولم يسأل، فالولي الذي حصلت له القربة قد ينقص عن المسألة اتكالاً على ما تيسر له، كما روي عنه عليه السلام أنه قال أن الله تعالى يقول:

(مَنْ شَغَلَهُ ذِكْرِي عَنْ مَسْأَلَتِي أَعْطَيْتُهُ أفضل من ما أُعطِي السَّائِلِين) [(١)] .. وعلى ذلك قول أمية بن أبي الصلت:

إِذَا أَثْنَى عَلَيْكَ الْمَرْءُ يَوْماً   كَفَاهُ مِنْ تَعَرُّضِكَ الثَّنَاءُ[(٢)]

وبين تعالى بهذه الآية رغبة النبي عليه السلام في التوجه إلى الكعبة وإلحائه، وقرن به علم أهل الكتاب بأن ذلك حق من الله -عز وجل-، ونبه بقوله: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ على وعيد لهم، ووعد المؤمنين في إلحائهم وإمتناعهم..

إن قيل: من أين علم أهل الكتاب أن ذلك حق؟

قيل: لما تضمن كتبهم من ذكر النبي - عليه السلام-، وعلمهم أن عبادة الله أن يُخص كل رسول من أولى العزم بقبلة غير قبلة من تقدمه آنفاً..

إن قيل: كيف خاطبه أولاً بقوله ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ﴾، ثم عم بقوله: ﴿فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ﴾، قيل: أما خطابه الخاص أولاً، فتشريفاً له، وإيجاباً لرغبته وإنجازاً لوعده، وأما خطابه العام بعده، فلأنه، كان

١- الحديث أخرجه الترمذي في سننه في كتاب فضائل القرآن حديث رقم ٢٩٢٦، وقال هذا حديث حسن غريب ، وأخرجه ابن حجرالعسقلاني في فتح الباري في كتاب الدعوات - باب الدعاء عندالكروب ورواه ابن الجوزي في الموضوعات في باب الاشتغال بالذكر عن الدعاء ج : ٣ ص ٣١٥، وفي ج :١١- ص ١٤٧، ونسبه الحافظ العراقي في تخريجه للبخاري في التاريخ، والبزار في المسند والبيهقي في الشعب من حديث عمر بن الخطاب. وقال : فيه صفوان بن أبي الصفار ذكره ابن حبان في الضعفاء وفي الثقات، وذكره السيوطي في اللآلىء المصنوعة - ج : ١ - ص ٣٤٢، وقال : قال ابن حبان : موضوع، تفرد به صفوان لايحتج به.

٢- هذا البيت لأمية بن أبي الصلت ، وهو من قصيدة مطلعها:

أأذكر حاجتي أم قد كفاني   حياؤك إن شيمتك الحياء

وهو في ديوانه - صـ ٣٣٤ - جمع وتحقيق :د/ عبدالحفيظ السطلي - ط :٢ صـ ١٩٧٧- دمشق.

يجوز أن يعتقد أن هذا أمر قد خُصَّ عليه السلام به كما خُص بقوله: ﴿ قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾[١]، ولأنه لما كان تحويل القبلة أمراً له خطر خصهم بخطابٍ مفرد ليكون ذلك أبلغ، فمعلوم من عادة السلطان إذا خاطب والياً من قبله بأمر ذي بال يعمه، ورغبته أن يخصه بخطاب مفرد ليكون ذلك أوقع عندهم [وأدعى لهم إلى قبولهم]،[٢] وليكون لهم في ذلك تشريف، ولأن في الخطاب العام تعليق حكم آخر به، وهو أنه لا فرق بين القريب والبعيد [٣] في وجوب التوجه (إلى الكعبة) [٤]، والضمير في قوله ﴿أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ قيل هو التحويل وقيل: هو التوجه، والقولان في التحقيق واحد.

قوله عز وجل :

﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ الآية:(١٤٥) – سورة البقرة.

إن قيل: كيف حكم[٥]،بأنهم لا يتبعون قبلتك وقد أمن منهم فريق– قيل: قال بعضهم: إن هذا حكم على الكل دون الأبعاض، وهذا صحيح بدلالة أنك لو قلت: ما آمنوا، ولكن آمن بعضهم لم يكن منافياً، وقيل عنى به أقوامٌ مخصوصون، وقيل: عنى ما تبعوا قبلتك بقلوبهم، وقوله: (وما أنت بتابع قبلتهم)، أي لا يكون ذلك منك[٦]، فمحال أن من عرف الله حق معرفته يرتد، وقد قيل: (ما رجع من يرجع[٧] إلا من الطريق)، أي: "ما أخل بالإيمان إلا من لم يصل إليه حق الوصول"..

إن قيل: فقد يوجد من يحصل له معرفة ثم يرتد؟ قيل: إن الذي يقدر أنه معرفة، وهو ظن متصور بصورة العلم، فأما أن يحصل العلم الحقيقي ثم يعقبه الارتداد فمحال ولم يعن بهذه المعرفة

---

١ – سورة المزمل : الآية (٢) .

٢ – ساقطة من (و – ج).

٣ – في (أ – ص) القرْب والبعد .

٤ – ساقطة من (و – ج).

٥ – في (أ – ص) علم.

٦ – في (و – ج) ميل .

٧ – في (أ– ص) من رجع.

. ما جعله الله تعالى للإنسان بالفطرة، فإن ذلك كشررة تخمد إذا لم تتوقد[١]، وبين أن بعضهم لا يتبع قبلة البعض، وذلك لارتكابهم الهوى وتأنيهم عن تأمل الهدى، وحذر نبيه عن اتباع أهوائهم، ونبه أن اتباع الهوى بعد التحقق بالعلم يدخل متحريه في جملة الظلمة، وقد أكثر الله تحذيره من الجنوح إلى الهوى حتى كرر ذلك في عدة مواضع، وقول من قال الخطاب للنبي ﷺ والمعني به الأمة، فلا معنى لتخصصه، فإن الله تعالى يحذر نبيه من اتباع الهوى أكثر مما يحذر غيره المنزلة الرفيعة إلى تحديد الإنذار عليه أحوج حفظاً لمتركته وصيانة لمكانته، وقد قيل: حق المرأة المجلوة أن يكون بعدها أكثر إذا كان القليل من الصدأ عليها أظهر..

إن قيل: كيف أجاب فقال: ﴿**لَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ**﴾[٢]، ولا يقال: إن جئتني ما فعلت، وإنما يقال: لم أفعل؟ قيل: قد قال سيبويه: إن ذلك لما تضمن معنى القسم، فأدخل على أن اللام صار جوابه كجواب القسم، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿**وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا**﴾[٣] وقال الأخفش: لما كان إنْ، ولو متضمنان الشرط حمل "إن"، على "لو" فعلى هذا يصح أن يقال: "إن أتيتني ما أكرمتك"، وعلى قول "سيبويه" لا يصح مالم يكن مع "إن" اللام نحو لئن.

قوله عز وجل :
﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾
الآية (١٤٦) – سورة البقرة.

أتيناهم أبلغ من قوله: (أوتوا)، فإن (أوتوا) قد يستعمل فيمن لم يكن له قبول، وآتيناهم أكثر ما جاء فيمن له قبول نحو: ﴿**أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ**﴾[٤]، وعلى ذلك كل ما جاء من نحو هذا فيما يختص بإكرام نحو: ﴿**هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا**﴾[٥] وقوله (يعرفونه) أي العلم الذي هو النبوة

---

١ – في (و – ج) تتفقد .
٢ – سورة البقرة الآية (١٤٥)
٣ – سورة الروم الآية (٥١)
٤ – سورة الأنعام : الآية (٨٩) .
٥ – سورة مريم – الآية :(٥٨).

المتقدم ذكرها في قوله ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾[١] وقيل: عنى النبي عليه السلام بقوله: ﴿يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ﴾[٢] وقيل: يعرفون أن التوجه إلى الكعبة حق واختلاف أقاويلهم باختلاف نظراتهم إلى الألفاظ من حيث المعنى بأن معرفة الرسول عليه السلام ومعرفة صدق قوله وصحة ما يأمر به من أمر القبلة متلازمة، وإنما قال: ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ ولم يقل أنفسهم، لأن الإنسان لا يعرف نفسه إلا بعد انقضاء برهة من دهره، ويعرف ولده من حين وجوده، ثم في ذكر الابن، ما ليس[٣] في ذكر النفس، فإن الإنسان عصارة ذاته ونسخة صورته، وإنما قال: ﴿لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ﴾ ولم يقل يكتمونه، لأن في كتمان أمره كتمانه الحق جملة، وزاد في ذمهم بقوله: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

فقد قيل: ليس المرتكب ذنباً عن جهلٍ كمن يرتكبه عن علم..

قوله عز وجل :
﴿الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ الآية :(١٤٧) - سورة البقرة.

الامتراء من (مريت الناقة) إذا مسحت ضرعها، وبه شبه مري الريح السحاب المطر، ومرى الفارس فرسه للعدو، واستعير الممتري للمتردد ،وفي الحكم، ولهذا استعمل فيه المتحير،وهو من حار إذا رجع،وبين أن كل حق هو من الله تعالى، إما بإبداعه وإيجاده وصنعه، وإما بأمره وإما توفيقه، وقوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ ليس بنهي عن الشك[٤]، إذ كان ذلك ليس بقصد من الشاك، بل هو حث على اكتساب المعارف المزيلة للشك واستعمالها ، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [٥]

---

١ - سورة البقرة - الآية : (١٤٥).

٢ - سورة الأعراف - الآية : (١٥٧).

٣ - فى (و - ج) ما فى ذكر النفس.

٤ - فى (و - ج) الشد، وهو تصحيف.

٥ - سورة هود : الآية (٤٦) .

قوله عز وجل :
﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ الآية: (١٤٨) – سورة البقرة.

أي: لكل أمة، وقيل لكل نبي وجهته، وقيل قبلة، وقيل: شريعة، وذلك في المعنى واحد، وهو ضمير لله- عز وجل- أي الله موليها إياه، وقيل: ضمير للكل: أي كل موالى جهته، وقرئ: (هو مولاَّها)[1]، فيكون هو ضمير ضمير الكل ولا يحتاج إلى تقدير ضمير آخر، وقيل: معنى: **﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ﴾** أي للناس كلهم الآن وجهة، وهي الإسلام تنبيهاً أن الأديان به نسخت، نحو: **﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾**[2]، وقوله: **﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾**[3] وفي الآية قولٌ آخر، وهو أن الله تعالى قيض الناس في أمور دنياهم وأخراهم لأحوال متفاوتة، وجعل بعضهم أعوان بعض فيها، فواحد يزرع، وآخر يطحن، وآخر يخبز، وكذلك في أمرالدين، واحد يجمع الحديث، وواحد يطلب الفقه، والثالث يطلب الأصول، وهم في الظاهر مختارون، وفي الباطن مسخرون، وإليه أشار النبي بقوله: **«كُلٌ مُيَسَّرٌ لِماَ خُلِقَ لَهُ»**[4] وجعل للكل سبيلاً للوصول إليه تعالى، وإذا راعى ما هو بصلاة وأدى الأمانة فيه، ولهذا سئل بعض الصالحين عن تفاوت الناس في أفعالهم، فقال: كل ذلك طريق إلى الله تعالى وصل إليه، أراد أن يعمرها بعباده فبين أن لكل طريقاً إذا تحرى فيه وجه الله تعالى وعلى ذلك قوله: **﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾**[5]، وقوله: **﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ﴾**[6]، كقوله: **﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾**[7]،، وقوله: **﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ﴾** [8]، وقوله: **﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾** يعني أى شغل تحريتم، وحيثما تصرفتم، وأي معبود اتخذتم فإنكم مجموعون ومحاسبون عليها..

---

١ – قرأ بهذا الوجه كل من : ابن عامر، وابن عباس، وأبى رجاء، وعاصم، وأبى بكر، وشريح، ومحمد بن على الباقر، معجم القراءات القرآنية } : ج :١ ص ١٢٦.

٢ – سورة آل عمران : الآية (١٩).

٣– سورة آل عمران : الآية (٨٥).

٤– الحديث عن عمران بن حصين – قال : قال رجل« يارسول الله ، أيعرف أهل الجنة من أهل النار ؟ قال نعم ، قال : فلم يعمل العاملون ؟ قال ، (كل يعمل لما خلق له ، أو لما ييسر له)، أخرجه البخاري في كتاب القدر ح: ١١– ص ٤٩١.

٥ – سورة المائدة : الآية (٤٨).

٦ – سورة البقرة : الآية (١٤٨).

٧ – سورة آل عمران الآية (١٣٣)

٨ – سورة القصص : الآية (٧٧).

قوله عز وجل :

﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ الآية :(١٤٩) - سورة البقرة.

إن قيل: ما وجه تكرير (فول وجهك) قيل: إعادة ذلك لحكمة لطيفة، وهو أنه ذكر لتغيير القبلة ثلاث علل[١] من قوله: ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ ﴾ [٢] إلى قوله: (لعلكم تهتدون)- الأولى: إكرامه تعالى نبيه- عليه السلام- إذ ولاه قبلة أبيه إبراهيم ابتغاء مرضاته، وهو قوله : (قد نرى تقلب وجهك)، والثانية: إخباره أن لكل صاحب دعوة قبلة وهو قوله: (ولكل وجهة)، والثالثة : قطعُ حجة معانديه وهو قوله: ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ ﴾ [٣]، فقرن [٤] بذكر كل علة معلولها الذي هو الفرض[٥]، وذلك[٦] قوله: (فول وجهك شطر المسجد الحرام) لقولك: إن هذا فرض لسبب كذا، وفرض لسبب كذا، فيعتد المعلول[٧]مع العلة، وهذا أبلغ من قول من قال: لما طال القصة، واعترض فيما بينها ما فيه زيادة بيان أعاد الحكم نحو: ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ ﴾[٨] إلى قوله: ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ﴾ [٩]، وأنه أعاد "لما جاءهم" وأشار بقوله:﴿ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾ إلى تحقيق ما قدمه، فبين أنه إذا كانت الحكمة تقتضي أن لكل صاحب شرع قبلة يختص بها، وأنت صاحب شرع، فتغيير القبلة لك حق، إن قيل: لم خص الأول بلفظ الرب، والثاني بلفظ الله؟

قيل: لأن الأول لما نبهنا[١٠] على الاستدلال على حكمته بالنظر إلى أفعاله ذكر لفظ الرب المقتضيَ [للنعم المسطر فيها إلى المنعم][١١]، ويستدل بها عليه، ولما انتهى إلى ذكر الوعيد ذكر لفظ الله تعالى المقتضي للعبادة التي من أحل بها عليه استحق أليم عقابه.[١٢]

---

١ - فى (أ - ص) ثلاث آيات .

٢ - سورة البقرة : الآية (١٤٢).

٣ - سورة البقرة الآية (١٥٠).

٤ - فى (أ - ص) ففرق وهو تصحيف.

٥ - فى (أ - ص) الحكم.

٦ - فى (أ - ص) وذكر.

٧ - فى (أ - ص) الحكم.

٨ - سورة البقرة : الآية (٨٩).

٩ - سورة البقرة : الآية (٨٩).

١٠ - فى (أ - ص) تنبيه.

١١ - ساقطة من (و -ج)

١٢ - فى (أ - ص) العقاب.

قوله عز وجل :

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾

الآية (١٥٠) – سورة البقرة.

فإن قيل: لم كرر قوله: **﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾** ، قيل: حث بأحدهما على التوجه نحو القبلة بالقلب والبدن في أي مكان حصل الإنسان نائياً كان عنها أودانياً منها، وذلك حال الاختيار والتمكن، وحث بالأُخر على التوجه بالقلب نحوه عند اشتباه القبلة، وفي حال المسامعة، وفي صلاة النافلة في حال المسير في السفر وعلى الراحلة.. إن قيل: كيف استثنى الذين ظلموا وذلك يقتضي أن يكون لهم حجة.؟ قيل: الحجة ههنا موضوعةً موضع الاحتجاج نحو: **﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ﴾**[١] ومعناه: لئلا يحتج عليكم أحد إلا وهو وظالم، وقوله: (لئلا) إبانة عن الغرض[٢]، والعاقل لا يقصد إلا عرضاً يصح أن يُصيبه، فالمؤمن لا يقصد بذكر الحجة أن يكف الناس بها عن الاحتجاج لعلمه أن منهم معانداً لا يبالي بارتكابه الباطل، والله تعالى لا يأمر بذلك لكونه غير مستطاع، فكأنه قال: اقصدوا بالحجة دفع الناس إلا الظالمين، وقيل الظالمون إشارة إلى مشركي العرب، حيث قالوا: "إن محمداً عاد إلى قبلتنا"، وقد استدل بعضهم على أن الناس ههنا لمشركي قريش بما روي في الخبر أن كل مافي القرآن من قوله (يَاأَيُّها النَّاسُ) فمخاطبة لأهل مكة، وما فيه من (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا) فمخاطبة لأهل المدينة[٣]، وقول من قال تقديره: **﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾**.

---

١ – سورة الشوى : الآية (١٦).

٢ – فى (أ –ص) إنابة عن العوض ، وما فى (و – ج) هو الأصح

٣ – أورد القرطبي ذلك وقال : قال علقمة ومجاهد : كل آية أولها :(يأيها الناس) فإنما نزلت بمكة ، وكل آية أولها (يأيها الذين آمنوا) فإنما نزلت بالمدينة وعلق على ذلك بقوله : (وهذا يرده أن سورة البقرة والنساء مدنيتان وفيهما (يأيها الناس) ، وأما قولهما فى (يأيها الذين آمنوا) فصحيح ثم أورد قول عروة بن الزبير : ماكان من حدث أو فريضة فإنه نزل بالمدينة وماكان من ذكر الأمم والعذاب فإنه نزل بمكة وهذا هو الأصح تفسير القرطبي ... ج ١–ص٢٧١.

إلا حجة الذين ظلموا، قال: والظالم لا حجة له في الحقيقه فصار كقول الشاعر:

وَلاَ عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ بِهِنَّ فُلُولٌ[١]

البيت راجع إلى الأول، وأما قول أبي عبيدة إن تقديره "والذين ظلموا" فإن أراد أن معناه هذا على تقدير ما تقدم فصحيح، وإن أراد أن معناه بمعنى "الواو" فبعيد، وقول الشاعر الذي احتج به وهو قوله:

مَا بِالْمَدِينَةِ دَارٌ غَيْرُ وَاحِدَةٍ

دَارُ الْخَلِيفَة إلاَّ دَارُ مَرْوَانِ[٢]

فتقديرها: ما بالمدينة دار إلا دار مروان غير واحدة، وهي دار الخليفة، فقد أثبت دارين فصار من حيث المعنى، كما قال: ليس معنى إلا معنى الواو، وإن قيل: أي حجة لهم على الكفار إذا فعلوا ذلك، وأي حجة تسقط عنهم، قيل لما ذكر الله تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾، ومن أن التوجه إلى الجوانب سواء في المعقول أبان أنه إنما قصرهم على جانب واحد لئلا يختلف توجيههم[٣] فيحتج عليهم الكفار بالاختلاف، ويقولون: ما بالكم تصلون إليها تارةً وإلى غيرها أخرى، وقوله: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ أي لا تراقبوهم ولا تستحيوا منهم، وذلك لما علم أن كلامهم عناد للعقيدة عند ظهور الحجة عن التزامها، فقال لهم ذلك والخشية قد تجري مجرى المراقبة والاستحياء في قوله: ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾[٤] وقوله: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾ معطوف على قوله: ﴿لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ وإتمام نعمته هو أن نعم الله تعالى ضربان: أحدهما موهوب، والآخر مكتسب،

١- البيت للنابغة الذبياني وهو:

وَلاَعَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ بِهِنَّ فُلُولٌ من قِرَاعِ الْكَتَائِبِ

وهو في ديوان النابغة - ص ٤٤، والصناعتين - ص ٣٢٤، والعمدة ج:٢ - ص ٤٥، واعجاز القرآن - للباقلاني - ص ١٦١، وأورده الراغب في محاضرات الأدباء - ج١ - ص ٢٩٧، ج٣ ص ١٥٦ والإشارات والتنبيهات في علم البلاغة للجرجاني ص ٢٨٣ - تحقيق دكتور / عبد القادر حسين.

٢ - البيت نسبه سيبويه في الكتاب إلي الفرزدق في ج :١ :ص٣٧٣، وورد في تخريج إعرابه في السيرافي على الكتاب - ج :٣ ص ٣٠٦ من التيمورية.

٣ - في (أ-ص) بوجههم

٤ - سورة الأحزاب : الآية (٣٧).

فالموهوب : كجودة الحفظ والفهم وصحة البدن والجاه، وكل ذلك لا يستحق بحصوله الحمد، ولا بفواته الذم، والمكتسب كالعلم والعمل الصالح المتوصل بهما إلى الثواب وهو الإيمان، وبه يستحق المدح والذم، فبين تعالى أنكم إذا ائتمرتم في أمر القبلة، وصلتم إلى الحالة التي يحصل لكم الخشية المشار إليها بقوله:

﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (١) فقد أتممت نعمتي عليكم (واستتممتموها).(٢)

قوله عز وجل :

﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ الآية (١٥١)-سورة البقرة.

ما مع مابعده مصدر، أي: كإرسالنا، والكاف فيه متعلق بقوله ولأتم نعمتي عليكم، أي إذا أنتم ائتمرتم في أمر القبلة وخشيتم الله دون الناس أتم عليكم نعمته كنعمته بإرسال رسول هكذا تنبيهاً أن النعمة في بعثته ودعائه العالم إلى دين مخالف لدينهم، ووعدكم أنه سيظهر دينه على الأديان كان أعظم من تغيير القبلة، وقد وفى بذلك، وقيل: تتعلق الكاف بقوله: "**اذكروني**"، وهو بعيد..

إن قيل: كيف أخّر فيما حكى عن إبراهيم عليه السلام قوله: **(رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً)**(٣) ذكر التزكية عن تعليم الكتاب والحكمة وقدمها هاهنا؟ قيل: التزكية من الله عز وجل ضربان، أحدهما الشهادة بطهارة الإنسان، وذلك يكون بتزكية الإنسان نفسه، وذلك مؤخر عن تحصيل الإنسان الكتاب والحكمة والعمل بهما، وأياهما عنى إبراهيم -عليه السلام - في دعائه، فلذلك أخر، والثانية من الله -عز وجل- تبيين أحكامه الشرعية(٤)، ومن العبد العمل بها وذلك متقدم علي معرفة حقائق الكتاب والحكمة وهي المعنية ههنا، فلهذا قدم.

---

١ - سورة فاطر : الآية (٢٨).

٢- ساقطة من (أ - ص).

٣ - سورة البقرة : الآية (١٢٩).

٤ - في (أ - ص) أحكام الشريعة.

أن قيل: وما معنى ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾؟

وهل ذلك إلا الكتاب والحكمة؟

قيل: عنى بقوله: ﴿مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ العلوم التي لا طريق إلى تحصيلها إلا بالوحي على ألسنة الأنبياء، ولا سبيل إلى إدراك جزئياتها ولا كلياتها إلا به، وعنى بالحكمة والكتاب ما للعقل مدخل في معرفته شئ منه، وأعاد ذكره يعلمكم مع قوله: ﴿مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ تنبيهاً أنه علمٌ مفرد عن المتقدم ذكره..

قوله عز وجل :

﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ الآية (١٥٢)- سورة البقرة .

الذكر حضور الشئ بالقلب والقول، فلهذا قيل: الذكر ذكران ذكر باللسان، وذكر بالقلب، وقد يكون ذلك لحضور لا عن نسيان، وقد يكون عن نسيان، ولهذا قيل: الذكر ذكران، ذكر عن نسيان، وذكر لا عن نسيان.

وإلى الثاني ذهب الشاعر في قوله:

وكيف أذكره إذ لست أنساه ؟ [١]

وقال بعض العلماء: لما خص الله هذه الأمة بفضل قوة زائدة على ما لبني إسرائيل، قال لبني إسرائيل: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾[٢] ، فأمرهم بتذكر نعمته المنبهة عن الغفلة لينظروا منها إليه[٣] وقال لهذه الأمة: **(فاذكروني)**، فأمرهم أن يذكروه بلا واسطة إن قيل: ما الفرق بين شكرت لزيد ، وشكرت زيداً؟ قيل: شكرت له هو أن يعتبر إحسانه الصادر عنه فيثني عليه بذلك، وشكرته: إذا لم تلتفت إلى فعله، بل تجاوزت إلى ذكر ذاته دون اعتبار أفعاله، فهو أبلغ من شكرت له، إذ قد يكون

١- بحثت عنه فلم أجده، ولعله لأحد الصوفية كابن الفارض أو ابن عربي **وصدر** البيت :-

الله يعلم أني لست أذكره

٢- سورة البقرة : الآيتان (٤٠ ، ٤٧).

٣ - في (أ - ص) إلى المنعم.

للإنسان فعل في الظاهر محمود، ثم لا يكون ذلك الإنسان على الإطلاق محموداً، وإنما قال: (واشكروا لي)، ولم يقل: (واشكروني) علماً بقصورهم عن إدراكه بل عن إدراك الآية كما قال: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا﴾[1] ، فأمرهم أن يعدوا بعض أفعاله في الشكر له، وشكر الله- عز وجل- أصعب عبادة وأشرفها ،ولهذا قيل: غاية شكر الله الاعتراف بالعجز عنه، فكل نعمة يمكن شكرها إلا نعمة الله، فإن شكرها نعمه منه، فذلك بتوفيقه، فإن العبد محتاج أن يشكر نعمته الثانية كشكره للأولى، وهذا يؤدي إلى مالا يتناهى[2]، فلهذا قيل: لا يقدر عليه، ولصعوبة الشكر قال: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾[3] ، ولم يثن على أنبيائه وأوليائه بالشكر إلا على اثنين، على نوح حيث قال: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾[4] وعلى إبراهيم حيث قال: ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾[5] ، فذكر ذلك بلفظ أدى العدد تنبيهاً على شرف هذه المنزلة وصعوبتها..

إن قيل: علام عطف قوله: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾؟

قيل: على قوله: ﴿فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ﴾[6] ، وذلك أنه لما أمرنا باستقبال القبلة، وبين العلة وأنه يريد أن يتم نعمته عليكم كما أنعم ببعثته رسوله أعاد النظم الذي هو الأمر، فأمر بالذكر الواجب بعضه في الصلاة، وبعضه في غيرها، وإن قيل: ولم قال بعده: ﴿وَلا تَكْفُرُونِ﴾ ولم يقتصر على أحد اللفظين؟ قيل: لما كان الإنسان قد يكون شاكراً في شئ ما، وكافراً في غيره، فيصح أن يوصف بهما على حسب النظر إلى فعليه، فلو اقتصر على قوله: ﴿وَاشْكُرُوا لِي﴾ لكان يجوز أن يتوهم أن من شكره مرة أو على نعمة ما فقد امتثل، ولو اقتصر على قوله: ﴿وَلا تَكْفُرُونِ﴾ لكان يجوز أن يتوهم أن ذلك نهى عن تعاطي قبيح دون حث على الفعل الجميل، فجمع بينهما لإزالة هذه الشبهة، ولأن في قوله:

١- سورة إبراهيم – الآية : (٣٤) ، وسورة النحل – الآية : (١٨).

٢- في (أ – ص) مالا نهاية له.

٣- سورة سبأ : الآية (١٣).

٤- سورة الإسراء : الآية (٣).

٥- سورة النحل :الآية (١٢١).

٦- سورة البقرة : الآية (١٥٠).

﴿وَلا تَكْفُرُونِ﴾ نهياً عن الكفر المطلق، وذلك معنى [زائد على قوله (واشْكُرُوا لى) وقدم قوله][1] ﴿وَاشْكُرُوا لِي﴾ وأخر قوله: ﴿وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ تنبيهاً على أن ترك الشكر كفران..

إن قيل: فلم قال: (ولا تكفرون) ولم يقل (ولا تكفروا لي)؟ قيل: لأنه يقتصر من العبد على شكر نعمه، ولا يقتصر منه على أن لا يكفر نعمه، بل نهى عن الكفر به أكثر مما نهى عن كفر نعمه، إذ قد يعفو عن كفر بعض النعم ولا يعفو عن الكفر المطلق..

قوله عز وجل :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾

الآية (١٥٣) – سورة البقرة .

قد تقدم الكلام في الصبر والصلاة وأنواعهما، فحث الله تعالى على الصبر، إذ هو ذريعة إلى فعل كل خير ومبدأ كل فضل، فإن أول التوبة الصبر عن المعاصي، وأول الزهد الصبر عن مناجاة الدنيا، وأول الإرادة الصبر على طلب ما سوى الله، ولهذا قال عليه السلام: **(الصَّبْرُ مِنَ الإِيمَانِ بِمَنزِلَةِ الرَّأْسِ مِنَ الجَسَدِ)**،[2] وقال: **(الصَّبْرُ خَيْرٌ كُلُّهُ)** والصلاة هي المقتضية للخشوع والداعية إلى ترك الفحشاء كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾[3] ولما أمر بالذكر والشكر حث على الاستعانة بالصبر والصلاة- تنبيهاً أنه بهما يتوصل إليه، فإن الصبر مبدأ الإيمان، والشكر منتهاه، ولهذا قال عليه السلام: **«الصَّبْرُ نِصْفُ الإِيمَانِ»**[4] ثم قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾، فضمن صحبته إياهم تنبيهاً على قرب فيضه وتوفيقه، كما قال:

١- ساقطة من (أ – ص).

٢- الحديث رواه الديلمي عن أنس، وورد في كتاب : راموز الأحاديث – ص٢١٧.

٣- سورة العنكبوت : الآية (٤٥).

٤- نص الحديث : « الصبر نصف الإيمان واليقين » ، والحديث أورده الزبيدي في إتحاف السادة المتقين ج: ٤- ص١٨٧، ج:٩- ص٥، ١٥٢، ٢١١، أورده السيوطي في الدر المنثور – ج :١ ص ٦٦، وأورده المنذري في الترغيب والترهيب ج :٤ ص ٢٧٧ ، وأخرجه ابن حجر العسقلاني فى فتح الباري ج : ١- ص ٥١٢، وذكره المتقي الهندي في كنز العمال – حديث رقم : ٦٤٩٨، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد – ج :١ – ص ٥٧، وأورده الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة ، وقال فيه : « منكر » رواه الأعرابي من طريق المخزومي – حديث رقم ٤٩٩ – ج : ١- ص ٥٠٦ ، وأخرجه أبو نعيم والخطيب من حديث ابن مسعود بسند حسن . انظر : الإحياء – باب الصبر ، وورد في كتاب: راموز الأحاديث – ص٢١٧ عن ابن مسعود، وأورده الراغب فى الذريعة إلى مكارم الشريعة – ص٢٨١ – تحقيق: الدكتور أبو اليزيد العجمي.

﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾[١] تنبيهاً أنه يراعيهم بالعناية... إن قيل: لم قال: ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ ولم يقل: "مع المصلين"، وقال في أخرى: ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ ﴾[٢] فاعتبر الصلاة دون الصبر؟ قيل:

لما كان فعل الصلاة أشرف وأعلى من الصبر، إذ قد ينفك الصبر من الصلاة ولا تنفك الصلاة من الصبر ذكر ههنا الصابرين، فمعلوم أنه تعالى إذا كان مع الصابر، كان لا محالة مع المصلي أكثر ثم قال ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ ﴾ فذكر الصلاة دون الصبر تنبيهاً أنها أشرف منزلةً من الصبر)[٣] فقد ترك توفية حق الصلاة من تصبر في كثير من الأحوال.

قوله عز وجل :

﴿ وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ ﴾

الآية (١٥٤) – سورة البقرة .

قد تقدم أن الحياة تقال على أوجه، وكل واحدة يقابلها موت، الأول[٤]: في[٥] القوة النامية التي بها الغذاء والشهوة إليها، وذلك موجود في النبات والحيوان والإنسان، ولذلك يقال: نبات حي، والثاني[٦] في القوة الحساسة التي بها الحركة المكانية، وهي موجودة[٧] في الحيوان والإنسان[٨] دون النبات، والثالث:[٩] القوة العاملة[١٠] العاقلة [وبها يكون العقل والعلم][١١] وهي في الإنسان دون

١- سورة الطور : الآية (٤٨).
٢- سورة البقرة : الآية (٤٥).
٣- ساقطة من (أ – ص).
٤- في (أ – ص) الأولى.
٥ - في (أ – ص) هي.
٦- في (أ – ص) والثانية.
٧- ساقطة من (أ – ص).
٨- ساقطة من (أ – ص).
٩- في (أ – ص) والثالثة.
١٠- في (و – ج) القوة المروية، وهو خطأ من الناسخ.
١١-ساقطة من (أ – ص).

الحيوانات والنبات وبها يتعلق التكليف، وقد يقال للعلم المستفاد الحقيقي، والعمل الصالح حياة، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿ **اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ** ﴾[١]. وقيل: «**المحسن حي وإن كان في دار الأموات، والمسيء ميت وإن كان في دار الأحياء**»، ونرجع[٢] إلى معنى الآية فنقول: إن بعض المعتزلة لم يعتبر في ذلك تفصيلاً، وقال عني: بإثبات الحياة ونفي الموت عن الشهداء[٣] يوم الحساب، لا في الحال قال، ولا اختصاص لهم، بل إنما علق الحكم بهم، لأنه في ذكرهم، ولو ذكر معهم غيرهم لذكرهم بحكمهم واستجهل من قال إنهم أحياء، وقال: قد علم أن رسول الله {ﷺ[٤] } والشهداء في قبورهم، وهم لا يأكلون ولا يشربون، واستجهاله لمن خالفه هو لأنه فرغ إلى الحس[٥] الذي قد نفى الله تبارك وتعالى بقوله: ﴿ **وَلَكِن لَّا تَشْعُرُونَ** ﴾ أي : لا تحسون ولا تدركون ذلك بالمشاعر أي الحواس[٦] تنبيهاً أن ذلك مما السبيل إلى معرفته الفرغ إلى العقول وإلى الاعتبارات الصحيحة [دون الحواس،][٧] وإما علي طريقة غيرهم فمعلوم، وقد أجمعوا على أنه لا يثبت لهم الحياة التي بها النمو والغذاء ولا الحياة التي بها الحس، فإن فقدانهما عن الميت محسوس ومعقول، فبعض المفسرين اعتبر المعنى الآخر الذي هو العلم المستفاد والعمل الصالح، فقال: إن الله تعالى نهى أن يسمى الشهداء أمواتاً في حكم الدين، فقال: لا تقولوا لهم ما قال المشركون، ولكن قولوا هم أحياء في الدين، وهذا صحيح.،، وبعضهم اعتبر الحياة المختصة بالإنسان، وقال: إن هذه الحياة مختصة بالقوة المروية المسماة تارةً الروح، وتارةً النفس، وتارةً النسمة قال: والموت المشاهد هو مفارقة هذه القوة أي الروح البدن، فمتى كان الإنسان محسناً كان منعماً بروحه، [مسروراً بمكانه][٨] إلى يوم القيامة، وإن كان مسيئاً كان به معذباً، وإن المحسن يعلم بذلك بعد موته، وإلى هذا ذهب الحكماء ودلوا عليه بالبراهين

١- سورة الأنفال : الآية (٢٤).

٢ - في (أ - ص) ونعود.

٣- في (و - ج) للشهداء.

٤- ساقطة من (و - ج).

٥- في (أ - ص) الحياة التي.

٦- ساقطة من (أ - ص).

٧- ساقطة من (و - ج).

٨ - ساقطة من (و - ج).

والأدلة، وهو مذهب أصحاب الحديث، ويدل على صحته الأخبار والآيات المروية عن النبي ﷺ، بل إليه ذهب عادة أصحاب الملل كلها ولم يخالفهم إلا جماعة من المعتزلة، حيث جعلوا الأرواح أعراضاً لا قوام لها إلا بالأجسام، وأنها مهما فارقت الأجسام بطلت، ومما دل على صحة ذلك قوله عليه السلام: **«الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف»**(١)، وما روى أمير المؤمنين عليٌّ عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: **«إن الله خلق الأرواح قبل الأجساد بألفي عام، وإن الروح في قناديل معلقة تحت العرش»**(٢)، وقال في أرواح الشهداء ما عرفت وما روي عنه -عليه السلام- **«إن الميت ليرد على جماعة من الأموات، فلا يزالون يسألونه عن معارفهم وجيرانهم، وهو يخبرهم ويصف لهم حتى يجري ذكر الرجل» فيقول: قد مات قبلي بمدة، فيقولون : إنا لله، سُفِل به، وإن كان من الصالحين قالوا : عُلي به** (٣) ومعلوم أنه لم يرد عليهم بالأشباح، وإنما ذلك الإلقاء بالأرواح، وروي أنه لما قُتل [مَن قُتل](٤) من صناديد قريش يوم بدر، فجمعت جثثهم في قُليب، ثم أقبل النبي ﷺ، فخاطبهم بقوله: «**هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً**»(٥)، قيل: يارسول الله : أتخاطب جيفاً؟

فقال: **[ما أنتم بأسمع منهم ولكنهم لا يقدرون على الجواب]** (٦)، وما روي أنه قال: **«رأيت نسمة**

١- الحديث أخرجه البخاري في صحيحه ج:(٤) ص ١٦٢ ، وأخرجه مسلم في صحيحه في كتاب البر والصلة والآداب - باب "الأرواح جنود مجندة "من حديث أبي هريرة رقم (١٥٩، ١٦٠) ورواه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده - ج:٢ ص ٢٩٥-٥٢٧.

٢- الحديث رواه ابن الجوزي في الموضوعات من حديث عبد الله بن أيوب بن أبي علاج قال : حدثني أبي عن أبي جعفر محمد بن على بن الحسين عن أبي عن جده علي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله عز وجل خلق الأرواح قبل الأجساد بألفي عام ثم حطها تحت العرش ، ثم أمرها بالطاعة لي ، فأول روح سلمت على روح علي عليه السلام) وقال ابن الجوزي هذا حديث موضوع وقال الأسدي عبد الله بن أيوب وأبواه كذابان ولاتحل الرواية عنهما . الموضوعات - ابن الجوزي ج١ ص٤٠١، ورواه أبو حيان في البحر المحيط - ج:٣- ص ٤٩٥ تفسير الآية الأولى من سورة النساء وأخرجه ابن عراق في تنزيه الشريعة بلفظه من حديث علي وفيه عبد الله بن أيوب بن أبي علاج - تنزيه الشريعة - ج ١ - ٣٩٨ حديث رقم ٨١.

٣- الحديث ذكره ابن ابي الدنيا من حديث سفيان عن عمرو بن دينار عن عبيد بن عمير قال : (إن أهل القبور يتوكفون الأخبار « أي يتوقعونها » فإذا أتاهم الميت قالوا : مافعل فلان ؟ فيقول : صالح وما فعل فلان؟ فيقول صالح، وما فعل فلان؟ فيقول ألم يأتكم ؟ أو ماقدم عليكم ؟ فيقولون : لا ، فيقول ، إنا لله وإنا إليه راجعون ، سلك به غير سبيلنا) الحياة البرزخية - محمد عبد الظاهر خليفة ص ١٧٦.

٤- الحديث رواه البخاري في صحيحه ج٥ - ص ٩٧، ص٩٨ورواه مسلم في صحيحه في باب الجنة ص ٧٦، ورواه النسائي في سننه ج، ٤ - ص١٠١ورواه الإمام أحمد في مسنده ج ٢ ص ٣٨ ، ص ١٣٠ و ج ، ٣ ص ١٠٤ ، ص ١٤٥ ، ص ٢٦٣ ، ص٢٨٧، ج٤ ص ٢٩، ج، ٦ ص ٢٧٦، وأورده ابن حجر العسقلاني في فتح البارى ج ٧ - ص ٣٠١، ص ٣٢٤ ورواه السيوطي في الدر المنثور -ج٥ - ص ١٥٧، ص ٢٤٩، ورواه ابن كثير في كتابه البداية والنهاية ج ٣ - ص ٢٩٣ .

٥- الحديث أخرجه البخاري في صحيحه -ج:٥- ص٩٧، ٩٨، كما أخرجه مسلم في صحيحه - ص٧٦، وأخرجه النسائي في سننه ج:٤ -ص١٠١، وأخرجه الامام أحمد في مسنده - ج:٢- ص٣٨، ١٣٠، ج:٣-ص١٠٤، ١٤٥، ٢٦٣، ٢٨٧، ج:٤-ص٢٩، ج:٦ -ص٢٧٦، وأخرجه الطبراني في معجمه -ج:١٠-ص١٩٨، وأخرجه ابن حجر العسقلاني في فتح الباري -ج:٧-ص٣٠١، ٣٢٤، و المتقي الهندي في الإتحاف -ج:٥-ص٢٣، والسيوطي في الدر المنثور- ج:٥- ص١٥٧، ص٢٤٩

٦- ساقطة من (و - ج).

آدم» [١] إلى غير ذلك من الأخبار، وعلى ذلك قوله عز وجل **﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾** [٢]، وقال في آل فرعون : **﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ﴾** [٣]، وهذا يعني به قبل القيامة بدلالة آخر الآية وهو قوله تعالى: **﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾** [٤]، وإلى هذا المعنى ذهب جماعة الصحابة والتابعين، قال مجاهد: «يرزقون من ثمر الجنة فيجدون ريحها وليسوا فيها»..

وقال ابن عباس والربيع وغيرهما: **«أرواح الشهداء في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها»** [٥]..

قوله عز وجل :

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾

الآية (١٥٥) - سورة البقرة .

البلاء: المبالغة في الاختبار، كأنك [ابتليته] [٦] وأخلقته من كثرة ما اختبرته به، ولذلك يقال: بليت [٧] فلاناً أي خبرته، والكلام في نسبة [٨] الابتلاء إلى - عز وجل- كما تقدم في قوله: **﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ ﴾** [٩] وإنما يراد به ظهور الفعل دون حصول العلم، والخوف توقع مكروه، والجوع استدعاء البدن عوض ما تحلل عنه، ونقص الأموال: ذهاب بعض ما حوته اليد، ونقص الأنفس: افتقاد الإنسان بعض قواه في ذاته، أو بعض جوارحه [أو سمعه [١٠] أو بصره] أو بعض أقاربه وأخلائه، ونقص الثمرات: فقد المتوقع من الدخل والربح، وهذه الجملة مشتملة على محن الدنيا كلها..

إن قيل: هل ابتلاء الله الناس بهذه النوائب عام لهم أم خاص لبعضهم؟ وهل ذلك في زمان دون زمان؟ أو في كل زمان؟

١- بحثت عنه فلم أعثر عليه.
٢- سورة الأعراف : الآية (١٧٢).
٣- سورة غافر : الآية (٤٦).
٤- سورة غافر : الاية (٤٦).
٥- الحديث أورده ابن كثير في تفسيره رواية عن صحيح مسلم ولفظه : (إن أرواح الشهداء في حواصل طيور خضر تسرح في الجنة حيث شاءت ، ثم تأوي إلى قناديل معلقة تحت العرش ، فاطلع عليهم ربك إطلاعة فقال ماذا تبغون؟ فقالوا : ياربنا وأي شئ نبغي وقد أعطيتنا مالم تعط أحداً من خلقك ؟ ثم عاد عليهم بمثل هذا ، فلما رأوا أنهم لايتركون من أن يسألوا ، قالوا نريد أن تردنا إلى دار الدنيا فنقاتل في سبيلك حتي نقتل فيك مرة أخري - لما يرون من ثواب الشهادة - فيقول الرب جل جلاله « إني كتبت أنهم إليها لايرجعون » . تفسير القرآن العظيم ج ١ - ص ١٩٧.
٦- ساقطة من (و - ج).
٧- في (و - ج) لبست، وهو خطأ من الناسخ.
٨- في (و - ج) تشبه، وهو تحريف.
٩- سورة محمد :الآية (٣١).
١٠- ساقطة من (و - ج).

قيل: أما بالنظر الخاصي فعام لهم وفي كل زمان، وذاك أن الناس لا ينفكون في الدنيا في شئ من الحالات عن شئ مامن المحن، بل في حال اليسار[1] يساق بهم إلى محنة فإذا هم في محنة وإن كانوا في صحة[2]، ولهذا روي: "**كفى بالسلامة داء**"..

وقال الشاعر :

إِذَا كَانَ الشَّبَابُ يَعُوْدُ[3] شَيْباً وَهَمًّا فَالْحَيَاةُ هِيَ الحِمامُ[4]

فالعاقل بتفكره يعلم أن ماله وبدنه وذويه ونعمه[5] عارية مستردة، فإذا عرضت له نائبة كان له من الصبر مطية لا تكبو، ومن الرضا بقضاء اللّٰه سيف لا ينبو، وإما بنظر أعم من ذلك ، فإن اللّٰه تعالى لما أجرى عادة الدنيا أن لا تنفك من هذه الآفات المذكورة، وأنها قد تنال الأخيار كما تنال الأشرار، جعلها ابتلاءً لأوليائه لكي إذا تلقوها بالصبر حط بها وزرهم، وإلا عظم به أجرهم.

وخص بعض المفسرين هذه الأشياء فقال: أراد بالخوف: ما ينال في مجاهدة العدو، وبالجوع: صوم شهر رمضان، وبنقص من الأموال: ما أوجب[6] من الزكوات، وبنقص الأنفس: الأمراض، وبنقص الثمرات: الصدقات، وجعل بعضهم هذه الأشياء المحن الظاهرة العامة، لكن خص المخاطبين بأنهم أصحاب النبي -عليه وعليهم السلام خاصة، فقال: «**إن الله - عز وجل- أبلاهم[7] بهذه الأشياء الظاهرة للحواس**» المتبينة للكل ليعلم من بعدهم أنهم لم يتحروا في اتباع النبي - عليه السلام- طلب عرض، بل تبعوه لتحققهم[8] بمعرفة الحق وظهور الحجج، وجعل بعض المعتزلة المخاطبين والمحن

١- في (و - ج) المسار، وهو خطأ من الناسخ
٢- ساقطة من (و - ج).
٣- في (و - ج) يقود ، وهو تصحيف.
٤- لم أهتد إليه ، ولعله يكون مشابهًا لقول المتنبي :-

إذا كان الشباب السكر والشيب هما فالحياة هي الحمام

ولا أدري إذا كان هو نفسه أم لا.

٥- ساقطة من (و - ج).
٦- في (أ - ص) ما يخرج.
٧- في (أ - ص) ابتلاهم
٨- في (أ - ص) ليحققهم.

المذكورة جميعاً مخصوصين، وقال ذلك في أصحاب النبي- عليه السلام-، وعني بالخوف: خوفهم من الأعداء، وبالجوع: فقرهم بتشاغلهم [١] بالجهاد، ونقص الأموال: للانقطاع عنه إلى الجهاد عن عمارة بساتينهم، والأنفس : للقتل في سبيل الله ، قال: وكل ذلك من فعل الله -عز وجل- لا من الكفار، وجعل ذلك مخصوصاً تفادياً من أن يكون بعمومه ناسباً[٢] إلى الله تعالى فعلاً قبيحاً ولو اتسع نظره، لأمن ما يحذره، وعلى هذا القبيح والسخط للقضاء ليس يعني شيئاً، وإنما يريد تصور ما خلق الإنسان لأجله، والقصد له والاستهانة بما يعرض في طريق الوصول، فأمر تعالى ببشارة من اكتسب العلوم الحقيقية وتصورها، وقصد هذا المقصد ووطن نفسه عليه.

وعلى هذا النحو قوله:عز وجل: ﴿ **وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ** ﴾[٣]، وقوله: ﴿ **الٓمٓ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ** ﴾[٤]، وقوله: ﴿ **وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً** ﴾[٥]، إن قيل: لم فصل بقوله: (ولا تقولوا) الآية بين هذه الآية والتي قبلها من قوله: ﴿ **وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ** ﴾[٦] وهي بمعزل منهما[٧]؟ قيل: بل هي متصلة بهما، لأنه لما حث على الصبر، وأكثر الصبر إنما لطلب الحياة ولما يعين علي الحياة، بين تلك الآية أن ذلك الصبر يوصل[٨] إلى حياة باقية كما قال: ﴿ **وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ** ﴾[٩] وكما قال -عليه السلام: « **اللَّهُمَّ لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الْآخِرَةِ** »[١٠]

١- في (و - ج) بشتا عليهم، وهو خطأ من الناسخ.

٢- في (و - ج) ناسياً، وهو تصحيف.

٣- سورة محمد: الآية (٣١).

٤- سورة العنكبوت: الآيتان (١، ٢).

٥- سورة الأنبياء: الآية (٣٥).

٦- سورة البقرة: الآية (٤٥).

٧- في (أ - ص) عنها.

٨- في (أ - ص) موصل.

٩- سورة العنكبوت : الآية (٦٤).

١٠- الحديث أورده البخاري في ج١-ص ١١٧ وج.٤ - ص٦١ ، ج ٥ ص٤٢،ص١٣٧، ص١٤٧، ج ٨-ص١٠٩، وقد أورده الإمام مسلم في صحيحه في كتاب الطهارة ص ١٢٦ ، ص١٢٧، ص١٢٨، وأورده الامام أحمد في مسنده ج ٣-ص١٧٢،ص٢٧٦،ج ٥ -ص٣٣٢ وأورده البيهقي في سننه ج ٧ -ص ٤٨، ج ٩-ص٣٩ وأورده أبو نعيم في الحلية ج :٢ - ص ٣٠١ ، وأورده ابن حجر العسقلاني في فتح الباري ج ٧ - ص١١٨، ص٣٩٢، ج١١-ص٢٢٩ وأخرجه المتقي الهندي في كنز العمال حديث رقم (٢٩٩٠٥). وأورده الزبيدي في الإتحاف ج ٨ - ص ٤٢٨.

ليرغبنا في الصبر، ثم لما قرر ذلك أنبأ عما يحملنا من هذه المحن كي يخف علينا تحملها، ثم ختمه بقوله: ﴿ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾..

قوله عز وجل :

﴿ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ الآية (١٥٦) - سورة البقرة.

المصيبة من : أصاب السهم، إذا بلغ على صواب، وهي في الأصل صفة، وليس يريد بالقول اللفظ فقط، فإن التلفظ بذلك مع الجزع القبيح والسخط للقضاء ليس يعني شيئاً، وإنما يريد تصور ما خلق الإنسان لأجله، والقصد له والاستهانة بما يعرض في طريق الوصول، فأمر تعالى ببشارة من اكتسب العلوم الحقيقية وتصورها، وتصور بها(١) المقصد ووطن نفسه عليه.

فإن قيل: ولم قلت إن الأمر بالصبر يقتضي العلم، وما الصبر من العلم؟

قيل: الصبر على(٢) الحقيقة إنما يكون(٣) لمن عرف فضيلة مطلوبة، ولهذا قال الخضر لموسى لما علم أن ليس يعرف مقصده في فعله قال: **﴿ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴾**(٤)،فدل أن حقيقة تحمل الصبر لابد له من معرفة المقصود به، وقال عليه السلام: **«أعطيت أمتي مالم يعط أحد، قال يعقوب [عند المصيبة](٥) ياأسفي، وأعطيت أمتي أن يقولوا: ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾**(٦)، وقال عليه السلام: **«من استرجع عند المصيبة جبر الله مصيبته، وأحسن عقباه، وجعل**

١- في (أ - ص) وقصد هذا.

٢- في (أ - ص) الصبر في.

٣- في (و - ج) إنما يمكن من.

٤- سورة الكهف: الآيتان (٦٧، ٦٨).

٥- ساقطة من (و - ج).

٦- سورة البقرة - الآية (١٥٦)، والحديث رواه الطبراني في المعجم الكبير ج-١٢-ص٤٠، ورواه المنذري في الترغيب والترهيب ج-٤ ص ٣٢٧، وأورده المتقي الهندي في كنز العمال حديث رقم: (٦٦٣٢) وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ج-٢-ص٣٣٠.

له **خُلقاً يرضاه**»[١]،وقال عمر في ذلك: **«نعم العدلان، ونعم القلادة»**، وحقيقة الرجوع إليه تتبين في قوله -عز وجل- **﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾**،[٢] فهو أدق معنى مما قدره من قال : (إنا راجعون) إلى أن لا يملك أمورنا غيره كما كنا في الابتداء، فجعل ذلك رجوعاً لهم.

قوله عز وجل :

﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ الآية(١٥٧) - سورة البقرة.

الصلاة وإن كانت في الأصل الدعاء، فهي من الله البركة على وجه، والمغفرة على وجه، وهي الرحمة وإن كانتا متلازمتين فهما مفترقتان في الحقيقة، وإنما قال: (صلوات) على الجمع تنبيهاً على كثرتها منه، وإنها حاصلة في الدنيا توفيقاً وإرشاداً، وفي الآخرة ثواباً ومغفرة، ثم بين أن من كان كذلك فهو المهتدي تنبيهاً علي ملازمة هذه المعاني الصبر..

١- رواه الطبراني فى الجامع الكبير ج ١٢-ص٢٥٥ وأورده المنذري في الترغيب والترهيب ج٤-ص٣٣٧ وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ج ٢-ص٣٣١، ج-٦-ص٣١٧ وأخرجه المتقي الهندي في كنز العمال حديث رقم (٦٦٥٠) وأورده الطبري في تفسيره ج٢-ص٢٦ ، وأورده ابن كثير فى تفسيره ج-١-ص١٩٨ وقال (روي الإمام أحمد قال حدثنا يونس بن محمد بسنده إلي أم سلمة قالت أتاني أبو سلمة يوماً فقال سمعت من رسول الله صلي الله عليه وسلم قولاً سُررت به ، قال ، لايصيب أحداً من المسلمين مصيبة فيسترجع عند مصيبته ثم يقول : اللهم أجرني في مصيبتي وأخلف لي خيراً منها إلا فُعل ذلك به، قالت أم سلمة فحفظت ذلك منه فلما توفى أبو سلمة استرجعت وقلت : اللهم أجرنى في مصيبتي واخلف لي خيراً منها ، ثم رجعت إلي نفسي فقلت · من أين لى خير من أبي سلمة ؟ فلما انقضت عدتى استأذن عليَّ رسول الله صلي الله عليه وسلم وأنا أدبغ إهاباً لي ، فغسلت يدى من القرظ وأذنت له ، فوضعت له وسادة أدم حشوها ليف ، فقعد عليها فخطبنى إلي نفسه ، فلما فرغ من مقالته قلت يارسول الله مابي أن لا يكون بك الرغبة ، ولكني امرأة بي غيرة شديدة فأخاف أن ترى مني شيئاً يعذبني الله به ، وأنا امرأة قد دخلت في السن وأنا ذات عيال ، فقال :«أما ماذكرت من الغيرة فسوف يذهبها الله عز وجل عنك ، وأما ماذكرت من السن فقد أصابنى مثل الذي أصابك وأما ماذكرت من العيال فإنما عيالك عيالي» ، قالت - فقد سلمت لرسول الله صلي الله عليه وسلم فقالت أم سلمة لقد أبدلني الله بأبي سلمة خيراً منه - رسول الله صلي الله عليه وسلم - تفسير القرآن العظيم ج -١- ص ١٩٨.

٢- سورة الأعراف : الآية (٢٩).

سورة البقرة:

﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ الآية (١٥٨) - سورة البقرة .

الصفا: الحجارة الصافية [١] عن الطين، والمروة: ما كان صلباً شديداً، والشعائر جمع الشعيرة، أي علامة محسوسة، ومعالم الحج مشاعر وشعائر، وسمي الهدى المعلم بذلك، والحج: القصد بمعرفة ومنه الحجة، والعمرة في الأصل الزيارة المقتضية لعمارة المودة في الأصل، فكان الحج هو الزيارة، والعمرة عمارتها، ولهذا يتأخر ذكرها في القرآن، ويجب الدم على من قدمها في أشهر [٢] الحج أوقرنها به لتقديم ما من حقه أن يؤخر، وهذا ينبه أن الإفراد أفضل من التمتع والقران، فإن قيل: فكيف ندب النبي- عليه السلام أصحابه إلى فسخ الحج والانتقال إلى العمرة، على هذا قيل: إنه أراد أن ينزلهم عن اعتقادهم [٣] أن الاعتمار في أشهر [٤] الحج من أكبر الكبائر،والجناح الميل إلى الإثم، أصله من الجناح، و"**جنح الطائر**" حرك جناحه، وبه شبه سير الإبل، فقيل جنحت الإبل في السير، كقولهم طارت، وجنوح السفينة لتشبه السابح بالطائر، ولهذا قيل: السابح طائر في الماء، والطائر سابح في الهواء،وجنح الظلام ألقى جناحه، ألا ترى أنه يقال: ألقى الظليم أرواقه كما يقال: ألقى الظالم أرواقه،؟والتطوع: تكلف طوع أي انقياد، وهو في التعارف التبرع بما لا يلزم، وإنما قال: لا جناح، وذلك واجب، لأن العرب كانت تكره السعي في الجاهلية، وقيل: إنها كرهت لصنمين كانا قيل عليهما يعتقدون أن لهما السعي، فتأثموا لذلك، فأنزل الله تعالى الآية، وأما الوجوب: فمستفادٌ من الخبر، وهو قوله:(اسعوا) فإن الله كتب عليكم السعي، وروي أن عروة قال لعائشة -رضي الله عنها: "ما أرى جناحاً أن لا يطوف بين الصفا والمروة، فقالت: «بئسما قلت، لو كان كذا، لقال:« أن لا يطوف بهما » [٥] .

١- في (أ - ص) من الطين.

٢- في (و - ج) اسمه، وهو خطأ من الناسخ.

٣- في (أ - ص) عن اعتقاد.

٤- في (و - ج) اسمه.

٥-أورده ابن كثير بسنده إلى**عروة**عن عائشة قال : قلت أرأيت قول الله تعالى : (إن الصفا والمروة) الآية - قلت : فوالله ماعلى أحد جناح أن لايتطوف بهما ، فقالت عائشة: بئسما قلت ياابن أختي، أنها لو أن يسلموا كانوا يهلون لمناة الطاغية التي كانوا يعبدونها عند المشلل، وكأن من أهل لها يتحرج أن يطوف بالصفا والمروة، فسألوا عن ذلك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقالوا يارسول الله ، إنا كنا نتحرج أن نطوف بالصفا والمرة في الجاهلية، فأنزل الله - عز وجل-(إن الصفا والمروة من شعائر الله)- الآية ، قالت عائشة: ثم قد سنّ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الطواف بهما، فليس لأحد أن يدع الطواف بهما. أخرجاه في الصحيحين.- تفسير القرآن العظيم -ج:١-ص١٩٨ ، ١٩٩.

وقد قيل : إن قوله: "لا جناح " كلام تام، وإن قوله: (عليه أن يطوف) استئناف يقتضي الوجوب، وقرئ (يطوع) على تقدير "**يتطوع**"، وبيَّن بقوله: (فمن تطوع) أي من زاد على ذلك، فإن الله عز وجل- يبينه، فشكر الله – عز وجل- للعبد الإحسان إليه، وقد تقدم أن الشكر كما يكون بالقول يكون بالفعل، وعلى ذلك قوله عز وجل: ﴿ **اعملوا آل داوود شكراً** ﴾[1] ، وليس شكر الأرفع[2] للأوضع إلا بقبوله حمده، والإفضال[3] عليه بذلك..

قوله عزل وجل:

﴿ إنّ الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون ﴾ الآية (١٥٩) – سورة البقرة .

اللعن الإبعاد على وجه الطرد، وصار في التعارف دعاءً إذا قيل: لعنه الله والبينة والهدى وإن كانا متلازمين فإنهما مختلفان، فإن البينات يشار بها إلى الآيات المنزلة والهدى إلى ما يستدل به من الأمارات، وقيل: الآية في أهل الكتاب العالمين أمر النبي عليه السلام، وقيل: هي عامة، وسواء خصت الآية أم لم تخص، فحكم الله عام في أن من كتم علماً عن مستحق له استحق العقوبة، وعلى هذا قال عليه السلام: «**مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكَتَمَهُ أَلْجَمَهُ اللهُ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ**»[4] وليس ذلك بمناف لقول من منع حقائق الحكمة عمن لا يستحقها، فإن ذلك دعاء له أن يترشح لقبولها وحسن سماعها وحفظها لئلا يستعين بها في طريق السر، فليس العلم بأهون على الله -عز وجل- من المال الذي هو عرض حاضر يأكل منها البر والفاجر، وقد منع أن يمكن منه السفيه الذي لا يحسن مراعاته، فقال:

---

١ – سورة سبأ : الآية (١٣).

٢- في (أ – ص) ليس شكر الرفيع للوضيع.

٣- في (أ – ص) الإفضال عليه وقبول حمد منه.

٤- الحديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده ج ٢: ص ٣٤٤ ، ٣٥٣، وأخرجه الزبيدي في اتحاف السادة المتقين ج :١ ص ١٠٨ ، ج:٤ ص٧٦، وأخرجه السيوطي في الدر المنثور ج :١ ص ١٦٢ ، كما أخرجه المتقي الهندي في كنز العمال حديث رقم (٢٩٠٠١).

﴿وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾[١]. واللاعنون: قيل هو عام في الملائكة والناس ودواب الأرض، وما روي أنه تلعنهم الهوام، فتقول: (مُنِعْنَا الْقَطْرَ بِمَعَاصِي بَنِي آدَمَ)، فذلك تنبئ أحوالها أنهم مستحقون من الله اللعن، فكأنها ناطقة بذلك، كقولك لمن رأيت له أثراً قبيحاً على فرسه: "**إن فرسك تشكوك وتلعنك**"، وعلى ذلك قول الشاعر في ناقته:

يَقُولُ إِذَا ادرَأْتُ لهَا وَضِينِي أَهَذَا دِينُهُ أَبَداً وَدِينِي[٢]

وأما ما يتصوره بعض الناس في أن يكون للهوام تمييزٌ ولعنٌ بالقول، فذلك ممتنعٌ بوجه مخصوص ليس هذا موضع شرحه.

قوله عز وجل :
﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُوْلَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾

الآية (١٦٠) – سورة البقرة.

لما كانت التوبة استدراك ما ارتكب من المآثم بما يغمره من أفعال الخير على ما تقدم ذكره، فمن يكتم البينات والهدى عن الناس فإنه مع جنايته في نفسه أفسد الناس ومنع[٣] حقهم، فإذن لا يكفيه من التوبة أن يغير نيته بالندم والعزم على أن لا يعاود مثله حتى يصلح ما أفسده بقدر طاقته ويظهر ما كتمه، كما أن من غصبه مالاً لا يكون موفياً حق التوبة حتى يرد ما غصبه، وضمن تعالى أنه يتوب عليهم إذا فعلوا ذلك وبين بقوله: ﴿وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ أنه ليس يفعل ذلك بهم فقط، بل يتوب على كل تائب، وفي حق توبته ويرحمه.

١- سورة النساء : الآية (٥).

٢- البيت للمثقب العبدي وأورده القرطبي في تفسيره ج :١ ص ١٩١ وورد في تاج اللغة ج:٢ ص ٣٧٤ ، وأورده الزبيدي في تاج العروس ج:٩ ص٢٠٨، وورد في الأمالي ج:٢ ص٣٢٨.

٣- في (أ – ص) ومنعهم.

قوله عز وجل :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ خَالِدِينَ فِيهَا لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ الآيتان (١٦١، ١٦٢) - سور البقرة .

لما بين في الأول من تاب من ذنبه تاب عليه ورحمه بين في هذا أن من مات على كفره فالعقوبة لازمة له، إن قيل: أليس قد قال في الأول: **﴿ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ ﴾**[1] فلم أعاد ههنا قيل لأمرين، أحدهما أنه عم ههنا، وخص في الأولى الذين يكتمون الحق والثاني أنه في الأولى ذكر أن اللعنة تتوجه إليهم وهم يستحقونها[2]، وفي الثانية ذكر أن اللعنة تقر عليهم، ولهذا قال عليهم:

إن قيل: هل الناس عام حتى أكده بأجمعين؟

قيل: نعم، وذلك أن المؤمنين وصالحي العباد يلعنونهم، وهم يلعن بعضهم بعضاً، كما قال: **﴿ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا ﴾**[3] ، وكل يلعن نفسه ويلعن بعض جوارحه وقواه بعضاً، كما تشهد عليه، وقوله: **﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾** قيل: في اللعنة، وقيل : في النار، وهما في الحقيقة واحد، فكل من عليه اللعنة فهو في النار، وقرئ: **﴿ وَالْمَلائِكَةُ وَالنَّاسُ أَجْمَعُونَ ﴾**[4]، ويكون ذلك عطفاً على المعنى دون اللفظ.

قوله عز وجل :

﴿ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ الآية (١٦٣) - سورة البقرة .

قد تقدم الكلام في الواحد إذا وصف به الباري عز وجل، وقوله: **﴿ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾** يجوز أن يكون خطاباً عاماً أي المستحق منكم العبادة وهو إله واحد لا أكثر، ويجوز أن يكون خطاباً للمؤمنين،

---

١ - سورة البقرة : الآية (١٥٩).

٢- في (و - ج) ويستحقونه.

٣- سورة العنكبوت : الآية (٢٥).

٤- قرأ بهذا الوجه الحسن- معجم القراءات القرآنية ج:١- ص:١٣٠.

والمعنى: الذي يقصدونه[١] إله واحد تنبيهاً أنكم لستم [٢] كالكفار الذين يعبدون آلهة من الأصنام[٣] والشيطان والهوى وغير ذلك..

إن قيل: ما فائدة الجمع بين ﴿ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ وبين ﴿ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ وأحدهما يبنى علي الآخر؟

قيل: لما بين بقوله: ﴿ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ أنه المقصود بالعبادة أو المستحق لها، وكان يجوز أن يتوهم أن يوجد إله غيره ولكن لا يعبد أولا يستحق العبادة أكده بقوله: (لا إله إلا هو)، وحق لهذا المعنى أن يكون مؤكداً ويكرر عليه الألفاظ [الملخصة][٤]، إذ هو مبدأ مقصود العبادة ومنتهاه..

قوله عز وجل :

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ الآية (١٦٤) – سورة البقرة.

اختلاف الليل والنهار: أن يخلف كل واحد منهما الآخر، كقوله عز وجل: ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً ﴾[٥] ، وقوله: ﴿ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ ﴾[٦] ، وقوله: ﴿ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾[٧] ، والفلك : السفينة المدورة، وبه شبه فلك السماء، ولذلك استعمل فيه السباحة وفلكة المغزل، وفلكت الجارية صار ثديها كفلكة، وفلكت الجدي: وضعت فلكه على لسانه يمنعه عن الرضاع، والفلك يقال للواحد والجمع، وذلك أنه يقال للواحد فلك، وفلك نحو: نُخل ونَخْلٍ وعُرْبٍ وعَرَب، وعُجْم وعَجَم، ومن قال: فلك يجمعه على فلك نحو أسَدٍ وأُسْدٍ، فتداخل الواحد والجمع من لغتين، والبث إظهار

١- في (أ – ص) يعبدونه.

٢- في (و – ج) أن لستم.

٣- في (أ – ص) أصناماً آلهة.

٤- ساقطة من (أ – ص).

٥- سورة الفرقان : الآية (٦٢).

٦- سورة الزمر : الآية (٥).

٧- سورة النور : الآية (٤٤).

ما كان خفياً عن الحاسة همًّا كان أو غيره، والدبيب أصله حكاية صوب المشي، ثم قيل: دب إذا مشى، ويقال لكل ما يمشي دابة، ثم خص بالفرس، والدب خص بضرب[١] من السباع، وأما الدبة والدبدبة، فاعتباراً بصوتهما، والتصريف: صرف الشئ من وجه إلى وجه، وصريف الباب منه، لكن اعتبر فيه الصوت، فبني بناء الأصوات كالنهيق والشهيق وغير صارف تصرف الفحل إلى نفسها بإظهار شبقها، والصرف والصريف المصروف عن الكدورة، لكن خُص الصريف باللبن والصِّرْف بسائر الأشربة، وقوله: (وتصريف الرياح) يجوز أن يكون تقديره: تصريف الله الرياح، وأضيف إلى المفعول، وتصريف الرياح والسحاب، فيكون مضافاً إلى الفاعل، والسحب جر الثوب، والسحاب هو لما تجره الريح، والتسخير القهر علي الفعل، وهو أبلغ من الإكراه، فإنه حمل الغير علي الفعل بلا إرادة منه على وجه كحمل الرحى على الطحن، إن قيل: لم جمع السماء وأفرد الأرض في كل القرآن؟

قيل: لأن السماوات لما كانت في الحقيقة سبعاً وطبائعها مختلفة على ما ذكر أصحاب هذه الصناعة، وكل واحدة مستمدة القوة مما فوقها ومعطية ما دونها، والأرض وإن كانت سبعاً، فليس على ذلك الوجه، لأنها بالأقاليم لا بالطبقات المتراكبة تراكب السماء وطبيعتها واحدة، ولهذا قال: ﴿ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾[٢] فترك اللفظ مفرداً، ونبه بمثلهن على العدد الذي يعد به الأقاليم، وإنما ذكر هاهنا لفظ الخلق، لأنه مشتمل علي الإبداع والصنع والتسخير، وخص فعل الله تعالى بذلك لكونه موضوعاً للتقدير المقتضي للأحكام، وهو تعالى أحكم الحاكمين، ونبه تعالى على وحدانيته بالتفكر في الموجودات وذكر من آياته مالا يخفى أمر صنعته على ذوي الحواس والعقول ليستدل به كلٌ على قدر فهمه ويقف منه على معارف بمبلغ علمه.

إن قيل: كان الوجه أن يُعقد ذكر السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار بتصريف الرياح والسحاب التي هي من آثار الجو ومختصة بفعل الله - عز وجل- ، ثم يعرج على ذلك الفلك التي هي

١- في (أ-ص) ببعض.

٢- سورة الطلاق: الآية (١٢).

في الأرض وفيها أثر أيدي البشر، حتى يكون على النسق، قيل إن إيجاد البحر مقدم على إيجاد الأمطار والرياح والسحاب، فكل ذلك إنما ينشأ عن البحار الساطع من رطوبة البحار ويبوسة الأرض، وذلك مبين في كتب المعنيين بمعرفة هذه الصنعة، ولما لم يكن فرق بين أن يقال: (والفلك التي تجري في البحر) وبين أن يقال: (والبحر الذي تجري فيه الفلك) في أن القصد الأول بالآية أن يعرف منفعة البحر وإن أخر في اللفظ، وقدم ذكر الفلك التي هي من صنعتنا، ونحن بصنعتنا أعرف منا بصنعته. قدم ذكر الفلك لننظر منها إلى آثار الله تعالى، وقال بعض الناس:

لم يعن بالفلك والبحر المحسوسين فقط، بل عنى بالبحر كل شبهة وحيرة ومشقة، وبالفلك ما فيه ايقاد [1] البشر من فائض النور والعقل أمدهم به، وغير ذلك من المعادن المعقولات والمحسوسات، وقد تقدم أن من الناس من قال: الإشارة بالماء في نحو هذه المواضع إلى العلوم التي بها الحياة الأبدية وما في الأرض إلى النفوس التي بها تحيا الحياة الأبدية، ولما ذكر الله تعالى في الآية الأولى: (والهكم إله واحد) جعل هذه الآية دلالة عليه تنبيهاً أن كل موجود لا ينفك من أن يكون مكوناً غير مكون، أو مكوناً من وجه مكوناً من وجه أو مكوناً غير مكون، ومحال أن يكون كل مكون مكوناً، لأن ذلك يؤدي إلى مالايتناهى، فإذن لابد أن تنتهي الموجودات إلى مكون غير مكون، وذلك هو الباري -عز وجل-، فنبه أن أثر الصنعة موجود في هذه الأشياء، فلابد أن تكون مكونة، وهذا هو الدلالة على وحدانيته علي طريق الجملة...

قوله عز وجل :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴾ الآية (١٦٥) - سورة البقرة.

الند: المثل في الجوهر ، وقد تقدم ، والحب أصله من الحب، وبه شبه حبة القلب وحبيبه يقال على وجهين، أحدهما : أصبت حبة قلبه، نحو كبدته وفادته، والثاني: أصبته بجبة القلب، نحو: رمحته وعنيته، أصبته بالعين، فقولك: حببته وأحببته هو في اللفظ فعل، وفي الحقيقة قد يكون انفعالاً، لأن المحب يكون منفعلاً للمحبوب، وإذا استعمل في الله تعالى فقيل: "**أحب الله فلاناً**"، فليس إلا على

١- في (أ - ص) إبعاد وهو خطأ من الناسخ.

سبيل الفعل والمعنى: أصاب الله تعالى حبة قلبه، فجعلها لنفسه مصونة عن الهوى والشيطان وسائر أعـــداء الله، والمحبة إرادة ما تراه أو تظنه خيراً، وهي أربعة أضرب بحسب أعراض الناس في أمورهم، اللذة، والنفع، والخير المحض، والمركب من اللذة، والنفع [لمحبة المغني له والمغني بعضهما لبعض][١]، وكل محبة ينقطع سببها انقطعت بانقطاعها، ولما كانت الشهوات البدنية والمنافع الدنيوية منقطعه، فالحب الذي يجلبانه منقطع لا محالة بانقطاعهما، ولما كان الخير المحض باقياً، كان الحب الذي يجلبه باقياً ببقائه، ولما بين تعالى توحيده والدلالة عليه ذكر بعد أن مع ظهور الآيات المنبئة عنها من الناس من يتخذ نداً لنفسه بحبه، ويراعيه مراعاة الله تعالى، ثم نبه بقوله: **﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾** أن محبتهم لأندادهم منقطعة، فإن أسبابها المقتضية لها منقطعة، ومحبة المؤمنين له دائمة، إذ هو دائم. والند المشار سواء كان صنماً معبوداً أو رئيساً مخدوماً، أو مالاً منعقداً، أو إنساناً معشوقاً، فإن كل ذلك محبوب لمن يراعيه من وجه ومعبود من وجه، ثم بين بقوله: (ولو ترى)[٢] ما أعد لهم من العذاب الأليم، فإذا قرئ بالياء، فإن ما بعده هو مفعول يرى وجواب "لو" محذوف، وقيل: إن القوة مفعول الفعل المحذوف الذي هو جواب[٣]، كأنه قيل[٤]: لرأوا أن القوة لله جميعاً، وإذا قرئ بالتاء، فخطاب النبي على طريق التعظيم، ومعناه: أنك مع علمك بأحوال القيامة لو رأيت لتعجبت، وقوله: **﴿أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾**، قيل: هو بدل من الذين، وهو ضعيف[٥] وقيل: هو مفعول الفعل المقدر[٦] للجواب، وقيل: تقديره: لأن، وقد قرئ إن مكسورة[٧]، ولا يكون إلا علة[٨]، والمفعول محذوف.

١- ساقطة من (أ - ص).

٢- قرأ بهذا الوجه كل من نافع وابن عامر ويعقوب وشريح وقتادة وشيبة وابن شبيب والفضل بن شاذان، وقرأ (ولويرى) بالتقليل والإمالة كل من حمزة والكسائي وأبي عمر وورش وابن ذكوان والسوسي والأزرق، انظر معجم القراءات القرآنية- ج: ١- ص ١٣١.

٣- في (أ - ص) جوابه.

٤- في (أ - ص) قال.

٥- ساقطة من (أ - ص).

٦- في (أ - ص) المقدم وهو تصحيف.

٧- قرأ بهذا الوجه كل من أبي جعفر ويعقوب والحسن وقتادة وشيبة وسلام،معجم القراءات القرآنية ج: ١ ص١٣٢.

٨- في (أ - ص) عليه.

قوله عز وجل :

﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ﴾

الآية (١٦٦) – سورة البقرة.

السبب: أصله الحبل الذي تشد به (الخيم)[١] ويرتقي به الشجر، ثم جعل عبارة عن كل ذريعة من مواصلة وذمة؛ والسبب والسببية للشقة من الثياب تشبيهاً به في الهيئة، وبعض الصنعة، وسببته في الأصل كناية معناه: أصبت سببه، وعنه سمى الإصبع سبابه، لكونها مشيرة بالسب، كما قيل لها مسبحة لإشاراتها بالتسبيح، وتقدير الآية: (إن الله شديد العذاب).

إذ تبرأ المتبعون من تابعهم، كقوله: **﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾**[٢] ، وقوله: **﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾**[٣] ، وقوله: **﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ﴾**[٤] ، وكما حكى عن الشيطان: **﴿مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ﴾**[٥] ، وقوله: **﴿يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ﴾**[٦] .

١- ساقطة من (أ – ص).

٢- سورة الأنعام: الآية (٩٤).

٣- سورة العنكبوت: الآية (٢٥).

٤- سورة الزخرف : الآية (٦٧).

٥- سورة إبراهيم : الآية (٢٢).

٦- سورة الشعراء: الآية (٨٨).

قوله عز وجل :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾ الآية (١٦٧) - سورة البقرة .

الكر: هو العطف على الشئ بالذات، أو بالفعل ، وعبر به عن الجبل المعقول، والكرير: تكرر الحشرجة في الصدر، والحسرة أصلها من حسرات القناع، وكأنها كشف ما غطى القصيرة من الهوى، وعلى ذلك:

تَحلّى غِطَاء الرَّأسِ عَنّي وَلَمْ يَكَدْ

غِطَاءُ فؤَادِي يَنْجَلِي يَسْتَرِيحُ[١]

ولما كان عند ذلك لغرض الندم والغم بما كان من الإنسان عبر به عنهما، فقيل أصابته حسرة، وقوله: كذلك أي كتبرؤ بعضهم من بعض يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم، وبين الله تعالى ما يظهرونه من الندم باتباع مالا يغنى عنهم من الله شيئاً وينسيهم مالا يجزي نفعاً، وقوله: أعمالهم دخل فيها [الأعمال التي فعلوها][٢] ولم يريدوا وجه الله بها، فضلت عنهم، كقوله تعالى: **﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾**[٣] ، وقوله: **﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴾**[٤] ، وقوله: **﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ ﴾**[٥] ، ودخل فيها الأعمال التي فُرِضَت عليهم، فأحلوا بها، وعلى ذلك روي أن الجنة تُرفع لهم، فينظرون إليها، فيقال: تلك مساكنكم لو أطعتم الله عز وجل، وترفع النار لأهل الجنة فيقال لهم: تلك مساكنكم لو عصيتم الله عز وجل ..

١- لم أهتد إلي قائله .

٢- ساقطة من (أ - ص).

٣- سورة محمد : الآية (١).

٤- سورة الفرقان : الآية (٢٣).

٥- سورة النور : الآية (٣٩).

قوله عز وجل :
﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالاً طَيِّبًا وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾

الآية (١٦٨) – سورة البقرة .

الحلال: من حللت العقدة، وهو الذي حل عنه عقدة الخطر، وحل بالمكان، أي حل عقد أحماله، كقولهم: حط رحله، وألقى أرواقه وحل الديْن، أي حل عقد المطالبة، وحل من إحرامه، حل ما عقده على نفسه بالإحرام، وتحلة اليمين: ما تنحل به عقدة اليمين، والإحليل: لمخرج اللبن والبول لانحلال عقدته، والطيب: ما تستطيبه الشهوة المستقيمة والعقول الصحيحة أما بالإضافة إلى الشهوة المستقيمة فهو ما يشتهي لا لاضطرار كالجرذ والفأر والحية والدم، أو لعادة سيئة كأكل الضب، ولهذا قال الشاعر:

إِنَّكَ لَوْ ذُقْتَ الْكِسِيَّ بِالأَكْبَادِ ... لَمَا تَرَكْتَ الضَّبَّ يَعْدُو بِالْوَادِ[١]

وكعادة المخنث والمائل إلى الذكور عن النساء، وأما بالإضافة إلى العقول الصحيحة، فما يكون متناولاً من حيث ما يجوز متبلغاً به إلى ما خُلِق لأجله وأن لا يقصد به شرك كما يذبح على النصب والخبيث على العكس، والحلال أعم من الطيب، والحرام أعم من الخبيث، فقد يكون حراماً مالا يكون خبيثاً في نفسه بالعقل كتحريم ما يقسم بالأزلام، واستعمال الذهب والفضة، ولبس الحرير على الذكور[٢]، وجمع بين الحلال والطيب في الآية ليفيد ما استطابه الطبع وأباحه الشرع، ولما ذكر إباحة الطيب، وكان كثيراً ما يزين الشيطان لبعض الناس ما ليس بالطبع الصحيح طيباً، كعادة المخنث اتبعه بقوله: **﴿وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾** كقوله: **﴿وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ﴾**[٣] ، وقد تقدم أن لا فرق بين أن يقال: "اتبع فلان[٤] الهوى " وبين : "اتبع الشهوة أو الشيطان أو الحياة الدنيا في أن

١- لم أهتد إليه .
٢- في (أ – ص) الذكران.
٣ – سورة ص : الآية (٢٦).
٤- ساقطة من (أ – ص).

المقصد [بجميع ذلك][1] متابعة ما يصد عن سبيل الله - عز وجل-، ونبه بقوله: ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ أن عداوته لا تخفى على ذي بصيرة، وهذا المعنى الذي أراده الشاعر وإن نقل اللفظ إلى الدنيا، حيث قال:

إِذَا امْتَحَنَ الدُّنْيَا لَبِيبٌ تَكَشَّفَتْ ... لَهُ عَنْ عَدُوٍّ فِي ثِيَابِ صَدِيقِ.[2]

وقول آخر:

عَمْرِي لَقَدْ نَصَحَ الزَّمَانُ وَإِنَّهُ ... لَمِنَ الْعَجَائِبِ نَاصِحٌ لاَ يُشْفِقُ.[3]

قوله - عز وجل :

﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ الآية (١٦٩) - سورة البقرة.

السوء والفحشاء كل قبيح من نحو الزنا، والسرقة، والسكر[4]، والقتل، والخيانة، والكذب والحسد والجهل [وكل ما يقال له سوء][5] يقال له فحشٌ، لكن بنظرين مختلفين، فإنه سمي سوءاً لاغتمام العاقل به، والفحشاء بأن يستفحشه، ونبه تعالى بأن الشيطان داع إلى إتيان الشر والسوء والفحش والتقول على الله عز وجل، إن قيل: إن كان التقول على الله عز وجل بما لا يعلم من عمل الشيطان، فكيف يصح الحكم بغالب الظن في كثير من الأحكام، فإن عامة فروع الفقه مبنية على غلبة الظن، قيل: أما أولاً: فليس ذلك تقولاً على الله تعالى، وإنما ذاك تقول على أحكام، وقد فرق المتكلمون

١- ساقطة من (و - ج).

٢- هذا البيت لأبي نواس وقبله .

وما الناس إلا هالك وابن هالك ... وذو نسب في الهالكين عريق.

هذا البيت من قصيدة في الزهد مطلعها :-

أيارب وجه في التراب عتيق ... ويارب حسن في التراب رقيق

وانظر ديوان أبي نواس - ص ٦٢١، تحقيق وضبط : أحمد عبدالمجيد الغزالي.

وقد أورده عبد الله بن خميس في كتابه : الشوارد - ج : ٢- ص٣٦٤، وأورده الراغب في كتابه : الذريعة إلي مكارم الشريعة - ص ٣٣٢ ، وهو في ديوان أبي نواس - ص ٤٦٥- ط : دار صادر - بيروت .

٣- قائل البيت هو أبو تمام وذلك كما في مخطوط كتاب الدر الفريد وبيت القصيد لمحمد بن أيدمر ج :٤ ص ٩٦.

٤- ساقطة من (أ - ص).

٥- ساقطة من (أ - ص).

بين الحكمة العلمية وبين الحكمة العملية وقالوا: كل ما كان من الحكمة العلمية،وهي التي لا عمل لها كالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله، فإنه لا يجوز إن يحكم فيه إلا بالعلم المصون عن الشوائب، وما كان من الحكمة العملية فأصولها كذلك، وأما فروعها: فيجوز الحكم فيها لغلبة الظن لتفسيح صاحب الشرع لنا في ذلك، فصار حكمنا فيه من هذا الوجه حكماً[1] بالعلم، لأنه إذا قال لنا: إذا غلب في ظنك أن القبلة في هذا الجانب، فصل إليه، وإذا شهد عندك شاهدان مزكّيان فاحكم بشهادتهما صرنا عالمين بأن هذا الحكم واجب علينا في الظاهر، وهذه مسلمة قد أحكمت في أصول الفقه، وأما سؤال من سأل من المتكلمين في هذه الآية بأنه كيف يأمرنا الشيطان ونحن لا نسمع قوله ولا نرى شخصه، وما الحكمة في إيصال الله -عز وجل- أمر الشيطان إلى نفوسنا، فهذا وما يجري مجراه من الأسئلة سؤال من لم يتخط المحسوسات والموهومات إلى باب المعقولات، ومحال الاشتغال معه [بهذه الحرمات][2].

قوله - عز وجل :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ ﴾ الآية (١٧٠)- سورة البقرة .

ذمهم الله بأنهم أبطلوا ما خص الله به الإنسان من الفكر والروية وركزه[3] فيه من المعارف، وذلك أن الله تعالى ميز الإنسان بالفكر ليعرف به الخير من الشر في[4] الاعتقاد والصدق من الكذب في المقال[5] والجميل من القبيح في الفعال لم يتحر الحق والصدق والجميل، ويتجنب أضدادها،

١- في (أ - ص) حكمنا.

٢- ساقطة من (و - ج)

٣- في (أ - ص) وركب

٤- في (أ - ص) ليعرف به الحق من الباطل.

٥- في (أ - ص) في المقال.

وجعل له من نور العقل ما يستغنى به فيدله على معرفة مطلوبه، فلما حث الناس على تناول الحلال الطيب، ونهاهم عن متابعة الشيطان بين حال الكفار في تركهم الرشاد واتباعهم الآباء والأجداد، ليحذر من الاقتداء بهم تاركين استعمال الفكر الذي هو صورة الإنسان [وحقيقته][1]، ثم قال: ﴿أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا﴾ أي يتبعونهم وإن كان آباؤهم جهلة- تنبيهاً أنه محال اتباع من لا عقل له ولا اهتداء..

إن قيل: ما فائدة الجمع بين قوله: (يعقلون، ويهتدون) وأحدهما يغنى عن الآخر؟

قيل: قد تقدم أن العاقل يقال على ضربين، أحدهما: لمن يحصل له القوة التي بها يصح التكليف، والثاني: لمن يحصل له العلوم المكتسبة وهو المقصود ههنا، والمهتدي قد يقال لمن اقتدى في أفعاله بالعالم وإن لم يكن مثله في العلم، فبين أنهم لا يعقلون[2] ولا يهتدون، بعالم ووجه آخر، وهو أن يعقل ويهتدي وإن كان كثيراً ما يتلازمان، فإن العقل يقال بالإضافة إلى المعرفة، والاهتداء بالإضافة إلى العمل، فكأنه قيل: لا علم لهم صحيح ولا عمل مستقيم.

١- ساقطة من (و- ج).

٢- في (و- ج) لا يعلمون.

قوله - عز وجل :
﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ ﴾

الآية (١٧١) - سورة البقرة.

النداء من قولهم: نديّ[١] الصوت ،أي:غَضٌّ الصوت، وأصله من الندى، فناداه، أي:دعاه بندى صوته، ولما حكى الله عنهم ما زعموا أنهم يتبعون آباءهم دل على جهلهم بأنهم كأغنامٍ يُنعق بهم، فلا يعرفون مغزى الصوت ولا قصْد المنادي، وقد تقدم الكلام في قوله **﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ ﴾**[٢] ، إن قيل: كيف يكون مثلهم مثل الناعق والذين كفروا بالمنعوق به أشبه، والذي ينعق بالمنادي، والداعي أشبه قيل: التشبيه[٣] ضربان، تشبيه مفردٌ بمفردٍ، وحقه أن يحمل أحدهما على الآخر [نحو زيد كأسد، وتشبيه جملةٍ بجملةٍ][٤] ولا يراعي فيه مقابلة الألفاظ المفردة، فلما شبه قصة الذين كفروا[٥] في إعراضهم عن الداعي[٦] لهم إلى الحق بقصة الناعق،[قدم ذكر الناعق ليبنى][٧] عليه ما يكون منه، ومن المنعوق به، وعلى هذا قوله **﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ ﴾**[٨] ، وقوله: **﴿ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ﴾**[٩] ، وقيل: عنى بالذين كفروا المتبوعين لا التابعين، ومعناه: مثل الذين كفروا في دعائهم أتباعهم كمثل الناعق بالغنم [الذي لا يسمع لها الصوت][١٠]..

---

١ - في (أ - ص) ندا.
٢ - سورة البقرة : الآيتان (١٨ ، ١٧١).
٣ - في (أ - ص) الشبه.
٤ - ساقطة من (أ - ص).
٥ - في (أ - ص) الكافرين.
٦ - في (و - ج) الراعي وهو تصحيف.
٧ - ساقطة من (أ - ص).
٨ - سورة البقرة - الآية (٢٦١).
٩ - سورة آل عمران - الآية : (١١٧).
١٠- ساقطة من (أ - ص).

قوله - عز وجل :
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ .
الآية (١٧٢)- سورة البقرة.

إن قيل: ما فائدة إعادة هذا المعنى وقد تقدم آنفاً[١]؟ وما الفرق بين هذا الخطاب والخطاب الأول؟ قيل في ذلك لطيفة وإشارة عجيبة، وذلك أنه حيث خاطب الناس كافة قال: **﴿كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالاً طَيِّباً﴾**[٢]، فأباح لهم ذلك، ونبه أنه لم يحظر[٣] عليهم إلا تناول المحرم، وعقبه بالنهي عن اتباع الشيطان، وجعل الخطاب في هذه الآيات مخصوصاً[٤] بالمؤمنين وأمرهم أن لا يتوسعوا[٥] في تناول ما رزقوا، بل يتحروا من الطيب تحري الناس مما في الأرض، وأنه في الأول بالتحرر عن خطوات الشيطان، وهو الارتسام له فيما يتخطى به عن المباح، وأمر ههنا بالشكر لله تعالى الذي هو أرفع منزلة في العبادة على ما تقدم ذكره، ونبه بقوله: **﴿ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾** إن عبادته لا تتم إلا بشكره..

قوله - عز وجل :
﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ الآية (١٧٣) - سورة البقرة .

الإهلال: أصله وجود الهلال، ولما جرت العادة أن يكبِّروا عند رؤيته سمي التكبير إهلالاً، بل قيل لرفع الصوت أيضاً إهلال تشبيهاً بذلك حتى قيل: أهلَّ الصبي، وأما التهلل فظهور الهلال، فتارة يتصور لمعانه، فيقال: تهلل السحاب، وتهلل وجهه، وتارة يتصور شكله، فيقال: تهلل البعير إذا تقوس.

١- ساقطة من (أ-ص).

٢- سورة البقرة الآية (١٦٨).

٣- في (و - ج) يحطه، وهو خطأ من الناسخ.

٤- في (أ - ص) خطاباً.

٥- في (أ-ص) أن يتوسعوا، وهو خطأ من الناسخ.

إن قيـــــل:

لم ذكر تعالى بعض المحرمات وترك بعضها؟

قيل: في ذلك جوابان، أحدهما: أن المسكوت عنه هو تفصيل الميتة، وقد ذكر هـهنا الميتة المستوعبة[١] لكل مامات روحه عن غير ذكاة، والثاني: أنه لما كان القصد في هذه الآية حكم تناول المضطر دون استيعاب المحرمات، ذكر الكل[٢] منها وترك البعض، والباغي في الأصل الطالب لما ليس له طلب والعادي: المتجاوز لما رسم له بالشرع، وقال الحسن وقتادة والربيع وابن زيد: عنى بقوله: (غير باغ) غير متناول للذة، ولا عاد في المعصية طريق المحقين، وإلى نحوه ذهب الشافعي- رحمة الله عليه، والظاهر يشهد له، لأن قوله: (غير باغ ولا عاد) متعلق بحال الاضطرار، فكأنه قال: "**من حصل له اضطرار**" لا على أحد هذين الوجهين، وعلى الأول تقديره: فمن اضطر فأكل غير باغ ولا عاد فيكون غير متعلق بمقدر محذوف، ومن أنكر ذلك وقال: إنكم تأمرونه بقتل نفسه إذا خطرتم ذلك عليه، وقتل نفسه[٣] محرم عليه عاصياً كان أو مطيعاً، فجوابه إنا لم نأمره بذلك، بل أمرناه بأن يخرج عن الحالة التي تكون الميتة محرمة عليه، وذلك بأن يتوب [وينزع عما هو عليه][٤] وإلا كان متناولاً لمحظور[٥] كما أن سفره محظور، فإن قيل: أليس من سفره طاعة؟ إنما أجل له للإضطرار. لا للطاعة، فإذن العلة هي الضرورة، فيجب أن تكون مطّردة، قيل: بل العلة هي الضرورة مع حصول الطاعة، فقد قال الحكماء وهو الصحيح: إن الله تعالى جعل للإنسان طيبات الرزق بشرط الإيمان، ولهذا قال: ﴿**قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**﴾[٦]، خالصة يوم القيامة فما أخذه الكفار من نعيم الدنيا، فإنما يأخذه اغتصاباً في الحقيقة، ولذلك قد تستقيم أحوالهم، والآية تقتضي أن المضطر مخير في تناول أيها يريد وهو

١ - في (أ - ص) المشتملة على كل مامات.

٢ - في (أ - ص) ذكر الجزء.

٣ - في (أ - ص) النفس.

٤ - ساقطة من (و - ج).

٥ - في (أ - ص) متناولاً محظوراً.

٦ - سورة الأعراف : الآية : (٣٢).

الصحيح، لأن عليه انقاذ روحه بجهده، فما رآه أقرب إلى إبقائه، فهو أولى بتناوله، واختلف إذا اضطر إلى شئ من ذلك في دواء لا يسد غيره مسده، هل يجوز تناوله؟

والصحيح أنه يجوز للعلة التي لها أجيز تناوله للجوع، وكذا الخمر إذا اضطر إليها[١] في دواء بحكم الأطباء أنه لا يسد غيره مسده، وأنه يفوت روحه إن لم يتناولها، قوله عليه السلام-.

(إن الله – عز وجل لم يجعل شفاكم فيما حرم عليكم)[٢]، فمعناه: إن قد رما فيه الشفاء غير محرم عليه، وعلى هذا نبه بالرخصة في شرب أبوال[٣] الإبل.

قوله – عز وجل:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ الآية (١٧٤) – سورة البقرة.

البطن به شُبه بطن الأمر وبطن الوادي، والبطن من العرب اعتباراً بأنهم كشخص واحد، وأن كل قبيلة منهم كعضو بطن وفخد وكاهل، وعلى هذا الاعتبار قال الشاعر:

النَّاسُ جِسْمٌ وإمَامَ الهُدَى — رأسٌ وَأنتَ العَيْنُ فِي الرَّأسِ[٤]

وقيل: بطِنٌ إذا عظم بطنه نحو جَسُم وكَبُر، وبطَّنته عظَّمت بطنه، وسمي ما يُشَدُّ عليه بطاناً.

على بناء حرام وزمام والإبطن عرق تكشف البطن على بناء الأكحل، وأعاد الله تعالى وعيد كاتمي

---

١ – في (أ – ص) إليه.

٢- الحديث رواه القرطبي في تفسيره ج:١ ص ٧١٨، وأورده البيهقي في سننه – ج :١٠ – ص٥ ، وأورده ابن حجر العسقلاني في فتح الباري – ج ١٠. – ص ٧٩, ٢٤٧، وأورده المتقي الهندي في كنز العمال – حديث رقم : ٢٨٣١٩ ، ٢٨٣٢٧، وأورده السيوطي في جمع الجوامع – حديث رقم : ٤٩٦١.

٣ – في (أ – ص) بول.

٤ – البيت لعلي بن جبلة العكوك في حميد الطوسي، وهو في ديوانه ص٧٤، وفي عقد الخلاص في نقد كلام الخواص لابن الحنبلي ص٢٠٠، وذيل أمالي القالي ج:٣-ص٩٦ والأغاني ج:١٨-ص١١٣، وله قصة فيه، كما أورده الراغب في مفردات ألفاظ القرآن ص١٣٠.

أحكامه أثر ما ذكر من الأحكام، ومالم يقل ذلك من أهل الكتاب وتحذيراً لهذه الأمة أن يسلكوا سبيلهم وأكل النار تناول ما يؤدي إليها، وذكر الأكل لكونه المقصود الأول بتحصيل المال، وسماه بالمال الذي هو النار، وذكر في بطونهم تنبيهاً على شرههم، وتقبيحاً لتضييع أعظم النعم لأجل المطعم الذي هو أحسن متناول من الدنيا، وعلى ذلك قال الشاعر:

ودع عنك عمراً إن عمْرًا مسالمٌ **وهل بطنُ عمروغيرُ سبْرٍ لَمطْعَمِ ؟**[١]

وقال آخر :

كُلُوا في بعض بطنكم تَعِفُّو[٢]

وعلى ذلك قوله تعالى: **﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ﴾**[٣].

وبقوله: "**ولا يكلمهم**" لم يعن[٤] نفي الكلام رأساً، فقد قال: **﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ ﴾**[٥]، وقال: **﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ ﴾**[٦]، وإنما أراد كلاماً يقتضي جدوى، ولهذا قال الحسن:

معناه يغضب عليهم تنبيهاً أنهم بخلاف من قال فيهم: **﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ﴾**[٧]، وقيل: حقيقة كلمته حملته على الكلام نحو: حركته وخرجته، لأن من كلمته فقد استدعيت كلامه، فكأنه قيل: لا

---

١ - لم أهتد إليه.

٢ - هذا شطر بيت وتمامه : كلو في بعض بطنكم تعفوا   فإن زمانكم زمن خميص

وهذا البيت من أبيات سيبويه الخمسين التى لايعرف قائلوها، وأنشده سيبويه في ج :١-ص١٠٨، كما أورده البغدادي في خزانة الأدب ج٣ : ص٣٧٩ وهو في شرح ابن يعيش ج:٦-ص٢٢ وفي المقتضب ج:٢-ص١٧٢، وإعراب القرآن لأبي جعفر النحاس ج:٣-ص٨٩، وفي المحتسب ج:٢-ص٨٧، وفي المفصل ص٩٣ والأمالي الشجرية ج :١-ص٣١١ والمدخل لعلم تفسير كتاب الله تعالى لأبي النصر السمرقندي الحدادى ص١٣٧.

٣ - سورة النساء : الآية (١٠).

٤ - في (و - ج) لم يلعن وهو تحريف.

٥ - سورة الأعراف : الآية (٦).

٦ - سورة الكهف : الآية (٥٢).

٧ - سورة الأحزاب : الآية (٤٤).

يستدعي كلامهم نحو قوله: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾[١]. وقد تقدم الكلام في الاشتراء والقليل والتزكية.

قوله - عز وجل:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾

الآية (١٧٥) - سورة البقرة .

الضلالة والعذاب يتلازمان، وكذلك الهدى والمغفرة، لكن الضلال[٢] والهدى يقالان على الاعتبار بالدنيا، والعذاب والمغفرة على الاعتبار بالآخرة، وجعل تعاطيهم لما يؤديهم إلى النار بمنزلة الصبر على النار، وهذا معنى قول الحسن: ليس صبرهم على النار، ولكن أراد ما أجرأهم على النار، وقول أبي عبيد[٣]:

إن ذلك لغة "يمانية" بمعنى الجرأة، واحتجاجه بقول الأعرابي الذي قال لخصمه:

«ما أصبرك على الله؟، فتصور المجاز بصورة الحقيقة؛ لأن ذلك معناه: ما أصبرك على عذاب الله، وإلى هذا يعود قول من قال: ما أعملهم بعمل أهل النار![٤] وما ألقاهم على النار!، وقد يوصف بالصبر من لا صبر له اعتباراً بالناظر إليه وتصوراً أنه صابر، واستعماله لفظ التعجب في ذلك اعتباراً بالخلق لا بالخالق..

١ - سورة المرسلات : الآية (٣٦).

٢ - في (و - ج) الضلالة وهو تصحيف.

٣ - انظر : مجاز القرآن ج :١ ص٦٤، ومعاني القرآن - للفراء - ج :١- ص١٠٣.

٤ - انظر معاني القرآن وإعرابه - للزجاج - ج :١- ص٢٤٥.

قوله - عز وجل :

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾

الآية (١٧٦) – سورة البقرة .

ذلك إشارة إلى كل ما تقدم من العذاب والحكم والضلال، أي ذلك[١] بسبب إنزاله الكتاب واختلافهم فيه، ويصح أن يكون نصباً، أي فعلنا ذلك "بأن الله". وأصل الاختلاف التخلف عن المنهج، وقيل: اختلفوا: أتوا بخلاف ما أنزل الله، وقيل: اختلفوا بمعنى خلفوا، نحو كسبوا واكتسبوا، وعملوا واعتملوا، أي صاروا خلفاً فيه نحو: **﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ ﴾**[٢] ورثوا الكتاب، والشقاق قد تقدم ذكره، ووصفه ببعيد تنبيهاً على بُعْدِهم من الحق[٣]..

قوله - عز وجل :

﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾الآية (١٧٧) – سورة البقرة .

الرقبة: أصل العتق، ويعبر بها عن الجملة كما يعبر عنها بالرأس والظهر والرجل واليد، ويعبر بها عن المملوك، وقيل رقبتُهُ: إذا أصبت رقبته إما بالسلاح، وإما بالعين ناظراً إليه، ثم سمي المراعي للغير رقيباً، والخطاب في هذه الآية للكفار والمنافقين الذين أنكروا تغيير القبلة، وقيل: بل لهم وللمؤمنين، حيث قدروا أنهم نالوا البر كله بالتوجه إليها، ولما كانت القبلة أحد أركان الصلاة، والصلاة إحدى فعلات البر، بين تعالى أن ليس البر بمقصور على هذا الذي تعتبرونه، بل هو حملها. والقبلة

---

١ - ساقطة من (و – ج).

٢ - سورة مريم : الآية (٥٩).

٣ - في (أ – ص) من الخلق، وهو تصحيف.

ركنٌ من أركان واحدة منها، ثم عدها وذكر جملتها وفرائضها ونوافلها وبيان [ذلك أن جميع البر ضربان: اعتقاد، وأعمال، فالاعتقاد][1] أصوله الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والأعمال ضربان: أحدهما ما يأخذ الإنسان به نفسه في معاشرة الناس من الأقارب والأباعد من ذلك المعروف والمواساة والتحبب إليهم بالسر والقول الحسن.

والثاني: ما يتخصص به في نفسه من إقامة العبادات واستعمال الصدق والوفاء والتواضع والصبر، وقد نبه الله عز وجل- على جميع ذلك بهذه الآية، إما على الاعتقاد فبقوله: ﴿**مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ**﴾ إلى قوله تعالى: ﴿**وَالنَّبِيِّينَ**﴾، وإما على ما يأخذ به الإنسان نفسه في معاشرة الناس فبقوله: ﴿**وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ**﴾ إلى قوله: ﴿**وَفِي الرِّقَابِ**﴾، فإنه ذكر الجود الذي هو من وجه أفضل هذه الأفعال، ومن وجه هو كل هذه الأفعال، فإن الجواد كما يتبرع بماله يتورع عن مال غيره، وكما يجود بماله، يجود بجاهه وبطلاقة وجهه، وعند الحقيقة- بنفسه، ودل على ما تخصص به في نفسه بقوله: ﴿**وَأَقَامَ الصَّلَاةَ**﴾ إلى آخر الآية، وكل ما سكت عنه فداخلٌ تحت ما ذكره، أو منبهٌ عليه، ونبه أن الآيتين بذلك برٌّ، وهو المؤدي إلى النعيم المدلول عليه بقوله: ﴿**إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ**﴾[2]، وبين تعالى بقوله: ﴿**أُولَٰئِكَ**﴾أن الذين تحروا ذلك إذا اعتبرتهم بأفعالهم وأقوالهم فهم الذين صدقوا، وإذا اعتبرتهم بأفعالهم وأحوالهم فهم المتقون، والصدق والتقوى وإن اختلفت حقيقتاهما فهما متلازمان، إن قيل:

ما وجه قوله -عليه السلام- لما سأله أبو ذر عن البر، وتلا عليه الآية،ولما سأله وابصة عنه: قال "**ما اطمأن إليه القلب، واطمأنت إليه النفس**"[3] الخبر قيل إن أباذر سأله عن ذات البر، فبينه بالآية، ووابصة سأله عن كيفية تحريه والاشتياق من نفسه في تعاطيه، فبينه بصفته.

---

١ - سقطت هذه العبارة من الناسخ في (أ - ص).

٢ - سورة الانفطار : الآية (١٣)، وسورة المطففين : الآية (٢٢).

٣ - الحديث أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده ج :٤ ص٢٢٨ من حديث وابصة بن معبد ، وفيه « ياوابصة : استفت نفسك ، البر ماطمأن إليه القلب واطمأنت إليه النفس، والإثم ماحاك في القلب وتردد في الصدر وإن أفتاك الناس » كما أخرجه السيوطي في الدر المنثور ج:٢-ص٢٥٥ وأورده الطحاوي في مشكل ماروي عن الرسول صلى الله عليه وسلم في البر والإثم ماهما ؟ -ج:٣-ص٣٤ ، ص٣٥ وأورده المنذري في الترغيب والترهيب ج ٢-ص٢٥٧، وهو في تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر- ج٣-ص٢١٢ وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ج :١٠-ص١٧٥ ، ص٢٩٤.

إن قيل: لِمَ لَمْ يقل: (ولكن البر بر من آمن)، أو: (البار من آمن) ليتطابقا؟

قيل: قد ذكر النحويون في هذا وأمثاله أنه على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، ولكن وجه فائدته أنه إذا قيل "**زيد بار**"، فإنه يعتبر في قولك :بار سيان الذات، والصورة والمختص بها من معنى البر، وإذا قيل: "**زيد هو البر**"، ففيه مبالغة، وأنه صار لاختصاصه بهذا المعنى بحيث لا يرى منه إلا هذه الصورة مجردة عن العنصر الذي يجوز أن يتصور بغيره من الصور، وعلى هذا كل ما في معناه، نحو زيد أقبل[1] وأدبر، وأكل وشرب، وقوله: ﴿**عَلَىٰ حُبِّهِ**﴾ أي على حب المؤمن، فيكون مضافاً إلى الفاعل، وقيل: "**على حب المال**"، ويكون مضافاً إلى المفعول، ونبه بذلك أنه يبذله مع فرط الحاجة إليه نحو قوله تعالى: ﴿**وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ**﴾[2]، وقوله: ﴿**لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ**﴾[3]، وسئل - عليه السلام- أي الصدقة أفضل؟

فقال: «**أَنْ تَتَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَحِيحٌ شَحِيحٌ تَأمَلُ الْعَيْشَ وَتَخْشَىٰ الْفَقْرَ**»[4]، وقيل: تقديره: على حب الإيثار، وذلك أن المحمدة التامة لم تهتز لإعطاء المال وتحب ذلك كما قال الشاعر:

لَيْسَ يُعْطِيكَ لِلرَّجَاءِ وَالْخَوْ ... فِ وَلَكِنْ يَلَذُّ طَعْمَ الْعَطَاءِ[5]

وقيل: على حب الله أي يقصد به القربة لا طلب رياء ولا ثواب كما قال: ﴿**إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ**﴾[6].

---

١ - في (و - ج) إقبال وإدبار.

٢ - سورة الحشر : الآية (٩).

٣ - سورة آل عمران : الآية (٩٢).

٤ - الحديث أورده أبو داود في الوصايا ص ٣ وأورده النسائي في الزكاة ص٦٠ وأورده ابن ماجة في سننه باب الوصايا ص ٤، ورواه الحاكم في مستدركه من حديث شعبة والثورى عن منصور عن زبيد عن مرة عن ابن مسعود عن النبي صلي الله عليه وسلم قال :(وآتى المال على حبه) « أن تعطيه وأنت صحيح تأمل العيش وتخشى الفقر»، ثم قال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وأورده ابن كثير في تفسيره من رواية وكيع بسنده إلى ابن مسعود موقوفاً -ج:١ ص٢٠٨.

٥ - لم أهتد إليه .

٦ - سورة الإنسان : الآية (٩).

إن قيل: لم قال: ﴿ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ ﴾ ولم يقل: ووفى كما قال: ﴿ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ ﴾ ليكون الكلام على نسق واحد؟

قيل: ذلك لأمرين: أحدهما اللفظ، وهو أن الصلة متى طالت كان الأحسن أن يعطف على الموصول دون الصلة لئلا يطول[1] فيقبح، والثاني: أنه ذكر في الأول ما هو داخل في حيز الشريعة، وغير مستفاد إلا منهما، فالحكمة العقلية تقتضي العدالة دون الجود، ولما ذكر الوفاء بالعهد وهو مما يقتضي العقول المجردة، صار عطفه على الأول أحسن.

إن قيل: ولم نصب الصابرين؟ قيل: قد ذكر النحويون أن الصفات للمدح والذم إذا توالت قد يخالَفُ بين إعرابها، وأنشدوا في ذلك:

النَّازلين بِكُلِّ مُعْتَرَكٍ   والطيِّبُونَ مَعَاقِدَ الأُزُرْ [2]

إلى أبيات أخر..

وفائدة ذلك أنهم إذا أرادوا أن كل واحد من تلك الأوصاف يستقبل بمدح أو ذم عظيم لو تجرد عما معه خالفوا بين إعرابها تنبيهاً على هذا المعنى، ولما كان الصبر من وجه مبدأ الفضائل [ومن وجه جامعاً للفضائل][3] إذ لا فضيلة إلا وللصبر فيها أثربليغ ولا يتم حسنها إلا به حتى روي:

«**الصَّبْرُ خَيْرٌ كُلُّهُ**»، قوله: (**الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد**[4]) عن [5] إعرابه تنبيهاً على هذا المقصد، واستوعب بقوله تعالى: ﴿ **وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ** ﴾ أنواع الصبر، لأنه إما

١- في (و-ج) تطول.

٢- البيت للخرنق بنت هفان، وهي شاعرة جاهلية، وقبله:

لايبعدن قومي الذين هُمُ   سُمُّ العداة وآفةُ الجُزْرِ

وذلك كما في ديوانها ص٢٩ وفي الكتاب لسيبويه ج:١-ص١٠٤، وفيه(النازلون)، وتأويل مشكل القرآن-لابن قتيبة - ص٣٨، وتفسير الطبري -ج:١-ص ١٤٦، وشرح شواهد الشنتمري ج:١-ص١٠٤، وأمالي ابن الشجري ج:١-ص٣٤٤، والمحتسب لابن جني ج:٢-ص١٩٨، وخزانة الأدب للبغدادي - ج:٢-ص ٣٠١.

٣- ساقطة من (أ-ص).

٤- الحديث رواه الديلمي عن أنس - رضي الله عنه -، وأورده أحمد ضياء الدين في باب : الصبر في كتاب : راموز الأحاديث - ص٢١٧.

٥- في (و-ج) غير.

أن يحتاج إليه في مقتنى يقوت الإنسان، أو يريده فلا يناله، وهو البأساء أو فيما ينال جسمه من ألم وسقم وهو الضراء، أو في مدافعة مؤذيه له وهو اليأس.

إن قيل: كيف قدم ههنا ذكر الآخرة وأخره في قوله: ﴿وَمَن يَكْفُر بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ﴾[١]؟

قيل: يجوز أن يكون ذاك مع الواو لا يقتضي الترتيب من أجل أن الكافر لا يعرف الآخرة ولا يعني بها وهو أبعد الأشياء عن الحقائق عنده أخر ذكره، في قوله: ﴿وَمَن يَكْفُر بِاللَّهِ﴾.

ولما ذكر حال المؤمنين، والمؤمن أقرب الأشياء إليه أمر الآخرة وكل ما يفعله ويتحراه يقصد به وجه الله ثم أمر الآخرة قدم ذكرها تنبيهاً أن مراعاة الله-عز وجل- ومراعاة الآخرة، ثم مراعاة غيرهما إن قيل: كيف اختير الترتيب المذكور في قوله: ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ﴾ قيل: لما كان أولى من يتفقده الإنسان بمعروفه أقاربه، ولهذا قال عليه السلام: «**لا يقبل الله صدقة وذو رحم محتاج**»[٢]، كأن تقديمها أولى، ثم أعقبه[٣] باليتامى، فالناس في المكاسب ثلاثة:

معيل غير معول، ومعول معيل، ومعول غير معيل، واليتيم معول غير معيل، فمواساته بعد الأقارب أولى، ثم ذكر المساكين، وهم الذين لا مال لهم حاضراً ولا غائباً، ثم ذكر ابن السبيل الذي قد يكون له مال غائب، ثم ذكر السائلين الذين منهم صادقٌ وكاذبٌ، ثم ذكر الرقاب الذين لهم أرباب يعولونهم فكل[٤] واحد ممن أخر ذكره أقل فقراً ممن قدم عليه[٥].

١- سورة النساء - الآية :(١٣٦).

٢- لم أجد هذا الحديث، ولكني وجدت قريباً من معناه في الحديث الذي أورده ابن كثير بلا إسناد في تفسيره للآية حيث قال: وقوله: (ذوي القربى) وهم قرابات الرجل، وهم أولى من أعطي من الصدقة كما ثبت في الحديث : (الصدقة على المساكين صدقة، وعلى ذوي الرحم اثنتان : صدقة وصلة، فهم أولى الناس ببرك وإعطائك). تفسير القرآن العظيم -ج:١-ص٢٠٨- ط: دار الفكر العربي.

٣- في (و-ج) عقبه.

٤- في (أ-ص) بكل.

٥- في (أ-ص) ممن قدم ذكرها.

قوله -عز وجل :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ الآية (١٧٨) - سورة البقرة .

القص: قطع الشئ على سبيل الاجتذاذ[١] ، ومنه قص شعره، وقص أثره، وقص الحديث اقتطع كلاماً حادثاً حذف غيره، والقصة اسم منه، وحقيقة القصاص أن يفعل بالقاتل، والجارح مثل ما فعلا، واعتبر الشافعي ومالك صورة الفعل حتى إن من رضخ رأس غيره بالحجر كان القصاص مثله، لكن مالكاً يقول إنه يفعل به ذلك الفعل حتى يموت،والشافعي يقول: «**إن لم يمت من مثل فعله**[٢] **قتل بالسيف**»، ومن الفقهاء يعتبر المماثلة في القاتل والمقتول، فلا يقتل القاتل الحر بالعبد والمسلم بالذمي، والاختلاف [٣] أنه يعتبر في بعضهم [٤] كالمستأمن والكتابة يعتبر بها عن الإيجاب، وأصل ذلك أن الشئ يراد، ثم يقال، ثم يكتب فيعبر عن المراد الذي هو المبدوء[٥] بالكتابة التي هي المنتهى إن قيل على من يتوجه هذا الوجوب؟.

قيل: على الناس كافة، فمنهم من يلزمه استيفاؤه وهو الإمام إذا طلبه الولي، ومنهم من يلزمه تسليم النفس وهو القاتل، ومنهم من يلزمه المعاونة أو الرضا به، ومنهم من يلزمه أن لا يتعدى، بل يقتص أو يأخذ الدية، والقصد بالآية منع التعدي، فإن أهل الجاهلية كانوا يتعدون في القتل، وربما لا يرضى أحدهم إذا قتل عبد غيره لا يقتل حر[٦] ..

---

١ - في (و - ج) الاحتذاء.

٢- في (أ - ص) من ذلك الفعل.

٣- في (و - ج) ولا خلاف.

٤ - في (و - ج) في بعض.

٥ - في (أ - ص) المبدأ.

٦ - في (و - ج) إذا قتل عبد عبده إلا بحر.

وقوله: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾..

من القاتل، وأخوة ولي[١] المقتول، ومعناه : من ترك له أخوه الذي هو ولى الدم شيئاً من القصاص فليتبع في المطالبة بالدية المعروف، وليؤد إليه القاتل بإحسان..

إن قيل: لم قال: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ ولم يقل: "فمن عفا له أخوه شيئاً"؟.

قيل: العدول إلى هذا البناء[٢] للطيفة، وهي أنه لا فرق بين أن يكون صاحب الدم واحداً، فعفا أو جماعة فعفا واحد منهم[٣] أنه يبطل حق القصاص ويعدل حينئذ إلى الدية، فقال: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ﴾ ليدل على هذا المعنى، وقيل: فاتباع: هو أمر للعافي بحسن المطالبة، والهاء في قوله: أخيه، يجوز أن يكون للمقتول، ويكون لولي المقتول وجعله أخاً لولي الدم لا للنسبة ولا للموالاة الدينية، ولكن للإحسان الذي أسداه إليه وأجرى العهد مجرى الخطأ في الرضا منه بالدية، وقوله: ﴿ذَلِكَ تَخْفِيفٌ﴾ أي خفف عنكم إذ جعل لكم الخيار في الحكمين، وقال بعضهم لم يكن العفو في أمة قبل هذه الأمة، وقوله: ﴿فَمَنِ اعْتَدَى﴾ أي مَن تجاوز المشروع قاتلاً كان أو ولي المقتول فإنه معاقب..

قوله -عز وجل :
﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ الآية (١٧٩) - سورة البقرة.

قوله: ﴿فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ كقول العرب: القتل أنفى للقتل، وذلك أنه يصير سبباً للارتداع، وقال الجاحظ: تأويله أن العرب كانت تمتنع من تسليم القاتل إلى ولي المقتول خشية أن يقل عددهم، فقال الله تعالى: ﴿فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ أي إذا دفعتموه كثر عددكم، لأن الله تعالى ينمي كل قوم كثر فيهم القتل، ولهذا كثرت العلوية وقل العباسية، ولهذا قيل: السيف منماه فما تسلط[٤] على قبيلة إلا كثر عددهم، وقيل إن في ذلك حياة القاتل في الآخرة فإنه[٥] يُرجى له الغفران، قال: وعلى هذا ما روي أن

---

١ - في (و - ج) وآخره لولي الدم.

٢ - في (أ - ص) العدول لذلك.

٣ - في (أ - ص) أحدهم.

٤ - في (أ - ص) يسلط.

٥ - في (أ - ص) لما يرجى.

الحدود كفارات لأهلها، وذلك بشرط أن يكون توبة، فالتوبة حق الله، والقصاص حق الآدمي، فإذا تاب[1] واقتص منه فقد خرج من الذنوب ويرجى له الغفران، فقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ على التفسير الأول أي لعلكم ترتدعون عن القتل، وعلى الثاني: لعلكم لا تتحاشون من ترك القاتل والانقياد[2] للقصاص.

قوله - عز وجل :

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ الآية (١٨٠) - سورة البقرة.

الخير ههنا المال قليلاً كان أوكثيراً، وقال بعض الناس: الخير لا يتناول إلا الكثير مستدلاً بأن علياً - رضي الله عنه دخل على مولى له في موضعه، فقال: ألا أوصي وله سبع مائة أو ستمائة، فقال: لا، إنما قال -عز وجل (إن ترك خيراً)، وليس لك مالٌ كثيرٌ..

إن قيل: كيف سمي المال خيراً مطلقاً وقد قيل إن المال ليس خيراً مطلقاً حتى يراعي حال صاحبه، فربما كان شراً له، وعلى هذا ذم الله تعالى في عامِّ القرآن، وسماه تارةً فتنةً وتارةً عدواً..

قيل: إن المال كما يكون خيراً قد يكون شراً، لكن جعل الله تعالى ههنا خيراً تنبيهاً على أن الوصية يستحب في المال الطيب دون الخبيث والمغصوب، فإن ذلك يجب رده إلى أربابه ومما تم بالوصية فيه، وقيل: هذه الآية منسوخة، فالإيجاب نسخ مما حمله، والوصية للوارث إيجاباً وندباً، والناسخ لها عند الشافعية آية الميراث .

١- في (أ-ص) فإذا مات.

٢- في (أ-ص) والإهدار للقصاص.

وعند بعضهم قول النبي عليه الصلاة والسلام: « **لا وَصِيَّةَ لِوَارِثٍ**»[١] ، وقال بعض الناس: لا نسخ فيها ، لأن معنى كتب كقوله: أريد وشرع، وما يراد ويشرع قد يكون ندباً وإيجاباً، وقوله: الوصية للوالدين والأمر بين وإن اقتضى عموماً فإنه مخصوص بقوله – عليه السلام- «**لا وَصِيَّةَ لِوَارِثٍ**» فصار ذلك للوالدين الكافرين أو المملوكين والأقارب الذين ليسوا بورثة، وتخصيص الآية في "هو" لا كتخصيصها فيما فوق الثلث والثلث كثير، وقال طاوس: "إن أوصي لغير ذي قرابة لا يجوز احتجاجاً، وظاهر الآية لا يقتضي ذلك..

قوله – عز وجل :
﴿ فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

الآية (١٨١)- سورة البقرة .

أريد من بدل ذلك ولم يقل بدلها، وإن ما تقدم ذكر الوصية لكن يتناولها وغيرها من متعلقاتها، والهاء في "إثمه" للتبديل ومن : عام في الوصي والموصي له، والشاهد والحاكم وكل من له مدخل في ذلك إذا غير شيئاً بعدما سمعه أي علمه، فإن إثم ما يجري في ذلك راجع إليه تنبيهاً على ما قاله – عليه السلام: (**مَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا**)[٢]

وأعظم ذلك مالا يعرف المستن جود السان لها، كمن ادعى على صاحب الشرع خبراً يتعلق به

١- الحديث أخرجه الترمذي في سننه حديث رقم :٢١٢٠، ٢٢٢١، وأورده البيهقي في سننه - ج:٦ -ص٨٥، ٢٤٤، وأخرجه الإمام أحمد في مسنده – ج:٤-ص١٨٦، ص١٨٧، ص٢٣٨، وأورده الدارقطني في سننه ج:٤-ص ٧٠، ص٩٧، ٩٨، وأورده النسائي في سننه في كتاب الوصايا- باب ٥-ج رقم : ٢٧١٣، ٢٧١٤.

٢- الحديث عن جرير بن عبد الله قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم- «من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده مُن غير أن ينقص من أجورهم شئ، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شئ». أخرجه مسلم، وله قصة، باب الزكاة برقم: (١٠١٧)، وأخرجه أحمد في مسنده ج:٤-ص٣٦٢، وأورده الراغب في مفردات ألفاظ القرآن – ص٤٥٨، ص٨٦٧.

حكم، فيعتمد عليه الناس بعده، وإنما قال: ﴿عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ﴾ ولم يقل عليه، ليبين أن إثمه للتبديل لا لغيره، ونبه بقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أن ذلك وإن خفي على الناس، فلن يخفى عليه تعالى، فإنه يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

قوله - عز وجل :
﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

الآية (١٨٢) - سورة البقرة .

جنف وخيف يتقاربان، لكن جنف استعمل للميل إلى الخير، وخيف في الميل إلى الجور، وخاف يقاربه، إلا أن أكثر ما يقال في الحاكم وخيفه أن يوصي[١] لإنسان والمراد لغيره، كما قال طاوس: الخيف: التولج نحو أن يوصي الرجل لابن الابن ليوصل المال إلى أبيه أو لزوج ابنته ليوصله إليها، أو يخص في حيث يجب العموم، أو يعم حيث يجب الخصوص، وقوله: ﴿بَيْنَهُمْ﴾ أي بين القوم الذين لهم مدخل في ذلك من الورثة والموصى لهم،[٢] وجاز إضمارهم لدلالة الكلام على ذكرهم.

إن قيل: كيف قال: ﴿جَنَفًا أَوْ إِثْمًا﴾ والجنف هو الإثم؟ قيل: قد قال الربيع: الجنف في الخطأ، والإثم في العمد، وقيل: الإثم: ما يكبر[٣] معصيته، والجنف ما دون ذلك، وخوفه هو أن يبدو[٤] له أمارة تقتضي حصول ذلك، ولا فرق بين أن يخاف منه ذلك. قبل موت[٥] الموصى فيرشده، أو بعد موته فيصلحه، وليس الإصلاح بمقصور على إيقاع الصلح دون استعمال الصلاح،بل يتناولهما[٦]، وإنما قال: ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ لأنه لما خوف في الآية الأولى من تغيير الوصية بين أن النهي عن تغييره فيما لا

---

١ - في (و - ج) أن يوصي الإنسان.
٢ - في (أ - ص) الموصي بهم.
٣ - في (أ - ص) ما يكثر.
٤ - في (أ - ص) يظهر أمارة.
٥ - في (و - ج) قبل الموت.
٦ - في (أ - ص) يتناولها.

جنف فيه ولا إثم [على صاحبه][١]، فأما إذا كان فيه شئ من ذلك فلا إثم [في تغييره][٢]، وبين بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. أنه يتجاوز عما عسى أن يسقط من المصلح مالم يجده.

قوله - عز وجل :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾

الآية (١٨٣)-سورة البقرة .

الصوم في اللغة إمساك عما تنازع إليه النفس، ويقال ذلك في الطعام والشراب والنكاح نحو: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾[٣]، في نحو:[٤]

[خيلٌ صيام، وأخرى[٥] غير صائمة[٦]]

وصامت الريح إذا ركدت، والشمس إذا استوت في منتصف النهار كان لها وقفة، وفي الشرع إمساك المكلف بنية من الخيط الأبيض إلى الخيط الأسود عن المأكل والمشرب والمنكح والاستقاء والاستمناء والسعوط، وأما الأكل[٧] على سبيل السهو لا يخرجه عن أن يكون ممسكاً[٨] حكماً، ثم النية هل يجب أن يتقدم أو يجوز الاقتران به راجعٌ إلى اختلاف المذاهب؟ واعلم أن الإمساك عن الأطيبين هو المقصود بالصوم، وماعداه فلأنه يشبهه أو يؤدي إليه..، وللصوم فائدتان:

إحداهما: قريبة، وهي أن يروض الإنسان به نفسه عما تدعوه إليه من الشهوات القبيحة، فإنه يعودها الصبر عنها كما وصفها بقوله: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾[٩]، ومتى جعلت في حجر الشرع

١- ساقطة من (و - ج).

٢- ساقطة من (و - ج).

٣- سورة مريم - الآية :(٢٦).

٤- فى (أ - ص) وفي الصوم.

٥- في (أ - ص) وخيل.

٦- هذا شطر بيت، وعجزه: **تحت العجاج وأخرى تعلك اللجما**

وهو للنابغة الذبياني في ديوانه - ص١١٢، واللسان (صوم)، والمجمل -ج :٢-ص٥٤٦،

٧- في (أ-ص) المأكل.

٨- في (أ-ص) إمساكاً.

٩- سورة يوسف: الآية(٥٣).

فعودت الانقلاع

فالنفس راغبة إذا رغبتها .:. وإذا ترد إلى قليلٍ تقنع [١]

ولكونه مفيداً للصبر، قال عليه السلام: «**هذا شهر الصبر**» [٢].

وقال تعالى: ﴿ **وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ** ﴾ [٣] أي بالصوم.

والفائدة الثانية:

وهي أن فيه الاقتداء بالملأ الأعلى على قدر الوسع والتنزه عن مشاكلة البهائم التي غاية شبع البطن والفرج، ووجه ذلك أن الإنسان مركب من بدن يسوسه سوْسَ الحيوان وغذاؤه المطاعم، ومن روح ذي عقل غذاؤه العلم والفضائل،ومتى أكثر غذاء أحدهما قوي على ما نقص غذاؤه، ولهذا قال عليه السلام: «**رأس الدين الورع، وأفضل الورع قلة الطعام، ومن شبع ونام جثم على قلبه الشيطان**» [٤]، وقيل: «**الجوع سحاب تمطر الحكمة**»، فإن قيل: فهلاً أُديمَ فرضُ الصوم إذا كان سبباً

١- البيت قاله .. أبو ذؤيب خويلد بن خالد المخزومي المتوفي في زمن عثمان رضي الله عنه، وهو من قصيدته المشهورة التي مطلعها:

أين المنون وريبه ونتوجـــع ... والدهر ليس بمعتب من يجزع

ومنها :

والنفس راغبة إذا رغبتهـا ... وإذا ترد إلى قليل تقنـع

والدهر لا يبقى على حدثاته ... جون السراة له جدائد أربع.

تنزيل الآيات على الشواهد من الأبيات - شواهد الكشاف ص٢٨٠ ، ٢٨١تأليف: الأستاذ محب الدين - إخراج عبد الله بن خميس- نشر وتوزيع: دار الخضرمة- الرياض .

٢ - هذا جزء من حديث طويل رواه سلمان الفارسي رضي الله عنه قال: [خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في آخر يوم من شعبان قال: يأيها الناس، قد أظلكم شهر عظيم مبارك، شهر فيه ليلة خير من ألف شهر، شهر جعل الله صيام نهاره فريضة، وقيام ليله تطوعاً، من تقرب فيه بخصلة من الخير، كان كمن أدى فريضة فيما سواه، ومن أدى فيه فريضة كان كمن أدى سبعين فريضة فيما سواه، وهو شهر الصبر، والصبر ثوابه الجنة.....] إلى آخر الحديث. والحديث رواه ابن خزيمة في صحيحه، والبيهقي، وابن حبان في باب الصوم.

٣- سورة البقرة : الآية (٤٥).

٤ - الحديث أورده الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة - حديث رقم : ٨٢٩ -ج :٢-ص٢٢٨ ، ٢٢٩ . وضعفه الألباني بقوله : موضوع ، ورواه ابن عدي في الضعفاء ج :١-ص٥٧ عن جعفر بن عبد الواحد بسنده إلي أنس مرفوعاً ، وذكر في ترجمة جعفر الهاشمي قوله : الأحاديث عنه كلها بواطيل، وكان يتهم بوضع الحديث، ثم قال : وعامة أحاديثه موضوعة . سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السئ في الأمة - محمد ناصر الألباني - ط : المكتب الإسلامي .

لهذه الفضيلة العظيمة (قيل: إن الله -عز وجل- ما خلق في الأرض وشهاه إلينا ليحرمناه، ولكن لينتفع به بقدر ما يحسن، وفي وقت ما يحسن، وألزمنا في بعض الأوقات التحرج عنه ليكون مدعاة إلى التعفف عن تناول مالا يجوز تناوله، وجعل الله تعالى فرضه على الأهلة ليتأدب الإنسان به في كل وقت من أوقات السنة صيفاً وشتاءً وربيعين..

إن قيل: على ماذا وقع التشبيه في قوله: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ قيل: قال بعضهم: إن ذلك على الصوم وكيفيته، لأن صوم مَن قبلنا لم يكن يحل لهم الأكل بعد الرقاد، وكان على هذا في بدء الإسلام إلى أن نسخ بقوله: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾[1]، وإلى هذا ذهب معاذ، وهو المروي عنابن عباس -رضي الله عنه- وقيل: كصوم من قبلنا في كونه أياماً معدودات، وذلك في كل شهر ثلاثة أيام، ثم نسخ بقوله: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾[2]، وهو قول عطاء وقتادة، وروي عن معاذ بن جبل -رضي الله عنه- أن للصيام ثلاثة أحوال، وذلك أن النبي - عليه السلام- لما قدم المدينة، فكان يصوم في كل شهر ثلاثة أيام، ويصوم عاشوراء، ثم فرض بعد تسعة عشر شهراً شهر رمضان على التخيير، ثم فرضه على تضييق لمن كان مقيماً صحيحاً، وقيل:

قد كان أوجب شهر رمضان على من كان قبلنا [من الأمم][3]، فغيروا، ونقصوا، وزادوا[4]، وهذا قولٌ عهدته علي قائله، وقيل: الشبه وقع لوجوب الصوم فقط، وقد تقدم أن أصول هذه العبادات لم تزل واجبة على العباد وأن النسخ على ألسنة الأنبياء في فروعها وكيفياتها وقدرها [وأزمانها][5]، ونبه بقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ على العلة التي لأجلها أوجب، وهي قمع الشهوة، وما لأجلها لا يجوز أن يكونَ الصوم مرفوعاً على أمة من الأمم، فإنه ذكر أنه سبب للتقوى، وتقوى الله عز وجل- واجبة

---

١ - سورة البقرة : الآية (١٨٧).

٢ - سورة البقرة : الآية (١٨٥).

٣ - ساقطه من (و - ج).

٤ - في (و - ج) وأفرادوا ، وهو خطأ من الناسخ.

٥ - ساقطة من (و - ج).

على كل مكلف على كل حال وفي كل زمان، ولهذا قال تعالى : **﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ ﴾**[١].

قوله - عز وجل :

﴿ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

الآية (١٨٤) - .سورة البقرة .

السفر: كشف الغطاء، يقال: سفر القناع عن وجهه، والريح السحاب أو الورق، ويقال له السفير،ومنه المسفرة، وسافر، والسفر الكتاب الكاشف عن الأغراض،والسفار للبعير كالحكمة للفرس، وهو ما يسفر عنه جماحه، تطوع يُفعل من الطاعة، يقال: طاع وطوَّع، ومنه: **﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ ﴾**[٢]، والقدرة والاستطاعة والجهد والطاعة تتقارب، وبينها فروق، فالقدرة ما يظهر من القوة بقدر العمل لازائداً عليه ولا ناقصاً، والاستطاعة منهما ما يصير به الفعل طائعاً له بسهولة، والوسع منها ما يسع له فعله بلا مشقة،والجهد ما يُتعاطى به الفعل بمشقة، والطاقة منها بلوغ غاية المشقة.

وقول الشاعر:

كُلُّ امْرِيءٍ مُقَاتِلٌ عَنْ طَوْقِهِ..[٣]

أي عن غاية قدرته، لأن المقاتل لا[٤] يدع غايةً من القدرة لا يبذلها قبل استسلامه للموت، وقوله: **﴿ أَيَّامًا ﴾** يتعلق بـ**"كتب عليكم"** أو بـ **"كما كتب"**، أو بالصيام، وقوله: **﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ ﴾** ظاهره يقتضي أن المريض والمسافر عليهما عدة من أيام أفطر أو لم يفطر، وإليه ذهب أهل الظاهر.

---

١ - سورة النساء : الآية (١٣١).

٢ - سورة المائدة - الآية (٣٠).

٣ - لم أهتد إلى قائله.

٤ - في (أ - ص) ما يدع.

وعند عامة الفقهاء على إضمار الإفطار بدلالة إضماره في قوله: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾، وبدلالة الأخبار المروية في ذلك، ويقتضي أيضاً أن السفر القليل والكثير سواء، وعند عامتهم يُعتبر فيه قدرٌ ما، فبعضهم حدده بمسيرة ثلاثة أيام، وبعض بمسيرة يومين، وبعض بمسيرة يوم، ولا خلاف في أن من خرج إلى نزهة ببستانه في ظاهر بلده لا يفطر، ويقتضي ظاهره أيضاً أن لا فرق بين أن يكون سفره لطاعة أو معصية، ولم يجوز الشافعي إلا في طاعة ويقتضي قوله ﴿فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ﴾ أن لا فرق بين أن يقضيها متتابعة أو غير متتابعة، وقد حُكي وجوب التتابع عن علي وابن مسعود -رضي الله عنهما-..

وقوله: ﴿مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ عام إلاَّ في عيد الفطر والأضحى والثلاثة أيام التي بعدها[١] وقوله: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾ ظاهره يقتضي أن المطيق له يلزمه فدية أفطَّر أو لم يفطِّر، لكن أجمعوا أنه لا يلزمه إلا مع شرط آخر فذهب الأصم إلى أن ذلك للمريض والمسافر وان الذي يطيق الفدية منهما فأفطر، فعليه الفدية لمكان ما خفف عنه، كما جعل على المتمتع بما خفف عنه أن يهدي، وهذا ضعيف لأمرين، أحدهما: أنه لم يجر الفدية قبل ذكر ولا مادل عليه، والثاني: أن المريض والمسافر قد أوجب عليهما عدة من أيام أخر، وذهب الشعبي وهو المروي عن ابن عباس- رضي الله عنهما- إلى أن الناس كانوا مخيرين في الابتداء بين أن يصوموا من غير فدية [وأن يفطروا ويقيدوا، ثم نسخ بالآية التي بعد، وتقديره: وعلى الذين يطيقونه فأفطروا إلى][٢] وروي عن ابن عباس -رضي الله عنهما- في أصح الروايتين أن ذلك في الشيخ والشيخة الهمين والحامل والمرضع إذا خافتا على ولديهما[٣]، فلفظ (الطاقة)هـهنا ينبيء عن ذلك، فإن الطاقة هي التي تبلغ غاية المشقة ولا يخرج عن القدرة والعجز وراءه، فذكر أن هؤلاء الذين يبلغ بهم الصوم غاية المشقة يجوز لهم الإفطار والفدية[٤] وقرئ

١ - في (أ - ص) وأيام التشريق.

٢ - ساقطة من (أ - ص).

٣ - في (أ - ص) إذا خافت على ولدها.

٤ - في (أ - ص) بلا فدية، وهو خطأ من الناسخ.

(يُطَوقونه)[١] أي يتكلفونه بجهد، وقرئ (يطَّوَّقونه)[٢] أى يُحملون على أن يتطوقوا، وقرئ (مسكين) اعتباراً بكل واحد كقوله: ﴿فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾[٣]، وإنما يلزم كل واحد هذا القدر، (ومساكين)[٤] اعتباراً بجماعتهم، ﴿وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، فقد قيل: مبني على ما تقدم، أي الصوم خير من الافطار والكفارة، ومن قال: (الذين يطيقون) للمسافرين والمرضى وقال هذا خطاب لهم، وكذا من قال: الشيخ الهم، ويجوز أن لا يكون خيراً فعل، وإنما المعنى: الخير في الصوم تنبيهاً على عظيم ثوابه، وذاك أن المراد من العبادة والإخلاص والنية، ولهذا قال عليه السلام: «**أَخْلِصْ يَكْفِكَ ٱلْقَلِيلُ مِنَ ٱلْعَمَلِ**»[٥]، ولما كانت الأفعال البدنية كثيراً ما يدخلها الرياء إلا الصوم فإنه لا يوقف[٦] عليه مالم يخبر الإنسان عنه بلسانه، ولا عبادة يدخل فيها الإنسان بالنية المجردة إلا الصوم...

قال عليه السلام: «**يقول الله -عز وجل- الصَّوْمُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ**»[٧] ثم قال: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي : إن عرفتم ما فيه من المنفعة، وتحققتم ما يثمره لكم لم تتهاونوا في تحمله.

---

١ - هى قراءة شاذة ، قرأت بها عائشة وسعيد بن جبير وعكرمة . انظر : الد ر المنثور - ج : ١- ص ٤٣١ ، ومفردات ألفاظ القرآن - ص ٥٣٣.

٢ - قرأ بهذا الوجه كل من : طاووس، وعائشة، ومجاهد، وعمرو بن دينار، معجم القراءات القرآنية - ج:١-ص١٤١.

٣ - سورة النور : الآية (٤).

٤ - قرأ بهذا الوجه كل من نافع، وابن عامر، وأبي جعفر، وهشام، وابن عمر، ومجاهد، والحسن، والمطوعي معجم القراءات القرآنية - ج: ١ - ص ١٤٢.

٥ - الحديث عن معاذ بن جبل - رضي الله عنه - أنه قال لرسول الله - صلي الله عليه وسلم - حين بعثه إلي اليمن : أوصني ، قال : « أخلص دينك يكفك العمل القليل » أخرجه الحاكم في الرقاق - ج :٤ -ص ٣٠٦ ، وقال : صحيح الإسناد ، ولم يوافقه الذهبي . وأورده أبو نعيم في الحلية - ج :١- ص٢٤٤ . وقال العراقي : رواه الديلمي في مسند الفردوس من حديث معاذ وإسناده منقطع . تخريج أحاديث الإحياء - ج :٦-ص٢٤٠٦، وأورده الراغب في مفردات ألفاظ القرآن - ص ٧٠٨ .

٦ - في (أ - ص) لا يتوقف.

٧ - الحديث أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده من حديث أبي هريرة عن النبي صلي الله عليه وسلم فيما يرويه عن رب العزة قال : « الحسنة بعشر أمثالها ، والصوم لي وأنا أجزى به ، يذر طعامه وشرابه من أجلي ، ولخلوف فم الصائم عند الله أطيب من ريح المسك » المسند - ج :٢- ص ٢٣٤، ٣٩٥، ٤١١، ٤٥٧، ٤٦٥، ٤٦٧، وأخرجه البيهقي بلفظه في ج :٤- ص ٢٣٥، ٢٧٣، وأخرجه الطبراني في معجمه - ج : ١٠ - ص ١٢٠.

قوله - عز وجل :

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

الآية (١٨٥) - سورة البقرة.

شهرة الشيء: ظهوره للكافة، وقد شهَّر أمره وسيفه إذا جرده والشهر مدة مشهورة، والمشاهرة المعاملة به كالمعاومة والمياومة [والمسانهة][١] والرمض شدة وقع الشمس، وسمي رمضان لمطابقته في ابتداء موضوع الاسم له شدة الحر، لأن الشهور سميت [في الأصل][٢] بمطابقة؛ بعض ما عرض فيها من الأحوال في ابتداء موضوعها والإرادة أصلها من : رَادَ يَرُودُ إذا سَعَىٰ في مهل للطلب، ومنه الرايد، والمرود للميل، ولمعنى المهل قيل رويداً، وقد تقدم حقيقة الإرادة، والقرآن أصله من القرى، وهو ضم ما كان متفرقاً، ومنه: "**ما قرأت الناقة سلا قط**"، أي مالم تضمه إلى نفسها ولم تجمعه في رحمها، ولا يتناول إلا على المنزل على محمد -عليه السلام- والكتاب عام، والفرقان قيل إنه يتناول القرآن والتوراة- إن قيل: فلم سمي بذلك؟

---

١ - ساقطة من (و - ج).

٢ - ساقطة من (و - ج).

قيل: إما بالنظر الحلال، فلأنه جامعٌ للسور والأيام، وإما على نظرٍ أدق من ذلك، فلأنه جمع فيه كل شيئ محتاج إليه الناس من أمر مَعَاشِهِمْ وَمَعَادِهِمْ مما يتبلغون به إلى الآخرة، ولهذا قال تعالى: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾[1]، وقال: ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾[2]، والعسر صعوبة الشيئ وعسره وعسيراً، وعسر عمل شماله وذلك إما تصور الصعوبة ما تتعاطى بها، وإما لاعتقاد العسر فيها[3] بسواها، واليسر ضده، واليسير للضار بين على الحرور بالقداح ليسارهم، وقوله:

(شهر رمضان) مبتدأ، وخبره الذي، ومن لم يجعل الأول منسوخاً قال: تقديره: "**هو شهر رمضان**"، أو يكون بدلاً من الصيام، وقوله: هدىً، أي هادياً، وقال عطية بن الأسود لابن عباس: "**في نفسي شيئ، وهو أنه قال: (شهر رمضان)،**"، وقال:

﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾[4]، وقال: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾[5]، وقد أنزل الله -عز وجل- القرآن في جميع الشهور، فقال: الليلة المباركة ليلة القدر، وليلة القدر في شهر رمضان، وقد أنزل الله القرآن جملة إلى البيت المعمور، ثم أنزل على محمد ﷺ الله رسلاً، وعلي هذا قوله: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً﴾[6].

وقيل فيه: أي في سببه وتخصيصه بذلك وإن شاركه فيه غيره فعلى سبيل التعظيم، وعلى هذا "**في ليلة القدر**"، أي في سببه وتفصيله، وإليه ذهب الضحاك..

إن قيل:

إذا كان الهدى مقتضياً للبينات، فما فائدة (**وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ**)؟ قيل: القرآن يهدي على

---

١ - سورة الأنعام : الآية (٣٨).

٢ - سورة يوسف : الآية (١١١).

٣ - في (و - ج) تسوء ماتها.

٤ - سورة القدر : الآية (١).

٥ - سورة الدخان : الآية (٣).

٦ - سورة الإسراء: الآية (١٠٦).

ضربين، أحدهما أن يدل على سبيل المجمل، والثاني : على سبيل التفصيل، فبين أن فيه هدى على الجملة، وبينات أي ما يوضح ويكشف على سبيل التفصيل، ففرق بين الحق والباطل، فصار ذكر البينات والفرقان بعد الهدى ذكر الخاص بعد العام، وجواب آخر، وهو أنه قد تقدم أن الهدى على ضربين هداية إلى سبيل الله المعنية[1] بقوله تعالى: ﴿**ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ**﴾[2]، وهداية إلى الله المعنية بقوله عز وجل:﴿ **قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي**﴾[3]، فالإشارة بقوله: (هدى) إلى الأولى، وبقوله: ﴿**وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ**﴾ إلى الثانية،والفرقان مصدر في الأصل [كالغفران والكفران][4]، وسمي به القرآن[5] لكونه فارقاً بين الحق والباطل في الاعتقاد والصدق والكذب في المقال، والجميل والقبيح في الأفعال، وقوله: (فمن شهد) عام في كل مكلف حاضراً كان أو مسافراً، لكن أخرج منه المسافر والمريض، ولم يدخل فيه الحائض لدلالة الإجماع عليه[6]، فمنهم من اعتبر الشهود في ابتدائه، فقال: "**مَنْ شَهِدَهُ وَهُوَ مُقِيمٌ فعليه صَوْمُهُ سَافَرَ أو لم يُسَافِرْ**" وإليه ذهب أميرالمؤمنين علي – رضي الله عنه–، ومنهم من اعتبر ذلك في أجزائه، وإليه ذهب عامة الفقهاء، وقال أبو حنيفة: –رحمه الله–: "من كان صحيح العقل في بعض رمضان، فعليه صوم كله، لأنه شهد الشهر"، وعند الشافعي أن كل يوم لم يكن فيه صحيح العقل لا يلزمه صومه، ولا خلاف أن الصبي إذا بلغ في أثناء الشهر لم يلزمه قضاء ما تقدم من الشهر.

إن قيل: لم أعاد ذكر الشهر، ولم يقل: "**فمن شهده**"؟

قيل: لأمرين: أحدهما: تعظيماً لذكره، لأن ما يعظم قد يعاد ذكره مع كل حكم يحدد له. والثاني:ليس يحل الصوم على من كان شهد الشهر الذي أنزل فيه القرآن فقط، فلذلك أعاد ذكره.،،

---

١ – في (أ – ص) المعنى.

٢ – سورة النحل : الآية (١٢٥).

٣ – سورة يوسف : الآية (١٠٨).

٤ – ساقطة من (و – ج).

٥ – في (و –) الفرقان.

٦ – في (أ – ص) بإجماع.

إن قيل:

فلم قال: (فليصمه) ولم يقل فيصم فيه؟

قيل: قد ذكر بعض النحويين أن القائل إذا قال اليوم ضربته زيداً، إنما يقال إذا استوعب اليوم لضربه، وإذا قيل: ضربت فيه، فهو أن يضرب فيه في بعض أوقاته، فنبه بقوله: (فليصمه) على الاستيعاب..

إن قيل: لم أعيد ذكر المريض والمسافر؟

قيل: إما على قول من يجعل الآية منسوخة، فليس أن حكمها مراعى في الناسخ كما هو مراعى في المنسوخ، وإن ذلك لم يرتفع بارتفاع التخيير[1]، وأما على قول غيره فللتأكيد أولاً، ولتعليق ما علق به من الحكم ثانياً، وهو قوله: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾، وذكر الفقهاء أن إرادة اليسر هي مما رخص للمسافر والمريض، وذهب غيرهم إلى أن إرادة الله عز وجل اليسر لمن أوجب عليه الصوم عليهم كما هي للمفطر والصائم جميعاً، ففي الصوم أعظم اليسرين، وعلى هذا قال الأعرابي: "أَقْصُدُ الْبَلَدَ المبَارَكَ لِأَصُومَ هَذَا الشَّهْرَ المبَارَكَ"، فقيل له: أفي هذا الحر؟

فقال: "من الحرِّ أفرّ"

وقيل لآخر: أتكدُّ نفسك في العبادة، فقال: "راحتها أريد، فإذن في إيجاب "الله تعالى الصوم أعظم اليسرين..

إن قيل: على أي وجه تعليله بما علل به من قوله: ﴿ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ ﴾؟

قيل: بين تعالى أن ما أوجبه من الصوم عيناً[2] وقضاءً إرادة لتكميل العدة المقتضية للتقوى المذكورة في قوله: (لعلكم تتقون)، ﴿ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ ﴾ ولم يرد به التفوه بلفظ التكبير فقط.

١ - في (أ - ص) بارتفاع منسوخة.

٢ - في (و - ج) عبثاً، وهو تصحيف.

بل أراد معرفة كبريائه وعظمته وإن كان فيه دلالة على أن التكبير مستحب..

إن قيل: لم قال: (ولتكملوا العدة) فأدخل الواو فيه؟ قيل: يجوز أن تتعلق اللام بفعل مضمر، كأنه قيل: (ولتكملوا العدة) أمرٌ بما أمر، ويجوز أن يكون معطوفاً على قوله: ﴿الْيُسْرَ﴾، كأنه قيل: (يريد بكم اليسر وتكميل العدة)، فأدخل فيه اللام كما أدخل في قوله :﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ﴾[1].

قوله - عز وجل:

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ الآية (١٨٦)-سورة البقرة .

إن قيل: كيف فصل بين الآية الأولى وبين التي بعد هذه وهما في حكم رمضان بهذه الآية وهي قد اختلفت عنهما؟، قيل: بل هي من تمام الآية الأولى، لأنه لما حث على تكبيره وشكره على ما قيضه لهم من إتمام الصوم، بين أن الذين تذكرونه وتشكرونه قريب منكم ومجيبٌ لكم إذا دعوتموه، ثم تمم ما بقي من أحكام الصوم، ولم يرد بالقرب ههنا القرب المكاني، وإنما ذلك قربة تقتضيه إفضاله ووجود آثاره المشار إليها بقوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾[2]، **وروي أن موسى قال: "أقريب أنت فأناجيك؟ أم بعيدٌ فأناديك؟ فقال:**

"لو حددت لك البعد لما انتهيت إليه، ولو حددت لك القرب لما اقتدرت عليه"[3] ، وقد روي أن النبي ﷺ سئل عن ذلك، فأنزل الله -عز وجل- هذه الآية، فبين تعالى أفضاله على عباده، وضمن أنهم

---

١ - سورة النساء : الآية (٢٦).

٢ - سورة ق : الآية (١٦).

٣ - الحديث أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف- ج:١- ص١٠٨، وأخرجه الإمام أحمد في كتاب الزهد عن كعب قال قال موسى : أي رب : أقريب أنت فأناجيك أم بعيد فأناديك ؟ قال : ياموسي أنا جليس من ذكرني ،،قال : يارب : فإنا نكون من الحال على حال نعظمك أو نجلك فنذكرك عليها . قال : وماهي ؟ قال : الجنابة والغائط . قال : ياموسي : اذكرني علي كل حال» كتاب الزهد - للإمام أحمد بن حنبل - ص ٨٦ ، وأورده السيوطي في الدر المنثور - ج : ١- ص٤٧٠ ، وأورده الراغب في مفردات ألفاظ القرآن- ص ٦٦٤.

إذا دعوه أجابهم، وعليه نبه بقوله تعالى: ﴿ **ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ** ﴾[١]..

إن قيل: قد ضمن في الآيتين أن من يدعوه يجيبه[٢]، وكم رأينا من داعٍ له لا يجاب؟[٣]، قيل: إنه ضمن الإجابة لعباده، ولم يرد بالعباد من ذكرهم بقوله: ﴿ **إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا** ﴾[٤] وإنما عنى بهم الموصوفين..

في قوله - عز وجل - ﴿ **إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ** ﴾[٥] الآية، وقوله: ﴿ **وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا** ﴾[٦] الآية، ولدعائهم شرائط، وهي أن تدعو بأحسن الأسماء كما قال الله تعالى: ﴿ **وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا** ﴾[٧] ، ويخلص له النية ويظهر له الافتقار ولا يرغب إليه فيما تنزه الأكابر عن مسئلة مثله ولا ما يستعين به على معاداته، وأن يعلم أن نعمته فيما يمنعه من دنياه كنعمته فيما أعطاه، ومعلومٌ أن من هذا حاله مجاب الدعوة، وأنه من جملة من وصفه النبي عليه السلام بقوله:

«**رُبَّ ذِي طِمْرَيْنِ لَا يُؤْبَهُ بِهِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبَرَّهُ**»،[٨] ثم قال: ﴿ **فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي** ﴾ أي إذا كنت لهم بهذه المنزلة فحريٌّ أن يستجيبوا لي إذا دعوتهم، وأن يؤمنوا بي - راجين رشدهم، وإنما قال: ﴿ **فَلْيَسْتَجِيبُوا** ﴾ ولم يقل ليجيبوا للطيفة، وهي أن حقيقة الاستجابة طلب الإجابة وإن كان قد يستعمل في معنى الإجابة، فبين أن العباد متى تحروا إجابته بقدر وسعهم فإنه يرضى عنهم..

إن قيل: كيف جمع بين الاستجابة والإيمان وأحدهما يغني عن الآخر؟

---

١ - سورة غافر : الآية (٦٠).

٢ - في (أ - ص) من دعاه أجابه.

٣ - في (أ - ص) لم يجبه.

٤ - سورة مريم : الآية (٩٣).

٥ - سورة الحجر : الآية (٤٢).

٦ - سورة الفرقان : الآية (٦٣).

٧ - سورة الأعراف : الآية (١٨٠).

٨ - الحديث رواه الهيثمي في مجمع الزوائد - ج :١٠-ص ٢٦٤ ، ورواه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين - ج :٨ -ص٢٢٥ ،ص٢٣٤ ، وأخرجه المتقي الهندي في كنز العمال - حديث رقم ٥٩٢٦ ورواه أبو نعيم في حلية الأولياء - ج : ١- ص٣٥٠، وأورده العجلوني في كشف الخفاء - ج :١-ص٥١٢ بلفظ : (رب أشعث أغبر لايؤبه به لو أقسم على الله لأبره) وهو بلفظه في حلية الأولياء عن أنس عن النبي - صلي الله عليه وسلم قال : (رب أشعث ذي طمرين لايؤبه به لو أقسم على الله لأبره).

فإنه لا يكون مستجيباً لله– عز وجل– من لا يكون مؤمناً، ولا مؤمناً من لا يكون مستجيباً، قيل أحدهما وإن يضمن الآخر من حيث الاعتبار، فذكرها ليطمئن، فإن إجابته ارتسام أوامره ونواهيه التي يتولاه الجوارح، والإيمان هو الاعتقاد الذي تقتضيه القلوب، وأيضاً فإن الإيمان المعني هاهنا هو الإيمان المذكور في قوله:

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾[1]

وذلك بعد الإجابة، وقد تقدمت منازلُ الإيمان.

قوله – عز وجل :

﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾

الآية (١٨٧)– سورة البقرة .

الرفث كل كلام يتضمن ذكر الجماع، وجُعل كناية عنه، وعُدِّي بإلى لتضمنه معنى الإفضاء والخيانة بنقض العهد، ولهذا قوبل بالوفاء الدال على التمام، والحد ما يمنع أحد الشيئين من الآخر، فتارة يتصور منه المنع، نحو قوله تعالى: **﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ ﴾**[2]، وقيل للثواب حداد، وتارة تصور منه الفصل، فقيل: حدُّ الدار، وبه شبه الحد في الكلام،وقيل: حد الرأي لكونه مانعاً له ولغيره عن مواقعة مثله، وحد السيف ما يفصل بينه وبين الجانب الآخر، ثم تصور منه الدقة، فقيل: أحددت السيف، وسمي الحديد لكثرة وجود هذه الصورة فيه، والعكوف: الإقامة على الشئ والحبس عليه، فتارة يراعى منه الإقامة فلا يعدي نحو: **﴿ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ ﴾**[3]، وتارة يراعى منه الحبس

---

١ – سورة الأنفال : الآية (٢).

٢– سورة المجادلة : الآيتان :(٥ ، ٢٠).

٣ – سورة الحج : الآية (٢٥).

والوقف، فيعدي نحو قوله: ﴿ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا ﴾[١]، وقوله: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾ جعل اللباس كناية عن الزوج، لكونه ستراً لنفسه ولزوجه أن يظهر منهما سوء، كما أن اللباس يمنع أن تبدو السوءة، وعلى ذلك جعلت المرأة إزاراً، وسمي النكاح حصناً، لكونه حصيناً لذويه عن تعاطي القبيح.

وقال الأصم:

معنى قوله: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ﴾ أي كأن يعطي كل واحد على الآخر ما يتعاطاه من الإختيار[٢] من قولهم: لبست عليه ذيلي، وقيل: سبب نزول هذه الآية أن المباحات كانت تحظر على الصائم بعد الرقاد، فقيل: إن عمر[٣] قالت له امرأته لما راودها: قد أعفيت، فظن أنها اعتلت عليه، فواقعها، فذكر ذلك للنبي -عليه السلام- وقيل: كان شيخ من الأنصار يقال له "صرمة" قعد ينتظر امرأته لتصنع له طعاماً، فنام وترك الطعام، فرآه النبي -عليه السلام- في اليوم الثاني شاحباً، فسأله، فأخبره، فأنزل الله تعالى هذه الآية[٤] والاختيان مراودة الخيانة وتخصيصه من دون قوله: (تخونون) لفائدة، وهي أن

---

١ - سورة الفتح : الآية (٢٥).

٢ - في (و - ج) الاختيان وهو تصحيف.

٣ - أورد السيوطي في سبب نزول هذه الآية ما رواه أحمد وأبو داود والحاكم من طريق عبد الرحمن بن أبي ليلى عن معاذ بن جبل قال: كانوا يأكلون ويشربون ويأتون النساء مالم يناموا، فإذا ناموا امتنعوا، ثم إن رجلاً من الانصار يقال له قيس بن صرمة صلى العشاء ثم نام فلم يأكل ولم يشرب حتى أصبح، فأصبح مجهداً، وكان عمر قد أصاب من النساء بعدما نام، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم، فذكر ذلك له، فأنزل الله (أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم) إلى قوله (ثم أتموا الصيام إلى الليل) هذا الحديث مشهور عن ابن أبي ليلى لكنه لم يسمع من معاذ، وله شواهد، فأخرج البخاري عن البراء قال: كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم إذا كان غير صائماً فحضر الإفطار فنام قبل أن يفطر لم يأكل ليلته ولا يومه حتى يُمس، وإن قيس بن صرمة الأنصاري كان صائماً فلما حضر الإفطار أتى امرأته فقال هل عندك طعام فقالت لا ولكن أنطلق فأطلب لك، وكان يومه يعمل فغلبته عينه وجاءته امرأته فلما رأته قالت خيبة لك، فلما انتصف النهار غشى عليه، فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم: فنزلت هذه الآية (أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم) ففرحوا بها فرحاً شديداً، وأخرج البخاري عن البراء قال: لما نزل صوم شهر رمضان، كانوا لا يقربون النساء رمضان كله فكان رجال يخونون أنفسهم، فأنزل الله: (علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم) الآية. أسباب النزول- السيوطي- ص ٢٢، ٢٣.

٤ - أورد ابن كثير هاتين الرواتين عن مجاهد وعطاء وعكرمة وقتادة وغيرهم في سبب نزول هذه الآية في عمر بن الخطاب وصرمة بن قيس ومن صنع كما صنعا ، فأباح الجماع والطعام والشراب في جميع الليل رحمة ورخصة ورفقاً . تفسير القرآن العظيم ج:١-ص٢٢٠ ، ص ٢٢١.

المخاطبين لم يكونوا كلهم خانوا وكلهم أوجلُّهم قد اختانوا، لأن الاختيان هو أن تتحرك الشهوة وتدعوه، ولذلك خص لفظ النفس المعنية بقوله: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾[1]، وكفى للتنبيه على اختيان النفس شهادة من حلفها بذلك علماً بقوله تعالى: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾، فاختيان النفس مخادعتها ومدافعتها إما بمساعدة أو بمخالفة وقوله تعالى: ﴿وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ إشارة في تحري النكاح إلى لطيفة، وهي أن الله تعالى جعل لنا شهوة النكاح لبقاء نوع الإنسان إلى غاية، كما جعل لنا شهوة الطعام لبقاء أشخاصنا إلى غاية، فحق الإنسان أن يتحرى بالنكاح ما جعل الله لنا على حسب ما يقتضيه العقل والديانة، فمتى تحرى به حفظ النسل وحصن النفس على الوجه المشروع، فقد ابتغى ما كتب الله له، وإلى هذا أشار من قال:

عنى الولد به الخيط الأبيض بياض النهار، وبالخيط الأسود سواد الليل، وروي أن عدي بن حاتم عمد إلى عقالين أبيض وأسود، ثم جعل ينظر إليهما ويأكل إلى أن يتبين أحديهما من الآخر، فأخبر النبي – عليه السلام– بالذي صنع، فقال: **إنك لعريض الوساد، إنما ذاك سواد الليل وبياض النهار**[2] وقوله: ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ تنبيه على ابتداء التحريم إلى انتهائه، وكما نهى عن المباشرة في حال الصوم نهي عنها في حال الاعتكاف وظاهر ذكر المساجد يقتضي جواز الاعتكاف في كل مسجد..

---

١ – سورة يوسف : الآية (٥٣).

٢ – الحديث أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود وأحمد ج -٤ – ص٣٧٧ والنسائي ج ٤ – ص١٤٨، كما أخرجه بن حجر العسقلاني في فتح الباري – كتاب التفسير – ج -٨ ص١٨٢ ومسلم حديث رقم (١٠٩١) وفي سنن أبي داود حديث رقم (٢٣٤٩)، كما أورده الراغب في مفردات ألفاظ القرآن ص ٣٠٣ .

قوله - عز وجل :

﴿ وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ الآية (١٨٨) - سورة البقرة .

الإدلاء: إرسال الدلو في البئر، واستعير للتوصل إلى الشئ، وعلى هذا قول الشاعر:

فليس الرزق عن طلب حثيث ... ولكن ألق دلوك في الدلاء[١]

وعلى هذا النحو سمي الوسيلة المانحة في قول الشاعر:

وَلِي مَانِحٌ لَمْ يُورِدِ المَاءَ قَبْلَـهُ ... مُعِلٌّ وَأَشْطَانُ الطَّوِيِّ كَثِيرٌ[٢]

والأكل عبارة عن الإنفاق، إذ هو أهم ما يُصرف إليه المال، وأكل المال بالباطل صرفه إلى ماينافيه الحق، وهو التبذير والإسراف قليلاً كان الإنفاق أو كثيراً، ولهذا قيل:

(رب إنفاق قليل هو إسراف، وكثير هو اقتصاد).، وقوله: (وتدلوا) أي لا تدلوا، وكما نهى عن تبذير الأموال نهى أن يدلي بها إلى الحكام على سبيل الرشوة، وتوصلاً إلى اقتطاع أموال الناس، وقيل: معناه: لا يأكل بعضكم مال بعض غصباً أوخيانةً فيلجؤوهم إلى المرافعة إلى الحكام، فلا يحكم عليكم لعدم البينة فتستبينوا [٣] إلى أن تأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم، وقيل: من يتولى أموال

١- قائل البيت هو أبو الأسود الدؤلي ، والبيت الذي قبله :

تجئ بملئها طوراً وطوراً ... تجئ بحماة وقليل ماء

وهو في مخطوط كتاب : الدر الفريد وبيت القصيد -ج :٥--ص٣٠٢ ، وفي بصائر ذوي التمييز - للفيروز آبادي - ج :٢-ص٦٠٦، وفي المحاسن والمساوئ للبيهقي - ص ٢٨٦ ، وفي مفردات ألفاظ القرآن - للراغب - ص ٣١٧.

٢- البيت للعجير السلولي ، وهو في لسان العرب - مادة (ميح) ، ورواية اللسان :

ولي مائح لم يورد الماء قبله ... يعلّي وأشطان الدلاء كثير

وهو في مفردات ألفاظ القرآن ، للراغب ص ٣١٧:

ولي مائح لم يورد الناس قبله ... معل وأشطان الطوى كثير

وقد عني بالمائح لسانه ، لأنه يميح من قبله ، وعنى بالماء الكلام ، وأشطان الدلاء :

أي أسباب الكلام كثير لديه غير متعذر عليه . المجمل -ج:٢-ص٣٣٤.

٣ - في (أ - ص) وتنسوا .

الأيتام، فيأكل بعضاً ويدفع إلى الحكام بعضاً، والوجه الأول أجود، لأنه قال: **﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم﴾**، ثم قال: لتأكلوا ففصل بين الأمرين، والوجهان الآخران داخلان في عمومه، وقوله: **﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾** أي إن أخفى علمكم على الناس، فإنه لا يخفى عليكم تنبيهاً أن الاعتبار بما عليه الأمر في نفسه، وما علمتم منه لا بما يظهر، ونبه -عليه السلام- على ذلك بقوله:

(إنكم تختصمون إليَّ، ولعل بعضكم ألحن بحجته من بعض، فمن حكمت له بشيء من حق أخيه، فلا يأخذن منه قليلاً ولا كثيراً، فإنما أقطع له قطعة من النار)[1]، وقال: **(البر ما اطمأنت إليه النفس)**[2].

قوله - عز وجل :

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾الآية (١٨٩) - سورة البقرة .

المواقيت : جمع ميقات وهو مفعال من الوقت، والوقت والمدة والزمان تتقارب، لكن المدة المطلقة أوسع هذه الألفاظ، فإنها امتداد حركة الفلك أي اتصالها من مبدئها إلى غايتها، والزمان مدة مقسومة من المدة المطلقة والوقت الزمان المفروض للعمل، ومعنى مواقيت للناس أي لما يتعلق به من أمور معاملاتهم ومصالحهم، كقوله تعالى: **﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾**[3]، ونبه بذكر الحج على ما يتعلق به من العبادات، ولكن ذكرنا

١- الحديث أخرجه البيهقي في سننه ج ١٠-ص١٤٩، كما أخرجه البغوي في شرح السنة ج-٦-ص١٩ وأورده ابن كثير في البداية والنهاية ج - ٢ : ص٣٥٨.

٢- الحديث عن وابصة بن معبد رضي الله عنه قال : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : (جئت تسأل عن البر؟ قلت نعم . قال : البر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب ، والإثم ماحاك في النفس وتردد في الصدر وإن أفتاك الناس وأفتوك أخرجه الإمام أحمد في مسنده ج -٤-ص٢٢٨، وفيه أيوب بن عبد الله بن مكرز قال ابن عدي : لايتابع على حديثه ، ووثقه ابن حبان ، وأخرجه الدارمي ج : ٢- ص٣٢٢ ، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ج - ١- ص١٨٢ كما ذكره النووي في الأربعين ، وقال حديث حسن رويناه في مسند الإمام أحمد والدارمي بإسناد حسن ، راجع الأربعين النووية ص٣٥، كما أورده الراغب في مفردات ألفاظ القرآن ص ٦٤.

٣ - سورة يونس : الآية (٥).

أعظمها أثراً، فإن الحج مراعى في قضائه وأدائه الوقت المعلوم بخلاف سائر العبادات التي لا تعتبر في قضائها وقت معين والباب معروف، وعنه استعير لمداخل الأسباب المتوصل بها إليه، وقيل: في العلم باب كذا، وقول النبي ﷺ: «**أَنَا مَدِينَةُ الْعِلْمِ وَعَلِيٌّ بَابُهَا**»[1]، أي به يتوصل إلى حقائق العلوم، وعلي وإن شاركه فيه غيره، فتخصيصه لكونه أرفع منزلة في باب العلم وقد كان سئل- عليه السلام- عن فائدة زيادة الهلال ونقصانه، فأنزل الله تعالى هذه الآية[2] منبهاً على أظهر فائدته للحس وأبينها له، ثم قال: ﴿**لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ**﴾[3]، أي بأن يطلبوا من غير وجه، وذلك أنه يقال: "**أتى فلان البيت من بابه**" إذا طلب الشئ من وجهه.

وقال الشاعر:

أَتَيْتُ الْمُرُوءَةَ مِنْ بَابِهَا[4]..

١ - الحديث رواه الحاكم في المستدرك والطبراني في الكبير وأبو الشيخ في السنة وغيرهم ، وكلهم عن ابن عباس مرفوعا مع زيادة :(فمن أتي العلم فليأت الباب) ورواه الترمذي وأبو نعيم وغيرهما عن علي بلفظ أن النبي صلي الله عليه وسلم قال : أنا دار الحكمة وعلي بابها - وهنا حديث مضطرب غير ثابت - كما قاله الدار قطني في العلل ج - ٣ - ص ٢٤٧ ، وقال الترمذي : منكر، وقال البخاري : ليس له وجه صحيح ، ونقل الخطيب البغدادي عن ابن معين قوله كذب لاأصل له ، وذكره ابن الجوزي في الموضوعات ووافقه الذهبي وغيره - المستدرك ج :٣ - ص١٢٦ وقال الحاكم فيه صحيح الإسناد وتعقبه الذهبي فقال بل موضوع ، والحاصل أن الحديث ينتهى بمجموع طريقي أبي معاوية وشريك إلى درجة الحسن المحتج به .

راجع : كشف الخفاء للعجلوني ج :١-ص٢٠٣ واللآلئ المصنوعة ج :١-ص٣٢٩، وعارضة الأحوذي ج :١٣-ص١٧١ ، وحلية الأولياء ج : ١- ص ٦٤ وقد أورده الراغب كذلك فى مفردات ألفاظ القرآن ص ١٥٠.

٢ - أورد السيوطي ما أخرجه ابن أبي حاتم عن طريق العوفي عن ابن عباس قال: (سأل الناس رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الأهلة فتنزلت هذه الآية، وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية قال (بلغنا أنهم قالوا يارسول الله، لما خلقت الأهلة، فأنزل الله (يسألونك عن الأهلة) كما أورد السيوطي ما روي عن ابن عباس أن معاذ بن جبل وثعلبة بن غنمة قالا: يارسول الله ما بال الهلال يبدو أو يطلع وثيقاً مثل الخيط، ثم يزيد حتى يعظم ويستوي ويستدير، ثم لا يزال ينقص ويدق حتى يعود كما كان لا يكون على حال واحد، فنزلت (يسألونك عن الأهلة). أسباب النزول للسيوطي ص٢٢، ٢٤.

٣ - سورة البقرة الآية :(١٧٧).

٥ - هذا عجز بيت للأعشى وقبله:

وكأس شربتُ علي لــذةٍ ... وأخرى تداويتُ منها بها

لكي يعلم الناسُ أني امرؤٌ ... أتيتُ المروءةَ منْ بابِهـا

وهو في مفردات ألفاظ القرآن ص ٦٠ وعقب عليه الأستاذ : صفوان داوودي المحقق قائلاً : البيت ليس في ديوان الأعشي - ط - دار صادر - بيروت - بل هو فى ديوان ط - مصر - ص ١٧٣ ، وفي خاص الخاص ص ٩٩ وعجز البيت فى بصائر ذوي التمييز ج : ٢ - ص ٤٣.

و"**أتى البيت من ظهره**" إذا طلب الأمر من غير وجهه وجعل ذلك مثلاً لسؤالهم النبي ﷺ عما هو ليس من العلم المختص بالنبوة، وان ذلك عدول عن المنهج، وذلك أن العلوم ضربان:

دنيوي : يتعلق بأمر المعاش كمعرفة الصنايع ومعرفة الأجرام السماوية ومعرفة المعادن والنبات وطبائع الحيوانات، وقد جعل الله تعالى لنا سبيلاً إلى معرفته على غير لسان نبيه محمد -عليه السلام-، وشرعي: وهو البر، ولا سبيل إلى أخذه إلا من جهته، وهو أحكام التقوى، فلما جاءوا يسألون النبي ﷺ عما أمكنهم معرفته من غير جهته أجابهم، ثم بين لهم أن ليس البر ترك المنهج في سؤال النبي -عليه السلام- ماليس هو مختصاً بعلم نبوته، ولكن البر هو تحري التقوى، وذلك يكون بالعلم والعمل المختصين بالدين، وقال بعض المفسرين: إتيان البيوت من ظهورها هو أن العرب من لم يكن من الخمس إذا أحرم لم يدخل البيت من بابه بل كان يأتيه من ظهوره، فأتى رجل من باب بيته، فأنكر عليه، فأنزل الله تعالى هذه الآية.. وهذا عن ابن عباس وغيره[1]، وقيل: إتيان البيوت من ظهورها مخالفة الواجب في الحج وشهوره، واستحلال أشهر الحرام، وتحريم الحلال، المعني بقوله: ﴿**إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ**﴾[2]، وكل ذلك لا يمتنع أن تتناوله الآية، لكن الأليق بأول الآية ما تقدم ذكره، وقوله: ﴿**وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا**﴾- أي تحروا في كل عمل إتيان الشئ من وجهه تنبيهاً أن ما يطلب من غير وجهه صعب مناله، ثم قال: ﴿**وَاتَّقُوا اللَّهَ**﴾ حثاً لنا أن نجعل تقوى الله عز وجل- شعارنا في كل ما نتحراه، فبين أن ذلك هو الذريعة الى تحصيل الفلاح..

١- أورده السيوطي في الدر المنثور ج ١- ص ٤٩١ ، والواحدي في أسباب النزول ص ٨٦، كما أورده الراغب في كتابه مفردات ألفاظ القرآن ص ١٥١.

٢ - سورة التوبة - الآية (٣٧).

قوله - عز وجل :

﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾

الآية (١٩٠) - سورة البقرة.

اختلف في حكم هذه الآية، فقيل: هي ناسخة لحكم العفو ومنسوخة بقوله: **﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً ﴾**[١]، وقيل: ليست بمنسوخة ولا ناسخة،[٢] وبيان ذلك أن من شرط الداعي إلى الحق أن يبينه ويدل عليه ويرفق، فإن اهتدى المدعو، وإلا أوعد، فإن أنجع ذلك وإلا عدل بعد إلى المحاسبة والمحاربة على ما تقتضيه السياسة، وعلى هذا قال بعضهم: «**لا أستعمل سوطي ماكفاني لساني ولا سيفي ماكفاني سوطي**".

وقال الشاعر:

أناة فإن لم يغن أعقب بعدها وعيدا فإن لم يغن أغنت عزائمه[٣]

فكان النبي ﷺ أمر في أول الأمر بالرفق والأناة، وأن يقتصر على الوعظ والمجادلة الحسنة، كما قال تعالى:

﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾[٤]، وكان يستمر على ذلك حتى عاتبه بعض أصحابه، فقال يانبي الله:

---

١ - سورة التوبة - الآية : (٣٦).

٢ - ذكر الدكتور مصطفى زيد في تعقيبه على دعوى النسخ في هذه الآية بأنها تنبني على مذهب واحد من مذهبين للمفسرين في الآية وهو مذهب الإحتمال ثم قال وهذا الاحتمال ليس هو أقوى الاحتمالين بدليل السياق، فإن الآية التي بعدها تقول: (واقتلوهم حيث ثقفتموهم) إلى آخر الآية، فتأمرنا بقتالهم حيث وجدناهم وبإخراجهم من مكة أو من منازلهم كما أخرجونا، ثم تعلل لهذا وذاك بأن ما كان منهم حين فتنوا الناس عن دينهم أعظم جرماً من القتل الذي سيقع عليهم، وتنهي عن قتالهم عند المسجد الحرام إلا اذا قاتلونا فيه، ولو أنهم كانوا مقاتلين عند المسجد الحرام بالفعل من أول الأمر- ما كان لقوله تعالى: (حتى يقاتلوكم فيه) وكان ولا معنى!... تنزه كلام الله عن أن يكون كذلك. النسخ في القرآن الكريم - الدكتور مصطفى زيد ج: ٢ ص ٦٤٦.

٣ - البيت ذكره القلقشندي فى صبح الأعشى بدون نسبة ج :٦ - ص ٣٠٨ ولفظه :

أناة فإن لم تغن عقب بعدها وعيد فإن لم يجد أجدت عزائمه

٤ - سورة النحل : الآيه (١٢٥).

"**كنا في عز ونحن مشركون، فلما آمنا صرنا أذلة**"،فقال عليه السلام: «**أمرت بالعفو فلا تقاتلوهم اليوم**»، فلما ظهرت آياته، وانتشرت بنياته، ورأى من أبى الإصغاء إلى الحق، واستمر على الضلال والإضلال أمر حينئذ بالمقاتلة أي المحاربة، ولهذا قال تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾[1].

ثم أمر بالقتال لمن تأبى الرجوع إلى الحق بالمحاربة، وكان هذا أمراً بعد أمر حسب مقتضى السياسة الإلهية، وقوله: **﴿الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾** منهم من تصور منه تولي القتال وتعاطيه في الحال، فقال: هو منسوخٌ بقوله: **﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾**، (ولا تعتدوا): نهيٌ عامٌ في مجاوزة كل حد حده الله تعالى، كالنهي عن قتل الصبيان والنساء، وقيل: "**من أُعطي الأمان وتحرى القتال ابتغى عرض الدنيا وطلب الرئاسة**"، ونبه بقوله: **﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾** أن اعتداء مرسوم الله وتجاوز حكمه في كل أمرٍ مذموم..

قوله - عز وجل :

﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾

الآية (١٩١) - سورة البقرة .

الثقف:الحذق في إدراك الشئ علماً كان أو عملاً، ومنه قيل:

رجل ثقفٌ لقفٌ إذا كان له حذق في إدراك الشئ علماً كان أو عملاً، ومنه قيل: رجل ثقف لقف إذا كان له خدمة في إدراك الشئ ومنه قيل: ثقفت الرمح، وأصل الفتنة إدخال الذهب النار للتصفية، يقال: فتنت الذهب أي اختبرته بالنار، ثم استعير لكل اختبار بأمرمحض، على ذلك قوله تعالى:

١- سورة النساء : الآية (٧٧).

﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾(١).

وجعل الفتنة لكل أمر مكروه المحتمل، فتارة استعير للشرك، وتارةً للعذاب، وتارة للأختبار، ولما كان لفظ الفتنة والقتل ههنا مبهمين، قال بعضهم: معناه أن يفتن الإنسان في دينه، فيشرك أشد أي أو خم عاقبة من أن يقتل، فإن الأذية التي تنال المقتول محدودة، والأذية التي تنال المشرك بشركه غير محدودة، وقال بعضهم: إن معناه: أن يوقع الإنسان الفتنة أشد على الناس أي أعظم ضرراً من أن يقتل في الحرم من يستحق القتل، وقال: وذلك ردٌّ على من استعظم قتل بعض المسلمين كافراً في الحرم، ولهذا قال بعده: **﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾**(٢) وقوله: **﴿وَأَخْرِجُوهُم﴾** أمر بإخراج الكفار من مكة بدلالة قوله: **﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ﴾**(٣)، وقوله: **﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ﴾**(٤) وقوله: **﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾**(٥) استثناء من قوله: **﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾**، وهذا حكم عند أكثر الفقهاء فإنه لا يُقَاتَل في الحرم إلا مَن قاتل، ويؤيد ذلك قوله – عليه السلام– يوم فتح مكة:«**إن مكة حرام حرمها الله –عز وجل– يوم خلق السماوات والأرض وإنما أحلت لي ساعة من نهار، ثم عادت حراماً إلى يوم القيامة**»(٦)، فهذا يدل على أن ذلك غير منسوخ كما ظنه بعض الناس، وقال الأصم: إن ثبت جوازاً القتل هذا في

---

١ – سورة العنكبوت : الآية (٢).

٢ – سورة البقرة – الآية : (١٩٣).

٣ – سورة محمد – الآية : (١٣).

٤ – سورة الحشر – الآية : (٨) .

٥– سورة البقرة الآية: (١٩١).

٦ – الحديث رواه مسلم فى صحيحه قال : حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا ليث عن سعيد بن أبي سعيد عن أبي شريح العدوي أنه قال لعمرو بن سعيد وهو يبعث البعوث إلي مكة : أئذن لي أيها الأمير : أحدثك قولا قام به رسول الله – صلي الله عليه وسلم الغد من يوم الفتح سمعته أذناي ووعاه قلبي ، وأبصرته عيناي حين تكلم به . أنه حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « إن مكة حرمها الله ولم يحرمها الناس ، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دماً ولايعضد بها شجرة، فإن أحد ترخص بقتال رسول الله– صلي الله عليه وسلم فيها ، فقولوا له : « إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم ، وإنما أذن لي فيها ساعة من نهار ، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس ، وليبلغ الشاهد الغائب » ... الخ .

والحديث رواه مسلم فى صحيحه ج :١–ص ٩٨٧ في كتاب الحج ، ورواه الإمام أحمد بسنده ولفظه في ج : ٤– ص ٣١ ، وفي ج : ٦– ص ٣٨٥ ، وأخرجه السيوطي في الدر المنثور ج :٢– ص ٥٢ ، وأخرجه المتقي الهندي في كنز العمال – حديث رقم ٣٤٦٥٤ ، وأخرجه ابن كثير في البداية والنهاية ج :٤–ص٣٠٥ – ج : ٨–ص١٤٨.

الحرم، فليس في ذلك نسخ، بل هو زيادة في فرض القتال، فإن هذا أمر بأن يقاتلوا في الحرم إذا قوتلوا، وذاك أمرٌ بالقتل قوتلوا أو لم يقاتلوا، فإذن الثاني زيادةٌ في الأمر بالقتال، ثم قال: **﴿فَإِن قَاتَلُوكُمْ﴾**، أى حاربوكم فاقتلوهم، وبين أن هذا حكم كل كافر يحارب المؤمنين.

قوله - عز وجل:
﴿فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ الآية (١٩٢) - سورة البقرة.

الانتهاء: الانزجار، والنهي الزجر، ونهاية الشئ غايته التي ينتهي إليها، لأن لكل شئ في هذا العالم غاية إذا انتهى إليها انصرف راجعاً عنها في الكون، والفساد والنهي العقل لكونه ناهياً عن القبيح، ككون العقل عاقلاً عنه، والحجر حاجراً عنه، والنهي في موضوع أهل النحو من صيغة "**لا تفعل**" حثاً على الشئ كان أو زجراً عنه، وفي موضوع أهل البرهان ما يقتضي الزجر عن الشئ سواء كان بلفظ "**أفعل**" أو "**لا تفعل**"، وهذا الخلاف من أجل أن النحوي يعتبر اللفظ قبل المعنى، وصاحب البرهان يعتبر المعنى قبل اللفظ، ونبه بالآية أن المنتهي عن الذنب يغفر له ما تقدم من ذنبه، وذلك عام في أمور الدنيا والآخرة إلا ما دلت الدلالة على الأخذ به من حقوق الآدميين، وعلى هذا قوله - عز وجل: **﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾**[1]، وقوله عليه السلام: «**الإِسْلَامُ يَجُبُّ مَا قَبْلَهُ**»[2]..

---

١ - سورة الأنفال : الآية (٣٨).

٢- الحديث صحيح وسنده حسن ، وقد رواه الإمام أحمد في مسنده من طريق يزيد بن أبي حبيب بهذا الإسناد - ج :٤- ص ١٩٩ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، وأخرجه الإمام مسلم في صحيحه من طريق يزيد بن حبيب عن أبي شماسة المهري عن عمرو بن العاص - ص ١٢١، وأخرجه ابن كثير في البداية والنهاية - ج :٣-ص٥٩٦ ، وأخرجه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين ج :٩- ص٦٠٩ ، وأخرجه المتقي الهندى في كنز العمال - ص ٢٤٣.

قوله - عز وجل :
﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾

الآية (١٩٣) - سورة البقرة.

أمر تعالى بالقتال لدفع الفتنة بعد أن يبين أنها أعظم ضرراً من القتل، نحو قوله: **﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾**[1]، فقوله: **﴿ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾** كقوله: **﴿ حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾**[2]، وذلك إمَّا بِقَتْلِهم أو بإسلامِهمْ أو بانقيادهم وإعطاءِ الْجِزْيَة حسب ما بينه الشرع، (وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّه) قال ابن عباس: "**حَتَّى يَخْلُصَ التَّوْحِيدُ لَهُ**" وحَمَلَ ذلك على مشركي العرب، لأنهم لا يقارون على جزية كما يقار غَيْرُهُمْ، وحُمِلَ بعضَهُمْ على الانقياد بحكم الدين في كل مكان، وقال: يجب أن يكون الحكم للإسلام في كل مكان، وعلى هذا ما روي: "**الإِسْلاَمُ يَعْلُو وَلاَ يُعْلَى**"، ثم أعاد ذكر الانتهاء، فقال: **﴿ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾** أي لا يتجاوزون الخطر إلا مع من يتجاوزه بحسب فعله..

قوله - عز وجل :
﴿ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ الآية (١٩٤) - سورة البقرة.

بين أن مراعاة حرمة الشهر واجبة لمن راعى حرمته، وأن من هتكها اقتص منه، وسبب نزول ذلك أن العرب فخرت بصرف النبي- عليه السلام- عام الحديبية عن البلد الحرام، وكان ذلك في ذي القعدة، فمكنه الله تعالى من دخوله في العام القابل في القعدة، وشرح معنى قوله: (لا عدوان إلا علي الظالمين) بقوله: **﴿ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ ﴾**.

إن قيل: كيف رخص في الاعتداء وهو ظُلْمٌ وقد مُنِعَ منه آنفاً بقوله: (ولا تعتدوا)، قيل: الاعْتِدَاءُ مُجَاوَزَةُ الحد، ومنه قيل: "**عَدَا فُلاَنٌ طَوْرَهُ**"، و"**لاَ تَعْدُ طَوْرَكَ**"، ثم استُعير الاعتداءُ في الظلم من حيث

١ - سورة محمد : الآية (٤).

٢ - سورة محمد : الآية (٤).

أنه تجاوزالحد الذي حَدَّهُ العقل أو الشرع، والذي منع تجاوز ذلك ابتداءً، فقد أباح لمن اعتُدِي عليه جَزَاءً، فإذن: الاعْتِدَاءُ ضَرْبَانِ: اعتداءٌ على سبيل الابتداء، وهو ظلمٌ، وإياه عنى بقوله ولا (تعتدوا) واعتداء على سبيل الاعتداء ضربان اعتداء على سبيل القصاص وهو عدل وإياه عني ههنا، ثم للمجازاة أيضاً حدٌّ لا يجوز أن يتجاوزه، وإياه عنى بقوله: (فمن اعتدى بعد ذلك).

إن قيل: هل كان يجوز لو قيل: (مَنْ ظَلَمَكُمْ فَاظْلِمُوهُمْ)؟ قيل : لا يجوز ذلك، لأن الظلم إنما هو وضع الشئ في غير موضعه الذي يحق أن يوضع فيه، وهذا في كل حال مذموم، والاعتداء مجاوزة الحد المحدود، وذلك لا يكون مذموماً، ومن قال من العرب: **"مَنْ ظَلَمَكَ فَاظْلِمْهُ"**، فذلك منه انحراف وترخص في الظلم على عادتهم، وكذا قول من قال:

ألا لا يَجْهَلَنْ أحَدٌ علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا[1]

فإن الجهل مذموم علي كل حال، ولا يكاد يرد لفظ الأمر به من حكيم، فإن قيل: فقد قال الله: **﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ﴾**[2] قيل: حقيقة المكر إظهار أمرٍ يعتقد فيه الناظر إليه الجاهل بحقيقته اعتقاداً ما يضل ما هو،وكذلك الاحتيال والخديعة والسخرية، ومن قصد بشئ من ذلك أمراً قبيحاً، فهو مذموم، وإن قصد به فعلاً جميلاً فهو محمود، فإذن يصح أن يمدح بذلك من يتحرى مقصداً حسناً، ولهذا قال بعض العلماء: إن الله-عز وَجل- يخدعنا عن النار كما يخدع الصبي أبوه عن المضار، وفي هذه الآية دلالة أن من استهلك شيئاً لغيره استهلك عليه مثله، لكن مثله المستهلَك قد يكون تارةً حسية مكيلاً كان أو موزوناً أو معدوداً، وتارة قيمته، وقوله: **﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾**، تنبيه أن توفيق الله يصحب المتقي، وقد تقدم حقيقة (مع) والصحبة إذا استعملا في الباري تعالى...

١- قائل هذا البيت هو عمرو بن كلثوم ، وهو في معلقته ، وهو أيضاً في جمهرة أشعار العرب - ص ٨٣ ، ص ٤١٤ وأورد القرشي قول ابن الأنباري : فنجهل فوق جهل الجاهلينا - معناه : فنهلكه ونعاقبه بما هو أعظم من جهله ، فنسب اللفظ إلى نفسه وهو يريد الإهلاك والمعاقبة ليزدوج اللفظان ، فتكون الثانية علي مثل لفظ الأولي ولايجوز أن يكون قول عمرو : فنجهل فوق جهل الجاهلينا - اعترافاً منه بالجهل وتثبيتاً منه إياه لنفسه ، لأن الجهل لايستحسنه أحد ولايرتضيه . جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام - تاليف : أبي زيد القرشي - تحقيق : الدكتور / محمد علي الهاشمي - الطبعة الثانية - دار القلم - دمشق .

٢ - سورة آل عمران : الآية (٥٤).

قوله - عز وجل :

﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾

الآية (١٩٥) - سورة البقرة .

الهلاك انتهاء الشيء في الفساد، وله سمي الموت هلاكاً، وقيل للعذاب والخوف في الفقر والبخل وما يجري مجراها مما يؤدي إلى الهلاك هلاكاً، والمفازة مهلكة والتهلكة ما يؤدي إلى الهلاك، وامرأة هلوك كأنها تتهالك في مشيها إشارة إلى نحو قول الشاعر:

مَرِيضَاتُ أَوْبَاتِ التَّهَادِي كَأَنَّمَا تَخَافُ عَلَى أَحْشَائِهَا أَنْ تَقَطَّعَا[1]

[وكُني بالهلوك عن الفاجرة لتماثلها][2] والهالكي كان رجلاً حداداً من قبيلة هالك فسمت العرب كل حداد باسمه كما سمي كل بناءٍ هاجرياً، وقوله: **﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ﴾**، قيل: معناه نحو تعلقت زيداً أو بزيد، وقيلَ معناه: ولا تلقوا أنفسكم بأيديكم إلى الهلاك، نحو قوله: **﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾**[3]، وذلك بالتعرض لما يَستوخم عاقبته جهْلاً به، مثل الفراشة تأتي إذا رأت لهباً من السِّرَاجِ، فَتُلقي نفسها فيه، وتأولت الآية على وجهين بنظرين مختلفين..

أحدهما: أنه نهيٌ عن الإسراف في الإنفاق، وعن التهور في الإقدام، والثاني: أنه نهيٌ عن البخل بالمال، والقُعُود عن الجهاد، وكِلاَ المعنيين يُرَادُ بها، فالإنسان كما أنه منهيٌّ عن الإسراف في

---

١ - البيت قائله هو مسلم بن الوليد وذلك كما في الحماسة البصرية - ج : ٢- ص٢٢٠ والحيوان - ج : ٤-ص٢٥٩ ، غير أن الراغب أورده في محاضرات الأدباء ونسبه للسعدي ، وأورد البيت بعده وهو :

تسيب انسياب الايم أحصره الندى يرفع من أعطافه ما ترفعا

كما أورده الراغب في مفردات ألفاظ القرآن بلانسبة.

انظر : محاضرات الراغب - ج : ٢- ص١٣٩ ، ج : ٣- ص٣٠٨ ، ومفردات ألفاظ القرآن - ص ٨٤٤ ، وعمدة الحفاظ : مادة (هلك).

٢ - ساقطة من (و - ج).

٣ - سورة النساء : الآية (٢٩).

[الإنفاق][1] والتهور في الإقدام، فهو منهيٌّ عن البخل وعن الإحجام في الجهاد، ولهذا قال تعالى:

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا ﴾[2]، وقال: **﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ ﴾**[3] الآية، وقال بعض الناس: "**إن هذه الآية يُنْظَرُ إليها على وجهين**" أحديهما: نَظَرُ المجاهدِ في سبيل الله بالمال، والثاني: نَظَرُ الفقيه عن المجاهد، وكلاهما صحيحٌ بوجهٍ، ووجه ذلك أن الفقيه من حيث أنه يحكم بالظاهر على الكافة يراعي أحوالهم، والمجاهدَ مِنْ حيث أنه يوفر على مُرَاعَاةِ الحقِّ عن مراعاةِ نفسه لا يَرَى الإِلْقَاءَ بيده إلى التَّهْلُكَةِ إلا الإِخْلَالَ بترك وظائفِ الْحَقِّ، وإلى هذه الحالة أشار الله تعالى بقوله:

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾[4]، الآية، وبقوله: **﴿ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾**، أي تحروا فعل الإحسان،وقد تقدم أن الإحسان هو تحري العدالة والزيادة عليها، ولهذا قال:

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ﴾[5]، ثم نبه بإظهار محبته للمحسنين على شرف منزلتهم.

---

١ - ساقطة من (و - ج).

٢ - سورة الفرقان: الآية (٦٧).

٣ - سورة الإسراء : الآية (٢٩).

٤ - سورة التوبة : الآية (١١١).

٥ - سورة النحل : الآية (٩٠).

قوله - عز وجل:

﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾

«الآية (١٩٦) سورة البقرة».

قيل: قوله: **﴿ وَأَتِمُّوا ﴾** قيل إنه خطاب لمن خرج حاجاً أو معتمراً، فأمر بأن لا يصرف وجهه حتى يقضيها، وإليه ذهب أبو حنيفة -رحمه الله- فاحتج به في وجوب إتمام كل عبادةٍ دخل فيها [الإنسان][١] متنفلاً، وأنه متى أفسدها وجب قضاؤها، وقيل إنه خطابٌ لهم ولَمَن لَمْ يَتلبَّسْ بالْعِبَادَةِ. وذِكْرُ لَفْظِ الأيام تنبيهٌ على توفيةِ حَقِّهما وإكمال شرائطهَا، ولذلك قال أمير المؤمنين:

«**مِنْ إتْمَامِهِمَا أَنْ تُحْرِمَ بهما مِنْ دُوَيْرَة أَهْلِكَ**»[٢]، وعلى هذا قوله: **﴿ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾**[٣]، وإلى هذا ذهب الشافعي - رحمه الله واحتج به في وجوب العمرة، وإنما قال في الحج والعمرة "**لِلَّهِ**" ولم يقل ذلك في الصلاة والزكاة من أجل أنهم كانوا يتقربون ببعض أفعال الحج والعمرة إلى الأصنام[٤]، فخصهما بالذكر لله تعالى حثاً على الإخلاص فيهما ومجانبة ذلك الاعتقاد المحظور، وظاهر قوله: **﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾** أن لا فَرْقَ بين أن يُحْصَرَ بمكة أو بغيرها، وبعد عرفة أو قبلها بخلاف ما قال أبو حنيفة إن مَنْ أُحْصِرَ بمكة أو بَعْدَ الوقوفِ لا يكون مُحْصَراً في الحكم، وكذلك لا فَرْقَ في [الظاهر][٥] بين أن يحصره عدوٌّ مسلمٍ أو كافرٌ كما قال الشافعي خلافاً لبعضهم، وظاهره يقتضي أن

---

١ - ساقطة من (و - ج).

٢ - الأثر أورده ابن كثير في تفسيره رواية عن شعبة عن عمرو بن مرة عن عبد الله بن سلمة عن علي بن أبي طالب أنه قال في هذه الآية (وأتموا الحج والعمرة لله) قال : أن تحرم من دويرة أهلك ، وكذا قال ابن عباس وسعيد بن جبير وطاوس . تفسير القرآن العظيم - الحافظ ابن كثير - ج : ١- ص ٢٣٠.

٣ - سورة البقرة : الآية (١٨٧).

٤ - في (أ - ص) أصنامهم.

٥ - ساقطة من (و - ج).

لا فَصْلَ بين إحصار العدد وإحصار المرض كما قال أبو حنيفة دون الشافعي - رحمة الله عليهما- "لولا أن الآية نزلت في سبب العَدُوِّ فلا يجوز أن نُتَعَدى إلاَّ بِدَلاَلَةٍ"، ولأن قوله: ﴿فَإِذَا أَمِنتُمْ﴾ يدل على أن المراد بالإحصار هو بالعدو وذلك قول ابن عباس - رضي الله عنه- ويقتضي الظاهر أن لا قضاءَ عليه خلافاً لأبي حنيفة - رضي الله عنه- لأنه قال: ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ واقتصر عليه، والهديُ بقرةٌ أو بدنةٌ أو شاةٌ أو أكْثَرُ، لأنه قال: ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ﴾، ونهى عن حلق الرأسِ إلا بعد بُلُوغ الْهَدْيِ مَحِلَّهُ، ومَحِلُّهُ عند أبي حنيفة الْحَرَمُ، واستدل بأن ناجية بن جُنْدُبْ قال: «دَعْنِي آخُذُ بَعْضَ هَذِهِ الأَوْدِيَةِ، وَأَسُوقُ هذِهِ الْبُدْنَ إلى الْحَرَمِ، فَأَنْحَرُ بِهَا»، فقال - عليه السلام-: "افْعَل" فساقها إلى الحرم، فنحر بها، وعند الشافعي أن محل الْهدْي في الإحصار زمانُ تَحَلُّلِهِ، ومَنْحَرُ الهَدْيِ حيث يتحلل، وقوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا﴾ ليس مقصوراً على المحصر، بل حكم كل حاج ومعتمر،والمرض الذي يُبيحُ اللبْسَ والحَلْقَ ويقتضي الْفِدْيَةَ هو الذي يحتاج إلى تَغْطِيَةِ الْبَدَنِ وحَلْقِ الشعر، وأُلْزِمَ فِدْيَةً على التخيير ولم يبين وصفها، فنبه عليه النبي ﷺ بقوله لكعب بن عجرة وقد مر به يوم الحديبية وهو محْرِمٌ، فقال له: «أَيُؤْذِيكَ هَوَ أمُّ رَأْسِكَ؟ فقال: نعم، فقال: احلِقْ رَأْسَكَ وَاذْبَحْ نَسِيكَةً، أَوْ صُمْ ثَلاَثَةَ أيام أو أطْعِمْ سِتَّةَ مَسَاكِينَ بَيْنَ كُلِّ مِسْكِينَيْنِ صَاعٌ»[1]، وظاهر الآية يقتضي أن لا فَرْقَ بين قليل الشَّعْرِ وكَثِيرِهِ بخلاف ما قال أبو حنيفة حين لم يُلْزِمْ إلا بحلْقِ الثُّلُثِ، وغيره حين لم يُلْزِمْ إلا بالرُّبعُ، وأما التمتع بالعمرة إلى الحج، فقد قيل هو المحصر إذا دخل مكة بعد فَوتِ الْحَجِّ، وقيل: "هو النَّاسِخُ الْحَجَّ بِالْعُمْرة"، وقيل: هُوَ التمتُّعُ الْمَعْرُوفُ في الْحَجِّ وهو الأصَحُّ، ولا يجب الدمُ فيه إلا أن يكون بأربع شرائط، الأول: الإحْرَامُ بالعمرة في أشهر الحج والتحلل منها فيه، والثاني: أن يُنْسِئَ الْحَجَّ مِنْ سَنَتِهِ، والثالث: أن لا يعود إلى الميقات لإنساء الحج، والرابع: أن لا يكون من حاضري الحرم، وإن أحرم في رمضان وأخر الطواف إلى شوال ثم أحرم بالحج فهل يلزمه الدمُ؟

فيه قولان للشافعي، وظاهر إيجاب ما استيسر من الهدى يقتضي أن ذلك بعد الفراغ من

١ - الحديث أخرجه الترمذي في سننه في كتاب: تفسير القرآن من حديث علي بن حجر بسنده إلى كعب بن عجرة قال: "أتى عليَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أوقد تحت قدر والقُمَّلُ يتناثر على جبهتي، أو قال حاجبي، فقال: أيُؤ ذيك هو أُمُّ رأسكَ؟ قال: قلتُ : نعم، قال : فاحلق رأسك، وانسك نُسيكة، أو صم ثلاثة أيام، أو أطعم ستة مساكين، قال أيوب راوي الحديث: لا أدري بأيتهم بدأ. وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح -ج:٤- حديث: ٢٩٧٤. ورواه الحميدي في مسنده- ص٧٠٩.

العُمْرَةِ والدُّخُولِ فـي الحج، وكذا الصوم الذي هو بَدَلُهُ، وعند أبي حنيفة يجوز الصوم إذا دَخَلَ في العمرة ناوياً للتمتع..

إن قيل: كيف قال في الحج ومهما أحرم يوم عرفة لا يمكنه صيام ثلاثة أيام في الحج، لأنهُ مَنْهِيٌّ عن الصَّوْمِ في يوم النحر وأيام التشريق؟ قيل: الواجبُ على المتمتِّعِ أن يُحْرِمَ بالْحَجِّ على الوجْهِ عليه صِيَامُ ثَلَاثَةِ أيامٍ، وذلك بتقديمُ الإِحْرَامَ قَبْلَ يَوْمِ عَرَفَةَ، وقد قال ابن عمر وعائشة: يَصُومُ أَيَّامَ اَلتَّشْرِيقِ، ويحملان النهي عن الصوم فيها على غير المتمتع، وقوله: ﴿إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَى بِلَدِكُم﴾ [قيل: معناه إِذَا أَخَذْتُمْ فِي الرُّجُوعِ][1] بَعْدَ الْفَرَاغِ، وقيل: ﴿إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ إلى بلدِكُمْ [وأهليكُمْ.][2] وَاطلاَقُ اللفظِ يَحْتَمِلُ الأمرين جميعاً، فيصحُّ حَمْلُهُ عليهما، وَحَاضِرُوا الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، قال عطاءُ: هُمْ أَهْلُ الْحَرَمِ والْقُرُبَاتِ التي حَوْلَهُ مالم تبلغ مسافةً تُقْصَرُ فيها الصَّلاةُ، وبه قال الشافعيُّ، وقال طاوس: أَهْلُ الْحَرَمِ لاغَيْرَ، وقال أبو حنيفة : هُمْ أَهْلُ المواقيتِ ومَادُونَهَا، وقوله تعالى: (ذَلِكَ) أي الكَفَّارَةُ لمنْ لَمْ يكُنْ حَاضِرِي المسْجد، فأما حَاضِرُوا المسجد، فلا يَلْزَمُهُمْ، وقيل: عني بذلك التمتع أي أنَّ الْحَاضِرِينَ لَيْسَ لهُمْ أَنْ يتمتَّعُوا، وإنما ذَلكَ لأهْلِ الآفَاقِ البعيدة.

إن قيل: ما الحاجةُ إلى ذِكرِ: "**تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ**" عقب قوله (سبعة، وثلاثة، ولا يشك على ذي أدنى بصيرة أن الثلاثة والسبعة عشرة)[3] ولا أن ذلك يتنوع، فيكون مرةً كاملةً ومرةً غير كاملةٍ، لأنها إذا لم تكن كاملةً لم تكُنْ عشرةً[4]؟

قيل: قد أُجِيبَ عَنْ ذلك بأجْوِبَةٍ..

الأول: : أنه لما قال: (ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتم) كان يَحْتَمِلُ التخيير، وأنَّ كُلَّ واحدٍ منهما على الانفراد يقوم مقام الهدي[5] فبين أن مجموعَهُما يَدُلُّ على الهدي يقومُ مَقَامَهُ، والثاني: أنه

١- ساقطة من (و-ج).

٢- ساقطة من (و-ج).

٣- ساقطة من (أ-ص).

٤- فى (و-ج) لأنها إذا نقصت خرجت عن أن تكون عشرة.

٥- فى (أ-ص) يدل على الهدى.

لما قصد بيان كمال الحكم، وأن ذلك يحصل في صوم العشرة، ذكر لفظ العشرة تأكيداً، فإن كان لو قال: (تلك كاملة) كانت مفهومة، وذاك أن الخطاب العامي، أعني ما يفهَّم به الخاصُّ والْعَامُّ الذين هم أهل الطبع لا أهْل الارْتِيَاضِ بالتعلم لا يكون إلا تكريراتِ الكلام وزياداتِ البيان ليُحْسَنَ إفهامُ الكافة، ولهذا جَاءَ في القرآن عامةُ ما يتعلق حكمُهُ بالكافة في غايةِ الظُّهُورِ، وما هو مُخْتَصٌّ عِلْمُهُ بالراسخين في الْعِلْمِ جَاءَ على ضربٍ مِنَ الإيجازِ والغُمُوضِ، إذْ كَانُوا بمعرفتهم يمكنهم أن يتوصلوا إلى حقائقه، وما هو متردد[١] بيَن الْعَامَّةِ والخاصة كَذِكْرِ التوحيدِ والنُّبُوَّةِ ذكر تارةً بلفظٍ مَبْسُوطٍ، لِيَظْهَرَ مِنْهُ لِلْعَامَّةِ ما يُقْنِعُهُمْ، وتارةً بلفظٍ وَجيزٍ لِيَسْتَخْرِجَ مِنهُ الْخَاصَّةُ ما يتضمنه، ولهذا قال فيما يغمض، **﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ﴾**[٢]، والثالثُ: أن قوله: (تلك عشرة كاملة) استِطْرَادُ كلامٍ، وتنبيهٌ على فضيلة عِلْمِ الْعَدَدِ، وذاك أنه قد قيل: العَدَدُ أَوَّلُ العُلُوم وأشْرَفُهَا، أما كونه أولاً، فَلأنَّ مَاعَدَاهُ به تميز وتفضل، وأما كونه أَشْرَفَ، فلأنه لا اخْتِلَافَ فيهِ ولا تَغْيِيرَ، بل هو لازمٌ طريقةً وَاحِدَةً، فذكر العشرةَ، ووَصَفَهَا بِالْكَامِلَةِ، إذ هي عَدَدٌ كَمُلَ فيه خَوَاصُّ الأعداد، فإن الواحِدَ مَبدأُ الْعَدَدِ، والاثنين أولِ العَدَدِ، والثلاثة أول عدد فرد، والأربعة أول عدد زوج محدود، أي مجتمعٌ من ضرب عدد في نفسه، والخمسة أول عدد دائر، والستة أول عدد تام، أي إذا أخذت أجزاؤه لم يزد عليه ولم ينقص منه، والسبعة أول عدد أول أي لا يتقدمه عدد بعده، والثمانية أول عدد زوج الزوج والتسعة أول عدد مثلث، والعشرة أول عقد ينتهي إليه العدد، فإن كلَّ عددٍ بعده مكرَّرٌ منه بما قبله، فإذن العشرة هي العدد الكامل..

---

١ - في (أ - ص) مترددة.

٢ - سورة النساء : الآية (٨٣).

قوله - عز وجل :

﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾

«الآية: (١٩٧) سورة البقرة».

جَدْلُ الْحَبْلِ فَتْلُهُ، وبه سُمِّي الزمامُ جَديلاً، وعنه استُعيرَ "**جادَلْتُ فلاناً**"، ولذلك قيل: نَاقَضَهُ[١] تشبيهاً بنقض الحبل، وفَتَلَ فُلاَنٌ، يفْتُلُ حبلاً، في ذِرْوَةِ فُلاَنٍ، إذا احْتَالَ عليه، والجدْوَلُ: النَّهْرُ الممتدُّ كالْحَبْلِ المفْتُولِ، والْمجدَلُ: القَصْرُ الْمحْكَمُ، وَالْجدَالَةُ: كُلُّ أرْضٍ صلْبَةٍ، والزاد: فَضْلُ الطعامِ الزائدِ عما يكتفي به في الوقت، وقد بين الله تعالى[٢] فيما تقدم أحكام الحج وما يقع فيه من الإحصار [واستباحة][٣] الحلق والتمتع، وبين في هذه الآية وقته الذي يصح فيه ذلك، وَمَنْ قَالَ: أَشْهُرُ الحج: شوالُ، وذو القعدة، وتسع من ذي الحج عنى أن فعله يقع في هذه المدة، لأن لفظ الأشهر يقع على الاثنين، وبعض الثالث، فالفعل قد يُنسَبُ إلى مدةٍ مُمتدةٍ، ويكون واقعاً في بعضها، ولما كان فعلُ الحج في هذه الأشهر نسب إليها ثلاثتهن، ودلت الآية على أن الإحرام بالحج في غيرهن[٤] لا يصح لتخصيص الأشهر وهي أدنى العدد، ولقوله:

﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ﴾، والضمير على هذا الوجه لا يقال في التواريخ إلا لأدنى العدد، كقوله: **﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾**[٥]، ثم قال: **﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾**، ثم قال: **﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ﴾** [يعني: في الأربعة الحرم،][٦] ويقال: لثلاثٍ خَلَوْنَ، وثلاث عشر خلت، وقول مالك: إن الإحرام بالحج يصح بعد يوم العاشر بالحج مُسْتَدِلًّا بظاهر الآية قَوِيٌّ، ويعاضده ماروي عنه - عليه

١ - في (و - ج) ناقصة وما في (أ - ص) هو الأصح.
٢ - ساقطة من (و - ج) .
٣ - ساقطة من (و - ج).
٤ - في (أ - ص) غيرهم.
٥ - سورة التوبة : الآية (٣٦).
٦ - ساقطة من (و - ج).

السـلام- «**أَشْهُرُ الْحَجِّ شَوَّالٌ، وَذُو الْقَعْدَةِ، وذُو الحِجَّةِ**»[١]، وقوله: (فمن فرض فيهن الحج) أي الْتَزَمَ حُكْمَهُ، وذلك عند الشافعي بالنيَّة فقط وبها يصير محرماً عنده وعند أبي حنيفة -رحمه الله بالنية، ومع سوق الهدى أو التلبية، [واستعمل الفرض في][٢]والتزام الحكم وأصله من قطع الحكم مأخوذا من "**فَرْضَ الْقَوْسَ**" أي: حَزُّهُ، وقيل لثعلب النحوي: لِمَ جَعَلَ الْغَرَضَ لِماَ هُوَ أَوْكَدُ، والنيةُ لِماَ هُوَ أَخَفُّ؟

قال: لأن الفرض لما يؤثر، كفرض الزند والقوس والسن للضب، فلما كان تأثير الفرض في نفس الشئ أبلغُ من تأثير السن، فجُعِلَ لما هو أوكد، والرفث هـهنا: قيل هو الجماع وقيل: هو حديث الجماع، وروي عن ابن عباس -رضي الله عنه- أنه كان ينشد في الطواف:

إِنْ تَصدقُ الطَّيْرُ نَنِكْ لَمِيسَا [٣]، **فقيل له : أَتَرْفُثُ؟**

فقـال: «**لَيْسَ هـذَا الرَّفث، إنما الرَّفَثُ مُرَاجَعَةُ النِّسَاءِ الْحَدِيثَ بِذِكِرْ الجَماعِ**»، إن قيل: الفُسُوقُ مَحْظُورٌ في كل حال، فكيف خُصَّ بِهِ الْحَجُّ؟ قيل: الْفُسُوقُ هاهنا يعني الأشياءَ المحظور تعاطيها في حال، [الحج][٤] كالصيد والطيب، واللباس، وإن لم يكن فسقاً في غير الحج؟ قيل: تخصيص الحج به تنبيهٌ على شَرَفِهِ وَعِظَمِ مَوْقِعِهِ، كقوله: ﴿**فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ**﴾[٥] وإن كان ظلمُ النَّفْسِ في كل حالٍ

---

١ - الحديث أورده ابن كثير في تفسيره من رواية الحافظ ابن مردويه من طريق حصين بن مخارق وهو متهم بالوضع عن يونس بن عبيد عن شهر بن حوشب عن أبي أمامة قال : قال رسول الله صلي الله عليه وسلم : « الحج أشهرٌ معلومات شوال وذو القعدة وذو الحجة » ثم عقب عليه ابن كثير بقوله : وهذا كما رأيت لايصح رفعه ، والله أعلم . تفسير القرآن العظيم - ج : ١- ص ٢٣٦.

٢ - ساقطه من (أ - ص).

٣ - البيت قاله ابن عباس وهو محرمٌ، وشطر البيت هو :

وَهُنَّ يَمْشِينَ بِنَا هَمْسَا ... إِنْ تَصْدُقُ الطَّيْرُ نَنِكْ لَمِيسَا.

فقال له صاحبه حصين بن قيس: أترفثُ وأنت مُحْرِمٌ؟

فقال: إن الرفث ما قيل عن النساء.. الجامع لأحكام القرآن- القرطبي- ج:١-ص٨٨٩.

٤ - ساقطة من (أ - ص).

٥ - سورة التوبة : الآية (٣٦).

مَكْرُوهاً، وكما قال: «**إِذَا صَامَ أحدُكُمْ فلا يَجْهَلْ، فلا يَرْفُثْ، فإن جُهِلَ عَلَيْهِ فَلْيَقُلْ: إني صَائِمٌ**»[١]، وقوله ﴿**وَلَا جِدَالَ**﴾ أي: لا يجوزُ المماراة، وقيل معناه: لا شك أن فرضه مقرر في ذي الحجة بخلاف ما فعله النسَّاءة، قيل: هو حثٌّ على التحابِّ، وقيل: "**هو حثٌّ على التحاب والنظافة وترْكِ مَا يُؤَدِّي إلى التَّبَاغُضِ**"، وكل ذلك يصح إرادته، وقيل قوله: ﴿**فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ**﴾ إشارةٌ إلى أن من التزم هذا الفرض وتحراه يمنعه عن الرفث والفسوق، وكأنه نبه على علةٍ ما أوجب لأجله الْحَجَّ، فهو تهذيبُ اللسان عن الخَنَا، وإصلاحُ البدن [بالمنع][٢] من تعاطي الفسق، كما جعل الصلاةَ علةً لترك الفحشاء والمنكر، والصَّوْمَ علةً للتَّقْوَى في قوله: (لعلكم تتقون)، والزَّكَاةَ علَّةً لتزكيةِ النفس في قوله: ﴿**وَتُزَكِّيهِم بِهَا**﴾[٣] وقوله: ﴿**وَلَا جِدَالَ**﴾ نهيٌ على ما تقدم، ولهذا فَصَلَ بين إعرابيهما بعضُ القراء، ونبه بقوله: ﴿**وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ**﴾ على مجازاته إياهم، كما نبه في عامة القرآن على ذلك، نحو: ﴿**سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾[٤]، ﴿**وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ**﴾[٥]، و﴿**إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ**﴾[٦] وما يجري مجراه من الأقوال:

وقوله: ﴿**وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ**﴾ حثٌّ على تقوى الله واقتناء الأعمال الصالحةِ، والإعراض عن الدنيا سوى ما يُتَوَصَّلُ به إلى الآخرة... **وقال أبو المطيع البلخي لحاتم الأصَمِّ:**

«**بَلَغَنِي أَنَّكَ تَجُوبُ الْبَادِيَةَ بِلاَ زَادٍ، فقال: إني أَجُوبُهَا بِأَرْبَعَةِ أَشْيَاءٍ، أَرَى الدُّنْيَا بِحَذَافِيرِهَا مِلْكاً لله، وَأَرَى الْخَلْقَ كُلَّهُمْ عَبِيداً لِلّهِ، وَأَرَى الأَشْيَاءَ كُلَّهَا بِيَدِهِ، وَأَرَى قَضَاءَهُ نَافِذاً فِي كُلِّ أَرْضٍ**»، فقالَ: «**نِعْمَ الزَّادُ زَادُكَ يَاحَاتِمُ نَحَوْتَ بِهِ مَفَاوِزَ**[٧] **الآخِرَةِ**»، وقول من قال: «**أنزلت الآيةُ في قومٍ يحُجُّونَ بِلاَ**

---

١ - الحديث أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود وابن ماجة، وأخرجه السيوطي في الدر المنثور -ج:١-ص.١٩٠، ورواه الطبراني في معجمه، وأخرجه الألباني في صحيح الجامع الصغير - ج:١-حديث ٧٩٥-ص٢٧٦، وقال: صحيح. ونص الحديث: "إذا كان يومُ صَوْمِ أَحَدِكُمْ، فلا يرفُثْ، ولا يَفسقُ... الخ الحديث.

٢ - ساقطة من (و - ج).

٣ - سورة التوبة : الآية (١٠٣).

٤ - سورة البقرة : الآية (٢٢٤).

٥ - سورة البقرة : الآية (٢٢٠).

٦ - سورة الفجر : الآية (١٤).

٧ - في (أ-ص) مقادر، وهو تصحيف.

زَاد، ويَتَكَفَّفُونَ، فَنُهُواْ عَنْ ذَلِكَ، فلا يَمتَنِعِ أَنْ يَكُونَ مُرَادٌ بالآية مما تقدم، فالتكَفُّفُ قد يكون منافياً للتقوى»، وقوله: ﴿ **وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الأَلْبَابِ** ﴾ لما أمر بالتقوى، أمر أن يكون هو تعالى المقصود بها، وقيل: تقواه حفظ النفس إن نالها عقابه أو يتخطاها ثوابه، وذلك منعها متابعة الهوى، وحملها على طريق الهدى، وذلك على ثلاثة منازل.. الأول: ترك الكفر والكبائر، والثاني: ترك المحارم وأداء الفرائض اللذين يقتضيهما إلتزام الشرائع، والثالث: حفظ القلوب عن التلفت إلى الذنوب، وهو المعنى، بقول من قال: «**التَّقْوَى هِيَ التَّبَرُّؤُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سِوَى اللَّهِ تَعَالَى، ولا يَحْصُلُ الثَّالِثُ إِلَّا بِحُصُولِ الثَّاني، ولاَ الثَّاني إلاَ بِحُصُولِ الأَوَلِ** »، وعنى هاهنا الغاية، ولهذا خُص أولوا الألباب بالخطاب، فاللب أشرف أوصاف العقل، وهو اسم الجزء الذي بإضافته إلى سائر أجزاء الإنسان، كلب الشئ إلى القشور، وباعتبار اللب، قيل لضعيف العقل: «**يراعة**"، و"**قصبة**"، و"**منخوب** "[1]و"**خاوي الصدر**"، وقال - عز وجل- ﴿ **وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ** ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿ **وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغاً** ﴾[3].

قوله - عز وجل :

﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ﴾ «الآية: (١٩٨)- سورة البقرة ».

فاض الإناء، انصب عن امتلاء، ومنه: فاض صدره بسره، ورجل فياض سخي -تشبيهاً بنهر فياض، ودرع مفاضة: افتضت على لابسها كقولهم: مسنونة، وعنه استعير: "**أفاض من عرفة**"، و"**أفاض بالقداح**" و"**أفاض البعير بحريه**"، و"**حديث مستفيض**"، كقولهم: شائع وسائر، وكانت العرب تتحاشى من التجارة في الحج حتى إنهم كانوا يتجنبون المبايعة إذا دخل العشر الأواخر، وحتى سموا

---

١ - البراعة واحدة البراع للقصب والحشرة واليرع شيئ كالبعوض يغشى الوجه، والقصبة هي كل أنبوبة في ساق الشجر ينتهي بعقلتين، وكل عظم مستدير أجوف ذي مخ، والنخوب هو الذاهب اللحم الهزيل، مادة يرع- وقصب - نخب- المعجم الوسيط.

٢ - سورة إبراهيم : الآية (٤٣).

٣ - سورة القصص : الآية (١٠).

من يوالي متجراً في الحج: الداج دون الحاج، فأباح الله ذلك، وعلى إباحة ذلك دل قوله: ﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ ﴾[١] إلى قوله: ﴿ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ ﴾[٢]، وقوله: ﴿ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ ﴾[٣]، وأمر الله بذكر الله تعالى عند المشعر الحرام أي المزدلفة، وقيل: عنى بذكره عند الجمع بين المغرب والعشاء، وهذا يدخل في عموم الذكر، فقد سمى الصلاة ذكراً في قوله ﴿ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾[٤] وقيل لبعض العلماء: **"لم أمر الناس بالمقام عند المشعر الحرام، وبالذكر"**؟، فقال: لأن الكعبة بيت الله الحرام حجابه، والمشعر بابه، والوافد إذا قصد الباب أقام وتضرع، فإذا وصل إلى الحجاب، قدم قربانات، وقضى التفث، وتطهر، ثم يؤذن له في الدخول، وأعاد الأمر بالذكر ثانياً. وأوجب أن يكون ذكره كهدايته أي مولداً[٥] لهدايته لنا ثم قال: (وإن كنتم)، أي وإنكم كنتم قبل لضالين، وإن محققة من الثقيلة بدلالة -دخول اللام معها، والضلال هاهنا الجهل بالمعارف الحقيقية نحو: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴾[٦].

---

١ - سورة الحج : الآية (٢٧).
٢ - سورة الحج : الآية (٢٨).
٣ - سورة المزمل : الآية (٢٠).
٤ - سورة الجمعة : الآية (٩).
٥ - في (و - ج) مولديا، وهو خطأ من الناسخ.
٦ - سورة الضحى : الآية (٧).

قوله - عز وجل :
﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

«الآية : (١٩٩) - سورة البقرة»..

رُوي أن قريشاً لم يكونا يقفون مع الناس بعرفة ولا يبيتون بالمزدلفة ويقولون: «**نَحْنُ أَهْلُ حَرَمِ اللّـهِ**»، وكانوا يقفون دون عرفة، فأمرهم الله تعالى أن يفيضوا مع سائر الناس، قاله ابن عباس، وعائشة، ومجاهد، والحسن،[1] وقيل: إنه أمر جميع الناس أن يفيضوا من حيث أفاض الناس، أي إبراهيم،وسماه "**الناس**" والناس تُستعمل على ضربين، أحدهما: للنوع من غير اعتبار مدح أو ذم، والثاني: للمدح اعتباراً بوجود تمام الصورة المختصة بالإنسانية، وليس ذلك في هذه اللفظة فقط، بل في اسم كل جنس ونوع، نحو: هذا فرس، وفلانٌ رجلٌ، وليس هذا بفرس ولا فلان برجل، أي ليس فيه معناه المختص بنوعه، وبهذا النظر نفى السمع والبصر عن الكفار، فعلى هذا سمى إبراهيم الناس على سبيل المدح، [وعلى وجه آخر][2] وهوأن الواحد يسمى باسم الجماعة تنبيهاً أنه يقومُ مقامهم في الحكم، وعلى هذا قول الشاعر:

وَيَرى فَيَحْسِبُهُ القَتيلُ قَتيلاً...[3]

وقال : تستجمعي الخَلْقَ فِي تِمْثَالِ إِنْسَانِ..[4]

---

١ - أورد بن حجر العسقلاني ماروا‌ه البخاري لسنده إلى عائشة رضي الله عنها قالت : كانت قريش ومن دان دينها يقفون بالمزدلفة - وكانوا يسمون الحمس ، وكان سائر العرب يقفون بعرفات ، فلما جاء الإسلام أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم ، أن يأتي عرفات ثم يقف بها ، ثم يفيض منها فذلك قوله تعالي (ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس) . فتح الباري ج :١٢ كتاب التفسير ص ٥٠٥ ، ص ٥٠٦ ، وأورده السيوطي في أسباب النزول فيما أخرجه بن المنذر عن أسماء بنت أبي بكر وفيما أخرجه ابن جرير عن ابن عباس قال : كانت العرب تقف بعرفة وكانت قريش تقف دون ذلك بالمزدلفة فأنزل الله الآية أسباب النزول - للسيوطي - ص ٢٧ - ط . دار المنار بالقاهرة .

٢ - ساقطة من (ا - ص).

٣ - لم أهتد إلي نسبته .

٤ -و هذا عجز بيت لأبي نواس وهو من قصيدة مطلعها:

يامن يبادلني عشقاً بسلوان ... ام من يصيرلى شغلاً بإنسان

و تمامه :

متى تحطي إليه الرحل سالمة ... تستجمعي الخلق فى تمثال إنسان

وهو فى شرح ديوان أبي نواس ص ٤٧٧.

وقال: وَلَيْسَ مِنَ اللهِ بِمُسْتَنْكَرٍ … أَنْ يُجْمَعَ العَالَمُ فِي وَاحِدِ[١]

وعلى هذا قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾[٢]، وقوله: ﴿مِنْ حَيْثُ﴾ أي من عَرَفَةَ، وقيل: من المزدلفة، وهو أقرب، لأن بعده: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ﴾[٣]، والاستغفار، والتوبة، والإنابة، والأوبة تتقارب، لكن الاستغفار [طلب][٤] غفر الذنب، والتوبة تركه، والإنابة: الرجوع عن[٥] الضلال إلى الهدى، والأوبة رجوع القلب إلى الله تعالى، وهذه المعاني وإن كانت متلازمةً ، فألفاظها اختلفت لاختلاف النظرات، فأمر تعالى بالاستغفار له عن الاشتغال[٦] بغيره من أمور الدنيا، وبيَّن أن الله تعالى غفورٌ للمطيعين، رحيمٌ بالعاصين، يدعوهم برحمته إلى بابه، ويرغبهم في جزيل ثوابه...

---

١ - قائل البيت هو أبو نواس وذلك كما في ديوانه - ج : ١- ص ٣٤٩ ، ودلائل الإعجاز ، - ص ١٥٢ ، والبحر المحيط - ج :٥-ص٥٤٧ ، والدر المصون في علوم الكتاب المكنون - ج : ٧- ص ٣٠١ ، كما ذكره الراغب في محاضرات الأدباء - ج : ١- ص ٢٩٩ ، وذكره محمد بن أيدمر في مخطوط كتاب : الدر الفريد وبيت القصيد ، وذكر أن أبانواس قاله يمدح به الفضل بن الربيع مخاطباً الخليفة في قصيدة مطلعها :- قولا لهارون إمام الهدى ... عند احتفال المجلس الحاشد ،

إلى أن يقول :-

أنت على بابك من قدرة … فلست مثل الفضل بالواحد

أوحده الله فما مثله … لطالب رفداً ولاناشد

وليس من الله بمستنكر … أن يجمع العالم في واحد

مخطوط كتاب :الدر الفريد - ج : ٥ - ص ٣٠٦، وديوان أبي نواس - صـ ٤٥٤ بتحقيق وضبط : أحمد عبدالمجيد الغزالي.

٢ - سورة النحل : الآية (١٢٠)

٣ - سورة البقرة : الآية (١٩٨).

٤ - ساقطة من (و - ج).

٥ - في (أ - ص) من.

٦ - في (أ - ص) الاستغار، وهو خطأ من الناسخ.

قوله - عز وجل :

﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴾ «الآية (٢٠٠)- سورة البقرة»..

القضاء: فصل الأمر، والنسك أخذ النفس[1] ببلوغ غاية العبادة، واختص في تعارف أهل الفقه بعمل الحج وبالذبيحة حتى سميت نسيكة، كما سميت قرباناً، وقولهم: إذا فعلت كذا فافعل كذا، يقال على ثلاثة أوجه:

الأول: أن يكون "**افعل**" أمراً بماتقدم فعله نحو، **﴿ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا ﴾**[2]، الثاني: أن يكون الأمر بشئ هو من أبعاض ذلك الفعل وفي أثنائه، نحو: "**إذا صليت فاركع واسجد**"، والثالث: أن يكون بعده، نحو: **﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا ﴾**[3] والآية، محمولةٌ على ذلك تنبيهاً ففي ابتداء النسك ذكر، وهو التلبية وفي أثنائه ذكر، وهو عند المشعر والطواف، وفي انتهائه ذكر، وهو شكر الله – عز وجل– وذكره عند طواف الوداع، ولما كان الذكر ذكرين، ذكر بالقلب، وذكرٌ باللسان تتناولهما الآية، ولما كان الإنسان لا يتشكك في أن أباه أحد أسباب وجوده، وأنه منه أوجد ولا ينسى ذكره في شئ من أحواله، وكانوا يتبجحون بمكانه، ويفتخرون بكونهم عنه، أمروا أن يذكروا الله كذكرهم آباءهم وأن يتحققوا أنه تعالى سبب وجودهم، بل سبب وجود آبائهم، وأن يفتخروا به كافتخارهم بآبائهم، وقد روي أنهم كانوا يفتخرون بآبائهم بعد فراغهم من حجهم، فأبطل الله ذلك، وعليه نبه النبيُّ ﷺ بقوله: "**إن الله تعالى أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظيمها بالآباء، فالناس من آدم، وآدم من تراب، ولا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى**"، ثم تلا قول الله تعالى: **﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾**[4]..

---

١ – في (أ – ص) اليقين، وهو خطأ من الناسخ.

٢ – سورة المائدة : الآية (٦).

٣ – سورة الجمعة : الآية (١٠).

٤ – سورة الحجرات : الآية (١٣)، والحديث أخرجه السيوطي في الدرالمنثور – ج–٦–ص٩٨، وأخرجه الزبيدي في : إتحاف السادة المتقين ج:٨–ص٤١٩ من حديث أبي أمامة مرفوعاً، ونص الحديث كما أخرجه الزبيدي «إن الله أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتكبرها بآبائها، كلكم لآدم وحواء كطفِّ الصاع بالصاع، وإن أكرمكم عند الله أتقاكم، ثم تلا الآية..

وقــوله: ﴿أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ تنبيهٌ أنه إذا كان الأب يذكر لأنه سببٌ ما لوجودكم، فالباري – عز وجل– أولى بأن يذكر..

إن قيل: كيف خير بين أن يذكر كذكر الآباء وبين أن يذكر أشده ذكراً؟

قيل: لفظ أو وإن كان للتخيير، فمقتضى الكلام على إيجاب أن يكون ذكره أشد، لأنه لما نبه علي موضع نعمتهما أعنى نعمة الأب ونعمة الله – عز وجل– وشكر المنعم بقدر عظمة نعمته، وقد علم فضل نعمته تعالى على فضل نعمة الأب، فصار ذلك منبهاً[١] أن ذكر الله أوجب، وقوله:

﴿مَن يَقُولُ رَبَّنَا﴾ إشارة إلى ما روي أنهم كانوا يقولون: «اللَّهُمَّ أَكْثِرْ مَالَنَا، وأولادنا[٢] وَأَنْزِلِ الْغَيْثَ عَلَيْنَا، وَأَنبِتْ مَرْعَانَا»، ولا يسألون شيئاً من أمور آخرتهم، وإنما سألوه[٣] الدنيا دُونَ الآخرةِ، لأنهم عرفوها ولم يعرفوا الآخرةَ، وكيف يسأل الآخرة من لا يعرفها؟، وكيف يعرفها من لم يتحقق كونها؟، وكيف يتحقق كونها من لم يبصرها؟ أي لم تدركها بصيرته؟ وليس يعني بقوله: (يقول)[٤] التفوه بذلك فقط، بل صرْفُ العناية إليها، والاهتمام بها، والخلاقُ نصيبُ الإنسان من أفعاله المحمودة التي تكون خُلُقاً له، وذلك أن الفعل قد يحصلُ من الإنسَانِ تَخَلُّقاً، وقد يحصلُ منه خُلُقاً وهو المحمود، وفي قوله: ﴿وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ﴾ تنبيهٌ أن الأريحيَّةَ لهم صادقة صادرةٌ عن أخلاقهم...

---

١ – في (أ – ص) تنبيهاً.
٢ – ساقطة من (أ – ص).
٣ – في (أ – ص) سألوا.
٤ – ساقطة من (أ – ص).

قوله عز وجل :
﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾

«الآية (٢٠١)– سورة البقرة »..

لما أجرى الله تعالى العادة أنَّ لابُدَّ للإنسان من أخْيَارِهِمْ وأشْرَارِهِمْ من بلغه في الدنيا، صار الْمؤْمنُ يطلُبها كما يَطْلبهَا الْكَافِرُ، لَكِنَّ طَلَبَ الْمؤْمِنِ لها علي سبيل الغرض قدر ما يحس، وفي وقت ما يحسن، ولأجل الحاجة إليها..

قال بعض الصالحين: «**اللهم وَسِّع الدنيا عليَّ ، وزهِّدْني فيها، ولا تضيِّقْهَا عليَّ فترغِّبْنِي فِيَها**».

فقوله تعالى: **﴿آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾** أي مالا يستقبح عاجلاً وآجلاً ويكون ذريعةً إلى المقصد، **﴿وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً﴾** أي ثواباً ورحمة وعلى هذا قال الحسن الحسنة في الدنيا العلم والعبادةُ، وفي الآخرة: الجنة، **﴿وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾** أي: احفظنا من الشهوات والذنوب المؤدية إلى النار.

قوله – عز وجل :
﴿أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ «الآية : (٢٠٢) – سورة البقرة»..

النصيب في الأصل: المنصُوبُ، وجُعِلَ السَّهْمُ المقرَّرُ نصيباً، والنَّصْبُ: رَفْعُ الشَّئِ، وبِهِ سُمِّي النُّصُب، وإنصَابُ الحرم، ونِصَابُ السكِّينِ، و"فُلاَنٌ في نِصَابِ صِدْقٍ" تشبيهاً بنصاب السكين، ونَسْبُ الحُرُوفِ في الإعراب، ونَصَبُ الستر على التَّشْبِيهِ، والحسَابُ: عنْهُ استعير الحسبان المقارب لمعنى الظن، وحسب الذي هو معنى الكفاية بين تعالى أن من جمع بين طلب دنياه وأخراه، ولم يقتصر على طلب الدنيا الموصوفة بقوله تعالى: **﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ﴾**[1].. الآية، فقد تناول نصيبه المأمور به في قوله: **﴿وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾**[2]، ولم يكن كمن قال فيهم:

---

١ – سورة يونس: الآية (٢٤).
٢ – سورة القصص : الآية (٧٧).

﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴾[1]، ولما كان الحسابُ يكشف عن مُجْمل الشئ وتَفْصيله، نبه بذلك على إحاطته بأفعال عَبادِهِ وَوُقُوفِهِ على حَقَائِقِهَا، وَذِكْرُ "السَّرِيع" تنبيهاً أن ذلكَ مَنَةَ، لا في زمان ولا بفكره، وذلك أَبْلَغُ مَا يُمكنُ أن يَتَصَوَّرَ بِهِ الْكَافَةُ سُرْعَةَ فِعْلِ الله عز وجل.

قوله - عز وجل :

﴿ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ الآية: (٢٠٣)- سورة البقرة.

الأيامُ المعْدُودَاتُ عند الشافعي- رَحِمَهُ الله - ثلاثةُ أيَّامٍ بَعْدَ النَّحْرِ،وَالْمَعْلُومَاتُ عشر[2] ذي الحجة، وقال مالك وأبو حنيفة- رحمهما الله- في إحْدَى الروايتين: المعْدُودَاتُ يَوْمُ النَّحْرِ، ويَوْمَانِ بَعْدَهُ، فيومُ النَّحْرِ عندهما من المعْلُومَاتِ ومن المعْدُودَاتِ جَمِيعاً، وفَائِدَةُ الْخِلَافِ أَنَّ عندمَالِكٍ لاَ يجُوزُ النَّحْرُ ثَالِثَ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ، والحَشْرُ: ضم المتفرِّقِ وسَوْقُهُ، يقال: حشرتهم السنة: أي ضَمَّتْهُمْ من النواحي إلى الْحَضَرِ، واختص حشرات الأَرْضِ بِصِغَارِ الدَّوَابِّ، وسهم حشْرٌ مَضمُومُ الْعَدَدِ، وكذلك أذن حشر[3]، ورفع الإثم عن المتعجل والمتأخر على وجه الإباحة، وقيل: معنى رفْع الإثم إنه حَطٌّ ذنوبهما بإقامتهما الحج تَعَجَّلَ أو تَأَخَّرَ بشرط: أن يكون متقياً- تنبيهاً أن الاعتبار بالتقوى فقط، وعلى ذلك دل قوله - عليه السلام- «**مَنْ حَجَّ وَلَمْ يَرفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ**»،[4] ثم قال: (واتَّقُو الله) متحققين أنكم إليه رَاجِعُونَ، وعلى أعمالكم مُحَاسَبُونَ..

---

١ - سورة الفرقان : الآية (٢٣).

٢ - في (أ - ص) عن،وهو خطأ من الناسخ.

٣ - الحشر: هو الاجتماع، واجتماع الخلق يوم القيامة، والجماعة، ومن الآذان وريش السهام ونحوها: الصغيرة اللطيفة المجتمعة، ويستوي فيه المذكر والمفرد وفروعها، لانهما في الأصل مصدر، يقال آذن حشر، وآذان حشر، ومن السهام المستوي الريش، يقال سهم حشر، وسهام حشر، والجمع حشور،ويوم الحشر يوم القيامة. والحاشر أحد أسماء النبي صلى الله عليه وسلم، المعجم الوسيط- ج١- مادة- حشر.

٤ - الحديث أخرجه الترمذي في سننه ولفظه من حج فلم يرفث ولم يفسق غفر له ماتقدم من ذنبه » والحديث عن أبي هريرة ج : ٣- ص ٨١١ كما أورده ابن حجر العسقلاني فى فتح الباري بشرح صحيح البخاري لسنده إلي أبي هريرة رضي الله عنه قال سمعت النبي صلي الله عليه وسلم يقول « من حج لله فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه » ج : ٥- ص ١٧٥ : ص ١٧٦ كتاب الحج - باب فضل الحج المبرور - كما أورده في كتاب المحصر باب قول الله عز وجل « فلا رفث » بسنده إلى أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع كما ولدته أمه » وأخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الحج وكذلك أخرجه النسائي وابن ماجه بلفظه .

قوله - عز وجل :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴾

«الآية: (٢٠٤)- سورة البقرة...

التعجب حيرة تعرض للإنسان عن جهل سبب الشئ، وليس هو شئ ماله في ذاته حالة، بل هو بحسب[1] الإضافات إلى من يعرف السبب وإلى من لا يعرفه، ولهذا قال قوم كل شئٍ عجب، وقال قوم: لا شئ عجب، وحقيقة أعجبني كذا، أي ظهر لي ظهوراً لم أعرف سببه، والألد المايل اللديد، أي صفحة العنق، ثم يعبر به عن المتكبر كالمتصلف أي المشتكي صليفه، والأصيد للبعير الذي به الصد، **ولهذا قال الشاعر:**

وَيُقِيمُ سَالِفَةَ الْعَدُوِّ الأَصْيَدِ[2]

وقال : **إِنَّ الْكَرِيمَ مَنْ يَلْفُتُ حَوْلَهُ وَإِنَّ اللَّئِيمَ دَائِمُ الطَّرْفِ أَقْوَدُهُ**[3]

واستعير الألد للجدل الذي لا يمكنه صرف رأسه عما عض عليه، ولما كانت الدنيا والآخرة كالمتضادين حتى قال أمير المؤمنين: [زنها بكفتي ميزان][4] لا ترجح إحداهما إلا بنقصان الأخرى، وقال: قرة كالضرتين إذا أرضيت إحداهما أسخطت الأخرى، فمن حذق في إحديهما خرق في أخرى، ولهذا قال عليه السلام في اعتباره بأهل الدنيا: "**أَكْثَرُ أَهْلِ الْجَنَّةِ الْبُلْهُ**"[5]، وقال في اعتباره

---

١ - في (أ - ص) بسبب.

٢ - هذا عجز بيت لم أعثر له على نسبه.

٣ - البيت يروي لحاتم الطائي وذلك كما في شرح ديوان الحماسة ص ٢٢٣ - لأبي تمام ، كما ورد البيت في اللسان بلا نسبة - مادة (قود) ج :٤-ص٣٧٤ ، وفي التاج - قود - ص ٤٧٨ كما ورد في كتاب : التقفية في اللغة - لأبي بشر اليمان البند نيجي المتوفي سنة ٢٨٤ بتحقيق الدكتور خليل ابراهيم العطية ص ٣٣٥ . ونصه :

فإن الكريم من تلفت حوله وإن اللئيم دائم الطرف أقود

٤ - ساقطة من (أ - ص).

٥ - الحديث أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد ج :٨-ص٧٩ ، ج ١٠ ص٢٦٤،ص٤٠٢ وقال فيه العراقي : رواه البزار من حديث أنس وضعفه وصححه القرطبي في التذكرة وليس كذلك ، وقال ابن عدي إنه منكر وسبقه ابن الجوزي ، وقال حديث لايصح ، وقال الدار قطني : تفرد به سلامة ابن روح عن عقيل وهو ضعيف ووثقه ابن حبان وغيره وضعفه أحمد بن صالح وغيره ، انظر تخريج أحاديث علوم الدين لأبي عبد الله الحداد ج :٤-ص١٥٤٣ ، كما أخرجه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين - ج :٧ - ص١٥٧ ، ص ٢٤٤ ، ص ٦٢٧ ، ج :٩ - ص ٢٣٦ ، كما أخرجه المتقي الهندي في كنز العمال حديث رقم « ٣٩٢٨٣» .

بأهل الآخرة[١]: "**ألكيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَه..**" نبه أن من الناس من إذا صادفته وجدته معجباً لك في أمور دنياه، وقوله تعالى: ﴿ **وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ** ﴾[٢] الآية.. ويحلف بأن قلبه [مطمئن بالإيمان][٣] ومطابق للسانه وهو يجادل في ذلك ويخاصم، وقوله تعالى ﴿ **وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ** ﴾ إشارة إلى نحو ما وصف به المنافقين، حيث قال قالوا: ﴿ **نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ** ﴾[٤].

قوله - عز وجل :
﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴾

الآية (٢٠٥)- سورة البقرة.

السعي: مشيٌ سريعٌ، ومنه قيل السعي بين الصفا والمروة، فجعل مستعاراً **للتصرف**، ولأجله قيل لجابي الصدقة ساعٍ، وقيل للوقيعة في الغير سعاية، وذلك كاستعارة المشي لهما في قوله ﴿ **هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ** ﴾[٥]، والنسل: مصدر نسل إذا خرج منفصلاً ومنه: نسل الوبر والريش،

والنسالة للساقط منه، ونسل إذا أسرع، قال تعالى: ﴿ **إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ** ﴾[٦]، وسمي الولد نسلاً لكونه ناسلاً عن أبويه بين تعالى حال هذا المعجب في الدنيا المرائي المجادل بأنه إذا تولى عمن يرائي سعى في الإفساد وإهلاك الحرث والنسل وذلك معاندة لله فيما حث عليه في قوله:

١- الحديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده ج :٤-ص١٢٤ ، وقال الحافظ العراقي ورواه الترمذي وقال حسن ، ورواه ابن ماجة من حديث شداد بن أوس ورواه أحمد والحاكم في الإيمان والعسكري والقضاعي ، وكلهم من حديث ابن المبارك عن ابي بكر بن أبي مريم الغساني عن ضمرة بن حبيب عن شداد ، وقال الحاكم : صحيح على شرط البخاري ، انظر تخريج أحاديث الإحياء ج : ٣-ص١٣٥٩ ، ص ١٣٦٠ ، كما أخرجه الطبراني في معجمه ج :٧ - ص٣٨٣ ، ص ٣٤١ ، كما أورده الزبيدي في إتحاف السادة المتقين ج :٧ - ص ٤٤ ، ج :٨ - ص ٤٢٨ ، ص ٤٤١ ، ج : ٩ - ص١٨ ، ص ٣٩ ، ص ١٦٦ ، ج :١٠ -ص٩٣ ، ص ١٥١ ، ص ٢٢١ ، وأخرجه البغوي في شرح السنة ج :١٤ - ص٣٠٨.

٢ - سورة المنافقون : الآية (٤).

٣ - ساقطة من (و - ج).

٤ - سورة المنافقون : الآية (١).

٥ - سورة القلم : الآية (١١).

٦ - سورة يس : الآية : (٥١).

﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾[١]، وما دل عليه قول النبي -عليه السلام- **لما خلق الله المعيشة جعل البركة في الحرث والنسل**[٢]، وبين أن من فعل ذلك فإن الله لا يحبه، أي لا يرضى فعله..

إن قيل: كيف حكم تعالى بأنه لا يحب الفساد وهو مفسد للأشياء؟

قيل: الإفساد في الحقيقة إخراج الشئ من حالةٍ محمودة لا لغرض صحيح، وذلك غير موجود في فعل الله تعالى، ولا هو آمر به ولا محب له، وما يراه من فعله، [ويظهر بظاهره][٣] فساداً فهو بالإضافة إلينا ولاعتبارٍ ما، فأما بالنظر الإلهي فكله صلاح، **ولهذا قال بعض الحكماء :«يامن إفساده إصلاح»** أي ما نظنه إفساداً لقصور نظرنا ومعرفتنا فهو في الحقيقة إصلاح، وجملة الأمر أن الإنسان هو زبدة هذا العالم، وماعداه مخلوقٌ لأجله، ولهذا قال تعالى: **﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا﴾**[٤]، والمقصد من الإنسان سوقه إلى كماله الذي رُشح له، فإذن إهلاك ما أمر بإهلاكه فلإصلاح الإنسان، وأما أمانته، فأحد أسباب حياته الأبدية، ولشرح هذه الجملة موضعٌ آخر من التفسير..

قوله عز وجل :
﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾

الآية (٢٠٦) – سورة البقرة.

المهد معروف، وتصور منه التوطئة، فقيل لكل وطيء مهد، والمهاد جُعِل تارةً جميعاً للمهد، وتارةً اسماً للآلة، نحو فراش، وجعل جهنم مهاداً لهم كما جعل العذاب مبشراً به في قوله: **﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾**[٥]، وقوله: بالإثم أي سبب الإثم، وقيل: دعته العزة إلى أن يأثم، كقوله: أخذني بفعل

---

١ – سورة هود : الآية (٦١).

٢– بحثت عنه فلم أجده.

٣ – ساقطة من (و – ج).

٤ – سورة البقرة : الآية (٢٩).

٥ – سورة آل عمران : الآية (٢١) وسورة التوبة الآية (٣٤)، سورة الانشقاق : الآية(٢٤).

كذا، أي بأن أفعله وبين أن جهنم نصيبه الكافي جزاؤه[1] الوافي، ثم دل على حال جهنم بقوله: ﴿ولَبِئسَ المِهَادُ﴾..

قوله - عز وجل :

﴿ومِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ واللهُ رَءُوفٌ بِالعِبَادِ﴾

الآية (٢٠٧) - سورة البقرة.

يشري يبيع ويشتري، وقد تقدم حقيقته، وحقيقة البيع والناس على أضرب ضرب باع نفسه من الشيطان بالشهوات، فصار علقاً في يده لا سبيل إلى الانفكاك منه، وهم المعنيون بقوله: ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ اليَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[2]، وقوله: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾[3]، وضرب وقع أسر الشيطان عليه، فاجتهد في تخليص نفسه منه وهو المعنى بقوله - عليه السلام: «**الناس غاديان، فبائعٌ نفسَهُ فَمُوبِقُهَا، ومُبْتَاعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا**»[4]، وضربٌ لم يقع عليه أسر الشيطان، وقد باع نفسه من الله -عز وجل-، وهو المعنى بقوله:

﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ المُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ﴾[5]، وبين تعالى كيف اشترى أنفسهم بقوله: ﴿يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾[6]، فقوله: ﴿يَشْرِي نَفْسَهُ﴾ يتناول ضربين: المخلص نفسه

---

١ - في (أ - ص) ومرآه، وهو خطأ من الناسخ.

٢ - سورة النحل : الآية (٦٣).

٣ - سورة الجاثية : الآية (٢٣).

٤ - الحديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده - ج :٣-ص٣٢١ عن كعب بن عجرة ولفظه : « الناس غاديان ، فبائع نفسه فموبقها، ومبتاع نفسه فمعتقها » كما أخرجه ابن عبد البر في التمهيد - ج :٢- ص٣٠٣ ، وأخرج المنذري في الترغيب والترهيب - ج:٢- ص١١ ، ج :٣ -ص١٩٤ وذلك من حديث كعب بن عجرة.

٥ - سورة التوبة : الآية (١١١).

٦ - سورة التوبة - الآية : (١١١).

من أسر الشيطان، ومن باع نفسه من الله فإذن يشري نفسه للأمرين، والشراء والبيع في مثل هذا الموضع كالرمز والإشارة، وحقيقتهما وقف الإنسان نفسه على مرضاة الله-عز وجل-، والتحري في مصالح عباده، وقيل: إنها نزلت في صهيب بن سيار، وكان قد أخذه المشركون، وقتلوا بعض من كان معه، فقال صهيب: أنا شيخ لا أنفعكم إن كنت معكم، ولا أضركم إن كنت عليكم، فخذوا مالي وخلوا سبيلي، ففعلوا فلما ورد المدينة، قال له أبو بكر: ربح بيعك، فأنزل الله تعالى هذه الآية[1]، ونبه بقوله: ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ ،أن الإنسان في بيع نفسه منه تعالى يدخل في ملك من هو أرأف به من نفسه وأولى به من ذاته..

---

١ - أورده السيوطي في أسباب النزول فيما أخرجه الحارث بن أبي أسامة في مسنده وابن أبى حاتم عن سعيد بن المسيب قال : أقبل صهيب مهاجراً إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فأتبعه نفر من قريش ، فنزل عن راحلته وانتثل مافي كنانته ، ثم قال : يامعشر قريش : لقد علمتم أني من أرماكم رجلاً وأيم الله لاتصلون إلي حتي أرمى كل سهم معي في كنانتي ، ثم أضرب بسيفى مابقي في يدي منه شئ ، ثم افعلوا ما شئتم وإن شئتم دللتكم علي مالى بمكة وخليتم سبيلى ، قالوا : نعم ، فلما قدم علي النبي - صى الله عليه وسلم المدينة قال : ربح البيع أبايحى ، ونزلت : (ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضات الله والله رءوف بالعباد) وأخرج الحاكم في المستدرك نحوه من طريق ابن المسيب عن صهيب موصولاً وأخرج أيضاً نحوه من مرسل عكرمة ، وأخرجه أيضاً من طريق حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس وفيه التصريح بنزول الآية ، وقال : صحيح علي شرط مسلم ، وأخرج ابن جرير عن عكرمة قال : نزلت فى صهيب وأبي ذر وجندب بن السكن أحد أهل أبي ذر .. أسباب النزول - السيوطي - ص ٢٨ ط : دار المنار للنشر والتوزيع - القاهرة.

قوله - عز وجل:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾

الآية (٢٠٨) - سورة البقرة .

عنى بالسلم سلم العبد الله(١) -عز وجل-، وذلك أن الإنسان في كفره، وكفران نعمة الله كالمحارب له، ولهذا يسمى الكافر المحارب في نحو قوله: **﴿الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾**(٢)، وسلم العباد لله على ثلاثة أضرب، ضرب يتقدمه إلى الإيمان وهو الإسلام الذي سلم به من الله أن يراق دمه ويسلب ماله (٣) وهو المعنى بقوله - عليه السلام:

«أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم»(٤).

واثنان بعد الإيمان، أحدهما أن يسلم من سخطه بارتسام أوامره وزواجره طوعاً أو كرهاً، والثاني: أن يكون سليماً من الشيطان وأوليائه، وسليماً فيما يجري من قضائه، وبه يحصل [دار السلام المذكورة في قوله تعالى]: **﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ﴾**(٥) وهذا غاية ما ينتهي إليه للعبد من المنازل الثلاث وإن كان لكل منزلة منها درجات، وهذا السلم هو المعني بقوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾**(٦)، وبقوله تعالى: **﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ**

---

١ - في (أ - ص) سلم الله.

٢ - سورة المائدة : الآية (٣٣).

٣ - أورد السيوطي في سبب نزول الآية ماأخرجه ابن جرير عن عكرمة قال : قال عبد الله بن سلام وثعلبة وابن يامين وقيس بن زيد كلهم من يهود : يارسول الله يوم نعظمه، فدعنا فلنسبت فيه، وإن التوراة كتاب الله فدعنا فلنقم بها بالليل ، فنزلت الآية : (ياأيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة) .
الدر المنثور - السيوطي - ص ٢٨ - ط : دار المنارة - القاهرة .

٤ - الحديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده من حديث عمر - ج :١- ص ١٩ ، ج :١-ص٣٥، ص٤٧، ٤٨ ، وأخرجه البخاري في صحيحه - ج :١- ص ١٣، ١٠٩.

٥ - سورة يونس : الآية (٢٥)، وهذه العبارة ساقطة من (أ - ص).

٦ - سورة آل عمران : الآية (١٠٢).

الإِسْلَامُ﴾[١]، وهو الذي تمناه يوسف- عليه السلام- بقوله: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾[٢]، وقوله: ﴿كَافَّةً﴾حال للمخاطبين، أو للسلم وقد تقدم الكلام في قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾، ونبه أن اتباع الشيطان خروج عن السلم، ونبه على معاداة الشيطان وأن عدواته لا تخفى، وهذا المعنى قصده الشاعر في وصف الدنيا:

إِنَّ اللَّيَالِي وَالأَيَّامَ لَوْ بَحَثَتْ

عَنْ عَيْبِ نَفْسِيهِمَا لَمْ تَكْتُمِ الخَبَرا.[٣]

قوله - عز وجل:

﴿فَإِن زَلَلْتُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ الآية (٢٠٩)-سورة البقرة.

زل وزال يتقاربان، ولكن زال أبلغ، ولفظ البينات عام فيما حولنا[٤] من المعارف العقلية والسمعية، والنهي عن الزلة والقصد إلى الفعل الذي يحصل عنده الزلة، إذ الإنسان لا يقصد أن يزل، وعلى هذا إذا قيل: "**لا تصلوا**"، ونبه بقوله ﴿بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ أن أعظم الذنبين ما كان بعد المعرفة والبينة، وفي هذا تحذير لمن يبصر عن ركوب ذنب، فكأنه قيل: إذا أردتم ذنباً فاذكروا عزَّ الله وحكمته، [ففي العلم بعزه علم بقدرته على عقاب المذنب]،[٥] وفي العلم بحكمته علم بأنه غير ظالم في عقابه[٦] وفي العلم بهذين انزجار عن ارتكاب الذنب.

---

١ - سورة آل عمران : الآية (١٩).

٢ - سورة يوسف : الآية (١٠١).

٣ - بحثت عنه فلم أهتد إلي نسبته .

٤ - في (أ - ص) حولها.

٥ - سقطت هذه العبارة من (أ - ص).

٦ - في (أ - ص) لا يظلم في معاقبة أحد.

قوله - عز وجل :

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾

الآية (٢١٠)- سورة البقرة .

قد تصور بعض الناس مالا يليق بصفات الله تعالى في لفظ المجيء والإتيان الذي وصف الله -عز وجل به نفسه في هذه الآية وفي قوله: **﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ﴾**، وقوله: **﴿فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾**[١]، وقوله: **﴿فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ﴾**[٢]، وقوله: **﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾**[٣]، وذلك لأمرين، أحدهما لقصورهم عن معرفة الباري عز وجل، والثاني: لضيق مجالهم في مجاري الألفاظ ومجازها، وليس يقال الإتيان والمجيء لانتقال الحي المتحرك من مكان إلى مكان فقط، بل قد يقال لقصد القاصد بعنايته أمراً يستصلحه كقوله: **أتيت المروة من بابها**[٤]، [ويقال أيضاً][٥] لاستيفاء فعل يتولاه، كقولك: أتيت على ما في الكتاب، [وقد يقال أيضاً][٦] لفعل يفعله على يد من يستكفيه [كقولك إن الأمير ناحية كذا بجيش عظيم، ومنه **﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لاَّ قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾** [٧] ولما جرت العادة أن الرئيس يتولى الأمير بمن يستكفيه] [٨] تارة وبنفسه تارة، وأن لا يتولى بنفسه إلا ما كان أكبر وأعظم، فلما أراد الله تعالى أن يبين العذاب الذي لا غاية وراءه جعله منسوباً إلى نفسه وإتياناً له، وعلى هذا النحو جعل كل ما يستعظمه فعلاً له، نحو خلق آدم بيده،وعلى هذا قوله: **﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾**[٩]، ووجه آخر، قد أشير إليه في صدر الكتاب، وهو أن الفعل كما ينسب إلى المباشر له ينسب إلى ما هو سببه ومسهِّلُهُ، نحو أن يقال: **﴿الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾**[١٠]، وإنما علَّمنا من علمه النبي، وعلم النبي جبريل، وجبريل علمه الله عز

---

١ - سورة الحشر : الآية (٢).

٢ - سورة النحل : الآية (٢٦).

٣ - سورة الفجر : الآية (٢٢).

٤ - هذا شطر بيت للأعشي سبق تخريجه في ص ٤٠٣.

٥- ساقطة من (و-ج).

٦- ساقطة من (و-ج).

٧- سورة النمل - الآية: (٣٧).

٨ - سقطت هذه العبارة من (أ - ص).

٩ - سورة الفرقان : الآية (٢٣).

١٠ - سورة الرحمن : الآيتان (١ ، ٢).

وجل- فصح أن ينسب إليه، ولهذا قد ينسب فعل واحد تارةً إلى الله عز وجل-، وتارةً إلى غيره، نحو: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾[٢]، فإن قيل: هل يجوز على هذا القياس أن يقال شئ إذا عني به عبداً؟

قيل: نحن إنما أجزنا[٣] إستعمال ما استعمل فيه تعالى لورود السماع[٤] به، ولولا ذلك لنزهناه[٥] عن كل وصف يطلق على البشر تفادياً من وهم بشبيه، وقوله: (وقضي الأمر) تنبيهاً أنه حينئذ لا يمكن تلافيه، وأكد ذلك بقوله: ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾.

أي ما قد ملكه عباده في الدنيا من الملك، والملك والتصرف مسترد منهم يوم القيامة، وراجع إليه، ويقال: رجع الأمر إلى الأمير، أي استرد ما كان فوضه إليه، وقيل: عنى بالأمور الأرواح، وسماها أموراً من حيث إنها من الإبداعات المشار إليها بقوله: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾[٦]، وقوله: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾[٧]، وقال: ولهذا لما سئل عن الروح قال: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾[٨]، أي هو من الإبداع الذي لا يمكن للبشر تصوره، فنبه أن الأرواح كلها مرجوعة إليه وراجعة، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾[٩]، وعلى ذلك قوله: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾[١٠]، ويكون رجوعها إما بربح وغبطة، وإما بندامة وحسرة إلى أن ينشئها النشأة الأخرى على ما قضاه تعالى، وقوله: ﴿ظُلَلٍ﴾ جمع ظلة، يقال ظله وظلل وظلال، نحو خُلة وخلل وخلال، والإشارة بهذا إما إلى أمطار عذاب، كعارض عاد المذكور في قوله: ﴿هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾[١١]، أو إلى أهوال القيامة، وقوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ على طريق التهديد والوعيد..

---

١ - سورة السجدة : الآية (١١).

٢ - سورة الزمر : الآية (٤٢).

٣ - في (أ - ص) جوزنا.

٤ - في (أ - ص) السمع.

٥ - في (أ - ص) آن همنا.

٦ - سورة النحل : الآية (٤٠).

٧ - سورة الأعراف : الآية (٥٤).

٨ - سورة الإسراء: الآية (٨٥).

٩ - سورة الزمر : الآية (٤٢).

١٠ - سورة الأعراف : الآية (٢٩).

١١ - سورة الأحقاف : الآية (٢٤).

قوله - عز وجل :

﴿سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ الآية (٢١١)- سورة البقرة .

نبه بلفظ ﴿كَمْ﴾ على كثرة ما آتاهم من الآيات[١]، ودل بقوله: ﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ﴾ على إضمار بدلوا، وعلى هذا إن الحكم ليس مقصوراً عليهم، بل هو عام فيهم وفي غيرهم، ودل بقوله: ﴿نِعْمَةَ اللَّهِ﴾ أن الآية[٢] من جملة نعمته، بل هي من أعظم النعم، وبقوله: ﴿مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ﴾ على نحو ما دل عليه قوله: ﴿مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾[٣]، وتقدير الكلام: آتيناهم آيات هي بنعم، فبدلوها ومن يبدل نعمت الله بعد اختصاصه بها عاقبه الله عقاباً شديداً فإنه شديد العقاب، فإذن بعقاب بني إسرائيل ومن فعل فعلهم، فإنه يعاقبهم كما عاقبهم.

قوله - عز وجل :

﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ الآية (٢١٢)-سورة البقرة.

التزيين التحسين المدرك بالحس دون المدرك بالعقل، ولهذا جاء في أوصاف الدنيا دون أوصاف الآخرة، نحو: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾[٤]، واختلف في هذا التزيين، فمنهم من قال الله زينه لقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾[٥]، ومنهم من قال: الشيطان زين لهم لقوله: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[٦]، وروي عن الحسن: الشيطان زينها ولا يعلم أحدٌ أذمٌ لها ممن خلقها أو وصفها بأنها متاعٌ قليل وأنها متاع الغرور وجمع بعض الملاحدة بين هذه الآية

---

١ - في (أ - ص) البينات.

٢ - في (أ - ص) الآيات.

٣ - سورة البقرة : الآية (٢٠٩).

٤ - سورة آل عمران . الآية (١٤).

٥ - سورة النمل : الآية (٤).

٦ - سورة الأنعام - الآية : (٤٣).

وأخواتها وزعم أن ذلك من الآيات المتناقضة في القرآن، لأنه قال مرة: ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ ﴾، فقال: ﴿ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ ﴾[١]، وقال في آية أخرى: ﴿ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ﴾[٢]، فنسبه إلى نفسه،وتارة ذكر أنه قيض لهم من زينها لهم، وذلك قوله: ﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾[٣]، ووهي[٤] ما ادعاه لا يخفى على ذي بصيرة، لكن بيانه يحتاج إلى مقدمة، فنقول وبالله التوفيق: إن الله -عز وجل- خلق الإنسان وجعل له سبيلاً إلى بقائه بشخصه[٥] زماناً ما، وتنوعه مدة ما، وركب فيه شهوة تشوقه[٦] إلى الغذاء والجماع اللذين هما سببا البقاءين، فهذا هو تزيين الله عز وجل- وأمره باستعمالها حسب ما تأمره الشريعة فيما يؤدي به إلى سعادته في الآخرة على ما ينبغي، وبقدر ما ينبغي، ومن عشقها بإفراط، استحوذ الشيطان عليه وأعماه عن قبح المستقبح منه، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ ﴾[٧] وأما قوله تعالى ﴿ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ﴾[٨] [وقوله تعالى][٩] ﴿ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴾[١٠]، فالتزيين في الآيتين يحتمل وجهين، أحدهما أن الذي زينه هو المشروع لهم، والثاني: أن الذي زينه هو الشهوة لكن على أن يأخذ بقدر ما يجب، وفي وقت ما يجب، لا أن يجعلها مقصده، ووجه آخر في الآية، وهو: الحياة حياتان، حياة دانية دنيه وهي الحياة الدنيا، ودناءتها لما وصفها الله تعالى بقوله: ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا ﴾[١١]

---

١ - سورة محمد : الآية (٢٥).

٢ - سورة الأنعام : الآية (١٠٨).

٣ - سورة فصلت : الآية (٢٥).

٤ - في (أ - ص) وما ادعاه، وهو خطأ من الناسخ.

٥ - في (و - ج) لشخصه.

٦ - في (أ - ص) تسوقه، وهو تصحيف.

٧ - سورة النمل الآية : (٢٤)، وسورة العنكبوت الآية: (٣٨).

٨ - سورة الأنعام الآية : (١٠٨).

٩ - سقطت من (أ-ص).

١٠ - سورة النمل : الآية (٤).

١١ - سورة الحديد : الآية (٢٠).

الآية..، وحياة متأخرة سنية وهي الموصوفة بقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ ﴾[١]، والثانية :لا يعرفها إلا الذين اتقوا، فأما الذين كفروا فلا يعرفون إلا الحياة الدنيا ويجحدون الآخرة، ويسخرون من الذين يؤمنون[٢] بها، فبين الله تعالى أنهم وإن سخروا من الذين آمنوا، فالذين آمنوا فوقهم، ومعنى ﴿ فَوْقَهُمْ ﴾ قيل هو كقوله: ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا ﴾[٣] وذلك يحتمل وجهين، أحدهما أن حال المؤمنين في الآخرة أعلى من حال الكفار في الدنيا، والثاني: أن المؤمنين في الآخرة هم في الغرفات[٤]، وأن الكفار في الدرك الأسفل من النار، وقوله: ﴿ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[٥] أي كفى ما يستحق بلا إفراط ولا تفريط، "**وأعطاه بغير حساب**" إذا أعطاه أكثر مما يستحق وأقل مما يستحق، والأول هو المقصود هاهنا، وهو المشار إليه بالإحسان، وقد فسر ذلك على أوجه لاحتمال اللفظ، وإيهامه الأول يعطيه [عطاء][٦] أكثر مما يستحقه، الثاني: يعطيه ولا يأخذ منه، الثالث: يعطيه عطاءً لا يحويه حصر العباد،

لقول الشاعر: **عَطَايَاهُ تُحصى قَبْلَ إِحْصَائِهَا القَطْرُ**[٧]

الرابع: يعطيه بلا مضايقة، من قولهم: حاسبته أي ضايقته، الخامس: يعطيه أكثر مما يحسبه أي يكفيه، وكل هذه الوجوه تحتمل أن يكون ذلك في الدنيا وفي الآخرة، السادس: إن ذلك إشارةٌ إلى توسيعه على الكفار والفساق الذين قال فيهم: ﴿ وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ ﴾[٨] تنبيهاً أن لا فضيلة في المال، ولا إكرام لمن يوسع عليه مالم

---

١ - سورة العنكبوت : الآية (٦٤).
٢ - في (أ - ص) آمنوا.
٣ - سورة الفرقان : الآية (٢٤)
٤ - في (و - ج) القريات.
٥ - سورة النور : الآية (٣٨).
٦ - ساقطه من (و - ج).
٧ - هذا شطر بيت قاله دعبل الخزاعي في المدح وهو في الديوان : معاليه يحصى قبل إحصائها القطر وهو في ديوانه -ص ١٨٩ نسبه الراغب في محاضرات الأدباء لدعبل الخزاعي في باب : « من لايحصي مجده »وهو :

معاليه يحصي قبل إحصائها القطر

كما ذكره الراغب في مفردات ألفاظ القرآن بدون نسبه انظر محاضرات الأدباء ج ١-ص٢٩٨ ومفردات ألفاظ القرآن - ص٢٣٢
٨ - سورة الزخرف : الآية (٣٣).

يستعن به في الوصول إلى المطلوب منه، ولهذا قال: **﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ﴾**[1] الآية...، ولهذا قال أمير المؤمنين: "**من وسع عليه دنياه فلم يعلم أنه مكر به فقد خدع عن عقله**"[2]. السابع : يعطي أولياءه بلا تبعة ولا حساب عليهم فيما يعطون، وذاك أن المؤمن لا يأخذ من عرض الدنيا إلا من حيث يجب ، وفي وقت ما يجب، وعلى الوجه الذي يجب، ولا ينفقه إلا على ذلك، فهو يحاسب نفسه فلا يُحاسب، ولهذا ما روي: "**من حاسب نفسه في الدنيا أمن الحساب في القيامة**".[3] وعلى هذا قال لسليمان: **﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾**[4] أي: تحرٌّ فيما أعطيناك الوجه الذي لا تبعة فيه عليك ولا حساب، الثامن: أن الله عز وجل- يقابل المؤمنين في القيامة لا بقدر استحقاقهم، بل بأكثر منه كما قال: **﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ﴾**[5].

التاسع: وهو يقارب ذلك إن ذلك إشارة إلى ما روي أن أهل الجنة لا خطر عليهم، وعلى ذلك قوله تعالى: **﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ﴾**[6] الآية، وقوله: **﴿فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾**[7]، وأما تعلقه بما تقدم، فعلى بعض هذه التفاسير يتعلق بالذين كفروا، وعلى بعضه يتعلق بالذين آمنوا..

---

١ - سورة المؤمنون : الآيتان (٥٥ ، ٥٦).

٢ - الأثر أورده الزمخشري في كتابه ربيع الأبرار ونصوص الاختيار ج :١-ص٥٤ - تحقيق الدكتور سليم النعيمى - وزارة الثقافة بغداد ، كما أورده الراغب في مفردات ألفاظ القرآن ص ١٤٦.

٣ - هذا الأثر عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال (إنما يخف الحساب يوم القيامة على من حاسب نفسه في الدنيا أخرجه الترمذي . انظر عارضة الأحوذي - ج : ٩ -ص٢٨٢ ، وانظر كتاب الزهد لأحمد بن حنبل - ص ١٤٩ . وأورده الراغب في كتابه مفردات ألفاظ القرآن - ص ٢٣٣ ، ص ٨٦٥.

٤ - سورة ص : الآية (٣٩).

٥ - سورة البقرة : الآية (٢٤٥) وسورة الحديد الآية :(١١)..

٦ - سورة الزخرف : الآية (٧١).

٧ - سورة غافر : الآية (٤٠).

قوله - عز وجل :

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾

الآية (٢١٣) - سورة البقرة .

قال ابن عباس وأبي والسدي: «**كانوا أمة واحدة في الإيمان**»[١] ، وقال غيرهم : «**في الكفر**»، وهذا الخلاف لاختلاف نظرين لابد فيهما من مقدمة تنكشف بها أوجه الخلاف، وتحقيق التأويل، وهي أن الله -عز وجل- فطر الناس فطرة ركز فيها رؤية يعرف بها بعض الأشياء اضطراراً، ومكنه[٢] أن يعرف بها البعض اكتساباً، وحبب إليه مالم يفسد الحق من الاعتقاد دون الباطل والجميل من الفعال دون القبيح والصدق من المقال دون الكذب، وإلى ذلك أشار بقوله - عز وجل:

﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾[٣]، وبقوله: **﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾**[٤] وبقوله: **﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾**[٥] الآية، وبقول النبي- عليه السلام-: «**كل مولود يولد على الفطرة**»[٦]، ولم يخلهم في وقت من نبي يشحذ عقولهم ويعرفهم مالاسبيل لهم إلى معرفته من دونه، وكان كلما

١- أورد ابن كثير في هذا الأثر مارواه ابن جرير بسنده إلى ابن عباس قال : كان بين نوح وآدم عشرة قرون كلهم علي شريعة من الحق فاختلفوا ، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ، كما أورد ماقاله عبد الرازق عن معمر عن قتادة في قوله تعالى : (كان الناس أمة واحدة) - قال : كانوا على هدىً جميعاً ، فاختلفوا، فبعث الله النبيين، فكان أول من بعث نوحاً ، وهكذا قال مجاهد كما قال ابن عباس وقال العوفي عن ابن عباس (كان الناس أمة واحدة) يقول كانوا كفاراً ، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين . ثم عقب ابن كثير بقوله :والقول الأول عن ابن عباس أصح سنداً ومعنى، لأن الناس كانوا علي ملة آدم حتي عبدوا الأصنام، فبعث الله إليهم نوحاً عليه السلام فكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض . تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج :١-ص٢٥٠.

٢ - في (أ - ص) وأمكنه.

٣ - سورة الروم : الآية (٣٠).

٤ - سورة البقرة : الآية (١٣٨).

٥ - سورة الأعراف : الآية (١٧٢).

٦ - الحديث أخرجه الإمام مسلم عن أبي هريرة في صحيح مسلم - كتاب القدر، ج :٦ - حديث رقم (٢٦٥٨) ، كما أخرجه أبو داود في سننه حديث رقم (٤٧١٤) ونص الحديث (كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه ، أو ينصرانه ، أو يمجسانه كما تناتج الإبل) ، وأخرجه السيوطي في الدر المنثور ج : ٦-ص٢٩٨ ، ج :٥ -ص١٥٥ ، وأخرجه الإمام أحمد في مسنده ج : ٢- ص٢٣٣ ، ص٢٧٥ ،ص٢٨٢ ،ص٣٩٣ ،ص٤١٠ ،ص٤٨١ ،ج :٣ -ص٣٥٣.

تختل[١] أحوالهم بعد خروج نبيهم من بينهم، إما أن يقيض لهم من يجدد عليهم شريعتهم السالفة، أو يبعث إليهم نبياً يأتيهم بشريعة مستأنفة، وهذا كان فعله إلى أن ينتهي الأمر إلى نبينا -عليه السلام-، فختم به الأنبياء، فمن قالوا: كانوا أمة في الإيمان، فنظر منه إلى المبدأ وحال الفطرة وما كانوا عليه قبل أن فسدوا، ومن قالوا: كانوا أمةً واحدةً في الكفر، فنظر منه إلى حين فسادهم، كما بين زمن بعثة نوح وبعثة إبراهيم -عليهما السلام، وكل واحد من القولين صحيح بنظر ونظر، فقد كانوا أمة واحدة في الإيمان طوراً، وأمة واحدة في الكفر طوراً..

إن قيل: كيف كانوا أمة واحدة في الكفر وقد قيل: لا تخلو الأرض من حجة الله؟.

قيل إن من كان حجة الله- عز وجل- في مثل ذلك الوقت في حكم من لا اعتداد به في كونهم أمة لعلة الإصغاء إليه، وبين تعالى أنه بعث أنبياءه مبشرين للمحسنين ومنذرين للمسيئين، ولم يخل أحداً من أنبيائه من كتاب يرشده ويرشدهم.

إن قيل:

أليس قد قلتم: لم ينزل الكتاب من النبيين إلا على جماعة منهم؟ قيل: إن الله- عز وجل- لم يخل أحداً من الأنبياء من كتاب، إما كتابٌ خُص هو به، وإما كتابٌ من كان قبله أمر بالاعتماد عليه، كالأسباط الذين كانوا أنبياء، وكتابهم كان التوراة، وعطف قوله ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ على قوله: ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ﴾، وفصل بينهما بذكر اختلافهم، وأنهم لم يختلفوا إلا من بعد ما جاءتهم البينات) ذماً للمختلفين، فإن من شأن البينات أن ترفع الخلاف، وعلى هذا قوله: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾[٢] الآية.. ، وبين سبب اختلافهم بقوله الله عز وجل- بغياً بينهم تنبيهاً أن ذلك كان لطلبهم زخرف الدنيا ومنازلها، فمن المفسرين من جعل قوله: (الذين أوتوا الكتاب) مخصوصاً في بني إسرائيل والذين آمنوا في هذه الأمة، لقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا

---

١ - في (و - ج) أختل.

٢ - سورة يونس : الآية (٩٣).

﴿كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾(١)، وقول النبي – عليه السلام: «**هَدَانَا اللَّهُ لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ**»(٢)، ومنهم من جعله عاماً في جميع الأمم، وقوله بالحق، أي بما يسمى من الثواب والعقاب، وقيل بالأمر والنهي وكلاهما مرادان، فالكتاب مشتمل على كل ذلك، وقوله: (بإذنه)، أي بعلمه، وقيل: بأمره، وقيل: بلطفه، والإذن لما يسمع، ويعبر به عن العلم، إذ هو مبدأ العلم فينا..

إن قيل: كيف قال:**﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾**، وذلك يقتضي أنه هدى بعضاً دون بعض، وحق جوده وكرمه أن يعمهم بالهدى؟ قيل: إنه قد عمهم من حيث قد أباحه لهم وقيضه، لكن لم يهتد به الكل، فإن هدايته لا يدركها إلا من جلّى بصيرته، وشحذ فهمه ليعرفه، فيهتدي به، وقد قال بعض الصالحين: ما أكثر الهدى وأقل من يرى، ألا ترى أن نجوم المساء ما أكثرها، ولا يهتدي بها إلا العلماء؟

قوله – عز وجل :

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾

الآية (٢١٤)–سورة البقرة.

الزلزلة: شدة الحركة، وأصلها زل، ولزيادة المعنى زيد لفظه، وعلى هذا دل ودلدل، وما أشبهه من المضعف مع الحرف المكرر بين تعالى أنه لا سبيل للناس كافة إلى الجنة إلا بتحمل المشاق، ولهذا

---

١ – سورة آل عمران : الآية (١٠٥).

٢ – هذا جزء من حديث النبى صلى الله عليه وسلم (نحن الآخرون الأولون يوم القيامة ، نحن أول الناس دخولاً الجنة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم ، فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه فهذا اليوم الذي هدانا الله له ، والناس لنا فيه تبع ، غداً لليهود، وبعد غد للنصارى . والحديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده عن عبد الرازق حديث رقم (٧٦٩٢)، كما رواه الشيخان وغيرهما فى المسند حديث رقم (٧٢١٣)، (٧٣٠٨)، (٧٣٩٣)، (٧٣٩٥)، (٧٦٩٣)، كما أخرجه عبد الرازق في تفسيره ص ٢٣، وأورده الطبرى أيضاً في تفسيره ج:٢–ص٢٨٤، ص٢٨٦ ، تحقيق محمود شاكر.

ولهذا قال عليه السلام :

«**حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ، وحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ**»[١] ، فخاطب هذه الأمة بأنه محال أن ترجو تحصيل الجنة إلا بما جرى به حكم الله في الذين سلفوا، وهو أن تنالكم البأساء أى الفقر، والضراء أي المصائب، والزلزلة أي المخاوف، وبذلك أثنى على المؤمنين فقال: ﴿**وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ**﴾[٢]، وليس ذلك في الأمور الإلهية فقط، بل في عامة الملاذ لا سبيل إلى منحة إلا بمنحة، ولا إلى لذة إلا بشدة،

ولهذا قيل: وَلاَبُدَّ دُونَ الشَّهْدِ مِنْ أَثَرِ النَّحْلِ.[٣]

وقوله: ﴿**وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ**﴾، قيل معناه: "**حتى يقول الرسول والمؤمنون متى نصر الله" على سبيل الإبطاء**، ثم تداركوا، وعادوا إلى معرفتهم، فقالوا: ﴿**أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ**﴾ [قيل ليس ذلك على سبيل التضجر، بل على سبيل الدعاء والتضرع إخباراً منه تعالى على سبيل الآية لهم على سبيل الحكم، وقيل تقديره وزلزلوا حتى يقول الأتباع متي نصر الله، ويقول الرسول، «ألا إن نصر الله قريب»][٤] فجمع بين قولهم، كقولك: قال زيد وعمر وكذا وكذا الشيئين أحدهما قاله زيد والآخر قاله عمرو، وقرئ: (حتى يقولُ)[٥] بالرفع والنصب، ولكل واحد وجهان، فأحد وجهي النصب معناه: إلى أن، والثاني معناه: كي يقول، وأحد وجهي الرفع أن يكون الفعلان ماضيين نحو: "**مشيت حتى أدخل البصرة**"، أي مشيت فدخلت، والثاني: أن يكون ما بعد حتى لم يمض نحو: "**مرض حتى لا يرجونه**".

---

١ - الحديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده من حديث أبي هريرة - ج:٢- ص٢٦٠ ، ص ٣٨٠، ومن حديث أنس ج :٣ - ص١٥٣، ص٢٥٤، ص٢٨٤، كما أخرجه الترمذي بسنده ولفظه في سننه في باب (ماجاء في: حفت الجنة بالمكاره ، وحفت النار بالشهوات). حديث رقم (٢٥٥٩) : (٢٥٦٠) ، وأخرجه المتقى الهندى في كنز العمال بلفظه وسنده ، حديث رقم (٦٨٠٥)، وأخرجه الإمام مسلم في صحيحه في كتاب (الجنة وصفة نعيمها) حديث رقم (٢٨٢٢).

٢ - سورة البقرة : الآية (١٧٧) .

٣ - هذا شطر بيت للمتنبى من قصيدة يمدح فيها أبا الفوارس دلير بن لشكروز و كان قد أتى الكوفة لمحاربة الخارجي الذى نجم بها من بنى كلاب ، والغرف الخارجى قبل وصول دلير إليها ، وتمام البيت :

تريدين لقيان المعالي رخيصة ولابدون الشهد من إبر النحل

والبيت فى ديوان المتنبى ص ٥١٨ طبعة بيروت .

٤ - ساقطة من (أ - ص). .

٥ - قرأ نافع (حتى يقول) بالرفع ، والباقون بالنصب . ومذهب سيبويه في (حتى) أن النصب فيما بعدها من جهتين والرفع من جهتين. تقول : سرت حتى أدخلها بالنصب على أن السير والدخول جميعاً قد مضيا ، أي : سرت إلي أن أدخلها ، وهذه غاية ، وعليه قراءة من قرأ بالنصب . والوجه الآخر في النصب في غير الآية : سرت حتى أدخلها - أى كى أدخلها . والوجهان في الرفع سرت حتي أدخلها ، أي : سرت فأدخلها ، وقال النحاس : فعلي هذا القراءة بالرفع أبين وأصح معني ... تفسير القرطبى ج ١٠- ص٩٤٨ ، ص ٩٤٩.

قوله - عز وجل:

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ الآية (٢١٥)- سورة البقرة.

لما أثنى الله في غير موضع على المنفقين، وحث على الإنفاق،نحو قوله: **﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾**[١]، وقوله: **﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم﴾**[٢] سألوا عنه ههنا-، إن قيل: ليس جوابهم طبقاً لسؤالهم، فإن سؤالهم عما ينفق، والجواب عمن ينفق عليه، قيل: في ذلك جوابان، أحدهما: أنهم سألوا عنهما، وقالوا: ما ينفق؟ وعلى من ينفق؟ ولكن حذف في حكاية السؤال أحدهما إيجازاً، ودل عليه الجواب بقوله: **﴿مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ﴾**، كأنه قيل: المنفق هو الخير، والمنفق عليهم هؤلاء، فلفف أحد الجوابين في الآخر، وهذا طريقٌ معروف في البلاغة، والجواب الثاني أن السؤال ضربان، سؤال جدل وحقه أن يطابقه جوابه لازائداً عليه ولا ناقصاً عنه، وسؤال تعلم، وحق المعلم أن يصير فيه كطبيب دقيق يتحرى شفاء سقيم، فيطلب ما يشفيه طلبه المريض، أو لم يطلبه، فلما كان حاجتهم إلى من ينفق عليهم كحاجتهم إلى ما ينفق بين لهم الأمرين، إن قيل: كيف خص هؤلاء النفر دون غيرهم؟

قيل: إنما ذكر من ذكر على سبيل المثال لمن ينفق عليهم لا على سبيل الحصر والاستيعاب، إذ أصناف المنفق عليهم على ما قد ذكرهم[٣] في غير هذا الموضع، ولما كان المندوب إلى الإنفاق عليهم صنفين، صنف لهم فرض معين في مال الأغنياء، وصنف لا فرض لهم معيناً ذكر الأبوين والأقارب تنبيهاً أن حقهم واجب، وقوله: **﴿مِّنْ خَيْرٍ﴾** أي من مال، فسمي المال خيراً تنبيهاً أن الذي يجوز إنفاقه هو الحلال الذي يتناوله اسم الخير، كما قال: **﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾**[٤] ثم بين تعالى أن كل ما يفعلونه لا يخفى عليه على الوجه الذي يفعلونه، [تنبيهاً أنه يجازى به][٥] ،نحو قوله: **﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾**[٦].

١- سورة البقرة - الآية : (٣) ، وسورة الأنفال - الآية :(٣) ، وسورة : الحج - الآية : (٣٥) .

٢- سورة المنافقون - الآية : (١٠) .

٣ - في (أ - ص) ذكر.

٤ - سورة البقرة - الآية : (١٨٠) .

٥ - ساقطة من (أ - ص).

٦ - سورة الزلزلة - الآيتان : (٧، ٨).

قوله - عز وجل :

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ الآية (٢١٦) - سورة البقرة.

الكره في الإنسان يستعمل على ضربين، أحدهما ما يعاف من حيث الطبع، والثاني ما يعاف من حيث الفعل وإن مال إليه الطبع، ولهذا يصح أن يوصف الشئ بأنه مراد مكروه، والكره والكُرْهُ قيل هما واحد في معنى نحو الضعف والضعف وقيل بل الكره المشقة التي يحمل عليها الإنسان بإكراه، والكره ما يتحمله بلا إكراه من غيره، وقيل للحرب كريهة... وعسى طمع وإشفاق، وقد يجري مجرى لعل، ويقال: هو عس بكذا، أي جدير، وأعس به، وسمي الإبل التي لا ألبان بها، وفيها طمع المعسيات من حيث أن يقال عسى أن يكون بها لبن، والقتال المكتوب من حيث الظاهر مجاهدة الكفار، وقيل: عني مع ذلك مجاهدة النفس إلى الشهوة، **وهي التي سماها النبي ﷺ "الجهاد الأكبر"**[(١)]، ونبه بقوله: **﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا﴾** بألطف وجه على أن ما كتب عليهم من القتال خير لهم بأوضح الأدلة، وهي أنه إذا جاز أن يكون منكم كراهية لأمر وفيه الخير، فيجوز أن يكون كراهتكم لما كتب عليكم من القتال[(٢)] كذلك، وإذا جاز أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم، فيجوز أن تكون محبتكم لما أحببتموه شراً، ثم نبه أن هذا الجائز كونه عندكم هو واجب كونه في نفسه بقوله: **﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾** أى إذا كان الله -عز وجل - يعلم وأنتم لا تعلمون، وقد قضي بأن ذلك خيراً، فإنما قضي به لأنه خير، وإذا كان خيراً فيجب أن تحبوه ولا تكرهوه، فالخير يجب إرادته، والشر يجب كراهته، وعلى نحوه دل قوله تعالى: **﴿فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾**[(٣)].

١- هذا من الحديث الذي رواه جابر عن النبى - صلي الله عليه وسلم: (رجعتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر)، وقال العراقي: رواه البيهقى في الزهد، وفيه ضعف انظر: تخريج أحاديث الإحياء - ج: ٤-حديث رقم: ١٥٣٧، والزهد - ص١٦٥، وأورده الراغب فى مفردات ألفاظ القرآن - ص ٨٣٣.

٢- فى (و-ج) القتل.

٣- سورة النساء: الآية (١٩).

وإياه قصد الشاعر:

قَضَى اللَّهُ فِي بَعْضِ المَكَارِهِ لِلْفَتَى ... بِرُشْدٍ وَفِي بَعْضِ الهَوَى مَا يُحَاذِرُ..(1)

قوله - عز وجل :

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ الآية (٢١٧) - سورة البقرة.

الصد ناحية الشعب، والوادي المانع للسالك وصده عن كذا، كأنما جعل بينه وبين ما يريده صداً يمنعه ، والصديد ما حال بين الجلد واللحم من القيح والدم، وقد تقدم أن زل وزال يتقارب لما كان الزوال معناه للنفي ضم إليه (ما) النافية، فصارا معاً للإثبات، ولهذا لا يصح أن يقال: (مازال زيد إلا خارجاً)، كما يقال: (ما كان إلا خارجاً)، والحبط فساد يلحق الماشية في بطونها من أكل الكلأ، واستعير لفساد العمل، والسائل على ذلك قيل أهل الشرك قصداً إلى تعبير المسلمين مما استجازوه من القتل في الشهر الحرام وقيل: هم أهل الإسلام.

إن قيل: ما فائدة ذكر الشهر ثم إبدال القتال منه ولم يقل: يسألونك عن قتال في الشهر؟ قيل: في ذكر الشهر أولاً، ثم إبدال القتال منه ولم يقل: (يسألونك عن قتال في الشهر) قيل: في ذكر الشهر أولاً بنية أن السؤال عن القتال لأجل الشهر لا لغيره، ولو قيل: (يسألونك عن قتال الشهر) لكان يصح أن يفيد أن الغرض في السؤال عن القتال لا لتعظيم الشهر، بل لشئ آخر، وعلى هذا إذا قيل: "سُرِق

١- قائل هذا البيت هو حميد بن ثور في قصيدة له منها :

الم تعلمي أني إذا الألف قادني ... إلى الجور لاأنقاد والألف جابرُ

وقد كنت في بعض الصباوة أتقي ... أموراً وأخشى أن تدور الدوائرُ

وأعلم أني إن تغطيْتُ مَـــــرّةً ... من الدهر مكشوفٌ غطائي فناظرُ

قضى الله في بعض لمكاره للفتى ... برشد وفي بعض الهوى مايحاذرُ

وهي في ديوان حميد صـ ٨٧ - صنعة الاستاذ / عبدالعزيز الميمني - ط : سنة ١٩٥١ - القاهرة

وهي في مخطوط كتاب الدر الفريد وبيت القصيد محمد بن أيدمر ج:٤ -ص ٣٢٧.

زيد ثوبه" تنبيهاً أن المقصد أن يذكر حال زيد، لا أن يخبر بسرقة ثوب ما.. إن قيل: لم لم يقل: القتال فيه كبير، وشرط النكرة المذكورة إذا أعيد ذكرها أن يُعاد معرفاً نحو سألتني عن رجل، والرجل كذا وكذا؟ قيل: في ذكره منكراً تنبيه أن ليس كل القتال في الشهر الحرام هذا حكمه، فإن قتال النبي- عليه السلام- لأهل مكة لم يكن هذا حكمه، فقد قال: **(أحلت لي ساعةً من نهار)**(١).

وقوله: ﴿**وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ**﴾ معطوف على قوله: ﴿**عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ**﴾ فأعلم تعالى أن بعض القتال فيه كبير ﴿**وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ**﴾ تنبيه أنه على الوجه الذي يفعله الكفار صد عن سبيل الله، أي عن دينه وعن نبيه، وأكبر منه عند الله، وأعظم إخراج أهل المسجد [يعني](٢) النبي والمؤمنين الذين هم أولياؤه، وعلى ذلك دل بقوله لهم: ﴿**وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ**﴾(٣)، ثم بين أن النبي -عليه السلام- وأمته هم أولياؤه بقوله: ﴿**إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ**﴾(٤)، وفي ذلك تنبيهٌ أن قتال المسلمين وقتلهم فيه ليس بكبير ولا صد عن سبيل الله عز وجل، وبين أن الفتنة أكبر من القتل، وقد تقدم الكلام فيه، وأنه لا يرضيهم إلا ارتدادكم، ﴿**وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا**﴾، ونبه بقوله: ﴿**إِنِ اسْتَطَاعُوا**﴾ أنهم لا يردونكم، لأنهم لا يستطيعون، وذلك نحو قوله: ﴿**وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ**﴾(٥)، وعقب ذلك بوعيد من يرتد، فمات على حالته، وإن أعماله المتقدمة المعمولة في سبب الدنيا والآخرة تبطل وتضمحل كما قال:

﴿**وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنثُوراً**﴾(٦).

---

١ - الحديث سبق تخريجه في ص ٣٦٦.

٢ - ساقطة من (و - ج).

٣ - سورة الأنفال : الآية (٣٤).

٤ - سورة الأنفال : الآية (٣٤).

٥ - سورة البقرة : الآية (١٢٠).

٦ - سورة الفرقان : الآية (٢٣).

قوله - عز وجل :

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ الآية (٢١٨)- سورة البقرة.

الهجر: مفارقة الإنسان غيره، إما بالبدن أو بالنسيان[١] والقلب، والهاجرة الساعة التي تمنع عن السير كأنها هجرت الناس بحرها، والهجار حبلٌ يشد به الفحل، فيصير سبباً لهجرانه الإبل، وجُعل بناؤه على بناء الآلات، كالعقال والزمام، والهجر: الكلام المهجور لقبحه، وقيل: هجر فلان إذا هدى عن قصد واهجر المريض إذا هذي عن غير قصد والجهد: تحمل المشقة ومجاهدة العدو ومقاومته ببذل الجهد، وجهدت رأيي واجتهدته أتعبته بالفكر والنظر، والرجاء الوقوف على رجاء الأمل، أي ناحيته، حيث ما يتردد بين الأمل واليأس لما بين الله تعالى وجوب المقابلة ونهى عن تضييع الشهر الحرام والمسجد الحرام. وعن تهييج الفتنة نبه على فضل من هاجر وجاهد في سبيل الله محافظةً على ذلك، فمن المفسرين من حمل المهاجرة على مُهاجرة الأهل والولد، كهجرة النبي -عليه السلام- وأصحابه والمجاهدة على الغزو، ومنهم من قال: عنى مع ذلك هجران الشهوات، ومجاهدة الهوى كما روى: **(جاهدوا أهواءكم كما تجاهدون أعداءكم)**[٢] وقوله: **(رجعتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر)** [٣]، وقال في حجة الوداع: **(المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله، والمهاجر من هجر الخطايا)**[٤] وهذه المنازل الثلاث التي هي الإيمان والمهاجرة والجهاد هي المعنية بقوله: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ**

---

١ - في (أ - ص) أو باللسان.

٢ - الحديث ذكره الراغب في كتاب الذريعة ص١٠٤، ولم أجده بهذا اللفظ في كتب الحديث، كما أورده الراغب في مفردات ألفاظ القرآن- ص٢٠٨.

٣ - الحديث رواه البيهقي عن جابر بسند ضعيف قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم- «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر» قال العراقي: رواه البيهقي في الزهد، وفيه ضعف. انظر: تخريج أحاديث الإحياء ج:٤/ص١٥٣٧، والزهد- للبيهقي- ص١٦٥، وأورده الراغب في مفردات ألفاظ القرآن- ص٨٣٣.

٤ - الحديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده عن فضالة بن عبيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله- عز وجل) المسند - ج: ٦-ص٢٢، كما أخرجه الترمذي في الزهد-ج:٤-ص١٦٥، وفي الجهاد برقم: (٦٢١) وقال حسن صحيح، كما أخرجه أبو داود في الجهاد برقم : (٢٥٠٠).

آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة وجاهدوا في سبيله ﴾[١] ولا سبيل إلى المهاجرة إلا بعد الإيمان، ولا إلى الجهاد في سبيله إلا بعد هجران الشهوات، ومن وصل إلى ذلك فحق له أن يرجو رحمته، إن قيل: الإنسان راج لرحمة الله وإن لم يبلغ هذه المنازل، قيل: إن الذي نسميه رجاء لمن لم يبلغ مثل هذه المنازل، فهو تمن على الله المعني بقوله عليه السلام: "**والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني**"[٢] أو رجاءً لتفصيل غير مستحق، وما ذكره الله- عز وجل- هاهنا هو الرجاء المستحق الذي وصف به المؤمنين في غير موضع نحو قوله: **﴿ ويرجون رحمته ويخافون عذابه ﴾**[٣]..

إن قيل: لم ذكر المؤمنين برجاء الرحمة وهي لهم لا محالة؟ قيل: المؤمن وإن بذل الجهد في طاعته، فواجب أن يكون بين نظرين ، نظر إلى سعة رحمة الله عز وجل، ونظر إلى ما عسى أن يقع أو وقع منه من ذنب فينتج له خوفاً..

قوله - عز وجل :

﴿ يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون ﴾ الآية (٢١٩)- سورة البقرة.

الخمر: ستر الشيء، ويقال لما يستتر به خمار، لكن للخمار صار الخمار في التعارف لما تغطي به المرأة رأسها، واختمرت المرأة، وتخمرت، وخمرتُ الإناء غطيته، وكذلك خمرت العجين، وسميت الخميرة لكونها مخمورة، ودخل في خمار الناس أي في جماعتهم يسترونه، والخمار الموروث من الخمر جعل ماؤه ماء الأدواء، نحو الكباد، والصداع، وخامره الحزن إذا استولى عليه حتى سترفهمه وفكره، وبنحوه سمي غماً، وأصله من الستر، ومن الناس من جعل الخمر اسماً لكل مسكر، ومنهم من جعله

١ - سورة المائدة : الآية (٣٥).

٢ - الحديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده - ج :٤ -ص١٢٤ ، كما أخرجه ابن ماجه في سننه - حديث رقم ٤٢٦٠ ، وأخرجه الطبراني في معجمه - جديث رقم ٧١٤١، سنة ٧١٤٣ ، كما أخرجه الحاكم في المستدرك -ج :١- ص ٥٧ ، ج :٤- ص ٣٢٥ ، ورواه البيهقي في الآداب - ج :١-ص٢٤١ ، ج :٢- ص٢٤٠ ، وأخرجه أبو نعيم في الحلية - ج :١-ص٢٦٧ وقال : هو حديث ضعيف من أجل أبو بكر بن مريم .

٣ - سورة الإسراء - الآية : (٥٧).

اسماً للمتحد من التمر والعنب، لقوله -عليه السلام-: «**الخَمْرُ مِنْ هَاتَيْنِ الشَّجَرَتَيْنِ النَّخْلَةِ وَالْعِنَبَةِ**»[١]، ومنهم من جعلها اسماً لما لم يكن مطبوخاً، ثم كمية الطبخ الذي يخرجها عن كونه خمراً مختلف فيها، والميسر آلة اليسر، أي الضرب بالقداح ويقال للضارب به ياسر، وسمي الجاذر، وكذلك الجزور ياسراً تشبيهاً به، وأصلهُ من اليسْر، وهو ضد العسر، وسمي الغنى يسراً، وسمي ذلك يسراً لاعتقادهم أنه غنىٌ للفقراء وأشار الله- عز وجل- بقوله: ﴿ **وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا** ﴾ إلى تحريمه إشارةً لطيفة تحتاج في كشفها إلى مقدمة، وهي أن النفع ضربان، ديني ودنيوي، والدنيوي ضربان، نفع ضروري، ونفع غير ضروري، فالضروري كالأكل والجماع اللذين لو تصورناهما مرتفعين لارتفع بارتفاع الجماع نوع الحيوان، وبارتفاع الأكل أشخاص الحيوان، ونفع غير ضروري، كالتنقل بعد الأكل وترك التحلل بعده، والخمر نفعها دنيوي غير ضروري، فإن نفعها تقوية الأبدان المسنة، وهضم طعام والمعاونة على الباءة والزيادة في الرطوبة والحرارة الغريزيتين، وليس ذلك بضروري ولا متحقق النفع فيه، وفيهما إثم متحقق أو مظنون، والعقل يقتضي أن يتحاشى من التزام الإثم المظنون للنفع المتحقق الذي ليس بضروري، فكيف من النفع المظنون؟، ومن هذا الوجه صار الخمر فيما بين الأمم المتقدمة مترددة بين خمر، وذم، وإباحة ، وحظر، وتركها عامة ذوى العقول الراجحة لما أراد الله تبارك وتعالى تحريم الخمر على الناس لما رأى في ذلك من المصلحة، وعلم من غريزتهم التي غرزهم عليها إن كثيراً منهم إذا ردع عما ألفه واستحسنه لا يكاد يرتدع ابتداءً بتقبيح السكر في نفوسهم، ولكونه منافياً لذكر الله وعبادته،

١- الحديث أخرجه مسلم عن أبي هريرة في باب الأشربة برقم :(١٩٨٥) ، وأخرجه البغوي فى شرح السنة - ج :١١- ص ٣٥٣، وقال البغوى : معناه أن معظم الخمر يكون منهما ، وهو الأغلب على عادات الناس فيما يتخذونه من الخمور ، وفى الحديث: « والخمر ماخامر العقل » البخارى - ج :١- ص٣٩ ، قال فيه دليل « واضح » على بطلان قول من زعم أن الخمر إنما هي من عصير العنب أوالرطب ، بل كل مسكر خمر . شرح السنة - للبغوي - ج : ١١ - ص ٣٥١ ، ٣٥٣ ، وأورده الراغب في كتاب المفردات - ص ٢٩٩ ، وأورد ابن حجر العسقلانى في فتح البارى ماروي عن ابن عمر قال : سمعت عمر - رضي الله عنه - علي منبر النبي - صلي الله عليه وسلم يقول : أما بعد أيها الناس : إنه نزل تحريم الخمر وهي من خمسة : من العنب ، والتمر ، والعسل والحنطة، والشعير، فتح الباري -ج:١٣ -ص٥٨، ٥٩، ، ج : ١٥- ص ٤١١ ، ٤١٢ ، ٤٢٣، ٤٢٩ - تحقيق : طه عبد الرؤوف سعد - ط : دار الغد العربي - القاهرة كما أورده ابن كثير في تفسيره بلفظه وسنده تفسير القرآن العظيم - ج :٢- ص ٩٢.

فقال: ﴿لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون﴾[١]، فلما رسخ ذلك في نفوسهم أنزل قوله: ﴿قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما﴾، وكأن في هذا إشارة لا يعرفها إلا ذوو العقول الراجحة، فلما قوي ذلك في نفوسهم قال تعالى: ﴿إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان﴾[٢] إلى قوله تعالى: ﴿فهل أنتم منتهون﴾، وعلى قريب من هذا الكلام في الميسر، لكن كان أمره أخف، ومن الناس من جعل كل ما فيه خطر[٣] ومقامرة ميسراً، ومنهم من قاسه عليه، وقد روي عن النبي - عليه السلام- «من لعب بالنرد فقد عصى[٤] الله ورسوله»[٥]، وقرئ: إثم كبير وكثير[٦]، فكبير لقوله تعالى: ﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه﴾[٧] الآية، وبقوله تعالى: ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾[٨]، وعظيم وكبير متلازمان، ولأن جلهم قرأ: ﴿أكبر من نفعهما﴾، ومن قرأ الكثير فنظر منه إلى ما روي عن النبي ﷺ في صفة الخمر ومشتريها وبائعها: «**لعن الله عشرة: مشتريها، وبائعها، وعاصرها، والمعتصرة له، وحاملها ، والمحمولة إليه، وساقيها وشاربها، وآكل ثمنها**[٩]...».

١ - سورة النساء : الآية (٤٣) .

٢ - سورة المائدة : الآية (٩٠).

٣ - في (و - ج) خطار.

٤ - في (و - ج) عصيه، وهو خطأ من الناسخ.

٥ - الحديث أورده ابن كثير بسند صحيح من موطأ الإمام مالك ومسند الإمام أحمد وسنن أبي داود وابن ماجة عن أبي موسى الأشعري ورواه موقوفاً على أبي موسى من قوله - تفسير القرآن العظيم - ج :٢ - ص ٩٢ . ط . دار الفكر العربي .

٦ - قرأ بهذا الوجه كل من حمزة، والكسائي، وعبد الله بن مسعود، معجم القراءات القرآنية -ج: ١-ص١٦٨.

٧ - سورة النساء : الآية (٣١).

٨ - سورة لقمان : الآية (١٣).

٩ - الحديث أخرجه ابن كثير في تفسيره رواية عن الإمام أحمد في مسنده قال : حدثنا وكيع حدثنا عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز عن أبي طعمة وعن عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي أنهما سمعا ابن عمر يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لعنت الخمر علي عشرة وجوه ، لعنت الخمر بعينها ، وشاربها ، وساقيها ، وبائعها ، ومبتاعها ، وعاصرها ، ومعتصرها ، وحاملها ، والمحمولة إليه ، وآكل ثمنها ، ورواه أبو داود وابن ماجه من حديث وكيع به ، ومن حديث عبد الله بن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم «لعنت الخمر ، وشاربها ، وساقيها ، وبائعها ، ومبتاعها ، وحاملها ، والمحمولة إليه ، وعاصرها، ومعتصرها ، وآكل ثمنها» . تفسير القرآن العظيم ج : ٢ - ص ٩٤ .

وقولـــه:

﴿ **وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ** ﴾، إن قيل: كيف أعيد السؤال عما ينفقون وجواب بين الجوابين؟

قيل: أما الأول: فسؤالٌ عن الجنس[١] الذي ينفق، وعمن ينفق عليه، فبين لهم الأمران[٢]، وأما السؤال هاهنا فعن القدر المنفق، فأجيبوا بحسبه، فبين أن الذي ينفق هو العفو، وقال ابن عباس: هو الفضل عن الغني، وهو الذي قال الشاعر:

إِذَا أَنتَ أَعْطَيتَ الغِنَي ثُمَّ لَمْ تَجِدْ ... بِفَضلِ الغِنَي أَلْفَيْتَ مَالَكَ حَامِدُ[٣]

وقال الحسن وعطاء:

هو القصد الذي لا إسراف فيه ولا إقتار، وقال مجاهد:

هو الصدقة المفروضة، وكل ذلك مراد، فإن أقل ما تطيب به نفس المسلم هو الصدقة الواجبة، ومن لم تطب نفسه فليس بتام الإيمان، ثم منهم من تطيب نفسه ببذل جل ماله، ومنهم من تطيب لكل ماله، كأبي بكر- رضي الله عنه- فإذن العفو متناول لما هو واجب ولما هو تبرع، وقرئ (العفو) بالرفع والنصب،[٤] وذلك لتقديرين مختلفين في ماذا، فإن ماذا تارةً تقدر تقدير اسم واحد، فيكون مفعول ينفقون يحق أنه[٥] المطابق له بالنصب، وتارة يقدر تقدير اسمين مبتدأ وخبر، فيكون جوابه المطابق له رفعاً أي :"**هو العفو**".[٦] وقوله: ﴿ **كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ** ﴾ فيه حثٌّ على تجنب الخمر والميسر ، وتنبيه على تحريمهما، فإن في التفكر في الدنيا والآخرة معرفتهما ومعرفة منافعهما،وأن النفع القليل في الدنيا لا يجب أن يُشترى بكثير الإثم في الآخرة..

---

١ - في (أ - ص) الشئ.

٢ - في (أ - ص) القدر.

٣ - قائل هذا البيت حاتم الطائى وهو من قصيدة بعنوان وماذا يعدى المال عنك ومطلعها :-

الا أخلفت سوداء منك المواعد ... ودون الذى أملت منها الفراقد

ديوان حاتم الطائى - ص ١٦ شرحه وقدم له أحمد رشاد - طبعة دار الكتب العلمية - بيروت، لبنان ط١ سنة ١٩٨٦

٤ - قرأ بهذا الوجه وهو الرفع كل من أبي عمر، وابن كثير، واليزيدي، والحسن، وقتادة، وعاصم الجحدري، وابن أبي اسحاق، معجم القراءات القرآنية ج: ١-ص١٦٩.

٥ - في (و - ج) فحول به المطابق له بالنصب.

٦ - في (و - ج) هو المفعول ، وهو خطأ من الناسخ.

قوله - عز وجل :

﴿فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ الآية (٢٢٠) - سورة البقرة .

الخلط :الجمع بين أجزاء شيئين، سواءً كانا مانعين،أو غير مانعين، فهو أخص من المزج،ويقال للصديق: الخليط، وهو دون الخليل، والخلاط وداء يخلط الجوف ،وآفة تعتري العقل،والتخليط أن يخلط بالأمرما يفسده، والإعنات من : عنت العظم عنتاً، أصابه وهيٌ أوكسرٌ، وقد أعنته، وكل ما يؤثم أو يشق عنت،ولما أكثرالله تعالى التحذير من مال اليتيم في نحو قوله: **﴿وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾**[١]وقوله: **﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ﴾**[٢]، وقوله **﴿وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ﴾**[٣]، الآية، تحرجوا عن تناول ماله ومخالطته، فبين تعالى أن حق الإنسان أن يتحرى الصلاح له، وأن لا ضير في مخالطته، أي مصاهرته ،وسائر أنواع المخالطة، وبين أنه أخوهم، وذلك إشارة إلى نحو قوله: **﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾**[٤]، وقوله: **﴿بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ﴾**[٥]، ونبه بقوله: **﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾** أن الله تعالى لا تخفى عليه مقاصد الإنسان فيما يفعله معهم، وبين بقوله: **﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَعْنَتَكُمْ﴾** أنه لم يقصد إعناتاً فيما أوصاهم به في هذه الآيات المختلفة..

---

١ - سورة الأنعام : الآية (١٥٢). ، سورة الإسراء : الآية (٣٤).

٢ - سورة النساء: الآية (١٠).

٣ - سورة النساء : الآية (٢).

٤ - سورة الحجرات : الآية (١٠).

٥ - سورة آل عمران : الآية (١٩٥).

قوله - عز وجل :

﴿ وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ الآية (٢٢١) - سورة البقرة.

النكاح اسم للعقد، واستعير للجماع بدلالة أن عامة أسماء[1] الجماع كنايات، وأنهم يتحاشون النكاح من التصريح بذكر الجماع، وآلاته، كما يتحاشون من إظهاره حتى سموا ذلك العضو "السوءة"، ولم يستعيروا اسم الجماع وآلاته إلا فيما يقصدون به سبعة، نحو: شَوَّرَبِهِ إذا خجله وجعله بحيث كأنه أبدى شواره، والشوار مع ذلك كناية للفرح، وبهذا يعلم أن النكاح في اللغة مستعار للجماع، والنهي عن نكاح المشركات عام فيمن ليس من أهل الكتاب، ولم يدخل في ذلك أهل الكتاب لقوله: **﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾**[2]، فإن قيل: فقد قال تعالى: **﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾**[3] الآية، والنكاح يجلب المودة لقوله: **﴿ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾**[4]، وقد نهانا عن مودتهم، فيجب أن لا نواصلهم!.

قيل: المودة المنهي عنها هي الدينية لا المودة النفعية أو الشهوية، فإنا إذا أوددناهم لنفع ما ، فإنما نود النفع كمودتنا لذمي يعيننا على مدافعة المشركين، فقوله: **﴿ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ ﴾**[5] عنى بها المودة الدينية، فإن قيل: ما قلت يقتضي أن يجوز نكاح المشركات؟ قيل المشرك مادام مشركاً، فنفسه مباحة، والمشركة غير مالكة لنفسها، وفي قوله: **﴿ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ ﴾**[6] إشارة مجملة إلى فضل العبد المؤمن على الحر المشرك وبيان فضيلته يحتاج إلى مقدمة، وهي أن الشيئين

---

١ - في (أ - ص) عامة الأسماء.

٢ - سورة المائدة : الآية (٥).

٣ - سورة المجادلة : الآية (٢٢).

٤ - سورة الروم : الآية (٢١).

٥ - سورة المجادلة : الآية (٢٢).

٦ - سورة البقرة : الآية (٢٢١).

إذا تشكك أيهما أفضل، أحدث كل واحد منهما مع ضد الآخر أنهما هو المؤثر، فحكمت له مثاله أن من شك في العلم والغنى أيهما أفضل؟ نقول: انظر هل الغنى مع الجهل أفضل؟ أم الفقر مع العلم؟ فإذا علمت أن الفقر مع العلم أفضل من الجهل مع الغنى علمت أن العلم أفضل من الغنى، فإذا ثبت ذلك،فالعبد هو الذي ملك منافعه مدة، والحر هو الذي لم يملك منافعه، والمؤمن هوالمستحق للثواب الدائم،والمشرك هو المستحق للعقاب الدائم، فينظر هل من ملك منافعه مدة، ثم أثبت دائماً أفضل؟ أم من لم يستحق منافعه مدة ويعاقب دائماً؟ فإذا علمنا أن الأول خير، علمنا أن العبد المؤمن خير من الحر المشرك، ونبه بقوله: **﴿وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾** أن الاعتبار بإعجابكم، فليس الإعجاب إلا من ثمرة الجهل بحقيقة الشيء، والجهل لا يوجب حكماً، فإذن لا اعتبار بإعجابكم، ونبه- عز وجل- على تحريم مواصلة المشركين بقوله: **﴿أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾** أي إلى الأفعال الموجبة للنار، وواجب اجتناب الداعي إلى النار الحامل عليها، فواجب مجانبتهم إذن، وعلى هذا قال -عليه السلام- «**لا تترائى ناراهما**»[1]، ثم قال: **﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ﴾**، والداعي إلى الجنة واجب اتباعه، وعلى هذا دل قوله - عز وجل- حكاية عمن أخبر عنه: **﴿مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾**[2]، تدعونني وبإذنه، أي بعلمه وأمره وآياته وحججه ودلائله العقلية والشرعية من أنكم إذا فعلتم ذلك، فأنتم أهل لرجاء التذكر وحقيقة التذكر الاستدراك عن نسيان أو غفلة لما استثبته القلب..

إن قيل: إلى أي شئ أشار بهذاالتذكر؟

قيل: إن الله عز وجل- ركز فينا بالفطرة معرفته ومعرفة آلائه، والإنسان باستفادة العلم يتذكر ما ركز فيه، فهذا معنى التذكر، وقال قوم: معرفة الله عز وجل، ومعرفة الآية تذكر، ومن دفع عن قلبه الأغشية بذكر ما قال اللهعز وجل له ودل عليه بقوله عز وجل: **﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾**[3] الآية، قالوا: وقد عرفناالطريق الذي به يتوصل إلى هذاالتذكر بقوله:**﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ**

١- الحديث عن قيس بن أبي حازم أن رسول الله صلي الله عليه وسلم بعث سرية إلى قوم من خثعم ، فاستعصموا بالسجود فقتلوا ، فقضى رسول الله بنصف العقل - وقال : إني بريء من كل مسلم مع مشرك ثم قال رسول الله صلي الله عليه وسلم : « ألا لاترا ى نارهما » أخرجه النسائى ج ٨ ص٣٦ . وأخرجه أبو داود في الجهاد برقم (٢٦٤٥) ولفظه « أنا بريء من كل مسلم مقيم بين أظهر المشركين لاتترا ى ناراهما والترمذي في أبواب السير . انظر عارضة الأحوذي ج ٨ : ص ١٠٤ والحديث صحيح لكن اختلف في وصله وارساله وانظر : شرح السنة ج:١٠/ ٣٧٣ وأورده الراغب في مفردات ألفاظ القرآن ص ٣٧٥ ، ص ٨١٤ .

٢ - سورة غافر الآية :(٤١).

٣ - سورة الأعراف : الآية (١٧٢).

﴿وَالإحْسَانِ وَإيتَاءِ ذِي القُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الفَحْشَاءِ وَالمُنكَرِ وَالبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[1]، فبين أنكم إذا فعلتم ذلك، رجوتم تذكر هذه الحالة، وقد قيل: «الرجا من الله واجب»، بمعنى أنه إذا رجانا حقق رجاءنا، وهذه مسألة لا يمكن تصورها لمن لم يبلغها بتعاطي هذه الأفعال التي شرطه الله عز وجل- فلذلك لعلها صعب إدراكها لنا.

قوله - عز وجل :

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ المَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي المَحِيضِ وَلا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللهُ إنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ المُتَطَهِّرِينَ﴾

الآية (٢٢٢)- سورة البقرة.

المحيض: وقت الحيض وموضعه وقد قيل: يقال للحيض محيض، على أن المصدر في هذا الباب يجئ على (مفعل)، نحو: معاش ومعاد، وقول الشاعر:

لاَ يَسْتَطِيعُ بِهَاالقُرَادُ مَقِيلاً[2]

فالأظهر أنه مكان وإن كان قد قيل: هو مصدر، وقيل ما في ترك مكال ومكيل، أي كيل، وهو أيضاً محتمل، والحيض هو الدم الخارج من الرحم على وصف مخصوص في وقت مخصوص ويتعلق به منع الصلاة، والصوم، وحظر الجماع، وانقضاء العدة، واجتناب دخول المسجد، ومس المصحف، وقراءة القرآن، وأن تصير المرأة به في الابتداء مكلفة، والاعتزال: العدول عن الشئ، وأصله من العزل، وهو صرف العامل عن عمله، ومنه قيل الأعزل للعازل عن الحرب لعدم السلاح، وللدابة المائل ذنبها، والعزلاء تأنيث الأعزل، وشبه مخرج الماء إذا فتح عن فقد سلاحه، والسماك: الأعزل سمي بذلك لافتقاده الكوكب[3] الذي يصور بصورة الرمح للسماك الآخر.. والأذى: اسم لما ينال النفس منه

---

١ - سورة النحل : الآية (٩٠).

٢ - هذا عجز بيت وشطره : بنيت مرافقهن فوق مزلة . وهو للراعي في ديوانه - ص ٢٤١ وهو من قصيدة له مطلعها :-

ما بال دنك بالفراس مذيلا ... أقذىً بعينك أم أردت رحيلا

وعنى بالمرافق ومرافق الإبل ، والمقيل هو المستقر.

شعر الراعي النميري وأخباره - جمعه ناصر الحاني - صـ ١٢٦ - ط : المجمع العلمي العربي بدمشق . ط: سنة ١٩٦٤ م..

وكتاب سيبويه - ج :٢ ص ٢٤٧ والمخصص ج :١ - ص٥٥ ، والبحر المحيط - ج : ٢- ص ١٦٧ ، كما أورده الراغب في مفردات ألفاظ القرآن ص ٢٦٥.

٣- في (و - ج) الكواكب.

مكروه، ولهذا سمي الله تعالى الكلام المكروه أذى، فقال: **﴿ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا ﴾**[١]، وما ينال الإنسان من مكروه المطر أذى في قوله تعالى: **﴿ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ ﴾**[٢]، ولما كان الناس في مجامعة المرأة في حال الحيض بين إفراط وتفريط، فإن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة لم يؤاكلوها ولم يجتمعوا معها في البيوت، وبعض النصارى لم يتحاش من مجامعتها، فسئل-عليه السلام-، فقال تعالى: **﴿ هُوَ أَذًى ﴾** تنبيهاً أن العقل يقتضي تجنبه كأنه قيل: الحيض أذى وكل أذى يتحاشى منه، والحيض يتحاشى منه، ولما كان الإنسان قد يتحمل الأذى ولا يراه محرَّماً، صرح بتحريمه بقوله: **﴿ فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ ﴾**، إن قيل: فأي أذى هو؟

قيل: إما باعتبار مجرد الشرع، فإثم، وإما بالاعتبار الطبي، فإن الدم الذي يخرجه الرحم يفسد البدن الذي منه الحيوان، ويكون له بخاراتٌ ممرضةٌ لأبدان متشمميها يعرض للمرض، ولما كان الاعتزال قولاً مشتركاً، ويكنى به عن العدول عنها عند الفراغ وعن مجانبة ذلك الموضع وعن مجانبتها رأساً، قال تعالى: **﴿ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ ﴾** ليدل باللفظتين الكنايتين على مجانبة مباضعتها، وعلى جواز التمتع بها منها دون الفرج المدلول عليه بقول النبي -عليه السلام: «**اصنعوا كل شئ إلا الجماع**»[٣]، ولما كان لفظ **﴿ يَطْهُرْ ﴾** يقال فيما كان طاهراً بنفسه، وفيما كان يتطهر، نبه بقوله: **﴿ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ ﴾** أنه لم يرد إلا الطهارة عن تطهر وتؤكد ذلك قراءة من قرأ: **﴿ حَتَّىٰ يَطَّهَّرْنَ ﴾**، فدل ذلك أن لا يصح

---

١ - الآية (١٨٦) سورة آل عمران .

٢ - سورة النساء (١٠٢) .

٣ - الحديث أورده ابن كثير في تفسيره فيما روي عن الإمام أحمد قال : أحمد قال : حدثناعبد الرحمن مهدي حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس أن اليهود كانت إذا حاضت المرأة منهم لم يواكلوها ولم يجامعوها في البيوت ، فسأل أصحاب البنى - صلى الله عليه وسلم - النبي صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله عز وجل : (ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتي يطهرن) حتى فرغ من الآية ، فقال سول الله صلى الله عليه وسلم - «اصنعوا كل شئ إلا النكاح»، فبلغ ذلك اليهود فقالوا : مايريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئاً إلا خالفنا فيه ، فجاء أسيد بن حضير وعباد بن بشر فقالا : يارسول الله : إن اليهود قالت كذا كذا أفلا نجامعهن ؟ فتغير وجه الرسول - صلى الله عليه وسلم - فأرسل في آثارهما فسقاهما فعرفا أن لم يجد عليهما » رواه مسلم من حديث حماد بن زيد بن سلمة .. تفسير القرآن العظيم - ابن كثير - ج :١-ص ٢٥٨ ، وأورده السيوطي في أسباب النزول ، وأورد ما أخرجه الباروي في الصحابة بسنده إلى ابن عباس أن ثابت بن الدحداح سأل النبي - صلى الله عليه وسلم ، فنزلت (ويسألونك عن المحيض) - الآية ، وأخرج ابن جرير عن السدي نحوه ... أسباب النزول - السيوطي - ص ٣٠ - ط : دار المنار للنشر .

وطؤها مالم تغتسل،وقوله: ﴿ **فَإِذَا تَطَهَّرْنَ** ﴾ دل أن ذلك شرط في إباحتها وأن لا يصح وطؤها إلا بانقطاع دمها، وقوله: ﴿ **فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ** ﴾ إشارة إلى مراعاة كل ما أمر به من أحكام النكاح ومجانبة المحاشي، يعني الموضع المكروه وغير ذلك من الأمور التي أمر بها، ثم قال: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ** ﴾- تنبيهاً أن من كان منه شئ من ذلك، فحقٌ عليه أن يتوب ويتطهر من بعد، والتطهر عام في استعمال الماء، وتطهر القلوب من الذنوب، والتوبة اجتناب الذنب والتطهر عمل الصالحات، وجعل التوبة مقدَّمةً على التَّطهير تنبيهاً أن اجتناب القاذورات مدرجة إلى فعل الخيرات، وعظم أمر المتطهرين حيث جعلهم محبوبيه، وروي خريم بن ساعدة قال: يارسول الله: مَن الذين قال الله - عز وجل- فيهم: ﴿ **فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ** ﴾[١]؟

فقال عليه السلام:

.«**نِعْمَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ خُرَيْمٌ**»[٢] ويدل على إرادة هذاالمعنى بالتطهر قوله: ﴿ **إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً** ﴾[٣].

قوله - عز وجل :

﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ سورة البقرة الآية (٢٢٣)..

الفرق بين الحرث والزرع أن الحرث إلقاء البذور وتهيئة الأرض، والزرع مراعاته وإنباته، ولهذا قال تعالى: ﴿ **أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ** ﴾[٤]، فأثبت لهم الحرث، ونفى عنهم الزرع، وقد جعل الله تعالى النساء محترثاً للرجل، وجعل له قوة النكاح حفظاً للنسل، ولولا طلب

١- سورة التوبة - الآية: (١٠٨).

٢- الحديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده - ج :٤- ص١٨٠، وأخرجه الحاكم في المستدرك ج :٤ ص١٨٣ ، وأخرجه المنذري في رياض الصالحين ص ٣٣٢ ، وأخرجه الإمام أحمد في مسنده - ج ٤٠ - ص ١٨٠ ، وأخرجه أبو داود في سننه .

٣ - سورة الأحزاب : الآية (٣٣).

٤ - سورة الواقعة : الآيتان (٦٣ ، ٦٤).

النسل لما رخص العقل في الجماع لما يجلب من ذبول البدن وإضعاف البصر، مع أنه ليس بضروري للإنسان كالجوع والعطش، لكن استحسن ما استحسن منه لطلب النسل المدعو إليه بقوله -عليه السلام: **(تناكحوا تكثروا)**[١]،ولذلك قيل في الحكمة: «**خير النساء الولود الودود،وشرها العقيم**»..

وحرم إتيان الرجال على كل حال والنساء في محاشهن إذا لم يكن محرماً ما سماه -عليه السلام- «**اللواطة الصغرى**»[٢]، وقيل لأمير المؤمنين: كيف ترى النساء يؤتين في أدبارهن؟ فقال: «**سفلتَ سفل الله بك**» ثم تلا قوله تعالى: **﴿ أتأتونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾**[٣]، وقوله: **﴿ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾** أي : كيف وأين بعد أن لا يتجاوز به الحرث، وأعاد لفظ الحرث، ولم يقل: فأتوه، ليراعى المعنى المقصود بذلك، لئلا يتوهم ما يتصوره قوم لم يتعمقوا النظر، وإنما قال: "**أنـــى**" تنبيهاً على كذب اليهود، حيث زعموا أن المرأة إذا لم تؤت مستقبلة يأتي الولد ذا خيل أي أحول، وقوله عقيب ذلك: **﴿ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ ﴾** ،هـو أن الله إذا أطلق أمراً من الشهوات الدنيوية لا يخلى ذكره من الحث على مراعاة العقبى والتقوى، لئلا يلحق الإنسان غفلة عما خلق لأجله، وقول عطاء: هو التسمية عند الجماع، وقول ابن عباس: هو الطلب للولد على سبيل المثال[٤] (*)، لا أنه لم يرد سوى ذلك. **﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ ﴾** أي صائرون إليه. واللقاء يقال في المحسوس والمعقول، يقال: لقي إثماً وجهداً، قال الله -عز وجل: **﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴾**[٥].

---

١ - الحديث « تناكحوا تكاثروا فإني أباهي بكم الأمم يوم القيامة » وقد أخرجه ابن مردويه في تفسيره من حديث عبد الله بن عمر، واسناده ضعيف ، وعبد الرازق عن سعيد بن أبي هلال مرسلا ، والبيهقي في المعرفة عن الشافعي أنه بلغه ، وفيه زيادة "حتى بالسقط » راجع تخريج أحاديث الإحياء - ج :٢ ص٢٢ ، والفتح الكبير - ج :٢ ص٣٨، وفتح الباري - ج : ٩ -ص١١١ ومصنف عبد الرازق - ج :٦ ص ١٧٣، ومفردات ألفاظ القرآن ص١٠٨.

٢ - الحديث مروي عن عمر بن شعيب عن أبيه عن جده أن رجلاً سأل النبي صلي الله عليه وسلم - عن الرجل يأتى امرأته في دبرها ، فقال تلك اللوطية الصغرى ، وفى رواية : هي اللوطية الصغرى . والحديث أخرجه الطبراني في معجمه الأوسط ، كما في مجمع البحرين للهيثمى (١٦٩ -أ) والبيهقي في السنن - ج :٧ -ص١٩٨ ، وأخرجه النسائي في كتابه (عشرة النساء) تحقيق عمرو على عمر مكتبة السنة - ط : ١ سنة ١٩٨٨، وأخرجه الإمام أحمد في مسنده حديث (٦٧٠٦)، (٦٩٦٧) وإسناده حسن، وذكره المنذرى في الترغيب والترهيب - ج :٣-ص-٢٠٠ وزاد نسبته للبزار، وقال: رجالهما رجال الصحيح وفى قولهما نظر، لأن المعهود في اصطلاح المحدثين أن هذا الإطلاق يقال في الرواة الذين روى لهم الشيخان أو أحدهما وعمرو بن شعيب لم يرو له الشيخان ولاأحدهما أصلاً.

٣ - سرة الأعراف - الآية :(٨٠).

٤ - في (أ - ص) على سبيل المال.

* - هذه هي نهاية النسخة (أ - ص) من تفسير سورة البقرة، وسنعتمد بمشيئة الله في تحقيق ما بقى من تفسير آيات سورة البقرة على النسخة (و-ج) وحدها ، وهي النسخة الأصل، فهي الأقدم في تاريخ النسخ، وهي الأكمل في النص.

٥ - سورة الفرقان : الآية (٦٨).

قوله - عز وجل :
﴿ وَلا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

الآية (٢٢٤)- سورة البقرة .

اليمين أصله العضو، واستعير للحلف لما جرت به العادة في تصافح المتعاقدين، وعلى هذا قال الشاعر:

قُلْتُ كَفِّي لَكِ رَهْنٌ بِالرِّضَى   فَوَضَعَ الكَفُّ مَوْضِعَ اليَمِينِ[١]

والعرضة ما يجعل معترضاً بين شيئين، فيتصور تارة بالحائل، فقيل معناه: لا تجعلوا لفظ الله مانعاً من أن تبروا وتتقوا، نحو: ﴿ وَلا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَىٰ ﴾[٢] وذلك أنه كان أحدهم لا يبر، فإذا عوتب قال: حلفت، وعلى هذا قال الشاعر:

تُسَلِّفُ الجَارَ شَرْباً وهي حَاتِمَةٌ   وَلاَ يَبِيتُ عَلَى أَعْنَاقِهِمْ قَسَمُ[٣]

ولأجل ذلك قال -عليه السلام:

«**إذا حلف أحدكم على شيء فرأى غيره خيراً منه فليأت الذي هو خير وليكفر عن يمينه**»[٤]، وقد تصور العرضة بصورة المبتذل، نحو: (لا تجعليني عرضة للوائم)، ومعناه: لا تجعلوا لفظ الله مبتذلاً لليمين، لأن تبروا، فيكون ذلك نهياً عن كثرة الحلف المذموم بقوله: ﴿ **وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ** ﴾[٥]، فإن قيل: وما تقدير "**أن تبروا**" على هذا؟.. قيل: يجوز أن يكون متعلقاً باليمين، وتقديره: أن لا تبروا،

---

١ - لم أهتد إلى نسبته .   ٢ - سورة النور : الآية (٢٢).

٣ - لم أهتد إلى قائله ، وللحطيئة بيت قريب منه وهو :- لايصعب الأمر إلا ريث يركبه   ولا يبيت على مال له قسم
ديوان الحطيئة ص ٢٨٨ - تحقيق د/ نعمان أمين طه - مكتبة الخانجي - القاهرة - ١٩٨٧.

٤ - الحديث أخرجه النسائي في سننه من حديث عبد الرحمن بن سمرة في كتاب "الايمان والنذور" في باب الكفارة قبل الحنث - ج:٧ -ص ١٠ ، وأخرجه البيهقي في سننه - ج :١٠ ص ٣٢ ، ٣٥ ، وأخرجه الحاكم في المستدرك - ج : ٤ - ص٣٠٠ في كتاب الأيمان والنذور .

٥ - سورة القلم : الآية (١٠).

لأنك تقول: حلفت أن تخرج، فيحذف "لا" أمناً من الاشتباه في الإثبات، إذ في الإثبات، فقال: حلفت لأخرجن أو لأخرجن،وقال بعضهم: معناه: "**نهاكم أن تكثروا الأيمان لأن تبروا**"، أي إنما نهاكم عن ذلك لتكونوا بررة أتقياء مصلحين، كما قال:

﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ** ﴾[1] الآية، وقيل معناه: لا تجعلوا لفظ الله مبتذلاً لليمين لأن تبروا بالحلف به، وتتقوا المآثم، وتصلحوا، والمعنى لا تبتذلوه لفعل الخيرات، فكيف للشر تنبيهاً أن الحلف بالله مكروه ما استغنى عنه، ونبه بقوله: ﴿ **وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾ أنه عارفٌ بالمقاصد..

قوله - عز وجل :

﴿ لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾

الآية (٢٢٥)- سورة البقرة .

اللغو: المطروح الذي لا يفيد من الكلام، يقال: ألغى في كلامه، ولغاً، وقد يقال في غيره تشبيهاً، كقول الشاعر:

كَمَا أَلْغَيْتُ فِي الدِّيَةِ الْحُوارَا[2]

ويكني باللغو عن القبيح من الكلام، وأصله من لغي العصافير، واختلف في اللغو من اليمين، فقال ابن عباس: هو الحلف بالشئ يظن أنه صادق فيه وهوبخلافه، وقال ابن جبير: هو اليمين علي الحرام لا يؤاخذ الله بتركه، وقال : هو بغضهم اليمين التي يحنث فيها صاحبها سهواً، وقالت عائشه:

---

١ - سورة آل عمران الآية : (١١٠) .

٢ - هذا عجز بيت لذى الرمة من قصيدة مطلعها :

نبت عيناك عن طلل بحزوى ... عفته الريح وامتنح القطارا

وهو في ديوانه ج : ٢ ص ١٣٧٩، وأمالي القالي ج : ٢- ص١٤٢ ، ولسان العرب - مادة (لغا) ومفردات ألفاظ القرآن - ص ٧٤٣ . وتمام هذا البيت .

ويهلك بينها المرئى لغواً ... كما ألغيت في الدية الحوارا

وقد قاله ذو الرمة يهجو به واحداً من بني امرئ القيس ويلغيهم من النسبة إلى تميم كما يلغى ولد الناقة قبل الفطام في الحساب في الديات . وقد أورده الراغب في مجمع البلاغة . ص ٢٥٢ - تحقيق الدكتور عمر الساريس - ط - مكتبة الأقصي - عمان .

وقد روي **عن النبي ﷺ إنه قول الرجل: (لا والله) و (بلى والله)**[1] على سبيل العجلة لا على القصد، وإليه ذهب الشافعي، وقال أبو حنيفة: لغو اليمين كالغموس في أنه لا تجب فيهماالكفارة، ولكن الغموس أن يحلف ويعلم أن الأمر خلافه، فيعظم معصيته، واللغو أن لا يعلم، بل يظن فلا تقع المؤاخذة به، وقوله:

﴿ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ هو أعم من قوله: **﴿ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ ﴾**[2] وذاك أنه لما كان القلب يُعبر به عن الجزء الذي به المعرفه والفكر ويجري من سائر أجزائه مجرى الراعي من المرعي، ونبه بقوله: **﴿ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾** أن الاعتداد به دون غيره من الجوارح، حتى إن كل فعل لا يكون عنه وبه سهوٌ أو خطأ متجافى عنه، ولهذا قال – عليه السلام– «**إن في الإنسان مضغة إذا صلحت صلح سائر الجسد، وإذا فسدت فسد سائر الجسد**»[3]، وقال : «**إذا طاب قلب المرء طاب جسده**»[4]، وقال : «**إن الله تعالى لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم، وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**»[5].

والحلم وإن كان منّاً هو إمساك القوة العصبية المقتضي للعفو، فهو إذا استعمل في الله لا يراد به إلا العفو عن المذنب دون حدوث حالةٍ وتجدد أمرٍ عليه – تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

---

١ – أورد القرطبى فى تفسيره ماروى عن عائشة قولها "أيمان اللغو" ماكانت في المراء والهزل والمزاحة والحديث الذى لاينعقد عليه القلب وفى البخاري عن عائشة قالت: نزلت الآية في قول الرجل لا والله وبلي والله تفسير القرطبى ج :١–ص١٠١٢ وأورده ابن كثير فى تفسيره ج :١–ص٢٦٦.

٢ – سورة المائدة الآية : (٨٩).

٣ – الحديث أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه من حديث النعمان بن بشير قال سمعت الرسول صلي الله عليه وسلم– يقول: إن الحلال بين، والحرام بين، وبينهما مشتبهات لايعلمهن كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع فى الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعي حول الحمي يوشك أن يرتع فيه ، ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا وإن حمى الله محارمه ، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب – صحيح مسلم كتاب المساقاة –ص ١٢٢٠ ، وأخرجه أبو حيان في البحر المحيط – ج : ١ ص ٥١٣ ، وقال العراقي : متفق عليه من حديث النعمان بن بشير ، وأخرجه الزبيدى في الاتحاف – ج : ٦ ، ص ٢٥٣ ، ج : ١٠ ص١٧١ ، وأخرجه العراقي في المغنى عن حمل الأسفار ج : ٤– ص ٣٥٦

٤– لم أهتد إليه.

٥ – الحديث أورده ابن كثير فى تفسيره قال : قال مسلم رحمه الله: حدثنا عمرو الناقد حدثنا كثير بن هشام حدثنا جعفر بن برقان عن يزيد بن الأصم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلي الله عليه وسلم : (إن الله لاينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم) ورواه ابن ماجة عن أحمد بن سنان عن كثير بن هشام به . تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج : ٤ – ص ٢١٧.

قوله - عز وجل :

﴿ لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

سورة البقرة الآية (٢٢٦)..

التربص: انتظار مجئ وقت، يقال: تربصت به، وربصت به، قال الله- عـز وجل: **﴿ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾**[١] وقيل في هذا الأمر ربصه، والفئ: الرجوع من مكان إلى مكان، ولم يسم من الظل فيأ إلا الراجع منه، وسمى العتمة فيألفيئه من قوم إلى قوم، وقول الشاعر:

أَرَى الْمَالَ أَفْيَاءَ الظِّلَالِ عَشِيَّةً [٢]

أي المال هو الفئ الذي هو بعض الظلال تنبيهاً على ما قال الآخر:

إنما الدنيا كظل زائل . [٣]

والإيلاء : الحلف المقتضي للتقصير فى الأمر الذي يحلف عليه من قوله عز وجل : **﴿ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا ﴾**[٤] ، **﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ ﴾**[٥] وصار الإيلاء في الشرع الحلف المانع من جماع المرأة ، وهو أن الرجل كان إذا لم يرد المرأة ولايحب أن يتزوجها غيره، يحلف أن لايجامعها ، ويتركها كذلك ، لاإيماً ، ولا ذات بعلٍ ، فأراد الله أن يجعل لها مخرجاً ، فحكم بهذه الآية ، إلا أنه اختلف في أي لفظ من الأيمان يكون الإيلاء ، وعلى أي وجه يعتبر ترك جماعها ، وأي يمين من الإيلاء تلزم فيه الكفارة ؟ وكم مدة الإيلاء ؟ وماعزم الطلاق ؟ ومـاالفئ ؟ ومن الذي لإيلائه حكم ؟ وأى إمرأة لها حكم

---

١ - سورة المؤمنون الآية (٢٥).

٢ - هذا شطر بيت وعجزه : يؤوب وأخرى يخبل المال خابله .. وقد ذكره الراغب في المفردات بدون نسبة ص ٦٥٠ ، وهو في أساس البلاغة مادة : (خبل) .

٣ - هذا شطر بيت للوزير ابن الزيات ، وعجزه : نحمد الله كذا قدرها ، وقبله :

وهل الدنيا إذا ماأقبلت   صيرت معروفها منكرها

وقد أورده الراغب في كتاب مفردات ألفاظ القرآن - ص ٦٥٠ ، وأورده الصفدى في الوافي بالوفيات ج : ٤ ص ٦٥٠ .

٤- سورة آل عمران - الآية : (١١٨) .

٥ - سورة النور - الآية : (٢٢) .

الإيلاء ؟ أما أي يمين هو؟ فعند أبي حنيفة جميع الأيمان حلفاً بالله عز وجل ، كان، أو طلاقاً أو عتاقاً أو نذراً، وبه قال الشافعي في الحدود، وقال مالك: "**لا يكون مولياً إلا بالحلف بالله- عز وجل-**"، وبه قال الشافعي في القديم، وروي عن ابن عباس أن كل يمين منعت من الجماع فإيلاء، وأما على أي وجه يعتبر ترك جماعها، فعند علي وابن عباس والحسن وعطاء إذا حلف أن لا يجامعها على وجه الضرار والغضب، فأما إن لم يكن على ذلك نحو أن يحلف أن لا يجامعها في وقت إرضاعها الولد لئلا يضر بالولد، فلا يكون مولياً، وقال الحسن: "إذا حلف أن لا يجامعها في هذا البيت، ثم ترك جماعها أربعة أشهر فإيلاء"، وقال ابن المسيب: "إذا حلف أن لا يكلمها فإيلاء أيضاً"، وقال ابن عمر: "إذا هجرها من غير يمين يكون مولياً"، وأما أي يمين من الإيلاء يلزم فيه الكفارة، فهي كل يمين بالله- عز وجل-، وأما المدة: فمنهم من قال: أكثر من أربعة أشهر أي قدر كان، لأنه جعل لها المطالبة بعد ذلك، ولأنه قال: ﴿**فَإِن فَآءُو**﴾ ولم يفصل بعد المدة، وفي المدة . ومنهم من قال: أربعة أشهر فصاعداً، هو بعض الظلال تنبيهاً على ماقاله الآخر :وإن حلف على أقل من أربعة أشهر لا يكون مولياً وإن تركها أربعة أشهر على قول عامة الفقهاء، وقال ابن مسعود وقتادة: يكون مولياً، ولا خلاف أنه إذا لم يتركها أربعة أشهر لا يكون مولياً، وأما عزم الطلاق، فعند عمر، وعثمان، وابن عباس،وابن مسعود أنه انقضاء الأربعة أشهر، وأنها تبين بتطليقة، وعند الشافعي أن للمرأة مطالبتها بعد الأربعة الأشهر، ويجب عليه أن يطلق أو يراجع ولا يستمهل أكثر من يوم، فإن طلقها تطليقة تكون رجعية، ولو عفت عن ذلك في الوقت، فلها أن تطلب بعد ذلك متى أرادت، وأما الفئ: فظاهره يقتضي الفئ بالقول، كالمراجعة إلا أنهم أجمعوا أنه إذا أمكنه لم يكن إلا بالجماع، فأما إذا كان محجوباً أن محبوساً عنها، فقد قيل فيه بالقول، وأما من الذي لإيلائه حكم؟، فكل من صح طلاقه حراً كان أو عبداً مسلماً كان أو ذمياً حرة كانت تحبه أو أمة، وأبو حنيفة اعتبر بالمرأة كالطلاق، ومالك اعتبر بالرجل دونها، وقال بعض الفقهاء: الإيلاء لذمي، والآية تقتضي خلاف قوله، وأما أي امرأة لها حكم الإيلاء،فكل امرأة يصح طلاقها يصح الإيلاء منها، مسلمة كانت أو ذمية، حرة كانت أو أمة، صغيرة كانت أو كبيرة، لكن ليس للصغيرة المطالبة حتى يمكن مجامعتها وتأتي عليها المدة المضروبة و"**من**" في قوله:

﴿مِن نِّسَائِهِمْ﴾ تعتبره الفقهاء أنه متعلق بقوله: ﴿يُؤْلُونَ﴾ حتى كثر في كلامهم "**آلى فلان من امرأته**"، كقولهم: "**ظاهر منها**"، وذلك غير ممتنع، وإن كان قد ذكر بعض أهل اللغة أن تقدير الكلام: (لهم من نسائهم تربص أربعة أشهر) ودل بقوله: ﴿فَإِن فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أن المولى في إيلائه مخطئ وآثم، وأنه يستحق العفو عما ارتكبه بفيئه..

قوله - عز جل :
﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ الآية : (٢٢٧)-سورة البقرة.

دواعي الإنسان إلى الفعل على مراتب أولها السابح، ثم الخاطر، ثم التخيل والتفكر فيه، ثم الإرادة، ثم الهمة، ثم العزم، فالهمة إجماع من النفس على الأمر وإزماع عليه، والعزم هو العقد على إمضائه، ولهذا قال- عز وجل- ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾[1]، ويقال: (مالفلان عزمه) أي عقد على إمضائه..

ويقال: المعود عزائم تصوراً أنك قد عقدت على الشيطان أو الداء أن يمضي إرادتك فيما سميته، والطلاق: تخلية عن وثاق أو داء أو انقباض وإمساك، ومنه: "طلقت المرأة عند الولادة وبالتخليه عن الوثاق شبه الطلق في العدو، ورجل طلق الوجه، وطلق اليدين، وأما عزيمة الطلاق، فقد تقدمت، ونبه تعالى بقوله: ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أنه عارف بضميره ومقاله في إيلائه وتطليقه..

قوله - عز وجل :
﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ سورة البقرة الآية (٢٢٨)..

قال الخليل: قرأت المرأة: رأت الدم، وأقرأت :حاضت، وصارت ذات قرء، والقرء في الحقيقة اسم للدخول في الحيض عن طهر، ولما كان اسماً للأمرين الطهر والحيض المتعقب له أطلق على كل

---

١ - سورة آل عمران :الآية (١٥٩).

واحد منهما، لأن عادة العرب أن كل اسم موضوع لمعنيين معاً يطلق على كل واحد منهما إذا انفرد، كالمائدة هي للخوان والطعام، وقد سمي كل واحد منهما بانفراده مائدة، وعلى ذلك الظعينة والكأس والراوية، فكذلك القرؤ، وليس هما اسماً للطهر مجرداً بدلالة أن الطاهر التى لم تر الدم لا يقال لها ذات قرء، وكذا الحائض التي استمر بها الدم، والنفساء لا يقال لهما ذلك، فقوله: ﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ﴾، أي ثلاثة دخول من الطهر في الحيض وليس حقيقة هذا إلا ما قاله الشافعي دون ما قاله غيره في أنها إذا رأت الدم ثلاث مرات، فقد انقضى عدتها، وجعل غيره حصول ثلاثة أطهار تتعقبها ثلاث حيض، فإن قيل: قوله – عليه السلام: **(دعي الصلاة أيام إقرائك)**[1] لم يرد أيام تجدد الحيض، وإنما أراد أيام الحيض كلها، قيل: ما قلته صحيح، وإنما ذلك كقولك: "فعل كذا أيام ورود فلان، ووروده إنما كان في ساعة، فكذلك قوله: "أيام إقرائك"، والحدث القليل ينسب إلى الزمن الطويل، وإن وقع ذلك في بعضه،وقول أهل اللغة أن القرء من قرءا إذا جمع، وقارئ هم اعتبروا الجمع من زمن الطهر وزمن الحيض لاجتماع الدم في الرحم فقط، ومنه القراءة، وهي ضم الحروف والكلمات بالخروج من بعضها إلى بعض، يدلك على ذلك أنه لا يقال للحرف الواحد يتفوه به قراءة، و"أقرأ النجم" إذا طلع واحد وغاب آخر، وصار القرؤ مستعاراً للوقت المنتظر، ومنه قال الشاعر:

إِذَا هَبَّتْ لِقَارِئِهَا الرِّيَاحُ[2]

أي لوقتها المنتظر المتعين.

وقال آخر:

يَارُبَّ ذِي ضِغْنٍ عَلَىَّ فَارِضٍ ... لَهُ قُرُوٌّ كَقُرُوِّ الْحَائِضِ[3]

١ – عن عدي بن ثابت أن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال لامرأة : "دعى الصلاة أيام أقرائك » أخرجه أبو داود برقم ٢٩٧، والترمذي في العارضة ١/ ١٩٩ ، وأخرجه ابن ماجه في سننه ج :١ :ص٢٠٤ وهو ضعيف ، وأورده الراغب في مفردات ألفاظ القرآن – ص ٦٦٨.

٢ – هذا عجز بيت لتأبط شراً ثابت بن جابر وتمامه :-

شننت العقر عقربني شليل ... إذا هبت لقارئها الرياح

ديوان تأبط شراً ثابت بن جابر .

٣ – لم أهتد إلى قائل هذا البيت ، وهو في مجالس ثعلب ج : ١– ص ٣٠١ ، وتفسير الطبري ج :٢– ص١٩٠ ، والأضداد – ص ٢٨ ومجمع البيان – ج : ١– ص ١٣١، وتفسير ابن عطية – ج :١– ص٣١٣ ، ولسان العرب – مادة : فرض ، وتفسير البحر المحيط – ج :١– ص ٢٤٨ ، والدر المصون فى تفسير الكتاب المكنون – ج : ١– ص ٤٢١ بدون نسبة

أي انتظارٌ للفرصة كانتظار ذات الحيض للحيض..

وعير ابن داود الشافعي لما جمع بين القرؤ وقريت الماء في الحوض، وقال: ألم ير أن قريت من بنات التاء، وقرأت من الهمزة، وهذا سوء ظن منه وسوء تصور، فإن أهل اللغة طريقتان في هذين اللفظين أحدهما: أن "قريت" مقلوب عن قرأت، والياء بدل من الهمزة ، كسألت وسلت، والثاني: أنهما لغتان تقارب معنياهما تقارب ألفاظهما، وأنهما تقتضيان معنى الجمع، والبعل: النخل السارب بعزوقه وعبر به عن الزوج، لإقامته على الزوجة للمعنى المخصوص، وحيث هي بعُلةٌ وقيل: باعلها كقولك: جامعها، وبعل الرجل إذا دهس، فأقام مكانه كالنخْل الذي لا يبرح، وبهذا النظر، قيل لمن لا يحول عن مكانه ما هو إلا شجرٌ أو حجر، والبعولة جمع بعل، كالذكورة، والفحولة، والعمومة، والخؤولة، والرجل بنى عن رجْلٍ تصوراً لسعيه بها، كما سميت المرأة قعيدة وعجوزاً لتمكن مقعدها وعجزها من الأرض ولذلك قال الشاعر:

أَصْبَحْتَ لاَ رَجُلاً يَغْدُو لِطِلْبَتِهِ ... وَلاَ قَعِيدَةَ بَيْتٍ تُحْسِنُ الْعَمَلاَ[1]

وبهذا النظر سُمِّي القوم قوماً لقيامهم بالأمور، والراجل الماشي لكونه ضارباً برجله الأرض كالسائف والرامح لمن يضرب بهما، وارتحل فلان كذا لما تناوله بسعيه مما لم يسبق إليه، وترحل النهار، كقولهم: "**قام قائم الظهيرة**"، والمرجل: القدر المنتصب على رجلها، وجعل بناؤه بناء الآلات والدرجة والمرقاة والمنزلة تستعار للمحال الشرفية، وذاك أن الشرف المعقول يمثل بالمحسوس على وجهين، أحدهما يعتبر على طريق العلو والسفل، فتستعمل فيه الدرجة، والمرقاه، والصعود، والانحدار، والثاني على طريق التقدم والتأخر، فيستعمل فيه السبق والتخلف والمطلقات ضربان: مدخول بها، وغير مدخول بها ولا عدةٌ عليها لقوله- عز وجل: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾**[2]، والمدخول بها عليها العدة،

١- قائل البيت هو أبو نصر بن نباته كما في مخطوط كتاب الدر الفريد وبيت القصيد - ج :٢- ص١٤٦.

٢- سورة الأحزاب الآية : (٤٩).

وهي على ثلاثة أضرب:

الحوامل: وعدتهن أن يضعن حملهن، واليائسات، واللائي لم يحضن، وعدتهن ثلاثة أشهر، وذوات الحيض: وعدتهن ثلاثة أقرؤ، وهذا الحكم إذا كانت المرأة حرة، فأما إذا كانت أمة فقرآن، وفي الشهور على النصف من الحرة..

إن قيل: كيف استعير لفظ الخبر للأمر في قوله: ﴿ **يَتَرَبَّصْنَ** ﴾؟ قيل: لما كانت العدة تحصل من المرأة بانقضاء الأيام، نوتها أو لم تنوها، أجدت أو لم تجد صار لفظ الخبر أملك له من لفظ الأمر، ويدلك على صحة هذا الاعتبار إتيان جميع العدد بلفظ الخبر، وقوله: ﴿ **وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ** ﴾ عنى كتمان ما في أرحامهن من الحيض والحبل، وأنه لا يجوز أن تكون حاملاً، فتقول: ليست بحامل، أو لم تكن حاملاً، فتقول: أنا حامل، ولا أن تدعي الحيض أو تنفيه على ذلك، وذلك عام في كل ذلك، وإن مثّل كل واحد من متقدمي المفسرين لشئ من ذلك، ومن قال: لا يجوز أن يكون الحيض، لأن الحيض لم يخلق في الرحم، وإنما هو دم يرد إليه من جميع البدن، فعلى هذا قوله: ﴿ **فِي أَرْحَامِهِنَّ** ﴾ لا يكون من صلة خلق، بل يكون من صلة قوله (ولا يكتمن)، أي: لا يُكتمن في أرحامهن ما خلق الله، فإنه لا شك أن يحصل في الرحم خُلِّق فيه أو لم يُخَلَّقْ، ونهيها عن كتمان ذلك دال على أن قولها مقبول فيما تدعي من حيضها وحملها فيما يتعلق بحقها، فإن تعلق بذلك شئ، ليس من حقها، فيجوز أن لا يقبل إذا اتهمت، كمن يقول: "**عبدي حر**" أو "**امرأته طالق إن حاضت**"، فقالت: قد حضت، فمتى لم يصدقها لم يعتق عبده، ولم يطلق امرأته، وقوله: ﴿ **إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ** ﴾، فليس ذلك شرطاً في أنهن إذا لم يكن مؤمنات، يجوز أن يكتمن، وإنما ذلك تنبيه أنه مناف للإيمان، وأنه ليس من فعل المؤمن، كقوله: ﴿ **وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ** ﴾(1)، وقوله: ﴿ **وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ** ﴾ دالٌّ على بينة مراجعتها ما دامت معتدة، ولم يعن بالرد تجديد نكاح يشارك فيه غيره في الحال، وإنما عنى الرجعة الموجبة لبقاء النكاح بعد انقضاء الحيض التي إذا لم تكن لكان يزول النكاح، وظاهر الآية أن إباحة هذه الرجعة شريطة الإصلاح، لكن لا خلاف أنه

---

١ - سورة النور: الآية رقم (٢).

إذا راجعها مضاراً بها، فرجعته صحيحة، فدل هذا الإجماع أن ذلك تهديد للمراجع أن لا يقصد الإضرار بها، كقوله: ﴿ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا ﴾[1]، ثم قال: ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴾[2] تنبيهاً أن فاعل ذلك ظالمٌ، وأن الرجعة في الحكم صحيحةٌ، وقيل: تسمية (بعلاً) دلالة أن ما دون الثالثة من الطلاق لا يرفع الزوجية، وأن الرجعة مادامت معتدة وقوله: (والمطلقات) عامة في الرجعية وغير الرجعية، (وبعولتهن) خاص في الرجعية، بدلالة التي تتلوها، وليس قول من قال هذه الآية نسخ منها حكم الحامل، ومن ليست بذات حيض بشيء، فإن ذلك تخصيص لا نسخ،[3] وإن كان قد سماه بعض القدماء نسخاً وقوله: ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾ يتبين أن لكل واحد على الآخر حقاً كحق الآخر، فمما تشاركا فيه مراعاتهما للمعنى الذي شُرع لأجله النكاح، وهو طلب النسل،وتربيةالولد، ومعاشرة كل واحدٍ منهما للآخر بالمعروف وحفظ المنزل، وتدبير ما فيه وسياسة ما تحت أيديهما، حماية كل واحدٍ على الآخر بقدر جهده وحده، وقوله: ﴿ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ ﴾ هو من وجه تنبيه لفضل الرجل على المرأة بالجملة، ومن وجه كالاستثناء بأن له عليها حقاً، ليس لها عليه، أما فضله عليها، فقد نبه عليه بقوله: ﴿ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ ﴾[4]، ودل عليه النبي – عليه السلام بقوله: «إِنَّكُنَّ نَاقِصَاتُ الدينِ والعُقُولِ»[5]، فقيل: وما نقصان دينهن، فقال: إن إحداهن تقعد

١، ٢ – سورة البقرة الآية : (٢٣١).

٣ – عقب الدكتور مصطفى زيد على دعوى النسخ في هذه الآية بقوله: (والواقع أن دعوى النسخ هنا وهي مروية عن ابن عباس وقتادة تنقضي نفسها بنفسها ، فإن العبارة التي كتبها عن ابن عباس وقتادة وهي: ثم استثنى،... فنسخ منهن.... وهذا تخصيص لا نسخ، خصص الله عموم المطلقات بمقتضى الآيات التي زعموها ناسخة، والمقتضى الحديث المروي في عدة الأمة، فأصبحن مقصورات على ذوات الأقراء المدخول بهن، الحرائر غير الحوامل، وتولت تلك الآيات، وذلك الحديث عدة الآيات والصغيرات والإماء والحوامل، وقررت أن المطلقة غير المدخول بها لا عدة عليها. وقد رفض الطبري في تفسيره دعوى النسخ في هذه الآية أيضاً. النسخ في القرآن الكريم – الدكتور مصطفى زيد– ج:٢ –ص٦٠٥– ط. دار الوفاء– المنصورة.

٤ – سورة آل عمران الآية : (٣٦).

٥ – الحديث أخرجه الحافظ بن حجر فى التلخيص الحبير فى تخريج أحاديث الرافعى الكبير في كتاب الحيض ، وذكر قول بن مندة حيث ذكر بعضهم هذا الحديث ولايثبت بوجه من الوجوه وقال في قريب من هذا المعني مااتفق عليه من حديث أبي سعيد قال: «أليس إذا حاضت لم تصل ولم تصم ؟ فذلك من نقصان دينها » ، ورواه مسلم في صحيحه من حديث ابن عمر بلفظ : (تمكث الليالي ماتصلي ، وتفطر في شهر رمضان فهذا نقصان دينها ، ومن حديث أبي هريرة كذلك ، وفي المستدرك من حديث ابن مسعود نحوه ، ولفظة : « فإن احداهن تقعد ماشاء الله من يوم وليلة لاتسجد لله سجدة) انظر : تلخيص الحبير فى تخريج أحاديث الرافعي الكبير للحافظ بن حجر – ج : ١– ص١٦٢ – ص ١٦٣ طبعة المكتبة الأثرية – باكستان . كما أورده السيوطي في الدر المنثور ج :١– ص٣٧١ وأخرجه أبو داود في مسنده من حديث عبد الله بن عمر – حديث رقم (٤٦٧٩).

نصف دهرها لا تصلي، ونقصان عقلهن أن شهادتها على النصف من شهادة الرجل، وقيل: من نقصها أن شرمافي الرجال الجبن والبخل، وهما خير ما في النساء، ولكونهن ناقصات عظم الله نسبة البنات إليه أكثر من تعظيمه نسبة الابن، وإن كانا منكرين، فقال تعالى: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَىٰ﴾[١]، وقال: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾[٢]، وقال: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾[٣]، وقال: ﴿أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ﴾[٤]، وعظم تعالى نسبة الملائكة إلى الأنوثة، فقال: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا﴾[٥]، ولكن الأنوثية نقصٌ جعل القوه الانفعالية أنثى، والقوة الفاعلة ذكر حتى شبهوا السماء بالفحل، والأرض باللقوحة، وقالوا حديد ذكر، وحديد أنثى، وقال تعالى: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثًا﴾[٦]، أي أصناماً مفعولة غير فاعلة، وأما فضل حقوقه عليها، فقيل: عشرة أشياءَ جُعل الطلاق إليه من دونها ، وإباحة ضربها عند النشوز، أو هجران فراشها، ووجوب إجابتها إياه إذا دعاها إلى الفراش، والائتمار له إذا نهاها عن الخروج، وأن ميراثه منها أكثر من ميراثها منه، وأنه إذا قذفها فله إسقاط الحد باللعان، وليس لها ذلك، وأن له أن يجمع بينها وبين غيرها، وليس لهاأن تجمع بينه وبين غيره، وليس لها أن تصوم تطوعاً، ولا أن تحج فرضاً إلا بإذنه،وله ذلك من دون إذنها. وإلى هذه الجملة أشار بقوله: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾[٧] ونبه بقوله: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أنه يحكم بكل ما يشاء، فلا يُغَالَبُ لعزةٍ، ويتقن كل ما يفعله فيصيب بحكمته، وفيه وعدٌ وإبعاد على مجازاتهما فيما يتحريانه من صلاح وفساد..

---

١ - سورة النجم الآية (٢١).
٢ - سورة النحل : الآية (٦٢).
٣ - سورة الزخرف : الآية (١٧).
٤ - سورة الصافات : الآية (١٥٣).
٥ - سورة الزخرف : الآية (١٩).
٦ - سورة النساء : الآية (١١٧).
٧ - سورة النساء : الآية (٣٤).

قوله - عز وجل :

﴿ الطَّلاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلاَّ أَن يَخَافَا أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ الآية (٢٢٩)- سورة البقرة.

المرة: فعلة من مرَّ يمر مراً، ومروراً، فعبر بها عن الفعلة، وإمرار الحبل إرساله في الفتل حتى يمر مراً، ومر الشئ صار مراً أصله من الأول، وهو فيما لا يطيب أكله، كساع فيما يطيب،وهماالذهاب، والمر الذي يعمل به استعارة، والإمساك أصله من المسك وتصور منه إمساكه للبدن، ولما يُجْعَلُ فيه بعد السلخ، فقيل: (أمسكت كذا) أي ضبطته ضبط المسك لما فيه، وكنى بالمسك عن البخيل، والتسريح كالتطليق في أنه من : برحت الماشية، كما أن الطلاق من: أطلقت البعير، والمعروف مالا تنكرهُ العقول الصحيحة، وسمي الجود معروفاً لمعرفة العقول كلها حسنه.

وعلى هذا قال الشاعر:

وَلَمْ أَرَ كالمَعْرُوْفِ أَمَّا مَذَاقُهُ فَحُلْوٌ وَأَمَّا وَجْهُهُ فَجَمِيلُ(١)

وقيل: الخوف هاهنا: الظَّنُّ ، وقيل: الْيَقِينُ، واحتُج بقول الشاعر:

وَلاَ تَدْفِنَنِّي بِالْفَلاَةِ فَإِنَّنِي

أَخَافُ إِذَا مَامِتُّ أَلاَّ أَذُوقَهَا(٢)

١- البيت لأبي تمام ، وقبله :

ولاخير في طول الجسوم وعرضها إذا لم تزن طول الجسوم عقول

الشوارد - عبد الله بن خميس . كما أورده ابن أيدمر في مخطوط كتاب الدر الفريد ، ونسبه الى الشمخي الفزازى - ج : ٥- ص ٣٤٧.

٢- البيت لأبي محجن الثقفي وقبله :

إذا مت فادفني إلى أصل كرمه يروي عظامي بعد موتي عروقها

وهو في معاني القرآن - للفراء - ج : ١- ص١٤٦ ، وخزانة الأدب - ج : ٨ ص٣٩٩ ، وعيون الأخبار - لإبن قتيبة - ج:١-ص٨، وربيع الأبرار ج :١- ص٧١٤ ، ومغنى اللبيب- ص ٤٦.

وذلك نظر من المفسر إلى مقتضى الخوف، فقد يكون الخوف عن أمارة ضعيفة تقتضي الظن، وعن أمارة قوية تقتضي اليقين، فقوله: ﴿ **الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ** ﴾ ليس ذلك للجنس متناولاً لكل طلاق، بل هو إشارة إلى الطلاق المتقدم ذكره الذي قال فيه:

﴿ **وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ** ﴾[1]، فبين أن ذلك الطلاق الذي فيه المراجعة مرتان، وأصله الطلاق مرتين، نحو الخروج مرتين، ثم رفع كقوله: ﴿ **الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ** ﴾[2]، وقوله: ﴿ **أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ** ﴾ منهم من حمله على الطلقة الثالثة، وروى عن النبي ﷺ أن بعضهم سمع الآية، فقال: فأين الثالثة؟ فقال- عليه السلام: «**التسريح بإحسان**[3]».

ومنهم من حمل ذلك على ترك الرجعة» والصحيح أنه محمول عليها، لأنه يكون بالرجعة ممسكاً لها، ويتركها حتى تنقضي عدتها، أو بتطليقها الطلقه الثالثة يكون مسرحاً لها،لكن لما كان اللفظ متردداً بين الأمرين بين من بعد حكمها إذا طلقها ثالثة بقوله: ﴿ **فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ** ﴾[4].

إن قيل: كيف جعل الإمساك هاهنا الرجعة؟ قيل: لأنه ضد الطلاق، وقد كان الطلاق موجباً للفرقة بعد مضي ثلاث حيض، فسمي الرجعة إمساكاً لبقاء النكاح به.

إن قيل: كيف علق التسريح بالإحسان؟ وهل بينه وبين المعروف فرق؟

قيل: الإحسان أعم معنى من المعروف، لأن الشئ قد يكون معروفاً، أي غير منكر، ولا يكون

---

١ - سورة البقرة الآية (٢٢٨).

٢- سورة البقرة الآية (١٩٧) .

٣- أورد القرطبي ماروى من أخبار العدول بسنده إلى أبي رزين قال : جاء رجل إلى النبي صلي الله عليه وسلم : فقال« يارسول الله أرأيت قول الله تعالي (الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان فأين الثالثة؟ فقال رسول الله صلي الله عليه وسلم . (فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان) ورواه الثوري وغيره عن إسماعيل بن سميع عن أبي رزين مثله تفسير القرطبي ج: ١- ص٠ ١٠٤ ، وأورد السيوطى في نزول هذه الآية قالت : كان الرجل يطلق امرأته ماشاء أن يطلقها وهى امرأته إذا ارتجعها وهى في العدة وإن طلقها مائة مرة أو أكثر حتي قال رجل لامرأته : والله لأطلقك فتبيني مني ولا أؤويك أبداً . قالت:وكيف ذلك ؟ قال : أطلقك فكلما همت عدتك أن تنقضي راجعتك فذهبت المرأة فأخبرت النبي صلي الله عليه وسلم فسكت حتي نزل القرآن (الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان) . أسباب النزول - السيوطي . ص ٣٢ - ط . دار المنار - القاهرة .

٤- سورة البقرة - الآية :(٢٣٠).

مستحسنا، فكل إحسان معروف،وليس كل معروف إحساناً، فبين أن من حق المسرِّح أن يبذل ما يزيد على الإنصاف تنزهاً، وذلك على حسب ما كانوا يراعون في بذل مصارف المعروف لمن يرتحل عنهم، وكما بين أن له الرجعة في تطليقتين، بين بقوله: (فإن طلقها) أن لا رجعة بعد الثالثة، فإن مازاد علي الثالثة من الطلاق لا حكم له بوجه، فقد كانت العرب تطلق مرة بعد أخرى ما شاءت، وتراجع قبل انقضاء العدة، فأبطل تعالى ذلك، وفي الآية دلالة أن له أن يطلق مرتين في طهر واحد من حيث أنه لم يفصل، ودلالة أن الطلاق في الحيض يقع، ولذلك قال عليه السلام- لابن عمر لما قال: أرأيت لو طلقتها ثلاثاً؟ قال: «**إِذَنْ بَانَتْ مِنْكَ امْرَأَتُك، وَعَصَيْتَ رَبَّكَ**»[1]، وأجمع فقهاء الأمصار أن قوله: ﴿**الطَّلاقُ مَرَّتَانِ**﴾ إذا لم يكن الزوجان مملوكين، واتفقوا أن الرق يوجب نقصان الطلاق، لكن اعتبر أبو حنيفة الطلاق بالنساء، وهو قول علي والشافعي، واعتبر بالرجال، وهو قول عثمان وزيد، وإليه ذهب مالك، وقوله: ﴿**وَلا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا**﴾، فلا خلاف أنهاإذا سمحت بشئ من مهرها للزوج فسائغ، لقوله:﴿**فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ**﴾[2]، فأما إذا كان على وجه الخلع، فلا يجوز إلا على وجه دون وجه، واختلفوا متى يجوز مخالعتها؟ وكم قدر المال الذي به يجوز؟، وعند من يجوز؟

فذهب بعضهم إلى أنه يكره الخلع مع سلامة الحال، لأن الطلاق مكروه إذا توفرت المرأة على ما يلزم من حكم الزوجية لقوله -عليه السلام: «**أَبْغَضُ الْحَلَالِ إِلَى اللهِ الطَّلَاقُ**»[3] هذا مع إمكان المراجعه والخلع الذي ترتفع المراجعة معه أولى بأن يكره، وإن خافا ألا يقيما حدود الله جاز بلا خلاف لظاهر الآية، وإن خافت ولم يخف الزوج، فيجوز إلا عند أهل الظاهر، وعلى ذلك دل شأن امرأة

١- الحديث أخرجه أبو داود في كتاب الطلاق ، وأخرجه النسائي في كتاب الطلاق حديث رقم (٧٠) ، (٧٣)، (٧٦).

٢- سورة النساء - الآية : (٤).

٣- الحديث أخرجه السيوطي في الدر المنثور - ج :١- ص ٢٧٨، ج :٢-ص٢٣٣ ورواه ابن ماجة في سننه عن كثير ، وأورده ابن الجوزى في العلل المتناهية وقال الدار قطني في العلل : المرسل فيه أشبه ، وقال الخطابي:إنه المشهور ، وأخرجه ابن عدي في الكامل فى الضعفاء - ج :٢ ص٤ ١٠٠، وأخرجه أبو داود بلفظه في باب (في كراهية الطلاق) ج :٢- ص٦٣٢، وأخرجه ابن ماجة في الحديث رقم ٢٠١٨.

ثابت بن قيس لما كرهت الزوج، فأمرها- عليه السلام- أن ترد إلي حذيفة ما كان قد مهرها، وقال الحسن: لا يجوز حتى تقول المرأة: لا أغتسل عنك، ولا أقربك، ونحو ذلك..

وقال إبراهيم: «لا يجوز حتى تعصيه ولا تبر يمينه وإن خاف هو ولم يخف ولم يرها على فاحشه»، لا يحل له أخذ شئ منها بالمخالعة لقوله - عز وجل:

﴿ وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا ﴾[1] الآية.

وذلك في الحكم سائغ وإن كان منهياً عنه، وعند مالك يرد إليها مالها، وقال الأوزاعي: «إذا خالع امرأته وهي مريضة، فإن ما تبدله في ثلثها إن كانت ناشزة، وإن لم تكن ناشزة رد عليها، وكان له عليها الرجعة، فأما القدر الذي يخالع عليه» فمنهم من قال: لا يجوز إلا بأقل من المهر المسمى لقوله تعالى: **﴿ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا ﴾**، وذلك يقتضي التبعيض، وقال علي والحسن وابن المسيب وطاوس وابن جبير: **لا يجوز بأكثر مما أعطاها لما روي أن رجلاً خاصم امرأته إلى النبي- عليه السلام، فقال: تردي إليه ما أخذت منه؟ قالت: نعم وزيادة، فقال عليه السلام: أما الزيادة فلا...**[2] ومنهم من أجاز بأكثرمن ذلك، وهو الأظهر،وأما عند من يجوز، فإن الحسن وابن سيرين قالا: لا يجوز إلا عند السلطان، وقال فقهاء الأمصار: يجوز، لأن ظاهر الآية لم يعرف، ومن قرأ (تخافا)، فخطاب لهما، لأنهما أعرف بأحوالهما من غيرهما هل يقيمان أو لا يقيمان؟.

فإذا قريء (تخافا)[3] على مالم يسم فاعله، فالخطاب للحاكم، والمفتي بأن لا يحل أن يحكم للزوج

١ - سورة النساء الآية : (٢٠).

٢ - الحديث أخرجه الدار قطني في سننه - ج :٣- ص٢٥٤ ، ص ٢٥٥ وأورده القرطبي في تفسير قوله تعالي : (ولايحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً) الآية : (٢٢٩) سورة البقرة . وذلك من حديث ابن جريج عن أبي الزبير أن ثابت بن قيس بن شماس كانت عنده زينب بنت عبد الله بن أبي سلول ، وكان أصدقها حديقة ، فكرهته ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « تردين عليه حديقته ويطلقك ، فقالت ، نعم وأزيده ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أما الزيادة فلا ، ولكن حديقته ، قالت نعم فأخذها له وخلى سبيلها » تفسير القرطبي - ج :٣-ص١٤٣ ، كما أخرجه السيوطي في الدر المنثور ج ١- ص٢٨٠ ، ٢٨١ ، وأخرجه الدارقطني في سننه - ج :٣- ص٢٥٤ ، ص٢٥٥.

٣- قرأ حمزة وأبو جعفر ويعقوب بن الاعمش، وأبو عبيد: (أن يخافا) بضم الياء وذلك كما في اتحاف الفضلاء- ص١٥٨، اعراب القرآن - لأبي جعفر النحاس-ج:١-ص٢٦٥ والإملاء - للعكبري - ج:١-ص٥٦، ومعجم القراءات القرآنية- ج: ١-ص ١٧٤، إعداد الدكتور/ عبد العال سالم مكرم والدكتور/ أحمد فتحي عمر - مطبوعات جامعة الكويت.

بالأخذ إلا إذا عرفوا ذلك منهما، والقراءة الأولى أجود، لأن هذاالمعنى استفيد من قوله: (فإن خفتم)..

إن قيل: لم رفع الجناح عنهما وذلك يجب أن يرفع عن الزوج الذي يأخذه؟ قيل: لأن من الدفع ما يؤثم الأخذ والدافع كالربا، ومنه ما يؤثم أحدهما، فبين أن الجناح مرفوع عنهما،وليس ما قال الفراء أنه لا جناح على أحدهما، فنسب إليهما، كقوله تعالى: ﴿**يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ**﴾[(١)] بشيء، وذكر أن كل ما بينه حدود الله، ولا يجوز تعديها، فإن من تعداها ظالم يستحق ما يستحقه..

قوله - عز وجل :

﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يَتَرَاجَعَا إِن ظَنَّا أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ الآية (٢٣٠)- سورة البقرة .

هذا الحكم متعلق بقوله: (الطلاق مرتان)، وقد فصل بينهما بحكم الخلع وكيفية جوازه، فلما فرغ منه رجع إلى حكم الطلاق، فقال: (فإن طلقها) أي بعد الثنتين فلا تحل له أو لا يجوز أن يتزوج بها حتى تنكح زوجاً غيره،وبين أن ليس للإنسان أكثر من ثلاث تطليقات، والنكاح الذي يحلها للزوج الأول ظاهره يقتضي العقد، وإليه ذهب سعيد بن المسيب وأهل الظاهر، **لكن قد ورد عن النبي- عليه السلام- ما اقتضى معه الوطء حيث قال: «لا حتى تذوقي عسيلته**[(٢)]**،ويذوق عسيلتك»**،وقيل: حكمة الله -عز وجل- في تحريمها عليه إلا بعد أن تتزوج زوجاً آخر الردع إلى التسرع في الطلاق، ولهذا دعا أن يتأنى في تطليقها، فيطلقها للعدة طلقةً بعد طلقةٍ، ونبه على ذلك بقوله: ﴿**لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا**﴾[(٣)].

---

١ - سورة الرحمن : الآية (٢٢).

٢ - أخرجه البخاري من حديث عائشة في كتاب الطلاق ج : ٦- ص١٨٢ ، كما أخرجه الإمام أحمد في مسنده من حديث عائشة - ج : ٦- ص ١٩٣ ، وأخرجه عبد الرازق في مصنفه - حديث رقم ١١٣٥ ، وأخرجه الألباني في إرواء الغليل - ج : ٦- ص ٢٩٧ وأخرجه الشافعي في مسنده - ص ٢٣٥ ، ٢٩٤.

٣ - سورة الطلاق : الآية (١).

ثم قال: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾ يعني الزوج الثاني، ﴿فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾، أي لا جناح أن يتزوج بها على شرط أن يظن أن يقيم حدود الله ، وعلق بالظن، لأن ما يكون من الإنسان في المستقبل من الممكنات لا سبيل إلى معرفته إلا بالظن، وليس شرطاً في صحة النكاح، بل في إباحته ورفع المأثم، لأن العقد صحيح، فإن ظنا أن لا يقيما حدود الله، وبين أن تلك الحدود بينها لقوم يعلمون- تنبيهاً أنهم هم الذين يتبينونها ،لقوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾[1].

قوله - عز وجل :

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

الآية (٢٣١)- سورة البقرة.

هذه الآية ظاهرها إعادة حكم ما تقدم، وأنه يجوز مراجعتها بعد انقضاء العدة، وقد فسرت تفسيرين، أحدهما أن الأولى حكم جواز الرجعة بعد التطليقة والتطليقتين، وتحريم الرجعة بعد الثالثة، وهذه تقتضي جواز رجعتها ما دامت في العده لا عن الطلاق الثالث، وفيه زيادة حكم وإن كانت تقتضي بعض ما أفادت الأولى، وهي ما ذكر معها من الأحكام، وقوله ﴿فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ مشكل، لأن المراجعة ثابتة قبل انقضاء العدة، وظاهر هذا يقتضي أن المراجعة بعد انقضاء العدة، ووجه ذلك أن الأجل هاهنا زمان العدة لاتمام العدة، وأيضاً، فإنه يقال إذا فعلت كذا ويعني إذا خصت لا إذا فرغت منه، نحو: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾[2] ، فقوله: فبلغن أي: حضن في زمان بلوغ الأجل، وأيضاً فقولهم: (بلغ) يقال لما شارف وإن لم ينته، فيقول: إذا طلقتم وشارفن الأجل، فأمسكوهن، إن قيل: ولم خص المشارفة، وقيل المشارفة هذا حكمه، قيل: لما كانوا يطلقون المرأه فيتركونها حتى تشارف انقضاء

---

١ - سورة يس - الآية : (١١) .

٢ - سورة الأنعام - الآية : (١٥٢).

العدة، ثم يراجعونها إضراراً بها، خص ذلك بالذكر، والثاني من التفسيرين أن الآية فيمن طلق امرأته تطليقة، وتركها حتى تنقضى عدتها، ثم يريد التزوج بها، وذاك أنه ذكر فيما قبل حكم الخلع، وحكم ما تصح مراجعته، ومالا تصح، وما يحتاج أن يتعاطاه المراجع، وذكر في هذه الآية حكم المطلقة تطليقة وقد انقضت عدتها ،فقال: إذا طلقتم تطليقة، ﴿فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾، أي انقضت عدتها، فأمسكوهن أي تزوجوا بهن على حكم الله أو اتركوهن على حكمه..

إن قيل:كيف يصح أن يعبر عن التزويج بالإمساك؟قيل: إنما استعمل الإمساك في هذا للتزوج، لأنه كان بعد أن كانت تحته، وقبل أن يملكها غيره، فقال: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ﴾ تنبيهاً على هذا المعنى، أو ﴿سَرِّحُوهُنَّ﴾، أي أفرجوا عنها، ولا تخطبوها، قال: والذي يدل على هذه الآية التي بعدها، فإنها نزلت فيمن خطب امرأة كان قد طلقها تطليقة، فانقضت عدتها، فمنعت إياه، فأوصى تعالى الخاطب في هذه أنه إن أراد أن يمسكها بإعادة نكاحها، فليستعمل المعروف، وإلا فليحلها، وجل المفسرين على المعنى الأول، إن قيل: لم علق التسريح هاهنا بمعروف وفي الأول بإحسان؟ قيل: إنه لما أعيد ذكر الرجعة علق التسريح بالمعروف تنبيهاً أنه إن لم تراعوا في تسريحها الإحسان، فراعوا فيه المعروف، كما قال بعض الناس لسلطان: «**إن لم تحسن فعدلاً**»، وقوله: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ﴾ قيل: معناه:لا تهزؤا بها، ولا تحسبوها عبثاً، نحو:﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ﴾(١)، وقيل: معناه: لا تعملوا بخلافها، فتكونوا كالهازئين بها، وقال أبو الدرداء: «**كان في أول الإسلام يطلقون ويعتقون، ثم يقولون: كنا نلعب**»، والإشارة بالآية إليه، وقال عليه السلام- «**ثلاث جدهن جد، وهزلهن جد ، النكاح، والطلاق، والعتاق**» (٢) وحث على معرفة نعمه وما أنعم عليهم بالكتاب والحكمة.. إن قيل: كيف أفرد الكتاب والحكمة عن النعمة وهي أفضل النعم وأجلها؟ قيل: لأمرين، أحدهما: أن النعمة في تعارف الخاصة والعامة هي كثرة في المال، وصحة في البدن وسائر الزين الدنيوية، ولا يعرف الكتاب والحكمة نعمةً إلا أولوا الألباب، والثاني: أفردهماالتخصيص والتفصيل كإفراد جبريل وميكائيل عن الملائكة.

---

١ – سورة الدخان : الآية (٣٨).

٢ – أخرجه السيوطي في الدر المنثور – ج : ٦ ص٢٨٦ ، وأخرجه الترمذي في سننه في كتاب الطلاق – باب ماجاء في الجد والهزل في الطلاق ح رقم ١١٨٤ وأخرجه أبو داود في كتاب الطلاق – باب في الطلاق على الهزل – رقم ٢١٩٤، وأخرجه ابن ماجةَ في كتاب الطلاق – باب : من طلق أو نكح أوراجع لاعباً حديث رقم : ٢٠٣٩.

قوله - عز وجل :

﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ الآية (٢٣٢)-سورة البقرة.

العضل المنع مع تضييق، يقال: عضلت الدجاجة ببيضها، والمرأة بولدها، وعلى طريق الاستعارة قال:

تَرَى الأَرْضَ مِنَّا بِالفَضَاءِ مَرِيضَةً
مُعَضِّلَةً مِنَّا بِجَمْعٍ عَرَمْرَمِ[1]

ومنه : داءٌ عضالٌ،

والعضلة الدامية، والعضلة لحمٌ مكتنزٌ في عَصَب، وبلوغ الأجل هاهنا لاستيفاء العدة، ولما بين تعالى بالآيات المتقدمة ما يجب على كل واحد من الزوجين لصاحبه في النكاح،وعند المراجعة والفدية والفراق والطلاق عدل إلى بيان ما يلزم الولي، وما يحرم عليه في تزويجها وإنكاحها، **وقيل : ﴿فَلا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ خطاب للأختين، وعضلها أن يراجعها إضراراً بها، والصحيح أنه خطاب للأولياء، بدلالة** ما روي: **أن الآية نزلت في معقل بن يسار وكانت أخته تحب ابن عمٍّ له، فطلقها طلقة فلما انقضت عدتها خطبها، وهي تريد أن ترجع إليه، فقال معقل:** و الله لا أزوجها أبداً، فأنزل الله تعالى هذه الآية، فدعاه النبي -عليه السلام، فتلاها عليه، فقال: «**سمعاً لربي وطاعة**»،[2] والحكم الوارد في سبب

١- البيت لأوس بن حجر ، وهو في ديوانه ص ١٢١ ، وأساس البلاغة ص ٣٠٨، ومفردات ألفاظ القرآن - ص ٥٧١.

٢- أورده السيوطي في أسباب النزول ، وذكر مارواه البخارى وأبو داود والترمذي وغيرهم عن معقل بن يسار أنه زوج أخته رجلاً من المسلمين فكانت عنده ، ثم طلقها تطليقة ولم يراجعها حتي انقضت عدتها ، فهويها وهويته فخطبها مع الخطاب ، فقال له : يالكع أكرمتك بها وزوجتكها فطلقتها ، والله لاترجع إليكم أبداً ، فعلم الله حاجته إليها وحاجتها إليه ، فأنزل الله : (وإذا طلقتم النساء فبلغن) إلي قوله : (وأنتم لاتعلمون). فلما سمعها معقل قال : سمعاً لربي وطاعة، ثم دعاه وقال : أزوجك وأكرمك : أخرجه ابن مردويه من طرق كثيره ثم أخرج عن السدي قال : نزلت في جابر بن عبد الله الأنصاري ، وكانت له ابنة عم فطلقها زوجها تطليقه فانقضت عدتها ، ثم رجع يريد رجعتها ، فأبي جابر فقال : طلقت ابنة عمنا ، ثم تريد أن تنكحها الثانية؟ وكانت المرأة تريد زوجها قد راضته ، فنزلت هذه الآية ، والأولي أصح ، وهي الأقوى . أسباب النزول - السيوطى - ص٣٣, ٣٤.كما أورده ابن حجر العسقلاني في فتح البارى : في كتاب التفسير من حديث معقل بن يسار فيما رواه عنه إبراهيم عن يونس عن الحسن - فنزلت الآية : (فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن) . فتح البارى بشرح صحيح البخارى . ج : ١٢-ص٥١٥.

لا يصح أن يكون السبب خارجاً عنه وإن أريد معه غيره، واختلف في هذاالعضل، فعند الشافعي لما كان نكاح المرأة بكراً كانت أو ثيباً لا يصح إلا بالولي، صار في منعها عن أكفائها،وعند أبي حنيفة لما كان يصح للثيب أن تتزوج بنفسها، صارفي الاعتراض علتها في سبب المهر والكفاءة، قال: والآية تدل أن لها التزوج بنفسها، لأنه قال: ﴿أن ينكحن﴾ فنسب النكاح إليهن، وقال أصحاب الشافعي: إنما نسب إليها، لأنه لا يصح إلا برضاها ، وكل من لا يتم الفعل من دونه، يصح أن يُنسب ذلك الفعل إليه، وأما المعروف المتراضي به في قوله تعالى: ﴿إذا تراضوا بينهم بالمعروف﴾ فعامٌ في كل ما يرجع إلى العقد، لقدر المهر وما يظهر من الرعية وخلافها، وما يعاون الزوجية مما صححها، وفي كل ما يرجع إلى حقوق الزوجية، فالزم الولي أن لا يعضلها إذا تراضوا بما هو معروف، وقوله تعالى: ﴿ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله﴾ فخص المؤمنين بالوعظ، وهو أنه يريد حصول الاتعاظ، وليس ذلك إلا للمؤمنين، وقوله: ﴿ذلكم أزكى لكم وأطهر﴾ زكاة الإنسان وطهارته في حقيقة كونه بحيث يستحق في الدنيا الأوصاف المحمودة، وفي الآخرة عظيم المثوبة، وأن يصلح في الآخرة لمجاورة الملأ الأعلى، بل مجاورة الله-عز وجل- : ولهذا قال:﴿قد أفلح من تزكى﴾[1]، وقال: ﴿قد أفلح من زكاها﴾[2]، وجعل تعالى الدلالة على أن ذلك أزكى وأطهر أنه قد حكم بذلك وهو عالم بالأشياء كلها وأنتم غير عالمين بها، فإذا علم وحكم فحق عليكم أن تقبلوا منه حكمه، إن قيل: لم قال: ﴿ذلك يوعظ به﴾، ثم قال: ﴿ذلكم أزكى﴾؟

قيل: في ذلك أجوبة..

أحدهـــا:

أن كاف الخطاب مع (ذا) تارةً تفيد الخطاب، فيراعى فيه المخاطبون فيثني، ويجمع، ويؤنث بحسبهم، وتارة يعتبر به الفرق بين القريب والبعيد، فيقال: (ذا) لما يتصور قريباً، و(ذاك) لما يتصور بعيداً، فلا يثنى ولا يجمع، فعلى هذا: (ذلك)، و(ذلكم).

---

١ - سورة الأعلى : الآية (١٤).

٢ - سورة الشمس : الآية : (٩).

والثاني أن الكاف الأولى خطاب للنبي - عليه السلام، والثانية للكافة، وعلى هذا قوله: **﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾**[1] وفائدة ذلك أن قوله: (ذلك) إشارة إلى حقائق ما تقدم، ولا يكاد يتصوره إلا هو - عليه السلام-، ومن يدانيه من أولياء الله - عز وجل-، وذلك إشارة إلى العمل، والعمل به يتشارك فيه كافة المسلمين، والثالث: أن خطاب الجمع تارة يعتبر بلفظ مفرد، فيفرد خطابهم نحو بهذا القبيل: "**فعلتُ كذا**"، وتارة يعتبر معنى الجمع، فيقال: فعلتم فعلى هذا، لو قيل في الأول: (ذلكم)، وفي الثاني (ذلك) لصح، أو قيلا بلفظٍ واحدٍ لصح.

قوله - عز وجل:

﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

الآية (٢٣٣)- سورة البقرة .

الرضاع أصل، وعنه استعير "**لئيم راضع**" لمن تنامي لؤمه وإن كان ذلك في الأصل ممن كان يرضع غنمه، لئلا يسمع صوت شخبة، لكن تعورف في اللؤم، حتى قيل: "**رضع فلان أي لؤم**"، وسمي الثنيتان الراضعتين، لاستعانة الصبي بهما في الرضع، (وكسوتهن) عن الكسوة استعير: اكتست الأرض بالنبات، وكسوته ثناءً أو هجاءً ، وصار الكساء لضربٍ مخصوص من الثياب. والتكليف أصله فيما جعلت به الإنسان كلفاً، وصار في التعارف لما ألزمته وأكلفته بكذا جعلته كلفاً به، والكلف بالوجه لتصوره كلفه به، والميراث أصله فيما أصبته من غيره حياً كان الموروث منه أو ميتاً، لكن صار في التعارف اسماً لما يخلفه الميت من المال، والفصل ضد الوصل كالفضل، واستعماله في قطع الرطب من النبات، ومنه الفضيل، يقال: فصلت بين الكلام والعقد، وفي القضاء، وسمي الفطام فصالاً للفصل

---

١ - سورة الطلاق : الآية (١).

بين غذائي الصبي،وتعورف الفصل في السقب[١] والتشاور لاستخراج الرأي من الغير، من شُرْت العَسَلَ، (وشورت الفرس) استخرجت جربه وأشرت إليه بكذا، أي أخرجته بالإيماء من بين مايشاكله، وسمي الإصبع مشيرة، لكونها ذات إشارة، كما سميت مسبحة وسبابه، وسميت السنة حولاً، لانقلابها في فصولها وشهورها، ودوران الشمس في مطالعها ومغاديها، وذكر جماعة من الفقهاء أن قوله ﴿ **وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ** ﴾ أمر وإن كان لفظه خبراً، لأنه لو كان خبراً لم يقع مخبره بخلافه، وهذه قضية إنما تصح في كل خبر لفظه لا يحتمل التخصيص، فأما إذا كان عاماً يمكن أن يخصص على وجه يخرج من كونه كذباً، فادعاء ذلك فيه ليس بواجب، وهذه الآية مما يمكن ذلك فيه، ثم ذلك لو كان أمراً لكان أمراً للوالدات، وقد علم أن الأم وإن لم تكن مكلفة فهي أحق برضاعها، فإن قيل: فإذا لم يكن أمراً فما وجهه؟

قيل أخبر الله تعالى أن حكم الله في ذلك أن الوالدات أحق بإرضاع أولادهن سواءً كانت في حبالة الزوج أو لم تكن، فإن الإرضاع من خصائص الولادة، لا من خصائص الزوجية، ولهذا قال عليه السلام: في الأمر إنها أحق بالولد مالم تتزوج، وإنما ذكر (كاملين) لأنه قد يقال: "**فلان فعل كذا سنتين**" وإن كان ذلك في سنة وبعض الأخرى، وكذا يقال: شهرين ويومين، فأريد إزالة هذه الشبهة، وقال الفقهاء: لما جعل الرضاع حولين، وقال في موضع: ﴿ **وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا** ﴾[٢]، نبه على أن الولد قد يولد لستة أشهر، وفيه تنبيه على لطيفة، وهو أن الولد متى كان زمان حمله وفاصله أقل من ثلاثين شهراً أضر ذلك به، فإذا ولد لسبعة أشهر لم يضره أن ينقص رضاعه عن الحولين، وجعل ابن عباس ذلك حكماً شرعياً، وقال: يجب أن يكون الحمل والرضاع هذا القدر، وقوله تعالى: ﴿ **لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ** ﴾ أي هذا التوقيت ليس بفرض، لكن لمن أراد إتمام الرضاعة، وفيه تنبيه أنه لا يجوز تجاوز ذلك وأن لا حكم للرضاع بعد الحولين، ويقويه ما روي جابر أنه قال عليه السلام:

---

١ - السقب هو ولد الناقة الذكر ساعة يولد، والسقب، القرب، ويقال منزل مسقب أي قريب، وفي الحديث، «الجار أحق بسقبه»، والجمع أسقب، وسقوب، وسقاب، وسقبان، المعجم الوسيط- مادة سقب.

٢ - سورة الأحقاف : الآية (١٥).

«**لا رضاع بعد الحولين**»[1] وعلى هذا يحمل قوله: «**الرضاعة من المجاعة**». ويؤكده أن كل حكم في الشرع علق بعدد مخصوص يجوز الإخلال به في أحد الطرفين لم يجز الإخلال به في الطرف الآخر، كخيار الثلث، وعدد حجارة الاستنجاء، والمسح على الخفين يوماً وليلةً أو ثلاثة أيام، فلما كان الرضاع يجوز الإخلال به في أحد الطرفين، وهو النقصان لم تجز مجاوزته، وقوله: (وعلى المولود له..)، أي الأب، وفائدة تخصيصه بهذا الوصف دون لفظ الأب تنبيه أن الابن في الحكم للأب، وأن حظ الأم فيه يقل، وعلى ذلك دل الشاعر:

وإنما أمهات الناس أوعيةٌ

مستودعات وللأحساب آباء[2]

وبين تعالى أن رزق المرأة المرضعة، أي طعامها وكسوتها على الأب إذا أرضعته زوجةً كانت أو مطلقةً، وفيه تنبيه أن سائر نفقة الولد، على الأب لكن أجمعو أن الولد إذا كان له كفاية، فللأب أن لا ينفق عليه، وقوله: بالمعروف تنبيه، على أن النفقة بقدر اليسار والإعسار، وجعل ذلك مؤولاً إليهم وإلى الحكام، ولم نجد فيه حداً لاختلاف الناس وقدر الازمنة والأمكنة والسن، وأكد ذلك بقوله: **﴿لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إلاَّ وُسْعَهَا﴾** فلم يسم الفاعل، وقال في أخرى: **﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إلاَّ مَا آتَاهَا﴾**[3]، قيل : هذا التكليف فيه مدخل للحكام، ولغيرهم فجعل لفظه منهما في موضع، ومعناه لا يجوز تكليفه إلا وسعه، وقوله: **﴿لا تُضَارَّ﴾** حمل على الجبر، وعلى الأمر، فأما إذا حمل على الجبر فهو تنبيه على ما بني

---

١ - الحديث أخرجه الزيلعي في نصب الراية - ج : ٣- ص٢١٨ ، وعلق عليه بقوله : قلت أخرجه الدار قطني في سننه عن الهيثم بن جميل عن ابن عينية عن عمرو بن دينار عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لارضاع إلا ماكان في الحولين ورواه مالك في الموطأ عن ثور بن يزيد عن ابن عباس موقوفاً ، وأخرجه الدار قطني موقوفاً علي عمرو قال : « لارضاع إلا في الحولين في الصغر » . انظر : نصب الراية - ج : ٣- ص٢١٨ ، ٢١٩ . الطبعة الأولي - ١٩٣٨.

٢ - البيت لم أهتد إلي قائله وقبله :

لاتزر بين فتى من أن يكوم له ... أم من الروم أو سوداء عجماء

هو في الشوارد لعبد الله بن خميس ج : ١-ص٣٧.

٣ - سورة الطلاق : الآية (٧).

تعالى عليه الغرائز في محبة الأبوين للولد وميلهما إليه، وإيثارهما له على أنفسهما، وليس ذلك في الإنسان فقط، بل في عامة الحيوانات، وذلك متقرر في النفوس حتى زعم الناس أن الهرة تأكل ولدها محبةً لهم، فأخبر تعالى عما بني الطباع عليه تنبيهاً لكل واحد من الأبوين أن لايتهم الآخر في ولده إذ قد يبلغ من شغف كل واحد منهما أن لا يأمن الآخر عليه، وقدم نفقة الأم لفرط شفقتها على شفقة الأب، وذلك بالعلات ظاهر، ثم باعتبار حال الحيوان يظهر ذلك ظهوراً بيناً، وذلك أن الحيوانات المتوالدات على ضربين، ضربٌ يجتمع الأبوان على تفقد الولد، وضربٌ تنفرد الأم به دون الأب، فالأم لا تنفك من تفقد الولد في جميع ذلك، فدل ذلك أن الله ركز في نفوس الأمهات من الاشفاق أكثر مما ركز في الآباء، وقوله: ﴿ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ ﴾ على هذا التقدير معناه عليهم أن يجروا مجراهم، وذاك أنه لما عرف من غرائزِ الأقارب التحاسد بخلاف ما بين الأبوين والأولاد، حتى قيل: إن الأقارب كالعقارب، بل أضَر من العقارب، نبه أن حق الأقارب أن يجروا مجراهم في شفقة البعض على البعض، إذ بينهم من النسائك، والنماذج قريبٌ مما بين الوالدين والولد، وأما إذا حمل على الأمر، فنهى أن يفعل كل واحدٍ من الأبوين ما يؤدي إلى مضرة الولد يكايد صاحبه، أو يضرب من النظر الفاسد، فمن المفسرين من حمل ذلك على ما تقدم ذكره، وأن الوالدة منهية عن المضارة المتعلقة بالرضاع، والمولود له منهي عن المضارة فيما يلزمه من النفقة والكسوة، ومنهم من جعل ذلك عاماً في كل ما يعود بضررٍ على الولد من تربيته وتأديبه وتهذيبه، وغير ذلك مما يكثر حصره، وقوله: ﴿ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ ﴾ منهم من حمل ذلك على وجوب إزالة المضارة، ومنهم من حمل عليه وعلى وجوب النفقة، واللفظ محتمل لها.

وقوله: ﴿ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً ﴾ أي فطاماً قبل الحولين، وقيل: عنى بالفصال المفاصلة عن الوالدة أو الوالد إذا تراضيا بذلك وسلمه أحدهما إلى صاحبه، وعلق ذلك بالتراضي منهما والتشاور لئلا يقدم أحدهما عن غيره إلى ما يضر بالولد، ونبه بذلك أن كل أمرٍ مبهم العاقبة، فالوجه فيه الإقدام عليه بعد إجماع الآراء والاستشارة، وقوله: ﴿ وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلادَكُمْ ﴾، أي إذا امتنعت الأم أو

تزوجت، فلا جناح عليكم في استرضاع غيرها. (إذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف)، أي سلمتم إلى المطلقة حقها، وقيل: إذا أتيتم المسترضعة أجرتها، وإذا قريء (ما أتيتم) بالقصر[1]، فمعناه: إذا سلمتم ما تعاقدتم عليه، وفيه دلالة على جواز الاستئجار على الرضاع، وعلى جواز عقد الإجارة جملة، وختم الآية بالحث على تقواه، وتصور علم الله عز وجل- بكل ما آتاه الإنسان وتحراه، ومن قرأ (لا تضارُّ) بضم الراء[2]، فلفظ مشتبه الآية يصلح الأمر على تقدير: (لا يُضَارِرْ) ولكن أدغم، فضم الراء لالتقاء الساكنين، ويصلح أن يكون على تقدير (لا يضارر) على الإخبار، وأن يكون على تقديره "**لا يُضارَرْ**" على مالم يسم فاعله، وإذا قرئ بفتح الراء، فليس إلا النهي على تقدير (لا يضارر) وإن كان لفظه محتملاً أن يكون نهياً عن مضارة الأم، كقولك: "**لا يضرر زيد**"..

قوله - عز وجل :

﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾

الآية (٢٣٤)- سورة البقرة .

هذه الآية ناسخة[3] لقوله تعالى: **﴿ وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ﴾**[4] وإن كانت

---

١ - قرأ (ما أتيتم) بالقصر كل من ابن كثير، ومجاهد، وقرأ الباقون بعدم القصر. انظر: معجم القراءات القرآنية -ج: ١-ص١٨٠.

٢ - قرأ : (لاتضار) بالرفع ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب ، وقرأ أبو جعفر بسكونها مخففة والباقون بفتح الراء . انظر : إتحاف فضلاء البشر فى القراءات الأربع عشر للدمياطي - تحقيق : الضباع - طبع مصر ، وانظر الحجة للفارسي - ج : ٢- ص٣٣٣ ، وأوردها الراغب في مفردات ألفاظ القرآن - ص ٥٠٤.

٣ - يرى الدكتور مصطفى زيد أن هذه الآية من بين الآيات التي اشتهرت بأنها منسوخة وهي ليست كذلك، لأن الآية الأولى، تتحدث عن واجب الزوجة التي توفي عنها زوجها وأما الثانية تتحدث عن حق هذه الزوجة، كما أن أسلوبها يؤكد أن ما تشرعه حق لهن وليس واجباً عليهن، وذلك أنها تقرره على أنه وصية لهن، وعلى أنه متاع لهن إلى الحول، ثم تمنع إخراجهن، إذ تقول (غير إخراج)، ثم تزيد هذا المنع تأكيداً، إذ تقول: (فإن خرجن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن من معروف). وكما أن من البديهي أن الحق لا يعارض الواجب - فإن من البديهي أن لا تعارض آية تقرر الحق مع آية تقرر الواجب، وحيث انتفى التعارض بين ما تقرره الآيتان فلا مجال لإدعاء أن إحداهما منسوخة بالأخرى، النسخ في القرآن الكريم- الدكتور مصطفى زيد-ج، ٢-ص٧٧٨إلى ص ٧٨١.

٤ - سورة البقرة- الآية : (٢٤٠).

مقدمة عليه في التلاوة،[١] وظاهر الآية يقتضي تسوية الحكم في الحرة والأمة، كما قال الأصم، لكن السلف فرقوا بينهما ويقتضي أن لا فرق بين المسلمة والذمية كما قال الشافعي دون أبي حنيفه، وهذا الحكم فيمن لا تكون ذات حمل متفق عليه، فأما في ذات الحمل، فقد قال عمر وابنه عبد الله وزيد: إن عدتها أن تضع حملها، وقال الحسن: هي أن تضع حملها، وتطهر من نفاسها، وقال علي: عدتها أقصى الأجلين من وضع الحمل، ومضى الشهور. وقد روت أم سلمة أن سبيعة بنت الحارث ولدت بعد وفاة زوجها بأربعين ليلة، فأمرها رسول الله ﷺ بأن تتزوج[٢]، واختلف في الوقت الذي يعتد به من العدة، فقال ابن مسعود وابن عباس وابن عمر: **"تعتد به من يوم يموت"**، وعليٌّ والحسن: **"من يوم يأتيها الخبر"**، وقال الشعبي: إذا قامت البينة على موته، فالعدة من يوم يموت، وإلا فمن يوم يأتيها الخبر، والصحيح أنه يعتبر من يوم الوفاة فيه وقع الفرقة، كعدة المطلقة، وكاستحقاقها الميراث من يوم الوفاة، إن قيل: ما وجه تخصيص عدة المتوفاة بهذه المدة؟ قيل: قد ذكر الأطباء أن الولد في الأكثر إذا كان ذكراً يتحرك بعد ثلاثة أشهر، وإذا كان أنثى، فبعد أربعة أشهر، فجعل ذلك عدتها، وزيد عشرةً استظهاراً، وتخصيص العشره بالزيادة لكونها أكمل الأعداد وأشرفها لما تقدم في قوله تعالى:

---

١ - أورد ابن حجر العسقلاني في فتح الباري حديث أمية بن بسطام ، عن يزيد بن زريع عن حبيب ، عن ابن أبي مليكة : قال ابن الزبير : قلت لعثمان بن عفان : (والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً) قال : قد نسختها الآية الأخرى فلم نكتبها أو تدعها ؟ قال: ياابن أخي ، لا أغير شيئاً منه من مكانه .
فتح الباري بشرح صحيح البخاري ج :١٢ - ص ٥١٦، ٥١٧، ٥١٨، ٥٢٩.

٢- أورد ابن حجر العسقلاني في فتح الباري قال : جاء رجل إلى ابن عباس وأبو هريرة جالس عنده فقال : أفتني في امرأة ولدت بعد زوجها بأربعين ليلة ، فقال ابن عباس : آخر الأجلين . قلت أنا (وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن) قال أبو هريرة : أنا مع ابن أخي يعني أبا سلمة . فأرسل ابن عباس غلامة كريباً إلي أم سلمة يسألها ، فقالت : قتل زوج سبيعة الأسلمية وهي حبلى ، فوضعت بعد موته بأربعين ليلة ، فخطبت ، فأنكحها رسول الله - صلي الله عليه وسلم ، وكان أبو السنابل فيمن خطبها ، كما أورده ابن حجر في كتاب الطلاق من حديث زينب بنت أبي سلمة عن أمها أم سلمة زوج النبي - صلي الله عليه وسلم : أن امرأة من أسلم يقال لها سبيعة كانت تحت زوجها توفي عنها وهي حبلي ، فخطبها أبو السنابل بن بعكك ، فأبت أن تنكحه ، فقال ، والله مايصلح أن تنكحيه حتي تعتدي آخر الأجلين فمكثت قريباً من عشر ليال ، ثم جاءت النبي - صلي الله عليه وسلم فقال انكحى كما أورد ابن حجر العسقلاني مارواه البخارى من حديث يحيى بن بكير عن الليث عن يزيد : أن ابن شهاب كتب إليه أن عبيد الله بن عبد الله أخبره عن أبيه : أنه كتب إلى ابن الأرقم أن يسأل سبيعة الأسلمية كيف أفتاها النبي - صلي الله عليه وسلم ، فقالت: أفتاني إذا وضعت أن أنكح .، كما أورده البخاري من حديث هشام بن عروة عن أبيه عن المسور بن مخرمة أن سبيعة الأسلمية نفست بعد وفاة زوجها بليال ، فجاءت النبي صلي الله عليه وسلم ، فاستأذنته أن تنكح فأذن لها فنكحت .
انظر : فتح الباري بشرح صحيح البخاري ج : ١٤ ص ٥٠، ٥١، ٥٢، ٥٣، ج : ١٥ - ص ١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٠.

(تلك عشرة كاملة)، وقوله: (والذين) هو مبتدأ، وفي خبره إشكال، فإن قوله: (يتربصن) إخبار عن الأزواج لا عن الذين، وليس فيه ضمير يرجع إلى المبتدأ، وقد ذكر في ذلك أربعة أجوبة..

الأول: تقديره: يتربصن بعدهم، وذلك عن المبرد، والثاني: أن الضمير في: (يذرون أزواجاً) أي أزواجهم، ويتربصن عاد إلى الأزواج، والضمير إذا عاد إلى المضاف إليه كان في حكم ماعاد إلى المضاف، وذلك مثل قولهم:

(من مات وحلف يتبين الثلثين)، وذلك عن الزجاج، وعلى هذا يجب أن يجوز: (صاحب الدار انهدمت)، والثالث: عُدل عن الإخبار عن الأزواج، لأن المعنى عليه، والفائدة فيه، والقصد إليه، وذلك عن الكسائي والفراء،وأنشد في ذلك :

لعلي إن مالت بي الريح ميلة   على ابن أبي ذبان أن يتندما [(١)]

فسكت عن ذكر خبر لعل، والرابع: تقديره: (ويذرون أزواجاً يتربصن) فيكون أزواجهم مبتدأ-، ثانياً: (ويتربصن) خبره، لكن حذف المبتدأ الثاني إيجازاً لما لم يشتبه المعنى، وإنما قال عشراً ولم يقل عشرة لتغليب التأنيث التذكير في باب التاريخ، وقال بعض النحويين: إن باب التأنيث غلب في باب العدد على عكس ما عليه حكم الباب، وعلى ذلك

«فطافت ثلاثا بين يوم وليلة. [(٢)]

١- البيت لثابت بن قطنة العتكي ، وأبو ذبان كنية عبد الملك بن مروان وكني بذلك لبخر كان به من أثر فساد كان في فمه ، ويعني الشاعر بابنه هشام بن عبد الملك والبيت في لسان العرب مادة « ذبب » ، ومعاني القرآن للفراء - ج : ١- ص ١٥٠ ، والبحر المحيط - ج : ٢- ص٢٢٢ والدر المصون في تفسير الكتاب المكنون - ج : ٢ ص ٤٧٦ ، وتفسير الطبرى - ج : ٥ ص ٧٧.

٢ - بحثت عنه فلم أجده.

قوله - عز وجل :

﴿ وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِن لاَّ تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلاَّ أَن تَقُولُوا قَوْلاً مَّعْرُوفًا وَلا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾

الآية (٢٣٥) - سورة البقرة .

الخطبة والخطبة كلاهما من المخاطبة، إلا أن بالضم خص لموعظة، وبالكسر لطلب المرأة، وإن كان في الأصل اسماً للحالة التي عليها الخاطب، والخَطْب: الأمر العظيم الذي يكثر فيه التخاطب، والكن جعل الشئ في الكن، والأكنان مثله، ولكن خص الأكنان بما تكنه الصدور، والكن ما يكنه البيت والثوب ونحوهما ، وسميت المتزوجة كالمحصنة كنة، والكنانة جعبة غير مشقوقة تكن سهامها ، والسر مما لم تشيعه مما في نفسك، واعتبر تارة مما يستنكف من إظهاره، فسمي غشيان المرأة به، والاعتبار بذلك.

قال الشاعر:

والستربون الفاحشات ولا تلقاك بون الخير من ستر[(١)]

وتارة اعتبر بصيانته، فسُمى المصون سراً حتى قيل:

فلان في سر قومه، والعقد يقال في الحبل وفي العهد واليمين والسميط والرمل المتداخل، و"**ناقة عاقد**" عقدت على رحمها بمنع الفحل عن نفسها ،والتعريض كالكناية، إلا أن التعريض أن تذكر ما يستفهم المقصود من عرضه، وليس بموضوع للمفهوم عنه لا أصلاً ولا نقلاً، والكناية:العدول عن لفظ إلى لفظ هو بخلف الأول ويقوم مقامه، ولهذا سمي الأسماء المضمرة في النحو الكنايات، والخوالف، والتعريض المفسح فيه هاهنا كل لفظ وإشارة تدل على النكاح لا بصريحه نحو أن يقول: أريد التزوج،

١ - قائل هذا البيت هو زهير بن أبي سلمي ، وذلك كما في الدر الفريد وبيت القصيد ج : ٥- ص ٢٤٢.

و"**ما شاء الله كان**"، و"**إنك لنافقة**"، ونحو ذلك، وقوله: **﴿ وَلَكِن لاَّ تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا ﴾**

قال ابن عباس: وابن جبير والشعبي ومجاهد: هو تصريح الوعد بالنكاح، وقال الحسن وجابر، الزني، وقال زيد بن مسلم لا تنكحوها في عدتها، واللفظ محتمل، ولكن الأظهر ما قال ابن عباس، لأن ذلك لم يستفد إلا بهذه الآية، فأما خطرالزنى ففي كل حال، والمنع عن التزوج بالمعتدة معقول من غير هذه الآية، ويصح حملها على كل ذلك، فقد نهينا عن جميعه، وقوله: **﴿ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ ﴾** أي لما علم رغبتكم فيهن وخوفكم أن يسبقكم إليهن غيركم، أباح لكم التواصل إلى مرادكم بالتعريض وليس النهي عن العزم نهياً عن حكم الضمير، فقد أباح لنا التعريض فضلاً عنه، وإنما عنى بت القول، وقوله: **﴿ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ ﴾** أي تنقضي العدة، والكتاب عبارة عن المدة المفروضة أو أريد حكم الكتاب، وقوله: **﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ ﴾** دل على معنيين ،أحدهما: ما في قوله: **﴿ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾**[1] ، والثاني : ما في قوله: **﴿ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾**[2] ، تنبيهاً أنه علم شرور أنفسكم، ثم حذرنا منه كقوله: **﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾**[3] ، ثم رجانا غفرانه، وسكن منا بما أنبأنا من حلمه بقوله: **﴿ أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾**، واللفظان: أعني **﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ ﴾**، وقوله: **﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾** حيث على ما وصف به أولياءه في قوله: **﴿ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ﴾**[4] .

---

١ – سورة طه : الآية (٧).

٢ – سورة يوسف : الآية (٥٣).

٣ – سورة آل عمران : الآيتان (٢٨، ٣٠).

٤ – سورة الإسراء: الآية (٥٧).

قوله - عز وجل :

﴿ لا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴾ الآية (٢٣٦)- سورة البقرة .

المقتر: الفقير، وأصله من ينال القتر، كما أن المترب والمرمل أصلهما من نال التراب والرمل،والقتار ما يحمله الريح من رائحة القدر على العثان[١] والغبار، فدخل قاتر خفيف، كأنه قتر في الخفة، وذلك لقولهم: هو في الخفة هباء، والقترة ناموس الصائد اعتباراً بأنه حافظ لقتار الإنسان أي ريحه، وذلك أن الصائد يجتهد أن يخفي عن الوحش ريحه فصلاً عن شخصه لئلا يند عنه، وأبي قرة لحيته صغيرة الجرم خبيثة الأثر، وتسميتها بذلك على حسب اعتقادهم أن الحية كلما ازدادت سنا وخبثا صغرت جرماً وجسماً ولهذا قال الشاعر:

دَاهِيَةٌ قَدْ صَغُرَتْ مِنَ الْكِبَرِ[٢]

وقال : **دُوَيْهِيَةٌ تَصْفَرُّ مِنْهَا الأَنَامِلُ**[٣]

فأتى بلفظ التصغير لما أراد تعظيم الوصف، وكثرة الماس والماسة في الكناية عن الجماع حتى صار كالصريح، والمتعة اسم لكل ما فيه تمتع أو انتفاع قدراً من الزمان، وعلى ذلك قوله: **﴿ وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾**[٤] ، وقول الشاعر:

إِنَّمَا نِعْمَةُ الْمَرْءِ مُتْعَةٌ وَحَيَاةُ الْمَرْءِ ثَوْبٌ مُسْتَعَارُ[٥]

---

١ - العثان: هو الدخان وأكثر ما يستعمل فيما يتبخر به، ويطلق على الغبار أيضاً المعجم الوسيط- مادة- عثن.

٢ - هذا شطر بيت للنابغة الذبياني وتمامه :-

داهية قد صغرت من الكبر كأنما قد ذهبت بها الفكر

وهو من قصيدة مطلعها : **صلٌ صفا لاتنطوى من القصر طويلة الإطراق من غير خفر**

والصل : الحية الدقيقة الصفراء ، والصفا جمع صفاة وهى الصخرة أو الحجر الأصم ، من غير خفر -أى من غير حياء أو خجل.

والبيت فى ديوان النابغة - ص ٧٥. ،

٣ - هذا عجز بيت للبيد ، وشطره : وكل أناس سوف تدخل بينهم دويهية تصفر منها الأنامل وهو في ديوانه - ص ١٣٢، والأنصاف في مسائل الخلاف - ص ١٣٩، وأمالي ابن الشجري - ج : ١ ص ٢٥، وشواهد الكشاف - ص ٤٨٢، والمفصل لابن يعيش - ج : ٥ ص ١٤ ،الدويهية : هي الموت ، والبيت للبيد بن ربيعة من قصيدته المشهورة التى مدح بها النعمان وهى أكثر من خمسين بيتاً أولها: **الا لاتسألن المرء ماذا يحاول أنحبٌ فيقضى أم ضلال وباطل؟**

شرح شواهد الكشاف - تاليف: محب الدين - إخراج: عبد الله بن خميس -ص٣٦١.

٤ - سورة يونس : الآية (٩٨).

٥ - البيت للأفوه الأودي والبيت بعده :

وصروف الدهر في أطباقه خلعة فيها ارتفاع وانحدار

انظر الشوارد - لعبد الله بن خميس - ج :١- ص٢٠٢.

لكن صارت المتعة في تعارف الشرع، لما تخص به المطلقة،واختلف الناس في المتعة، أواجبة هي أم غير واجبة، فإن وجبت، فلأي مطلقة تجب؟، وكم قدرها؟ وبأي الزوجين تعتبر؟ وأما وجوبها فعند ابن أبي ليلى ليست بواجبة على مطلق، بل إن شاء فعل، وإن شاء ترك، وقال علي: واجبة لكل مطلقة، وقال مالك وليث: لا يجيز عليها علي كل حال، وعند الشافعي المطلقات على ثلاثة أضرب، مطلقة قبل الفرض والمسيس، ولها المتعة قولاً واحداً، ومطلقة بعد الفرض والمسيس مفوضةً كاتبا، ومسمى لها، وفي وجوب المتعة لها قولان، وأما قدرها، فالصحيح أن لاحدّ له، وإن كان قد قال بعضهم للموسر خادم، وللمعسر خمار وجلباب ونحوهما من الثياب، وقال الشافعي: واستحسن بقدر ثلاثين درهماً، وأما اعتبار ذلك بأيهما، فقد قال أبو حنيفة بهما، والأظهر أنها تعتبر بالزوج لتخصيصه في الآية، وقوله (أو تفرضوا) تقديره أو لم تفرضوا، فهو معطوف على قوله: تماسوهن، وأوفى نحو هذا الموضع يفيد ما يفيد الواو على وجه، وذاك أنه إذا قيل: "**افعل كذا إن جاءك زيد أو عمرو**" يقتضي أن يفعله إن جاء أحدهما، ولا شك أنه يحتاج أن يفعله إذا جاءا جميعاً، لأنه قد جاء أحدهما وزيادة، وعلى هذا قال النحويون: "**جالس الحسين وابن سيرين**" يقتضي أنه إذا جالسهما، فقد امتثل، وعلى هذا قوله – عز وجل: ﴿**وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا**﴾[1] ، وقوله: ﴿**وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ**﴾[2] ، فظاهر الآية يقتضي أنه لم يكن مسيس أو لم يكن لها فرض أو لم يكن الأمران، فلها المتعة كالأمثلة المتقدمة، لكن لما حكم لمن فرض لها ولم يمس في الآية التي بعدها صار ذلك كالمستثنى عنه، فكأنه قيل: إذا طلقتموهن ولم يحصل الأمران الفرض والمسيس أو حصل المسيس، ولم يحصل الفرض، فمتعوهن إن قيل: ما في قوله ﴿**مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ**﴾ يقتضي الشرط، وذلك يوجب أن رفع الجناح عن المطلق بشرط عدم المماسة، وعدم الفرض، ومعلوم أن الجناح مرفوع عن المطلق، مسها، أولم يمسها، فرض أولم يفرض، فما وجه ذلك؟ قيل: القصد بالآية أن الجناح مرفوع بإعطاء المتعة، فكأنه قيل: لا جناح في طلاقها إذا متعها، ودل على ذلك بقوله: ﴿**وَمَتِّعُوهُنَّ**﴾، وقد علم أن الجناح غير مرفوع عمن لم تمتع إذا طلقها قبل الفرض والمسيس، وقوله: ﴿**عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ**﴾ أي قدرَ ما يحتمل حالاهما..

إن قيل: ما وجه تخصيص المحسنين في هذه الآية، والمقتر في قوله: ﴿**وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ**﴾[3] ، وهلا دل ذلك على أنه غير واجب إذ كان الواجبات من المشروعات لا يختلف فيها المتقي والمحسن وغيرهما، قيل: قد نظر بعض الناس هذاالنظر،وقال : لماكان الإحسان قد يكون لما يزيد على الواجب، وقد خص بذلك المحسنين دل على أن ذلك حث على المعروف لا إيجاب، وقال أكثرهم: إن ذلك للمحسنين والمتقين لا لتخصيص الإيجاب، بل للتأكيد، وأنه من تمام الإحسان والتقوى، كما أن قوله: ﴿**هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ**﴾[4] ليس بتخصيص أنه لا يهدي به إلا المتقين، لكن يبينه على أن الاهتداء به من تمام التقوى.

---

١ – سورة الإنسان : الآية (٢٤).

٢ – سورة المائدة : الآية (٦).

٣ – سورة البقرة : الآية (٢٤١).

٤ – سورة البقرة : الآية (٢).

قوله - عز وجل :

﴿ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

الآية : (٢٣٧) - سورة البقرة .

النصف كل واحد من الجزئين المتساويين من مقدار واحد، وتصور منه القسمة المستوية، فسمي العدالة نصفاً والنصف بين المسنة، والصغيرة كأنها هي التي استوفت نصف العمر والناصف الخادم المبالغ في الخدمة كأنه ينصف صاحبه أي في الخدمة بقدر ما يستوفى عنه من المنفعة، والنصيف للخمار بين الصغيرة والكبيرة، والمنصف ما أعيد إلى النصف بالصبح، والنصيف ضرب من المكيال، لكونه عادمها، أو كونه بين بين.. (والذي بيده عقدة النكاح)، قيل: هو الولي الذي كان ما لكان للعقد في الأصل وقيل الزوج الذي هو مالك للعقد في الحال، وهو أولى، لأن الولي يملك العقد، والزوج هو الذي يملك العقده لأن العقدة اسم للمفعول كضحكه وهزأه، وعفو المرأة أن تترك المهر أو تسامح، وعفو الزوج أن يوفيها كله أو فضلاً عما تستحقه من النصف فإن قيل جعل الذي بيده عقدة النكاح للولي، فكيف يصح منه العفو عما تستحقه المرأة، قيل: قد قال الشافعي: إن ذلك مخصوص في الصغيرة إذا كان وليها أباها أو جدها..

إن قيل: العفو في الترك لا في الإعطاء، والزوج هو المعطي، فكيف يصح منه العفو؟

قيل: إن ذلك في العفو عن الشئ لا في العقوبة، وقد يقال: عفى فلان بكذا إذا بذل، والصداق المفروض تستحق المرأة أخذه بالعقد، فإن أخذبه، وإلا ففيي حكم المأخوذ، فإذا عفى به كملا، فكأنه قد عفي عنه، ودل قوله تعالى: **﴿ فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ ﴾** أن المرأة متى فرض لها بمثل العقد، ثم طلقت قبل الدخول، فلها نصف المفروض بخلاف ما قال أبو حنيفة ان المفروض يسقط وتجب المتعة، وقوله: **﴿ وَأَن تَعْفُوا ﴾** وإن كان بالقصد الأول حثاً للزوجين على التسامح خطاب عام لهما ولكافة الناس وحث

لهما على استعمال العفو وترك التشرد، وإن بعض ما وجب لك أقرب إلى الهوى، ثم قال: ﴿**وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ**﴾ أعم من العفو، لأنه يتناول ترك ما وجب لك، وإعطاء مالا يلزمك، ولهذا قيل: "**الفضل فوق العدل**"، وقيل: "**الكرم في الفضل لا في العدل**"، ولما حث فيما تقدم على استعمال العدالة، نبه بقوله: ﴿**وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ**﴾ أي: لا تتركوا الفضل مقتصرين على تحري العدالة.

قوله - عز وجل :

﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ الآية : (٢٣٨)-سورة البقرة.

الحفظ والتعقد والتعهد والرعاية والحماية والصيانة متقاربة، لكن الحفظ أعلم ذلك، والتفقد حفظه، أي تفقد وكأنه مطلب في كل حال، هل فقد إشفاقاً عليه، والتعهد تجديد العهد به حالاً فحالاً، والرعاية حفظ ما به قوامه، كرعي الغنم للحماية حفظه عما يريده بسوئه..، والصيانة: صيونة بما تقيه، والوسط معروف يقال بوسط فلان القوم سبطهم، وقد تصور الوسط على وجهين، محمود ومذموم، فاستعمل فيهما، أما المحمود فالمصون من الإفراط والتفريط، كالعدل، ولهذا قيل للعدل الوسط والسواء والنصف، وأما المذموم، فيتصور شئ له طريقان: محمود، ومذموم، فالسالك من الطرف المحمود إلى الطرف المذموم إذا انتهى إلى النصف، فقد فارق المذموم، فكنى به عن الذم، وأما أصل "**القنوت**" القيام على سبيل الخضوع، ولما كان الخضوع قد يكون بالدعاء والتضرع، وبالإمساك عن الكلام، وبخفض الصوت، وغض البصر، وبذل المال فنبه بكل واحد من ذلك، وسمي الدعاء بعد الركوع قنوتاً، والصلاة الوسطى الظهر عن زيد بن ثابت، وابن عمر كأنها اعتبرت بالنهار، وكونها في وسطه، والمغرب عن قبيصة بن دويت، لكونها وسطاً بين الركعتين والأربع اللتين بنى عليهما عدد الركعات، والصبح عن جابر، لكونها بين صلاة الليل والنهار، قيل: ولهذا قال: ﴿**أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ**﴾[1] أي صلاته، فخصها بالذكر، لكثرة الكسل عنها، إذ قد تحتاج إلى القيام إليها من لذيذ النوم، ولهذا زيد في أذانه: (**الصلاة خيرٌ من النوم**) ، وقيل: هو العصر فيما

---

١ - سورة الإسراء : الآية (٧٨).

يروى عن النبي ﷺ وعلي وابن عباس، وهو الأصح، لما روي أن ابن حبيش قال: قلت ليسرة: سلي علياً عن الصلاة الوسطى، فقال: كنا نرى أنها صلاة الفجر، حتى سمعت رسول الله ﷺ يوم الخندق يقول:«**شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر، ملأ الله قلوبهم أو قبورهم ناراً**»[(١)] ، وروي البراء أنه كان يقرأ: «**حافظوا على الصلوات وصلاة العصر**»[(٢)] ، ثم نسخ بقوله : الوسطى، وفائدة تخصيصها بالذكر، لأن وقتها في أثناء الأشغال العامة الناس بخلاف سائر الصلوات التي يكون فراغ ما إما قبلها، أو بعدها، ولذلك توعد النبي ﷺ بتركها، فقال: «**من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر ماله وأهله**»[(٣)] ، واستدل بهذه الآية بعض الشافعية أن الوتر ليس بواجب، لأنه لو كان واجباً لكان أعداد الواجبات ستة، فلم يكن لها وسطى، وقال بعض المتأخرين: الصلاة الوسطى إشارة إلى النوافل المشروعة بين المكتوبات إما قبلها، وإما بعدها وإما قبلها وبعدها، وقال بعضهم:

عنى بالصلوات أنواعها كلها، فرائضها ونوافلها المؤقتة، والمشروعات عند أسبابها كالخسوفين، والاستسقاء، والنذر، فأمر تعالى بالمحافظة على جميعها، ثم قال: ﴿**وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ**﴾ أن الفرائض، ومعنى الوسطى: الشريفة، فخصها بالذكر مع دخولها في العموم، ثم أعقبه بقوله: ﴿**وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ**﴾ وبقوله: (فإن خفتم)- تنبيهاً أن فعلها واجب بحسب الإمكان في جميع الأحوال، والمحافظة عليها مراعاة وقتها وتوفية شرائطها في أدائها كما ذكر في إقامتها في قوله: ﴿**وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ**﴾[(٤)].

١- الحديث رواه مسلم فى صحيحه في المساجد رقم ٦٢٧ ، وهو في فتح الباري في كتاب التفسير - ج : ٨ ص١٩٥.

٢- روي الإمام مسلم عن البراء بن عازب قال : نزل : (حافظوا علي الصلوات وصلاة العصر) فقرأناها ماشاء الله ، ثم نسخت فنزلت : (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى) فقال رجل : فهي إذن صلاة العصر ، فقال : أخبرتك كيف نزلت .. وأورده ابن حجر العسقلاني في فتح البارى - كتاب التفسير - ج : ١٢ - باب : (حافظوا علي الصلوات والصلاة الوسطي) - ص٥٢١.

٣- الحديث أخرجه الشيخان عن ابن عمر عن النبي صلي الله عليه وسلم قال : «إن الذي تفوته صلاة العصر كأنما وتر أهله وماله» انظر: فتح الباري في المواقيت - ج : ٢- ص٢٤، وأخرجه مسلم في صحيحه فى المساجد برقم ٦٢٦ ، وأورده مالك في الموطأ - ج :١- ص١١ وغيرهم - وأورده الراغب في مفردات ألفاظ القرآن - ص٨٧٠ .

٤- سورة : البقرة - الآية : (٣).

إن قيل: ما وجه فائدة ذكر المحافظة على الصلاة فيما بين حكمي الطلاق والعدة؟

وهلا أفرد عن ذلك؟ فإن إفراد كل باب من الحكم أحسن في الترتيب من خلط بعضه ببعض، قيل: أما أولانا: فآيات القرآن منزلة حسب الحاجات، ولهذا قال الكفار: ﴿ لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ﴾[1] أعلمهم أنه فعل ذلك ليقوى عليه الصلاة والسلام- على تلقينه وتلقنه فقال: ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً ﴾[2] ، ثم إن الله تعالى لا يخلي شيئاً يذكره مما تعلق بالأحكام الدنيوية إلا ويقرنه بحكم أخروي لينبههم إلى مراعاة الآخرة في جميع أحوالهم وأعمالهم، وأنها هي المقصودة بالقصد الأول وسائر ما يتحرى، فلأجلها، على أن ما يرونه موجود هاهنا ومحفوظ، وأبلغ وأحسن مما راعاه أصحاب القوانين، لأنه لما حثهم على العفو، ورغبهم في المحافظة على الفضل، عرفهم أن السلوك إلى التخصيص بذلك هو المحافظة على الصلوات في كل حال، فإن الصلاة هي الآمرة بالمعروف، والناهية عن المنكر، كما قال: ﴿ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ﴾[3] ، ثم صرف الكلام إلى ذكر ما كان بصدده، فتممه، وهذا النحو من جنس ما يسمى بـ التفات المعدود في بديع الكلام..

قوله تعالى:

﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾

«الآية (٢٣٩)- سورة البقرة»..

الركوب: كون الشئ فوق آخر، يقال لكل مركوب ركوب، وخص الراكب في تعارف العرف يمتطي البعير، وسمى المطية ركاباً، وما يجعل الراكب رجله فيه ركاب، وأركب المهر، بحيث يركب، وتعورف المركب، والمركب فيمن ركب فرس غيره، وفيمن يعجز عن الركوب من قوله: ثم الطيور المركبا.

والركبة: بهذا الاعتبار سميت، وقيل: "**فرسٌ أركب، أي**" عظيم الركبة، وركبته: أصبت ركبته،

١ - سورة الفرقان : الآية (٣٢).

٢ - سورة الإسراء: الآية (١٠٦).

٣ - سورة العنكبوت : الآية (٤٥).

نحو: فأدته[١] ورأسته، وقال: إذا أصبته بركبتك، نحو: بدنته وعنته، أصبته بهما، والمركب كناية عن فرج المرأة، وهو العانة من المرأة، كما كني عن المرأة بمظنة، وقعيدة، لكونها مقتعدة، ورجال: جمع راجل، نحو صحاب وقيام، ويقال: نساء رجال، كما يقال: رجالُ رجالٍ، أمر تعالى بفعل الصلاة على الوجه الممكن، وعلى هذا دل قوله: **﴿ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾**[٢] وعلى هذا قد حمل قوله: **﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ﴾**[٣]، وجعل بعضهم الذكر هاهنا مخصصاً بالصلاة، وجعله بعضهم عاماً فيه وفي غيره من الأذكار، وحث على ذكره والصلاة كيفما يقتضيه ما علم من الأحكام وسائر العلوم..

قوله - عز وجل :

﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ «الآية: (٢٤٠) سورة البقرة»..

عامة المفسرين على أن قوله تعالى:

﴿ وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم ﴾ أمرٌ من الله عز وجل- بأن يوصي الرجال للزوجات أن تعمر بعد وفاتهم حولاً، وقالوا: اقتضت الآية ثلاثة أحكام: عدة سنةٍ، ونفقتها، وسكناها في تركة زوجها مادامت معتدة، وكونها ممنوعةً من الخروج، فنسخ منها مازاد على أربعة أشهر وعشر بالآية المتقدمة، ونسخ وجوب الوصية لها ما به الميراث، ولم يثبت نسخ للخروج، فصار ذلك ثابتاً في العدة الثانية، وقال بعض المتأخرين:

---

١ - فاده فأداً: أي أصاب فؤاده، ويقال: فأده الداء، فأده الخوف، فأد الخبز أو اللحم أي أنضجه في الرماد الحار والفؤاد هو القلب المعجم الوسيط :مادة فأد ورأستة . من رأس فلان رياسة ورئاسة ورآسة أي شرف قدره وزاحم على الرياسة وأرادها. المعجم الوسيط مادة. رأس.

٢ - سورة النساء : الآية (١٠١).

٣ - سورة النساء : الآية (١٠٢).

ليست هذ الآية منسوخة ولا تأويلها على ما تصوره، وإنما قوله: (وصية) مصدر في مواضع الحال، أو خبر ابتداء مضمر في موضع الحال في قول من رفع، والآية إخبار عن الجاهلية فيما كانوا يفعلونه، وإبطال لحكمهم في تقديرها: ﴿ **وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا** ﴾ موصين لها بمتاع، أي بعطيه على أن لا يُخرجن إلى الحول، ﴿ **فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ** ﴾، أي لا إثم في إبطال ذلك على ما أمر الله به، وبينه، ودعاكم إليه، فهذا توكيدٌ للآية المتقدمة، وتنبيهٌ أن ما كانوا يفعلونه لا يلزمكم، بل الذي يلزمكم ما بُين في الآية المتقدمة، فقوله:

﴿ **وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ** ﴾ مبتدأ، وما بعده إلى قوله: ﴿ **غَيْرَ إِخْرَاجٍ** ﴾ في صلته، وفي قوله: ﴿ **فَإِنْ خَرَجْنَ** ﴾ في موضع الخبر، ودخول الفاء فيه لكون المبتدأ موصولاً، نحو: "**الذي يأتيني فله درهم**"، وهذا الوجه صحيح من وجه، حيث اللفظ وعلى ما عليه الحكم، لكن عامة السلف في تفسيرها على ما تقدم، ويوضح ذلك أن امرأة أتت النبي ﷺ، فذكرت أن بنتاً لها توفي عنها زوجها اشتكت عينها وهي تريد أن تكحلها، فقال رسول الله ﷺ الله: «**فقد كانت إحداكن تلبث سنة، ثم ترمى ببعرة عند رأس الحول، فهلا أربعة أشهر وعشرا؟**»[1].

وذكر رواية بنت أبي سلمة أن المرأة كانت إذا توفى عنها زوجها دخلت خيشاً، ولبست شرشابها، ولا تمس طيباً حتى تمر سنة، ثم تؤتى بدابة، حمارٍ أو شاةٍ أو طيرٍ، فتقتص له، فعل ما يقتض شيئاً إلامات، ثم تخرج فتعطى بعرة فترمى بها، ثم تراجع ما شاءت من طيب أو غيره.. إن قيل: لم قال في هذه الآية، وفيما قبلها: ﴿ **فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ** ﴾؟ فرفع الجناح عن الرجال فيما فعلن، وذلك يقتضي أن يزر أحدنا وزر الآخرة، وقد قال تعالى: ﴿ **وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ** ﴾[2].

---

١ – الحديث أخرجه النسائي في سننه في باب «النهي عن الكُحْل للحادّة من حديث زينب بنت أبي سلمة عن أمها أن امرأة من قريش جاءت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم- فقالت: إن ابنتي توفى عنها زوجها وقد خفتُ على عينها، وهي تريد الكحل، فقال. "قد كانت إحداكنَّ ترمى بالبعرة علي رأس الحول، وإنما هي أربعة أشهر وعشراً ...الخ الحديث" والحديث أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه –ج:٥–ص٢٠٨، وأخرجه الإمام أحمد في مسنده من حديث أم سلمة –ج:٦–ص٢٩١ ، ٢٩٢، ص ٣١١.

٢ – سورة الأنعام : الآية (١٦٤) ، سورة الإسراء : الآية (١٥) ، سورة فاطر : الآية (١٨).

قيل: قد يرون في قراءة ابن مسعود: (لا جناح عليهن)، والصحيح ما عليه المصاحف، ووجه ذلك أمران:

أحدهما: أن النساء لماكن تابعات للرجال، وتحت أمرهم، صار الجناح في كثير مما يفعلن راجعاً إليهم إذا لم ينهوهن ولهذا قال: ﴿قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾[1] والثاني: أن ما أشير إليه، فإنهن يفعلن في أنفسهن هو أمرٌ يتعلق بالرجال، فلا يمكنهن أو يساعدوهن وكلُّ مَوْضِعٍ اجتمع مذكَّرٌ ومؤنَّثٌ أو مُخَاطَبٌ أو غَائِبٌ، فالحُكْمُ في اللفظ للمذكر والمخاطب دون المؤنث والغائب، فلهذا قال: عليكم إن قيل: لم قال هاهنا ﴿مِن مَّعْرُوفٍ﴾، وقال فيما قبله (بالمعروف)، وقال هاهنا: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، وفي الأول: (والله بما تعملون خبير)؟

قيل: إن "مِنْ" والباقي مثل هذا الموضع يتقاربان حكماً، وإن كانا يختلفان من حيث العربية تقديراً، فقوله: ﴿مِن مَّعْرُوفٍ﴾ إباحةٌ لجنس الأفعال المعروفة، أي المباحة لجنسه، وقوله: (بالمعروف) في موضع الحال، وهو إباحةٌ لما فعلته على شريطة تحري المعروف وقال ههنا: لماَّ ذَكَرَ ما هو تعريضُ التغيير أو غيره على التفسير المتأخر، قال: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ تنبيهاً أنه تعالى قادرٌ على تغيير ما يُغَيَّر غير لاحق به مضرة من مخالفتكم له،ولا منفعة في موافقتكم إياه أمره وحكمته في تغييره، وقال في الحكم المقرر عليهم على التأييد، (والله بما تعلمون خبير)- تنبيهاً أن من قصر فيما رسمه، فمجازى به..

قوله - عز وجل :
﴿وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ - الآية : (٢٤١) - سورة البقرة

إن قيل: ما وجه تكرير "ذلك" وتخصيص "المتقين"؟

قيل: من المفسِّرينَ مَنْ جعل هَذَا المتاعَ للمطلقات عامةً على سبيل الاسْتِحْبَابِ، لا على الإيجاب،

---

١ - سورة التحريم :الآية (٦).

وقال: أراد الله أن يكون تشريحاً على وجهٍ تطيبُ به نفسها، ويزول عنها مَا خَامَرَهَا من وَحْشَةِ الْفَرَاقِ، ومنهم من قال : هو على الإيجاب، وإليه ذهب ابن جبير، وأبو العالية، ويكون تخصيص من تقدم ذكرها لتأكيد أمرها، ومنهم من قال: يعني بالمتاع المتعة، وإنما عنى مالها من المهر والسكنى، وأما تخصيص "**المتقين**" فقد تقدم..

قوله - عز وجل :

﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ الآية : (٢٤٢) سورة البقرة

نبه أنه كما بين لكم هذه الأحكام يبين لكم سائر الآيات العقلية والسمعية لتكونوا أقرب إلى استعادة العقل المكتسب وقد تقدم أن أمير المؤمنين قال: العقل عقلان: مطبوع، ومسموع ولا يصلح أحدهما إلا بالآخر، فالأول هو الذي يتعلق به صحة التكليف المتناهية بقوله عليه الصلاة والسلام:

«إِنَّ اللهَ لَمَّا خَلَقَ العَقْلَ، قَالَ لَهُ: أَقْبِلْ، فَأَقْبَلَ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: أَدْبِرْ، فَأَدْبَرَ، ثم قال: وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً أكرم علي منك بك آخذ، وبك أعطي»[1] .

١ - اختلفت الآراء في الحكم على هذاالحديث: فالعجلوني يقول في كشف الخفاء: قال فيه الصفاني وابن تيمية وغيرهما: إنه موضوع باتفاق- كشف الخفاء-ج:١-ص٢٣٦، ٢٦٣، وهناك من يرى أن الحديث ليس موضوعاً باتفاق، بل رواه بعضهم بإسنادين ضعيفين، وقيل: رواه أحمد في زوائد الزهد عن الحسن البصري يرفعه، وهو مرسلٌ جيد الإسناد، وقد قال السيوطي في الدر: إني وجدت لهذا الحديث ألاً صالحاً، وهو مرسل جيد الإسناد وذلك كما في جامع الأصول ج:٤-ص١٨ وفي المصنوع في معرفة الحديث الموضوع للقاري الهروي ص٣٥ وكشف الخفاء -ج:٢-ص١٤٨، وقال العراقي: رُوِي هذا الحديث من حديث أي أمامة وعائشة وأبي هريرة وابن عباس والحسن عن عدة من الصحابة، فأما حديث أبي أمامة، فرواه الطبراني في الأوسط وأبو الشيخ في كتاب فضائل الاعمال من رواية سعيد بن الفضل القرشي حدثنا عمر بن أبي صالح العتكبي عن أبي غالب عن أبي أمامة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم- لما خلق الله العقل.. الحديث،وعمر بن أبي صالح ذكره العقيلي في الضعفاء وأورد له هذا الحديث،وقال الذهبي في الميزان: لا يُعرف، قال: ثم إن الراوي عنه من المنكرات، قال: والخبر باطل،وقال أبو نعيم: غَريب من حديث سفيان ومنصور والزهري لا عزم له راوياً عن الحميدي إلا سهلاً، وأراه واهياً.. تخريج أحاديث الإحياء وقال فيه الدكتور/ عبد المجيدالنجار"ولا يبعد أن تكون مثل هذه الأفكار متسربة من الثقافة الفلسفية اليونانية فيما عُرِف فيها من أن الله (العقل الاول) فاضتمنه عقول عشرة مترتبة في الشرف، ثم من العقل العاشر وُجدت المادة المحسوسة"، تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين- تقديم وتحقيق:الدكتور/ عبد المجيد النجار- ط: دار الغرب الإسلامي والحديث أخرجه الطبراني في معجمه ج: ٨-ص ٢٤٠، والزبيدي في الإتجاف - ج:١- ص٤٥٣، ج:٧-ص٢٠٩، والسيوطي في اللآليء المصنوعه ج:١-ص٦٧ وابن عراق في تنزيه الشريعة ج:١-ص٢٠٣، وابن الجوزي في الموضوعات -ج:١-ص١٧٤، ١٧٥.

والثاني: هو الذي قال عليه الصلاة والسلام لعليٍّ: «**يا عليُّ: إذا تقرّبَ النّاسُ إلى خَالِقِهِمْ بالصَّلاةِ والصَّوْمِ، فتقرَّبْ إليْهِ بأنواعِ العَقْلِ تَسْبِقْهُمْ بالدَّرجَاتِ والزُّلفى عِنْدَ النّاسِ في الدُّنيا، وعِندَ** الله **في الآخِرَةِ**»[١]، فهذا الثاني هو العقل المشار إليه بقوله تعالى: ﴿ **لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** ﴾، وهو في الحقيقة الإيمان والتقوى والإخلاص.

قوله تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ الآية :(٢٤٣) – سورة البقرة .

رأيت : تتعدى نفسه دون الجار، لكن لما استعير قولهم ﴿ **أَلَمْ تَرَ** ﴾ لمعنى: (ألم تنظر) عدى تعديته وفائدة استعارته أن النظر قد يتعرى عن الرؤية، فإذا أريد الحث على نظر ناتج لا محالة للرؤية استعيرت له، وقل ما استعمل ذلك في غير التقرير، ولا يقال: رأيت إلى كذا، وكما أن الرؤية ضربان، رؤية بصر، ورؤية بصيرة، كذا أيضاً النظر والإبصار، وألوف جمع ألف كشخوص، وعيون وقيل جمع ألف كحمول، وحلوم، وروي في الخبر أن قوماً من بني إسرائيل خرجوا من ديارهم- تفادياً من الطاعون فأماتهم الله، ثم أحياهم ليعرفهم عياناً تحقيق مادل عليه قوله: ﴿ **قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ** ﴾[٢]، وقوله: ﴿ **أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ** ﴾[٣]، وقوله: ﴿ **إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ**

١- هذا الحديث مشهورٌ بألفاظٍ قريبة من هذا اللفظ، ولذا أوردته كل نسخة بلفظ متقارب- أخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث علي "إذا اكتسب الناس من أنواع البر ليتقربوا بها إلى ربنا- عز وجل- فاكتسب أنت من أنواع العقل تسبقهم بالزلفة والقربة:، وقال الحافظ العراقي: وإسناده ضعيف ، والحديث في الجزء الثالث من أمالي أبي القاسم بن على النيسابورى قال : أخبرنا أبو عبد الرحمن السلمى أخبرنا محمد بن منصور العتكى حدثنا محمد بن أشرس السلمى حدثنا سليمان بن عيسي السنجري عن سفيان الثوري عن حبيب بن أبي ثابت عن عاصم بن ضمرة عن على رضي الله عنه – قال : قال رسول الله – صلي الله عليه وسلم : « إذا اكتسب الناس إلي خالقهم بأنواع البر فاكتسب إليه بأنواع العقل تسبقهم بالقربة والراحة والدرجات فى الدنيا » – تخريج أحاديث إحياء علوم الدين – للعراقي وابن السبكي والزبيدي- استخراج : أبي عبد الله محمود الحداد – ط : دار العاصمة للنشر – الرياض – سنة ١٩٨٧ ، وأورده الراغب في كتابه : « الذريعة إلى مكارم الشريعة – ص ١٦٩ – تحقيق الدكتور / أبو اليزيد العجمي – ط : دار الوفاء ودار الصحوة – سنة ١٩٨٥م.

٢ – سورة الأحزاب : الآية (١٦).

٣ – سورة النساء: الآية (٧٨).

يَسْتَئْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[١] ، وقــوله: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيـنَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِيـنَ كَفَرُوا وَقَالُوا لإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِـنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾** [٢] ، وقـوله : **﴿وَهُمْ أُلُوفٌ﴾**، تنبيـه أن الكثرة والتعـاضـد وإن كـانا نافـعين في دفـع الأزمات الدنيـوية، فليس بمعنية في الأمور الإلاهية، فمن جعل ذلك جمع ألف، فنظر منه إلى نحو ما قال الشاعر:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ جَمْعَ الْقَوْمِ يُخْشَى وَأَنَّ حَرِيمَ وَاحِدِهِمْ مُبَاحُ[٣]

ومن جعله جمع ألف، فنظر إلى نحو قولهم: "**لن يعجز القوم إذا تعاونوا**"، ومن جعله جمع ألف، فـقد قـيل: كـان عـددهم أربعـة آلاف عن السـدي، وقيـل: كانوا أكـثرمن عـشرة آلاف عن ابن عبـاس والحسين والضحـاك، وهو الأصح، لأن ذلك جميع للكثير ولو كانوا أقل من عشرة لقتل آلاف، وقيل: معنى أماتهم: ذللهم تذليلاً يجري مجرى الموت فلم تغن عنهم كثرتهم وتظاهرهم من ا شـيـئـاً، ثم أحياهم، أي أعانهم وخلصهم ليعرفوا قدرة ا تعالى في أنه يذل من يشاء، ويعز من يشاء، وتسمية الشدائد موتاً، لكونها أعظم الموتين، كما قال الشاعر:

ليس من مات فاستراح بميت إنماالميت ميت الأحياء[٤]

وقـيل: أشـد من الموت مـا يتـمنى له الموت، وقـيل: عنى بالموت الجـهل، والحـيـاه العلم، وقـال ابن عباس في قوله: **{أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ}**[٥] أي : جاهلاً فعلمناه كما يحيا الجسد بالروح، ووصل مـا أراهـم من الآية العظيـمـة من إحـيـائهم بذكـر مـاله عليـهم من النعـمـة وقلة شكرهـم لـه..، وقـولـه:

---

١ - سورة يونس : الآية (٤٩)

٢ - سورة آل عمران : الآية (١٥٦).

٣ - قائل البيت هو ناهض الكلابي وذلك كما فى مخطوط كتاب الدر الفريد وبيت القصيد- لمحمد بن أيدمر - ج : ٢- ص٢٣٧. وقد أورد الراغب هذا البيت فى محاضرات الأدباء منسوبًا إلى هذا الشاعر فى باب الحث على التظاهر وبعد هذا البيت :-

وأن القدح يكون فرداً فيهصر لايكون له اقتداح

محاضرات الأدباء ج : ١ - صـ ٢٧١

٤ - البيت لعدى بن علاء الغساني ، وبعده : **إنما الميت من يعيش كئيباً كاسفاً باله قليل الرجاء**

وهما في الإصمعيات ص ١٥٢ ، والحماسة الشجرية - ج :١ ص١٩٤ ، وأمالي ابن الشجرى - ج : ١ ص ١٥٢ ، وابن يعيش - ج :١٠ - ص٦٩ ، والأشموني - ج :٢-ص١٦٩.

٥ - سورة الأنعام : الآية (١٢٢).

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ﴾،(1) كقوله: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾(2) ، لكنه أبلغ في الذم، لأنه نفي وقوع شكر منهم، وشكور هنا مبالغة، وقد لا يكون شكوراً من كان شاكراً..

إن قيل: لم أعيد ذكرالناس ولم يقل: (ولكن أكثرهم)؟

قيل: لأن الناس في الأول عام لكون نعمته على جميعهم، وفي الثاني خاص للمكلفين، لأنه لا يلزم شكرهم غيرهم، فكأنه قيل: ذو فضل على جميع الناس، ولكن أكثر المكلفين لا يشكرون..

إن قيل: لم خص النبيﷺ بهذا الخطاب، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ وقال: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا﴾(3) ؟

قيل: لأن ذلك لما كان من الاعتبارات التي تخفي إلا على ذوي البصائر من الأنبياء ومن يدانيهم في العلم ولم تكن من المحسوسات المشاهدة، وخصه بالخطاب، وفي الآية الأخرى ونظائرها لما كانت من الأمور المحسوسة عمهم بالخطاب.

قوله - عز وجل :

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ سورة البقرة الآية (٢٤٤)..

قال: تقديره (وقيل لهم بعد ذلك: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، ولفظ الحكاية مقدر، وقيل: إن ذلك خطاب منه تعالى لهذه الأمة، وأنه لما قرر بالآية المتقدمة في أنفسهم أن الفرار لا يزيد في الأجل، حثهم بهذه على المجاهدة في سبيله،ولم يعن الأعداء المجاهدين فقط بل عناهم وأقرب الأعداء إلى الإنسان وأصعبها دفاعاً وأكثرها أذى الهوى المدلول عليه بقوله عليه الصلاة والسلام:«**جـهـادك هواك**»،(4) .

---

١ - سورة يوسف الآية (٣٨) ، (٦١) سورة غافر .

٢ - سورة سبأ : الآية (١٣).

٣ - سورة نوح : الآية (١٥)

٤ - في معناه حديث رواه البيهقى عن جابر بسند ضعيف ، وفيه « قدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر ، قالوا : وما الجهاد الأكبر ، قال : مجاهدة العبد هواه » ، وقال الحافظ العراقي عن حديث : « المهاجر من هجر السوء ، والمجاهد من جاهد هواه » رواه ابن ماجة في الشطر الأول والنسائي في الشطر الثاني ، وكلاهما من حديث فضالة بن عبيد بإسنادين جيدين ، وقال رواه الحاكم وصححه .. انظر : كشف الخفاء - ج : ١- ص ١٤٣ ، وأورده الراغب في الذريعة إلي مكارم الشريعة - ص ١٠٣ - تحقيق : الدكتور / أبو اليزيد العجمى

وقـوله: «**أعدي عدوك نفسك التي بين جنبيك**» [١] وقوله لما رجعوا من تبوك: «**جئتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر**» [٢] ، وقـال: «**جاهدوا أهواءكم كما تجاهدون أعداءكم**» [٣] وصعوبة مجاهدته أنه عدو يخفى وتخفى مكائده، ونحو هذا نظر الشاعر حيث قال:

رمتني بنات الدهر من حيث لا أرى

فكيف بمن يرمي وليس برامي [٤]

وعلى هذا قوله - عز وجل : ﴿ **وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ** ﴾ [٥]، وقوله: ﴿ **وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا** ﴾ [٦].

قوله - عز وجل :

﴿ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

الآية : (٢٤٥) - سورة البقرة .

القرض : القطع بالناب، والمقراض، واستعير لصنعة الشعر استعارة اللوك والمضغ في نحو قول بعضهم:

---

١ - قال عنه العجلوني : رواه البيهقي في الزهد بإسناد ضعيف ، وله شاهد من حديث أنس ولاأصل له بهذا اللفظ ، وذكر الحافظ العراقى أن البيهقى رواه من حديث ابن عباس وفيه محمد بن عبد الرحمن بن غزوان أحد الوضاعين .. كشف الخفاء - ج : ١- ص١٤٣ - الإحياء فى أماكن متعددة ، وأورده الراغب فى الذريعة إلى مكارم الشريعة - ص١٠٢ - تحقيق : الدكتور / أبو اليزيد العجمى .

٢ - الحديث عن جابر قال : قال رسول الله - صلي الله عليه وسلم : « رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر » قال العراقي: رواه البيهقى في الزهد ، وفيه ضعف . تخريج أحاديث الإحياء - ج : ٤- ص١٥٣٧ والزهد - للبيهقى - ص ١٦٥ ، وأورده الراغب في مفردات ألفاظ القرآن - ص ٨٣٣.

٣ - سبق نظيره ، وهو قريب من : « المجاهد من جاهد نفسه فى ذات الله » رواه أحمد والطبرانى والقضاعى عن فضالة بن عبيد مرفوعاً ، وفى الباب عن جابر وقد أورده الراغب في كتاب : الذريعة إلى مكارم الشريعة - ص ١٠٤ .

٤ - قائل هذا البيت هو عمرو بن قتيبة ، وبعد هذا البيت قال :

فلو أنها نبل إذا لاتقيتها ولكنني أرمى بغير سهام

ويرويان للبيد بن ربيعة مخطوط كتاب : الدر الفريد وبيت القصيد - ج : ٣- ص ٣٢٤ .

٥ - سورة الحج - الآية رقم : (٧٨).

٦ - سورة العنكبوت : الآية : (٦٩) .

«قد لاكه ومضغه من هو أشد لوكاً ومضغاً منك»، هذا إذا اعتبرته بقرض الأسنان، فأما إذا اعتبرته بقرض المقراض، فاستعارته كاستعارة الحوك والخياطة والإلباس، وسمي ما بذل بعوضٍ قرضاً، وما بذل بغير عوض قرضاً، وسمي عروض الدنيا قروضاً، كما سميت عواري، والضعف تركب قدر من متساويين، أو يقال مثلاً الشئ في المقدار، وكل واحد ضعف الآخر إذا أخذ، وقول الشاعر:

«جزيتك ضعف الود»[1]، أي مثلي ودك في القدر، وضعفا الشئ مثله ثلاث مرات، إلا أنه إذا قيل: ضعفان، فقد يطلق على الاثنين المثلين في القدر من حيث أن كل واحد يضعف الآخر كما يقال: الزوجان،ويكون كل واحد زوجاً للآخر..

إن قيل: الضَعف والضِعف يشتركان في الاشتقاق، قيل: كلاهما اعتبر فيه معنى المماثلة في القدر، إلا أنه جعل الضعف لما يزاد عليه، والضعف لما ينقص منه، واستعمل فيهما أضعفت، وضعفت، وإن كان التشديد في الضعف أكثر، وضاعفت في الضعف لا غير، وفرق بينهم تضاعف وتضعف، فقال التضعيف لما جعل مثلين، والمضاعفة لما زيد عليه أكثر من ذلك، ولهذا قال أكثرهم (فيضاعفه) بالألف، ولما حث الله علي المجاهدة في سبيله وذلك ببذل المال والبدن والنفس سمى ذلك قرضاً كما سماه بيعاً واشتراء في قوله تعالى: **﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم﴾**[2] الآية، وسماه إحساناً في قوله: (وأحسنوا) كل ذلك استعطافاً لعبده واستلطافاً، وسمع أعرابي قوله تعالى: **﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾**، فقال: **"أعطانا فضلاً، وسألنا منه قرضاً ليرد إلينا أكثر وأوفر منه، إنه لكريم"، وسمع ذلك أبو الدحداح، فسأل النبي-صلي الله عليه وسلم إن تصدقت بحديقتي أفلي مثله في الجنة؟ قال : نعم. قال: ومعي أم الدحداح ودحداح؟ قال: نعم، وكان له حديقتان، فتصدق بأفضلهما..**[3]

---

١ - هذا جزء من بيت لأبي ذؤيب الهذلي ونص البيت :

جزيتك ضعف الود لما اشتكيته   وما إن جزاك الضعف من أحد قبلى

والبيت في ديوان الهذليين - ج : ١- ص ٣٥ ، وفى لسان العرب . مادة (ضعف) ، وفي بصائر ذوى التمييز فى كتاب الله العزيز ج : ٣- ص ٤٧٨، وفي مفردات ألفاظ القرآن - ص ٥٠٨ .

٢ - سورة التوبة : الآية (١١١).

٣- ذكر القرطبى فى تفسير ه أن هذه الآية لما نزلت ، بادر أبو الدحداح إلي التصدق بماله ابتغاء ثواب ربه ، كما أورد ماروى عن عبد الله بن مسعود قال : لما نزلت (من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً) قال أبو الدحداح : يارسول الله : أو إن الله - تعالي - يريد منا القرض ؟ قال : « نعم ياأبا الدحداح » قال : أرنى يدك ، فناوله ، قال : فإنى أقرضت الله حائطاً فيه ستمائة نخلة ، وأورد القرطبى أيضاً مارواه زيد بن أسلم قال : لما نزل : من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً) قال : « نعم يريد أن يدخلكم الجنة به » ، قال : فإنى إن أقرضت ربي قرضاً يضمن لي به ولصبيتي الدحداحة معي الجنة ؟ قال : « نعم » ، قال : ناولني يدك ، فناوله رسول الله - صلي الله عليه وسلم يده - فقال : إن لى حديقتين إحداهما بالسافلة والأخرى بالعالية ، والله لا أملك غيرهما قد جعلتهما قرضاً لله - تعالي - قال رسول الله - صلي الله عليه وسلم « اجعل إحداهما لله ، والأخري دعها معيشة لك ولعيالك » قال : فأشهدك يارسول الله أني قد جعلت خيرهما لله - تعالي - وهو حائط فيه ستمائة نخلة . قال : « إذا يجزيك الله به الجنة » فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « كم من عذق رداح ودار فياح لأبي الدحداح - تفسير القرطبى - ج ١- ص ١١٤٨، ١١٤٩ ، ١١٥٠ كما أورده ابن كثير بسنده إلى عبد الله بن مسعود ، وقد رواه ابن ردويه من حديث عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر - رضي الله عنه - مرفوعا بنحوه تفسير القرآن العظيم - ج : ١- ص ٢٩٩.

إن قيل: بذل النفس كيف يصح أن يقال له قرض؟

قيل: استعمال ذلك فيه كاستعمال الجود، وقد قال أبو الدرداء "**أقرض من عرضك ليوم فقرك**"، وفي قوله: ﴿**حَسَنًا**﴾ إشارة إلى كل ما يصون الإفضال عما يشينه من منة ومراءاة وغير ذلك وقوله ﴿**يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ**﴾ قيل: "**يسلب تارة، ويعطي تارة**"، ونحوه نظر من قال: فكيف يوفيه وثانيه هاديه،وقيل: يسلب قوماً ويعطي قوماً، ونحوه نظر الشاعر في قوله:

ويسلب قوماً ويثري آخرين — به الله من ذا يستعمر وباري[1]

وقيل: يقتر ويوسع، وقيل: يقبض الصدقات ويخلف البدل مبسوطاً أن كثيراً، وقيل: يضيق صدور قوم ويشرح صدور آخرين، كقوله:﴿**فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا**﴾[2]، وقوله: ﴿**وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾ وقد تقدم الكلام فيه،وذكره هاهنا توعد..

قوله - عز وجل :

﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ**﴾ **الآية : (٢٤٦) - سورة البقرة .**

قوله عز وجل :

﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ**﴾ إلى الملأ جماعة شريفة، وذلك اعتبار بالامتلاء كأنهم يملون العين رواء ومنه قيل: شابٌ مالئ العين،[3] ومالأته: عافيته: أي صرت من ملائه أي جمعه، كقولك: شايعته أي: صرت من شيعته، وفلان مليء بكذا من الامتلاء، وعلى الوفاء، وهو تمام العهد، واشتقاق

---

١ - لم أعثر علي نسبته .

٢ - سورة الأنعام : الآية (١٢٥).

٣- قال ابن منظور : شاب مالئ العين : إذا كان فخماً حسنا لسان العرب - مادة : (ملأ).

ضده وهو العذر، يدل على ذلك لأنه الترك، ويعني :"**أحسنوا أملاءكم**"، أي أخلاقكم،

وقال الشاعر :

"**فقلنا أحسني ملأ جهينا**"[١] ، فكأنه سمي الخلق بذلك لكونه مليا باراً، في ذاته

وعلى ذلك قال الشاعر:

كل امرىءٍ يبدي الذي في خلقه[٢]

وقال: كل امرىء راجعٌ يوماً بشهية[٣]

والملك لمن جمع أربعة معان:

"**العلم، والقدرة، والسياسة، وعدداً يسوسهم**"، وبيان ذلك أن الأمر بالعلم مدبر، وبالقدرة ينفذ، وبالسياسة ينظم، وبالجمع يحفظ، ولهذا كان الله الملك الحق، ومن عدله فكالظل له، ولهذا قال: "**السلطان ظل الله في الأرض**" أي خليفته، ومحفوظه كالظل الذي يظل، ولا يصح استحقاقه إلا لمن قام بحقه على مقتضى الشرع ولأجل تعذر القيام بذكره التسمية به، لأن المتسمي بالملك مالم يوف حقه لابس ثوبي زور، وتكلف للناس التقول به وسألهم إياه الملك ليقابلوا معه لعلمهم أن منزلة الملك من الرعية منزلة الرأس من الجسد الذي لاقوام له إلا به.

١- هذا عجز بيت وصدره : تنادوا بالبهثة إذا رأونا.

وهو لعبد الشارق بن عبد العزى الجهني ، وهو في شرح الحماسة ج : ٢- ص٢٠، ولسان العرب ، مادة : (ملأ) ، والمجمل - ج ٣ - ص ٨٣٨ ، وشرح مقصورة ابن دريد - لابن خالويه ص ٣٠٨ ، ومفردات ألفاظ القرآن - ص ٧٧٦.

٣،٢ - لم أعثر على نسبة لهما.

وعلى ذلك قال الشاعر:

كأن الخلق ركب في مثال   له جسدٌ وأنت عليه رأس(١)

وقوله: (يقاتل) متى جزم، فجواب، وإذا رفع فاستئناف، وقرئ (يُقاتل)(٢) على وصف الملك، وقوله: ﴿**هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ**﴾، أي : هل طمعتم في أنفسكم أن تقوم بذلك وأن لاتجبن؟ قالوا: ومالنا ألا نقاتل؟ أنكروا أن يكون منهم تضجيع في قتال أعدائهم، فجعل حجتهم شيئين هما غاية ما يحنق، وهو إنزعاجهم عن مقارهم الذي هو شريك القتل، وقيل الولد الذي هو أصعب على الإنسان من قتل نفسه، وفي حكاية ذلك إشارة إلى ذمهم من وجهين أحدهما أنهم قالوا: أن تكلفوا، وقد قيل: فلما قام الإنسان بواجب التزمه، ابتدأ، ولهذا لما روجع النبي ﷺ في الحج، فقيل: ألعامنا هذا؟ أم للأبد؟

قال: بل للأبد(٣)

١- البيت لأبي العتاهية ، وقاله يمدح الرشيد، وقال بعده :

أمين الله إن الحبس بأس   وقد وقعت ليس عليك بأس

ومناسبة البيتين أن الرشيد .كان قد أمر أبا العتاهية بأن يقول الغزل في مجلسه ، فأبى ، فأمر الرشيد بحبسه ، فلما عفا عنه قال ذلك .. الشوارد - لعبد الله بن خميس .

٢- قرأ بذلك الضحاك وابن أبي عبلة كما ورد في إعراب القرآن - لأبي جعفر النحاس ج : ١- ص ٢٧٧ والإملاء - للعكبري - ج: ١- ص ٦٠ ، والبحر المحيط - ج : ٢- ص٤٥٥ ، وتفسير الفخر الرازي - ج : ٢- ص٢٩٢، ومعجم القراءات القرآنية - ج: ١- ص١٩٠.

٣- قال القرطبي فى تفسير قوله الله تعالى : (ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً) الآية : (٩٦) سورة آل عمران- قال : ثبت أن النبي - صلى الله عليه وسلم قال له أصحابه : يارسول الله أحجنا لعامنا هذا أم للأبد ؟ فقال: « لا .. بل للأبد . وهذا نص في الرد على من قال : يجب في كل خمس سنين مرة ، كما أورد ماوراه الأئمة عن أبي هريرة قال : « خطبنا رسول الله - صلي الله عليه وسلم فقال : « أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج فحجوا ، فقال رجل : كل عام يارسول الله ؟ فسكت حتى قالها ثلاثاً ، فقال رسول الله - صلي الله عليه وسلم : « لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم » ثم قال :ذروني ماتركتكم ، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة مسائلهم واختلا فهم على أنبيائهم، ، فإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم ، وإذا نهيتكم عن شئ فدعوه » واللفظ لمسلم . تفسير القرطبي - ج : ٢- ص١٤٩٠ ، ١٤٩١، والحديث رواه البخاري في صحيحه ج : ٣ ص ٥ ، ص ١٨٥ ورواه النسائي في سننه في الحج باب (٧٦) ورواه البيهقي في سننه ج : ٤ ، ص ٩٥ وأخرجه الإمام أحمد في مسنده ج: ٤ ص ١٧٥، والبغوي في شرح السنة ج : ٧ ص ٢٥٢ والدار قطني ج : ٢ ص ٢٨٣.

وذم الله (بني إسرائيل) في التزامهم الرهبانية، ثم قصروا فيها،والثاني: أنهم لم يلزموا القتال كما يجب أن يلزم، فإن المقاتلة في سبيل الله يجب أن لا يكون لها سمعة واجتلاب ثناء أو شفاء مغيظة وكذا يجب أن تكون سائر الأفعال المحمودة وهم لما قالوا: ﴿ **وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ** ﴾ قصدوا شفاء الغيظ لا ائتمار الرب، فعلم أنهم لا يصبرون في مواطن الحق على ما يجب.

إن قيل: لم أدخل (أن) في قوله: ﴿ **وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ** ﴾ ولم يدخله في قوله: ﴿ **وَمَا لَكُمْ لا تُؤْمِنُونَ** ﴾[1]؟

قيل: إن قولك (مالك، ومالنا) تجئ مرة للإنكار، وعليه قوله: ﴿ **وَمَا لَكُمْ لا تُؤْمِنُونَ** ﴾ في موضع الحال نحو قوله تعالى: ﴿ **فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ** ﴾[2]، والثاني بمعنى: (مامنع)، وعليه هذه الآية، فلابد إذن من "أت لا" تقديره: (ما منعنا من ترك القتال قال أبو العباس: «**ما: نفي هاهنا، كأنه قيل: ليس لنا أن لا نقاتل**»، وقال الأخفش: أن زائدة، ويجوز أنه أدخل (أن) في قوله: ألا نقاتل لكون القتال مستقبلاً، ولم يدخل في قوله: ﴿ **وَمَا لَكُمْ لا تُؤْمِنُونَ** ﴾[3] لكونه حالاً، لأن "**أن**" لأحد المعدومين.

قوله - عز وجل :

﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ الآية (٢٤٧)- سورة البقرة .

كان بنو إسرائيل اعتقدوا أن الملك يستحق بالوراثه وكثرة المال، وكان فيهم أسباط ملوك، فلما أنبأهم نبيهم أن الله بعث لهم طالوت ملكاً، ولم يكن من بيت الملك، ولا كان ذا مال، استعظموا، فراجعوه وقالوا: ﴿ **أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا** ﴾ وكان ذلك منهم خطأ من وجهين:

---

١ - سورة الحديد : الآية (٨).

٢ - سورة المدثر : الآية (٤٩).

٣- سورة الحديد : الآية (٨).

الأول:

لما قال الشعر:

وَمَا الحَسَبُ المَــــوْرُوْثُ لاَ دَرَّ دَرُّهُ

بِمُحْتَسِبٍ إِلاَّ بِآخِــرِ مُكْتَسَـــــبِ

إِذَا الغُصْنُ لَمْ يُثْمِرْ وإِنْ كَانَ شُعْبَةً

مِنَ الثَّمَرَاتِ اعْتَدَّهُ النَّاسُ فِي الحَطَبِ(1)

وقال بعض الملوك:

إن ولد مني جاهل فعدوه حماراً، وإياكم أن تراعوا نسبه، فتفوضوا الأمر إليه، وتعتمدوا في المملكة عليه، والثاني: أن المال ليس بضروري في الملك وأعيان الخلفاء الراشدين والأمراء العادلين كأن غناهم القناعة دون الثروة، فبين تعالى بقوله: **﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ﴾** أن فيه الخصال التي هي قانون في استحقاق الملك وبيانه أن الملك يستحق في أن يكون الإنسان من عنصر صالح سواء كان من بيت الملك قبل أو لم يكن،، وأن يكون ذا علم بسياسة نفسه وأهله من رعيته، وأن يكون في جسمه كامل الخلقة، شديد القوة، ذا سلامة من العاهات الشائنة، وذكر أنه قد آتاه كل ذلك، ثم قال: **﴿وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ﴾** تنبيهاً أنه هو المختص بإيتاء الملك لعلمه بمن يستحقه، ولذلك أمرنا بالاستسلام له في ذلك، فقال:**{قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ﴾**(2)، فقرن ذلك بالأمور التي يختص هو بها، وهي : إخراج الحي من الميت والميت من الحي،وإيلاج الليل في النهار، وإيلاج النهار في الليل، وإعطاء الرزق، ثم قال: **﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾** أي الذي أعطاه الملك هو ذو سعة في المال، وعالم بالأشياء- تنبيهاً أنه ان احتاج إلى المال في ملكه حوله، وقوله: **{عَلِيمٌ}** أي عالم بمن يؤتيه الملك، كقوله: **﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾**(3).

١- قائل البيتين هو ابن الرومي ، وهو من قصيدة قالها في محمد بن عبدالله بن طاهر وبعدهما :-

وأنت لعمرى شعبة من لوى العلا فلاترض أن تعتد من أوضع الشعب

ديوان ابن الرومى - تحقيق د/حسين نصار ج : ١ - ص ١٥٠، ١٥١ ط : دار الكتب سنة ١٩٧٣، كما في مخطوط كتاب الدر الفريد وبيت القصيد لمحمد بن أيدمر ج ١- ص ٢٨٢ ،

٢- سورة آل عمران - الآية : (٢٦).

٣ - سورة الأنعام : الآية (١٢٤).

قوله - عز وجل :

﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾الآية (٢٤٨)- سورة البقرة .

البقية من البقاء، والبقاء ثبات الشئ على حالته الأولى، لكن البقية صارت لبعض حمله لم يتعين حكمه بتعين المحمولات، فاستعمل فيما يحمل على الظهر، وفي الماء الذي في السحاب، والولد الذي تحمله المرأة في البطن، وتعورف في البرق، وتسميته بذلك استصحاباً لحمل الأم أيّاً، أو لأنه يحمل باليد لصغره، وخص الحمالة بما يحمل به السيف على بناء العلاقة، والمحمل لما تركته الناس، وخص الحمالة بالفتح لما يتحمله قوم عن قوم من الدية والحميل تارةً استعمل في الكفيل، وهو بمعنى فاعل، وتارة في المحمول من بلد إلى بلد، فسمى الغريب، وعثاء السيل به والحملوة من الإبل لما يحمل عليه وعلى ما ساقويه وركوبه وذكر منهم ما خص الله به «طالوت» من كرامته وما هو آيه من الله-عز وجل- كالمعجزة لملكه، واختلف في التابوت، فمنهم من قال: كان منحوتاً من الخشب فيه شئ مسمى بالسكينة تسكن بها قلوب القوم الذين كان معهم وبقايا رضاض اللوح الذي كان فيه التوراة، وقيل كان على [عجلة بين ثورين][1] يسوقهما الملائكة، وقيل: بل الملائكة تحمله في الهواء وهم يرونه، وقيل كان هذا التابوت مع يوشع، ففقد في التيه، ثم رده الله عز وجل: الى طالوت، وقيل: بل كان قد سلبته العمالقة، فدفنوه في منزله، وإلى هذا ذهب عامة الصحابة والتابعين فيما دل عليه ظاهر قولهم حتى قال مجاهد : السكينة شئ كان له رأس كرأس هره، وله جناحان[2]، وقال بعض المفسرين: التابوت

---

١ - ساقطة من (و - ج) ، واستدركناها من تفسير القرطبي ليكتمل السياق.

٢ - وأورد ه الراغب في مفردات ألفاظ القرآن وعلق عليه بقوله : ما أراد قولاً يصح ، وهذا الأثر مروي عن مجاهد في الدر المنثور وفي غرائب التفسير حيث قال : السكينة من الله كهيئة الهر ، لها وجه كوجه الهر ،وجناحان، وذنب مثل ذنب الهر » وقد علق عليه الأستاذ / صفوان داوودي بقوله : وهذا أشبه بروايات الإسرائيليات . والله أعلم .. والدر المنثور - ج : ١- ص٧٥٨ ، أنظر مفردات ألفاظ القرآن - ص ٤١٧ وغرائب التفسير - ج . ١- ص٢٢٢، كما أورد ابن كثير فيما رواه محمد بن إسحق عن وهب بن منبه أن السكينة رأس هرة ميتة إذا صرخت في التابوت بصراخ هر أيقنوا بالنصر وجاءهم الفتح ، كما أورد ما قاله عبد الرزاق عن بكار بن عبد الله أنه سمع وهب بن منبه يقول : السكينة روح من الله تتكلم إذا اختلفوا في شئ تكلم ، فتخبرهم ببيان ما يريدون . تفسير القرآن العظيم - ج :١-ص ٣٠١.

إشارة إلى القلب، والسكينة: إلى ما فيه من العلم والإخلاص والإيمان وذكر الله الذي تطمـــئن به القلوب، قال: وسمي القلب سفط العلم وبيت الحكمة وتابوته، ورعاه وصندوقه، وعلى هذا يقال: **(اجعل سرك في وعاء غير سرب، وفي بيتٍ معلَّقِ الرتاج، ووعاءٍ موثق الأشراج)**[1]، قال: وجعل آيته أن صير قلبه مقر العلم، ومجمع السكينة بعد أن لم يكن له ذلك، **وعلى ذلك تسميته بالتابوت سمي عمر ابن مسعود- رضي الله عنهما كنيفاً ملئ علماً**[2]، وقال هذا القائل ما روي عن علي- عليه السلام، ورضي الله عنه: **أن السكينة ريح هفافة لها وجه كوجه الإنسان**، فإشارة إلى الروح أو إلى الملائكة، ولهذا روي **"كـان روحـا"** مـــن الله عز وجل- يكلمهم عند وقوع الاختلاف، ويسكنهم عند القتال[3] والله أعلـم بالحقائق.

١- هذا المثل ذكره الزمخشري في المستقصى في الأمثال - ج : ١- ص ٥٠ ، وأورده الراغب في مفردات ألفاظ القرآن - ص ١٦٢

٢- عن زيد بن وهب قال : إني لجالس مع عمر بن الخطاب ، إذ جاء ابن مسعود ، فكان الجلوس يوارونه من قصره ، فضحك عمر حين رآه ، فجعل عمر يكلمه ويهلل وجهه ويضاحكه وهو قائم عليه ، ثم ولي فأتبعه عمر بصره حتي توارى فقال : « كنيف ملئ علماً » وقد أورده الراغب في مفردات ألفاظ القران - ص ١٦٢ ، كما أورده الذهبي فى سير أعلام النبلاء . ج : ١- ص٤٩١ ، وابن سعد في طبقاته ج : ١- ص ١١٠ ، وأبو نعيم فى حلية الأولياء - ج : ١- ص ١٢٩.

٣- أورده ابن كثير فى تفسير القرآن العظيم - ج : ١- ص ٣٠١.

قوله - عز وجل :

﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾

الآية : (٢٤٩) - سورة البقرة .

الجند يقال للعسكر اعتباراً بالغلظة من الجند، أي الأرض الغليظة ثم يقال: لكل مجتمع جند، نحو:(**الأرواح جنود مجندة..**)[١]، والغرف تناول الماء، ويقال للمغترف غرفة، وللمرة غرفة، والغريف الماء المعرض للاغتراف، وتصور منه الرفع، فسمي العلية غرفة تشبيهاً بالمغترف، وبهذا النظر سمي مشربة، وسمي الغمام مادام عرفه كأنه لرطوبته معترف، وجوز الطريق وسطه، و(جاز منه) كأنه عبر الجوز، فكثر حتى صار الجايز لما لا يكره، وعلى نحوه قيل سائغ، وهو من ساغ الطعام في الحلق، وجاوز، وتجاوز استعير له هذا البناء، لتصور المكان متباعداً عن الإنسان تباعد لإنسان عنه، ولهذا قيل: سافر وتباعد والفئة فرقة من قولهم: فاءت رأسه، وقد تقدم أن أسماء الفرق كثيراً ما تشتق من الألفاظ المقتضية للقطع كالصرمة، والقطيع والطامة، وما القوة بالمحمول، ويستعمل في قوة الحيوان، وأكثر ما يقال في الأثقال الجسيمة، وإذا قيل في غيرها، فعلى التشبيه، وروي في الخبر أن طالوت لم يكن يثق بقومه، فأراد أن يمتحنهم، وكان قد سار بهم مفازة لم يجدوا فيها ماء، فانتهوا إلى نهر من الأردن وفلسطين، فامتحنهم به[٢]..

١- الحديث صحيح ، وأخرجه البخارى في الأنبياء : باب : "الارواح جنود مجندة تعليقاً » ، وأخرجه مسلم في البر والصلة برقم (٢٦٣٨) ، وورد في فتح البارى - ج : ٦ - ص ٢٦٣ ، وفي شرح السنة للبغوي - ج : ١٣ - ص ٥٧ ، وفي المفردات - ص ٢٠٧

٢ - أورد بن كثير في تفسيره لقوله تعالي (إن الله مبتليكم بنهر) قول ابن عباس وغيره « إنه نهر بين الأردن وفلسطين ، يعني نهر الشريعة المشهور . تفسير القرآن العظيم - ابن كثير - ج : ١- ص ٣٠٢

إن قيل: فكيف قال: ﴿**إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم**﴾، فنسب ذلك إلى الله عز وجل..؟

قيل: يجوز أن يكون الله تعالى ألقى ذلك في روعه كإلقاء الوحي في روع أم موسى، ويجوز أن يكون قد أخبره نبي زمانه عن الله، ويجوز أنه نسبه إلى الله لما قصد به وجهه وإن لم يكن الله قد أخبره به، كقوله: ابتلانا الله بكذا، ويبن تعالى أن أكثرهم لم يأتمروا له، وقال بعضهم: "**إن ذلك جعله الله مثالاً لهم**"، ومثلاً مضروباً للدنيا وأتباعها وأن من يتناول منها قدر ما يتبلغ به اكتفى واستغنى وسلم منها ونجا، ومن تناول منها فوق ذلك ازداد عطشاً، وعلى هذا قيل: "**الدنيا كالماء المالح**"، من ازداد منها شرباً ازداد عطشاً، وإلى هذا أشير في الخبر المروي "أن الله- عز وجل- إذا سأله عبد شيئاً من عروض الدنيا أعطاه، وقال له: خذه وضعفه حرصاً" **وإياه عنى النبي – عليه الصلاة والسلام بقوله: (لو أن لابن آدم واديين ذهب، ابتغى إليهما ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب)**[1]، وقوله: ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ**﴾ يجوز أن يكون معطوفاً على (هو ومعه) من صلة (آمنوا)، ويجوز أن يكون: (الذين آمنوا، ومعه) خبره، وهو الأجود، لأن الأظهر في قوله: ﴿**لا طَاقَةَ لَنَا**﴾ إن ذلك حكاية عمن شربوا، وإليه ذهب ابن عباس والسدي وقالا: "**هم أهل الكفر لا الذين آمنوا**"، وقال الحسن وقتادة وابن زيد: «**الذين قالوا: "لا طاقة لنا" هم المؤمنون**»، وقوله: ﴿**قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ**﴾ ظن هاهنا هو المفسر باليقين عند أهل اللغة، وهو المعرفة الحاصلة عن امارة قومه، ويدل على ذلك استعمال أن المشددة أو المخففة منها، نحو: ﴿**عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ**﴾ [2]، وإذا أريد الشك، استعمل معه (إن) التي تصحب المعدومين من الفعل، وقوله: (: من) يجوز أن يكون استفهاماً، وأن يكون خبراً وإن كان معنى الاستفهام يعود إلى معنى الخبر، ولكن متى قدر استفهاماً نصب فيه إذا حذف عنه من، وإذا قدرته خبراً وجرت، وسكن منهم بأن عرفهم أن لا اعتبار بكثرة العدد وقلته،وأحالهم على معرفتهم بالأعداد القليلة الغالبة الكثيرة، وقد تقدم الكلام في قوله تعالى: ﴿**وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾ ..

١- الحديث رواه ابن عباس سمعت الرسول صلى الله عليه وسلم يقول (لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغي ثالثاً ولايملأ جوف ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب) الحديث أخرجه البخارى في باب مايتقى من فتنة المال -ج : ١١ ص ٢٥٣ ، وأخرجه مسلم فى صحيحه حديث رقم ١٠٤٦، وأورده الراغب في مفردات ألفاظ القرآن ص ٨٦٢.

٢- سورة المزمل الآية : (٢٠) .

قوله - عز وجل :

﴿ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾

الآية (٢٥٠)- سورة البقرة .

البرز: المكان المرتفع، وبرز "**حصل فيه**"، وصار عبارة عن الظهور، وقيل للمشهور بالفضل: برز، و"**امرأة برزة** " قيل عفيفة، لأن رفعة المرأة بالعفة، لأن لفظ البرزة اقتضى ذلك، والأكثر أن البرزة هي التي لا تستقر، والفرغ: خلو المكان لما فيه، وخلو ذي الشغل من شغله، وسمي فرغ الدلو فرغاً باعتبار انصباب الماء عنه، وضربه ضربة مفرغة لدم البدن، والثبات: اللزوم في المكان، وعنه استعير قولٌ ثابت، أي صحيح لا يبطل، وفلان ثبت المقام لمن لا يبرح موقفه في الحرب منهزماً، ونصر الله عنده قد يكون بزيادة قوته وجرأته، وبإلقاء الرعب في قلوب أعدائه، وغير ذلك، ولم يعن أنهم رغبوا إلى الله عز وجل- في ذلك بالقول فقط، فالقول ليس بمغن مالم يعاضده فعل، ولا الفعل بمغن مالم تعاضده النية، فالمعنى لما برزوا رغبوا إلى الله بمقالهم واجتهادهم ونياتهم أن يمدهم بالصبر، وتثبيت القدم والنصرة على الكفرة..

قوله تعالى :

﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ الآية (٢٥١) سورة البقرة.

الهزم :دفع الشئ لليابس حتى يتحطم، كهزم الشن، وهزم الرعد مشبه به لصوت تكسره، وقيل أصابته هازمة دمر أي داهية كاسرة كقولهم فاقرة، والمهزام ما يحرك به للجمز والهمز يقاربه في الأمرين الكسر، والصوت والدفع صرف الشئ من مكان إلى مكان، أو عن حالة إلى حالة، ودافعت فلاناً ودفعته أزعجته، وفلان مدفع مزعج عن مكانه أو بستانه، ووصف السيل الكبير بالدفاع، لدفع بعضه بعضاً، بين تعالى أنه جمع لداود - عليه السلام- الملك والحكمة والنبوة، وهي أعظم فضيلة، إذ

لم تخص بمجموعها إلا بعض الأنبياء، وجعل لبعضهم النبوة دون الملك، وإن لم يُخْلِ أحد منهم من نصرته- لقوله تعالى:

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾[1]، وقال لموسى عليه الصلاة والسلام: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا﴾[2]، وقال: ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾[3]، لقوله ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ﴾[4]، فالكتاب: الأحكام، والميزان: العدالة، ومعنى الحكمة قد تقدم أنها معرفة حقائق الأشياء وحقيقتها إنما هي لله عز وجل، وإذا استعمل في غيره، فمبلغ ذلك تقدم طاقة البشر، وهي أعم من النبوة، فكل نبي حكيم، وليس كل حكيم نبياً، وقوله: ﴿وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ إشارة إلى العلوم النبوية التي لا وصول إليها إلا بالوحي، وفي قوله تعالى:

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ﴾ تنبيه على فضيلة الملك، وأنه لولاه لما استتب أمر العالم، ولهذا قال الدين والملك مقترنان، وتوأمان لا يفترقان، ففي ارتفاع أحدهما ارتفاع الآخر، لأن الدين أس، والملك حارس، ومالا أس له فمهدوم، ومالا حارس له فضائع، وعلى ذلك قوله: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ﴾[5] الآية إن قيل: على أي وجه دفع الله الناس ببعضهم؟ قيل: على وجهين أحدهما: دفع ظاهر، والثاني دفع خفي، قال: فالظاهر، ما كان بالسواس الأربعة الذين هم الأنبياء، والملوك، والحكماء والوعاظ، فسلطان الأنبياء علي الكافة خاصهم، وعامهم، وظاهرهم، وباطنهم، وسلطان الملوك علي ظواهر الكافة دون الباطن وسلطان الحكماء على الخاصة دون العامة، وسلطان الوعاظ على بواطن العوام وأما الدفع الخفي فسلطان العقل، فالعقل يدفع عن كثير من المقابح، وهو السبب في التزام حكم السلطان الظاهر، وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾، إن قيل: ما فائدة ذلك بعد قوله: آنفاً ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾[6]؟

---

١ - سورة غافر : الآية (٥١).
٢ - سورة القصص : الآية (٣٥).
٣ - سورة النساء : الآية (٥٤).
٤ - سورة الحديد : الآية (٢٥).
٥ - سورة الحج : الآية (٤٠).
٦ - سورة البقرة : الآية (٢٤٣).

قيل: بين في الأول فضله على الناس بما خصهم به من الفضائل الإنسانية، وبين هاهنا نعمته على جميع العالمين، والحيوانيات، والروحانيات والجمادات، فإن العالمين يتناول كل ذلك، وإلى نحوه أشار بقوله: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾[1].

قوله - عز وجل :

﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ الآية : (٢٥٢) - سورة البقرة .

إن قيل: مافائدة قوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ في هذا الموضع؟ وهل خفي ذلك عليه حتى يذكره به؟ وما تعلق ذلك بما قبله؟

قيل: يجوز أن يكون تقديره **(وإنك لمن المرسلين بها)**، لكن لفظة بها إيجاز، أو يجوز أن تكون الآية متقدمتين محذوفتي النتيجة على تقدير: إذا كان حال المرسلين وأممهم مانتلوه عليك، وأنت مرسل إلى قومك كما أرسل المرسلون إلى قومهم، فلا عجب أن تجري مع قومك مجرى أمرهم مع قومهم، والإشارة بذلك إلى معنى قوله: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾[2]، وقوله: ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾[3].

إن قيل ما فائدة اقتران التلاوة بالحق؟

قيل: قوله: بالحق في موضع الحال، كأنه قال: وهو الحق، وعلى تحمل عندي قوله: رب أحقُّ بالحق.

---

١ - سورة: الإسراء: الآية (٤٤).

٢ - سورة هود : الآية (١٢٠).

٣ - سورة الأحقاف : الآية (٣٥).

قوله - عز وجل :

﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾

الآية : (٢٥٣) – سورة البقرة .

إن قيل: على أي وجه تفضيل بعضهم على بعض؟

أبتخصيص بعضهم بمنحة؟ كقولك: "**فضلت فلاناً في العطاء؟ أو بالحكم والقول**"، كقولك: "**فضلت زيداً على عمرو في العلم**" ؟ قيل: بالأمرين جميعاً، فإن الله تعالى جعل لمن رشحه للنبوة فضائل خصه بها، ابتداء وفضائل هداه إليها ليصيبها، فما خصهم به أن جعل كل واحد في نفسه وأخلاقه معرًّى من عاهة تشينه، وأيده بأنواع كرامات وزيادة معاون تشرح صدره، وحدد عليه في كل وصايا تسدده، وعاتبه في أذى زلة ظهر منه، فهذا التفضيل الذي جعله ابتداء، وأما تفضيله لهم بالحكم، فعلى حسب ما يظهر من أفعالهم، فمعلوم أنه ليس حظ يونس – عليه الصلاة والسلام– حيث حذر نبينا– عليه الصلاة والسلام أن يكون مثله في الصبر بقوله:

﴿ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴾[1] كحظ الذين حثه علي الاقتداء بهم في قوله: **﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾**[2]، فالتفضيل يحصل بالأمرين، وللتفاضل بينهم قال عليه الصلاة والسلام: «**فضلت على الأنبياء بست : أوتيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب، وأحلت لي الغنائم، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، وختم بي النبيون، وأرسلت إلى الناس كافة**»..[3]

١ – سورة القلم : الآية (٤٨).

٢ – سورة الأحقاف : الآية (٣٥).

٣– الحديث عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلي الله عليه وسلم « نصرت بالرعب وأوتيت جوامع الكلم ، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً وبينا أنا نائم أتيت بمفاتيح خزائن الارض، فتلت في يدى) الحديث أخرجه البخاري في كتاب الاعتصام ج : ١٣ ص ٢٠٩، وأخرجه البغوي في شرح السنة ج : ١٣ ص ١٩٨ ، وأخرجه الإمام أحمد بن حنبل فى مسنده ج : ١– ص ٢٥٠، ج:٢ ص ٢٤٠ ، ص ٢٥٠، ٤١٢، ٤٤٢، ٥٠١، ج : ٥ ص ١٤٥ وأخرجه البيهقي فى سننه ج : ٢ ص ٤٣٣ ، ٤٣٤ وأورده المتقي الهندى في كنز العمال حديث رقم ٣١٩٠١ وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ج : ١ ص ٧٢ ، ج : ٢ ص ٩٠ و ج ٨ ص٢٥٨، ٢٥٩.

ولما كانت هذه الأشياء موهبية لا مكتسبة، قال عليه الصلاة والسلام: «**أنا سيد ولد آدم ولا فخر**»[1] تنبيهاً أن الفخر لا يستحق إلا بالمكسوب دون الموهوب، ونحو هذه الآية في تفضيل بعض الأنبياء على بعض قوله: ﴿ **وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً** ﴾[2].

وهذا حكم في الملائكة بقوله: ﴿ **اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ** ﴾[3]، وقوله: ﴿ **وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ** ﴾ قيل إشارة إلى النبي ﷺ، فإن قيل: ولِمَ لَمْ يصرح بذكره أو بوصفه، كما فعل بموسى وعيسى؟ قيل: تقدم أن مورد كلام الله تعالى مورد خطاب الناس فيما بينهم، ولما كان المستحسن في بعض المواضع أن يذكر الممدوح المخاطب تعريضاً، فيكون أبلغ من التصريح لما جرى من عادتهم أن مدح المواجهة هجاء، والثناء في الوجه قبيح، وتارة لأن الإطراء قد يدعو إلى الغفلة، وتارة لكون الممدوح بذلك المدح مستغنى به عن ذكره كما قال الشاعر:

وَإِنِّي فِي بَثِّي ثَنَائِكَ جَاهِداً ... وَقَدْ عَلِمَتْ أَضْعَافَ ذَاكَ الْخَلَائِقُ

كَمَنْ قَالَ إِنَ الثَّلْجَ أَبْيَضُ بَارِدٌ ... وَأَنَّ شِهَابَ الْنَارِ أَحْمَرُ حَارِقُ

وَهَذَا وَهَذَا بَيِّنَانِ كِلَاهُمَا ... لِمَنْ هُوَ رَائِي وَلِمَنْ هُوَ ذَائِقُ [4]

وروح القدس إشارة إلى ما خص به عيسى مما كان يحي به الموتى ملكاً، أو قوة، أو اسماً من أسمائه أو علماً، وقد فسر بكل ذلك، وسمي جبريل- عليه السلام- روح القدس، والروح الأمين في قوله: ﴿ **نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ** ﴾[5]، وفي قوله: ﴿ **قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ** ﴾[6].

---

١ – الحديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده ، وابن ماجة في سننه كما أخرجه الترمذي في سننه ، وقال : حسن صحيح والحديث رواه الزبيدى فى إتحاف السادة المتقين ج : ٧ ص ٥٧٢، وأخرجه المتقى الهندى فى كنز العمال – حديث رقم ٣٢٠٤٠ ، وحديث رقم (٣٣٦٨٢).

٢ – سورة الإسراء – الآية: (٥٥).

٣ – سورة الحج – الآية : (٧٥)

٤ – الأبيات ذكرها الراغب فى مجمع البلاغة بدون نسبة فى باب : "الإطراء والثناء والشكر " . ص ١٨٣ تحقيق: الدكتور/ عمر الساريسي.

٥ – سورة الشعراء : الآيتان (١٩٣ ، ١٩٤).

٦ – سورة النحل : الآية : (١٠٢).

إن قيل: على أي وجه قال: ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِم ﴾، وكيف قال: ﴿ وَلَـٰكِنِ اخْتَلَفُوا ﴾، ولفظة ﴿ لَكِنِ ﴾ هي للتدارك، فما المتدارك هاهنا؟

قيل: ذكر تعالى أنه لو شاء أن لا يقتتلوا الفعل، ولكن أراد ذلك لأنهم اختلفوا، فمنهم من آمن ومنهم من كفر، فكانت الحكمة تقتضي أن يؤمر المؤمنون بقتال الكافرين، ففي قوله: ﴿ وَلَـٰكِنِ اخْتَلَفُوا ﴾، حذف على سبيل الاختصار تقديره "لكن شاء فإنهم اختلفوا، أو الاختلاف كالسبب لتلك المشيئة، فإن قيل: وما معنى تكرير: ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾؟

قيل: أما الأول: فلأنه أمرهم بالاقتتال، لأنهم اختلفوا، وفي الثاني: ذكر أنه لو شاء لم يكن منهم اقتتال على وجه لابعده ولا قبله، أما لأنه لم يكن يعطيهم القوة أو يميتهم قبل القتال، أو كان يمنعهم بمرض أو بسبب من الأسباب، ويجوز أن يريد بالاقتتال الأول: الاختلاف المؤدي إلى الاقتتال على طريقة ما يقال بين القوم، اقتتال: أي اختلاف يؤدي إلى ذلك، والمعنى لو شاء الله ما اختلفوا وكانوا أمة واحدة، كقوله: ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾(١)،. وقوله: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾(٢) الآية..

وبالاقتتال الثاني حصول المحاربة بينهم..

إن قيل: ما الفرق بين المشيئة والإرادة؟

قيل: أكثر المتكلمين لم يفرقوا بينهما وإن كانتا في أصل اللغة، وفي الحقيقة مختلفتين وذلك أن المشيئة أصلها من شيء، والشيء اسم للموجود، والمشيئة قصد إلى اتخاذ الشيء، ثم يقال: شاء الله كذا أي أوجده بعد أن لم يكن موجوداً، وقال بعضهم: الشيء والشاء من أصل واحد، وقلب الفعل، واستدل

١- سورة المائدة - الآية : (٤٨).

٢- سورة هود - الآية : (١١٨).

على ذلك بقولهم : أشياء، وتأخير الهمزة فيه وإن كان أكثر أهل التصريف ينكرون ذلك، لكونها غير مصروفة، ويقولون كان فعلاً كطرفاء، فقلب، فصار على أمعاء، ومن اعتبر هذا الاعتبار بقول الواو والياء، لاعتبار ما عناهما، فكل واحدة منهما يعرض الانقلاب إلى الأخرى على حسب ما يقتضي خفة اللفظ وثقله أو التفريق بين معنيين، وأما الإرادة، فمصدر أراد، أي طلب، وأصله أن يتعدى إلى مفعولين، لكن اقتصر على أحدهما في التعارف، وفي الأصل لا يقال إلا لأن تطلب ممن يصح منه الطلب كالإطلاب، فإن بدل منه هذا الاعتبار في التعارف، وصار لطلب الشئ والحكم بأنه ينبغي أن يفعل أولا يفعل، وإذا استعمل في الله، فهو للحكم دون الطلب، إذ هو تعالى منزه عن الوصف بذلك[1].

١- قال الراغب في مفردات ألفاظ القرآن : والمشيئة عند أكثر المتكلمين كالإرادة سواءً ، وعند بعضهم المشيئة في الأصل : إيجاد الشئ وإصابته ، وإن كان قد يستعمل في التعارف موضع الإرادة ، فالمشيئة من الله تعالي هي الإيجاد ، ومن الناس هي الإصابة، قال : والمشيئة من الله تقتضي وجود الشئ ، ولذلك قيل : (ماشاء الله كان ومالم يشأ لم يكن) ، والإرادة منه لا تقتضي وجود المراد لامحالة ، ألا ترى أنه قال : (يريد الله بكم اليسر ولايريد بكم العسر) (البقرة / ١٨٥) ، (وما الله يريد ظلماً للعباد) (غافر – ٣١)، ومعلوم أنه قد يحصل العسر والتظالم فيما بين الناس ، قالوا : ومن الفرق بينهما أن إرادة الإنسان قد تحصل من غير أن تتقدمها إرادة الله ، فإن الإنسان قد يريد أن لايموت ويأبى الله ذلك ، ومشيئته لاتكون إلا بعد مشيئته بقوله : (وما تشاءون إلا أن يشاء الله) (الإنسان / ٣٠) ، روى أنه لما نزول قوله : (لمن شاء منكم أن يستقيم) ، (التكوير / ٢٨)، قال الكفار : الأمر إلينا إن شئنا استقمنا ، وإن شئنا لم نستقم ، فأنزل الله تعالي : (وماتشاءون إلا أن يشاء الله) ، وقال بعضهم : لولا أن الأمور كلها موقوفة على مشيئة الله تعالي ، وأن أفعالنا معلقة بها ، وموقوفة عليها لما أجمع الناس علي تعليق الإستثناء به في جميع أفعالنا نحو : (ستجدنى إن شاء الله صابراً) (الكهف / ٦٩) ، (وستجدني إن شاء الله من الصابرين) (الصافات / ١٠٢)، (يأتيكم به الله إن شاء) (هود/ ٣٣) ، (ادخلوا مصر إن شاء الله) (يوسف /٦٩)، (قل لا أملك لنفسي نفعاً ولاضراً إلا ماشاء الله) (الأعراف / ١٨٨) ، (ومايكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا) (الأعراف // ٨٩) ، (ولاتقولن لشئ إني فاعلٌ ذلك غداً إلا أن يشاء الله) (الكهف / ٢٤) .

قوله - عز وجل :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾الآية : (٢٥٤) - سورة البقرة .

قد تقدم الكلام في معنى البيع والشراء، وإن كل واحد منهما يوضع موضع الآخر، ومبايعة الولاية من ذلك، والبيعة يجوز أنها سميت بذلك نظراً إلى نحو معنى قوله: **﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾**[1] الآية، كأنه الحالة التي يتبع الإنسان نفسه فيها من الله فسمي المكان الذي يحصل ذلك فيه بها، والخلل انفراج الشيئين، يقال: خللته: أي أصبت خلله، فاستعير منه الخليل، إما لتخلل كل واحد منهما قلب الآخر كما قيل: الحبيب لوصول كل واحد منهما إلى حبة قلب الآخر.

قال الشاعر:

قَدْ تَخَلَّلْتِ مَسْلَكَ الرُّوحِ مِنِّي ... وَبِذَا سُمِّي الْخَلِيـــلُ خَلِيلاً[2]

أو لأنه تخلل أحوال الآخر، وعرف سرائره، ولهذا قيل أطلعته على عَجُزَيّ، وتحرى فيهما عرقين في البطن، وبهذا النظر قال الشاعر:

لا تَكْتُمَن ذَاكَ الطَّبِيبَـــــا ... وَلا الصَّدِيقَ سِرَّكَ المَكْتُومَا[3]

أولاعتبار افتقار كل واحد منهما إلى الآخر، وبهذا النظر قيل: الصديق للإنسان ضروري، وقوله تعالى: **﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾**[4]على الاعتبار الأخير، وهو افتقاره إلى الله- عز وجل- في كل حال، كما أخبر عن موسى بقوله: **﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾**[5]، وبهذا الفقر أشرف غنى،

---

١ - سورة التوبة : الآية (١١١).

٢ - البيت لبشار بن برد وبعده:

فإذا ما نطقت كنت حديثي ... وإذا ما سكتُ كنت الغليلا

وهي في ديوان بشار - ح : ٤ ص١٦١. كما في أدب الدنيا والدين ص ١٤٦ وأورده الفيروز آبادي في بصائر ذوي التمييز- ج :٢ - ص٥٥٧ ولم ينسبه ، وأورده الراغب في مفردات ألفاظ القرآن - ص ٢٩١.

٣ - لم أهتد إلى نسبته .

٤ - سورة النساء : الآية (١٢٥).

٥ - سورة القصص : الآية (٢٤).

بل أشرف فضيلة يكتسبها الإنسان، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «**اللهم اغنني بالافتقار إليك، ولا تفقرني بالاستغناء عنك**»(١).

حث الله تعالى المؤمنين على مارزقهم من النعمى النفسية والبدنية والخارجة، وإن كان الأظهر في التعارف وإنفاق المال، لكن قد يراد به بذل النفس والبدن في مجاهدة العدو والهوى وسائر العبادات كما تقدم في قوله: ﴿**مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً**﴾(٢)، ولما كانت الدنيا دار اكتساب وابتلاء، والآخرة دار ثواب وجزاء، بين أن لا سبيل للإنسان إلى تحصيل ما ينتفع به في الآخرة ابتداءً، وذكر هذه الثلاثة لأنها أسباب اجتلاب المنافع المقصود إليها أحدها المعاوضة، وأعظمها المبايعة، والثاني: ما يناله بالمودة، وهو المسمى الصلات والهدايا، والثالث: ما يصل إليه بمعاونة الغير، وذلك هو الشفاعة فبين تعالى أن من لم يكتسب في الدنيا ما ينتفع به في الآخرة لم يحصل له ذلك في الآخرة، وعلى هذا قال: ﴿**وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ**﴾(٣)، وقوله: ﴿**مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ**﴾، ﴿**وَلاَ خِلاَلٌ**﴾(٤)، وفي الآية قول آخر وهو أن الناس في عبادة الله تعالى على ثلاثة أضرب، سابق حصل له منزلة الخلة، والمحبة المقصود إليها بنحو قوله: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ**﴾(٥)، وغيره من الآيات التي تجري مجراها، وهو الذي يعبد الله لا لرغبته، ولا رهبة، ولا لطلب مثوبة، ومقتصد حصل له منزلة المبايعة المذكورة في قوله: ﴿**إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ**﴾(٦)، وفي قول النبي ﷺ :

---

١ - هذا ليس من كلام رسول الله - صلى الله عليه وسلم ، وإنما هو من دعاء عمرو بن عبيد انظر : جواهر الألفاظ ص ٥، ومجمع البلاغة للراغب - ج :١- ص٣٤٦، ومفردات ألفاظ القرآن ص ٢٩١، ص ٦٤٣.

٢ - سورة البقرة : الآية (٢٤٥).

٣ - سورة البقرة : الآية (١٢٣).

٤ - سورة إبراهيم - الآية : (٣١).

٥ - سورة البقرة : الآية (٢٢٢).

٦ - سورة التوبة : الآية (١١١).

«**الناس غاديان: مبتاع نفسه فمعتقها، وبائع نفسه فموبقها**»،[1] وهو الذي يعبد الله خوف عقاب ورجاء ثواب، وظالم لنفسه، وهو المؤمن المقصر في استفادة المنزلتين المتقدمتين المتواكل في علمه وعمله المذكور في قوله: ﴿ **وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم** ﴾[2]، وهو المستحق للشفاعة المذكور في قوله ﷺ: «**شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي**»،[3] فبين تعالى أن من لم يحصل له إحدى هذه المنازل الثلاث فلا سبيل له إلى اكتسابها في الآخرة، وقوله: ﴿ **وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ** ﴾، لما كانت العدالة بالقول المجمل ثلاث:

عدالة بين الإنسان ونفسه، وعدالة بينه وبين الناس، وعدالة بينه وبين الله تعالى، كذلك للظلم ثلاثة في مقابلتها وأعظم العدالة ما بين الإنسان وبين الله وهو الإيمان، وأعظم الظلم ما في مقابلته وهو الكفر، فلذلك قال: ﴿ **وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ** ﴾، أي هم المستحقون إطلاق هذا الوصف عليهم بلا مثوبة..

إن قيل: كيف تعلق قوله: ﴿ **وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ** ﴾ بما قبله؟

قيل: لما نفى أن يكون للكفار شئ مما ذكره في الآخرة، بين أن ذلك ليس بظلم منه لهم، لكن هم الظالمون إذ هم الذين خسروا أنفسهم..

إن قيل:

كيف نظم هذه الآية مع التي قبلها؟

قيل: لما بين في الأولى أن منهم من آمن ومنهم من كفر، خوف المؤمنين أن يتحروا ما يخشى منه

١- الحديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده عن كعب بن عجرة - ج :٣-ص ٣٢١، ولفظة: (الناس غاديان، فبائع نفسه فموبقها، ومبتاع نفسه فمعتقها) وأخرجه ابن عبد البر في التمهيد - ج:٢-ص٣٠٢، كما أخرجه المنذري في الترغيب والترهيب -ج:٢-ص١١،ج:٣-ص١٩٤ من حديث كعب بن عجرة.

٢- سورة النساء : الآية (٦٩).

٣- الحديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده -ج:٢-ص٢١٢، وأخرجه ابن ماجة في باب الزهد - ص ٣٧، كما أخرجه الترمذي في باب القيامة - ص١١، وأخرجه الدارمي في السنة- ص٢١.

اجتلاب الكفر، وهو ترك الإنفاق على ما تقدم قوله..

قوله - عز وجل :

﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ الآية :(٢٥٥) - سورة البقرة.

قد تقدم أنواع الحياة، وأن أشرفها الحياة الأبدية في الآخرة، وإذا وصف الباري - عز وجل- بها، فمعناه الدائم الذي لم يزل ولا يزال،ولا يصح عليه الموت بوجه، والتحية بذل الحياة فإذا قيل "**حياك الله**"، فمعناه : **خولك الحياة**، وكذا إذا قيل: "**حياك فلان**"، غير أن الأول إعطاء بالفعل ، والثاني بالقول وكذلك التسليم إعطاء السلامة على أحد الوجهين، والقيوم فيعول، وقيام: فيعال، وكذلك واوه، لأن الواو والياء إذا اجتمعا والأولى ساكنة، قلبت الواو ياء، وعلى ذلك "**ديَّار**"، ولو كان فعلها لقيل قوام، ودوار "**يقال قام كذا**" أي دام، وقام بكذا، أي حفظه، والقيوم في وصفه تعالى هو الدائم الحافظ للعالم وجواهرة وأعراضه، والقصد بمعناه إلى قوله: **﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا ﴾**[1]، ومن قال : القيوم بالشئ: العالم به، فصحيح أيضاً، لأن حفظ الشئ يقتضي المعرفة به، ولهذا قيل للمعرفة الحفظ، ولضدها النسيان، وأصل النسيان الترك، والأخذ يعبر به عن الاستيلاء على الشئ، والقهر يقال: أخذته الحمى، وفلان مأخوذ ومقهور، والسِّنَةُ: عبارة عن الفتور والغفلة، والنوم يفسر على أوجه كلها صحيح، الأول: أنه استرخاء أعصاب الدماغ برطوبات البخار الصاعد إليه، وذلك بالنظر الطبي، والثاني : أن يتوفى الله النفس من غير موت، وهو الذي قال: **﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ﴾**[2]، وقيل: ترك الروح: استعمال الحواس من خارج إجماماً لها[3]، وسئل[4] بعض

---

١ - سورة فاطر : الآية (٤١).

٢- سورة الزمر الآية (٤٢).

٣ - أجم الإنسان والفرس ونحوهما: استراح، فذهب إعياؤه، وأجم الأمر: دنا وحان، ويقال: أجمت الحاجة، وأجم الفراق. والماء ونحوه تركه يتجمع .المعجم الوسيط- مادة : جم.

٤ - في المخطوطه: (وسبيل)، وهو خطأ من الناسخ.

الحكماء عن الفرق بين النوم والموت، فقال: الموت نوم ثقيل، والنوم موت خفيف، ولما كان النوم يقتضي السكون، قيل لمن يسكن إلى إنسان أو شئ استنام إليه، وإلى مقتضاه أشار بشار بقوله:

إِذَا أَيْقَظَتْكَ حُرُوبُ الْعِدَا ... فَنَبِّهْ لَهَا عَمْراً ثُمَّ نَمْ(١)

﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ قيل: الماضي، ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ المستقبل، وقيل على العكس من ذلك، وهذا الاختلاف لاختلاف تصور ما اعتبر به الخلف والقدام، ولهذا يقال: خلفت كذا لما قضيته، وخلفي كذا لما لم تفعله بعد، وعلى ذلك قيل: وراءهما: الخلف والقدام، وقيل: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾: الدنيا، ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ الآخرة، وقيل بالعكس من ذلك، وقيل: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ المحسوس، ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ المعقول، وقيل: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ المحسوس والمعقول، ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ الغيوب التي لا سبيل للإنسان إلى معرفتها، والكرسي في تعارف العامة اسم لما يقعد عليه، وهو في الأصل منسوب إلى الكرسي أي الملبد، والكراسة للمتكرسة من الأوراق، والكروس: للمتراكب بعض أجزاء رأسه على بعض لكبره، والكرياس: الكنيف المكرس بالفناء إلى السطح، وروي ابن عباس: أن الكرسي: العلم، وليس ذلك بتعبد من حيث الاشتقاق نسبة إلى الأوراق التي تثبت فيها العلوم، كقولك: كراسي، وقيل: كرسيه: أصل ملكه، وكراسي القوم معتمدهم، وأنشد:

تَحُفُّ بِهِمْ بِيضُ الْوُجُوهِ وَعُصْبَةٌ
كَرَاسِيُّ بِالْأَحْدَاثِ حِينَ تَنُوبُ(٢)

---

١ - البيت لبشار بن برد وهو فى ديوانه ج: ٤ - ص ١٨٢ وهو من قصيدة مطلعها :-

ونبئت قومًا بهم جنة ... يقولون من ذا وكنت العلم

وقاله يمدح عمر بن العلاء - وذلك كما يقول الحسن الكرمي في « قول على قول » - ج: ١٢ ص٢٨. ومنها:

إذا ما عدمت فأحي السرى ... إلى ابن العلاء طبيب العدم
دعاني إلى عمـــــر جوده ... وقول العشيرة بحر خضـم
ولولا الذي خبروا لـم أكـن ... لأمدح ريحانة قبل شـــم

إلى أن يقول:

فقل للخليفة إن جئته ... نصيحاً ولا خير في المتهم

إذا أيقظتك ....

وانظر: مخطوط الدر الفريد وبيت القصيد- محمد بن أيدمر - ج: ١ - ص ٣٠٤.

٢- قال الطبري في تفسيره: رواية هذا البيت في أساس البلاغة للزمخشري عن قطرب: به في موضع (بهم) لم ينسبه. قال: ويقال للعلماء: « الكراسي » عن قطرب، وأنشد البيت ج :٥- ص٤٠٢. وأورده أبو حيان في البحر المحيط - ج :٢ ص٢٨٠ ولم ينسبه وأورده الزمخشري في أساس البلاغة مادة (كرس) وأورده الماوردي في النكت والعيون - ج :١ ص ٣٢٥.

وقيل: كرسيه : مملكته، وقيل: اسم الفلك المحيط بالأفلاك، ويشهد لذلك ما روي أبو ذر عن النبي ﷺ قال: **(ما السماوات السبع في جنب الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة، وفضل العرش على الكرسي كفضل تلك الفلاة على تلك الحلقة)**[1]، وقال عليه الصلاة والسلام: **(الكرسي لؤلؤه طولها لا يعلمها العالمون، وأعظم من سبع سماوات وسبع أرضين، وهو من خير الجوهر)**[2]، وعن ابن عباس أن رجلاً أتاه، فسأله ثلاث مرات عن هذه الآية، وعن قول الله : **﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾**[3]، فلم يرد عليه شيئاً، فلما خف عنه الناس، قال له الرجل: ما منعك أن تجيبني؟

فقال: «**وما يؤمنك إن أخبرتك أن تكفر؟ سماءٌ تحت أرض، وأرض فوق سماء، مطوياتٌ بعضها فوق بعض، يدور الأمر بينهن**»،[4] والخبر الأول يدل أن جوهر الكرسي والسماء أشرف مما عرفناه، والخبرُ الأخيرُ يدل على أن الفلك كرويٌّ، ومارُوى أن الكرسي موضع القدمين، وأن له أطيطا كأطيط الرحل الحديد فصحيح[5]، ومعناه لا يخفي على من عرف الله عز وجل – وعرف الأجرام السماوية

---

١ – الحديث عن أبي ذر : قلت : يارسول الله أيما أنزل عليك أعظم ؟ قال (آية الكرسي) ، ثم قال : ياأباذر : ماالسماوات السبع مع الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة ، وفضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على الحلقة) أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات ص٥١١، وأخرجه ابن أبي شيبة في كتاب العرش ص ٧٧ وأورده ابن كثير في تفسيره ج :١-ص٣٠٩ : ص٣١٠ من حديث أبي ذر وأورده ابن حجر العسقلاني في فتح الباري وقال صححه ابن حبان ، وله شاهد عن مجاهد أخرجه سعيد بن منصور في التفسير بسند صحيح ، كما أورده الراغب في مفردات ألفاظ القران ص ٥٥٩ ، ص ٧٠٦، وأورده القرطبي في تفسيره من رواية أبي إدريس الخولاني عن أبي ذر وقال : أخرجه الآجري وأبو حاتم البستي في مسنده والبيهقي، وذكر أنه صحيح تفسيرالقرطبي ج :٢- ص ١٢٠١ : ص ١٢٠٢.

٢ – الأثر أورده ابن كثير في تفسيره لقوله تعالى (الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن) الآية (١٢- سورة الطلاق)، فقال حدثنا ابن حميد بسنده إلى سعيد بن جبير قال : قال رجل لابن عباس «الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن» الآية ، فقال ابن عباس : مايؤمنك أن أخبرتك بها فتكفر : وأورد ابن كثير مارواه البيهقي في كتاب الأسماء والصفات في هذا الأثر عن ابن عباس أنه قال في هذه الآية سبع أرضين في كل أرض نبي كنبيكم وآدم كآدم ، ونوح كنوح ، وإبراهيم كإبراهيم ، وعيسى كعيسى ثم أورد قول البيهقي فيه : إسناد هذا عن ابن عباس صحيح ، وهو شاذ لاأعلم لأبي الضحى عليه متابعاً . والله أعلم تفسير القرآن العظيم – ج :٤-ص٣٨٥.

٣ – سورة الملك : الآية (٣).

٤ – هذا حديث رواه ابن كثير عن ابن جرير في تفسيره ج :١-ص٣٠٩ كما أورده ابن حجر العسقلاني في فتح الباري رواية عن ابن أبي حاتم عن ابن عباس ورواية عن ابن المنذر بإسناد صحيح عن أبي موسى انظر : فتح الباري – ج :١٢ -ص ٥٢٦.

٥ – الحديث أورده ابن كثير في تفسيره بسنده إلى عمر رضي الله عنه قال : (أتت امرأة إلى رسول الله صلي الله عليه وسلم فقالت: ادع الله أن يدخلني الجنة قال : فعظم الرب تبارك وتعالى وقال : « إن كرسيه وسع السموات والأرض وإن له أطيطاً كأطيط الرحل الحديد من ثقله » ، وقد رواه البزار في مسنده المشهور، وعبد بن حميد وابن جرير في تفسيريهما ، والطبراني وابن أبي عاصم وفي كتاب السنة لهما والحافظ الضياء في كتابه المختار من حديث أبي اسحق السبيعي عن عبد الله بن خليفة وليس بذاك المشهور وفي سماعه من عمر نظر وقال ابن كثير :ثم منهم من يرويه عنه عن عمر موقوفاً ، ومنهم من يرويه عن عمر مرسلاً . ومنهم من يزيد في متنه زيادة غريبة ومنهم من يحذفها تفسير القرآن العظيم ج : ١- ص٣١٠.

ومجازات اللغة، ونظر من المعنى إلى اللفظ لا من اللفظ إلى المعنى، ومن لم يعرف ذلك فحقه أن يسلم اللفظ للرواية دون تكذيب الآية، ويترك الخوض فيما لا يعلم اتباعاً لقوله تعالى: ﴿**وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ**﴾[1]، وليس في إثبات الكرسي له إثبات كونه جسماً محدوداً، كما أنه ليس في إثبات البيت له إثبات كونه ساكنة وليس في نسبة القدم إليه إثبات جارحة، كما أنه ليس في قوله – عليه الصلاة والسلام في وصف أولياء الله عز وجل- "**أكون سمعه الذي يسمع به، وعينه التي يبصر بها، ويده التي يبطش بها**"[2]. إثبات جارحة، و"لا يؤوده"- لا يثقله أصله من الأول العوج، ولما جرت العادة أن متحمل الثقل يعوج في الممر استعير (أده) كذا للثقل، وقوله: ﴿**لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ**﴾ معناه: الله هو الذي يحق له العبادة لا غير، وقيل: الله الذي ولهت الأشياء كلها له، وذاك أنه مامن إنسان مؤمن وكافر، بل مامن حيوان إلا إذا نابته نابية شديدة اعتمد عليه، ووله إليه، ولهذا قيل: "الله محبوب الأشياء كلها إما بطبعها، وإما بقصدها"[3]، وقوله: ﴿**لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ**﴾ تأكيد لما اقتضاه الحي القيوم- تنبيهاً أنه وإن شارك الأحياء في الاسم، فقد فارقها في الحقيقة، إذ كان سائر الأحياء لا ينفك من غفلة ونوم..

إن قيل: كيف خص بملكه ما في السماوات والأرض، وذلك يوهم أن ليس له السماوات والأرض؟

قيل: لم يرد بقوله (في السماوات والأرض) معنى الشئ في الوعاء وفي المكان، وإنما يريد ما تركب منه السماوات والأرض من الجواهر والصور والأعراض والصنع، فصار ذلك من وجه أبلغ من قولك (له السماوات والأرض)، إذ قد يحصل للمالك ماليس بمصنوعه، على أنا لو نظرنا من حيث

---

١ – سورة البقرة : الآية (١٦٩).

٢ – الحديث أخرجه البخاري في صحيحه – ج :٨- ص ١٠٥ (باب التواضع) ، وأورده ابن حجر العسقلاني في فتح الباري بشرح صحيح البخاري ج :١٧ – ص٣١٧، ٣١٨، ٣١٩، ٣٢٠، ٣٢١ بسنده إلى أبي هريرة ، وأورده النووي في رياض الصالحين فى باب . علامات حب الله تعالي للعبد – ص ١٣٩ ، وورد في كتاب : الأحاديث القدسية – ج : ١- ص٨١.

٣ – هذا من قول بعض الحكماء، وأورده الثمين الحلبي في كتابه المخطوط عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ في مادة (أله) كما ذكر ذلك صفوان داوودي في تحقيقه لكتاب مفردات ألفاظ القرآن، ص ٨٣.

نظرت، لم يكن يقتضي ذلك ما ذكر، لأنه لما قصد تعالى تعريفنا قدرته، ذكر لنا ما يمكننا إدراكه لنستدل به على مالا نعرفه والإحاطة بالسماوات والأرض لا سبيل لنا اليها، وقد تقدم آنفاً حقيقة الشفاعة[1]، وذكر مستحقيها، وأن ذلك لمن كان منه تقصير في العلم والعمل، غير أنه لم يخرج عن خطر الشريعة وعن الائتمار لرسل الله وخلفائهم من أهل العلم في الاعتماد الوصول وكون ما جاءوا به حقاً، وهم الذين أذن تعالى في الشفاعة فيهم، وعناهم بقوله:

﴿وَلا يَشْفَعُونَ إلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾[2]، وقوله: **﴿وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ﴾**، نفي تعالى عنا الإحاطة بشئ من علمه، وكيف يمكن لنا ذلك، وقد علم أن المحيط بنا علماً، كما قال- عز وجل: **﴿قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾**[3]، ومن المحال أن يكون المحيط بكل شئ يحيط به شئ، وقوله: **﴿مِّنْ عِلْمِهِ﴾** على وجهين: أحدهما مما يعلمه، وهو ويكون العلم مضافاً إلى الفاعل، والثاني: أن يعلمه الخلق ليكون مضافاً إلى المفعول به، أي لا يحيطون أي يعلموه تنبيهاً أن معرفته على الحقيقة متعذرة، بل لا سبيل إليها، وإنما غايتها أن يعرف الموجودات، فيتحقق أن ليس إياها، ولا شيئاً منها، ولا شبيهاً بها،

---

١ – أورد الراغب معنى الشفاعة في : مفردات ألفاظ القرآن فقال : الشفاعة : الانضمام إلي آخر ناصراً له وسائلاً عنه ، وأكثر مايستعمل في انضمام من هو أعلى حرمة ومرتبة إلى من هو أدنى . ومنه : الشفاعة في القيام. قال تعالي : (لايملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً) (مريم / ٨٧) .... (من يشفع شفاعة حسنة) (النساء / ٨٥) (ومن يشفع شفاعة سيئة) (النساء / ٨٥)، أى : من انضم إلي غيره وعاونه ، وصار شفعاً له ، أو شفيعاً في فعل الخير والشر ، فعاونه وقواه ، وشاركه في نفعه وضره ، وقيل : الشفاعة هـهنا : أن يشرع الإنسان للآخر طريق خير ، أو طريق شر فيقتدى به ، فصار كأنه شفع له واستشفعت بفلان علي فلان فتشفع لي ، وشفعه : أجاب شفاعته، ومنه قوله عليه السلام (القرآن شافع مشفع) ، والشفعة هو طلب مبيع فى شركته بما بيع به ليضمه إلى ملكه . وهو من الشفع ، وقال عليه السلام « إذا وقعت الحدود فلاشفعة " مفردات ألفاظ القرآن – الراغب – ص ٤٥٧ ،ص٤٥٨ – تحقيق صفوان داوودي .

٢ – سورة الأنبياء : الآية (٢٨).

٣ – سورة الطلاق: الآية (١٢).

بل هو سبب وجودجميعها، وأنه يصح ارتفاع كل ماعداه مع بقائه تعالى، وبهذا النظر قال أبو بكر- رضي الله عنه- «**سبحان من لم يجعل لخلقه سبيلاً إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته**»، وقال بعض الأولياء: «**غاية معرفة** الله **أن تعلم أنه يعرفك لا أنك تعرفه**»، ولهذا قيل: ﴿**هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ**﴾[1]، وقال أميرالمؤمنين:

«**تجلي لعباده في القرآن من غير أن يروه، وأراهم نفسه من غير أن يتجلى لهم**»،[2] وقوله: ﴿**إِلاَّ بِمَا شَاءَ**﴾ أي : إلا بما شاء أن يقفهم عليه من القليل الذي قال: ﴿**وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً**﴾[3]، ثم أكد بما فيه عليه بقوله: ﴿**وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ**﴾ بقوله: ﴿**وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ**﴾، أي إذا كان علمه ومملكته وقدرته محيطة بهذه الأشياء والإنسان بعض هذه الأشياء، فكيف تصح إحاطته بمن هو محيط بهذه الأشياء وهو يعجز عن الإحاطة بها، والعلي هو القاهر فوق عباده، وقيل: العلي عن النظير، وقيل: القادر على حفظه، وقيل: القائم به، وكل ذلك راجع إلى التنبيه على قدرته وسلطانه وأن ماعداه مستحقر بالإضافة إليه.

---

١ - سورة الحديد :الآية (٣).

٢ - أورده الراغب في مفردات ألفاظ القرآن - ص ١٣١.

٣ - سورة الإسراء : الآية (٨٥).

قوله - عز وجل :

﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ الآية : (٢٥٦) - سورة البقرة .

الغي كالجهل، إلا أن الجهل يقال اعتباراً بالاعتقاد والغي اعتباراً بالأفعال، ولهذا يقال: الجهل بالعلم، والغي بالرشد، ويقال لمن أصاب رَشَدَ، ولمن أخطأ غوى، وعلى هذا قال الشاعر:

وَمَنْ يَغْوَ لا يَعْدِمْ عَلَى الْغَيِّ لائِماً (١)

والطاغوت وزنه (فعلوت)، نحو جبروت، وأصله طغووت، لكن قلب لام الفعل نحو: صاعقة وصاقعة، ثم قلب الواو ألفاً لتحركه وانفتاح ما قبله، ويسمى كل ما يصرف عن الله عز وجل- طاغوتاً وشيطاناً كان أو إنساناً، ولهذا روي عن عمر ومجاهد وقتادة أنه الشيطان(٢)، وعن ابن جبير أنه الكاهن، وعن أبي العالية أنه الساحر، وعن غيرهم أنه صنم، وقيل: هو المارد من الناس والجن، وكلهم صارفون للإنسان عن طريق الحق، وقد تقدم أن النهي عن اتباع الطاغوت والشيطان، وإبليس والهوى

١- هذا شطر بيت للمرقش الأصغر ، وشطره الأول :

ومن يلق خيراً يحمد الناس أمره   ومن يغو لايعدم على الغي لائماً

واسم المرقش الأصغر ربيعة بن سفيان بن سعد بن مالك ، والمرقش الأكبر عمه ، واسمه : عمرو سعيد بن مالك، وكلاهما شاعر جاهلي ، وكان المرقش الأصغر أحد عشاق العرب المشهورين وفرسانهم في الجاهلية.

والبيت من قصيدة له في المفضليات من (ص٢٤٤ - ٢٤٧) في أربعة وعشرين بيتاً ، ومطلعها :

ألا يا أسلمي لاصرم لي اليوم فاطما   ولا أبداً مادام وصلك دائما

والبيت في الأغاني - ج :٥ -ص١٨٤، ومحاضرات اليوسي - ج :٢- ص٤٨٧، والمشوف المعلم - ج :٢-ص٥٥٥، كما أورده الراغب في مفردات ألفاظ القرآن - ص ٦٢٠ ، وهو أيضاً في لسان العرب - مادة : غوى .

٢- قال الراغب في المفردات : « الطاغوت عبارة عن كل متعد وكل معبود من دون الله ، ويستعمل في الواحد والجمع ، ويسمى الساحر والكاهن والمارد من الجن ، والصارف عن طريق الخير طاغوتاً ، ووزنه فيما قيل : فعلوت ، نحو «جبروت وملكوت » مفردات ألفاظ القرآن - ص ٥٢٠ ، ص٥٢١- تحقيق صفوان داوودي . وأورد ابن كثير مارواه ابن جرير وابن أبي حاتم من حديث الثوري عن أبي إسحق عن حسان بن قائد العبسي عن عمر رضي الله عنه أن الجبت السحر والطاغوت الشيطان وأن الشجاعة والجبن غرائز تكون في الرجل يقاتل الشجاع عمن لايعرف ويفر الجبان من أمه ، وإن كرم الرجل دينه وحسبه وخلقه وإن كان فارسياً أو نبطياً ، ثم علق ابن كثير بقوله ومعنى قوله في الطاغوت إنه الشيطان قوى جداً ، فإنه يشمل كل شر كان عليه أهل الجاهلية من عبادة الأوثان والتحاكم إليها والاستنصار بها ، تفسير القرآن العظيم - ج - ١ - ص٣١١ . ط . دار الفكر العربي.

والدنْيا يجري مجرى واحداً في أن المقصد به النهي عما لا يرضاه الله، وقوله: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ﴾، كقوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾[1]، وعلى ذلك حث بقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ﴾[2]، وقوله: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾[3]، والكره يقال على ضربين: أحدهما أن يكون مُقْسَراً من خارج، وذلك على أحد الأوجه الثلاثة، إما بأن يهدد بالضرب أو يضرب حتى يفعل، وإما أن تؤخذ يده فيفعل بها، فيكون في هذا كلالة، وإما أن يدعوه من يزينه في عينه، والثاني: ما يكون مفسراً من داخل، وذلك إما بخوف يستشعره، وإما بهوى يغلبه، وقد روعي كل ذلك في تفسير الآية، فقيل فيه أوجه:

الأول: إن ذلك حث على أن لا يحمل الإنسان على الدين بالقسر، بل يعرض عليه الإسلام عرضاً ويعرف فضله، فإن قبل[4]: وإلا ترك؟ قيل: وهذا حكم كان في ابتداء الإسلام، ثم نسخ بسورة براءة، وذلك عن السدي، وابن زيد[5]، والثاني: نحو ذلك، غير أنه خص بمن قبل منهم الجزية دون مشركي العرب، وذلك عن الحسن، وقتادة، والضحاك، وعلى هذين معناه: أمن، والثالث: أن قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ﴾ لا اعتبار بالإكراه في الأحكام الدنيوية، فالمكره على الإسلام وغير المكره سيان بعد أن يلتزما..

---

١ - سورة النازعات : الآية (٤٠).
٢ - سورة ص : الآية (٢٦).
٣ - سورة يس : الآية (٦٠).
٤ - في (و - ج) وإن قيل، وهو تصحيف.
٥ - علق الدكتور مصطفى زيد على القول بادعاء النسخ في هذه الآية : بقوله « لم يشرع القتال في الإسلام للإكراه على الدخول فيه ومن ثم لايسوغ إدعاء النسخ على قوله تعالي (لا إكراه في الدين) لأنه عام في نفي الإكراه ، فهو خبر لايقبل النسخ ، ولأنه إن أريد به النهى لايعارض الأمر بالقتال ، من حيث أن غاية القتال ليست هى الإكراه فى الدين . ودعوى النسخ هنا مروية عن ابن زيد وهو شديد الضعف لايحتج به - النسخ في القرآن الكريم دكتور مصطفى زيد ج ٢٠ - ص٥١٠ ، ص٥١٢. ط-دار الوفاء - المنصورة ، وأورد السيوطي في سبب نزول هذه الآية ما أخرجه ابن جرير من طريق سعيد أوعكرمة عن ابن عباس قال : نزلت (لاإكراه في الدين) في رجل من الأنصار من بنى سالم بن عوف يقال له الحصين ، كان له ابنان نصرانيان ، وكان هو مسلما فقال للنبي صلي الله عليه وسلم : ألا أستكرههما ، فإنهما قد أبيا إلا النصرانية ؟ فأنزل الله الآية - أسباب النزول - السيوطي - ص٣٥ - دار المنار - القاهرة .

والرابع : لا حكم للكفر لمن أكره على الكفر، والدين يكون لغير الحق على هذا نحو ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾(١).

الخامس: لا اعتداد في الآخرة بما يفعل الإنسان في الدنيا من الطاعة كرهاً، وكرهاً، فإن الله يعتبر السرائر ولا يرضى إلا الإخلاص، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام:

«**الأعمال بالنيات**»،(٢) وقال: «**أخلص يكفك القليل من العمل**».(٣)

السادس: ليس يحمل الإنسان على أمر مكروه في الحقيقة بما يكلفهم الله، بل يحملون على نعيم الأبد، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «عجب ربكم من قوم يقادون إلى الجنة بالسلاسل»(٤).

السابع: أن الله تعالى ليس بمكره على الجزاء، بل يفعل ما يشاء بمن يشاء على ما يشاء، والاستمساكُ طلبك إلى الغير ليمسك كالاستحفاظ والاستنصار، و﴿بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ مستعارة للعبد المركون إليه كالحبل في نحو:

أخذت بحبل من حبال محمدٍ ... أمنتُ به من طارق الحدثان(٥)

---

١ - سورة النحل : الآية (١٠٦).

٢- الحديث متفق عليه أخرجه البخاري في بدء الوحي ج :١-ص٧، كما أخرجه في مواطن عديدة من صحيحه منها « كتاب الإيمان » ، « باب : ماجاء أن الأعمال بالنية والحسبة ولكل امرئ مانوى » ج :١-ص١٢٦ ، وكتاب الفضائل باب هجرة النبي صلي الله عليه وسلم ج -٧ -ص١٧٧، وأخرجه مسلم في كتاب الإمارة برقم (١٩٠٧) باب قوله صلى الله عليه وسلم «إنما الأعمال بالنية»، كما أخرجه الحافظ بن رجب في جامع العلوم والحكمة - ج -١-ص٨١- تحقيق الدكتور محمد الأحمدي أبو النور .

٣- نص الحديث : (أخلص النية يكفك القليل من العمل) ، أخرجه المنذري في الترغيب والترهيب ج -١ -ص٥٤، كما أخرجه ابن كثير في البداية والنهاية ج - ٢-ص٣٩٢، وأخرجه السيوطي في الدر المنثور ج ٢- ص٢٣٦، وأخرجه أبو نعيم في الحلية ج-١-ص٢٤٤، وأخرجه المتقي الهندي في كنز العمال - حديث رقم : (٥٢٥٧).

٤- الحديث أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة عن النبي صلي الله عليه وسلم قال : (عجب الله من قوم يدخلون الجنة في السلاسل) - كتاب الجهاد ج :٦-ص١٤٥ ، كما أخرجه أبو داود في سننه حديث رقم (٢٦٧٧) وأخرجه البغوي في شرح السنة - ج ١١ -ص٧٦ وأورده الراغب الأصفهاني في مفردات ألفاظ القرآن - ص ٤١٨ .

٥- البيت قاله أبو نواس يمدح الأمين محمد بن الرشيد، ومطلعها :-

لمن طلل لم أشجه وشجاني ... وهاج الهوى أو هاجه لأوان

وقال بعده : غطيت من دهري بظل جناحه ... وعيني ترى دهري وليس يراني

شرح ديوان أبي نواس ص ٤٨٠ ، مخطوط كتاب الدر الفريد - ج : ١- ص٢٥٢.

ونحو:

قوم إذا عقدوا عقداً لجارهم

شدوا العناج وشدوا فوقه الكربا (١)

فقول من قال: العروة الوثقى الإسلام، وقول من قال: «لا إله إلا الله(٢)، وقول من قال: الثواب: الجنة، فنظرات منهم إلى مبتدى الدين ومنتهاه، وكله صحيح.

قوله - عز وجل :

﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ الآية -(٢٥٧) - سورة البقرة.

الولي: كون الشئ بجنب الآخر، ويعتبر ذلك تارة بالمكان، فيقال له الولاية وتارة بالنصر فيقال له الولاء والموالاة، لكن الولاء على ضربين باعتبار نسبة الأعلى إلى الأسفل، وضرب باعتبار نسبة الأسفل إلى الأعلى، ولهذا يقال للخادم والمخدوم مولى، وولي، لأن كل واحد منهما يوالي الآخر الخادم بالطاعة والنصيحة، والمخدوم بالإشفاق، والكناية، وقال: أهل اللغة: المولى المالك، والمملوك والمعتق والمعتق والناصر والمنصور، وابن العم والحليف والجار والقيم، وأخذوا في كل ذلك المتطابقين، لكون كل واحد منهما موالياً للآخر بوجه.،(٣)

---

١ - البيت للحطيئة وهو في ديوان الحطيئة ص١٦، والبيت قبله :-

قوم هم الأنف والأذناب غيرهم ... ومن يسوى بأنف الناقة الذنبا

وهو من أولى قصائده في الديوان ومطلعها :-

طافت أمامه بالركبان آونة ... ياحسنة من قوّام ما ومنتقبا

وفي لسان العرب ج : ٢- ص٢٠٩، ج :٣- ص١٥٤ ، وفي شرح أدب الكاتب للجواليقي ص٢٤٠، واعجاز القرآن - للبلاقلاني بتحقيق السيد أحمد صقر - ص ١٥٥.

والعناج في الدلو الثقيلة حبل يشد تحتها ثم يشد إلى العراقي وأراد الحطيئة أنهم إذا عقدوا عقداً أحكموه وأوثقوه كإحكام عقد الدلو إذا شد عليه العناج والكرب وذلك كما في الاقتضاب - لابن السيد - ص٣٥١.

٢- أورد القرطبي قول السدي بأن العروة الوثقى هى الإسلام ، وقول مجاهد بأنها الإيمان وقول ابن عباس وسعيد بن جبير والضحاك بأنها لا إلاه إلا الله ، ثم علق القرطبي بقوله : وهذه عبارات ترجع إلى معنى واحد . تفسير القرطبي ج :٢-ص١٢٠٥. ط - دار الغد العربي .

٣- قال الراغب في المفردات : « والمولي يقال للمعتق والمعتق والحليف وابن العم والجار وكل من ولي أمر الآخر فهو وليه ، مفردات ألفاظ القرآن - ص٨٨٧، وقال الفراء: وكسر الواو في الولاية أعجب إليَّ من فتحها لأنها إنما تفتح أكثر من ذلك إذا كانت في معنى النصرة ، وكان الكسائي يفتحها ويذهب بها إلى النصرة . معاني القرآن - ج - ١-ص٤١٨.

والنور: عبارة عن العلم والإيمان والظلمة عن ضدهما، ووجه ذلك أنه لما كان للإنسان نظرات بنظر وتبصر، ويرى بهما البصر الحاس في الرأس والبصيرة في القلب، فكما أن البصر لا يستغني في إدراك ما يدركه من المعقولات عن نور يمده وهو نور التوفيق والإيمان، ويقال لفقد البصرين عمى، ولفقد النورين ظلمة، وأعظمهما ضرراً فقد البصيرة ونور العقل، ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[1]، فلم يعد فقد البصر عمى. بالإضافة إلى فقد البصيرة، وقوله: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾[2]، وقوله: ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ﴾[3]، وقوله: ﴿مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾[4]، يعني بذلك كلا النورين والظلمتين؛ إن قيل: وهل هذا النور موهبة أو مكتسب؟

قيل: لا شك في كونه موهبة، لقوله تعالى:﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾[5]، لكن فيه للاكتساب حظ، فإن ابتداء ما يحصل ذلك للإنسان كشررة، متى لم ترع همدت، وإذا روعيت زادت، كما قال:﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾[6]، بين تعالى إن الله عز وجل- يوالي المؤمنين بأن يوفقهم ويهديهم، وهم يوالونه بأن يشكروه ويعبدوه، كما قال تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾[7]، فهو يخرجهم من الجهل والكفر إلى العلم والإيمان والثواب والكافرون، يواليهم الشيطان في إخراجهم إلى أضداد ذلك إن قيل: لم قال: أولياؤهم وما يفعل بهم الطاغوت هو بالمعاداة أشبه منه بالموالاة؟

قيل: لعمري إن ذلك نهاية المعاداة وتسميته بالموالاة أولى لمقابلة اللفظ، وثانياً: لتحريهم ما يقع بوفاقه، وميلهم [8] إلى حزبه، فجعله موالاهم في اللفظ لا في الحقيقة، ألا ترى أنه قال: ﴿أَلَمْ

---

١ - سورة الحج : الآية (٤٦).
٢ - سورة الأنعام : الآية (١).
٣ - سورة الحديد : الآية (٢٨).
٤ - سورة الأنعام : الآية (٦٣).
٥ - سورة النور : الآية (٤٠).
٦ - سورة محمد : الآية (١٧).
٧ - سورة المائده : الآية (٥٤).
٨ - في (و - ج) ومثلهم وهو خطأ من الناسخ.

أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين ﴾(١)، فسماه عدواً، وعلى حد جعله أوليائهم جعلهم حزبه في قوله: **﴿ أولئك حزب الشيطان ﴾**(٢)، وقال للمؤمنين: **﴿ إنما وليكم الله ورسوله ﴾**(٣)..

إن قيل: فكيف قال هاهنا: **﴿ أولياؤهم الطاغوت ﴾**، وقال في آخر **﴿ ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم ﴾**(٤).

قيل: إن من وليه الشيطان، فلا ولي له، ولا فرق بين أن يقال: وليه من نصره، وبين أن يقال: لا ولي له، وقول من قال: الله ولي المؤمنين بتوفيقه وعصمته، ومن قال بإقامة البرهان لهم، ومن قال بنصرتهم على عدوهم، وإظهار دينهم علي دين مخالفيهم، ومن قال بثوابهم، فكله صحيح ومراد، لأن ذلك متلازم، وإنما اختلفت العبارات عليهم بحسب النظرات ونحو ذلك في استعمال النور والظلمة في العلم والجهل والإيمان والكفر..

قوله: **﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور ﴾**(٥) الآية.. إن قيل: كيف؟ قال (يخرجونهم من النور إلى الظلمات) وقد قلت: النور: العلم والإيمان، والكفار لم يكونوا في هذا النور، والإخراج عن الشئ يعد لكون فيه، قيل: إن الله تعالى خلق الانسان على فطرة، ركز فيه العلم والإيمان بالقوة، وهو المعنى بقوله: (فطرة الله)، و(صبغة الله)، وقول النبي - عليه الصلاة والسلام: «**كل مولود يولد على الفطرة**»(٦)، والإنسان متى أهلك(٧) نفسه وأفسدها بالهوى والتدليس بالجهالات، فقد أخرج من النور إلى الظلمة، وقال الحسن إخراجه إياهم منعهم من الدخول فيه كقوله:

---

١ - سورة يس : الآية (٦٠).
٢ - سورة المجادلة : الآية (١٩).
٣ - سورة المائدة : الآية (٥٥).
٤ - سورة محمد : الآية (١١).
٥ - سورة إبراهيم : الآية (٥).
٦- الحديث رواه مسلم عن أبي هريرة في كتاب القدر - ج : ٦- حديث ٢٦٥٨ وقد سبق تخريجه .
٧ - في (و - ج) أهل، وهو تصحيف.

﴿ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ ﴾(١) فجعل صيانتهم (٢)من العذاب كشفنا عنهم، وروي عن مجاهد أن ذلك في قوم ارتدوا عن الإسلام، وقيل إن ذلك نزل في قوم كفروا بعيسى ثم آمنوا بمحمد – عليهما الصلاة والسلام– فأخرجهم الله من الظلمات إلى النور، وقوم آمنوا بعيسى –عليه الصلاة والسلام–، ثم كفروا بمحمد– عليه الصلاة والسلام–، فأخرجهم الطاغوت من النور إلى الظلمة..(٣)

إن قيل: لم قال: يخرجونهم بلفظ الجمع؟

قيل: قد قال بعضهم: الطاغوت يقع على الواحد والجمع كالفَلَك، ووجه ذلك من حيث المعنى أن الطاغوت إشارة إلى المضلات من الشيطان والهوى وسائر ما يضل، وقد قال بعض الحكماء ما هو كالتفسير، لذلك إنه متى يخالف العقلُ والهوى شيئاً ما، أعنى: مؤلماً– جميلاً وملذاً قبيحاً، يبادر الملك إلى نصرة العقل، فيصير من حزبه،والشيطان إلى نصرة الهوى، فيصير من جنده وإن استشار صالحاً من عباد الله، أشار عليه بمقتضى العقل،وإن استشار شريراً، أشار عليه بمقتضى الهوى، ولذلك قال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾(٤) وقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾(٥)، وقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ﴾.(٦)

---

١ – سورة يونس : الآية (٩٨).

٢ – في (و – ج) عن.

٣ – أورد السيوطي في أسباب النزول ما أخرجه ابن جرير عن عبدة بن أبي لبابة في قوله : (الله ولي الذين آمنوا) قال : هم الذين كانوا آمنوا بعيسى ، فلما جاءهم محمد صلى الله عليه وسلم آمنوا به وأنزلت فيهم الآية ، كما أورد ما أخرجه ابن جرير عن مجاهد قال : كان قوم آمنوا بعيسى ، وقوم كفروا به ، فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم ، آمن به الذين كفروا بعيسى ، وكفر به الذين آمنوا بعيسى ، فأنزل الله هذه الآية . أسباب النزول – السيوطي – ص٣٥ – ط . دار المنار بالقاهرة

٤ – سورة الأنعام : الآية (١١٢).

٥ – سورة الزخرف : الآية (٣٦).

٦ – سورة : النور الآية : (٢١).

إن قيل: كيف نظم هذه الآية مع ما قبلها؟

قيل: لما قرر عظمته بالآية المتقدمة، بين في هذه أن الذي له العظمة هو مولى المؤمنين تشريفاً لهم، وتعظيماً لمكانتهم، وأن الشيطان مولى الكافرين تدليلاً لهم، فقد قالت العرب:

«أشرف الموالي أشرفهم سيداً، وأكرم السائلين أكرمهم مسؤولاً».

وعلى هذا قال الشاعر:

يضيع الزيارة حيث لا يزري بنا شرف المزور ولا بحسب الزور(1)

قوله - عز وجل :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ الآية : (٢٥٨) - سورة البقرة .

المحاجة: المقاومة في إظهار الحجة، أي محجة الرشد، والشمس اشتق عنها شمس فلان إذا نفر تشبيهاً بالشمس التي لا يمكن أن يقبض عليها، وعلى ذلك قوله:

كالشمس ضوؤها قريب ولكن في تناولها بُعْدُ وقيل: شمس إذا عادى..

وذاك أن حقيقة المعاداة تنافر طبع المتعاديين بعضها من بعض من عداه إذا تجاوزه، والشمسة في القلادة تشبيهاً في الحسن والهيئة، والبهت أن تفعل بالإنسان ما يحيره، وسمي الكذب المستقبل به الإنسان بهتاناً، لتحير صاحبه فيه..

والذي حاج إبراهيم في ربه، قيل كان نمرود بن كنعان، وكان قد ملك الدنيا، (2) ويقال: إنه ما

١- البيت قائله هو حميد بن ثور - كما قال محمد بن أيدمر في مخطوط كتاب الدر الفريد وبيت القصيد في ج : ٥ ص ١٧٤.

٢- أورده القرطبي وقال : هو النمرود بن كوش بن كنعان بن سام بن نوح ملك زمانه وصاحب النار والبعوضة . وهذا قول ابن عباس ومجاهد ، وقتادة ، والربيع ، والسدي وابن إسحق ، وزيد بن أسلم وغيرهم الجامع لأحكام القرآن - القرطبي - ج : ٢- ص١٢٠٧.

ملكها إلا أربعة مؤمنان: وهما سليمان، وذو القرنين، وكافران: نمرود وشداد..[١]

إن قيل: ما الذي ادعى هذا الكافر؟

ادعى نفي الخالق؟ أم ادعى لنفسه الربوبية؟ أم الأمرين؟ فإن ادعى الربوبية، فعلى أي وجه ادعى، فبعيد أن يزعم من وجد بعد أن لم يكن أنه موجد الخلائق..

قيل: قد ذكر المخلصون في ذلك وجهين، أحدهما: أن هذا الكافر نمرود، وكان الناس حينئذ يعظمون ملكهم حتى كانوا يسمونه الرب والإله، ولهذا قيل: (الله رب الأرباب وإله الآلهة)، وكانوا يدعون له أفعالاً إلاهية تقصر قدر البشر عنها، وقد حكى الفرس عن ملوكهم شيئاً كبيراً من ذلك كما ادعوا لكنخسرو أنه ألجأه عدو له إلى سفح جبل، فحملته الملائكة، وأن شابور لما حارب التنين، فأظلم عليه الدنيا، أنزل عليه ناراً، فصارت على عرف فرسه، فاستضاء بها حتى قتل التنين، وكان نمرود لما طغى سام الناس أن يعبدوه عبادتهم لله، إذ هو بزعمهم سايسهم، وملكهم، وربهم، وإلاههم، فهذاك أحد الوجهين، والثاني: أنه كان يذهب مذهب من يقول بالحلول[٢]، أن الباري -تعالى عن ذلك- يحل في أشخاص الأئمة حسب ما ادعى بعض المتنصرة وبعض المتشيعة الملحدة، وكان نمرود يدعي الربوبية على أحد هذين الوجهين، لا أنه ينكر رب العزة..

---

١ - أورده ابن كثير فى تفسيره وقال : مجاهد : « وملك الدنيا مشارقها ومغاربها أربعة : مؤمنان ، وكافران ، المؤمنان : سليمان بن داود وذو القرنين ، والكافران : نمرود وبختنصر » . تفسير القرآن العظيم - ج : ١- ص٢١٣ .

٢ - الحلول والاتحاد وهو الاعتقاد الفاسد بأن روح الإله تحل في أناس بعينهم وتتحد معها ، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً ، وقد حدد الإمام عبد القاهر البغدادي فرق الحلولية بعشر فرق ، وفي ذلك يقول : في الفصل العاشر تحت عنوان في ذكر أصناف الحلولية وبيان خروجها عن فرق الإسلام (الحلولية فى الجملة عشر فرق كلها كانت في دولة الإسلام ، وغرض جميعها القصد إلى إفساد القول بتوحيد الصانع ، وتفصيل فرقها في الأكثر يرجع إلي غلاة الروافض) ، ثم يفصل القول في عقائد هذه الفرق الضالة في كتابه « الفرق بين الفرق » ، من ص ١٩٣ إلى ص ١٩٧، وقد تناول ذلك أيضاً كل من فخر الدين الرازي فى كتابه إعتقادات فرق المسلمين والمشركين ، والحافظ جلال الدين السيوطي في كتابه « تنزيه الاعتقاد عن الحلول والاتحاد ، الحاوي للفتاوى ج - ٢- من ص١٣٣ ، إلى ص ١٣٧ .

إن قيل: ما الذي حاج إبراهيم؟

فإن المحكي عنه ليس بأكثر من ادعى إبراهيم دعوى، فعارضه بمثلها فانتقل إلى دعوى أخرى، وإن كان ما ذكره إبراهيم ثانياً حجة، فهلا كان يعكس عليه، ويقول: فليأت ربك بشمس من المغرب، فإن الآتي بها من المشرق حتى كان لا يبهت، قيل: قد تقدم أن ما يمكنه الله عن الأمم لا يكاد يستوفي القصة من أولها إلى آخرها، بل يورد نكتة، ويشير[١] إليها إشارة وهو لم يستوف ذكر ما حاجه به كله،وقد تقدم أن نمرود لم يدع أني شخص وحشي موجد السماوات والأرض، وإنما كان ذلك على أحد الوجهين المتقدم ذكرهما، وكان قد ادعى أن كل ما هو داخل تحت قدرته، فهو أو مثله أو قريب منه داخل تحت قدرتي، فقال ابراهيم: ربي الذي يحي ويميت فقال أنا أحي وأميت، فأخرج رجلين من الحبس، فخلى أحدهما، وقتل الآخر، فقال: هذا أحياه وهذا[٢] أماته، وقد كان إبراهيم يمكنه أن يزيد أن الذي ادعاه لربه ليس هو الجنس الذي ادعيته لكن عدل إلى فعل ليس في طرق البشر هو ولا قريب منه ولا ما يشاركه اسما، فقال: قد ثبت باتفاق أن الله يحرك الشمس من المشرق، فحرك أنت تحريكاً من المغرب، فلم يجد شيئاً يدعيه كما ادعى في الاحياء والإماتة، فبهت حينئذ، وظهر عجزه إذ لم يكن من جنس إطلاع الشمس وإغرابها شئ ممكن للملوك كما ادعى الإحياء والإماتة، ولم يمكنه أن يعكس ذلك، فقد كان أقر بالباري، وإنما كان يدعي أنه يفعل فعله، إن قيل: أليس العدول من حجة إلى حجة يعده أهل الجدل انقطاعاً؟ فما وجه ما فعل إبراهيم؟

قيل: أما أولاً، فما ذكره إبراهيم كان معارضة، وذاك أن الكافر ادعى أن في وسعه أن يفعل كل جنس من الفعل يفعله الباري – عز وجل، وذلك ادعاء حكم موجب كلي، والكلي ينقض بالجزئي، نحو أن يقال: كل إنسان كاتب، فمتى وجد إنسان غير كاتب فقد ظهر كذبه، وللمعارض إذا أراد المناقضة أن ينتقل عن مثال خفي إلى مثال جلي، ولا يكون ذلك منه انتقالاً، وهذا باب قد أحكمه أهل الجدل، على أن ذلك لو كان ابتداء حجة، لم يكن على شرط أهل النظر بمذموم، فالحجج المعدول عنها ضربان.

---

١ - في (و - ج) ويشين وهو تصحيف.

٢ - في (و - ج) هذا أحياه أو أماته، وما أثبتناه هو الأصح.

حجة يذكرها، ثم يتركها لظهور فسادها، وذلك مما لا يرتضيه أهل النظر، وحجة يذكرها، فيقصر فهم سامعها عن إدراكها، أو يكثر مشاغبته فيها، فيعدل عنها إلى ما هو أوضح، إذ كان كل يتبين الحق وإزالة الشبهة، وهذا ليس بمذموم،وقوله: ﴿ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ ﴾ قال بعضهم: أراد إبراهيم لأن الله تعالى لا يؤتي الملك الكفرة، لأن ذلك مفسدة ينزه الله تعالى عنها، وأكثر المفسرين على أنه النمروذ (١) وذاك أن السلطان من الأغراض الدنيوية، كالمال، والجاه، والأولاد، وذلك مما يؤتي المؤمن والكافر امتحاناً واختباراً.. إن قيل: أليس قلت: إن الملك اسم لما فيه العدالة، فكيف يصح أن يقال ذلك لما يتوارد للكافر؟

قيل: إن الملك الحقيقي الذي يجوز للإنسان المتسمي به هو ذاك لكن الناس يستعملونه فيمن يتسلط على الناس على أي وجه كان فتسمية الله تعالى إياه بذلك إنما هو على زعمه، وزعم أتباعه، كقوله: ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾(٢)، فسماه عزيزاً لا بالحقيقة لكن على ما كان يتسمى به..

إن قيل: كيف قال: ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾، والظالم أولى بأن يُهدى؟

قيل: قد تقدم أنواع الهداية وأحوالها، وأنه قد يراعى في إطلاقها مبدؤها تارة، فتستعمل في الجميع الذي يمكنهم الاهتداء، وعلى ذلك قال ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ ﴾(٣)، ومرة يعتبر منتهاها الذي هو الاهتداء، فيقال: "**هدى الله المؤمنين**"، وعلى هذا قوله تعالى: ﴿ فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ﴾(٤)، فقوله: ﴿ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾، أي: لا يقبلون منه هدايته لهم، وإذا لم يقبلوا منه لم يعطهم، وإذا لم يعطهم فهو لم يهدهم، وأيضاً فالظلم هاهنا منافٍ للهداية، فإنه جحود آلاء الله، والامتناع من قبولها والهداية تقتضي تحري العدالة، فإذا الهداية والظلم

١- قاله القرطبي وابن كثير بأن الذي حاج إبراهيم في ربه هو ملك بابل نمروذ بن كنعان بن كوش بن سام بن نوح، وهذا قول مجاهد، وغيره، وقال مجاهد ملك الدنيا مشارقها ومغاربها أربعة: مؤمنان وكافران وقد سبق ذكره، تفسير القرآن العظيم ج - ١- ص٣١٣ - ط - دار الفكر العربي.

٢ - سورة الدخان: الآية (٤٩).

٣ - سورة فصلت: الآية (١٧).

٤ - سورة الأنعام: الآية (١٢٥).

كالمتضادين لا يجتمعان..

إن قيل: لم أفرد النور وجمع الظلمة، قيل: لما كان النور عبارة عن الحق، والحق من حيث ما هو حق شئ واحد لا يتنافى ولا يتناقض، والباطل من حيث ما هو باطل يتضاد ويتعاند صار فيه كثرة، ولهذا شبه الحق بالمقرطس من المرىء في أنه واحد واحد، والخطأ ما عداه، وهو كثير بلا نهاية، فلذلك أفرد النور وجمع الظلمة..

قوله تعالى :

﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ الآية (٢٥٩)- سورة البقرة .

الخوا: خلو الوعاء، يقال: خوت الدار، تخوي خواء، وخوى النجم وأخوى إذا لم يكن منه عند سقوطه مطر تشبيهاً بذلك، وأخوى أبلغ من خوى، كما أن أسقى أبلغ من سقى، وخوى جوف فلان خوى، والتخوية: ترك ما بين الشيئين خالياً..

والعرش: ما ارتفع من البناء، ويقال ذلك للسقف والسطح، وسمي السرير به تشبيهاً، أو عبر به عن أمر الإنسان، فقيل: استوى عرشه، وتل عرشه، والتعريش بناء ذلك وبه شبهه تعريش الكرم، وسمي المعرش منه عريشاً، وقيل: عرش الحمار إذا رفع رأسه وجعله كعرش، وعرشان الفرس شعر عرفه تشبيهاً بعريش الكريم..

والعام: مدة تعوم الشمس في أفلاكها المختصة بها، وذلك اعتباراً بنحو ما قال - عز وجل- **﴿ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾**(١) والاعتيام اختيار الشئ، وأصله أن يسير الإنسان كسابح فيه يتناول ما يريد..

١ - سورة يس: الآية (٤٠).

ولهذا قال الشاعر

:وكنت في نعمائه سابحاً..[١]

والحمار سمي للونه اعتباراً بعامة جنسه، لأن الوحشيات منها، وكثيراً من الإنسيات حمر، فسمي بذلك كما سمي العجم حمراً، والعرب سوداً، لكون أكثرهم كذلك، وحمار السرج، والحمارة لحجر عظيم تشبيهاً بالحمار في الهيئة، والحمرة: طائر أحمر اللون، وحمارة القيظ أشد ما يكون حراً تشبيهاً بالجمر المتوقد لوناً، والنشر من نشزك الثوب، ونشز الريح العرف، وقاره تعدي نشر، ومصدره النشر كقوله تعالى: ﴿ **بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ** ﴾[٢]، وتارةً لا يعدي، ومصدره النشور، كقوله- عز وجل- ﴿ **وَإِلَيْهِ النُّشُورُ** ﴾[٣]، ويقال: أنشره، كأنه جعل له نشراً، كقولك: (أسقاه: جعل له سقياً، ونشر الخشب، تشبيهاً بذلك، لجعل أجزاء الخشب منشورة، وإذا قرئ "ننشزها"[٤] فمعناه: نرفعها من النشز، أي المرتفع من الأرض، ومنه نشوز المرأة أن تطيح ببصرها إلى بشر صارفة له عن زوجها .

كقول الفرزدق:

إذا جلست عند الإمام كأنها

بهارفقة من ساعة يستحيلها[٥]

---

١ - لم أهتد إليه .

٢ - سورة الأعراف : الآية (٥٧)، وسورة الفرقان الآية (٤٨)، وسورة النمل : الآية (٦٣).

٣ - سورة الملك : الآية (١٥).

٤ - قرأ بهذا ابن عباس ، وقتادة ، والنخعي ، وذلك كما في الإملاء للعكبري - ج : ١- ص٦٤، والبحر المحيط - ج : ٢- ص٢٩٣، والجامع لأحكام القرآن - ج : ٢- ص١٢١٨، وانظر : معجم القراءات القرآنية - ج : ١- ص ٢٠٠.

٥ - البيت للفرزدق يخاطب به زوجته النوار وهي من قصيدة مطلعها :

لعمري لقد أردى نوار وساقها — إلى الغور أحلام قليل عقولها

والبيت بعده :

إذا جلست عند الإمام كأنهـا — ترى رفقة من ساعة تستحيلها

وهو في ديوانه ص٤١٦، كما أورده المبرد في الكامل - ج :٢- ص٤٣، وأورده الراغب في مفردات ألفاظ القرآن - ص٨٠٦.

وكقول الآخر:

إذا الليل عن نشز تخلى رميته

بأمثال أبصار النساء القواري..(١)

قوله: "**لم يتسنه**": أي لم يتغير بمرور السنين عليه، وذلك من لغة من يجعل المحذوف من السنة الهاء (سينهه وسانهه)، وقيل هو من "**سانيت**"، والهاء للاستراحة، وعلى هذا يجب أن يحذف إذا وصل الكلام كذا، على قول من قال: المسنون: المتغير، ويقال: يتسنى، وأصله يتسنن فعلت تخفيفاً، كقولك: "**تظنيت، وتعضيت، وتسريت**".

إن قيل: ماالذي شبه بالذي مر على قرية؟ وعلى ماذا عطف؟ قيل: قد قال بعضهم: إن ذلك متعلق بما بعده، وهو قوله: ﴿**وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ**﴾(٢) ﴿**كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ**﴾(٣)، وذلك بعيد لفصل "**وإذ**" بينهما، وقيل: الكاف زائدة، وليس بشئ، والوجه أن الكاف ههنا ليس للتشبيه المجرد بل هو للتحديد والتحقيق كما هو في قولك الاسم كزيد وعمر وعلي أنه وإن جعل للتشبيه، فعلى سبيل المثل والمشبه غير مذكور، كما أنه غير مذكور في قولهم كالمهورة إحدى خدمتيها، ويحتمل أن تكون الآية من كلام إبراهيم معطوف على ما تقدم، وهو أنه لما قال للكافر: ﴿**فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ**﴾(٤)، قال له بعد: ﴿**أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ**﴾(٥)، أي إن كنت تحي فأحي كما أحيا الله من وصفه في هذه الآية..

ويحتمل أن تكون آية مستأنفة، وضرب الله مثلين لشيئين أحدهما في ادعاء الربوبية، وهو ما تقدم، والثاني في إنكار البعث، وهو هذه، ويكون في قوله: ﴿**كَالَّذِي**﴾ في موضع الجر على ما تقدم،

---

١ – لم أهتد إلى نسبته .

٢ – سورة البقرة – الآية : (٢٦٠).

٣ – سورة البقرة – الآية : (٢٥٩).

٤ – سورة البقرة – الآية : (٢٥٨).

٥ – سورة البقرة – الآية : (٢٥٩).

كأنه قال: (ألم تر إلى الذي حاج..) إلى مثل الذي مر على قرية، فإن قيل: فهل في تخصيص القصة الثانية بحرف التشبيه وإخلاء الأولى منه فائدة؟

قيل: بلى، فإن ادعاء الربوبية إنما قل في الناس، حتى إنه لم يعهد ذلك إلا في نفس أو نفسين، وقال: (ألم تر إلى الذي) والتشكل في الإحياء من الجم الغفير، فنبه بقوله: **﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ﴾** تنبيهاً أنه نظر إليه وإلى مثاله، وجعل ذلك مثلاً لمن نحى نحوه، كقولك للكافر: كفلان، فتأتى بواحد على سبيل المثال، ولما ذكر تعالى إخراجه المؤمنين من الظلمات إلى النور، جعل اعتبار ذلك هذين، كأنه قال اعتبران تثبيت إبراهيم وإخراجه له من ظلمة الكفر إلى الإيمان مما جعلت له من الحجج، وإن شـ... فيمن أخرجته من شبهة البعث بما جعلت له من العيان، والذي مر على القرية، قيل كان عزيراً عن قتادة والربيع، وقيل: **"كان أرمنينا عن وهب[1]، وروي أنه مات ضحىً وبعث قبل غروب الشمس بعد مائة عام، وقيل له: كم لبثت"**؟

قال: لبثت يوماً، فلما نظر إلى الشمس قال: أو بعض يوم، وقيل: بدأ تعالى بعينيه، فنفخ فيهما، ثم بعظامه، فأنشزها، ثم وصل بعضها ببعض، فنظر إلى حماره، وأجزاؤه تجئ من سهل وجبل، حتى اجتمعت فاتصل بعضها ببعض، وكسى لحمه، وجرى فيه الروح، فقام ينهق، فقال: أعلم: أي: اعترفت بقدرة الله تعظيماً له، ومن قال: أعلم، فقد قيل: هو من قول الله عز وجل- له، وقيل: هو من قوله وقد خاطب به نفسه على طريق التبكيت، وقال بعض الناس بعزوه إلى بعض الأئمة أن الإشارة بالإحياء والإماتة إلى العلم والجهل، ومعنى القرية الرجال، بدلالة قوله: **﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا﴾**[2]، وقوله: **﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾**[3]، وقوله: **﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾**[4]، وجعل الخوى حلواً ينم

١- أورد القرطبي قول سليمان بن بريدة وناجية بن كعب وقتادة وابن عباس والربيع وعكرمة والضحاك ان الذي مر على القرية هو ... وقول وهب بن منبه وعبد الله بن عبيد بن عمير وعبد الله بن بكر بن معز أنه إرميا، وكان نبياً . تفسير القرطبي ج ٢ - ص١٢١٢

٢ - سورة الطلاق : الآية (٨)

٣ - سورة الكهف : الآية (٥٩)

٤ - سورة يوسف : الآية (٨٢).

عن العلم والإيمان، وكذلك الإماتة والإحياء، إفادته العلم والإيمان، نحو قوله تعالى: **﴿ اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾**[١]. وقوله تعالى: **﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا ﴾**[٢].. الآية، قال: وكان قد رأي قوماً متناهين في البعد عن العلم والإيمان، فاستبعد رجوعهم إلى الحق، فقال: **﴿ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ ﴾**أي: أني يفيدهم الإيمان، فأماته الله مائة عام، ثم أحياه، وأعلمه أن الذي يقدر على إحياء الرمم عن الموت الحيواني لقادر على إحياء النفس الميتة بالجهل..

قوله- عز وجل :-

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

الآية (٢٦٠) – سورة البقرة .

الاطمئنان: السكوت، واطمأن، وتطامن يتقاربان لفظاً ومعنى من مكان مطمئن..

قيل: ويدل على ذلك أنه قال في مكان آخر (مخبتين)، والمخبت: المطمئن من الخبت، أي المطمئن من الأرض، وطار، وطير، نحو راكب وركب، و"**تطايروا**" أي تفرقوا،استعارة وفجر مستطير، وغبار مستطار، خولف بين بيانهما لإختلاف التصورين في كون الفجر فاعلاً والغبار مفعولاً، وفرس مطار يقال: للسريع، ويقال لجديد الفؤاد كأنه أطير قلبه، كقولهم شهم ومروع، وقوله: **﴿ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ ﴾**[٣] أي ما يدمن أفعاله وصرته أصوره، أي أملته وصرته: قطعته صورة صورة، وقيل: صِرْت، وصُرت: لغتان، والصوار سمي اعتباراً بالقطع كالقطيع والصرمة والصور النخل الصغار، إما لانقطاعها عن لحوق الكبار، أو كأنها مقطوعة في نفسها، والصور قيل: سمي لأن فيه صور الناس

---

١ – سورة الأنفال : الآية (٢٤).

٢ – سورة الأنعام : الآية (١٢٢).

٣ – سورة الإسراء : الآية (١٣).

كلها، وقيل: بل لإعادة الصورية، وذكر أبو بكر النقاش المقريء أنه قرئ (فصُرَّهن)[1] بضم الصاد وتشديد الراء وفتحها من الصر، أي الشد، ومنه الصرة، وقال: قد قرئ: (فصرهن)[2] بكسر الصاد وفتح الراء وتشديدها، من الصرير من الصوت، أي. صح بهن، وروي أن إبراهيم مر على ساحل البحر بميتة، والسباع والطيور والحتيان يتوزع لحمها، فتفكر، فسأل الله تعالى إحياء مثله، فأمره تعالى أن يأخذ أربعة طيور[3]، فيقطعها، فيخلطها لحومها وريشها، ويبددها على جبال (خزاجرا)، ثم يدعوها، ففعل ذلك، فاجتمعت كلها، فتبين إبراهيم ما اعتراه فيه الشبهة، وقال بعضهم:

أمره أن يأخذ أربعة طيور، فيضعهن على أربعة جبال، ومعنى لجزء واحد منها، ثم يدعوها، فتجتمع لديه، فأشار إلى أنه كاجتماع هذه الطيور لديك، كذلك يجتمع من الجوانب الأربع الأموات، قال: ولو كان (فصرهن) قطعهن، لما قال: إليك، لأن ذلك لا تعدي بالباء..

إن قيل: لم لما سأله إبراهيم، أراد ذلك على أقرب الوجوه لما سأله عزير، أماته مائة عام حتى تفرقت أوصاله، ونخرت عظامه.؟

قيل: قد ذكر بعض الصوفية أن إبراهيم كان خليلاً، فمجاز له أن ينبسط لما سلف له من قدم صدق،فلما سأله ذلك، أعطاه سؤله في الوقت على أقرب الوجوه، ولمْ يكن العزير من الخلة ما يجوز له هذا الانبساط، فلما أقدم أبلاه الله تعالى في نفسه، وأراه ذلك في ذاته، ولأن إبراهيم تضرع، وسأل، وقال أرني، وغيره أخرج الكلام مخرج المنكر المتعجب من قدرة الله عز وجل وقال: (أنى يحي)، ولا يخفى ما بين اللفظين من الضراعة والغلظة، ولهذا ختم آية عزير بقوله: ﴿**أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ وآية إبراهيم بقوله ﴿**وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾ ، وقال الأصم: تفهموا عن الله حجج

---

١ - قرأ بذلك ابن عباس وعكرمة معجم القراءات القرآنية - ج : ١- ص٢٠٢، ٢٠٣

٢ - قرأ بذلك ابن عباس معجم القراءات القرآنية ج : ١- ص٢٠٣، وكل منهما قراءة شاذة .

٣ - أورد ابن كثير ماروي عن ابن عباس أنه قال أن هذه الطيور الأربعة هي : الغرنوق ، والطاووس ، والديك ، والحمامة ، وقول مجاهد وعكرمة بأنها كانت حمامة وديكاً وطاووساً وغراباً . تفسير القرآن العظيم ج ١- ص ٣١٥ -ط . دار الفكر العربي . وذكر القرطبي نحو ذلك في تفسيره ج -٢-ص١٢٢٤ -ط -دار الغد العربي .

الرسل، إن عيسى كان يحي الموتى بإذن الله، ويريه العباد ليثبت بذلك رسالته ويخلق من الطين كهيئة الطير، فينفخ فيها فتكون طيراً بإذن الله)، وإبراهيم كان يطلب أن يرى ما كان عيسى يريه قومه، قال: وفي هذا دليل أن اللهله عز وجل منع بعض الرسل من الآيات ما أعطاه بعضاً..

إن قيل: إنْ كَانَ إبراهيم في هذه الحال شاكاً في البعث، فلم لما قيل له ﴿ **أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ** ﴾، والشاك في الشئ لا يجوزُ أن يكون مؤمناً به، وإن كان موقناً فلا معنى لقوله: ﴿ **وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي** ﴾ فلا إضطراب للقلب مع اليقين، فإذاً: هذا قولُ متناقضُ، قيل: إنَّ إبراهيم كان موقنا بالبعث أنه كائن للإستدلال أولاً، وللوحي ثانياً، وإنما التمس غاية التفسير، وهو العيان الذي تنقطع عنده الخواطر كلها، فالخاطر ضربان، خاطرٌ في ثبوت الشئ ونفيه، وخاطرٌ في كيفية ثبوته، والأول يزول بالخبر، والثاني لا يزول إلا بالعيان، وهذا هو حال إبراهيم، وقيل: اليقينُ ثلاثةُ أضرُب: علم اليقين، وعين اليقين، وحق اليقين، فعلم اليقين: ما وصل إلينا على سنة رسول الله ﷺ، وعين اليقين: ما وصل إلينا بأنوار هدايته، وحق اليقين: ما اجتمع فيه الأمران، وبه تزول عوارض الخواطر عن جملته وتفاصيله، وقيل: إن إبراهيم كان طلب كذلك، لأن قومه سألوه، وذلك كما قيل في سؤال موسى، حيثُ قال: ﴿ **أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ** ﴾ (١) وقيل : إن نمرود كان ممن يعتمد المحسوس، ولما قال له إبراهيم: ﴿ **رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ** ﴾ (٢) قال له: أرأيت ذلك بحاستك؟ فعدل إلى غيره من الحجج، إذ لم يكن يمكنه أن يدعي عيان ذلك، ثم سأل الله بعد ليريه ليمكنه أن يخبربه، وقيل: إن إبراهيم أحب أن يريه الله إحياء نفسه معراة من الأصل والزنا والفحش والحرص، فبين الله أن ذلك لا سبيل إليه بأدلة الإنسان في هذا العالم،ومخلوق خلقه للتكليف، وأمرهُ أن يأخذ أربعة من الطير، نسراً: إشارة إلى طول الأمل، وطاوساً: إشارة إلى زينة الدنيا، وغراباً: إشارة إلى الفحش النفسي، وديكاً: إشارة إلى الحرص، وقال: قطعهن، ووزعهن على جبال، ثم صرهن، فقد عادت إليك، إشارةً إلى أن هذه القوى وإن اجتهدت في إفنائها، فلا سبيل إلى إزالتها، مادامت في دار الدنيا، وقيل: إن إبراهيم لما رشـ

١ - سورة الأعراف : آلاية (١٤٣).

٢- سورة البقرة : الآية (٢٥٨).

للرسالة وإرشاد البرية، ورأي قوماً في نهاية الجهالة والكفر، استعظم رجوعهم إلى الحق، فقال: **﴿أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾** أي ترشدُ الضُلاَّلَ الذين هم كالموتى، وأراد كيف أحيي، ولكن نسب الفعل إلـى الله - عز وجل- على طريقة ما تقدم أن أولياء الله -عز وجل- يتحرون في أفعالهم- رضى الله ويرون أفعالهم فعله، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام فيما رواه عنه - عز وجل-(حتى أكون عينه التي يبصر بها)[1]، ولأن الأفعال المحمودة للعباد كلها منسوبة إلى الله من حيث أنه سبب إيجادها ، ولهذا قال : **﴿أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾**[2] ، فعلى هذا معنى "**أرني كيف تحيي الموتى**" أي : كيف حال ما أمرتني به، وبعثتني فيه، فقال له: أولم تؤمن؟ أي أو لم تتحقق أنك ستهدى لذلك؟، فقال: بلى، ولكن أريد ما أسكن إليه في أن تجاب دعوتي، فقال: خذ أربعة من الطير، إشارة إلى قلع هذه القوى من نفسك، وسمى بذلك كل موتان الفؤاد كالجبل فليس يعسر عليك ذلك..

"**والله أعلم بالصواب**"..

إن قيل: ما معنى قول النبي ﷺ في هذه الآية: "**نحن أحق بالشك من إبراهيم**»[3]؟.

---

١ - الحديث أخرجه البخاري في صحيحه - ج : ٨- - ص١٠٥- باب التواضع كما أورده ابن حجر العسقلاني في فتح الباري ج-١٧- ص٣١٧ ، وسبق تخريجه .

٢ - سورة الواقعة : الآية (٦٤).

٣ - الحديث أخرجه السيوطي في الدر المنثور- ج:١- ص٣٣٥، وصححه الألباني في الجامع الصغير -ج:٦-ص٢٦، ورواه بلفظه من حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال رب أرني كيف تحيي الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي»، ويرحم الله لوطاً، لقد كان يأوي إلى ركن شديد، ولو لبثت في السجن طوال مالبث يوسف لأجبت الداعي.) وأخرجه البخاري في صحيحه بلفظه وسنده -ج:٤-ص١١٩، ج:٥-ص١٦٣ في كتاب التفسير، وأخرجه الإمام أحمد في مسنده-ج:٢-ص٣٢٦. وأورده ابن حجر العسقلاني في فتح الباري - كتاب التفسير ج : ١٢ -ص٥٣٠، كما أورده القرطبي وابن كثير في تفسيريهما وعلق عليه ابن كثير بقوله : ليس المراد هاهنا بالشك ماقد يفهمه من لاعلم له ونورد ماروي من أنه لما نزلت هذه الآية قال قوم : شك إبراهيم ولم يشكو بنينا ، فقال رسول الله صلي الله عليه وسلم هذا القول تواضعا منه وتقديماً لإبراهيم على نفسه . تفسير القرآن العظيم ج -١- ص٣١٥. ونعتقد أن جزءاً سقط من الناسخ بعد الحديث الشريف

قوله- عز وجل:

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ الآية (٢٦١)-سورة البقرة .

يقال النبت لما له نموٌّ في أصل الحلقة، يقال. تُنْبتُ الصَّبىّ والشَّعْر والسن، وفلان حسن النبتة، ويستعمل النبات فيما له ساقٌ، وما ليس له ساق وإن كان في التعارف قد يختص بما لا ساق له، وأنبت الغلام إذا راهق، كأنه صار ذا نبتة، وفلان في منبت خير، كناية عن الأصل، والسنبلة فيعلة من السبل يقال: أسبل الزرع، وسنبل، ومن أصله السبيل، وقد تقدم أن سبيل الله ليس بمقصور على الجهاد، بل هو لكل ما يتوصل به إلى الله عز جل، والمائة عدد معروف، يقال: أماءت الدراهم وألفت، وإمايتها وألفتها..

إن قيل: كيف تعلق هذه الآية بما قبلها؟ قيل: إن ذلك متعلق بقوله: **﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ﴾**[١]، وما بينه وبين هذه الآية اعتراضات مرغبة للإنسان في فرضه من حث على قناعة هي أس الجود، وذكر عظمة المستقرض وإرشاده لمن يستقرض منهم، وبين في هذه أن فرضه هو الإنفاق في سبيله، وأن مضاعفته هو بأن يجعل للواحد سبع مائة، وأنه يضاعف مع ذلك لمن يشاء مضاعفة لا يضبط عدها، ولا يعرف حدها..

إن قيـــــل:

كيف قال في موضع: "**يضاعف**"، وفي موضع: **﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾**[٢]، وقال هاهنا ما يدل على أنه يحادي بواحد سبع مائة، قيل: في ذلك طريقتان: إحداهما أن الخيرات تختلف باختلاف العالمين واختلاف نياتهم، والثاني: أن تختلف بإختلاف الأعمال، فالأول: هو أن الناس فيما يتحرونه من أفعال الخير بالقول المجمل ثلاثة أضرب على ما قصد تعالى من ظالم، ومقتصد، وسابق[٣] أما الظالم: فالمتحري للخير مخافة سلطان ومذمة إنسان، وتخويف عالم إياه من النار ونحو

---

١ - سورة البقرة : الآية (٢٤٥)، وسورة الحديد : الآية (١١).

٢ - سورة الأنعام : الآية (١٦٠).

٣- اقتباس من الآية رقم (٣٢) سورة فاطر.

ذلك... وأما المقتصد: فالمتحري للخير مخافة عقاب الله ورجاء ثوابه من حيث ما قد تحقق وعده ووعيده، وأما السابق: فالمتحري للخير قصداً لوجه الله خالصاً. وثوابهم يختلف باختلاف مقاصدهم، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام في السابقين حاكياً عن الله عز وجل- **(أعددت لعبادي الصالحين مالا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر)**[1] الخبر. والثاني.

وهو أن يختلف باختلاف الأعمال، وبيان ذلك أن السخاء أفضل أفعال العباد، بدلالة قول النبي ﷺ: **«السخاء شجره من أشجار الجنة، أغصانها متدليات في الدنيا، فمن أخذ بغصن من أغصانها أداه إلى الجنة، والبخل شجرة من أشجار النار، فمن أخذ بغصن من أغصانها أداه إلى النار»**[2].

وقيل لبعض الحكماء:

"أي شيء من أفعال العباد أشبه بفعل الله"؟

فقال: **"السخاء، وأفضل الجود ما كان عن ضيق"**..

---

١ - الحديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده من حديث أبي سلمة عن أبي هريرة عن النبي - صلي الله عليه وسلم - قال: « قال الله تعالى: (أعددت لعبادي الصالحين مالاعين رأت، ولاأذن سمعت، ولاخطر على قلب بشر فاقرأوا إن شئتم: (فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون) مسند الإمام أحمد - ج :٢ -ص٤٣٨، كما أخرجه المنذري في « الترغيب والترهيب » في فصل (شجر الجنة وثمارها) عن أبي هريرة بلفظه، ولكن فيه. (اقرأوا إن شئتم): (وظل ممدود)، وموضع سوط من الجنة خير من الدنيا ومافيها، واقرأوا إن شئتم (فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز)، وقال: رواه الترمذي والنسائي وابن ماجة وروى البخاري ومسلم بعضه - ج:٤-ص٥٢١، وأخرجه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين بلفظه وعلق عـ بقوله: « أغفله العراقي وسبب إغفاله أنه يوجد في بعض نسخ الكتاب: وقال الله عز وجل - بدون وقوله - صلي الله عليه وسلم وهو حديث قدسي رواه أحمد، والشيخان، والترمذي وابن ماجة من حديث أبي هريرة، ورواه ابن جرير من حديث أبي سعيد ورواه أيضاً عن قتادة مرسلاً، ورواه أيضاً عن الحسن بلاغاً بلفظ قال ربكم أعددت لعبادي الذين آمنوا وعملوا الصالحات مالاعين « رأت .. الحديث الإتحاف - ج . ٨-ص٥٦٨، ٥٦٩، وأخرجه السيوطي في الدر المنثور بسنده ولفظه - ج ٥- ص١٧٦ - ط: دار المعرفة - بيروت

٢- الحديث أخرجه المتقي الهندي في كنز العمال تحت رقم ١٦٢٠٨، كما أخرجه ابن الجوزي في الموضوعات - ج ٢-ص١٨٣، وأخرجه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين -ج:٨ -ص١٧٢، كما أخرجه الخطيب البغدادي في ج:١-ص٢٥٣، ج:٣-ص٣٠٤، وأخرجه السيوطي في الدر المنثور -ج:٦-ص١٩٧.

ولهذا قال الشاعر:

ليس العطاء من الفضول سماحةً

حتى تجود وما لديك قليلٌ[١].

وقد علم أن أصحاب النبي ﷺ كانوا مضيفين سيما في ابتداء الإسلام، وأفضل الإنفاق ما يقصد به وجه الله لعز وجل-، وأفضل ما يقصد به وجهه ما يجعل في سبيل الله، وأفضل سبيل ينفق فيه ما كان أكثره غنى، وقد علم أنه لاجهاد أكبر من جهاد النبي ﷺ، ولا قوم أكفر ممن كان يحاد بهم، ولا زمان أحوج إلى محاربتهم من زمانه، وكل واحد من هذه الخصال يجري مجرى فعل يستحق مثوبة محددة، فعظم الله تعالى أمر الإنفاق في سبيله في زمانه، وجعل له من الثواب مالم يجعل لغيره من الأعمال، ووجه ثالث، وهو أن الإنسان متى تحرى فعل الخير على ما يجب وكما يجب يدعوه ذلك إلى أن يزيد في فعل الخير، فلا يزداد، حتى إنما يصير مثل ملك في الفضيلة، وبازدياده في الإيمان وفعل الخيرات يزداد ثوابه، فحيث ما ذكر التضعيف، فأشار إلى الحالة الأولى، وحيث ما ذكر عشرة أمثالها وسبعمائة فإلى الأحوال المتوسطات وحيث ما ذكر، ﴿**وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ**﴾[٢]، فإلى المنتهيات والغايات، وأنها لا يحصرها عدد، كما قال: عليه الصلاة والسلام: «**ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت**»[٣].

١- البيت للمقنع الكندي، وهو في العيني-ج:٤-ص٢٤١٢ ، وحاشية الشيخ يس ج:١-ص٢٧٢، وهمع الهوامع -ج:٢-ص٩، والدرر-ج:٢-ص٦ والدر المصون -ج:٢-ص٣٧.

٢ - سورة البقرة - الآية :(٢٦١) .

٣ - الحديث سبق تخريجه في ص٨

قوله - عز وجل :

﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلا أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ الآية (٢٦٢) - سورة البقرة .

المن على ضربين: أحدهما ما يوزن به والأكثر مناً بالتخفيف، والثاني قدر الشئ ووزنه، ومنه المنة، فإنها تستعمل على ضربين، أحدهما: اسماً للعطية - لكونها ذات قدر، بالإضافة إلى سائر الأفعال، وذلك لما تقدم آنفاً في صفة الجود وأنه أشرف فضيلة، والثاني: اسماً لقدر العطية عند معطيها واعتداده بها، وهو المنهى عنه بقوله، **﴿لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَى﴾**[1]، وقوله- عليه الصلاة والسلام: «**والامتنان بالمعروف، فإن ذلك مما يبطل الشكر ويمحق الأجر**»[2] ، وقيل: « **تعداد المنة من ضعف المنة**»، والمنة تهديه للصنيعة، وللعطيه متى استعظمها المعطى، فشكر منه، ومتى استعظمها المعطى، فهدم منه، فقوله: **﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ﴾** يجوز أن يكون خبر ابتداء مضمر، أي الذين مثل إنفاقهم كمثل حبة منهم الذين ينفقون أموالهم، ويكون قوله: **﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾** في موضع الحال، ويجوز أن يكون "**الذين**" هذا يفسر "**الذين** " المتقدم، ويكون الذين ابتداء، وما بعده خبراً، وقوله: **﴿وَلا أَذًى﴾** الأظهر الأكثر أنه معطوف على قوله: "منا"، وهو أعم منه، لأن كل منٍّ أذى، وليس كل أذى مناً، وقيل: هو أن يظهر المسئول تبرماً بالسائل، نحو أن يقول: "**أراحني الله منك**"، أو: "**من أبلاني بك**" فعلى هذا قوله: **﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾** استئناف، وقوله: **﴿لا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا﴾** تام، وقوله: "**ولا أذى لهم**" كلام مستأنف من صفة المعطى كأنه قيل: "**الذين ينفقون ولا يمنّون، ولا يناءون بالإنفاق، فإن تمام فضيلة المنفق في سبيل** الله **أن يصير سلس الطبع بالعطاء، مستلذاً، يصرف المال إلى الوجوه المحمودة**"، كما روى أن يكون الرجل محموداً حتى يكون ما ينفق في سبيل الله أحب إليه مما تركه، وروى هشام بن عروة عن النبي ﷺ «**من أعطى عطية وهو طيب النفس بها بورك فيها للمعطي والمعطى**»[3] .

١- سورة البقرة : الآية (٢٦٤).

٢- الحديث .

٣- الحديث .

قال بشار:

لَيْسَ يُعْطِيكَ لِلرَّجَاءِ وَالْخَوْ   فِ وَلَكِنْ يَلَذُّ طَعْمَ الْعَطَاءِ..[1]

والبخيل يتألم بما يعطي غيره، فضلاً عما يعطيه هو، ولهذا قيل:"الحر يعطي واللئيم يألم إسته".

وقوله: ﴿أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ ضمن ضمان يلي، وفي يؤمن إخلافه وإفلاسه، وقوله: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ليس يراد به الخوف في الآخرة فقط، بل يريد مع ذلك الخوف الذي ابتلى به أبناء الدنيا الذين ينفقون بما في أيديهم دون ما في يد الله - عز وجل-، ويجوز أن يكون قوله: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من: "خفت على فلان" أي أشفقت عليه، أي: لا إشفاق عليهم لما هم فيه من النعيم، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، فعلى هذا قوله: ﴿أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ إلى آخر الآية، ذكر مالهم من الثواب، ويجوز أن تكون الآية كلها وصفاً للإنفاق في سبيل الله، وبيان ذلك أن حق المنفق في سبيل الله أن تطيب به نفسه، وأن لا تتعقبه بالمن، وأن لا تشفق من فقر تناله من بعد، بل تثق بكفاية الله -عز وجل-، ولا يحزنون إن يناله فقر، وبين تعالى أن ما تقدم ذكره من مجازاة واحدٍ بسبع مائة هو لمن هذا وصفه..

قوله - عز وجل :

﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ الآية :(٢٦٣)- سورة البقرة»...

الغنى: فقد الحاجة، وذلك يختلف باختلاف أحوال الناس واختلاف نظرهم، فمنهم من يرى الغنى كثرة عرض الدنيا، حصلت معه الحاجة أو لم تحصل، ومنهم من عده القناعة، وإليه يوجه قوله عليه الصلاة والسلام: «**الغنى غنى النفس**»،[2] ومنهم من لا يعده إلا ارتفاع الحاجة، وقال: «لا غنى

١- هذا البيت لبشار بن برد ، وهو من قصيدة قالها يمدح فيها عقبة بن سلم ، ومطلعها :-

حييا صاحبي أم العلاء   واحذرا طرف عينها الحوراء

إلى أن يصل إلى قوله :

يسقط الطير حيث ينتثر الحب   وتغشى منازل الكرماء

ديوان بشار - ج : ١ - ص ١٣٦.

٢- الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة ونصه : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم : « ليس الغنى عن كثرة العرض ، وإنما الغني غنى النفس » رواه أحمد وهنادين السري والترمذي وابن ماجة ، ورجال أحمد رجال الصحيح ، ورواه أبويعلي والطبراني في الأوسط والضياء من حديث أنس ، وروى الديلمي بلاسند من حديث أنس « الغنى غنى النفس ، والفقر فقر النفس » وأخرجه البخاري في صحيحه - ج : ٨- ص١١٨، والإمام أحمد في مسنده - ج :٢-ص٣٩٠،ص٤٣٨، ٥٣٩، ٥٤٠، وأورده الزبيدي في إتحاف السادة المتقين -ج :٨-ص١٥٩، ورواه المنذري في الترغيب والترهيب - ج :١- ص٥٨٩، ج :٢-ص٥٣٥.

في الحقيقة في الدنيا يوجه ولأجله» قيل: الغنى غنى الآخرة، ومنهم من قال: **"لا غنى في الحقيقة لغير الله-عز وجل- لا في الدنيا ولا في الآخرة، وعلى هذا"** قال تعالى: **﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾**[1]، والمعنى المنزل كأنه موضع غنى الناس، ولكون الغنى مقيماً فيه على مراده، وعلى هذا قال الشاعر:

يقيم الرجال الأغنياء بأرضهم

ويرمي النوى بالمقترين المراميا..[2]

وأما الغناء فللتشبيه على نحو نظر من قال: الغناء غذاء الأرواح، كما أن الطعام غذاء الأشباح. وقال بعضهم: "**من مدح الغناء إنما مد الغناء وقصر الغنى تفضيلاً للمدود**"، فقد حصل له منفعة ليست في شئ من اللذات، وذاك أن اللذات الحسنة أربع، أكل، وشرب، ونكاح، وغناء،.، وكل يوصل إليه بتعب إلا الغناء، واختلف في قوله: **﴿مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ﴾**.

فمنهم من قال: خطاب للمسئول ومعناه: لأن تبذل للسائل قولاً حسناً، وتغفر له أن ذاك بمراجعة وإلحاف خير من أن تعطيه وتمتن عليه، كقول الشاعر:

ومنعك للندى بجميل قول

أحبُّ إليَّ من بذلٍ ومنّةٍ[3]

وقيل: معنى المغفرة الترك، أي الاقتصار على القول الحسن، وترك الصدقة خير من صدقة هكذا، وقيل معناه: وإن تسأل الله الغفران لتقصيرك في إعطائه، وقيل: معناه ستر الخلة عليه، وقيل: **﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ﴾** وسلامة من المعصية خير من المعصية خير من صدقة هكذا، فإن هذه الصدقة فيها

---

١ - سورة محمد : الآية (٣٨).

٢- هذا البيت لإياس بن القايف ، وقيل وجد هذا البيت مكتوباً على باب مدينة بأقصى المغرب يقول إياس منها :

فأكرم أخاك الدهر ماعشتما معاً **كفى بالممات فرقة وتنائيا**

إذا زرت أرضاً بعد طول اجتنابها **فقدت صديقي والبلاد كماهيا**

مخطوط كتاب الدر الفريد وبيت القصيد - ج:٥-ص٥١٩ - لمحمد بن أيدمر .

٣- لم أعثر على نسبته .

عصيان الله، ونحو قوله: ﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ﴾ قوله: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلاً مَيْسُوراً﴾[1]، وقوله: ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾[2]، وقيل: القول المعروف أن تحث غيرك على إعطائه، وقيل: ذلك خطابٌ للسائل وحثٌّ له على إجمال الطلب، كما قال عمر بن عبدالعزيز: «**لن تدّعوا لمرءٍ ما قُسم له، فأجملوا في الطلب**»، فأراد تعالى لأن يقول قولاً حسناً من تعريض بالسؤال أو إظهار للغنى، حيث لا ضرورة، ويكتسب خير من مثال صدقة يتبعها أذى، كما قال الشاعر:

لأن أرجى عند العرى بالخلق

وأجتزى من كثير الزاد بالعلق

خير وأكرم لي من أن ترى نعمٌ

معقودة للئام الناس في عنقي..[3]

وقيل: معناه: لأن تنال أيهاالسائل قولاً معروفاً من المسئول ومغفرةً من الله خيرٌ من صدقة هكذا..

ومنهم من قال: ﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ﴾ خطاب للمسئول، أي: "**لتقل قولاً حسناً في رده، ومغفرة خطاب للسائل**" أي: اغتفر رده لك ولا تثقلن قلبك عليه، ونبه بقوله: ﴿وَاللَّهُ غَنِيٌّ﴾ أن استقراضه ليس بحاجه به، بل لحاجة المقرض إلى الثواب، وبقوله: "**حليم**"، أنه ليس يجب أن يغتر المذنب بتأخير العقوبة عمن قصر في الإنفاق أو في المنة على السؤال أو في سؤاله وليس بأهله..

---

١ - سورة الإسراء : الآية (٢٨).

٢ - سورة الضحى : الآية (١٠).

٣- قائل البيتين هو محمد بن بشير ، وذلك كما فى الشوارد - عبد الله بن خميس - ج :٢ص٣٨٢ -ط : دار اليمامة للبحث والنشر والترجمة - السعودية .

وفيه البيت الثاني يقول الشاعر :

خير وأكرم لي من أن أرى مِننًا خوالداً للئام الناس في عنقي

قوله - عز وجل :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَى كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ الآية : (٢٦٤) - سورة البقرة .

التراب أصل في بابه، وترب يخصص بالتراب، وعبر به عن الفقر، وأترب صار ذا تراب، وعبر به عن المختص بالمال الكثير، فكأنه عبر عن المال بالتراب، كما عبر بالثرى، وقول الشاعر في مخاطبة الدلو:

"واغترفي من تربها الأدق"[١]

تصور منه معنى ترب وأترب، ففسر مرة بأنه دعاء عليها، كأنه قال: تربت فلا تخرجين إلا تراباً، ومرة بأنه دعاء لها، والمعنى أتربت، فأخرجت ماء كثيراً، والترب للذة على بناء القبل والقرن أي المقابل والمقارن، وكأنه الواقع مع غيره في التراب عند الولادة، وقيل معنى الترب الملاعب مع غيره بالتراب في الصغر، كقوله:

كما قسم الترب الصبي المقابل[٢]

والتريبة لعظم الصدر، حيث التفت عظام كأنها أتراب، أي لدات، ولهذا قيل لها: أتراب بلفظ الجمع، والوابل الذي يبل الأرض، أي يأتيها بالوبل، ويقال للمطر وابل ومرعى وبيل للنبات اليابس الذي يأتيه المطر، فيصير أذى للغنم، وهو الذي يقال له النشر[٣]، ومنه اشتق الوبال، وعنه استعير "**أخذه أخذاً وبيلاً**"،[٤] ويقال للعصا الثقيلة، وبيله الصلد، والصلت، والصلب تتقارب، لكن الصلد

١- لم أعثر عليه .

٢- لم أعثر عليه .

٣ - قال الراغب في كتابه المفردات: النشر: الكلأ اليابس إذا أصابه مطرفينشر أي يحيا، فيخرج منه شيئ كهيئة الحلمة، وذلك داء للغنم، يقال منه: نشرت الأرض فهي ناشرة.. الخ.. مفردات ألفاظ القرآن- ص٨٠٦.

٤ - هذا اقتباس من قوله تعالى :(فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذاً وبيلاً) سورة المزمل الآية (١٦).

خاص في الأرض والصخر وشبه به مالايجدي، فقيل: زند صلد، ورجل مصلد، وصلد: بخيل، وقدر صلود ذات صلدة يتباطأ غليانها، وفرس صلود: لا يعرق.، وصفوان: أبلغ من الصفات، وهو كل حجر صاف من التراب، وواحده قيل: صفوانه: نحو سعدان وسعدانة، ومرجان ومرجانة، وقيل واحد، وجمعه صفوان، نحو كروان، وليعظم الله تعالى فتح المنة، أعاد ذلك في معارض من الكلام، فأثنى على تاركها أولاً، وفضل المنع على عطية يتبعها المن.، ثانياً: وصرح بالنهي عنها بالياء، وخص الصدقة بالنهي إذ كان المنة فيها أعظم وأشبع ولكون ذلك فظيعاً مستبشعاً قال عليه الصلاة والسلام: «**ثلاثة لا يجدون ريح الجنة، وإن ريحها لتوجد من مسيرة خمس مائة عام : العاق لوالديه، ومدمن الخمر، والمنان**»[1]، وقوله: ﴿ **كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ** ﴾ في موضع الحال للمؤمنين، لا تبطلوها مثل منفق ماله مرائياً- تنبيهاً أن إنفاق الممتن كإنفاق المرائي الكافر بالله لأنه قال:﴿ **كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ** ﴾، وذلك كله من صلة "**الذي**"، وقد عظم مزاياه حتى جعل المرائي بفعل الخير شراً من تاركه- سيما في العبادات، ولهذا قال -عليه الصلاة والسلام- «**المتشبع بما لم ينل كلابس ثوبي زور**» [2] تنبيهاً أنه كاذب بمقاله وفعاله، وشبه المرائي بصفوان وماله بتراب، وإنفاقه بالوابل، وبين أن إنفاق هذا المرائي مع كون الإنفاق في نفسه شيئاً نافعاً لم يفده إلا زوال ترابه، كما أن المطر الذي أتى على الصفوان مع كون المطر نافعاً في نفسه لم يفده إلا زوال ثراه، وقال تعالى في ضياع أعمال الكافر: ﴿ **مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ** ﴾[3]، وفي الآيتين دلالة أن

١-أورد هذا الحديث الحافظ بن كثير في تفسيره من روايةابن مردويه وبن حبان والحاكم في مستدركه والنسائي من حديث عبد الله بن يسار الأعرج عن سالم بن عبد الله بن عمر عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ثلاثة لاينظر الله إليهم يوم القيامة . العاق لوالديه ، ومدمن الخمر، والمنان بما أعطى)، كما أورد بن كثير رواية النسائي بسنده إلى مجاهد عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال (لايدخل الجنة مدمن الخمر ولاعاق لوالديه ولامنان) وقد رواه بن أبي حاتم عن مجاهد أيضاً عن أبي هريرة نحوه. تفسير القرآن العظيم ج : ١ ص٣١٨.

٢- الحديث رواه البخاري في باب النكاح ص١٠٦، وأخرجه مسلم في باب اللباس ص١٢٦ ,١٢٧ ورواه الترمذي في باب البر ص٨٧ وأخرجه الإمام أحمد في ج : ٦ ص١٦٧ , ٢٤٥ , ٢٤٦ , ٢٥٢ ونص الحديث : « قالت أسماء : سمعت امرأة تسال رسول الله صلى الله عليه وسلم – قالت : إن لي ضرة ، وإني أتكثر من زوجي بمالم يفعل أضارها بذلك ، فهل علي فيه شئ ؟ فقال : المتشبع بمالم يعط كلابس ثوبي زور » وقال العراقي : متفق عليه من حديث أسماء بنت أبي بكر ، ورواه أحمد وأبو داود ، ورواه مسلم من حديث عائشة ، ورواه العسكري في الأمثال من طريق ابن جريج عن صالح مولى التوأمة عن أبي هريرة مرفوعاً ، وفي الباب سفيان بن الحكم الثقفي وجابر .

٣- سورة ابراهيم : الآية :(١٨).

العبادات والأعمال الصالحة غير معنية مالم يبن على الإيمان، ولا حجة في الآيتين مالم احتج بهما على المرجئة، حيث قالت: إن المعاصي لا تحبط الطاعات، لأنهم قالوا ذلك بشرط الإيمان، والله تعالى شرط في الآيتين الكفر، لأنه قال: ﴿كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾، وقال في الأخرى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾[1]. وهذا ظاهر، وقوله: ﴿لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ راجع - إلى قوله: كالذي، أي المرائي بإنفاق ماله، لا يقدر يوم القيامة على اجتناء ثمرة ما اكتسبوا، فإن قيل: وكيف يجوز أن يكون ﴿لَا يَقْدِرُونَ﴾ فعلاً للذي، والذي هو فعلاً للواحد؟ قيل: قد يُقدر أن الذي قد يقع على الجمع، وأنه إذا أريد به الجمع، فقد يخبر عنه كما يخبر عن الواحد وقوله: ﴿لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾.

قد تقدم أن الهداية على أربعة أضرب، هداية بالفطرة، وهداية ببعث الرسل، وهما عامان لكل مكلف، وهداية بالتوفيق لمن يستحق الاهتداء، وهداية هي ثواب الآخرة، وهاتان لا تكونان للكافر.

قوله - عز وجل :

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ الآية (٢٦٥) - البقرة.

يقال: رَبوة، ورَبوة، وربوة، وربا حصل في ربوة، وسميت الربوة رابية، كأنها ربت بنفسها في مكان بسيط، ويقال لكل مازاد وعلا ربا، ومنه الربوا والطل[2] أثر الندى، والطلل: الأثر الباقي منا بلي، وطلّت الأرض، أصابها طل، نحو وبلت، ومطرت، وطل دمه: ترك أثره، وعلى ذلك ما قيل: إن سألتك بمرشكرها وشبرك أفشأت تطلها وتضهلها، وقيل: للشجر طل وندى، لأنه من النبت والنبت منهما وبالعكس من ذلك قيل للندى والمطر شحم، لأنهما يؤديان إليه، بين تعالى أن المنفق ماله في سبيل الله ينبغي أن يكون قاصداً به الوجهين اللذين لأجلهما أوجب على الناس الزكاة، أحدهما ابتغاء

---

١ - سورة البقرة : الآية (١٧١).

٢ - في (و - ج) والظل، وهو تصحيف.

مرضـاة الله وطلب التوجه للوصول إليه المشار إليه بقوله: مخبراً: ﴿ **إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُورًا** ﴾ [1] والثاني: بتثبيت النفس، أي رياضتها، لأداء الأمانات، وبذل المعونـــــات، والتمسح لأبواب المصالح، فإن النفوس مالم ترض لم تسمح، إذ هي مجبولة على الشح والكسل، كما قال تعالى: ﴿ **إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا** ﴾[2]، وببذل الصدقة وفعل الخير يتطهر ويتزكى، ولهذا قال: ﴿ **خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا** ﴾[3]، فهذان الوجهان أعنى ابتغاء وجه الله وتثبيت النفس وإن اختلفا اختلاف الاعتبارين فهما واحد، وحق الإنسان أن يقصد ذلك في جميع ما يفعله من العبادات، فاما أن يطلب شكر مخلوق ومباهاة نظير وطلب نفع دنيوي وقضاء شهوة وإبقاء معزة، فليس ذلك بمرتضى، وبين أن مثل نفوس المنفقين أموالهم على هذا الوجه كمثل روضة بربوة، فشبه نفوسهم بالروضة وما يأتيهم من التوفيق والهداية من جهة الله بسبب الانفاق بما يأتي الروضة من الوابل والطل، وشبه تزكية النفوس بزكاة الأكل، وقال جابر: الطل مثل للفرائض، والوابل مثل للنوافل معهما، ومعناه: إن حق المنفق ماله أن يتحرى النوافل والفرائض، فإن من لم يتحرهما معاً، لم ينفك من الفرائض، تنبيهاً أن الفريضة هي مالابد منه، وتخصيص الربوة، لأن تأثير الشمس فيها أكثر، ولما كان قد ينقطع عن الربوة فيحترق نباتها، بين أنها لا تنفك من وابل وطل، وعلى هذا قول الأعشى:

ما روضة من رياض الحزن معشبة

خضراء جاد عليها مسبل هطل [4].

---

١ – سورة الإنسان : الآية (٩).

٢ – سورة المعارج : الآيات (١٩)، (٢٠)، (٢١).

٣ – سورة التوبة : الآية (١٠٣).

٤ – البيت للأعشى، وبعده قوله:

يوماً بابهج منها وجه ناظرة ولا بلحسن منها إذ دنا الأصل

وذلك كما في ديوان الأعشى – ص ٥٧ ويقول الأعشى بعده ببيت :

يوماً باطيب منها نشر رائحة ولاباحسن منها إذ دنا الأصل

والبيت الأول هو الرابع عشر ، والبيت الثاني هو السادس عشر من القصيدة السادسة في ديوانه ، وهما مع بيت آخر في تفسير الطبري – ج : ٢١ – ص ١٧، وفي تفسير القرطبي ج : ١٤ ص١١.

فوصفها بأنها في حزنة ومجودة.. إن قيل: ما وجه قوله تعالى: ﴿فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ﴾ والضعف يقال في عدد ما يصح أن يوجد نصفه ولم يجرها هنا ذكر عدد ولا ما يقتضي عدداً، قيل: إنه لما كان لكل قطعة أرض قدرٌ من الريع لا يكاد يزيد عليه، بين تعالى أن دخل هذه الجنة ضعفاً ما يقتضي مثلها من الأرضين..

إن قيل: لم قال: ﴿وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾؟، فجمع جمع القلة؟ قيل: تنبيهاً أن ذلك الفعل لا يكاد يوجد إلا في قليل من الناس، فصار في تخصيص الأنفس إشارة إلى نحو قوله -عز وجل-﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾(1)، ولهذه النكتة - قال تعالى :﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ (2) قال: عليه الصلاة والسلام لأصحابه : «**الشرك أخفى فيكم من دبيب النملة على الصفاة في الليلة الظلماء**»(3)، تنبيهاً أنه قل ما ينفك عمل من رياء وإن قل.

وبين تعالى بقوله: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أنه لا يخفى عليه شئ من أسرار العباد..

قوله - عز وجل :

﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ الآية (٢٦٦) - سورة البقرة.

النخيل: سمي بذلك لأنه منخول الأشجار وصفوها، وذاك أنه أكرم ما ينبت، لكونه مشبهاً بالحيوانات في الاحتياج، الأنثى منها إلى الفحل في التلقيح، وأنه إذا قطع رأسه لم يثمر بعده.

١- سورة سبأ - الآية (١٣) .

٢ - سورة يوسف - الآية (١٠٦).

٣ - الحديث أخرجه السيوطي في الدر المنثور -ج:٤-ص٥٤، كما أخرجه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين -ج:٢-ص٢٧٣، ج:٧-ص٣٠٤، ج:٨-ص١٥٣، ٢٣١، ص٢٨١، وأخرجه ابن كثير في تفسيره- ج:٤-ص٣٤٤، كما أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد - ج :١٠-ص٢٢٤.

ولأجله قال، عليه الصلاة والسلام: « **أكرموا عمتكم النخلة**»[1] وقيل: نخل السماء الثلج عند وقوعه على الأرضَ قطن أو دقيق يغربل، والعنب والعناب نظر إليهما نظراً واحداً، وشورك بينهما في الحروف الأصيلة مشاركتهما في الهيئة والصيغة، وزيد في لفظ العناب لزيادة جرمه على جرم العنب، وهذا طريق اعتبروه في الاشتقاق وتحت نقيض فوق، وفي الحديث: «**لا تقوم الساعة حتى تظهر التحوت**»[2]، أي ما تحت الأرض، وذلك إشارة إلى ما قال الله -عز وجل-. ﴿ **وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ** ﴾.[3]

والعصر: مصدر "عصرت العنب"، وسمى آخر النهار ومدة من الزمان عصراً كأنه مدة عُصرت، فجُمعت، وقيل للعطية عصر تشبيهاً بعصر الريح السحاب، وسمى الإلجاء عصراً، والاعتصار الالتجاء، والمعصر سحاب ذات عصر للمطر، والمرأة فوق الكاعب معصر، لكونها ذات عصر، أي زمان

---

١ - الحديث رواه ابن الجوزي في الموضوعات في باب: "خلق النخلة من طين لآدم"، وهو مروي عن علي وابن عمر، ونصه: قالا: قال رسول الله صلى الله عيه وسلم "أكرموا عمتكم النخلة، فإنها خلقت من فضلة طينة آدم، وليس من الشجر شجرة أكرم على الله من شجرة وُلدت تحتها مريمُ بنتُ عِمْرَانَ، فأطعموا نساءكم الولد الرطب، فإن لم يكن رطباً فتمراً".
الموضوعات - ابن الجوزي - ج:١-ص١٨٣، ١٨٤، ورواه العقيلي في الضعفاء- ج:٤-ص٢٥٦، ورواه كذلك ابن عدي في الكامل للضعفاء -ج:٦-ص٢٤٢٤، ورواه السيوطي في الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة -ص٤٢، وأخرجه ابن كثير في البداية والنهاية ج:٢-ص٦٦، كما رواه ابن القيسراني في تذكرة الموضوعات ص١٣٢.

٢ - الحديث تمامه : (لاتقوم الساعة حتي يظهر الفحش والبخل ويخون الأمين ، ويؤتمن الخائن وتهلك الوعول ، وتظهر التحوت) قالوا يارسول الله ، وما الوعول والتحوت ؟ قال (الوعول وجوه الناس وأشرافهم ، والتحوت الذين كانوا تحت أقدام الناس لايعلم بهم)، أخرجه الطبراني في الأوسط ج : ١- ص٤٢٠ - كما أورده ابن حجر العسقلاني في فتح الباري - باب ظهور الفتن ورجاله رجال الصحيح غير محمد بن الحارث وهو ثقة ج : ١٨- ص٦١١، وأخرجه أيضاً أبو عبيد فى غريب الحديث ج : ٣- ص ١٢٥ كما أورده الراغب في مفردات ألفاظ القرآن - ص ١٦٤ - تحقيق صفوان داوودي .

٣ - سورة الانشقاق الآيتان (٤،٣) .

للتمتع إشارة إلى قول الشاعر:

مطيات السرور فويق عشر

إلى عشرين ثم قف المطايا[١].

والإعصار: أصله مصدر أعصر، فسمي به الريح، والاحتراق مطاوعة حرق، وحرق الثوب أن تحرقه الدق[٢]، وحرق البعير حك إحدى نابيه بالأخرى، وريش حرق كالمنقطع بالإحراق، والحرقة احتراق البدن بحرارة فيه، والحراق معروف، والحرقات سفن يرمى عنها بالنيران، ضرب الله مثلاً لأعمال المنافق والمرائي، وأن لها في الدنيا شارة ونضارة، فإذا احتاج إليها وجدها باطلة، كمن له جنة هكذا يعتمدها، فلما اختل حاله، وكثر عياله، وانقضى شبابه، بقي خالياً عنها،وعلى هذا دل ما روى أن عمر-رضى الله عنه قال: "إني لأجد في نفسي من هذه الأشياء"، وكان في القوم ابن عباس، فقال: هذا مثل ضربه لمن يعمل عمره كله بعمل أهل الخير حتى إذا كان في آخر أيامه، وفي أحوج ما يكون إلى الخير، ختم عمله بعمل أهل الشقاء، فبطل ما عمل،[٣] وقيل: إن ذلك مثل ليس للمال فقط،

١- هذا البيت قاله دعبل الخزاعي وذلك كما في مخطوط كتاب الدر الفريد - لمحمد بن أيدمر ج : ٥ - ص١١٤، وورد في أمالي الزجاجي منسوباً لمحمد بن عبد الله بن طاهر بلفظ :

مطيات السرور بنات عشر إلى عشرين ثم قف المطايا

وبعده :

فإن جاوزتهن فسر قليلاً بنات الأربعين من الرزايا

إلى أن قال :

مقاساة النساء مع الليالي إذا أولدتهن من البلايا

وانظر مقدمة جامع التفاسير - ص ٥٣ - تحقيق : الدكتور أحمد حسن فرحات - ط : دار الدعوة بالكويت.

٢- أورد القرطبي ماأخرجه البخاري عن عبيد بن عمير قال : قال عمر بن الخطاب يوماً لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . فيم ترون هذه الآية نزلت « أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب » ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، فغضب عمر وقال: قولوا نعلم أولا نعلم ! فقال ابن عباس : في نفسي منها شئ ياأمير المؤمنين ، قال : ياابن أخي قل ولاتحقر نفسك ، قال ابن عباس : ضربت مثلاً لعمل . قال عمر أى عمل ؟، قال ابن عباس : لعمل رجل غني يعمل بطاعة الله ثم بعث الله - عز وجل - له الشيطان فعمل في المعاصي حتي أحرق عمله . في رواية ، فإذا فني عمره واقترب أجله ختم ذلك بعمل من أعمال الشقاء، فرضي ذلك عمر. تفسير القرطبي - ج : ٢- ص١٢٤١ ، ص ١٢٤٢، وأورده ابن كثير من رواية ابن أبي حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس : ج . ١- ص٣١٩.

٣ - في المجمل -ج:١-ص٢٢٧. والحرق في الثوب من الدق.

بل للصحة والجمال وسائر الأمور البدنية والجارحة والسلطان، فإنه يفجع به الإنسان أحوج ما يكون إليه، فيكون بمنزلةٌ من إذا كثر عياله فسد بالصاعقة بستانه، فبقي ضعيفاً لافضل فيه لعمل،وسعى في تصرف، وإنما ذكر أنه فجع بها، ولم يقل : مات عنها، فالنفوس مطبوعة على استعظام ذهاب المال عن الإنسان أكثر من استعظام ذهاب الإنسان عن ماله، قالوا: حلف للأعداء، ولا يجنح إلى الأصدقاء، إن قيل: كيف قال: **"أيود"** وهو مستقبل، ثم قال: **"وأصابه الكبر"**، فأتى بلفظ ماض؟

قيل: قد قال الفراء: لما كان يود يتلقى مرة بأن يكون، ومرة بلو كان، جاز أن يقدر أحدهما مكان الآخر، لانفاق المعنى، فكأنه قيل: "أيود أحدكم لو كان له جنة، وأصابه الكبر"، إن قيل: ولم قال: "وأصابه الكبر" ولم يقل: "وكبر" ؟ في قوله: "وأصابه الكبر تنبيه على معنى التأثير والنكاية فيه، كقول الشاعر:

رمتني بنات الدهر من حيث لا أرى..[1]

قوله - عز وجل :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلَّا أَن تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ الآية : (٢٦٧)- سورة البقرة .

الطيب يقال تارة باعتبار الحاسة، وباعتبار العقل تارة، والخبيث في نقيضه، والأظهر أن المعني به هاهنا المعقول الذي هو الحلال، فقد روى: «ثلاث إذا كن في التاجر طاب كسبه، لا يعيب إذا اشترى، ولا يمدح إذا باع، ولا يكذب»، وروي: لا يحلف.

١- هذا شطر بيت قاله عمرو بن قميئة ، والبيت :

رمتني بنات الدهر من حيث لاأرى   فكيف بمن يرمى وليس برام

وبعده : فلو أنها نبل إذا لاتقيتها   ولكنني أرمى بغير سهام

ويرويان للبيد بن ربيعة أيضاً ...

مخطوط كتاب : الدر الفريد وبيت القصيد - ج : ٣- ص ٣٢٤ .

وقال – عليه الصلاة والسلام:

«**إن أطيب ما يأكل المرء من كسبه، وإن ولده من كسبه**»[١]، وأصل التيمم قصد اليم أي لجة البحر، ثم صار في التعارف القصد نحو، ﴿**فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً**﴾[٢]، ويممته، وأممته، قيل هما واحد وقال الخليل: أممته: قصدته من أمامه، ويممته: قصدته من أي جهه كان، والإغماض والتغميض غض البصر، ويستعمل في الترخص كالإغضاء، ذكر تعالى فيماتقدم فضل النفقة في سبيله، وحث عليها، وقبح المنة، ونهى عنها، وحث في هذا أن يكون الإنفاق من طيبات الكسب، قيل: من أجوده، بدلالة ما روي أنه لما أمر بالصدقة، جاء قوم من أهل المدينة من صدقة التمر بالحشف، ومن الطعام بالزوان، فأنزل الله تعالى هذه الآية[٣]، وقيل: الطيبات تتناول مع ذلك الحلال، وحقيقة الطيب من الكسب ماليس فيه ارتكاب محظور واكتساب محجور، بل منح العقل والشرع تناوله، ودخل في قوله: "ما كسبتم" كل ما يناله الإنسان بربح أو أجرة عمل، وفي قوله: ﴿**مِمَّا أَخْرَجْنَا**﴾ أنواع الحبوب والثمار والمعادن، وتخصيص المكتسب دون الموروث لأن الإنسان مما يكتسبه أضن منه مما يرثه، فإذاً الموروث معقول من فحواه.

إن قيل: ما فائدة : لكم؟

قيل: تنبيه أن المقصود بإتخاذ هذه الأشياء نفعنا، ليبلغنا بها إلى سعادة الدارين، كقوله:

١- الحديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده – ج :٦ ص٣١، ٤٢، ١٢٧، وأخرجه النسائي فى سننه فى كتاب البيوع من حديث عائشة – ج :٧- ص٢٤١، وأخرجه السيوطي في الدر المنثور – ج :١- ص٣٤٧، وأخرجه المتقي الهندي في كنز العمال ج رقم ٢٢٢٤، وأخرجه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين – ج : ٩- ص٣٠٨.

٢ – سورة المائدة : الآية رقم (٦) ، سورة النساء: الآية رقم (٤٣).

٣- ذكر السيوطي سبب نزول هذه الآية في ماوراه الحاكم والترمذي وابن ماجة وغيرهم عن البراء قال : نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار ، كنا أصحاب نخل ، وكان الرجل يأتي من نخله على قدر كثرته وقلته ، وكان ناس ممن لايرغب في الخير يأتي الرجل بالقنو فيه الصيص والحشف، وبالقنو قد انكسر فيعلقه، فأنزل الله « يأأيها الذين آمنوا انفقوا من طيبات ماكسبتم » .. الآية . كما أورد السيوطي أيضاً ماوراه أبو داود والنسائي والحاكم عن سهل من حنيف قال : كان الناس يتيممون شر ثمارهم يخرجونها في الصدقة ، فنزلت : « ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون » ، وماوراه الحاكم عن جابر قال : أمر النبي صلى الله عليه وسلم بزكاة الفطر بصاع من تمر ، فجاء رجل بتمر ردئ ، فنزل القرآن : « يأأيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ماكسبتم » الآية ، وماوراه ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يشترون الطعام الرخيص ويتصدقون به فأنزل الله هذه الآية. أسباب النزول – للسيوطي – ص ٣٥ ، ص ٣٦ ط . دار المنار بالقاهرة .

﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾[١]، ويجوز أن يتضمن مع ذلك أن الذى تجب فيه الزكاة، وهو ما قصد به قوام الإنسان دون ما قصد به البهائم كالحشيش ونحوه، وقوله: ﴿أَنفِقُوا﴾ عام في الواجب والتطوع..

إن قيل: لم قال: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ﴾ ولم يقل: (ولا تنفقوا الخبيث) مع أن اللفظ كان أوجز؟

قيل: لأن القبيح من الإنسان أن يقصد الخبيث أي الرديء من جملة ما في يده، فيخصه[٢] بالإنفاق في سبيل الله، فأما إنفاق الرديء لمن ليس له غير ذلك، أو لمن لا يقصده خصوصاً فغير مذموم.

قوله - عز وجل :

﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾

الآية : (٢٦٨) - سورة البقرة .

الفقر أربعة: فقر الحسنات في الآخرة، وفقر القناعة في الدنيا، وفقر المقتني، وفقرها جميعاً.، والغني بحسبه، فمن حصل له في الدنيا فقد القناعة والمقتني، فهو الفقير المطلق على سبيل الذم، ولا يقال له غني بوجه،وهو المشار إليه بقوله عليه الصلاة والسلام «**كاد الفقر أن يكون كفراً**»[٣]، ومن فقد

---

١ - سورة البقرة : الآية (٢٩).

٢ - في (و - ج) فيحصنه وهو خطأ من الناسخ.

٣ - الحديث أخرجه المتقي الهندي في كنز العمال في باب : « الفقر الاضطراري » في الحديث رقم ١٦٦٨٢ وأورده العجلوني في كشف الخفاء - ج : ٢- ص١٠٨، وقال : في سنده يزيد الرقاشي ضعيف ، ورواه الطبراني عن أنس مرفوعا ، وأخرجه السيوطي في جامع الأحاديث والحديث عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كاد الحسد أن يغلب القدر ، وكاد الفقر أن يكون كفراً » . أخرجه أبو نعيم في الحلي... ج ٣ - ص٥٣، وابن عدي في الكامل ج ٧ - حديث رقم ٢٦٩٢، وهو ضعيف وفيه يحي بن اليمان العجلي الكوفي ، وهو سريع النسيان وحديثه خطأ عن الثوري . وقد أورده الراغب في مفردات ألفاظ القرآن - ص٦٤١.

لقناعة دون القنية، فهو الغني بالمجاز فقير بالحقيقة،

ولهذا قال: قد يكثر المال والإنسان مفتقر[(١)].

وقيل لبعضهم: أفلانٌ غني؟ فقال: لا أدري غناه، ولكنه كثير المال، ومن فقد القنية دون القناعة، إنه يقال له فقير وغني، وكلاهما يقالان على طريق المدح، فقد قيل:**ليس الغني بكثرة العرض وإنما لغني غني القلب**"[(٢)]، والمشهور من الفقر عند العامة الحاجة وأصله كثير الفقار، ومن قولهم: فقرته، حو كبدته، وبطنته، وبهذا النظر سمى الحاجة والداهية فاقرة، نحو: ﴿**تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ**﴾[(٣)]، الفحش والفحشاء كل منكر من المقال والفعال وإن كان قد خصها بعضهم هاهنا بالبخل، كقول شاعر:

أَرَى الْمَوتَ يعتَام الْكِرَامَ وَيَصْطفِي

عَقِيلَةَ مالَ الْفَاحِشِ الْمُتَشَدِّدِ[(٤)]

فقوله: ﴿**الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ**﴾، قيل: عنى فقر الآخرة، وهو أن يخيل إليه أن لا جزاء ولا نوراً، وقيل: هو بأن يخوفه الفقر في آخر عمره،

إن قيل: على أي وجه يتصور وعد الشيطان؟

قيل: إن ذلك تسليط النفس ووساوسه، ولهذا قال هاهنا في الشيطان: ﴿**وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ**﴾، ال في غيرها: ﴿**إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ**﴾ [(٥)] لما جريا مجرى واحداً،

- هذا عجز بيت وصدره:

العيش لاعيش إلا ما قنعت به

و في التمثيل والمحاضرة للثعالبي بدون نسبة-ص٨٥، وهو أيضاً في نهاية الأرب ج-٣-ص٨٤، كما أورده الراغب في مفردات الفاظ القرآن بدون نسبة ص٦١٦.

- هذا حديث عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ليس الغني عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس) أخرجه البخاري في صحيحه ج١١-ص٢٢١، وأخرجه الطبراني الأوسط، ورجاله رجال الصحيح وأبو يعلي وأحمد ج-٢-ص٣١٥، وانظر مجمع الزوائد للهيثمي ج--١-ص٢٤٠ وقد أورده الراغب في كتاب المفردات ص٥٩٧:ص٦١٥، ص٦٤٢.

- سورة القيامة - الآية : (٢٥).

- البيت لطرفة بن العبد ، وهو في ديوانه - ص٥٨، وأورده الطبري فى ج : ٣-ص١٥٤، وأورده القرطبي فى تفسيره -ج:٢-ص١٦٢، وأورده أبو عبيد في مجاز القرآن - ج :٢- ص٣٠٨، وورد فى شواهد الكشاف - ص ١٠٣.

- سورة يوسف : الآية (٥٣).

قال: ﴿أن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾[١]، وقال في أخرى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾[٢] الآية.

إن قيل:

من حق مقابلة اللفظ في قوله ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ﴾ أن يقول (والله يعدكم لغنى)، ويأمركم بالمعروف أو بالبر، فليست المغفرة مقابلة للفقر، ولا الفضل للفحشاء وإن كان مقابلاً ه، فلم لم يذكر في : (الله يأمركم)، والله يأمركم، والله في الحقيقة يأمر، فأما الشيطان فهو المسؤول الموسوس؟

قيل: قابل الفقر بالمغفرة والفضل، والفضل أعم من الغنى، لأنه يتناوله وغيره، فبين أنه يعد الغنى وزيادات فضل، فأتى في مقابلة وعد الشيطان بالمغفرة، أنه يغفر مع ذلك انقيادكم للشيطان سائر الذنوب، ولما كان أمر الشيطان بالفحشاء إنما هو لأجل وعده بالفقر، لأن من خاف بخل بماله، البخل سبب ارتكاب سائر الفواحش، ولهذا قال -عليه الصلاة والسلام: «**وأي داء أدوى من البخل؟**»[٣]، صار مستغنى أن يذكر في مقابله: ﴿وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ﴾ بما ذكر من قوله: ﴿وَمَغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً﴾، لأن أمر الله تعالى بالخيرات والحسنات معلوم، وإنما المجهول أمر الشيطان، إذ كان أمره يخفى على الجهال، وإنما يعرفه أولوا الألباب..

---

١ - سورة يس : الآية (٦٠).

٢ - سورة الجاثية : الآية (٢٣).

٣- الحديث رواه أبو هريرة قال : قال رسول الله صلي الله عليه وسلم : (من سيدكم يابني مسلمة ؟ قالوا : سيدنا جد بن قيس ، إلا أنه رجل فيه بخل ، فقال صلى الله عليه وسلم : (وأى داء أدوى من البخل !؟) بل سيدكم بشر بن البراء ، أخرجه الحاكم فى المستدرك ح : ٣ ص٢١٩، وقال : صحيح علي شرط مسلم، وأقره الذهبي ، وأورده الراغب في مفردات ألفاظ القرآن - ص ٧٦٥.

قوله - عز وجل :

﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾

الآية (٢٦٩)-سورة البقرة .

قد تقدم أن الحكمة معرفة الموجودات، وفعل الخيرات بقدر طاقة البشر، وذاك عام فيما يدرك بالعقل وبالوحي، وإن كان قد خص في بعض المواضع بما يدرك بالعقل في نحو قوله: **﴿وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾**[١]، فقول ابن عباس: "الحكمة هاهنا: علم القرآن، ناسخه، ومحكمه، ومتشابهه"[٢].

وقول ابن زيد: "إنها علم آياته وحكمه ومتشابه"، وقولُ السدى أنها النبوة، وقول إبراهيم: إنها الفهم، وقول غيرهم إنها الخشية كلها صحيح، وإشارة إلى أبعاضها، ومن قال: عنى بالخير الجنة، ومن قال: هو العلم الظاهر والباطن فصحيح، والحكيم يقال بمعنى الفاعل والمفعول نحو: **﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾**[٣] أي محكم، ثم بين أن حقيقة ذلك لا يتذكرها إلا أولوا الألباب، وقد تقدم حقيقة اللب وماله من المزية على مقتضى لفظ العقل، وإليه أشير بقوله: **﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾**[٤]، وأما من قال: "كل مكلف ذو لب" حاصل له، فبعيد عن معرفة حقيقته، وما تقدم يغني عن بسط القول فيه هاهنا .

---

١ - سورة البقرة : الآية (١٥١).

٢ - أورد القرطبى اختلاف العلماء في معنى الحكمة، فأورد قول السدي بأنها النبوة ، وقول ابن عباس بأنها المعرفة بالقرآن فقهه، ونسخه ، ومحكمه ومتشابهه وغريبه ، ومقدمه ، ومؤخره ، وقول قتادة ومجاهد بأنها العقل في الدين ، وقول مالك بن انس بأنها المعرفة بدين الله والفقه فيه والاتباع له ، وقال الربيع بن أنس : الحكمة : الخشية ، وقال إبراهيم النخعي : الحكمة : الفهم في القرآن ، وقال زيد بن أسلم ، وقال الحسن : الحكمة : الورع. ثم علق القرطبى بقوله :« وهذه الأقوال كلها ماعدا السدى والربيع والحسن قريب بعضها من بعض ، لأن الحكمة مصدر من الإحكام ، وهو الإتقان في قول أو فعل فكل ماذكر فهو نوع من الحكمة التى هي الجنس ، فكتاب الله حكمة ، وسنة نبيه حكمة ، وكل ماذكر من التفضيل فهو حكمة) تفسير القرطبى - ج٢ -ص١٢٥٢، وأورده ابن كثير بهذا المعنى في تفسيره ج -١-ص٣٢٢ .

٣ - سورة الدخان: الآية (٤).

٤ - سورة ق : الآية (٣٧).

قوله - عز وجل :

﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾

الآية (٢٧٠)-سورة البقرة .

إن قيل: كيف قال: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ﴾ ، ثم قال: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ﴾، ثم رجع إلى ذكر النفقة، وذلك كلمات متباينة في النظم متفاوتة في السرد؟ قيل: بل ذلك في نهاية حسن النظم، فإنه تعالى لما بين فضل الإنفاق في سبيله، وحث عليه حذرنا من الجنوح إلى الشيطان وإلى شرور النفس، وحثنا على الاعتماد على الحق بقوله: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ﴾ الآية، ثم بين بقوله : ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ﴾ أن ذلك أمر يعرفه المتخصص بالحكمة التي يؤثر الله بها من يشاء، ثم رجع إلى ذكر النفقة، وبين أن ذلك موضوع عند من لا يسهو أولا ينسى، وصار ذلك الحكمة مع كونه متعلقاً بما تقدم، كالاستطراد والتنويه بذكرها والحث على معرفتها والتخصيص بها..

إن قيل: ما وجه تعقيب الإنفاق بالنذر، ووجه الآيتين بقوله: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ بعدهما؟

قيل: النذر عقد الإنسان على نفسه فعل البر بشرط أو بغير شرط، ولما كان فعل الخيرات ضربين مفروغاً منه ومعزوماً عليه بين أن كلا الأمرين لا يخفى عليه، وذلك كلام متضمن للوعد والوعيد، وقال بعضهم: ليس النذر هاهنا ما يلتزمه الإنسان بالتطوع فقط، بل كل ما التزمه بالعقل أو بالشرع فنذر، وقيل الإشارة بالنذر إلى التطوع وبالإنفاق إلى الواجب، ثم بين أن من ظلم نفسه بتقصيره فيما يلزمه من ذلك أو ظلم غيره، فماله أنصار، وهو جمع نصير نحو: شريف، وأشراف،.وفي ذلك تنبيه على ما قال:

﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾[1].

١- سورة غافر - الآية : (١٨).

قوله - عز وجل :

﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ الآية (٢٧١) - سورة البقرة .

خفى الشئ صار في خفية، والخفاء ما يستر به كالغطاء، وخفيته: أزلت خفاءه وذلك إذا أظهرته، وأخفيته أوليته ما دون القوادم من الريش... قال الخليل: لأنها تخفى إذا وقع الطائر قد أثنى الله تعالى على إبداء الصدقات بقوله: **﴿فَنِعِمَّا هِيَ﴾**، وقال ابن عباس: هذا في صدقة التطوع، فأما الفرض، فإظهاره أفضل، لئلايتهم، وقال الحسن وقتادة: إخفاء جميعه أفضل، ومن الناس من يحتج بذلك في جواز إعطاء الصدقات في الصامت والناطق الفقراء دون الإمام، لقوله: **﴿وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ﴾**، وقال بعضهم: ليس القصد بذلك إعطاء الفقراء يداً بيد، بل القصد إخفاؤه، فإنك إن أتيت الساعي فقد آتيتهم لأن يده يدهم في الحكم، وبين أن إخفاء الصدقة أحمد، لأن قوله: "خير" إن جعلته في تقدير "افعل" فتفصيله ظاهر، وإن جعلته في تقدير: "فعل"، فالخير أبلغ معنى من مقتضى نعم، ولا قال في الإخفاء "فهو خير لكم"، فأكده بلكم، ثم قال: **﴿وَيُكَفِّرُ عَنكُم﴾**، ولم يصف الإبداء بذلك، ثم قال: **﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾** تنبيهاً أنه إن أخفى لا يخفى عليه ولا يضل عنه، ويؤكد فضل إخفائه قوله-عليه الصلاة والسلام «**سبعة يظلهم** الله **في ظل عرشه... وذكر رجلاً تصدق بصدقة أخفاها حتى لا تعلم شماله ما تصدقت به يمينه..**»[1]، وقوله: **﴿فَنِعِمَّا هِيَ﴾** قرئ مكسور النون والعين، وكسر النون

---

١ - الحديث أخرجه ابن عبد البر فى التمهيد - ج : ٢- ص ٢١٨، وأخرجه ابن حجر العسقلانى في فتح البارى - ج :٢- ص١٤٤، وأخرجه الإمام مالك فى الموطأ من حديث أبي هريرة وأبي سعيد الخدرى في باب : ماجاء في المتحابين فى الله ص٩٥٢، وأخرجه الشيخان عن أبي هريرة ، والبخارى في ص ٨٦- كتاب الحدود ، وفى ص ١٩ باب : فضل من ترك الفواحش، وأخرجه الإمام مسلم في كتاب : الزكاة ص١٢ ، وفى باب : فضل إخفاء الصدقة - حدث رقم ١٩- ص٣٠.

اتباع لكسر العين، وقريء بفتح النون وكسر العين، وقرئ بسكون العين وكسر النون وتشديد الميم وبتخفيف الميم أيضاً، والسكون بعيد لالتقاء الساكنين، وليس أحدهما حرف مدولين[١]، والتخفيف كذلك لحذف لام الفعل أو الميم من ما، وكلاهما لا ينقاس، وقوله: ﴿وَيُكَفِّرُ﴾ إذا جزم فعطف على موضع الفاء، وإذا رفع فعطف على موضع الفاء، وإذا رفع فعطف على ما بعد الفاء نحو: ﴿مَن يُضْلِلِ اللهُ فَلا هَادِيَ لَهُ﴾[٢]..

إن قيل : ولم قال: ﴿وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ﴾؟ فأدخل فيه من قبل (قد): قال بعضهم : من زائدة،وقيل تنبيهاً أنه لا يكفر جميع المعاصي، لأنه يكفر الصغائر بشرط اجتناب الكبائر عند قوم ويكفر الكل عن المسلمين بشرط اجتناب الكفر إن شاء عند قوم..

---

١ – قرأ بفتح النون وكسر العين كلٍ من ابن عامر ، وحمزة، والكسائي ، وخلف ، والأعمش ، وقرأ بكسر النون وسكون العين كل من أبي عمرو ، ونافع ، وعاصم ، وقالون ، وأبي جعفر ، واليزيدي ، والحسن ، وشعبة ... معجم القراءات القرآنية – إعداد الدكتور / عبد العال سالم مكرم – الدكتور / أحمد مختار عمر – ج : ١– ص ٢١٠، ٢١١ – الطبعة الأولي – سنة ١٩٨٢.

٢ – سورة الأعراف – الآية (١٨٦).

قوله - عز وجل :

﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ الآية :(٢٧٢)- سورة البقرة .

إن قيل: ما وجه اتباع هذه الآية لما تقدم؟

قيل: روى عن النبي ﷺ إنه والمؤمنين تحرجوا من مواساة الكافرين ومواصلة أقاربهم منهم، حتى إن النبي ﷺ سأله يهودي، فقال: لاحق لك، وإن "أسماء بنت أبي بكر" امتنعت من مواساة جدها وامرأته، وإن الأنصار امتنعوا من الإنفاق على أصهارهم من الكفار، فأنزل الله تعالى ذلك تنبيهاً أن ليس عليك هداهم، وأن يهتدي الكافر، وإنما عليك أن تهديهم أي تدعوهم إلى الهدى على الوجه المأمور به – تنبيهاً أنه لا يجب أن تمتنع من مواساتهم[(١)] لذلك، ومن الناس من قال: هذا كان عاماً في جميع الصدقات، فرضها ونفلها، ثم نسخت الفريضة بقوله:

﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ﴾[(٢)].. الآية، ومنهم من قال: هو مخصوص في النافلة دون الواجبة، وإليه ذهب ابن عمر والحسن، وروي أبو حنيفة أنه لما أنزل الله :**﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ ﴾** تصدق الناس على الكفار من غير الفريضة، وقيل: عنى بالهداية الغنى، أي ليس عليك أن تهديهم، وإنما عليك مواساتهم، فإن الله يغني من يشاء وتسمية الغنى، هداية على طريقة العرب في نحو قولهم:

١- أورد السيوطى فى سبب نزول هذه الآية ما أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس « آن النبي صلى الله عليه وسلم كان يأمر أن لا يتصدق إلا على أهل الإسلام ، فنزلت: (ليس عليك هداهم، الآية فأمر بالتصدق على كل من يسأل من كل دين ». كما اورد السيوطى مارواه النسائى والحاكم والبزار والطبرانى وغيرهم ماروى عن ابن عباس قوله:« كانوا يكرهون أن يخضعوا لأنسابهم من المشركين ، فسألوا فرخص لهم ، فنزلت هذه الآية »، أسباب النزول – ص٣٦ –ط – دار المنار – القاهرة ، وكذلك أورد القرطبى ماذكره النقاشي من أن النبى صلي الله عليه وسلم أتى بصدقات ، فجاءه يهودى فقال أعطنى ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم ، ليس لك من صدقة المسلمين شئ» فذهب اليهودى غير بعيد، فنزلت : « ليس عليك هداهم» فدعاه الرسول صلي الله عليه وسلم فأعطاه ، ثم نسخ الله ذلك بآية الصدقات ، تفسير القرطبي ج ٢–ص١٢٥٩.

٢ – سورة التوبة : الآية (٦٠).

«رشدت واهتديت» لمن ظفر، و«غويت» لمن خاب وخسر، وعلى هذا قال الشاعر:

"ومن يغو لا يعدم على الغي لائماً"[1].

وقيل: ليس لقوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ تعلق بالإنفاق، وإنما هو تسلية للنبي ﷺ، وتنبيه أنك إن أمرت أن تكثر حثهم على الإنفاق، فليس يرجع عليك ملامة في تقصيرهم، كقوله: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾[2]،، وقوله: ﴿وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾[3] ، وقوله: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾[4]،، وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ كقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ﴾[5] وقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ﴾[6]، وقوله: ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ﴾، أي: أهل دينكم.

قال سفيان بن عيينة:

بين أن ما تنفقوا من صدقة فلأنفسكم، وقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾[7] يعني: أهل دينكم- تنبيهاً أن حكم الفرض من الصدقة بخلاف حكم التطوع، فإن الفرض لأهل دينكم دون الكافرين، وقال غير معناه: ما تنفقونه فإنه يحصل لكم ثوابه سواء أوصلتم إلى مؤمن أو كافر، وقوله: ﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ﴾، قيل: هي جملة في موضع الحال، كأنه قال:

١- هذا عجز بيت قاله الشاعر المرقش الأصغر وشطره الأول :

فمن يلق خيراً يحمد الناس أمره ومن يغولا يعدم علي الغى لائماً

وقد ورد فى ديوان المفضليات – ص٥٠٣ – وفى شرح مايقع فيه التصحيف والتحريف – ص٤٦٠، ٤٦١ وخزانة الأدب للبغدادي – ج : ٤– ص٥٨٩، ٥٩٠، وورد في التلويح فى شرح الفصيح للهروى – ص٣ ، وورد غير منسوب في تفسير الطبرى – ج : ١٦– ص١٠، وفى ديوان الحطيئة ، ص٢٩٢، وورد في إعراب القرآن – لأبي جعفر النحاس – ج : ١– ص٢٨٢ تحقيق الدكتور زهيد غازى .

٢ – سورة يونس : الآية (٩٩).

٣ – سورة البقرة : الآية (١١٩).

٤ – سورة النور : الآية (٥٤).

٥ – سورة يونس : الآية (٩٩).

٦ – سورة الأنعام : الآية (٣٥).

٧- سورة النساء : الآية (٢٩).

﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلأَنفُسِكُمْ﴾ إذ لم تنفقوا إلا ابتغاء وجه الله، أي إذا قصدتم به وجهه، وقيل: ذلك جملة معطوفة على جملة، ومعناه: "**ما تنفقوا من خير فلأنفسكم وأنتم تقصدون به قصدكم به وجهه فقط دون عوض**"..

إن قيل: ما معنى قوله: ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ وهذا معناه كمعنى قوله: ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾، ما ذكره النبي ﷺ حيث يقول: «**اللهم اجعل لمنفق خلفاً، ولممسك تلفاً**»(١)، ويعني به المنفق حيث ما يجب، وكما يجب، لا المنفق في عبارة وخسارة، وقوله: ﴿وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ﴾، وهو تعالى يجعل لكم بالواحد سبع مائة، كما ذكره في الآية المتقدمة، والوجه هاهنا قيل معناه القصد والجهة، وقيل معناه القصد به الذات، نحو النفس، ومعناه: يقصد به ذات الله ، لا طلب جزاء، ولا خوف عقاب، ولا غير ذلك من الوجوه التي يقصدها أبناء الدنيا بالإنفاق..

قوله - عز وجل :

﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾

الآية :(٢٧٣)-سورة البقرة .

العفة : حبس النفس عن فضول الشهوات الرديئة من المأكل، والمنكح، والاقتصار علي البلغة التي لابد من المشار إليها بقوله تعالى:﴿إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَى﴾ (٢).

١- الحديث متفق عليه وأورده ابن حجر العسقلاني في فتح الباري كتاب الزكاة باب قول الله تعالى (فأما من أعطى واتقى) - ج: ٥ ص٤١ ولفظه : حدثنا اسماعيل حدثني أخي ، عن سليمان عن معاوية بن أبي مزرد، عن أبي الحباب عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (مامن يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان ينزلان فتقول أحدهما :(اللهم أعط منفقاً خلفاً ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكاً تلفاً) كما أخرجه مسلم في الزكاة عن القاسم بن زكريا وأخرجه النسائي في عشرة النساء عن محمد بن نصر ، وفي الملائكة عن عباس بن محمد ، وهو في فتح الباري ج٥ - ص٤١ كما أورده النووي في رياض الصالحين في باب «الكرم والجود والإنفاق في وجوه الخير ثقة بالله تعالي» ص١٩١.

٢ - سورة طه : الآية (١١٨).

ويقول النبي ﷺ الله فيما يرويه سفيان:

«أربع من جاوزهن، ففيه الحساب: ما سد الجوعة، وكف العطشة، وستر العورة، وأكن البدن»[١]..

ويدخل في العفة الجود، لأنه قد قيل: الجود ضربان: أن يكون بمافي يدك متبرعاً، وأن يكون عما في يد غيرك متورعاً، والزهد يقاربه إلا الزهد، يقال اعتباراً بترك عرض الدنيا، والعفة تقال اعتباراً بحبس النفس عن الشهوات، وتتلازمان،والعفافة بقية ما في الضرع، كأنه قدر يمكن التعفف به، والإلحاف استشعار المسألة والاستقصاء فيها وتذرعها، يقال: لحفته: أي ألبسته إلحافاً، ككسوته، أي ألبسته كساءً، والوسم والسيما تتقاربان لكن الوسم علامة محسوسة كسمة البعير، والسيما علامة متفرسة، وأصلها من السوم، أي طلب الكلأ وطلب المبيع، وسوم الماشية أن تطلب لها المرعى وإن كان قد يستعمل في إرسالها.

إن قيل: بم يتعلق قوله: ﴿**لِلْفُقَرَاءِ**﴾؟

قيل: هو على ما ذكر سنين بدل من قوله: ﴿**لأَنفُسِكُمْ**﴾، فقد ذكر أنه يعني بأنفسكم أهل دينكم، فصار الفقراء بعضهم، فصح أن يبدل منه بدل البعض من الكل، وقيل: يتعلق بقوله: ﴿**وَمَا تُنفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ**﴾، أي ما تنفقون لهم إلا تقرباً إلى الله عز وجل-، فمعلوم أن من خص بنفقته هؤلاء، فإنه لم يقصد إلا وجه الله، وقيل: ذلك يتعلق بفعل مضمر يدل عليه: ﴿**وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ**﴾، أوبقوله: ﴿**يُوَفَّ إِلَيْكُمْ**﴾، أي يوف إليكم، ويوسع لأجل الفقراء إشارة إلى ما قال- عليه الصلاة والسلام: **«إنما تُنصرون بضعفائكم وتُمطرون وترزقون»**[٢].

١- لم أجده .

٢- الحديث رواه الزبيدى فى الإتحاف في باب الإخلاص، وروى أن سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه - ظن أن له فضلاً علي من هو دونه من أصحاب النبي صلي الله عليه وسلم -، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « إنما نصر الله عز وجل - هذه الأمة بضعفائها ودعوتهم وإخلاصهم وصلاتهم،» وروى قول العراقي : رواه النسائى ، وهو عند البخارى بلفظ : « هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم » ورواه الحافظ أبو بكر البرقانى فى صحيحه متصلاً عن مصعب بن سعد عن أبيه عن أبي الدرداء رفعه: « أبغونى الضعفاء، فإنما تنصرون وترزقون بضعفائكم. ورواه أبو داود بإسناد جيد ، ورواه أبو نعيم فى الحلية من طريق عاصم بن على عن محمد بن طلحة بن مصرف عن أبيه عن مصعب بن سعد قال : رأي سعد أن له فضلاً علي من هودونه، فقال النبى - صلي الله عليه وسلم : « إنما ينصر الله هذه الأمة بضعفائها بدعواتهم وصلواتهم وإخلاصهم » .

وقال بعض الناس : اللام تتعلق بقوله: ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ﴾ المذكور من بعد، وهذا لا يصح، لأن ما يتعلق بمعمول حرف الشرط لا يقدم عليه، وكذلك ما يتعلق بما بعد حروف العطف، وقد تقدم الكلام في الحصر والإحصار، وأن الإحصار أعم من الحصر، فإن الحصر يقال في منع العدو، والإحصار يقال فيه وفي منع الذي يكون من ذات الإنسان من العقل، أو الهوى، أو المرض، أو الخوف، فكل حصر إحصار، وليس كل إحصار حصراً، ولأجل عموم الإحصار قال قتادة وابن زيد: "منعوا أنفسهم من التجارة خوفاً من الكفار"، وقال السدي: "منعهم الكفار بالخوف، وقيل: منعهم المرض، وقيل: حملوا على الحصر..، وقوله: ﴿لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ﴾ أي : ذهاباً لمنع العدو إياهم، وقيل: لمنع الله لهم وإلزامهم أنفسهم المرابطة في سبيله، ولم ينف عنهم القدرة، ولكن بين أن إيمانهم وأحوالهم تمنعهم عن الإخلال عما هم بصدده، كقولك: "أمرني الأمير بكذا، فلا أستطيع أن أخل به"، وقوله تعالى: ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ﴾، أي الجاهل بحالهم، وقيل: إن ذلك فيمن له استغناء في الظاهر وبه فقرٌ في الباطن أو فقر إلى الله لمعرفته بحقائق الأمور، وقوله: ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ﴾، أي تتفرس فيهم أحوالهم، وذلك مما يدل على أن للفراسة حكماً صادقاً، وعليه دل قوله تعالى: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾[1]، وقوله: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم﴾[2]، وقوله عليه الصلاة والسلام: «**اتقوا فراسة المؤمن، فإنه ينظر بنور** الله»[3]

إن قيل: ما وجه ذكر ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ﴾ في ثلاثة مواضع متقاربة وتعليق كل واحد بحكم غير حكم الآخر، قيل: إنه بين أولاً ما ابتغى به الإنسان وجه الله، فنفعه راجع إلى نفسه، وبين في الثاني أنه وإن لم يقصد به وجه الله خالصاً، بل قصد به طلب ثواب، أو اتقاء من نار، أو غير ذلك من وجوه المصالح، فله ما قصده، وآتاهم الثواب في الثالث، حيث ذكر الإنفاق للفقراء الذين أحصروا،

---

١ – سورة محمد : الآية (٣٠).

٢ – سورة الفتح : الآية (٢٩).

٣– الحديث عن أبى أمامة عن النبى صلي الله عليه وسلم قال : « اتقوا فراسة المؤمن ، فإنه ينظر بنور الله) أخرجه الطبراني ، وإسناده حسن وهو فى مجمع الزوائد ومنبع الفوائد – ج : ١٠ – ص٢٧١، كما أورده الراغب فى مفردات ألفاظ القرآن -- ص٨٧١.

فقال: (وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم)، إشارة إلى ما قال:

(أعددت لعبادي الصالحين مالاعين رأت، ولا أذن سمعت).(١)

قوله - عز وجل :

﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ الآية (٢٧٤)-سورة البقرة .

قد تقدم أن إنفاق الأموال عند بعضهم ليس إنفاق المقتنيات فقط، بل كل ما خص الله بـــه الإنسان من النفس والبدن في العبادة والعلم والجاه وغير ذلك، لكن الأظهر أنه انفاق المقتنيات، وروي أنه لما نزل ذلك، كان مع أمير المؤمنين علي -رضي الله عنه- أربعة دراهم، فتصدق بدرهم ليلاً، وبدرهم نهاراً، وبدرهم سراً، وبدرهم علانية، فقيل له في ذلك ، (٢) فقال: "أردت أن أستوجب من الله ما وعد به الذين يفْعلون ذلك"، والإنفاق في سبيل الله ضربان، ضربٌ ظاهر، وهو الصدقة على الفقراء، وضرب غير ظاهر، وهو الإنفاق في المباحات إذا كان متناولاً من حيث يجب ومنفقاً على ما يجب وكما يجب، وقد تقدم ما قال بعضهم أن مباحات الأولياء كلها فرائض، فعني بقوله: علانيةً ما عرفه الناس أنه صدقة، وبالسر مالايعرفه صدقة إلا أولوا البصائر، وإلى هذا أشار من قال إنها نزلت في النفقة على الخيل، فإن الإنفاق على الخيل في الظاهر ليس بقربةٍ، وقوله:﴿ بِاللَّيْلِ﴾ إشارة إلى نحو ما روي أن بعض الأنصار نزل به ضيف، وكان عنده طعام طفيف، فقدمه إليه في الظلمة بالليل يري أنه يؤاكله وهو يؤثر به حتى أثنى الله عليه، والقصد بالآية في الجملة نفقة من لا يرائي، أن لا يداحي، وإنما يُقصد به مرضاة الله فقط..

١- الحديث سبق تخريجه - ص (١٢٦)

٢- أورده السيوطى فى أسباب النزول بسنده إلى الطبرانى بسند ضعيف عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية في علي بن أبي طالب ، كانت معه أربعة دراهم فأنفق بالليل درهماً ، وبالنهار درهماً ، وسراً درهماً ، وعلانية درهماً كما أورد ماأخرجه ابن المنذر عن سعيد بن المسيب قال : «نزلت هذه الآية فى عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان فى نفقتهما في جيش العسرة »، أسباب النزول - السيوطي - ص٣٦، وكذا أورد ابن كثير ما أخرجه إبن مردويه عن ابن عباس أنها نزلت فى على بن أبى طالب ومارواه ابن جرير عن طريق عبد الوهاب بن مجاهد ، كما أورد مايوضح نزولها فى أصحاب الخيل من طريق ابن شهاب عن ابن عباس فيما رواه ابن أبى حاتم وأبو أمامة وابن المسيب ومكحول - تفسير القرآن العظيم ج -١- ص٣٢٦.

قوله -عز وجل :

﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ الآية (٢٧٥) - سورة البقرة.

الخبط: الضرب على غير استقامة، كخبط البعير بيده، والرجل الشجر بعصاه، وقيل لمس الشيطان الإنسان الخبط والتخبط، لكون أفعال المتخبط على غير استقامة، والخباط سمة على غير استواء، والسلف من الأفعال المضايقة، ويراعى فيه معنى التقدم، يقال: أصم سالفه، والسالفة من الإنسان لتقدمها على ما دونها من الأعضاء إذا اعتبر من الأعلى، وأسلفته في المال، وسلافة الخمر صفوها الذي يتقدم خروجه من العصير، والعود الرجوع، وأصله من العود، فعاد: رجع إلى عوده، أي أصله، وسمي البعير المسن عوداً، لأنه لما كان غاية سنها ذلك كأنه عاد إليه، وبيان ذلك أن الغرض والغاية بالذات شئ واحد، لأن الغاية هي بلوغ الغرض، وكان عرض الإنسان بناء دارما، فبناها على ما بوأها عاد بفعله إلى غرضه، فبناها على ما نواها الذي كان منه، وعلى هذا سمي الثوب لكونه ثابياً إلى ما كان الغرض من الغزل، وبهذاالنظر قال: **﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾**(١) فسمي انتهاء الإنسان الذي هو الهرم "**أرذل العمر**"، وعلى هذا قال: **﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾**(٢)، فسمي ذلك رجوعاً لما كان الغرض من الإنسان تلك الغاية، وسمي العادة عادة، لكونها معاداً للإنسان فيما يتعاطاه أو لكونها عائداً إلى الإنسان، ولهذا قال: **إن التخلق يأتي دونه الخلق** وهو يقال.. للبربط عود(٣) وللمتحرية عود.

١- سورة الحج - الآية : (٥) .

٢ - سورة المائدة : الآية (٤٨).

٣ - البربط: العود من آلات الموسيقى. ومعناه صدر البط، والجمع برابط.. المعجم الوسيط-ج:١-ص٤٦.

كما يقال للنبيد شراب، واستعارة اسم الجنس والنوع لبعض منهما من أجل الكناية أحد ما يجب أن يراعى في الاشتقاق، والربا الزيادة على رأس المال من الربوة على ما تقدم، لكن في تعارف العرب هو لدفع دين بزيادة أو لزيادة ثمن لزيادة في الأجل، وصار في شريعتنا اسماً لذلك، ولبيع الأجناس الستة بعضها ببعض متفاضلاً ولما يجري مجراه على مقتضى العلة على حسب إختلاف الآية الثالثة، وقال بعض الفقهاء: البيع والربا لفظان عامان نظراً منهم إلى مقتضى، وقال بعضهم: هما مجملان، نظراً منهم إلى اعتبار شرائط فيهما لم تكن العرب تعتبرها، فصارت الأعراب لا تعرفها من دون المراجعة إلى صاحب الشرع، وكلا القولين صحيح بنظر ونظر، فإنهما عامان من وجه، ومجملان من وجه، ولذلك وصفهما الشافعي بالصفتين، فظن كثير من أصحابه أن قوله اختلف في ذلك، وروي في تفسير الآية أن المربى يقوم من قبره يوم القيامة مجنوناً، وأنه في المحشر يصرع ويوطأ بالأرجل إلى أن يحاسب الله الخلائق، ثم يدخل النار، وفي قراءة ابن مسعود: "**لا يقومون يوم القيامة إلا كما يقوم**"،[1] وقيل: معناه: من سوى بينهما يخرج في الآخرة من حد الأبرار إلى حد الذين اتبعهم الشيطان وكانوا من الغاوين، كما قال الله تعالى: **﴿وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾**[2]، وقيل: هو تشبيه من لم يفرق بين البيع والربا مع شدة تضادهما وتباين ما بينهما في أن البيع سبب العدل والعمارة للعالم، والربا سبب الجور وخراب العالم فنبه أن قبح الربا مركوز في العقول، بحيث أن من سوى بينه وبين البيع فقد بلغ به الجهل إلى حد الجنون، وقوله: **﴿فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ﴾**، أي من انتهى بعد الوعظ، فما أخذه من قبل ملكه، لا اعتراض عليه، ولكن أمره في الآخرة إلى الله، إن شاء عاقبه، وإن شاء عفا عنه، وقيل: بل معناه: لا يؤخذ به في الدنيا ولا في الآخرة، ومعنى: **﴿وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ﴾** على طريق الوعد له والسكون منه وأنه قد خرج من حزب الشيطان إلى حزب الله، كقوله تعالى: **﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾**[3].

١- هى قراءة عبد الله بن مسعود ، وقد أوردها أبو حيان فى تفسير البحر المحيط - ج :٢-ص٣٣٣ ، كما أوردها القرطبي في تفسيره - ج :٣- ص٣٥٤، وأوردها معجم القراءات القرآنية - ج : ١- ص ٢١٥ - إعداد : الدكتور / عبد العال سالم مكرم ، والدكتور / أحمد مختار عمر . ط : مطبوعات جامعة الكويت - سنة ١٩٨٢.

٢ - سورة النساء: الآية (٣٨).

٣ - سورة المائدة : الآية (٥٥).

وكقـولـه: **(الصوم لي وأنا أجزي به)**،[1] وقوله: (ومن عاد)، قيل: من عاد إلى تحليله وقيل: إلى تحليله أو إلى فعله من غير استحلال، وقوله ﴿**يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ**﴾ مما يدل أن للشيطان تأثيراً في الإنسان بخلاف ما زعمت المعتزلة، حيث قالوا أن لا تأثير في الإنسان للشيطان إلا بالوسوسة، قالوا: وهو أن يغلب عليه من المره السوداء الضعف والقرع ما يحدث في المجنون، فمن قِبَل الله أومن قبل ذاته، وقال الجبائي: "**لو كان الشيطان يتخبطه بمسه لوجب أن يخبط كل واحد، فقد ثبتت عداوته للصالحين، ولوجب أن يسلب الإنسان ما في داره من أثاثه ومتاعه، فكان يحمل متاعهم إلى المسئ الكاذب**"، وقال أبو هاشم: "**لو قدر على ذلك لقدر على الصوت الرفيع، فكان يفشي سر المؤمنين ويضرب بينهم**". فنقول وبالله التوفيق: إن أول ما في قولهم هذا إبطالهم لنحو ما حكي عن أيوب: ﴿**مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ**﴾[2] ، وعن موسى: ﴿**هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ**﴾[3] ،ولا يكذبهما تعالى فيما قال، وقال: ﴿ **إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ** ﴾[4]، وقال مخبراً عن الشيطان: ﴿**وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ**﴾[5] واستثنى الله تعالى أولياءه بقوله: ﴿ **إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ**﴾[6]، هذا مع غيره من الآيات الباهرة الظاهرة، فإن قيل: على أي وجه يكون سلطانه؟.

---

١ - الحديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده - ج :٢ -ص ٢٨ كما أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه ، والنسائى في سننه كما أورده السيوطي فى الدر المنثور - ج :١- ص١٨٠ ، كما أورده الزبيدى فى إتحاف السادة المتقين - ص٢٢، ٢٣ ، وأورده المتقى الهندى فى كنز العمال - حديث رقم : ٢٣٦٢٨ ، حديث رقم : ٤٣٦١٢ ونص الحديث : (عن أبي هريرة أن النبى - صلي الله عليه وسلم قال : قال الله عز وجل : (كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزى به ، والصيام جنة ، فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولايصخب ولايجهل ، فإن شاتمهُ أحد أو قاتله فليقل : إنى امرؤ صائم ، إنى امرؤ صائم ، والذي نفس محمد بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله يوم القيامة من ريح المسك ، وللصائم فرحتان يفرحهما : إذا أفطر فرح بفطره ، وإذا لقي ربه فرح بصومه).

٢ - سورة ص : الآية (٤١).

٣ - سورة القصص : الآية (١٥).

٤ - سورة يوسف : الآية (٥).

٥ - سورة النساء: الآية (١١٩).

٦ - سورة الحجر : الآية (٤٢).

قيل: على الوجهين اللذين ذكرهما الله، أحدهما بالوسوسة، وهو أن يلقي في روع الإنسان أمراً ما يصير داعياً له إلى فعل يريده ويختاره، وإياه قصد بقوله تعالى: ﴿مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾[١].

والثاني : بدخوله في خلال جسده، وإياه عنى بقوله:﴿الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾، وقال عليه الصلاة والسلام: «**إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى دمه**»[٢]، وما قالوه من أن الشيطان لو قدر على خبط الإنسان لسرق ثيابه فلجهلهم بأمر الشيطان وجهة عداوته للإنسان وخصائص فعله إلا أننا نرى أن الحيات والعقارب تعادينا ولا تسرق أمتعتنا، وقد تقدم في ذكر السحر أن السحرة والشيطان لا يمكنها أن تفعل كل فعل كما ظنته المعتزلة، ولا أن تؤثر في كل واحد، وإنما تقدر على أفعال مخصوصة في أقوام ضعاف القلوب ومختلي العقول قليلي العبادة، وإذا أثرت أثرت تأثيراً ضعيفاً، ويقوى ذلك ما روي في قصة خالد بن الوليد أنه لما وجهه النبي ﷺ لهدم العُزى تصور أنه خيال كان يفزع منه غيره إذا أبصره ويدبر عنه، فأقدم خالد لقوة قلبه وشدة شكيمته في الدين، فهدمه، وإلى تخويف الشيطان الإنسان يرجع قوله مخبراً عن قوم هود:﴿ إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ﴾[٣]، ولولا تلبيس الشيطان عليهم لما أقاموا على عبادة أجسام أموات وأشباح جماد، وقد وصف الله سبحانه ضعف سلطان الشيطان علي المؤمن فقال: ﴿ إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾[٤]، الآية... واستبعاد المعتزلة تأثير الشيطان، إنما هو لخروجهم بتحديقهم عن حد العامة في التزام ما تلزمهم الشريعة الإقرار به، وقصورهم بسوء تصورهم وفساد طريقتهم عن إدراك حقائق ما وردت به الشريعة حسب ما أدركه الحكماء الذين وصفهم الله بقوله: ﴿ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً﴾[٥]، فصاروا في كثير من ذلك كما قالوا: "**لا مال أبقيت، ولا حرك أبقيت**".

---

١ – سورة الناس : الآيتان (٤).

٢ – الحديث أخرجه الإمام أحمد بن حنبل بسنده إلى ثابت البناني فيما يرويه عن أنس بن مالك قال : كان رسول الله صلي الله عليه وسلم مع امرأة من نسائه فمر رجل فقال : يافلان هذه امرأتي ، فقال: يارسول الله : من كنت أظن به فإني لم أكن أظن بك قال إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم – مسند الإمام أحمد – ج : ٣- ص١٥٦ وأورده القرطبي في تفسيره ج:١-ص٣٠١، ٣١١، ج : ٢٠ -ص٢٦٣، وأورده الزبيدى فى الإتحاف ج :٥ص٣٠٥، ج:٦-ص٤، ٢٧٣، ج :٧ ص٢٦٩، ٢٨٣، ٢٩٠؛

٣ – سورة هود : الآية (٥٤).

٤ – سورة المجادلة : الآية (١٠).

٥ – سورة البقرة : الآية (٢٦٩).

قوله - عز وجل :

﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ الآية (٢٧٦)- سورة البقرة.

المحق نقصان الشئ حالاً فحالاً بحيث تخفى تفاصيله، يقال: محقه، فالمحق ومنه قيل: المحاق لآخر الشهر، وتربية الصدقات في الدنيا أن يثمر مال صاحبها، وذلك أدنى غنى النفس، ويدخر له لواحد سبع مائة ثم قد يزيد زيادة بلا حساب كما وعد، وعلى هذا ما روي عن النبي ﷺ. «**إن الله يقبل الصدقات، ولا يقبل منها إلا الطيب، ويربيها لصاحبها كما يربي أحدكم مهره أو فصيله، حتى إن اللقمة لتصير مثل أحد**»..[(١)]

قيل: ما الفرق بين الربا والبيع وكل واحد منهما أخذ ربحاً على رأس المال؟

قيل: الفرق بينهما ظاهر، وذاك أنه قد تقدم أن الناس مفتقر بعضهم إلى بعض وإن كل واحد قائم بأمر آخرين، فلو أمروا أن لا يأخذ بعضهم ربحاً على رأس ماله، لرغبوا عن التجارة لضياع سعيهم، فكان يتعذر لأحدنا أن يتحصل له في حالة واحدة أشياء محمولة من آفاق متباينة، والبائع يأخذ ما يأخذه من غير عوض ولا سعي، بل بتضييق فضلات ماله على المحتاجين من حيث لا يلحقه ضرر، فصار ذلك منه أكل مال الناس بالباطل المنهي عنه بقوله: **﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ﴾**[(٢)] ولأن المواساة واجبة بالشرع والعقل، فلو أبيح للناس الربا مع الشح الذي جبلوا عليه[(٣)] لأدى إلى سد باب المعروف وإلى أن لا يوقي الإنسان شح نفسه المذكور في قوله: **﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾**[(٤)]

١- الحديث أورده الإمام أحمد في مسنده - ج : ٢- ص٤٠٤ ، وأورده السيوطي في الدر المنثور ج :١ ص٣٦٥، وأورده القرطبي في تفسيره - ج :٨-ص٢٥١، وأورده ابن عدي في الكامل في الضعفاء -ج :٤- ص١٦٤٦.

٢ - سورة البقرة : الآية (١٨٨).

٣ - في (و - ج) جبلوا عنه وهو خطأ من الناسخ.

٤ - سورة الحشر - الآية :(٩) ، وسورة التغابن - الآية :(١٦).

فإنه كان يدعو إلى أن يبخل، ويخله يدعوه إلى منع الزكاة وترك المواساة، وذلك يؤدي به إلى حرص على تناول المال من كل وجه، كالسرقة، والخيانة، والغصب، وعلى هذا قال جعفر بن محمد: "**إنما حرم الله الربا ليتقارض الناس**" وروي عن أبي أمامة عن رسول الله ﷺ: «**مكتوب على باب الجنة : القرض بثمانية عشر، والصدقة بعشر أمثالها**»[1].

قال جعفر:

"**لأن المستقرض لا يأتيك إلا وهو محتاج، والصدقة ربما وقعت في يد الغني**".

إن قيل: لما قال: ﴿**وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ**﴾ ولم يقل: كل كافر وهو تعالى لا يحبهما جميعاً؟

قيل هو تنبيهاً على معنى لطيف، وهو أن الربا يدعو الإنسان إلى ترك الصدقة والزكاة وترك مواساة الناس، وإلى أن يأخذ مال الغير بالباطل، كما أن فعل الصدقة يدعو إلي الاستكثار من الخير، ولهذا قيل: عودا مراً ما اعتاد، ومتى تعود الإنسان فعل الشرور يصير ذلك مانعاً له عن الخيرات ومن الصدقة التي تطهر النفس، فنبه الله بقوله: ﴿**لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ**﴾ أن المرابي يؤدي به رباه إلى أن يصير كفاراً أثيماً وهما بناءان للمبالغة، فإذا صار كذلك، فإنه لا يكاد يتوب، وإذا لم يتب لم يحبه الله المحبة التي وعد بها التوابين في قوله: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ**﴾[2]، فهذا وجه تخصيص بناء المبالغة في ذلك.

١- الحديث أخرجه الربيع بن حبيب في مسنده - ج :١-ص٧٢، كما أورده ابن قدامة في المغني في كتاب البيوع- باب القرض فيه: رواه بن ماجة عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «رأيت ليلة أسرى بي على باب الجنة مكتوباً: الصدقة بعشر أمثالها، والقرض بثمانية عشر، فقلت ياجبريل: ما بال القرض أفضل من الصدقة؟ قال: لأن السائل يسأل وعنده، والمستقرض لا يستقرض إلا من حاجة.) المغني - ج:٤-ص٥٨٦- ط دار الغد العربي.

٢- سورة البقرة - الآية : (٢٢٢).

قوله - عز وجل :

﴿ إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ الآية : (٢٧٧)-سورة البقرة .

قد تقدم أن الإيمان في الأصل هو التصديق، ولا يكون التصديق إلا عن تحقيق، والتحقيق يقتضي العلم، فإذاً: الإيمان مقتضٍ للعلم، وهو وإن كان في التعارف للعلم والعمل بحسبه، ففي الأصل، للإعتقاد النفسي، ولهذا قيل ما جاء الإيمان في القرآن إلا مقروناً بالعمل الصالح، ومما يؤكد ذلك خبر جبريل لما سأل النبي ﷺ عن الإيمان ، لم يذكر النبي ﷺ الله في تفصيله شيئاً من الأعمال، فإذاً قول من قال: ليست الأعمال البدنية من الإيمان، فصحيح على وجه، وقول من قال: هي من الإيمان فصحيح على وجه، ولكن لا يعتد بعلم لا يضامه العمل، وما أصدق في ذلك قول الشاعر:

لا يطمع المرء أن تجتاب غمرته ... بالقول إلا له جسراً له العمل[1]

وأتبع قوله **﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾** بإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة وإن كانا غير خارجين عن عمل الصالحات تخصيصاً لهما لكون إحداهما أشرف العبادة البدنية، والأخرى العبادة المالية، وفائدة تعقيب آية الربا بهذه الآية تنبيه على منافاة ما يستحق بهذه الأعمال، وما يستحق بتعاطي الربا..

قوله - عز وجل :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

الآية (٢٧٨) سورة البقرة .

أمر تعالى بالاقتصار من الربا على رأس المال بقوله: **﴿ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا ﴾**، وقيل معناه:

١- الرواية الصحيحة للبيت هى :-

لايطمع أن يجتاب غمرته ... بالقول مالم يكن جسرًا له العملُ

معلوماً وقوعه، فبين أنَّ "إنْ" هاهنا لم يكن لوقوع شبهه في إيمانهم.

قوله - عز وجل :

﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ الآية (٢٧٩)-سورة البقرة.

الحرب معلوم، والحرب السلب، لكون ذلك واقعاً فيها، وسمي بعض آلاتها الحربة. والأصل في الحربة اسم الفعلة. والتحريب إثارتها. والمحراب: قيل سمي لكونه موضع محاربة النفس والشيطان، وتسمية أشرف البقاع بالمحراب تشبيه لمحراب الصلاة بالإضافة إلى غيره من الأمكنة. والحرباء: دويبة تتلقى الشمس كأنها تحاربها. والحرباء: مسمار تشبيهاً بالدويبة في الهيئة، كقولهم: ضبةٌ وكلبٌ تشبيهاً بالضب والكلب.

ومعنى الآية: إن لم تفعلوا أمر الله ، ولم تنقادوا له بعد، يزول الأمر بتركه، فأنتم في حكم المحاربين. قال ابن عباس: يقتضي ذلك أن المربي يستتاب، فإن تاب، وإلا قوتل، ولا يقتضي كفرهم، فإن المحاربة قد تطلق على ما دون الكفر، كقوله تعالى:**﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾** [(١)]، اتفق الفقهاء أن ذلك حكم المسلمين، ونبه بقوله: **﴿وَإِن تُبْتُمْ﴾** أن من ترك ذلك، فلابد أن يرد إليه رأس المال لا يظلمهم الناس بأن يفوزوا بأصول مالهم، ولا يظلمونهم بأن يأخذوا زيادة على أصل مالهم. وقريء (فآذنوا) [(٢)] أي : أعلموا ذلك غيركم، وذلك يقتضي معنى (فأذنوا)، لأنه لا يكون الإنسان مؤذناً حتى يكون آذناً.

وفي قوله: (ولاتظلمون) مادل عليه قوله -عليه الصلاة والسلام- **«مطل الغنى ظلم»** [(٣)]، وقوله إلى الواحد يحل عرضه وعقوبته فإحلال عرضه التغليظ عليه بالمطالبة وعقوبته حبسه.

١ - سورة المائدة - الآية : (٣٣).
٢ - قرأ بهذا الوجه كل من حمزة، وعاصم، والأعمش، وشعبة، وطلحة.. معجم القراءات القرآنية-ج:١-ص٢١٧.
٣ - أورده ابن حجر العسقلاني في فتح الباري بشرح صحيح البخاري في كتاب في الاستقراض باب (مطل الغني ظلم) وذلك فيما أخرجه البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (مطل المغني ظلم) ج:٧-ص٤٢٦. كما أورده في كتاب الحوالة رواية عن أي هريرة أيضاً-ج:٧-ص٢٥٩، كما أخرجه مسلم في البيوع، وأخرجه النسائي أيضاً وأخرجه الترمذي وابن ماجة والنسائي من رواية سفيان ابن عينية.

ذروا العمل به، وكلاهما يصح له اللفظ، فيحمل عليهما. وروي أن النبي ﷺ قال في خطبته بمكة: "**ألا إن كل ربا كان في الجاهلية، فهو موضوع، وأول ربا أضعه ربا العباس بن عبد المطلب**"(١) وروي أن أهل الطائف صالحوا على أن لهم رباهم في الناس، فلما أسلموا امتنع بنو المغيرة من دفع الربا، وترافعوا في ذلك إلى عتاب بن أسيد عامل النبي ﷺ على مكة، فكتب في ذلك إلى النبي ﷺ، فكتب عليه الصلاة والسلام بالآية.(٢) ونبه تعالى بالآية أن المربي غير متقٍ لله، فإن تقواه اتقاء معاصيه من المحظورات العقلية والشرعية، وقد تقدم أن تعاطي الفعل يدعو إلى جنسه خيراً كان أو شراً، فمن اتقاه في شئ ما فهو أقرب إلى أن يتقيه في غيره..

إن قيل: كيف قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، ثم قال: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ ؟

قيل: سماهم مؤمنين لإقرارهم بالإيمان، ثم بين بقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أن من شرط الإيمان التزام أحكامه، فإن (فإن كنتم مؤمنين) فلابد من التزام ذلك، وقيل: معناه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ قولاً التزموا ذلك إن كنتم مؤمنين فعلاً، وهذا يرجع إلى الأول، وقال مقاتل: معنى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ إذ كنتم مؤمنين، ووجه قوله: إنَّ (إنْ): مترددة فيما يتحقق وقوعه، وفيما لا يتحقق، و(إذْ): تقال فيما كان

١- الحديث أخرجه أبو داود في سننه فى كتاب البيوع - باب : وضع الربا من حديث سليمان بن عمرو عن أبيه قال (سمعت رسول الله صلي الله عليه وسلم فى حجة الوداع يقول : (ألا إن كل ربا من ربا الجاهلية موضوع ، لكم رؤوس أموالكم لاتظلمون ولاتظلمون، ألا وإن كل دم من دم الجاهلية موضوع ، وأول دم أضع منها دم الحارث بن عبد المطلب كان مسترضعاً في بنى ليث فقتلته هذيل ، وقال : اللهم هل بلغت ، قالوا : نعم ثلاث مرات قال : (اللهم اشهد ثلاث مرات) كما أخرجه الترمذي فى تفسير القرآن حديث رقم ٣٠٨٧ وقال : حسن صحيح . كما أخرجه بن ماجة فى المناسك حديث رقم ٣٠٥٥ باب : (الخطبة يوم النحر) ونسبة المنذرى للنسائي أيضاً وأخرجه أبو داود حديث رقم ١٩٠٥ باب صفة حج النبى صلى الله عليه وسلم كما أخرجه مسلم فى الحج حديث رقم ١٢١٨ ، وأخرجه النسائي مختصراً في الحج حديث رقم ٢٧١٣ باب : الكراهية فى الثياب المصبغة للمحرم وأورده الدارمي فى سننه ج :٢ ض٢٤٦، كما أورده الطبري فى تفسيره ، ج : ٣ ص٧٢ والقرطبي في تفسيره ج :٣ ص٣٥٦، ص٣٦٥ وأورده ابن كثير في تفسيره ج :١ ، ص٤٩٠، والسيوطي فى الدر المنثور ج :١ - ص٣٦٧.

٢- ذكر السيوطى فى أسباب النزول مأخرجه أبو يعلي في مسنده وابن مندة من طريق الكلبي عن أبى صالح عن ابن عباس قال بلغنا أن هذه الآية نزلت في بني عمرو بن عوف من ثقيف ، وفي بني المغيرة ، وكان بنو المغيرة يربون لثقيف فلما أظهر الله رسوله على مكة وضع يومئذ الربا كله ، فأتى بنو عمرو وبنو المغيرة إلى عتاب بن أسيد وهو على مكة ، فقال بنو المغيرة . أما جعلنا أشقى الناس بالربا ، ووضع الناس غيرنا ، فقال بنو عمرو : صولحنا أن لنا ربانا ، فكتب عتاب في ذلك إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم ، فنزلت هذه الآية والتي بعدها ، كما ذكر السيوطي وأخرجه ابن جرير عن عكرمة قال . نزلت هذه الآية في ثقيف ، منهم مسعود ، وحبيب ، وربيعه ، وبنو عمرو ، وبنو عمير . أسباب النزول - السيوطي - ص ٣٧،٣٦ -ط : دار المنار - القاهرة .

قوله - عز وجل :
﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

الآية (٢٨٠) - سورة البقرة .

كان هاهنا بمعنى وقع، أي وإن وقع معسر، وقيل: هي ناقصة، وتقديره وإن كان ذو عسرة غريماً لكم، فحذف الخبر لكون المعنى مفهوماً، وهذا أجود، فإن التامة أكثر ما يعلق بها الأحداث دون الأشخاص، نحو: كان الخروج كقولك: اتفق للخروج، ولا تقول كان زيد، وأنفق زيد، وقيل: قراءة أُبي: (وإن كان ذا عسرة)[١] . وقوله: فنظرة إلى ميسرة) أي: فعليكم انتظار، فقرأ الحسن: (فنظرة) بسكون الظاء[٢]. وقرئ مناظرة[٣] نحو : فاقرة، وكاذبة.

واختلف هل يجب الانتظار في رأس مال الربا أو في كل دين؟ فمنهم من قال: النص يقتضي ذلك في كل، فإنه تمم حكم الربا، ثم ذكر اعتبار من عليه دين رباً كان أو غيره، وهو قول ابن عباس، والضحاك، والحسين. ويؤكد ذلك قوله عليه الصلاة والسلام: **«مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِراً كَانَ في ظِلِّ الله، أو في كَنَفِ الله يَوْمَ الْقِيَامَةِ.»**، وقال عليه الصلاة والسلام: **«مَنْ شَدَّدَ عَلَى امْرِئٍ في التقاضِي إذا كَانَ مُعْسِراً، شَدَّدَ الله عليه في قبره.»**.

وقال شريح وابراهيم، وروى عن ابن عباس أن ذلك في الربا خاصته والتصدق على المعسر ترك رأس المال عليه، نحو قوله في القصاص: **﴿ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ ﴾**[٤]، وقوله: **﴿ إِلَّا أَن يَصَّدَّقُوا ﴾**[٥] أي تتصدقوا، فأدغم، وقرئ: (تصدقوا) بتخفيف الصاد على حذف إحدى التاءين بدلالة الأخرى عليه، وقرئ: (ميسُرة)[٦] بضم السين، وذلك لغتان نحو: مشرُبة، ومشرَبة وَقرئ مجاهد (ميسرة)، ولم يجوزه البصريون لعدم مفعل في كلامهم، وذكر الكوفيون ألفاظاً يسيرة من ذلك ليوم ردع أو فعال مكرم.

١- قرأ بهذا الوجه أيضاً كل من عبد الله بن مسعود ، وابن عباس، وعثمان، والمعتمر، وحجاج الوراق. معجم القراءات القرآنية ج:١ ص٢١٨.

٢- قرأ بهذا الوجه أيضاً كل من أبي رجاء، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، معجم القراءات القرآنية ج:١ ص٢١٨.

٣- قرأ بهذا الوجه عطاء. نفس المرجع السابق - ص٢١٨.

٤- سورة المائدة - الآية: (٤٥).

٥- سورة النساء - الآية:(٩٢).

٦- قرأ بهذا الوجه كل من نافع، وابن محيصن، ومجاهد ، وشيبة، وعطاء، والحسن، وأبي رجاء وحيد بن قيس، نفس المرجع- ص٢١٩.

وقوله - عز وجل :

﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴾

الآية (٢٨١) - سورة البقرة .

قال ابن عباس:

هي آخر آية نزلت من القرآن،[١] فقال جبريل للنبي ﷺ :"**ضعها في رأس الثمانين والمائتين من سورة البقرة، وقد تقدم الكلام في الفرق بين**" :(اتقوا الله)، (واتقوا ربكم)، **﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ﴾** وما يجري مجراه؟ ومعنى الرجوع فليس على تصور رجوع إلى مكان بعد المقارنة كيف يكون ذلك وقد قال الله تعالى:**﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾**[٢]، وإنما ذلك رجوع، إما على ما ذكرنا في العود آنفاً، وإما على تصور خلقة أبانا المشار إليه بقوله:**﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾**[٣]، وعلى هذا: **﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ﴾**[٤]، وقوله : **﴿ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾**[٥] ، وقوله: **﴿ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ ﴾**[٦] وتوفية كل نفس ما كسبت جزاءها، إن خيراً فخيراً، وإن شراً فشراً، كقوله تعالى: **﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾**[٧] الآية،وقوله تعالى:**﴿ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴾**، أي : لا ينقص ثوابهم، ولا يزاد عقابهم..

---

١ - أورده ابن حجر العسقلاني في فتح الباري في كتاب التفسير- باب: (اتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله) قال حدثنا سفيان، عن عاصم، عن الشعبي، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (آخر آية نزلت عن النبي صلى الله عليه وسلم آية الربا) فتح الباري ج:١٢ص٥٣٦ . وكذا أخرجه الطبري عن طرق جماعة من التابعين وزاد عن ابن جريج قال: يقولون: إنه مكث بعدها تسع ليال، ونحوه لإبن أبي حاتم عن سعيد بن جبير.

٢ - سورة المجادلة : الآية (٧).

٣ - سورة الأعراف : الآية (١٧٢).

٤ - سورة الأنبياء : الآية (١٠٤).

٥ - سورة البقرة : الآية (٢١٠)، سورة آل عمران : الآية (١٠٩)، سورة الحديد : الآية (٥).

٦ - سورة هود: الآية (١٢٣).

٧ - سورة الأنبياء : الآية (٤٧).

قوله - عز وجل :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ **الآية (٢٨٢) سورة البقرة..**

دنت الرجل : أخذت منه ديناً، وأدنته: جعلته داينا، وذلك بأن تعطيه ديناً، والتداين والمداينة تدافع ذلك، والبخس والنخسْ يتقاربان، لكن النخس أن يصيب بدنه، أي مكان كان والبخس أن يصيب عينه، وعنه استعير بخس حقه، كقولهم عورحقه، وتباخسوا في البيع تغابنوا كأن كل واحد يبخس صاحبه عما يريده منه باحتياله، والسفه خفة في العقل ومقتضياته، ولهذا يقال: "**سفيه الرأي**"، وسفيه اللسان"، و"زمام سفيه" علي التشبيه..

والسآمة ملك يورث الضجر، والصغر خلاف الكبر، وأصله أن يستعمل في المقدار، ثم يستعمل في الأحوال، ومنه صغر صغراً أو صغاراً إذا تحاقر لإحتمال ضيم والقسط النصيب على سبيل العدالة، فإن قيل: فإذا كان القسط ما يقول، فكيف قيل: قسط إذا جار؟

قيل: معنى قسط أخذ قسط غيره، وذلك عدل، فصار قسط وأقسط في التناول والمناولة، كقولهم عطاء، وأعطى..

إن قيل: لم قال: **﴿إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ﴾**، وتداينتم ينبئ عن الدين والمدين، والتداين يقال في

المجازاة، فبين بلفظ الدين المراد والمقصود في هذا المكان أنه لما عقب بقوله: فاكتبوه، ذكر لفظ الدين، ليبين أنه هو الذي حث على كتبه، وكتب ذلك واجب عند الربيع، وإليه ذهب عامة الفقهاء، ومنهم من قال: هو في السلم خاصة، وحقيقة: (اكتبوه) حث على الاعتراف به وحفظه، فإن الكتاب خليفة اللسان، واللسان خليفة القلب، فلما قال: فاكتبوه، فقد حث على غاية ما يكون في ذلك من الاحتياط، وقوله: ﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾، قيل: واجب على كل حال على كل كاتب، وقيل: واجب على الكفاية كالجهاد، وهو الصحيح، والكتابة بين المتابعين وإن كانت غير واجبة، فقد تجب على الكاتب إذا أتوه، كما أن الصلاة النافلة وإن لم تكن واجبة على فاعلها، فقد تجب علي العالم- تنبيهاً إذا أتاه مستفتي، وقوله: ﴿كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ﴾ حث على بذل جهده في مراعاة شروطه مما قد لا يعرفه المستكتب، وقوله: ﴿وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ﴾، أي: ليقر، ولولا وجوب الحكم بإملائه، لم يكن إملاؤه أولى من إملاء غيره، ولهذا قال: ﴿وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ وذلك نظير قوله: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ﴾ [(١)]، لما كان قولهن مقبولاً، وعلى هذا قوله: ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾، إن قيل: لم جمع بين لفظ (الله) ولفظ (الرب) في قوله: ﴿وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾؟ قيل: إن لفظ الله يقال اعتباراً بالوله إليه أو العبادة له، ولفظ "الرب" يقال اعتباراً بكونه تعالى مربياً لعباده ومنعماً عليهم، وقد تقدم أن الإنسان يعرف الله ربا قبل أن يعرفه معبوداً وذلك بمعرفة نعمه يتوصل إلى معرفته، فجمع هاهنا بين اللفظين، كأنه قال: "**اتقوه معتبرين بذاته ومعتبرين بنعمه**"، وأما تقديم لفظ (الله) على (الرب)، فقد تقدم في بيان قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [(٢)]، ولأن مراقبة ذاته تعالى أبلغ وأشرف من اعتبار نعمه، فكأنه قيل: "إن لم تلاحظوه، فلاحظوا نعمه اللازمة لكم"، وقوله: ﴿فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا﴾ أي مبذراً، لقوله: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾ [(٣)]، وقيل: عنى بالسفيه النساء، وبالضعيف الصغير، وبالذي لا يستطيع أن يمل هو المغلوب على عقله، ومنهم من حمل السفيه والضعيف على شئ واحد، وقال أو زائده، وذلك ظاهر الفساد في اللغة، وقوله: ﴿وَلِيُّهُ﴾ أي: ولي أحد هؤلاء الثلاثة، ولا يجوز أن

١ - سورة البقرة : الآية (٢٢٨).

٢ - سورة الفاتحة : الآية (٢).

٣ - سورة النساء : الآية (٥).

يكون ولي الحق كما قال بعضهم، لأن قوله لا يؤثر، إذ هو مدع.

وقوله: ﴿ بِالْعَدْلِ ﴾حث على تحريه لصاحب الحق وللمولى عليه، وقوله: ﴿ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ﴾ قال بعضهم: تقتضي هذه الإضافة الإيمان والحرية والبلوغ لتخصيص الرجال، ويقتضي "**ممن ترضون من الشهداء**" العدالة، لأن المقصد من الاستشهاد إقامة الشهادة، أما شهادة العبيد والصبيان، وشهادة النساء في غير، وشهادة الأعمى والفاسق وغير ذلك من أحكام الشهادة، فكتب الفقه به أولى، وقوله: ﴿ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ ﴾ أي وليشهد رجل وامرأتان، وقوله: ﴿ فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ ﴾ أي تذكر الأخرى إذا نسيت، وقال سفيان بن عينية: يجعلها كذكر في الحكم.. إن قيل: ما وجه قوله: ﴿ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ ﴾، وذلك يقتضي أن يكون القصد بالاستشهاد الضلال، قيل: قد قال سيبويه في ذلك: لما كان الضلال سبب الاذكار، وهو متقدم عليه، صار لتعلق كل واحد منهما بالآخر في حكم واحد، قال: ومثل ذلك من قال أعددت هذا الخشب ليميل الحائط فأدغمه. قال الفراء: تقديره: فتذكرها إن ضلت، لكن لما قدم أن -فتح، فصار متعلقاً بما قبله، وهذا طريق في مسائل، وقرأ حمزة (أن تضل)، وقرئ (**أن تُضل**)[1] من أضللت، لتقارب ضل، وأضل تقارب نسيت وأنسيت، وقيل: (أن تضل) أي تضيع شهادتها مالم تضامها الأخرى إشارة إلى ما قاله عليه الصلاة والسلام: «**أما نقصان عقلهن فشهادتهن على النصف من شهادة الرجال**»[2].

وقوله: ﴿ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا ﴾ قال قتادة والربيع: "**إذا ما دعوا لتحمل الشهادة**"، وقال مجاهد: لإقامتها، وقيل: لهما، وهو الصحيح، وقال بعضهم: لا يجوز أن تكون للتحمل، لأنه حينئذ لا يكون شاهداً، وهذا سوء تصور منه، ألا ترى أنه قال: ﴿ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ﴾؟

---

١ - قرأ بهذا الوجه كل من الجحدري، وعيسى بن عمران، وقرأ أن (تُضِلَّ) كلٌ من الجحدري والنقاش. معجم القراءات القرآنية-ج:١-ص٢٢٣.

٢- الحديث أخرجه الإمام مسلم من حديث ابن عمر ومن حديث أبي هريرة كذلك ، ولفظه : (تمكث الليالي ماتصلي وتفطر في شهر رمضان فهذا نقصان دينها ، كما أخرجه أبو داود في مسنده من حديث عبد الله بن عمر - حديث رقم : ٤٦٧٩، كما أخرجه الحافظ ابن حجر في التلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير - في كتاب الحيض ، وذكر قول ابن مندة : ذكر بعضهم هذا الحديث ولايثبت بوجه من الوجوه، وقال في قريب من هذا المعنى ماتفق عليه من حديث أبي سعيد قال : « أليس إذا حاضت لم تصل ولم تقم فذلك من نقصان دينها ، « كما أخرجه السيوطي في الدر المنثور - ج : ١- ص٣٧١.

فسماهما شهيدين، قيل: إن استشهد وبين قوله: ﴿وَلَا تَسْأَمُوا﴾ إن قليل الدين وكثيره يستحب كتابته، وبين علة ذلك بقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ﴾ أي أعدل ، وأقوم للشهادة أي أثبت، ﴿وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا﴾ أي أبعد من أن تقع شبهة، ثم استثنى ما كان حاضرة، وخفف الأمر فيما لا أجل فيه وما لا يكون له ثباتٌ في مكان كما الدور والعقار، نحو الطعام والشراب، وقوله: ﴿وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾- قيل: "هو يرجع إلى الأول دون ما يكون تجارة حاضرة، وقيل: يرجع إلى الكل حتى قال بعضهم. يشهد على سامع حتى على ناقة.

قيل وقوله: "﴿وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ قرئ بفتح الراء "**لا يضارر**"[(١)] بأن يدعي وهو مشغول، عن ابن مسعود ومجاهد، وقيل: هو يضار، أي: لا يمتنع الكاتب من الكتابة، والشهيد من إقامة الشهادة عن الحسين وقتادة وابن زيد، لئلا يؤدي إلى ابطال الحقوق، وقوله: ﴿وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ﴾ خطاب للجميع على سبيل الوعيد، وقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ إعادة للوصية، إن قيل: كيف قال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، وكرر لفظ (الله) ثلاث متواليات ولم يعدل إلى الكناية، وهل ذلك في استقباح الإعادة لولا شرف لفظ (الله).

كقول الشاعر : « **فما للنوى جد النوى قطع النوى** »[(٢)]

حتي قيل : « سلط الله على هذا البيت شاة ترعى منه النوى » .

وكقول الآخر :

بجهل كجهل السيف والسيف منتضي وحلم كحلم السيف والسيف مغمد[(٣)]

فاسترذل البيت لإعادة لفظ « السيف » مراراً ... قيل : إن ذلك بعيد عن الآية ، فإن البيت الأول استقبح لا لإعادة النوى فقط ، بل له ، ولأن قوله « جذ النوى قطع النوى» بمنزلة واحدة ، ولهذا الباب

---

١ - قرأ بفتح الراء « ولايضارر» ابن كثير ، ومجاهد ، والحسن ، وعمر ، والضحاك ، وابن مسعود انظر : إتحاف الفضلاء - ص١٥٨- إعراب القرآن - للنحاس - ج :١-ص٣٠١ - البحر المحيط ج :٢-ص٣٠٣ ، ٣٥٤ - تفسير الطبري - ج :٦- ص٨٧، ٨٨ ، الكشاف - ج : ١- ١٦٩ - معجم القراءات القرآنية - ج : ١- ص٢٢٦، وأوردها الراغب في مفردات ألفاظ القرآن - ص٥٠٤ .

٢- لم أهتد إلى نسبته .

٣ - لم أعثر عليه.

قانون يعرف به المستقبح من المستحسن، وهو أن كل تكرير على طريق تعظيم الأمر وتحقيره في جمل مواليات كل جملة، ومنها مستقلة بنفسها، فذلك غير مستقبح، وإذا كان ذلك في جمله واحدة أو في جمل في معنى واحد، أو لم يكن فيه التعظيم أو التحقير، فذلك مستقبح، وهذا ظاهر في الآية والأبيات المذكورة، فإن قوله: ﴿**وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾ جمل في معان مفترقة، فإن الأول: حثٌّ على تقوى الله، والثاني: تذكير بنعمه، والثالث: تعظيم له متضمن لوعد ووعيد شديد وقصد لعظيم كل واحد من هذه الأحكام، فأعيد لفظ (الله) فيها..

فأما البيت الثاني: فهو جملة واحدة، لأن قوله: كجهل السيف في موضع لقوله: يجهل، وكذلك قوله: "**والسيف مغمد**" جاء لقوله: الحلم للسيف، وعلى قول الآخر:

"**لا أرى الموت يسبق الموت شئ**"[1]

فإن قوله: (**يسبق الموت**) "**مفعول ثان**" لقوله: (**لا أرى**)، والكلام كله جملةٌ واحدةٌ، وهذا ظاهر..

١- هذا شطر بيت وتمامه :

لاأرى الموت يسبق الموت شئ　　　نغص الموت ذا الغني والفقيرا

وهو من قصيدة لعدي بن زيد، وقيل لابنه سوادة بن عدي وينسب أيضاً لامية بن أبي الصلت والصحيح القول الأول ، وهو من قصيدة أولها :

طال ليلي أراقب التنويرا　　　أرقب الليل بالصباح بصيرا

ديوان عدي بن زيد – ص ٦٥.
وعدي بن زيد بن حماد بن زيد بن أيوب من بني امرئ القيس ابن زيد مناة بني تميم انظر : الكتاب – لسيبويه – ج :١- ص٣٠-أمالي ابن الشجري – ج : ١- ص ٢٨٢ ، ٢٨٨ ، ٣٤٣ – الخصائص - ج : ٣- ص ٤٣، ٥٣ شواهد المغني – ص ٢٩٦ – خزانة الادب – ج :٢ –ص٥٣٤، ج :٤ –ص٥٥٢ ، ج :١- ص١٨٣ ، ٣٧٩ – إملاء العكبري – ج : ١- ص٥٤ ، لسان العرب – مادة : (نغص) – ومغني اللبيب – ص٥٠٠ – ومعاني القرآن – للأخفش – ج :١- ص ٢١٢- المدخل لعلم تفسير كتاب الله تعالي – لأبي النصر السمرقندي المعروف بالحدادي – ص ٢٩٨ ، شرح أدب الكاتب – للجواليقي – ص ١١٤ – إعراب القرآن – لأبي جعفر النحاس – ج : ١- ص ٣١٠ ، ٣١١ – إعراب القرآن – المنسوب للزجاج – ج : ٣- ص٩١٣ ، واستشهد به غير منسوب في تفسير الطبري – ج : ٤- ص ٤٢ ، ومغني اللبيب – رقم ٨٤٢.

قوله - عز وجل :

﴿ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾

الآية (٢٨٣) – سورة البقرة .

الرهن: حبس السلعة بحق، ثم يستعمل في غيره على طريق التشبيه، واؤتمن: أخذه واستوفاه كقولهم اكتحل واغتسل إذا استوفى ذلك، وقيل: رَهْن، ورُهْن، ورُهُن فرهُن، نحو ثمُر، ورهُن على التخفيف[١]، قيل: رهان، كقولهم: ثمار، وكلاب، وقال بعضهم: ليس الرهان إلا في المخاطرة، وحكم الرهن ثابت في الحضر والسفر عند عامة الفقهاء، وبعضهم خص حكمه بالسفر عند عدم الكاتب، وقرأ ابن عباس: **(فلم تجدوا كتاباً..)**[٢] أي صحيفة ودواتاً، وقوله: "**فرهان**" أي فليدفع رهاناً، أو فليوجد رهاناً، واشتراط كونها مقبوضة تنبيه أن الرهن لا يثبت حكمه مالم يكن مقبوضاً لأمرين.

أحدهما: أن ذلك معطوف على الشهادة، فكما أن الشرط في الشهادة معتبر كذلك هاهنا.

والثاني: أن حكم الرهن مأخوذ من هذه الآية، وقد أجازه بهذه الصفة، فيجب أن تعتبر الصفة فيه. وأما حكم ما يجوز رهنه وما لا يجوز، وما يصححه ويفسده، فكتب الفقه أولى به، وقوله: **﴿ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا ﴾** يحث من يؤتمن على حفظ الأمانة، كقوله: **﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ﴾**[٣]، وحذر غاية التحذير بقوله: **﴿ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ ﴾**، وقوله: **﴿ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ﴾** خطاب لمن عليه الحق، وللشاهد جميعاً، لأن الشهادة إعلام، ويقال للإقرار شهادة، ولهذا قال تعالى: **﴿ كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ ﴾**[٤]، وكما أن كتمان الشهادة محرم، فما هو منه بسبب

---

١ – قرأ (فرهان) بضم الراء والهاء (فرُهُنٌ) كل من : ابن كثير، وأبي عمر، وابن محيصن، واليزيدي، وابن عباس، وقرأها بضم الراء وتسكين الهاء (فرُهْنٌ) كل من عاصم، وابن كثير، وأبي عمرو. معجم القراءات القرآنية ج-١-ص٢٢٧.

٢ – قرأ بهذا الوجه ابن عباس ، ومجاهد ، وأبي ، وأبو العالية ، وعكرمة ، والضحاك بن مزاحم. انظر : إعراب القرآن – لأبي جعفر النحاس – ج : ١-ص٣٠٢ ، والبحر المحيط – ج : ٢- ص٣٥٥، وتفسير الطبري – ج : ٦- ص ٩٤ ، الجامع لأحكام القرآن – للقرطبي – ج : ٣- ص٤٠٧ ، الكشاف – للزمخشري – ج : ١- ص ١٦٩ ، معجم القراءات القرآنية – ج : ١- ص٢٢٧.

٣ – سورة النساء : الآية (٥٨).

٤ – سورة النساء: الآية (١٣٥).

محرم كالتأخر عن إقامتها عن تحملها في بعض الأحوال، وقوله: ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾، أي يأثم بذلك قلبه، ويجوز أن يكون معناه: "إنما يكتم الشهادة، ومن يكتم لأنه قد أثم قلبه" قيل فحمله ذلك على ارتكاب المحارم، واحتقاب المآثم، وإضافة الإثم إلى القلب مبالغة في الذم، فالقلب مقر البر والإثم، ولهذا قال: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾[1]، وقال بعضهم: "في آية الدين صلاح للدين والدنيا"، فالإنسان بمراعاة ما أرشده الله إليه فيهما يبعد عن جحود الحق الذي هو سبب التنازع، والتنازع سبب كل شر، ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾[2]، ومن هذه الوجه منع من البيعات المجهولة وجهل المدة وسائر الأشياء المؤدية إلى المنازعة، أوجب الإشهاد من أوجبه، لأن كل ما يؤدي إلى فساد فحسم مادته واجب..

قوله - عز وجل :

﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ الآية (٢٨٤) - سورة البقرة .

قد تقدم ما هو جواب عن سؤال من قال: لم قال الله: ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾، ودلالة خطابه تقتضي أن ليس له السماوات والأرض، وقال بعض الصوفية في قوله: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ تنبيه أنه لا يجب الاشتغال بهما، بل يجب الاشتغال بمن أوجدهما وملكهما- تنبيهاً أن من تركها وأقبل عليه ملكه إياهما وما هو أفضل منهما، وإياه قصد بقوله: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾[3]، إن قيل: ما وجه نظم هذه الآية مع ما قبلها؟ قيل: إنه لما فرغ من حكم الإيمان والعبادة والأحكام المذكورة في هذه السورة، ختمها بالموعظة، ونبه على وجوب تفويض الأمر إليه، ولما كانت حقيقة العبادة متعلقة بالقلب، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: "**أخلص يكفك القليل من العمل**"[4] وهو أحد ما أفاد قوله- عليه الصلاة والسلام: «**البر ما اطمأن إليه**

---

١ - سورة التغابن : الآية (١١).

٢ - سورة الأنفال : الآية (٤٦).

٣ - سورة فصلت : الآية (٣٧).

٤- الحديث سبق تخريجه في ص ٢١٨

القلب»[١] وقوله: ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ﴾، كقوله: ﴿سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ﴾[٢]، وقوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾[٣]..

إن قيل: هذه الآيات تقتضي أن يكون الإنسان مؤاخذاً بما تتحرك به الخواطر، وقول النبي- عليه الصلاة والسلام ينافيه في الظاهر «**إن الله تجاوز عن أمتي عما حدثت به أنفسها**»[٤]، وكذلك قوله: **من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له عشر أمثالها، ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب عليه...**[٥]

قيل: قد تقدم إن أول ما يعرض من حديث النفس السابح، ثم الخاطر، ثم الإرادة والهم، ثم العزم، وإن السابح والخاطر متجافي عنهما بكل وجه، وأنه متى صار نية، فذلك عمل مأخوذ به، وعلى هذا قال تعالى: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾[٦] ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾[٧]، وألهمه متى كانت من وسوسة الشيطان وتصدي الإنسان لدفعها وقمعها فهو المتجافي عنها، بل هو الموعود بالإثابة على دفاعها، حيث قال عليه الصلاة والسلام: «**جاهدوا أهواءكم كما تجاهدون أعداءكم**»،[٨] ومتى كانت نفسٌ وإجماع من النفس، فذلك فعل منه، ولذلك قال بعض الصالحين: "**عليكم**

١- الحديث سبق تخريجه فى ص

٢- سورة الرعد - الآية : (١٠) .

٣- سورة البقرة - الآية : (٢٣٥).

٤- الحديث أخرجه مسلم فى صحيحه من حديث أبي هريرة في كتاب : (الإيمان)، ونصه :« إن الله - عز وجل - تجاوز لأمتى عما حدثت به أنفسها مالم تعمل أو تكلم به » ، كما أخرجه الإمام البخاري في صحيحة فى كتاب (الطلاق)- ج :٦- ص١٦٩ ، كما أخرجه النسائي في سننه في كتاب الطلاق - باب : (من طلق في نفسه) - ج : ٦- ص١٥٦ ، ١٥٧، كما أخرجه السيوطي في الدر المنثور - ج : ١- ص ٣٧٥، كما أخرجه أبو حيان فى البحر المحيط - ج :٢- ص ٧٥٠ -ط : دار الفكر .

٥- الحديث : (من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ، فإن عملها كتبت له عشرة إلى سبعمائة إلى أضعاف كثيرة ، ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة واحدة أو يمحوها الله ولايهلك على الله تعالى إلا هالك). أخرجه الإمام أحمد في مسنده عن ابن عباس عن النبي - صلي الله عليه وسلم - فيما يروى عن ربه ج :١- ص٢٧٩ ،ص٣٦١ ، ج :٢- ص٢٣٤ كما أخرجه الزبيدي فى الإتحاف ، ج :٧-ص٢٩٣ ، وأخرجه السيوطي في الدرالمنثور - ج : ٣- ص٦٤.

٦- سورة الأنعام : الآية : (١٢٠).

٧- سورة الأنعام - الآية : (١٥١)

٨- الحديث سبق تخريجه فى ص ٤٤٨

بحفظ الهمة، فإنها أول ما تظهر من الإنسان، وهي تقدمة الأشياء"، وقال عليه الصلاة والسلام: «**لينظر أحدكم ما يتمنى، فإنه لا يدري ما كتب له**»[١]، ومن تصور هذه الجملة علم أن قول من قال هذه الآية منسوخة بقوله: ﴿**لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا**﴾ وجعل علة النسخ أن حديث النفس وما يهجس فيها غير مقدور على صرفه، فإنما استعمل لفظ النسخ في معنى التخصيص، فأما أنه أمر بمالا يقدر عليه، ثم نسخ، فمجال، وعلى هذا ما روي أنه قيل لابن عباس إن ابن عمر يبكي لقوله: ﴿**وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ**﴾ فقال ابن عباس: "**رحم** الله **ابن عمر، لقد وجد المسلمون منها ما وجدوا**"، حتى نزل ﴿**لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا**﴾[٢]، فإنه عنى أن هذه الآية مخصصة ومبينة للأولى، ونبه بقوله: ﴿**فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ**﴾ على سعة قدرته وعدله وفضله، ثم من الذي يغفر له والذي لا يغفر له لا يعقل من ظاهر الآية[٣].

١- الحديث أخرجه المتقي الهندي فى كنز العمال - ج ٢ حديث رقم : ٣٢٢٤ ، ولفظه : لينظر أحدكم ما الذي يتمني فإنه لايدري ماكتب له من أمنيته .

٢- أورد السيوطي في أسباب النزول ما أخرجه أحمد ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة قال : « لما نزلت الآية : (وإن تبدوا مافي أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله) اشتد ذلك على الصحابة فأتوا رسول الله - صلي الله عليه وسلم ، ثم جثوا على الركب ، فقالوا : قد أنزل عليك هذه الآية ولانطيقها ، فقال : أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم ، سمعنا وعصينا ؟ بل قولوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير فلما اقترأها القوم وذلت بها ألسنتهم أنزل الله في أثرها - (آمن الرسول) الآية ، فلما فعلوا ذلك نسخها الله فأنزل : (لايكلف الله نفساً إلا وسعها) إلى آخرها ، وروى مسلم وغيره عن ابن عباس نحوه أسباب النزول - ص ٣٧.

وأورد ابن حجر العسقلاني فى فتح الباري ما أخرجه الطبري بإسناد صحيح عن الزهري أنه سمع سعيد بن مرجانة يقول : « كنت عند ابن عمر ، فتلا هذه الآية : (وإن تبدوا مافي أنفسكم أو تخفوه) فقال : « والله لئن واخذنا الله بهذا لتهلكن ، ثم بكى حتي سمع نشيجه ، فقمت حتى أتيت ابن عباس ، فذكرت له ماقال ابن عمر ومافعل حين تلاها ، فقال : « يغفر الله لأبي عبد الرحمن لعمري لقد وجد المسلمون حين نزلت مثل ماوجد فأنزل الله : (لايكلف الله نفساً إلا وسعها) .

فتح الباري بشرح صحيح البخاري - كتاب التفسير - ج : ١٢- ص ٥٢٨ - ط : دار الغد العربي - العباسية .

٣ - أورد الدكتور مصطفى زيد رد ابن الأنباري لدعوى النسخ في هذه الآية بأن الآية خبر، والنسخ إنما يدخل على الأمر والنهي، كما أورد قول أبي جعفر النحاس الذي يعتمد على أن الآية خبر، ويؤول قول مدعي النسخ: (فنسخ ذلك قوله تعالى: (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها) بقوله: أي نسخ ما وقع بقلوبهم منه، أي أزاله ورفعه. وهذا ما يؤكد بطلان دعوى النسخ على الآية، وما يتفق مع ما ذهب إليه الراغب في رأيه من عدم وقوع النسخ فيها. النسخ في القرآن الكريم- ج:٢-ص٦٠٨.

قوله - عز وجل :

﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ الآية (٢٨٥) - سورة البقرة .

إن قيل: لم لم يذكر هاهنا اليوم الآخر، وقد ذكره في قوله: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ﴾[١].. الآية؟

قيل: لأمور: أحدها أنه نبه عليه بذكرها في غيرها، والثاني: أن الإيمان بكتبه ورسله مقتض للإيمان باليوم الآخر أظهر عند المؤمنين من أن يحتاج إلى ذكره مفصلاً، ألا ترى أنه قال: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ﴾، فاقتصر على ذلك ولم يصفه بما وصف به المؤمنين بقوله: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ﴾ تنبيهاً على أن ذلك بحيث يستغنى عن ذكره، وهذا الجواب على قراءة من وقف على قوله: ﴿مِن رَّبِّهِ﴾..

والرابع: إن في قوله: ﴿وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ دلالة على إيمانهم باليوم الآخر، وقال بعضهم: إنما أفرد إيمان النبي ﷺ، فقال: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ﴾، ثم قال: ﴿كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ﴾، تنبيهاً على شرف إيمانه -عليه الصلاة والسلام-، وأنه سابق لإيمانهم، وأن لا واسطة بمنه - عليه الصلاة والسلام-، وبين الإيمان كما بين إيمان المؤمنين وبين الإيمان به واسطة، وقرأ "ابن عباس" وكتابه"[٢]، قال: وهو أبلغ، لقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾[٣]، ولأن الكتاب للجنس، ولأنه ليس مع

١- سورة النساء - الآية : (١٣٦).

٢- قرأ بهذا الوجه كل من حمزة والكسائي ، و خلف ، والأعمش ، وابن عباس ، وعبد الله بن مسعود ، انظر : إتحاف الفضلاء- ج:١- ص١٦٧ ، الإملاء للعكبري - ج : ١- ص٧١، البحر المحيط - ج : ٢- ص٣٦٤ - التبيان - للطوسي - ج : ٢- ص٣٨٣ - التيسير- للداني - ص ٨٥ - تفسير الطبري - ج : ٦- ص١٢٥ - الجامع لأحكام القرآن - ج : ٣- ص ٤٢٦ - الحجة - لابن خالويه ص ١٠٥ - الحجة لأبي زرعة - ص ١٥٢ - السبعة فى القراءات - لابن مجاهد - ص ١٩٦ - الكشاف للزمخشري : ج : ١- ص١٧١ - النشر فى القراءات العشر - لابن الجزري - ج : ٢- ص ٢٣٧ - معجم القراءات القرآنية - ج : ١- ص٢٢١.

٣ - سورة الحديد - الآية (٢٥).

كل نبي كتاب مفرد، بل في الأنبياء من استعبد بكتاب الله من يقدمه، وقوله: ﴿ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ﴾، أي : يقولون ذلك، ولم يعن أنهم يتفوهون به فقط، بل يعتقدون ويتحرون مقتضاه بخلاف اليهود والنصارى، حيث آمنوا ببعض، وكفروا ببعض، ولأن تابع الحق والحقيقه هو الذي يعرفه، ومن عرفه تبعه حيث وجده، فالحق من حيثما هو حق لا يخالف بعضه بعضاً، وإنما الباطل هو الذي يتناقض ولا يتطابق، ومن هذا الوجه قال:﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا ﴾[١]..

وإذا كانت الأنبياء على الحق، فلا يعاند بعضهم بعضاً، إذ لا معاندة في الحق..

إن قيل: لم قال: ﴿ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ﴾ وبين تستعمل في شيئين فصاعداً، فكيف قال: ﴿ بَيْنَ أَحَدٍ ﴾؟ أيتناول الجنس على طريق الجملة والتفصيل ولذلك لا يستعمل إلا في الاستفهام والنفي فنبه بذكره هاهنا أنه لا يفرق بينهم لاعلى طريق الجملة وعلى طريق التفصيل..

وقال في الكفار: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ ﴾[٢] الآية..

وقوله : ﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ أي سمعنا قولك، وأطعنا أمرك بخلاف من قال: ﴿ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾[٣]، وقوله: ﴿ غُفْرَانَكَ ﴾ أي: "أنزل غفرانك"، أو نسألك غفرانك، واغفر لنا غفرانك، وكل ذلك متقارب، "وإليك المصير" اعتراف بما وعدهم بقوله: ﴿ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ ﴾[٤].

١- سورة النساء : الآية (٨٢).

٢ - سورة النساء - الآية : (١٥٠).

٣ - سورة البقرة - الآية : (٩٣) ، وسورة النساء - الآية : (٤٦) .

٤- سورة هود : الآية (١٢٣).

قوله - عز وجل :

﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ الآية :(٢٨٦) - سورة البقرة .

القدرة والجهد والاستطاعة قد تقدم الكلام فيها، وكسبت واكتسبت قد يجريان مجرى واحداً، ويقال لما أخذته لنفسك ولغيرك كسبت، ولهذا قد يُعَدَّى إلى مفعولين، فيقال: "**كسبت فلاناً كذا**"، واستقبح: "**اكتسبته كذا**"، والاكتساب لا يقال إلا لما استفدته لنفسك، فكل إكتساب كسب، وليس كل كسب اكتساباً، ولهذا نظائر في اللغة نحو: "**خبر، وطبخ، وشوى**" إذا فعل ذلك لنفسه أو فعله لغيره، ويقال: "**اختبز، واطبخ، واشتوى**" إذا فعل ذلك لنفسه..

والإصر: الثقل، وأصله من أصره إذا عطفه، وقيل للعهد والرحم وكل ما يوجب عليك حماية ما إصر، وكل آصر عاطف لمن مر به، والإصار كساءٌ يجعل فيه حشيش، فيثنى على السنام[1] بين الله تعالى أنه كلف عبده دون ما تنوء به قدرته، فإن الوسع هو القدرة على أكثر من قدر المكلف، وقوله: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ قيل: عنى بالكسب ما عمله من الخير، وبالاكتساب ما عمله من الشر، وقيل: عنى بالكسب ما يفعله الإنسان من فعل خير وجلْب نفع من حيثما يجوز إلى غيره، والاكتساب ما يحصله لنفسه من نفع يجوز تناوله، فنبه أن ما يفعله الإنسان من نفع غيره فله الثواب، وليس عليه فيه الحساب، وأن ما يحصله لنفسه وإن كان متناولاً من حيثما يجوز على الوجه الذي يجوز، فعليه فيه الحساب يؤيده ما ذكرنا من الفرق بين كسب واكتسب، وقوله: ﴿لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾، فإنه عنى النسيان الذي هو الترك أو ذهاب الذكر الذي الإنسان سببه لقلة مراعاته، وكذا الخطأ إنما أراد به ما يكون سبب حصوله، وقد تقدم الكلام في حقيقتهما، وقوله: ﴿مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ يعني: ما يثقل

---

١ - قال الراغب في مفردات ألفاظ القرآن. الإصر: عقد الشئ وحبسه بقهره، يقال: أصرته، فهو مأصور، والمأصر والمأصر: محبس السفينة، قال الله تعالى: (ويضع عنهم اصرهم) (الأعراف الآية : ١٥٧) أي الأمور التي تثبطهم وتقيدهم عن الخيرات، وعن الوصول إلى الثواب، والأيصر: كساء يشد فيه الحشيش فيثنى على السنام ليمكن ركوبه. مفردات ألفاظ القرآن- ص٧٨.

حمله من الأمور الشاقة التي كلف كثيراً منها بني إسرائيل، كقتل الأنفس، وقال بعضهم: يجوز أن يستعبدنا الله تعالى سؤاله أن لا يفعل ما يعلم أنه لا يفعله..

إن قيل: ما الفرق بين العفو والغفران والرحمة؟ وما وجه هذه الترتيب؟

قيل: العفو: إزالة الذنب بترك عقوبته، والغفران ستر الذنوب، وكشف الإحسان الذي غطى به، والرحمة إفاضة الإحسان عليه، وقد علم أن الثاني أبلغ من الأول، والثالث أبلغ من الثاني...

وقوله: ﴿ **أَنتَ مَوْلَانَا** ﴾ كقوله: ﴿ **اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا** ﴾[1]، وقوله: ﴿ **فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ** ﴾، فنصرة الله للمؤمنين على وجهين، أحدهما: من حث الحجة، وقد فعل.

والثاني: من المداولة التي قال: ﴿ **وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ** ﴾[2]، وهذا هو المسؤول أن يجعل لنا عليهم دولة، ولا يجعل لهم علينا دولة، ووجه ثالث، وهو أن الله قد نصر المؤمنين كافة، حجة وملجأ، ومعونةً وظهوراً على الدين كله، لكن قد يلحق المسلم غلبةً من جهة كافر، وهو المشار إليه بقول أمير المؤمنين -رضي الله عنه: «**إن للباطل جولة ثم يضمحل**»، فكأن الاستعاذة بالله أن يقينا من هذه الجولة من الكفار.. هـ.هـ.هـ.

"تم بحمد الله تفسير سورة البقرة"

---

١ - سورة البقرة : الآية (٢٥٧).

٢ - سورة آل عمران : الآية (١٤٠).

فهرس الآيات القرآنية

الآيـــــة	رقم الآيـة	رقم الصفحة
﴿ألم تر الى الذين بدلوا نعمت الله كفرا وأحلوا قومهم دار البـــوار﴾	٢٨	٨٩
﴿ولاخلال﴾	٣١	٥٢١
﴿وإن تعدوا نعمت الله لا تحصـــوها﴾	٣٤	٣٤٥ ، ٦٤
﴿واجنبنى وبني أن نعبد الأصنام﴾	٣٥	٣٢.
﴿فمن تبعني فانه مني﴾	٣٦	١٨٤
﴿وأفئدتهـــم هواء﴾	٤٣	٤١٩
(١٥) ﴿سورة الحجر﴾		
﴿ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين﴾	٢	٢٥٢
﴿إلا عبادك منهم المخلصين﴾	٤.	٥٨
﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾	٤٢	٥٧٩،٣٩٦،٥٨
﴿نبئ عبـــادى أني أنا الغفور الرحيم﴾	٤٩	١٤٢
﴿فوربك لنسألنهم أجمعين - عما كانوا يعملون﴾	٩٣،٩٢	٢٣
(١٦) ﴿سورة النحل﴾		
﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾	١٨	٣٤٥ ،٦٤
﴿أســـاطير الأولين﴾	٢٤	٤٣
﴿ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغـير علـــم﴾	٢٥	١٧.
﴿فأتى الله بنيانهم من القواعد﴾	٢٦	٤٣٤

رقم الصفحة	رقم الآيـة	الآيـــــــــة
١٤ ، ٦٠	٥٠	﴿قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾
١٨٧	٧٧	﴿فاضرب لهم طريقا في البحر يبسا﴾
٩٧	٩٧	﴿وانظر الى إلهك الذي ظلت عليه عاكفا﴾
١٤٨	١٠٨	﴿وخشعت الأصوات للرحمن﴾
١٨٢	١٠٩	﴿يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضى له قولا﴾
٤٤	١١٣	﴿قرءانا عربيا﴾
٢٣٩	١١٤	﴿ولا تعجل بالقرءان من قبل أن يقضى إليك وحيه﴾
١٥٤	١١٥	﴿ولقد عهدنا الى ءادم من قبل فنسى﴾
٥٧٣	١١٨	﴿إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى﴾
١٥٦	١٢٠	﴿هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى﴾
١٧٥	١٢٦	﴿قال كذلك أتتك ءاياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى﴾
٤٤	١٣٣	﴿أولم تأتهم بينة ما في الصحف الأولى﴾
		(٢١) ﴿سورة الأنبياء﴾
١٨٢، ٥٢٧	٢٨	﴿ولا يشفعون إلا لمن ارتضى﴾
١٨٥، ٣٥٢	٣٥	﴿ونبلوكم بالشر والخير فتنة﴾
٥٨٧	٤٧	﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة﴾
١٩١	٤٨	﴿ولقد ءاتينا موسى وهارون الفرقان وضياء وذكرا للمتقين﴾
٨٠	٤٩	﴿الذين يخشون ربهم بالغيب﴾
١٧	٦٣	﴿قال بل فعله كبيرهـــم هذا﴾
٦١، ٦٢	٧٣	﴿وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا﴾
٩	٩٦	﴿حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون﴾

(٤٢) ﴿ سورة الشورى ﴾

فهـــرس
الأحـــاديث الـنبـــوية

فهرس الأبيات الشعرية

(فهــرس الأبيات الشعرية)

م	البيت		قائله	الصفحة
	{حـــرف الألـــف}			
١	إذا أثنى عليك المرء يوماً	كفاه من تعرضك الثناء	أمية بن أبى الصلت	٣٣٦
٢	وإنما أمهات الناس من أوعية	مستودعات وللأحساب آباءُ	–	٤٨٢
٣	فليس الرزق عن طلب حثيث	ولكن ألق دلوك فى الدلاءِ	أبو الأسود	٤٠٠
٤	ليس من مات فاستراح بميت	إنما الميت ميت الأحياءِ	عدي بن علاء	٥٠٠
٥	ليس يعطيك للرجاء ولا للخو	ف ولكن يلذ طعم العطاءِ	بشار بن برد	٣٧٧
٦	والحوت يسبح فى السما	ء كسبحه في الماء	ابن هرمة	٤١
	{حـــرف البـــاء}			
٧	يا مرسل الريح جنوبا وصبا	إن غضبت قيس فزدها غضباً	الأخطل	٦٩
٨	وإن أتوك فقالوا إنها نصف	فإن أمثل نصفيها الذى ذهبا	–	٢٢٥
٩	قوم إذا عقدوا عقداً لجارهم	شدوا العناج وشدوا فوقه الكربا	الحطيئة	٤٣٢
١٠	حبانا به جدنا والإله	وضرب لنا جذم صائبُ	–	٢٠
١١	وقد جعلت قلوص بَني سهيل	من الأكوار مرتعها قريبُ	رجل بن بحتر	٤١٣
١٢	أما عظامها فبيض	وأما جلدها فصليب	علقمة	٩١
١٣	فلابنة حطان بن عوف منازل	كما رقش العنوان فى الرق كاتب	الاخنس بن شهاب التغلبي	١٠٨
١٤	تخف بهم بيض الوجوه وعصبة	كراسى بالأحداث حين تنوبُ	–	٥٢٤
١٥	وما مثله فى الناس إلا مملكاً	أبو أمه حي وأبوه يقاربهُ	الفرزدق	٦
١٦	رعته الفيافي بعدما كان حقبة	رعاها وماء الروض ينهل ساكبهْ	أبو تمام	٦٣
١٧	أخوك الذى إن ربته قال إنما	أريت وإن عاتبته لان جانبه	بشار بن برد	٧٥
١٨	وما الحسب الموروث لادر دره	بمحتسب إلا بآخر مكتسبْ	ابن الرومى	٥٠٨
١٩	إذا الغصن لم يثمر وإن كان شعبة	من الثمرات اعتده الناس في الحطب	ابن الرومي	٥٠٨
٢٠	تخرصاً وأحاديثا ملفقة	ليست بنبع إذا عدت ولاغرب	أبو تمام	٩١
٢١	من كان فى الدنيا بغير حبيب	فحياته فيها حياة غريب	ديك الجن	٩٢

م	البيت		قائله	الصفحة
٦١	فإذا هم طعموا فألأم طاعم	وإذا هم جاعوا فشر جياع	رجل جاهلى	١٧٠
٦٢	قالت ولم تصد لقيل الخناهلا	فقد أبلغت إسماعى	—	٢١٧
٦٣	وخيل قد دلفت لها بخيل	تحية بينهم ضربٌ وجميعُ	عمرو بن معد يكرب	٦١٠
	حرف القاف			
٦٤	عمرى لقد نصح الزمان وإنه	لمن العجائب ناصح لايشفقُ	أبو تمام	٣٦٦
٦٥	وإنى فى بثى ثنائك جاهداً	وقد علمت أضعاف ذاك الخلائقُ	—	٥١٧
٦٦	كمن قال إن الثلج أبيض بارد	وأن شهاب النار أحمر حارقُ	—	٥١٧
٦٧	وهذا وهذا بنيان كلاهما	لمن هو رائى ولمن هو ذائق	—	٥١٦
٦٨	إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت	له من عدو فى ثياب صديق	أبو نواس	٣٦٦
٦٩	لأن أرجى عند العرى بالخلق	وأجترى من كثير الزاد العلق	محمد بن بشير	٥٥٤
٧٠	خير وأكرم لي من أن ترى منن	معقودة للئام الناس فى عنقى	محمد بن بشير	٥٥٤
	حرف الكاف			
٧١	ويقبح من سؤال الشئ عندى	فتفعله فيحسن منك ذاكا	أبو نواس	٩٨
٧٢	نالوا السماء فأمسكوا بعنانها	حتي إذا كانوا هناك استمسكوا	—	١١٢
٧٣	فتي ملك اللذات أن تعتبدنه	وما كل ذى لب لهن بمالك	أبو العتاهية	٣١٠
	حرف اللام			
٧٤	قد تخللت مسلك الروح مني	وذا سُمي الخليل خليلا	بشار	٥١٠
٧٥	وجاعل الشمس مصراً لاخفاء به	بين النهار وبين الليل قد فصلا	عدي	٥١٢
٧٦	أصبحت لا رجلاً يغدو لمطلبه	ولاقعيدة بيت تحسن العملا	أبو نصر بن نباته	٤٦٧
٧٧	ولم أر كالمعروف أما مذاقه	فحلو وأما وجهه فجميلُ	أبو تمام	٤٧١
٧٨	جزى الله بالخيرات ما فعلا بكم	وأبلاها خير البلاء الذي يبلوُ	زهير بن سلمى	١٨٥
٧٩	أرى العمر كنزاً ناقصاً كل ليله	وما تنقص الأيام والدهر ينقلُ	طرفه بن العبد	٢٦٩
٨٠	ليس العطاء من الفضول سماحة	حتي تجود وما لديك قليلُ	المقتنع الكندي	٥٥٠

م	البيت		قائله	الصفحة
٨١	ماروضة من رياض الخزن معشبة	خضراء جاد عليها مسبل هطلُ	الأعشى	٥٠٨
٨٢	ربما تجزع النفوس من الأمـ	ـره له فرجه كحل العقالِ	آمية بن أبى الصلت	١٢٨
٨٣	لايطمع المرء أن تجتاب غمرته	بالقل إن له جسراً من العمل	أبو تمام	٥٨٣
٨٤	إن التى ناولتنى فرددتها	قُتلَت قُتلت ، فهاتها لم تقتلِ	حسان بن ثابت	١١٣
٨٥	وما المرء مادامت حشاشة نفسه	بمدرك أطراف الخطوب ولا آل	امريء القيس	١
٨٦	جهلت ولم تعلم بأنك جاهل	وذاك لعمرى من تمام الجهالةِ	–	١٠٢
	حـــــرف المـــيم			
٨٧	ثقال الجفان والحلوم رحاهم	رحي الماء يكتالون كيلا عذمزما	–	٤١
٨٨	لايكتمن ذاك الطبيبا	ولا الصديق سرك المكتوما	–	٥٢٠
٨٩	لعلى إن مالت بي الريح ميلة	علي بن أبي دبان أن يتندما	ثابت قطنة	٤٨٦
٩٠	تسلف الجار شرباً وهى حائمة	ولا يبيت على أعناقهم قسمُ	–	٤٦٠
٩١	إذا كان الشباب يعد شيباً	وهماً فالحياة هي الحمام	المتنبى	٣٥١
٩٢	لاتنه عن خلق وتأتى مثلة	عار عليك إذا فعلت عظيمُ	أبو الأسود	١٧٦
٩٣	ترى الأرض منا بالفضاء مريضة	معضلة منا بجمع عرمرم	أوس	٤٧٨
٩٤	ودع عنك عمراً إن عمراً مسالم	وهل بطن عمرو غير سبر لمطعم	–	٣١٣
٩٥	أعطيت مالم تعطه ولو انقضى	حسن اللقاء حرمت من لم تحرم	أبو تمام	٢١
٩٦	الريح يبكى شجوها	والبرق يلمع فى غمامه	يزيد بن مفرع	٣٣
٩٧	أناة فإن لم يغن عقب بعدها	وعيداً فإن لم تغن أغنت عزائمه	–	٤٠٤
٩٨	فسقى ديارك غير مفسدها	صوب الربيع وديمة تهمى	طرفه بن العبد	١٠٨
٩٩	رمتني بنات الدهر من حيث لا أرى	فكيف بمن يرمي وليس برامى	عمرو بن قتيبه	٥٠٢
١٠٠	إذا أيقظتك حروب العدا	فنبه لها عمراً ثم نمْ	بشار بن برد	٥٢٤
	حـــــرف النـــون			
١٠١	ألا لا يجهلن أحد علينا	فنجهل فوق جهل الجاهلينا	عمرو بن كلثوم	٤٠٩

(فهـــرس أنصاف الأبيات)

أ - الأعجـــاز

م	العجـــز	قائلـه	الصفحة
	[حـــرف الحــاء]		
١	وكنت في نعمائه سابحا		٥٤٢
٢	إذا هبت لقارئها الرياح	تأبط شراً	٤٦٦
	[حـــرف الـــدال]		
٣	ونجعل نجوانا نجاة من العدا	–	١٨٣
٤	خذها خذيف فأنت السيد الصمد	–	٩٦
٥	والجود بالنفس أقصى غاية الجود	مسلم بن الوليد	٨٢
٦	وتقيم سالفة العدو الأصيد	–	٤٢٧
٧	وجرح للسان كجرح اليد	امرؤ القيس	١٦٠
	[حـــرف الـــراء]		
٨	وفلاح يسوق لها حمارا	عمرو بن أحمد الباهلي	٨٦
٩	كما ألغيت في الدية الحوارا	ذو الرمة	٤٦١
١٠	ويوماً شهدناه سليماً وعامراً	–	١٨٢
١١	ونرجو النجاة بعد عاد وحميرا	لبيد	٨٦
١٢	عطاياه يحصى قبل إحصائها القطرُ	دعبل الخزاعي	٤٣٨
١٣	وهم بغيب وفي عمياء ما شعروا	الأخطل	٢٣
١٤	فإن جلهم أوكلهم بقرُ	أبو تمام	٢٦٥
١٥	وما ذنبه إن عافت الماء باقرُه	الأعشى الكبير	٢٢٢
١٦	داهية قد صغرت من الكبر	النابغة الذبياني	٤٨٩
١٧	ألقت ذكاء يمينها في كافر	ثعلبة بن صغير المازني	٨٧
١٨	ترى الأكم فيه سجداً للحوافر	زيد الخيل	١٤٨
١٩	كالكرم إذا نادى من الكافور	–	٩٧

م	العجـــز	قائلـه	الصفحة
	[حــــرف العـــين]		
٢٠	وبعد عطائك المائة الرتاعا	القطامي	٤٧
٢١	له من عدو مثل ذلك شافعُ	النابغة	١٨١
٢٢	تحية بينهم ضرب وجيع	عمرو بن معد يكرب	١٢٢
٢٣	لقد نطقت بطلاً على الأفارع	النابغة الذبياني	١٧٢
	[حــــرف القــــاف]		
٢٤	قالا جناحاه لرجليه الحقا	-	٢٦٢
٢٥	نجوت وهذا تحملين طليق	يزيد من مفرغ	٢٥٠
٢٦	ألقيت ليلة خبت الرهط الرواقي	تأبط شراً	١٨٣
٢٧	واغترفي من تربها الأدق	-	٥٥٥
	[حــــرف الكــــاف]		
٢٨	كنبذك نعلاً أخلقت من نعالكا	أبو الأسود الدؤلي	٢٧٢
٢٩	يبرك الناس ويفخرونكا	رؤبة بن العجاج	١٧٤
	[حــــرف اللام]		
٣٠	ويرى فيحسبه القتيل قتيلا	-	٤٢١
٣١	لا يستطيع بها الفراد مقيلا	الراعي النميري	٤٥٦
٣٢	كما قسم الترب الصبي المقابل	-	٥٥٥
٣٣	دويهية تصغر منها الأنامل	لبيد	٤٨٩
٣٤	كأنك تعطيه الذي أنت سائله	زهير بن أبي سلمى	١٩٠
٣٥	إنما الدنيا كظل زائل	ابن الزيات	٦٤
٣٦	ولابد دون الشهد من إبر النحل	المتنبي	٢٤٣
٣٧	أقر كما قر الخليلة للبعل	-	١٥٠

م	العجــز	قائلــه	الصفحة
	[حـــرف الميـــم]		
٣٨	ومن يغو لا يعدم على الغي لائما	المرقش الأصغر	٥٧٢
٣٩	فواحدهم في الورى عالم	–	١٨٠
٤٠	وما ليل المطي بنائم	جرير	٢١
٤١	خلاص الخمر من نسج الفدام	المتنبي	٢٦٤
٤٢	والكلم الأصيل كأرغب الكلم	طرفة بن العبد	١٦٠
	[حـــرف النـــون]		
٤٣	فقلنا أحسني ملأ جهينا	ابن عبد العزيز الجهيني	٥٠٥
٤٤	فنجهل فوق جهل الجاهلينا	عمرو بن كلثوم	٩٦
٤٥	إذا الناس ناس والزمان زمان	عرقلة الكلبي	١٠١
٤٦	كأن الخلق في تمثال إنسان	أبو نواس	٤٢١
	[حـــرف الهـــاء]		
٤٧	وكيف أذكر من لست أنساه	أحد الصوفية	٣٤٤

(فهــــرس أنصاف الأبيات)

ب - الصـــدور

فهـــرس الأمـــثال

فهـــرس الأعـــلام

فهرس الأعلام

تم بحمد الله تعالى